الفتن والمحن بين يدي السّاعة

في ضوء الكتاب والسُّنَّة

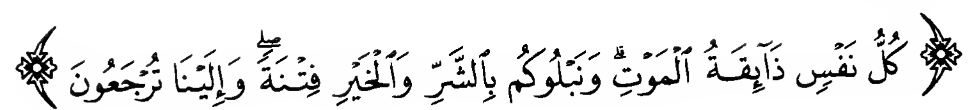
الدكتورة
عفاف عبد الغفور حميد
جامعة العلوم الإسلامية بماليزيا
(KUIM)



دار عمار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله عز وجل :



صدق الله العظيم

(الأنبياء: ٣٥)

الإهداء

إِلى: وَالدي الغَالي (رحمه الله) الذي غَرسَ فيَّ حُبَّ كِتابِ اللهِ الخَـالد.

وإِلى: زوجي الذي نَمىَّ هَذا الغَرسَ ورَعاه .

وإِلى: كل من فُتن وامتُحن مِن المؤمنين ،

فَثبتَ واحتَسبَ ابتغاءَ مَرضاةِ الله .

الفتن والمحن بين يدي الساعة

في ضوء الكتاب والسنة

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



دار عمار للنشر والتوزيع
عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

مُقَدِّمَة

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونستعصم به من المحن ونلوذ به من الفتن، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له. وأصلي وأسلم على رسوله الكريم الذي ابتلي فصبر وشكر، وجاهد في الله حق جهاده حتى انتصر، وعلى آله وصحابته الأبرار المصدقين به والمؤيدين له ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد؛

فقد جعل الله الحياة دار ابتلاء وامتحان فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1]، وبين الله تعالى سبل الخير لنتبعها، وسبل الشر لنتجنبها، وحذرنا من التقاعس والتقصير كي لا تعم الفتنة فقال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[2]، فالفتنة تعم المسيء وغيره إذا لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، كما حذر من الغفلة التي تصيب بني آدم في تجاهل عدوهم الأول فقال: ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ...﴾[3] دلالة على أن الفتنة كانت مع ابن آدم منذ بدء الخليقة..

ولما كان الإسلام خاتم الرسالات ومحمد خاتم الأنبياء، المبعوث بين يدي الساعة لم يترك ﷺ خيراً إلا دلَّ أمته عليه، ولاشراً إلا حذر أمته منه، ولابد لهذه الأمة التي أخرجت بين يدي الساعة أن تظهر فيها علامات الساعة -لا محالة- لذا أخبرنا الرسول ﷺ بما سيكون منذ بعثه إلى يوم القيامة حيث كان هو شرطاً من أشراطها بنص القرآن ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾[4].

وقد وقع أكثر ما أخبر به الرسول ﷺ وهو من معجزاته، ولم يبق من الأشراط الصغرى

---

(١) الكهف ١٨: ٧.

(٢) الأنفال: ٨: ٢٥.

(٣) الأعراف ٧: ٢٧.

(٤) محمد ٤٧: ١٤.

إلا القليل وستعقبها الآيات الكبرى كما صرح بذلك العلماء.

وقام النبي ﷺ ببيان الأشراط المجملة في القرآن تنبيهاً من الغفلة عن اليوم الآخر، وجعل لها علامات تدل على تحققها ليزداد المؤمنون بها إيماناً ويتوب الغـافلون قبـل فـوات الأوان، وانقضاء الأجل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِـي جَنـبِ اللَّـهِ وَإِن كُنـتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ۞أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ۞أَوْ تَقُـولَ حِـينَ تَـرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٥).

ولا بد للعلماء بعد رسول اللهﷺمن التذكير الدائم بهذه الأشراط، مما دعى الـبرزنجي إلى تسمية كتابه **الإشاعة لأشـراط السـاعة**، وقـال: «وكـان حقـاً علـى كـل عـالم أن يشـيع أشراطها، ويبث الأحاديث والأخبار الواردة فيها بين الأنــام، ويرددهـا مـرة بعـد مـرة علـى العوام، فعسى أن ينتهوا عن بعض الذنوب وتلين القلوب وينتهوا عن سنة الغفلــة ويغتنمـوا المهلة قبل الوهلة»(٦).

ولما كانت هذه الأشراط تخص حياة المسلمين فلابد من ربطهــا بمـاضي الأمـة وحاضرهـا وخصوصاً عصرنا الراهن حيث تكـالب الأعـداء كمـا تنبـأ بذلـك الرسـول ﷺ لقولـه: «بـدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً»، مما أدى إلى تدهور حالة العالم الإسلامي وحلول المآسي فيــه من كل جانب...

ولذا تأتي أهمية هذا البحث في أوج محنة المسلمين وفتنهم، فلابد من تعريفهم بأنواع تلك الفتن ليحذروها، ولابد من تشخيص المرض لعلاجه وفق توجيهات الرســول ﷺ في وسـائل النجاة من الفتن، وأهمها الصبر والاحتساب مـع الثقـة باللـه في تـأييده لهـم، ويعـود سـبب اختياري للموضوع إلى كوننــا نعيـش في ظـرف فتنـة ومحنـة لـم يسـبق لهـا مثيـل في تـاريخ المسلمين، عصرتجمع فيها الأكلة على أمة الإسلام، حتى أضحـى المتمسـك بدينـه كالقـابض على الجمر، فرغبت في الإسهام ببحث أسباب تلك الفتنـة قديمـاً وحديثـاً، ومعرفـة حكمهـا وفوائدها وسبل النجاة منها...

ومما شجعني على ذلك أنني لم أجد في الدراسات الحديثة من يربط بـين أشـراط السـاعة والواقع، وتحليل أسباب تلك الفتن في ضوء السنن الإلهيـة، أو ربـط هـذه الأشـراط بالأيـام

---

(٥) الزمر ٣٩: ٥٦-٥٨.

(٦) البرزنجي، محمد بن عبدالرسول الحسيني الشهرزوري، الإشاعة لأشراط الساعة، تحقيـق موفـق فـوزي الجبر، ط: دارالهجرة، بيروت، ١٩٩٣، ص١٤.

المقبلة كدراسات مستقبلية في ضوء تلك النصوص الثمينة كتاباً وسنة، والاستفادة منها، في الوقت الذي سبقنا فيه الغرب إلى تلك الدراسات، في ضوء نظريات وتخمينات ظنية، وأنشأ لذلك المعاهد المتخصصة، والمسلمون أولى بذلك لوجود الوحي الصادق الناطق بما سيكون في المستقبل، مع ما تضمنه من توجيهات وحلول تناسب ذلك.

وقد ألف العلماء قديماً في مجال أشراط الساعة وعلاماتها كتباً على حدة، ودونت الفتن في سياق حوادث التاريخ في مصادرها ومصنفاتها،وهناك من ألف حديثاً في السنن الإلهية وخصوصاً الاجتماعية، فكان هدف هذا البحث الربط بين هذه العناصر مجتمعة.

الدراسات السابقة:

وأهم المصادر القديمة التي عالجت هذا الموضوع:

١ - **الفتن** للحافظ نُعيم بن حماد الخزاعي (ت: ٢٢٨هـ).

٢ - **السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها** لأبي عمرو عثمان بن سعيد المقرئ الداني (ت:٤٤٤هـ) في (١١٢) باباً، ويضم ٧٢٥ حديثاً وأثراً.

٣ - **النهاية في الفتن والملاحم** للحافظ ابن كثير (ت:٧٧٤هـ)في جزأين.

٤ - **جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى** لأبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي (ت:٨٥٧هـ) في ثلاثة أجزاء.

٥- **الإشاعة لأشراط الساعة** للشريف محمد بن رسول الحسيني البرزنجي (ت:١١٠٣هـ).

أما الدراسات الحديثة فأبرزها:

١- **أشراط الساعة** ليوسف بن عبدالله الوابل، وقد تضمن ذكر جميع أشراط الساعة الصغرى والكبرى، ولكنه جعل الآيات الكبرى منفردة وسماها الأشراط الكبرى، وجعل كل ما سواها أشراطاً صغرى دون فصل بين ما مضى وانتهى، أو بدأ ولا زال مستمراً، أو ما لم يحدث بعد، فلذلك أدرجت مع الصغرى علامات كبرى تقع خلال الآيات.

٢- **القيامة الصغرى** لعمر سليمان الأشقر، وهو في خمسة فصول، كان أولها عن وقت الساعة، والثاني عن العلامات التي وقعت، والثالث عن العلامات المستمرة والمتكرر وقوعها، والرابع التي لم تقع بعد، منها المهدي ثم الخامس عن العلامات الكبرى، ولم يفرق كذلك بين العلامة والآية، وفصّل في بعضها وأوجز في بعضها الآخر.

٣- **فقد جاء أشراطها** لمحمود عطية محمد علي، تضمن جميع الأشراط ولكنه قسمها على أساس علامات سماوية وأخرى أرضية، فلذلك اختلطت الآيات بالعلامات، واقتضى أن

تذكر كبرى الآيات مثل نزول عيسى عليه السلام وطلوع الشمس من مغربها في بداية البحث باعتبارها سماوية مما يضيع فكرة التدرج للقارئ للعلامات في كونها صغرى مضت أو مستمرة أو لم تحدث، ثم العلامات الكبرى والآيات.

٤- **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد** لعبدالكريم زيدان، اقتصر على ذكر هذه السنن في موضوعات مختلفة دون ربطها بأشراط الساعة أو الواقع.

٥- **الابتلاء والمحن في الدعوات** لمحمد عبدالقادر أبوفارس، اقتصر على بيان جانب واحد، وهو الفتن الواقعة للدعاة وسبل مواجهتها.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن أجعله في مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب، في كل باب فصلان، ثم الخاتمة.

بينت في التمهيد أن الفتن والمحن من السنن الإلهية الكونية، وقد ضم ثلاثة مباحث، تناولت في الأول معنى السنن الكونية ومفهومها وذلك ببيان معنى الفتنة والمحنة وما في معناهما في اللغة والقرآن الكريم، واستعرضت في المبحث الثاني الفتن والمحن في تاريخ الأنبياء (عليهم السلام)،في مواجهتهم لأممهم في دعوتهم وبشكل خاص ما واجهه خاتم الأنبياء محمد ﷺ من فتن ومحن في ا لدعوة والجهاد، وكشفت في المبحث الثالث عن طبيعة هذه الفتن والمحن وأنها عامة وخاصة، وفي الشر والخير وهدفها التمحيص.

وجاء **الباب الأول** «أنواع الفتن والمحن في تاريخ المسلمين» في فصلين:

الفصل الأول يضم مبحثين، تناولت في الأول منهما أنواع **الفتن السياسية** أبتدأ من مشكلة الحكم والسلطة وما يتبعها، إلى إثارة الحروب الداخلية والخارجية وآثارها. وفي المبحث الثاني «**الفتن الاقتصادية**» بينت معنى الاقتصاد الإسلامي وخصائصه، ووقفت على أبرز أنواع الفتن في هذا المجال، وهي فتنة الفقر، والغنى والترف، وسوء استخدام المال كسباً وإنفاقاً، مع بيان أثر كل واحد على فتنة الأفراد والمجتمعات.

أما **الفصل الثاني «الفتن الاجتماعية والفكرية»** فجعلته في مبحثين: **الأول في الفتن الاجتماعية**، قدمت له بلمحة عن السنن النفسية والاجتماعية ثم تطرقت إلى أشكال هذه الفتن فكانت في خمسة أنواع أساسية وهي: حب الدنيا، والأمراض القلبية، والأمراض الأخلاقية، وآفات اللسان، وآخرها العادات الاجتماعية، مع بيان أثرها على الفرد والمجتمع،

ثم أتبعتها ببيان السنن النفسية والاجتماعية في القرآن، وفي المبحث الثاني حاولت استقصاء **الفتن الفكرية** وحصرها بتركيز - لسعتها - في أربع نقاط أساسية وهي: ظهور البدع، والترجمة والفلسفة، والانتحال والوضع في الحديث والتفسير، ثم فتنة الحركات الفكرية الهدامة الداخلية والخارجية.

ثم جاء **الباب الثاني** وهو «الفتن والمحن في آخر الزمان وعلامات الساعة» في فصلين، وبدأته بمدخل لعلامات الساعة تحدثت فيه عن أهمية الإيمان باليوم الآخر والساعة وعلاماتها ثم معنى الساعة والعلامة وأسمائها، وموضوعات أحاديث العلامات، ورجحت حجية أحاديث الآحاد في العقائد، ثم المنهج الذي اخترته في تقسيم العلامات.

أما **الفصل الأول** من هذا الباب فقد خصصته لـ: «علامات الساعة الصغرى وأشراطها» وجعلته في ثلاثة مباحث: الأول عن **العلامات التي مضت**، والثاني عن التي **ظهرت ولا زالت مستمرة**، وهي كثيرة متشعبة، ركزتها خشية الإطالة في إحدى وعشرين علامة، وتضمن المبحث الثالث **العلامات الصغرى التي لم تظهر بعد**، وهي قليلة بالنسبة لغيرها، وربما ظهرت بوادر بعضها مما يشير إلى قرب ظهور الآيات الكبرى.

أما **الفصل الثاني** فقد تناول أشراط الساعة وآياتها الكبرى وجاء في مبحثين، **المبحث الأول**: أفردت فيه **الأشراط والعلامات** التي تقع خلال الآيات الكبرى، وأولها ظهور المهدي، وبين يديه كثرة الزلازل، وخروج السفياني، ثم الملحمة الكبرى في الأرض المقدسة حول بيت المقدس، وآخرها الانتصار وفتح القسطنطينية الكبرى (روما)، ثم بقية العلامات كخراب المدينة، وهدم الكعبة والريح الطيبة لفناء الأخيار ثم عودة البشرية للجاهلية. أما **المبحث الثاني**: فقد خصصته **للآيات العشر الكبرى**، ومهدت لها ببيان آراء العلماء في ترتيبها لعدم وجود نص يثبت ذلك، وتطرقت لكونها متتابعة ومتلاحقة في وقوعها اعتماداً على ما ورد من الأحاديث. ثم اجتهدت في ترتيب هذه الآيات ورأيت أن أبدأها بالخسوفات الثلاثة بعد زلزلة تعم الأرض، في المشرق والمغرب والجزيرة، وسوف تحدث هذه الخسوفات انقلاباً على الأرض وتغييراً لقوى الصراع، ومنها عودة الخلافة الإسلامية إلى الأرض المقدسة، أما ثاني هذه الآيات فهو ظهور الدجال إثر غضبة يغضبها، ألا وهي الفتح الأكبر للقسطنطينية «روما»، ثم عرضت بإيجاز لنهاية الدجال على يد عيسى عليه السلام.

وأتبعته بالآية الآخرى «نزول عيسى عليه السلام من السماء»، وعرضت لمهماته على الأرض

بعد نزوله، وأولها قتل الدجال ثم الدعاء على قوم يأجوج ومأجوج، وهي آية أرضية أخرى، والحكم على الأرض في ضوء الشريعة الإسلامية، وحجه للبيت الحرام، والعيش الآمن في زمنه.

ثم تأتي الآية السماوية الأخرى وهي «طلوع الشمس من مغربها» بتغيير أحوال العالم العلوي، والتي يلجئ تحولها الكافر والعاصي إلى التوبة، ولكن هيهات وقد أغلق باب التوبة فلن يقبل العمل بعد وقت التكليف..

ثم عرجت للآية الأخرى «الدابة» التي تميز المؤمن من الكافر، ثم الدخان، الذي يتأذى منه الكفار ويصيب المؤمن مثل الزكمة تتبعها الريح الطيبة لفناء الأخيار وبقاء الأشرار وعودتهم إلى الجاهلية ثم الآية الأخيرة وهي «النار» التي تحشر الناس إلى محشرهم.

أما **الباب الثالث**: «**الفتن والمحن في واقع المسلمين وواجبهم نحوها**» فقد تضمن فصلين كذلك:

الفصل الأول عن جذور الفتنة المعاصرة، عرضت فيه خلال المبحث الأول **خطط أعداء الإسلام وآثارها** في إسقاط الخلافة وما تبعها من دخول الاستعمار وقيام دولة إسرائيل، وتجزأة البلاد الإسلامية على أسس مختلفة، مع مرافقة الغزو الفكري لذلك واستمراره إلى يومنا هذا، وتمثل ذلك في حركتي الاستشراق والتنصير والمذاهب الأخرى، وبينت آثار ذلك على جوانب الحياة المختلفة ومظاهرها...

أما المبحث الثاني فقد عرضت فيه **نماذج من مآسي العالم الإسلامي** ممثلة لها بمحنة فلسطين، والبوسنة والهرسك، والشيشان، بما يدل على وحشية أعداء الإسلام، وختمت ذلك بتفسير القرآن وتحليله للواقع بإيجاز أوضحت فيه سبب نجاح خطط الأعداء، وهو تغافل المسلمين وابتعادهم عن الشرع فانطبقت عليهم السنة الإلهية لمن ابتعد عن منهجه، فنالهم العقاب بأشكاله، ومع ذلك ظهر جيل استفاد من المحنة، وذلك بظهور الصحوة الإسلامية.

وجاء **الفصل الثاني** من «**فوائد الفتن والمحن وضوابط مواجهتها**» استخلصت في مبحثه الأول **الفوائد والحكم** من النصوص الشرعية وأقوال العلماء وصنفت تلك الحكم إلى فردية خاصة، وجماعية عامة. وتطرقت في المبحث الأخير **لضوابط مواجهة الفتن والمحن**، وابتدأته بذكر جملة آداب يجب أن يتحلى بها الفرد قبل الفتنة وبعدها، ثم قسمت الضوابط كذلك إلى فردية وأخرى جماعية، مع الإشارة إلى المساحة المشتركة الواسعة بينهما، وتتمثل الأولى بالصبر والتسليم لأمر الله وتجنب الزلل ومنطق السوء، وعلى المستوى الجماعي

أوضحت أن مواجهة فتن المسلمين لا تتم إلا بالعودة لمنهاج الكتاب والسنة، ولا عزة للمسلمين إلا بذلك، وإحياء فرائض الإسلام، والإصلاح العام لمرافق الدول الإسلامية، وفي مقدمة ذلك الاقتصاد والتعليم والإعلام، ثم التأكيد على ضابط الصبر بشروطه وقواعده في مواجهة الفتن بكل أنواعها...

وأخيراً تضمنت الخاتمة تلخيصاً للموضوع وذكراً لأبرز نتائجه، والتوصيات.

وبعد: فهذه مباحث الرسالة، بذلت فيها غاية الجهد، بإعداد مادتها معتمدة على الكتاب والسنة أولاً ثم المصادر الأولية والمراجع الثانوية، وقدصادفتني بعض الصعوبات في كتابة الرسالة، وأهمها اتساع الموضوع وتعدد جوانبه وكثرة تفصيلاته، مما يجعل أمر الإحاطة به شاقاً متعذراً، والموضوع كذلك كثير المصادر والمراجع، تفسيراً وحديثاً وتاريخاً واجتماعاً وفكراً وثقافةً، ولكنني حرصت على الإفادة من المصادر المتخصصة، والاستغناء عن التفاصيل غير المهمة للجمع بين أطراف الموضوع المتباينة.

ولا يسعني في نهاية المطاف إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل للجامعة الوطنية الماليزية (UKM) ممثلة في قسم الكتاب والسنة بكلية الدراسات الإسلامية، وأخص بالذكر أستاذي الدكتور **وهاب محمد صالح** المشرف على الرسالة لجهده في قراءتها ورعايته لها فجزاه الله خيراً، وأسجل شكري لزوجي الدكتور **مجاهد مصطفى بهجت** على تشجيعه، وصبره معي في تذليل الصعوبات، ومثل ذلك لأسرتي وأبنائي لاحتمالهم تقصيري في حقهم من أجل خدمة كتاب الله العزيز، وأقدم شكري لكل من قدّم لي مساعدة في إعداد هذه الرسالة داعية الله للجميع بالتوفيق.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة لهذا الموضوع الخطير، فإن أحسنت فبفضل الله وتوفيقه، وإلا فحسبي أني اجتهدت، وعسى أن لا أحرم من الأجر، والحمدلله أولاً وآخراً.

د. عفاف عبدالغفور حميد

١٩٩٨/٤/١٥

تمهيد
الفتن والمحن من السنن الإلهية الكونية

المبحث الأول:
معنى الفتن ومفهوم السنن الكونية

أولاً: الفتنة والمحنة في اللغة والقرآن الكريم:

الفتنة[1]: الابتلاء والامتحان والاختبار وجمعها فتن، وقد وردت في القرآن الكريم ثلاثاً وثلاثين مرة بصيغ مختلفة[2].

الأصل فيها لغة: الإحراق، ذكر ذلك ابن الأعرابي، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[3]، أي يحرقون بالنار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾[4]، أي يحرقهم بالنار المؤصدة في الأخدود[5].

وفتن الذهب والفضة إذا أذابهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد، ومعرفة جودته، ويسمى الصائغ الفتان.

وقد افتتح الزمخشري المادة في «أساس البلاغة» بالاستعاذة من الفتان وهو الشيطان.. واستغوتهم الفُتان أي الشياطين وهو من المجاز.

---

(١) راجع، الجوهري، إسماعيل بن حماد، *الصحاح*، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٢، (د.م) القاهرة، سنة ١٩٨٢، م٦، ص٢١٧٥، وابن منظور، محمد بن مكرم، *لسان العرب*، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م، م١٣، ص٣١٧، والزمخشري، محمود بن عمر، *أساس البلاغة*، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، جـ٢، ص١٨٤، وإبراهيم أنيس وآخرون، *المعجم الوسيط*، المكتبة الإسلامية، استانبول (د.ت)، ص٦٧٣.

(٢) راجع: محمد فؤاد عبد الباقي، *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*، ط٢، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٨، مادة «فتن»، ص٦٤٩-٦٥٠.

(٣) الذاريات ٥١: ١٣، وقيل أن معنى الآية «يقررون بذنوبهم».

(٤) البروج ٨٥: ١٠، وراجع الطبري، محمد بن جرير، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، دار الفكر، بيروت، جـ١٢، ص٥٢٧.

(٥) ومنه قيل للحرة والحجارة السود: الفتن كأنها أحرقت بالنار.

أورد الجوهري - صاحب الصحاح - الحديث: «المؤمن أخو المؤمن يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان»[٦]، يروى بفتح الفاء وضمها، فمن رواه بالفتح فهو واحد، ومن رواه بالضم فهو جمع، وقد يعني الفتان: اللص الذي يعرض للرفقة في طريقهم .. ومن المجاز عند الزمخشري «الناس عبيد الفتّانين وهما الدرهم والدينار».

وتعني العذاب مما تضمنه معنى الإحراق السابق ومنه قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[٧]، أي عذابكم بالإحراق بالنار، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[٨]، أي عذاب الناس كعذاب الله...، والفتنة تعني التعذيب للتحويل عن الرأي أو الدين وقوله ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾[٩]، أي يقتلهم، وقول الرسول ﷺ: «إني أرى الفتن خلال بيوتكم..»[١٠]، أي القتل والحروب، وتفاتن الرجال: تحاربوا ووقعوا في فتنة.

ومن معاني الفتنة: الاختبار والابتلاء، وهو المعنى الأول الذي ذكره ابن الأعرابي.. ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[١١]، وقوله: ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ..﴾[١٢]، قيل معناه: يختبرون بالدعوة إلى الجهاد أو بإنزال العذاب والمكروه..، وفي قوله: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾[١٣] أي اختباره وفضيحته، والفتنة بالكسر الخبرة ومنه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً﴾[١٤] أي خبرة... وافتتن الرجل وفتن فهو مفتون إذا أصابته فتنة فذهب

---

(٦) أبو داود، سليمان بن الأشعث، *سنن أبي داود*، مراجعة: محيي الدين عبد الحميد، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في قطاع الأرضين، ط دار الفكر، بيروت، (د.ت)، رقم (٣٠٧٠) جـ٣، ص٤٥١، ابن الأثير، المبارك بن محمد، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، ط٢، دار الفكر، بيروت، (١٩٧٩م)، جـ٣، ص٤١٠.

(٧) الذاريات ٥١: ١٤.

(٨) العنكبوت ٢٩: ١٠.

(٩) يونس ١٠: ٨٣.

(١٠) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح *البخاري*، ط المكتبة الإسلامية، استنبول، تركيا، ١٩٨١، كتاب الفتن، باب ويل للعرب من شر قد اقترب، جـ٨، ص٨٨-٨٩، الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح *مسلم*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الحديث، القاهرة، سنة ١٩٩١، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر، ح (٢٨٨٥)، جـ٤، ص٢٢١١.

(١١) الأنبياء ٢١: ٣٥.

(١٢) التوبة ٩: ١٢٦، وراجع في هذا المعنى: النور ٢٤: ٦٣.

(١٣) المائدة ٥: ٤١.

(١٤) الصافات ٣٧: ٦٣.

ماله أو عقله، وكذلك إذا اختبر، قال تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا..﴾[١٥].

ومن معانيها: الإعجاب بالشيء، فتناً وفتوناً فهو فاتن، وأفتنه أوصل الفتنة إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١٦]، أي لا تظهرهم علينا فيعجبوا ويظنوا أنهم خيرٌ منا، وافتتن بالأمر: استهواه وأعجبه... وفتنته المرأة إذا دلهته[١٧]، وفيها معنى الاختبار أيضاً، وفي الحديث: «ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء»[١٨]، أي أخاف أن يُعجبوا بهن فيشغلوا عن الآخرة والعمل لها.

وتعني الضلال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[١٩]، وتعني الإمالة عن القصد والإضلال، ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ*إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾[٢٠]، أي مضلين، ويدخل هذا المعنى في الاختبار والابتلاء السابق ذكره.

وتعني الكفر أو الشرك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[٢١]، أي الكفر والشرك، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[٢٢].

وتعني التشكيك واختلاف الناس بالآراء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[٢٣].

---

(١٥) طه ٢٠: ٤٠ وفي معنى الآية (أخلصناك إخلاصاً).

(١٦) يونس ١٠: ٨٥، وانظر في المعنى نفسه: الممتحنة ٦٠: ٥ ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة ...﴾.

(١٧) الجوهري: *الصحاح*، ص٢١٧٦ وفيه: وأنشد أبو عبيد لأعشى همدان:

لئن فتنتني فهي بالأمس أفتنت ... سعيداً فأمسى قد قلا كُلَّ مسلم

وأنكر الأصمعي «أفتنت» بالألف.

(١٨) البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم النساء، جـ٦، ص١٢٤. مسلم، *الصحيح*، كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وبيان الفتنة بالنساء، ح (٢٧٤٠، ٢٧٤١)، جـ٣، ص٢٠٩٧. والترمذي، السنن، كتاب الأدب، باب ما جاء في تحذير فتنة النساء، ح(٢٧٨١)، جـ٥، ص١٠٣. وابن ماجة، السنن، كتاب الفتن، باب فتنة النساء، ح(٣٩٩٨)، جـ٢، ص١٣٢٥. الإمام أحمد، المسند، جـ٥، ص٢٠٠.

(١٩) المائدة ٥: ٤١.

(٢٠) الصافات ٣٧: ١٦٢-١٦٣، وانظر تفسيرها في: القاسمي، محمد جمال الدين، *محاسن التأويل*، ط عيسى البابي الحلبي، سنة ١٣٧٦هـ، جـ١٤، ص٥٠٦٨.

(٢١) البقرة ٢: ١٩١.

(٢٢) البقرة ٢: ١٩٣، وانظر تفسيرها في: ابن كثير، إسماعيل بن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت سنة ١٣٨٨هـ، جـ١، ص٢٢٧.

(٢٣) آل عمران ٣: ٧، وانظر تفسيرها في: الألوسي، محمد شكري، *روح المعاني في تفسير القرآن*=

وتعني الإثم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[24]، ومن الإثم الوقوع في النفاق والمعاصي، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾[25]، فمعنى ﴿فتنتم أنفسكم﴾ أي أوقعتموها في النفاق، وأهلكتموها باستعمالها في المعاصي والشهوات[26].

والفتنة الجنون، وفي التنزيل: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾[27]، والمفتون مصدر جاء على وزن مفعول، أي بأيكم الفتنة[28].

وفتنة الصدر تعني الوسواس، وفتنة المحيا: أن يعدل عن الطريق، وفتنة الممات: أن يُسأل في القبر، وفتانا القبر هما منكر ونكير..، وفي الحديث: «أن المرابط في سبيل الله يأمن الفتان..»[29].

وقد ذكر الحسن الدامغاني أحد عشر وجهاً لكلمة «فتنة، وقد ذكرت - فيما سبق - إلا معنى الصد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[30]، يعني يصدوك، ومعنى المعذرة، حيث يقول تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ..﴾[31]، يعني معذرتهم[32].

ويفهم من معاني الفتنة الواردة في لغة الفصحاء، وفي القرآن والسنة: الاختبار والابتلاء بالعذاب والقتل والضلال والكفر والإثم، والجنون، والإعجاب بالشيء والمرأة، ومنه قوله

= *العظيم والسبع المثاني*، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٨٧، جـ٣، ص٨٢.

(٢٤) التوبة ٩: ٤٩، وراجع السجستاني، محمد بن عزيز، *نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز*، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩١، ص١٥٨.

(٢٥) الحديد ٥٧: ١٤.

(٢٦) البغوي، الحسين بن مسعود، *معالم التنزيل*، مصطفى البابي، ١٩٥٥، جـ٤، ص٢٦٦.

(٢٧) القلم ٦٨: ٦.

(٢٨) راجع السجستاني: ص٤١٤.

(٢٩) الإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط، جـ٢، ص١٥٢٠، النسائي، *السنن*، كتاب الجهاد، باب فضل الرباط، جـ٦، ص٣٩، ابن ماجة، *السنن*، كتاب الجهاد، باب فضل الرباط في سبيل الله، ٢/ ٩٢٤، الإمام أحمد، *المسند*، ٤/ ١٥٠.

(٣٠) المائدة ٥: ٤٩، وانظر تفسيرها في القرطبي، محمد بن أحمد، *الجامع لأحكام القرآن*، ط دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، جـ٦، ص١٥٤.

(٣١) الأنعام ٦: ٢٣ وانظر تفسيرها: القرطبي، جـ٦، ص٣١٢.

(٣٢) راجع: الدامغاني، الحسن بن محمد، *إصلاح الوجوه والنظائر أو قاموس القرآن*، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، ط٥، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٨٥، ص٣٤٧-٣٤٩.

تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[33] أي وهم لا يبتلون في أنفسهم وأموالهم فيعلم بالصبر والإيمان الصادق من غيره، وقيل: لا يمتحنون بما يبين حقيقة إيمانهم[34]. وهو ما قرره الإمام الجرجاني فقال: «الفتنة: ما يتبين به حال الإنسان من الخير والشر»[35]، وبمثل ذلك قال ابن حجر: «وأصل الفتنة الامتحان والاختبار واستعملت في الشرع في اختبار كشف ما يكره»[36].

ولتنوع معاني «فتنة» قدم أحد الباحثين محاولة لفهم هذه المعاني ونقلها وترجمتها إلى الإنكليزية، مبيناً صعوبة ذلك ودقته .. وهي محاولة لتحديد الوجوه المختلفة لمعاني اللفظة عبر السياقات المختلفة للآيات القرآنية[37].

أما المحنة[38]: فتعني البلاء والشدة، وما يمتحن بها الإنسان من بلية، وقد وردت المادة في القرآن الكريم مرتين[39]، والمحنة الخبرة، ومحنته وامتحنته أي: خبرته واختبرته، ومحن فلان وامتحن، ورجل ممحون وممتحن، وأصل المحن: الضرب بالسوط ومنه: محنه عشرين سوطاً، أي ضربه، ومحونته: عاره، لأن العار أشد المحنة، والمحونة: المحق والبخس.

ومحن الفضة: إذا صفاها وخلصها بالنار .. ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[40]، عن مجاهد: «خلّص الله قلوبهم» وقال أبو عبيدة: «صفاها وهذبها»، وقيل: شرح الله قلوبهم كأن معناها: وسع الله قلوبهم للتقوى.

ومنه محن الأديم: مدده حتى وسعه، ومحن الثوب: لبسه حتى أخلقه.. وجعل الزمخشري

---

(٣٣) العنكبوت ٢٩: ٢.

(٣٤) راجع: ابن منظور، *لسان العرب*، جـ١٣، ص٣١٧.

(٣٥) الجرجاني، علي بن محمد، *التعريفات*، دار الريان للتراث، مصر، سنة ١٩٧٨، ص٢١٢.

(٣٦) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، *فتح الباري بشرح صحيح البخاري*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط السلفية، القاهرة (د.ت)، جـ١١، ص١٧٦.

(٣٧) البوصيري، محمد، *نقل ألفاظ القرآن الكريم إلى اللغة الإنكليزية*، بحث في مجلة التأصيل، العدد الأول، ديسمبر ١٩٩٤، السودان، ص٤٠-٥٣.

(٣٨) راجع: الجوهري، *الصحاح*، جـ٦، ص٢٢٠١، والطاهر أحمد الزاوي، ترتيب *القاموس المحيط*، ط٣، دار الفكر، بيروت (د.ت)، جـ٤، ص٢١١، وابن منظور، جـ١٣، ص٤٠١، والزبيدي محمد مرتضى، *تاج العروس*، (د.م.ت)، جـ٩، ص٣٤١، و*المعجم الوسيط*، جـ٢، ص٨٥٦.

(٣٩) وهما الآيتان، الحجرات ٤٩: ٣، والممتحنة ٦٠: ١٠.

(٤٠) الحجرات ٤٩: ٣.

من مجاز القول: ثوب ممحون: خلق، وقد محن هذا الثوب إذا محق بطول اللبس.. ومحنت ناقتي: أجهدتها بالسير، قال:

أتت رزايا بادياً كلالها   قد محنت واضطربت أوصالها[٤١]

وامتحن القول أو الشيء: نظر فيه وتدبره.

وفي معنى المحنة: التخليص والتصفية قول الرسول ﷺ: «القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد الممتحن في جنة الله تحت عرشه، لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة»[٤٢]، قال شمر -هو قريب من مجاهد وأبي عبيدة السابقين-: «هو المصفى المهذب المخلص».

ويفهم من معاني المحنة، البلاء والشدة، والتخليص والتصفية، والفتنة أعم من المحنة، والغالب في المحنة أن تكون في الشدة والشر.

أما الابتلاء[٤٣]: فبمعنى الاختبار، بلوت الرجل بلواً وبلاءً، وابتليته: اختبرته، وبلاه يبلوه بلواً إذا جربه واختبره، والاسم: البلوى والبلية، وقد وردت المادة في القرآن الكريم بصيغ مختلفة سبعاً وثلاثين مرة[٤٤].

ويطلق البلاء ويراد به الإخبار، يقال: يبتليك أي يُخبرك، وفي حديث أم سلمة: «ولن أبلي أحداً بعدك»[٤٥]، أي: لن أخبر، وقد ابتليته فأبلاني أي استخبرته فأخبرني، قال الراغب[٤٦]: «وإذا قيل ابتلي فلان كذا وبلاه فذلك يتضمن أمرين، أحدهما: تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره، والثاني: ظهور جودته ورداءته، وربما قصد به الأمران،

---

(٤١) الزمخشري، *أساس البلاغة*، جـ٢، ص٣٧٠.

(٤٢) الإمام أحمد بن حنبل، *مسند الإمام أحمد وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي*، ط٤، المكتب الإسلامي، بيروت، سنة ١٩٨٣، جـ٤، ص١٨٥-١٨٦، ٢٣٤، الدارمي، عبد الله ابن عبد الرحمن، *سنن الدارمي* (كتاب الجهاد باب٢٠)، دار الريان، القاهرة، سنة ١٩٨٧، جـ٢، ص٥٢٤، ح (٢٤١٦)، والهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد*، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢م، جـ٥، ص٢٩٠.

(٤٣) راجع: الفيروزآبادي، جـ١، ص٣٢٥، وابن منظور، جـ١٤، ص٨٣، والزبيدي، جـ١٠، ص٤٣، و*المعجم الوسيط*، جـ١، ص٧١.

(٤٤) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*، مادة «فتن»، ص٦٤٩-٦٥٠.

(٤٥) الإمام أحمد، *مسند الإمام أحمد*، جـ٦، ص٢٩٠، ٣٠٧، ٣١٧.

(٤٦) الراغب الأصفهاني، *المفردات في غريب القرآن*، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت (د.ت)، ص٦١.

وربما يقصد به أحدهما، فإذا قيل: في الله بلى كذا وابتلاه، فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته دون التعرف على حاله، والوقوف على ما يجهل منه إذ كان الله علام الغيوب، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ..﴾[٤٧]، اختبره بما يعبده به من السنن»[٤٨].

وقال ابن الأعرابي: أبلى بمعنى أخبر، وابتلاه الله: امتحنه ويكون في الخير والشر، والله يبلي العبد بلاءً حسناً وبلاءً سيئاً..

قال القتيبي: يقال في الخير أبليته إبلاء، وفي الشر بلوته أبلوه بلاء، والمعروف أن الابتلاء في الخير والشر معاً من غير فرق بين فعليهما، والبلاء يكون منحة ويكون محنة وبها قال عمر ﷺ: «بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر» وقال علي ﷺ: «من وسع عليه في دنياه فلم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٤٩]، و﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾[٥٠]، وفي معنى الابتلاء بالخير والشر قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٥١]، وعند الراغب أنها في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً[٥٢].

والبلاء: الغم، كأنه يبلي الجسم، والتكليف بلاء، لأنه شاق على البدن، أو لأنها اختبار.. والبلاء: الإنعام ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾[٥٣]، أي إنعام بين، الإبلاء: الإنعام والإحسان، لحديث كعب بن مالك: «ما علمت أحداً أبلاه الله أحسن مما أبلاني»[٥٤].

ويرى الدامغاني معنى البلاء في النعمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[٥٥]، يعني في إنجائكم من آل فرعون[٥٦].

---

(٤٧) البقرة ٢: ١٢٤، وانظر في معنى الاختبار قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ..﴾ البقرة ٢: ١٥٥، وقوله: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ الصافات ٣٧: ١٠٦.

(٤٨) السجستاني، ص١٢١.

(٤٩) الأنبياء ٢١: ٣٥.

(٥٠) الأنفال ٨: ١٧.

(٥١) الأعراف ٧: ١٦٨.

(٥٢) الراغب الأصفهاني، ص٣٧٢.

(٥٣) الدخان ٤٤: ٣٣.

(٥٤) البخاري، صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، جـ٥، ص١٣٠، والإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك، جـ٣، ص٢١٢٠، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص٤٥٩.

(٥٥) البقرة ٢: ٤٩.

(٥٦) الدامغاني، ص٧٧.

وهكذا نستخلص أن الابتلاء يتضمن معنى الاختبار، ومعرفة الحال وإظهار الجودة والرداءة، والابتلاء يكون في الخير والشر .. وهو الإنعام والإحسان، والغم والتكليف.

وليس هناك فرق بين الفتنة والابتلاء لغة، لأن كل ابتلاء فتنة[٥٧]، لكن القرآن الكريم استخدم الفتنة لمعان كثيرة، وهي أشد من الابتلاء، يقول أبو هلال العسكري: «الفرق بين الفتنة والاختبار أن الفتنة أشد الاختبار وأبلغه، وتكون في الخير والشر.. »[٥٨]، ويأتي فعل الابتلاء مسنداً إلى الله تعالى، أما الفتنة فلا تسند إلى الاسم الظاهر لله تعالى، لكون الفتنة تأتي على معان غير حسنة، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾[٥٩]، وقال: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾[٦٠].

وفي معنى الفتنة والمحنة والابتلاء تعابير أخرى كالتمحيص ومحصّ الله التائب من الذنوب: أي طهره منها، قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ..﴾[٦١]، أي: يخلص الله الذين آمنوا من ذنوبهم وينقيهم منها[٦٢]، ومعنى التمييز في قوله تعالى: ﴿يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[٦٣]، أي: يخلص المؤمنين من الكافرين[٦٤].

ثانياً: مدخل في مفهوم السنن الإلهية:

قدر الله تعالى أن تكون هناك سنن إلهية تجري بمشيئته يخضع لها الكون من بشر وغيرهم، وهي بمثابة قانون يحكم الجميع، وفي الوقت ذاته فهي دليل على وجود الله الخالق له..

والسنن (جمع سنة) لغة: الطريقة والسيرة[٦٥]. وقال الرازي: الطريقة المستقيمة والمثال المتبع[٦٦].

---

(٥٧) راجع في الفرق بين الفتنة والابتلاء، السحيباني، عبد الحميد عبد الرحمن، *الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن*، دار القاسم للنشر، الرياض، ١٩٩٦، ص٢٣-٢٨.

(٥٨) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، *الفروق اللغوية*، دار الكتب العلمية، القاهرة (د.ت)، ص١٧٨، ١٧٩، وانظر: الزمخشري، *الكشاف*، جـ٣، ص٤٣٩.

(٥٩) البقرة ٢: ١٢٤.

(٦٠) طه ٢٠: ٤٠.

(٦١) آل عمران ٣: ١٤١.

(٦٢) السجستاني، ص٥٠٨.

(٦٣) آل عمران ٣: ١٧٩.

(٦٤) السجستاني، ص٤٨٥.

(٦٥) راجع: ابن منظور، *لسان العرب*، جـ١٧، ص٨٩، وابن الأثير: *النهاية في غريب الحديث والأثر*، جـ٢، ص٤٠٩.

(٦٦) الرازي: *التفسير الكبير*، جـ٩، ص١١.

وفي الاصطلاح: هي طريقته سبحانه في تسيير أمور هذا الكون بمقتضى حكمته وعدله[٦٧].

أو: «هي الطريقة المتبعة في معاملة الله للبشر بناءً على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة»[٦٨]. ويلاحظ على هذا التعريف أنه يقصد السنن الإلهية الإنسانية والاجتماعية ..

وتعد سنة الفتن والمحن في مقدمة هذه السنن لأن الحكمة أساساً من خلق الإنسان هو الابتلاء.

فسنة الفتن والمحن: هي منهج الله سبحانه وتعالى في اختبار البشر في الخير والشر أفراداً وأمماً وجماعات، وقوانينه تعالى بتغيير أحوالهم ومآلهم فيما بعد وفقاً لما يفعلونه.

وقد ورد لفظ السنة - مفرداً وجمعاً - في القرآن الكريم ست عشرة مرة[٦٩] في اثنتي عشرة آية، والملاحظ أنها تتناول السنن الإنسانية عند الأمم وسنة الله الثابتة فيها، ومن ضمنها الفتن والابتلاءات لهذه الأمم وأنبيائهم، ومنهج الله في التعامل معهم وفق أعمالهم بمقتضى حكمته وعدله .. قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٧٠].

وتأكيداً لسنة الفتنة والابتلاء فقد تكرر لفظة الفتنة بجميع تصاريفها (٣٣) ثلاثاً وثلاثين مرة، والابتلاء (٣٧) سبعاً وثلاثين مرة، ووردت آيتان لمادة محن.. كما جاءت ألفاظ أخرى بمعناها، كالشدة، والعناء، والأذى، والتمييز، والتمحيص.. الخ.

وقد دلت هذه الآيات بما لا يدع مجالاً للشك على أن الفتن والمحن سنة إلهية جارية في المجتمعات البشرية قديماً وحديثاً، والأكثر من ذلك أن الله خلق الإنسان للابتلاء، وأن حياته في هذا الكون تحمل معاني الابتلاء .. قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[٧١]. قال الزمخشري: «أي خلقناه مبتلين له، بمعنى: مريدين ابتلاءه»[٧٢].

---

(٦٧) عبد السلام بن نصر الله الشريف: *سنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم*، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، سنة ١٩٩٤، ص٧، وانظر تعريفاً آخر لها ص٥.

(٦٨) د. عبد الكريم زيدان: *السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد*، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣، ص١٣.

(٦٩) مواضع الآيات هي: آل عمران ٣: ١٣٧، النساء ٤: ٢٦، الأنفال ٨: ٣٨، الحجر ١٥: ١٣، الإسراء ١٧: ٧٧ (مرتان)، الكهف ١٨: ٥٥، الأحزاب ٣٣: ٣٨، ٦٢ (مرتان)، فاطر ٣٥: ٤٣ (٣ مرات)، غافر ٤٠: ٨٥، الفتح ٤٨: ٢٣ (مرتان).

(٧٠) الأحزاب ٤٠: ٣٨.

(٧١) الإنسان ٧٦: ٢.

(٧٢) الزمخشري، محمود بن عمر، *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، ط٣، دار الريان، القاهرة، سنة ١٩٨٧، جـ٤، ص٦٦٦.

ومن المعلوم أن الحكمة والهدف من خلق الإنسان هي العبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٧٣]، كما أكدت آيات الفتنة والابتلاء أنه واقع لا محالة لتحقيق العبودية لله، والعبادة بحد ذاتها هي اختبار للإنسان، وابتلاء بالمسئولية وأمانة التكليف ومن ثم الإيمان وطاعة الله عز وجل.

وعلى هذا فالدنيا دار فتنة وابتلاء ... والآخرة هي دار القرار والجزاء .. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٧٤]. قال ابن كثير: «ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا مزينة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار»[٧٥] ثم ذكر ما يؤكد ذلك من قول رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[٧٦].

وقال تعالى: ﴿... الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٧٧]، أي: «أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم، أي: يختبرهم أيهم أحسن عملاً ..» وقال محمد بن عجلان: «أي خير عملاً ولم يقل أكثر عملاً ..»[٧٨]. وتدل الآية إلى حكمة الله في الموت والحياة لغاية «إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض واستحقاقهم للجزاء على العمل، واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبداً يقظاً حذراً .. للصغيرة والكبيرة ..»[٧٩] وقال الطبري: «ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع وإلى طلب رضاه أسرع»[٨٠].

ويستدل بالقصص القرآني على سنة الفتنة والمحنة لأخذ العبرة في النظر بمآل تلك الأمم.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٨١]، وكذلك تدل الآيات التي جاءت بمعنى الفتنة وليس بلفظها على ذلك. كقوله

---

(٧٣) الذاريات ٥١: ٥٦.

(٧٤) الكهف ١٨: ٤.

(٧٥) الصابوني، محمد علي، *مختصر تفسير ابن كثير*، ط٥، دار القلم، بيروت، ١٩٨٦، جـ٢، ص٤٠٩.

(٧٦) الإمام مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء (الرقاق) باب أكثر أهل الجنة .. وبيان الفتنة بالنساء ٣/٢٠٩٨ (٢٧٤٢)، الإمام أحمد: *المسند*، جـ٦، ص٣٦٤.

(٧٧) تبارك ٦٧: ٢.

(٧٨) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٣، ص٥٢٧.

(٧٩) سيد قطب، *في ظلال القرآن*، ط١٧، دار الشروق، بيروت، سنة ١٩٩٢، م٦، ص٣٦٣٢.

(٨٠) الطبري، جـ٢٩، ص١.

(٨١) العنكبوت ٢٩: ٣.

تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[82].

وهذه السنة - باعتبارها قانون الله في التعامل مع الخلق - لا تلغي إرادة الإنسان ولا تتعارض معها، بل القرآن يؤكد أن إرادته هي السبب في تغيير الأحداث والأحوال، كما ربطت الآيات بين ذلك وجعلت عمله سبباً في وقوعه في الفتنة كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾[83]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[84] وغيرها من الآيات التي يجتمع معناها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[85].

كما تدل آيات أنها تقع بقدر الله ليكشف حقيقة عبده من إيمان وصبر أو خلافه من جهود وجزع ليرتب على ذلك جزاءه الأخروي من ثواب وعقاب .. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ..﴾[86] أي: خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه .. وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه وانكفائه على عقيدته وانتكاسه عن الهدى[87].

وقد تقع الفتنة من العبد كالبلية والقتل والمعصية وغيرها من المكروهات، فإن كانت من الله - كما يقول الأصبهاني - فهي على وجه الحكمة وإن كانت من الإنسان بغير أمر الله فهي مذمومة[88].

وتؤكد آيات السنن الإلهية أن لهذه السنن خصائص كالثبات والاطراد والعموم[89] من ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[90] فكذلك سنة الفتن والمحن والابتلاء فهي ثابتة لا تتغير، كما أنها مطردة لن تتخلف، وقد قص الله

---

(٨٢) البلد ٩٠: ٤.
(٨٣) النور ٢٤: ٦٣.
(٨٤) الأعراف ٧: ١٦٣.
(٨٥) الرعد ١٣: ١١.
(٨٦) الحج ٢٢: ١١.
(٨٧) سيد قطب: *في ظلال القرآن*، م٢، جـ١٧، ص٢٤١٢.
(٨٨) الراغب الأصبهاني، ص٥٦٠.
(٨٩) د. عبد الكريم زيدان، *السنن الإلهية في الإمم والجماعات والأفراد*، ص١٤-١٥.
(٩٠) فاطر ٣٥: ٤٣ وراجع آيات أخرى بهذا المعنى مثل: الأحزاب ٣٣: ٦٢، الإسراء ١٧: ٧٧، الأنعام ٦: ٣٤.

علينا قصص الأمم الغابرة للاتعاظ من الفتن ولولا أنها مطردة لما أمكن الاتعاظ والاعتبار منها .. ولذلك يرى البعض أن هذا الاطراد يكون في حياة الأمم والجماعات وليس الأفراد[٩١]، أي أن الفتنة ذاتها لن تتكرر في حياة كل فرد بل تتنوع .. وتطرد في حياة الأمم لتعلقها بسنن أخرى.

كما أنها تتصف بالعموم والشمول، فلا تكون لفرد دون فرد - وإن تنوعت - ولا لأمة دون أخرى، ويسري حكمها على الجميع دون محاباة، أو تمييز .. قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[٩٢] وقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..﴾[٩٣].

كما إن من خصائص سنة الفتن والمحن: الحكمة والعدل فلله فيها حكم عظيمة -سيأتي الكلام عنها في موضعه من البحث - يتجلى فيها العدل الإلهي المطلق في ابتلاء الناس جميعاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٩٤].

وما دامت الفتنة والمحنة سنة إلهية ولا تتم إلا بمعايشة ما يحدث من الأمور فعلى المؤمن أن يستعد لها ولا يفقد إيمانه إذا فقد شيئاً من دنياه، ففي الآخرة الخالدة عوض عن الدنيا الزائلة.

---

(٩١) راجع: عبد السلام بن نصر الله الشريف، *سنة الله في عقاب الأمم*، ص٢٠.

(٩٢) القمر ٥٤: ٤٣.

(٩٣) العنكبوت ٢٩: ٣.

(٩٤) فصلت ٤٦.

المبحث الثاني:
الفتن والمحن في تاريخ الأنبياء عامة والرسول ﷺ خاصة

أولاً: في تاريخ الأنبياء عامة:

ظهرت الفتن والمحن مع وجود الإنسان في هذا الكون وقبل أن ينزل إلى الأرض .. ففي قصة خلق آدم وموقف إبليس منه ما يدل على ذلك.

وحيث إن البحث ليس بحثاً تاريخياً لذلك سوف أقف على أبرز الفتن من زاوية دينية دعوية معتمدة على القصص القرآني مستخلصة أبرز المحن التي مر بها الأنبياء مع أممهم وكيفية مواجهة الأمم للدعوات.

والوقوف على قصص الأنبياء لا يعني ذكر جميع الفتن في تاريخهم بل الوقوف على أبرز الحوادث فيها علماً أنها لا تمثل جميع الأنبياء في تاريخ البشرية لقوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[٩٥]، وسنعرض للفتن التي تجمع بين الأنبياء وأممهم من جهة، والفتن التي تكاد تطرد في حياة الأنبياء كلهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ..﴾[٩٦] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾[٩٧].

ويأتي التركيز على تاريخ الأنبياء لأنهم النموذج المثالي في حياة الأمم في الصبر واحتمال الابتلاء كما قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء أشد بلاءً ثم الأمثل فالأمثل..»[٩٨]، ويمثل القرآن الوثيقة الأمينة الصادقة في ذلك.

---

(٩٥) غافر ٤٠: ٧٨.

(٩٦) الأنعام ٦: ١١٢.

(٩٧) الفرقان ٢٥: ٣١.

(٩٨) الترمذي، محمد بن عيسى: *الجامع الصحيح* (كتاب الزهد، باب ٥٧ رقم ٢٣٩٨)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ط دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠، جـ٤، ص٦٠١، ابن ماجة، محمد بن يزيد (كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ٤٠٧٣) تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، ط٢، شركة الطباعة العربية، الرياض، ١٩٨٤، جـ٢، ص٣٨٦، الدارمي، سننه (كتاب الرقائق، باب في أشد الناس بلاء) جـ٢، ص٣٢٠، أحمد، *مسنده*، جـ١، ص٢٦٩.

وتكاد سنة الابتلاء للأنبياء بتكذيب الأمم لهم تكون مطردة، فما من نبي إلا وكذبه قومه على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[٩٩] وخصوصاً المترفون منهم.

ومثل ذلك الابتلاء يصيب الطائفة المؤمنة من أصحاب الأنبياء (عليهم السلام) ويقع عليهم العبأ الكبير كأصحاب الأخدود الذين امتحنوا في قوة عقيدتهم[١٠٠].

ومن السنن الإلهية المتصلة بفتن الأنبياء ومحنهم مع قومهم تحقيق النصر وبلوغه بعد ذلك الاختبار قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾[١٠١]، فيأتي الله بالفرج بعد الأخذ بأسباب النصر من الصبر والثبات .. فالآيات تؤكد أن هناك سنناً تجري على الأنبياء، وأن هناك كلمة لا تتبدل على مر التاريخ .. وهي علاقة قائمة بين النصر ومجموعة من الشروط في آيات متفرقة أجملت في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ۞ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[١٠٢].

وعودة إلى تاريخ الأنبياء .. نجد أن آدم عليه السلام ابتلي منذ الوهلة الأولى بكيد إبليس الذي أغاظه تكريم الله له[١٠٣] فتعهد من ذلك اليوم بإغواء بني آدم وفتنتهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[١٠٤] وفي أخرى:

---

(٩٩) سبأ ٣٤: ٣٤.

(١٠٠) راجع عبد الله ميرغني، *الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين كما جاء في القرآن الكريم*، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٩٨٣، مطبوعة على الآلة الكاتبة، ص٣٨٣.

(١٠١) الأنعام ٦: ٣٤.

(١٠٢) فاطر ٣٥: ٤٢-٤٣.

(١٠٣) ما أغاظ إبليس أن الله خص آدم بأربعة أمور هي: ١- خلقه بيده ٢- نفخ فيه من روحه ٣- أمر الملائكة بالسجود له، وقد جمعتها هذه الآية ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ ٤- علمه أسماء كل شيء ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾، راجع: ابن كثير، *قصص الأنبياء*، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، ط دار الحديث، القاهرة، (د.ت)، ص١٦، والصابوني، محمد علي، *النبوة والأنبياء*، ط٤، دار القلم، دمشق (د.ت)، ص٣٦٦.

(١٠٤) الإسراء ٦١: ٦٢.

﴿... قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١٠٥].

ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع بين الخير والشر بأن وسوس لآدم وحواء وأغراهما بالأكل من الشجرة الممنوعة .. ونسي آدم العهد رغم تحذير الله له من إبليس .. وأكلا منها فأزلهما الشيطان من الجنة ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا فَقُلْنَا يَا ءَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[١٠٦].

والنهي عن الاقتراب - فضلاً عن الأكل - من شجرة مخصوصة كان ابتلاءً لآدم عليه السلام وعزيمته أمام الإغراء .. ففتنا وأكلا وانكشفت لهما عوراتهما، وعاتبهما الله فاستغفرا ﴿فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[١٠٧] ثم أهبطا إلى الأرض وحذرهما الله ثانية من أن العداوة بينهم وبين إبليس ستظل قائمة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[١٠٨].

وقد نبه المرحوم سيد قطب إلى العبرة من قصة آدم فقال: «... لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته مزوداً بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً ...»[١٠٩].

واستمرت الفتنة بعد ذلك على الأرض فكان أول جريمة قتل من ابني آدم، وقتل قابيل لهابيل أخيه[١١٠]، وفي الحديث: «لا تقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»[١١١].

وتعاقبت الأجيال وبعث نوح نبياً[١١٢]، قال ابن كثير: «إنما بعثه الله تعالى لما عبدت

(١٠٥) ص٣٨: ٨٢.

(١٠٦) طه ٢٠: ١١٥ وما بعدها.

(١٠٧) البقرة ٢: ٣٧.

(١٠٨) فاطر ٣٥: ٦.

(١٠٩) سيد قطب، *الظلال*، جـ١، ص٥٩.

(١١٠) راجع تفاصيل القصة في: ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص٥١-٥٩.

(١١١) البخاري، *الصحيح*، كتاب الجنائز باب قول النبي يعذب الميت .. جـ٢، ص٧٩، وكتاب الأنبياء باب خلق آدم وذريته، جـ٤، ص١٠٤، رقم (٣٣٣٥)، وكتاب الديات باب قوله تعالى: ﴿ومن أحياها ..﴾، جـ١، ص٣٥، مسلم، *الصحيح*، كتاب القسامة، باب بيان إثم من سن القتل، ٣/١٣٠٣، رقم (١٦٧٧)، والترمذي، *الجامع الصحيح*، كتاب العلم، باب ما جاء في الدال على الخير كفاعله، جـ٥، ص٤٢، رقم (٢٦٧٣)، وابن ماجه، سننه، كتاب الديات، باب التغليظ في قتل المسلم ظلماً، جـ٢، ص٨٧٣، رقم (٢٦١٦).

(١١٢) بعث أنبياء بعد آدم منهم ابنه شيث وإدريس عليه السلام قبل نوح. راجع ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص٦٠-٦٣.

الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول أهل الموقف يوم القيامة»[113].

وكان الناس من قبل نوح على دين الفطرة يعبدون الله ولا يشركون .. وقومه أول قوم عبدوا الأصنام فبعث لهم نوح بالإنذار والتخويف، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[114].

وقد فصل القرآن قصة نوح وهناك سورة تسمى باسمه، وتشير كل هذه النصوص إلى ما قاساه نوح في دعوته لقومه ومعاناته، فقد كانوا راسخين في الضلالة شديدي العناد، فقد جاءهم بالدلائل الواضحات فما لقي منهم إلا التكذيب والسخرية والإيذاء.

لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يعظهم سراً وجهاراً، ليلاً ونهاراً ولم يضعف طوال تلك الفترة ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل، واتهم بالسفه والضلال والجنون وكانت محنته شديدة أليمة حيث تفننوا في إيذائه وصده فكان من أولي العزم من الرسل وقال نوح مناجياً ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلاَّ فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ ...﴾[115].

وتمضي السنون، وتتوالى الأجيال في نحو من ثلاثين أو أربعين جيلاً يوصي كل جيل ما بعده، والسلف يوصي الخلف بتكذيبه وصده فأوحى الله إليه أنه لن يؤمن به إلا من قد آمن عندئذٍ التجأ إلى الله بالدعاء عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا...﴾[116] فاستجاب الله له فكان الطوفان الذي عم أرجاء الأرض ولم ينج إلا من كان مع نوح وكان أحد أولاده الأربعة من المغرقين، وصام يوم نزوله من السفينة يوم عاشوراء شكراً لله فسماه الله عبداً شكوراً[117].

وقد جمعت لنوح في جهاده الطويل - لإقرار حقيقة التوحيد - كل صنوف البلاء.

---

(113) وهو حديث الشفاعة وفيه: «... فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبداً شكوراً ألا ترى ما نحن فيه ...» الحديث.

(114) نوح 71: 1 وما بعدها.

(115) نوح 71: 5-7.

(116) نوح 71: 26.

(117) راجع تفاصيل قصة نوح في: ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص64-93، والقصة مختصرة في:الصابوني، *النبوة والأنبياء*، ص187-201.

وتوالت الأجيال فعبدت قبيلة عاد الأصنام - وهم عرب يسكنون الأحقاف[(١١٨)] - وهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان فبعث الله إليهم أخاهم هوداً يدعوهم إلى التوحيد.

وكان أهل عاد من العمالقة الأشداء زادهم الله بسطة في الجسم فضلاً عن كونهم مترفين يبنون القصور الشامخة ذات الجنان والعيون كما قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[(١١٩)]، ولكن القوم طغوا وتمادوا فضرب لهم هود المثل بقوم نوح فرموه بالسفه والجنون وعزموا على الفتك به ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ...﴾[(١٢٠)]، فلما لم ينفع معهم الإنذار أهلكهم الله بأن حبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى اشتد عليهم الجهد والبلاء فاستغاثوا فأرسل الله إليهم سحاباً ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا...﴾[(١٢١)] وكانت الريح العقيم أرسلها الله سبع ليال وثمانية أيام فأبادهم، ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۞ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[(١٢٢)].
ولم يبق في ديارهم شبح ولا رسم وموقعها اليوم رمال بعد ذلك العمران والنعيم .. ونجا الله هوداً والذين آمنوا معه برحمته وسكن بعدها بلاد حضرموت إلى أن مات[(١٢٣)].

وقصة هود مع قومه تمثل فتنتهم بالنعمة بجميع أنواعها وابتلاء هود بقومه الجاحدين وثباته على الحق إلى أن حل بهم الانتقام.

وتكررت القصة في قوم ثمود ونبيهم صالح عليه السلام وهم بقية من قوم عاد على أصح الأقوال[(١٢٤)] لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ

---

(١١٨) الأحقاف: رمال مشرفة على هجر بالشحر من أرض اليمن (راجع تاج العروس: حقف).
(١١٩) الشعراء ٢٦: ١٢٨-١٣٤
(١٢٠) هود ١١: ٥٣-٥٥.
(١٢١) الأحقاف ٤٦: ٢٤-٢٥.
(١٢٢) الذاريات ٥١: ٤١-٤٢.
(١٢٣) راجع تفاصيل قصة هود في: ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص٩٤-١٠٨.
(١٢٤) راجع: الصابوني، *النبوة والأنبياء*، ص٣٠٦.

﴿مُفْسِدِينَ﴾[(١٢٥)]. عبدت ثمود الأوثان فبعث الله إليهم صالحاً عليه السلام فـآمن بـه قليـل، وطلـب الآخرون منه معجزة، فجاءهم بمعجزة الناقة تدل على صدقه خرجت من صخر أصـم كمـا طلبوا وحذرهم من التعرض لها بسوء ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[(١٢٦)] فعقروا الناقة فتوعدهم صالح بالعذاب بعد ثلاثة أيام اصفرت وجوههم في الأول واحمرت في الثاني واسودت في الثالث، ثم جاءتهم صيحة من فوقهم ورجفة مـن أسفلهم ففـاضت أرواحهـم جميعاً ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ..﴾[(١٢٧)]. ونجا صالح ومن معـه ومات في الرملة من أرض فلسطين، ولا زالت آثار مدائن صالح بين الحجاز والشام[(١٢٨)].

ثم كان ما كان من محنة إبراهيـم مـع قومـه .. نشـأ وسـط بيئـة فاسـدة ببـابل مـن أرض الكلدانيين بالعراق، وكان أهلها ينعمون برغد العيش غير أنهم على الشرك ينحتون الأصنـام آلهة لهم .. ووسط هذا المحيط آتاه الله الرشد، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيـهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِـذُ أَصْنَامًـا ءَالِهَةً﴾[(١٢٩)]، وبدأت فتنته ومحنته مع قومه عندما دعاهم للتوحيـد، وكعـادة الأقـوام تنكـروا لدعوته ولكنه دأب عليها بالحكمة والحجة والبرهان .. وترفق مع أبيه بالنصيحة بأدب فقال: ﴿... إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَـيْئًا﴾[(١٣٠)] وتحمـل خشونته وتهديده ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[(١٣١)]، كما حاول جاهداً مع قومه ولما يئس عمد إلى تغيير المنكر بالفعل ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُـمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْـهِ يَرْجِعُـونَ﴾[(١٣٢)]، فـاجتمعت كلمـة القـوم علـى أن ينتقمـوا لآلهتهم وأن يحرقوه بالنار، وأوقدت النار التي تسـابق القـوم لإضرامهـا وتغذيتهـا بـالوقود، وهكذا موقف المكذبين دائماً يلجئون إلى التعذيب والتقتيل، أما الداعية فيعرف إن الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره ولا بد من النصر.

---

(١٢٥) الأعراف ٧: ٧٤.
(١٢٦) الإسراء ١٧: ٥٩.
(١٢٧) الشمس ٩١: ١٥.
(١٢٨) راجع تفاصيل القصة في: ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص١٠٩-١٢١، ومختصر القصة في: الصابوني، *النبوة والأنبياء*، ص٣٠٦-٣١٢.
(١٢٩) الأنعام ٦: ٧٤.
(١٣٠) مريم ١٩: ٤٢.
(١٣١) مريم ١٩: ٤٦.
(١٣٢) الأنبياء ٢١: ٥٧-٥٨.

أخذ إبراهيم وألقي في النار فما جزع بل كان قوله: حسبي الله .. وفي الحديث: «كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل»[١٣٣]، فتولى الله سبحانه الدفاع عنه وسلب النار طبيعة الإحراق ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[١٣٤] واستدل المرحوم سيد قطب بقصة النار على أن الخوارق لا تهدي القلوب وإنما هو الاستعداد للهدى والإيمان[١٣٥].

بعدها هاجر إبراهيم إلى أرض الشام مع ابن أخيه لوط الذي آمن به وعوضه الله خيراً حيث رزقه بالذرية التي امتحن بالحرمان منها طويلاً.

وقد امتحن إبراهيم عليه السلام بتكاليف خاصة منها شرعية .. أوامر ونواه فأتمها، وقال فيه تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[١٣٦]. فمدحه الله بالوفاء ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[١٣٧]، فكان جديراً بأن يكون للناس إماماً .. ومن أولي العزم من الرسل.

كما ابتلاه الله بالطاعة حين أمره أن يسكن زوجته هاجر ووحيده الذي رزقه على الكبر بواد غير ذي زرع .. ثم أمره بذبحه بعد أن شب فما كان منه إلا الامتثال ﴿... قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[١٣٨]، وامتثل الوالد والولد ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[١٣٩] تم الابتلاء ولم يبق إلا الدم المسفوح .. عندئذ ناداه الله ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[١٤٠] وذلك برفع البلاء وفدائه بالذبح العظيم .. فاستحق تكريم الله واختياره خليلاً وجعل النبوة في أبنائه.

ومن الحوادث العظيمة في حياة إبراهيم عليه السلام قصة قوم لوط .. وكان قومه من أفجر

---

(١٣٣) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب التفسير، باب ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾، جـ٥، ص١٧٢.
(١٣٤) الأنبياء ٢١: ٦٩.
(١٣٥) سيد قطب، *الظلال*، جـ٥، ص٢٧٣١.
(١٣٦) البقرة ٢: ١٢٤.
(١٣٧) النجم ٥٣: ٣٧.
(١٣٨) الصافات ٣٧: ١٠٢.
(١٣٩) الصافات ٣٧: ١٠٣.
(١٤٠) الصافات ٣٧: ١٠٤-١٠٥.

الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد وهي إتيان الذكران من العالمين، فدعاهم لوط إلى نبذ ذلك كله فتمادوا في غيهم فأحل الله بهم البأس وجعلهم عبرة للعالمين قال تعالى فيهم: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ... وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[١٤١].

كما غيّر أهل مدين دين إبراهيم الذي ورثوه فكفروا وعبدوا الأيكة[١٤٢] وفشت فيهم المنكرات وكانوا أول من سن التطفيف في المكاييل والموازين فبعث الله إليهم شعيباً فدعاهم إلى نبذ ذلك كله .. فآمن به قليل وهدده القوم بالطرد من القرية ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[١٤٣].

ومن شدة حمقهم طلبوا أن يسقط عليهم كسفاً من السماء .. فكان ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾[١٤٤] بأن سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم ساق إليهم غمامة اجتمعوا تحتها فزلزلت الأرض بهم وجاءتهم الصيحة وأمطرت عليهم السماء .. فجمع الله عليهم أصناف العقوبات: رجفة وصيحة وظلة أرسل منها الشرر[١٤٥].

فتكررت النبوة في أبناء إبراهيم عليهم السلام فأرسل إسماعيل إلى أهل الجزيرة وبنى البيت العتيق مع أبيه، وإسحق الذي رُزقه من زوجته سارة العقيم ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[١٤٦] فأرسل إسحق[١٤٧] إلى الكنعانيين في فلسطين .. أما ابنه يعقوب[١٤٨] وهو المسمى إسرائيل وإليه ينتسب اليهود فقد بنى بيت المقدس وهو في طريقه إلى العراق.. رزق باثني عشر ولداً منهم يوسف الصديق عليه السلام وأصبح أبناؤه كل واحد أباً لسبط من أسباط اليهود.

ابتلى الله يعقوب في بنيه وفراق يوسف وأخيه وكف بصره ثم رده الله إليه بعد صبر

---

(١٤١) الأعراف ٧: ٨٠-٨٤.

(١٤٢) الأيكة: شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها. راجع قصة أصحاب الأيكة ونبيهم شعيب في: ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص١٨٨-١٩٨.

(١٤٣) الأعراف ٧: ٨٨.

(١٤٤) الشعراء ٢٦: ١٨٩.

(١٤٥) راجع: الصابوني، *النبوة والأنبياء*، ص٣٤٠-٣٤٣.

(١٤٦) هود ١١: ٧١.

(١٤٧) راجع: ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص٢٠٣-٢٠٧.

(١٤٨) راجع: المصدر السابق، والصابوني: *النبوة والأنبياء*، ص٣٢٥-٣٢٧.

طويل .. وامتحن يوسف بإخوته وامرأة العزيز، ودخوله السجن ودعوته فيه إلى الله .. ثم خروجه واستلامه لخزائن الأرض فكان الحفيظ الأمين.. وفي قصة يوسف من الإشارات والعظات الشيء الكثير(١٤٩).

وفي قصة أيوب امتحنه الله امتحاناً خاصاً في نفسه وولده وماله فضرب مثلاً أعلى في الصبر ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(١٥٠) وقد كشف الله عنه البلاء وعوضه خيراً ..

وقد ذكر القرآن أنه أرسل أنبياء إلى أمم قبل موسى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ..﴾(١٥١).

ولنا في فتنة الأمم وعودتها إلى الحق مثلاً في قصة يونس ﷺ، حيث بعثه الله إلى أهل نينوى من أرض الموصل فتمردوا عليه فلما طال عليه ذلك خرج ووعدهم بحلول العذاب بعد ثلاث .. ولكنهم ندموا وتضرعوا ولبسوا المسوح وبكوا .. وكانت ساعة عظيمة فرفع الله عنهم البلاء برحمته فقال فيهم: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾(١٥٢).

أرسل الله موسى ﷺ إلى بني إسرائيل .. وقد فصل القرآن قصته بأجمل بيان .. وكانت فتنة بني إسرائيل مع فرعون مصر مريرة .. فقد عمرّ فرعون (٤٠٠) أربعمائة عام وهو يسوم بني إسرائيل سوء العذاب .. يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .. حذراً من وجود موسى(١٥٣). فولد موسى في جو من الرعب والفزع(١٥٤) وأوحي إلى أمه إذ خافت عليه أن تلقيه في اليم .. وقدر له أن يلتقطه عدوه فرعون .. وأن يقع منه قتل خطأ، فيخرج من مصر خائفاً يترقب ليلبث في الغربة عشر سنين، ثم يوحى إليه بطريق عودته عند جبل الطور

---

(١٤٩) راجع المصدرين السابقين، ابن كثير، ص٢٠٨-٢٣٧، الصابوني، ص٣٢٨-٣٣٩.

(١٥٠) ص٣٨: ٤٤.

(١٥١) القصص ٢٨: ٤٣.

(١٥٢) يونس ١٠: ٩٨. وراجع قصة يونس والحوت في: ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص٢٥٤-٢٦١.

(١٥٣) تذكر الروايات أن فرعون رأى رؤيا أخافته وعبرت له أن غلاماً من بني إسرائيل يكون على يديه هلاك مصر فأمر بقتل ذكورهم، راجع ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص٢٣٦.

(١٥٤) انظر ما ورد عن ابن عباس في بيان قوله تعالى: ﴿وفتناك فتوناً﴾ طه ٢٠: ٤٠، انظر: النسائي، أحمد بن شعيب، *السنن الكبرى*، كتاب التفسير، الباب ٢٣٧، الحديث رقم (١١٣٢٦)، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، جـ٦، ص٣٩٦.

وكانت معجزته (العصا واليد) حيث أمره الله بالذهاب إلى فرعون فكانت محنته الجديدة مع فرعون مصر الذي توعده بالسجن والقتل .. واتهمه بالسحر .. فكان ما كان من اجتماع السحرة وتصديقهم لموسى[155]، ولكن فرعون تمادى في ظلمه لبني إسرائيل .. وابتلى الله آل فرعون بتسع آيات ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ... فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[156] وفي كل مرة يطلبون من موسى الدعاء ليكشف عنهم، فإذا رفعت عادوا إلى غيرها حتى كانت الآية الكبرى غرق فرعون وجنوده في البحر ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾[157] وذلك بعد أن أوحى الله لموسى أن يخرج بني إسرائيل إلى فلسطين.

وبدأت فتنة موسى مع قومه في أرض التيه، لعل نبياً آخر لم يمتحن بمثله، ذلك هو أذى قومه وأتباعه من بني إسرائيل الذين منّ الله عليهم بالنجاة، وعيون الماء، والمن والسلوى، وظلل عليهم الغمام، فعبدوا العجل في غيابه، وعندما أُمروا بدخول الأرض المقدسة جبنوا وقالوا ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[158] فألقاهم الله في التيه أربعين سنة عقوبة حتى انقرض ذلك الجيل، ودخل الجيل الجديد الأرض المقدسة مع (يوشع بن نون)، وكان موسى قد مات قبل ذلك بعد أخيه هارون[159].فصل القرآن الكريم ذكر بني إسرائيل، وكيف قابلوا النعمة بالجحود.. فقد عبدوا العجل، وقتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، فمسخهم الله قردة وخنازير، ولعنهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة، قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[160].

وقصة موسى مع فرعون – كما يقول المرحوم سيد قطب – تتكرر على مر الأجيال، فهي تمثل صراع الحق مع الباطل .. جند الرحمن مع جند الشيطان، ثم ينصر الله الحق حسب

---

(١٥٥) انظر في ابتلاء سحرة موسى بعد الإيمان: عبد الله ميرغني، ص٣٨١.

(١٥٦) الأعراف ٧: ١٣٠-١٣٣.

(١٥٧) الأعراف ٧: ١٣٦.

(١٥٨) المائدة ٥: ٢٤.

(١٥٩) راجع قصة موسى مفصلة في: ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص٢٦٢-٤١٠، والصابوني، *النبوة والأنبياء*، ص٢٢٤-٢٤٩.

(١٦٠) آل عمران ٣: ١١٢.

سنته الجارية[١٦١].

وتتابعت الرسل في بني إسرائيل لتعنتهم وتمردهم، وتقويماً لاعوجاجهم.. ومن هؤلاء داود ﷺ في وقت سلط الله فيه عليهم الأمم المجاورة لضعفهم، وجمع لداود الملك والنبوة والحكمة، وآتاه الله الزبور .. وأحبه بنو إسرائيل لقتله جالوت، ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ..﴾[١٦٢]، وقد ذكر القرآن الكريم قصة ابتلائه في سياق الخصم الذين تسوروا المحراب[١٦٣] .. فتاب الله عليه، وغفر له .. ولم يذكر تعالى تفصيلاً لذلك، ولا ورد عن الرسول ﷺ حديث صحيح يعتمد عليه، والهدف المقصود من القصة: توبة داود ﷺ وإنابته، وارتفاع مكانته عند الله تعالى.

وقد وردت روايات إسرائيلية منكرة نبه عليها ابن كثير وأبو حيان[١٦٤]، وقد اختار أحد الباحثين ثلاثة آراء مع عدم الجزم بواحدة منها يمكن قبول اثنين منها وهما: حكمه لأحد الخصمين دون سماع الآخر، وظن داود أنهما جاءا لاغتياله ثم تبين خطأه فاستغفر وأناب[١٦٥].

وخلفه في الملك والنبوة ابنه سليمان ﷺ الذي قام بعمارة بيت المقدس وبناء الهيكل وخصه الله بأمور منها: علمه منطق الطير .. وسخر له الريح والجن.

وفي السياق نفسه - لقصة داود وفتنته - وردت فتنة سيدنا سليمان ﷺ، وفي الآيات إشارة إلى الخيل الصافنات الجياد والجسد الذي ألقي على كرسي سليمان ﷺ[١٦٦]، وقد ورد في الإسرائيليات ما أنكره أهل التفسير كابن كثير وأبو حيان[١٦٧].

ولعل المعنى المقصود اشتغاله بالخيل (عدة الجهاد) عن ذكر الله، والجسد الملقى على الكرسي لعله شق الرجل الذي ولدته امرأة سليمان ﷺ لكونه لم يستثن حين قال:

---

(١٦١) راجع: سيد قطب، *الظلال*، جـ١٩، ص٢٥٨٩.

(١٦٢) البقرة ٢: ١٥١.

(١٦٣) ص٣٨: ٢١-٢٥.

(١٦٤) راجع: ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٣، سنة ١٣٧٣هـ، جـ٤، ص٣١، و*البداية النهاية*، دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ، جـ٢، ص١٢، وأبو حيان الأندلسي، *البحر المحيط*، المكتبة التجارية، مكة (د.ت)، جـ٩، ص١٥١.

(١٦٥) راجع: السحيباني عبد الحميد بن عبد الرحمن، *الفتنة وموقف المسلم منها*، ص٥٦-٥٧، أما الرأي الثالث الذي استبعده فهو نظر (داود ﷺ) للمرأة التي تغتسل إذ لا علاقة لهذا بسياق القصد في الآيات.

(١٦٦) انظر الآيات من سورة ص٣٨: ٣٠-٤٠.

(١٦٧) راجع ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، جـ٤، ص٣٦، وأبو حيان، *البحر المحيط*، جـ٩، ص١٥٦.

«لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله..»، وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[١٦٨]، وليس هناك ما يجزم بـه، والأرجح أن الله تعالى ابتلى نبيـه وفتنه، وأن سليمان عليه السلام أناب إلى ربه ورجـع إليـه[١٦٩].

ومن بعد سليمان أنبياء كثير[١٧٠]، حتى بعث زكريا في وقت اشتد فيه الفجـور والطغيـان في بني إسرائيل .. وتسلط عليهم الملوك الجبابرة، فتوالت على زكريـا عليه السلام المحـن في دعوتـه مع كبر سنه، ورزق بيحيى بعد الدعاء من الله ﴿وَزَكَرِيَّـا إِذْ نَـادَى رَبَّـهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَـرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾[١٧١].

تكفل زكريا بمريم أم عيسى بعد أن ولدتها أمها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَـلَ عَلَيْهَـا زَكَرِيَّـا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ..﴾[١٧٢]، وكان ابنه يحيى -الذي ولد قبل المسيح بثلاثـة أشـهر- زاهداً كثير العبادة والتضرع فوهبه الله النبوة والكتاب ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَـابَ بِقُـوَّةٍ وَءَاتَيْنَـاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[١٧٣]، وهكذا شاء الله أن يبعث نبيين - زكريا ويحيى - بين يدي عيسى عليه السلام وتمهيداً له.

أمر الله يحيى عليه السلام أن يعمل ويأمر بني إسرائيل بخمس كلمات[١٧٤]، وهـو أول مـن سـن التعميد فسمي يحيى المعمدان .. وقد أمر حاكم فلسطين (هـيرودس) بقتلـه فذبـح وقـدم لـه رأسه على طبق من ذهب والدم ينزف منه .. ثم قتل بعده من أنكر قتلـه مـن العلمـاء منهـم الشيخ الكبير زكريا عليه السلام قتل نشراً بالمنشار.

وهكذا سن اليهود من بني إسرائيل قتل الأنبياء حتى صـار شـعاراً لهـم، فقـال تعـالى فيهـم:

---

(١٦٨) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان ..﴾، جـ٦، ص٤٥٨، مسلم، *الصحيح*، كتاب الأيمان والنذور، باب الاستثناء، جـ٣، ص١٢٧٥، الترمذي، *الجامع*، كتاب الأيمان والنذور، باب ما جاء في الاستثناء في اليمين، جـ٤، ص١٠٨، الإمام أحمد، *مسند أحمد*، جـ٢، ص٢٢٩.

(١٦٩) راجع: السحيباني، ص٦٠.

(١٧٠) ذكر ابن كثير في (قصص الأنبياء) من هؤلاء الأنبيـاء: اشـعيا ص٤٥٣، وأرميـا ص٤٥٥، ودانيـال ص٤٦٣، والعزير ص٤٦٨.

(١٧١) الأنبياء ٢١: ٨٩-٩٠.

(١٧٢) آل عمران ٣: ٣٧.

(١٧٣) مريم ١٩: ١٢.

(١٧٤) وهي: التوحيد، الصلاة، الصيام، الصدقة، ذكر الله. راجع: الصابوني، *النبوة والأنبيـاء*، ص٣٩٤-٣٩٥.

﴿أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾[175].

وكان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى بن مريم عليه السلام، وكانت ولادته معجزة من غير أب، قال تعالى: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم﴾[176]، فتكلم في المهد صبياً، أخذه يوسف النجار مع أمه مهاجراً إلى مصر خوفاً عليه من الملك الظالم الذي علم من الكهنة بولادة طفل سيكون له سلطان على جميع اليهود .. فأمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم .. وعاد عيسى بعد وفاة الملك وعمره سبع سنين.

وكان المجتمع اليهودي قد دخلته انحرافات كثيرة فبعث الله عيسى عليه السلام ونزل عليه جبريل بالإنجيل فقام يدعو الناس ليردهم للحق ويحل لهم بعض ما كان محرماً عليهم عقوبةً قال تعالى: ﴿... ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾[177].

وقد أجرى الله على يد عيسى المعجزات تصديقاً لنبوته، وقد لقي من اليهود تعنتاً وأهوالاً وشدائد خاصة الكهنة ورجال الدين، فاصطدم معهم بجدال عنيف حول مفاهيم الدين فدحضهم بالحجج الدامغة وفضح رياءهم وخبثهم، حتى ضاقوا به ذرعاً فأجمعوا على قتله وسعوا به إلى الحاكم، وعندما علم بما دبر القوم له اختفى عن أعينهم، ورفع الله عيسى عليه السلام إلى السماء بعد أن ألقى شبهه على غيره فصلبوه وبذلك قال تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ۞ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[178].

والعجب ممن يعتقدون صلبه مع ألوهيته!! وهي فتنة أتباعه النصارى الذين يقولون إنه صلب ليخلص بني آدم من ذنوبهم وخطاياهم!! وهو خلاف العدل الإلهي.

وقد بشّر عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ وأمر باتباعه ولكنهم حرفوا الإنجيل كما فعل اليهود وطمسوا الحقيقة فوقعوا في الفتنة .. وكان بين ميلاده وميلاد محمد ﷺ ما يزيد على (٦٠٠) ستمائة عام.

---

(١٧٥) البقرة ٢: ٨٧.
(١٧٦) النساء ٤: ١٧١.
(١٧٧) آل عمران ٣: ٥٠.
(١٧٨) النساء ٤: ١٥٧-١٥٨.

وقد ذكرت النصوص أن مهمة المسيح لم تنته بعد وسينزل إلى الأرض ليتم رسالته باتباع محمد ﷺ كما سيأتي في باب علامات الساعة(١٧٩).

وهكذا كان تاريخ الأنبياء مع أممهم .. صراع دائم بين الحق والباطل .. نتج عنه فتن ومحن وابتلاءات .. سنة تتعلق بسنن أخرى.

ثانياً: في حياة الرسول محمد ﷺ خاصة

لاقى الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة أصنافاً شتى من المحن والفتن، كالأذى والاعتداء من المكذبين، والإنكار والصدّ من الجاهلين.

وقد اتخذ محمد ﷺ المواقف الحكيمة، وسلك السبل المثالية في علاجها سواء أكان ذلك تجاه المشركين أم المنافقين أم اليهود، وفي مكة أو المدينة.

ويمكن سوق بعض الأمثلة الدالة على حكمة الرسول ﷺ في مواقفه تجاه تلك الفتن والمحن.

فمن ذلك موقفه من أبي جهل الذي تصدى للرسول ﷺ ونهاه عن الصلاة والدعوة، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال: «كان النبي ﷺ يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟»(١٨٠) فنزل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى ۝ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ...﴾(١٨١).

وورد كذلك أنه مر بالرسول ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه(١٨٢).. بل تجاوز الأمر إلى السخرية والاستهزاء بآيات الله، وذلك حين علم أن عدد حراس «سقر» تسعة عشر في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾(١٨٣)، وكان يحرّض على أذى الرسول ﷺ، فقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أن أبا جهل أمر بأن تلقى سلا جزور بين كتفيه وهو ساجد، ففعلوا واستضحكوا

---

(١٧٩) راجع تفصيل قصة عيسى عليه السلام في: ابن كثير، *قصص الأنبياء*، ص٤٨٥-٥٤٥، والصابوني، *النبوة والأنبياء*، ص٢٥٠-٢٧٦.

(١٨٠) الترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة اقرأ باسم ربك»، جـ٥، ص٤٤٤، الصابوني، محمد علي، جـ٣، ص٦٥٧-٦٥٨.

(١٨١) العلق ٩٦: ٩-١٤.

(١٨٢) عبد السلام هارون، *تهذيب سيرة ابن هشام*، ط٢، المدني، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٦٠.

(١٨٣) المدثر ٧٤: ٣٠. وراجع تفسيرها في: القرطبي، *التفسير*، جـ١٩، ص٧٣-٧٤، والأشقر، محمد سليمان، *زبدة التفاسير من فتح القدير*، ص٧٧٧.

.. فدعا عليهم رسول الله: اللهم عليك بقريش وسمى كبراءهم[١٨٤].

ويمثل هذه المواقف القاسية قابله الوليد بن المغيرة المخزومي، إذ وصف القرآن بأنه سحر، واستخف بالنبي ﷺ لأنه كان يرى نفسه أولى بالنبوة منه ووقف النضر بن الحارث ضد الدعوة إذ كان يصرف الناس عن الرسول ﷺ فيحدثهم عن رستم وملوك فارس.

وكاد أبو لهب وزوجه للرسول ﷺ وحين أنذر قومه -كما أمره الله - بين يدي عذاب شديد، قال له: تباً لك .. فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ..﴾[١٨٥].

ويتجلى من مواقف الرسول ﷺ في الأمثلة السابقة أنه كان يتحلى بالصبر ويتجاوز الابتلاء والفتن إلى ما يحقق مصلحة الدعوة الإسلامية، ولم يثنه ذلك عن مواصلة الطريق بالحكمة والموعظة الحسنة، وخاصة في هذه المرحلة التي لم يؤمر فيها بالجهاد والقتال..

ثم كان التحدي بالآيات والخوارق كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾[١٨٦].

وفي جواب الرسول ﷺ ما يدل على أنه من البشر المخلوقين وهو مأمور بأداء الرسالة وليس له أن يتحكم على ربه.

وقد ورد في السيرة النبوية الصحيحة[١٨٧] عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن قريشاً قالت للنبي: «ادعُ لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن لك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: «إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة؟ قال: بل باب التوبة والرحمة»[١٨٨].

---

(١٨٤) العمري، أكرم ضياء، *السيرة النبوية الصحيحة*، ط٥، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٩٩٣م، جـ١، ص١٤٨.

(١٨٥) راجع: الصابوني، محمد علي، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٣، ص٦٨٩.

(١٨٦) الإسراء ١٧: ٩٠-٩٣.

(١٨٧) العمري، أكرم ضياء، *السيرة النبوية الصحيحة*، جـ١، ص١٦١.

(١٨٨) الإمام أحمد، *مسند أحمد*، جـ١، ص٢٤٢، ٣٤٥، والحاكم في *المستدرك*، جـ١، ص٥٣-٥٤ وقال هذا حديث صحيح .. وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح، *مجمع الزوائد*»، جـ٧، ص٥٠.

قال ابن عباس: «فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[189]»[190].

فكما أن معجزة صالح لم تنفع في جلب ثمود إلى الإيمان، فإن المشركين من قريش لن تنفعهم قياساً على ما وقع من عِبر التاريخ الغابرة.

ولكن أمام إلحاح المشركين وعنادهم استجاب لهم - وقد سألوه آية - فأراهم القمر شقين، حتى رأوا جبل حراء بينهما[191]. وقد ذكر القرآن الكريم هذه المعجزة فقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۞ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[192]، ولكن قريش اتهمته بالسحر، وتحققت فيهم سنة السابقين مع المعجزات الحسية كما أخبر القرآن.

كما اتهموه بالكذب والكهانة والافتراء والشعر، ليصدوا عن سبيل الله، ولكن كل تلك الابتلاءات لم تزده إلا قوة وعزيمة في المضي بطريق الدعوة.

وحين اشتد البلاء على المسلمين وعزمت قريش على إيذاء الرسول ﷺ أجمع بنو عبد المطلب أمرهم على حمايته فدخلوا الشعب جميعاً مسلمهم وكافرهم، وأجمع المشركون على ألا يجالسوهم ولا يخالطوهم وكتبوا في ذلك صحيفة[193]، ولبث بنو هاشم ثلاث سنين في الشعب، واشتد البلاء والجوع فتلاوم رجال قريش وأجمعوا على نقضها[194].

ثم كانت محنة النبي ﷺ بعد أن غادروا الشعب بوفاة عمه أبي طالب، في آخر السنة العاشرة من المبعث، وزاد ذلك وفاة زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، في نفس العام، وبموتهما فقد النبي سنداً كبيراً، وتجلى ذلك في رحلة النبي للطائف طلباً للنصرة[195].

---

(١٨٩) الإسراء ١٧: ٥٩.

(١٩٠) الإمام أحمد، *مسنده*، جـ١، ص٢٥٨.

(١٩١) البخاري، *الصحيح*، كتاب تفسير القرآن، باب سورة القمر، جـ٦، ص٥٢، مسلم، *الصحيح*، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، جـ٣، ص٢١٥٨.

(١٩٢) القمر ٥٤ : ١-٢.

(١٩٣) تقول بعض الروايات أن سبب المقاطعة والحصار هو فشلهم في استعادة المهاجرين إلى الحبشة ولكن رواية أخرى تذهب إلى أن المشركين أخرجوا بني هاشم إلى الشعب فأمر الرسول ﷺ المسلمين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة وعادوا بعد الخروج من الشعب.

(١٩٤) العمري، أكرم ضياء، *السيرة النبوية الصحيحة*، جـ١، ص١٨١-١٨٢.

(١٩٥) راجع المصدر السابق، جـ١، ص١٨٣-١٨٤.

ومن أشد مواقف الفتنة في دعوته بعد وفاة عمه أبي طالب ما وجده من بني ثقيف في الطائف إذ خرج إليهم يستنصرهم، إذ أنكروا عليه وأغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه، فعمد إلى بستان ودعا «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي .. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين .. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»، وحين يئس ﷺ من خير ثقيف، انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة محزوناً[١٩٦]، وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت له:« يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة...»[١٩٧] ثم جاء جبريل يخبره بوجود ملك الجبال ليأمره بما شاء، ونادى ملك الجبال وسلم عليه، ثم قال: يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[١٩٨].

ويستفاد من هذا الموقف أنه ﷺ حين اشتد به أذى قريش ولاقى مثل ذلك من ثقيف أهل الطائف لجأ إلى الله واستغاث برحمته ..

ولما تفاقمت الفتنة وازداد طغيان الكفار أذن الله للرسول ولأصحابه بالهجرة، ثم أذن الله للمؤمنين بالجهاد في سبيله لقتال الكفار وقد نزلت الآيات بذلك[١٩٩] وللأهداف العالية التي شرع من أجلها قاتل الرسول ﷺ وشارك المسلمين في ذلك، وقد بلغ عدد الغزوات والسرايا (٦٥) قاد بنفسه (٢٧) منها[٢٠٠].

وقد ابتلي الرسول ﷺ في بعض غزواته ابتلاء شديداً كغزوة أحد والأحزاب وكان الموقف عصيباً ضحى فيه الصحابة ﷺ وبذلوا أرواحهم في سبيل الله .. ففي غزوة أحد بعد أن دارت الدائرة على المسلمين لترك أكثر الرماة أماكنهم، كر خالد وعكرمة على الرماة

---

(١٩٦) راجع: هارون عبد السلام، *تهذيب سيرة ابن هشام*، ص١٠١-١٠٣، والعمري، أكرم ضياء، *السيرة لنبوية الصحيحة*، جـ١، ص١٨٦، وعلق على رواية نص الدعاء بأنها لم تثبت من طريق صحيحة.

(١٩٧) مسلم، *الصحيح*، كتاب الجهاد والسير، باب «ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين»، جـ٢،ص١٤٢٠، والمقصود بالعقبة عقبة الطائف، وليست عقبة منى.

(١٩٨) المرجع السابق نفسه.

(١٩٩) من ذلك الآيات: البقرة ٢: ١٩٠-١٩٣، النساء ٤: ٧٥، الحج ٣٩: ٤.

(٢٠٠) عبد الله ميرغني، *الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين*، ص٤١٩.

وقتلوهم، وقد أفرد الرسول ﷺ يومها في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، وما زال هؤلاء يقاتلون دفاعاً عن الرسول ﷺ حتى قتل السبعة[٢٠١] .. ونادى إبليس عند الجبل أن محمداً قد قتل، فكان أوج المحنة إذ أصيب المسلمون باليأس والكلال، فطائفة قليلة تولت، وأخرى وهم أكثر الصحابة وقعت في حيرة .. وفرقة ثبتت مع الرسول ﷺ ثم تراجعت إليه الفرقة الثانية لما عرفوا أنه حي[٢٠٢].

وقد ثبت النبي ﷺ رغم ما أصابه، وكان مما لحقه أنه شج وجهه وكسرت رباعيته، وجرحت وجنته وشفته السفلى[٢٠٣]، وأنه وقع في حفرة من الحفر، فأخذ علي ﷺ بيده، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً[٢٠٤].

وكان ﷺ هدف المشركين، وكان بعضهم تعاهد على قتله، وفي المقابل كان الصحابة يفتدون الرسول ﷺ بأنفسهم، وممن أبلى يومئذ بلاءً حسناً، مصعب بن عمير، وأبو دجانة، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، وأم عمارة نسيبة المازنية ﷺ أجمعين.

وفي غزوة الأحزاب اجتمع الكفر ممثلاً في مشركي قريش والقبائل الأخرى، ويهود المدينة ومنافقيها فكانت محنة شديدة على المسلمين، وصفها القرآن الكريم فقال: ﴿.. إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٢٠٥].

ولم يسلم الرسول ﷺ في خاصة نفسه من الفتنة، فقد أصيب في أقرب الناس إليه، وهي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين وقعت حادثة الإفك[٢٠٦]، وخاض المنافقون في ذلك، وتولى كبره ابن سلول، وسلكوا أسلوباً جديداً في محاربة الإسلام، وهو محاولة تدمير

---

(٢٠١) مسلم، *الصحيح*، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، جـ٢، ص١٤١٥.

(٢٠٢) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، *إمتاع الأسماع*، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، ط دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨١م، جـ١، ص١١٩.

(٢٠٣) البخاري، *الصحيح*، كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد، جـ٥، ص٣٨، مسلم، *الصحيح*، كتاب الجهاد والسير، باب غزة أحد، جـ٢، ص١٤١٦.

(٢٠٤) المقريزي، أحمد بن علي، *إمتاع الأسماع*، جـ١، ص١٢٣.

(٢٠٥) الأحزاب ٣٣: ١٠-١١.

(٢٠٦) البخاري، *الصحيح*، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، جـ٦، ص٢٦٩، ومسلم، *الصحيح*، كتاب التوبة، باب حديث الإفك وقبول توبة القاذف، جـ٤، ص٢١٢٩، والترمذي، *السنن*، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النور، جـ٥، ص٣٣٢-٣٣٦.

بيت رسول الله ﷺ، وإسقاط مكانة أقرب الرجال إليه.

وراح هذا المنافق يذيع الإفك عن طريق عصبة النفاق بوسائل ملتوية، وأساليب دنيئة، وبلغ من خبث تلك الفرية أن تموج المدينة بها شهراً كاملاً حتى بان الحق واتضح السبيل، ونزل القرآن[٢٠٧] ببراءة عائشة الصديقة بنت الصديق، وبراءة بيت النبوة الرفيع، وكشف المنافقين الذين حاكوا الإفك، ورسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم.

ووضحت آيات القرآن أن أعداء الإسلام أرادوا بث الفتنة في صفوف المسلمين فرد الله كيدهم، وكشف عن الحكمة وراء ذلك كله، والحادثة تشير إلى أن المنافقين حين أخفقوا في الناحية العسكرية للقضاء على الدعوة الإسلامية، اتجهوا اتجاهاً خبيثاً للإيقاع في أخلاق الرسول ﷺ وعرضه لأنه القائد القدوة[٢٠٨].

وهكذا تأتي الفتن والمحن في حياة الرسول محمد ﷺ مكملة لسلسلة الفتن والمحن في تاريخ الأنبياء. وإنما تناولت هذه الفتن من جانب تاريخي دعوي لأن ذلك هو المهم والأساس للتغيير.

كما يظهر من هذه اللمحة السريعة أن الابتلاء يسبق التمكين، وأن النصر للأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٠٩]، وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[٢١٠].

---

(٢٠٧) راجع الآيات من سورة النور ٢٤: ١١-٢٠.

(٢٠٨) راجع: السحيباني عبد الحميد، *الفتنة وموقف المسلم منها*، ص١٣١-١٣٩.

(٢٠٩) الروم ٣٠: ٤٧.

(٢١٠) غافر ٤٠: ٥١.

المبحث الثالث:
طبيعة الفتن والمحن وهدفها

أولاً: الفتن والمحن خاصة وعامة:

يمكن تقسيم الفتن والمحن بحسب من تقع عليهم إلى صنفين:

(أ) - **الخاصة**: وهي الفتن التي تصيب الأفراد من الناس في النفس والمال والأهل .. وهو أمر لا يخرج عن طبيعة الحياة وسياقها لعدم دوام الحال وتغيره، كما إنها لا تطرد فما يصيب شخصاً قد لا يصيب آخر.

وهذا النوع لا يسلم منه صنف من البشر لا البر ولا الفاجر .. فلا بد أن يفتن الفرد ويبتلى بفقد عزيز أو مرض أو خسران مال أو إيذاء، ومتاعب عيش ومفاجآت دهر أو غير ذلك.

ومن أمثلة الابتلاء الخاص فتنة النبي أيوب عليه السلام ومحنته في مرضه، وفقده لولده وماله. ونوح عليه السلام مع ولده الكافر .. وتكليف إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، ويعقوب عليه السلام مع بنيه وفقدان بصره .. وأشد أنواع ذلك ما يكون في العرض كابتلاء مريم العذراء بولادة عيسى عليه السلام وعائشة رضي الله عنها بحادثة الإفك.

ومثل ذلك من الفتن ما أصاب الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم) في حياتهم الخاصة ومن بعدهم من المؤمنين. يقول رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»[٢١١].

وما يقع من فتن ومحن في حياة الأفراد أنواع لا تخرج عند ابن عاصم الغرناطي من أن تكون في:

١- المقتنيات.　　　　٢ - الأنفس.

ولكل منها صور ثلاث:

أ - المتوقع في الاستقبال.

ب - الواقع في الحال المؤمل زواله.

---

(٢١١) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الرقاق، باب العمل الذي يبتغى به وجه الله، جـ٦، ص١٧٢، والإمام أحمد، *مسند أحمد*، جـ٢، ص٤١٧، والنسائي، *سنن النسائي*، كتاب الجنائز، باب ثواب من صبر واحتسب، جـ٤، ص٢٣، ح ١٨٦٩.

جـ - الواقع في الحال غير المؤمل زواله[212].

وقد قسم الشيخ الدهلوي الفتن والمحن إلى ستة أصناف متدرجاً فيها من الفردي الخاص إلى الجماعي العام، ويندرج في القسم الفردي اثنان وهما:

فتنة الرجل في نفسه، وفتنته في أهله[213]. وستأتي البقية في الابتلاء العام.

(ب) **العامة**: وهي الفتن التي تصيب الجماعات والأمم مرتبطة بسنن أخرى وتكون عامة وشاملة للجميع دون تمييز.

ويقع في مقدمة ذلك التكليف بالطاعة والإيمان بالله من جميع البشر ..

ومن هذه الفتن والمحن الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات والعواصف التي تدمر مدناً وجماعات ويكون تأثيرها عاماً وشاملاً[214].

ومنها ما يكون سنة عقاب تنزل بالأمم الظالمة، كما مر في قصص الأنبياء مع أقوامهم ودلت نصوص كثيرة .. قال تعالى: **﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾**[215]، وقال: **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾**[216] وهي سنة مطردة.

ومنها ما يكون تحقيقاً لسنة التدافع والتغيير والصراع بين الحق والباطل كالحروب التي تصيب الأمم والجماعات بأنواع البلاء .. وقد قال تعالى محذراً من هذه الفتن: **﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾**[217].

ويقع ضمن الفتن العامة أربعة مما عده الدهلوي من أصنافه الستة وهي:

١ - فتنة تموج كموج البحر: وهي فساد تدبير المدينة، وطمع الناس في الخلافة من غير حق وهو قول الرسول ﷺ: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب

---

(٢١٢) راجع: ابن عاصم الغرناطي، *جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى*، تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير، عمان، ١٩٨٩م، جـ١، ص١٠٩ وقد بنى الكتاب بأجزائه الثلاثة على هذه الأصناف التي لا تخرج عن الصنف الفردي من الفتن والمحن.

(٢١٣) راجع: الدهلوي (شاه ولي الله)، *حجة الله البالغة*، دار التراث، القاهرة، جـ٢، ص٢١١.

(٢١٤) راجع نماذج من الكوارث الطبيعية في التاريخ: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير *أعلام النبلاء*،ط٢ مؤسسة الرسالة بيروت جـ١٣، ص٤٧٢، ٤٨٠، ٢٢/١٦٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣٠-٢٣١، ٢٣/ ١٨٠.

(٢١٥) الأنعام ٦: ٤٧.

(٢١٦) يونس ١٠: ١٣.

(٢١٧) الأنفال ٨: ٢٥.

ولكن في التحريش بينهم»[218].

٢ - فتنة ملية بموت الحواريين من أصحاب النبي ﷺ وإسناد الأمر إلى غير أهله وهو قول الرسول ﷺ: «ما من نبي إلا وكان له حواريون وأصحاب يأخذون بسننه ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن...» الحديث[219].

٣ - فتنة مستطيرة، وهي تغير الناس من الإنسانية ومقتضاها.

٤ - فتنة الوقائع الجوية المنذرة بهلاك الأمم كالطوفانات والوباء .. ونحو ذلك[220].

هذا وإن تقسيم الفتن إلى الخاص والعام لا يعني الانفصام التام بينها وبين أنواعها، بل ما يصيب الفرد يصيب الجماعة، وينتظم الصنفان تحت قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[221]. فكل نوع من هذه الابتلاءات قد يصيب الفرد وقد يعم فيصيب الجماعة .. وقد تنزل كل هذه المحن مرة واحدة على الأمة في ظرف معين كالحروب .. ومع ذلك قال فيها تعالى: (بشيء) وتنكير شيء -كما يدل عليه السياق- للتقليل والتحقير لأن هناك ما هو أكبر[222].

ثانياً: الفتن والمحن بالشر والخير:

دلت النصوص القرآنية أن سنة الفتنة والابتلاء تكون في الخير والشر، كالفقر والغنى، والصحة والمرض، والخوف والأمن .. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[223]. قال الزمخشري: «أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم

---

(٢١٨) الإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعث سراياه لفتنة الناس، جـ٤، ص٢١٦٦، ح٢٨١٢، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التباغض، جـ٤، ص٣٣٠، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص٣١٣، كلهم من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢١٩) الإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، جـ١، ص٦٩-٧٠، والإمام أحمد، *المسند*، جـ١، ص٤٥٨.

(٢٢٠) ويدخل ضمنها أشراط الساعة. انظر الدهلوي، *حجة الله البالغة*، جـ٢، ص٢١١.

(٢٢١) البقرة ٢: ١٥٥.

(٢٢٢) راجع: د. يوسف القرضاوي، *الصبر في القرآن الكريم*، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة١٩٨٥.

(٢٢٣) الأنبياء ٢١: ٣٥.

من الصبر أو الشكر .. وفتنة: مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه»[٢٢٤]. وقال ابن كثير: «أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، قال ابن عباس: .. أي بالشدة والرخاء والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال»[٢٢٥].

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ..﴾[٢٢٦]. فجعل الإكرام والنعمة ابتلاء كالتضييق في الرزق سواء، فالمنحة والمحنة كلاهما بلاء ..

والمؤمن يحتاج إلى الصبر على الاثنين، بل القدرة على البلاء في النعمة أشد، «فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر بن الخطاب ﷺ: « بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر»[٢٢٧].

وقال بعض العارفين: « البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي (جمع عافية) لا يصبر عليها إلا صديق»[٢٢٨]. وقال الإمام الغزالي:

«وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة ألا تقدر... والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء»[٢٢٩].

وبهذا يقول المرحوم سيد قطب:

«إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة .

ولذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء،

---

(٢٢٤) الزمخشري، *الكشاف*، جـ٣، ص١١٦.

(٢٢٥) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٢، ص٥٠٧-٥٠٨.

(٢٢٦) الفجر ٨٩: ١٥-١٦.

(٢٢٧) الأصفهاني، *المفردات في غريب القرآن*، ص٦١.

(٢٢٨) راجع: د. يوسف القرضاوي، *الصبر في القرآن الكريم*، ص٤٢.

(٢٢٩) الإمام أبو حامد الغزالي، *إحياء علوم الدين*، ط دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢، جـ١، ص٧.

وذلك شأن البشر إلا من عصم الله، فكانوا ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[٢٣٠] وهم قليل. فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر، والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان»[٢٣١].

أ - صور من الفتن والمحن بالشر:

الفتن والمحن بالشر معروف أمرها .. ومنها ما هو من طبيعة حياة الإنسان الذي خلق للابتلاء .. وهذا لا يتحقق إلا بمعايشة ما يكدر من الأمور وكيفية التصرف تجاهها .. وقد تضمن قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٢٣٢] كثيراً من هذه المحن سواء على المستوى الخاص أو العام ... فالخوف وفقدان الأمن، والجوع والفقر، وخسران بعض المال، ونقص الثمرات وقلة الزروع والثمار، ونقص الأنفس بموت الأحباب والأصحاب .. كلها فتن ومحن يستحق الصابر عليها بقوله ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ الجزاء الحسن بالمغفرة والرحمة والهداية إلى طريق الصواب .. وقد تجتمع هذه الفتن لفرد كأيوب عليه السلام، وقد تجتمع لأمة كما يحصل في الحروب.

ومن الفتن ما هو أشد ... من ذلك الفتنة في الدين كالذي يجبر على الكفر أو أي شيء محرم .. أو يحرم من العبادات والطاعات .. ومنها فتنة العرض واتهام الإنسان بما يقدح، كفتنة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز .. ومنها فتنة الجهاد والحرب.

ومن هذه الفتن ما يكون في مجال العلاقات الإنسانية والاجتماعية والأسرية، كمحنة الفرد مع زوجه أو ولده وجاره وصديقه .. والتصرف تجاه تلك الفتن ينبغي أن ينطلق من قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢٣٣].

ومن ذلك ابتلاء الناس بالتفاوت بينهم فيكون ابتلاءً بالشر لمن هو أدنى .. قال تعالى:

---

(٢٣٠) الإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، جـ٣، ص٢٢٩٥، والدارمي، *سنن الدارمي*، كتاب الرقاق، باب المؤمن يؤجر في كل شيء، جـ٢، ص٦٢٤.

(٢٣١) سيد قطب، *الظلال*، جـ٤، ص٢٣٧٨.

(٢٣٢) البقرة ٢: ١٥٥-١٥٦.

(٢٣٣) المؤمنون ٢٣: ٩٦ وفصلت ٤١: ٣٤.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾[٢٣٤].

ومن هذه الفتن ما هو خاص بالمؤمنين كوقوعهم في الشدائد. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ...﴾[٢٣٥]، قيل إنها نزلت في معركة الخندق حين أصاب المسلمين الجهد والشدة .. وقيل تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم[٢٣٦] ..

ويمتحن المؤمنون بالجهاد .. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٢٣٧] .. ويمتحنون كذلك بأنواع الأذى ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا..﴾[٢٣٨].. والأذى الكثير: صنوف البلاء.. وقد تفنن أهل الكتاب والمشركون في ذلك الأذى قديماً وحديثاً .. في القول والفعل[٢٣٩].

وقد يبتلى الكفار بالبأساء والضراء لعله يردعهم عن الكفر والعناد .. فإن لم يكفوا ابتلاهم بالسراء عسى أن يحملهم ذلك على التوبة.. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۞ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[٢٤٠]. وقوله: ﴿حتى عفوا﴾ أي أصبناهم بالسراء ... فالله ابتلاهم بالسراء والضراء ولم يتعظوا ﴿فأخذناهم بغتة﴾ بالعقوبة[٢٤١].

والفتن والمحن بالشر كثيرة لا تحصى وهي متطورة بتطور أساليب الشر ..

---

(٢٣٤) الأنعام ٦: ١٦٥.

(٢٣٥) البقرة ٢: ٢١٤.

(٢٣٦) راجع: القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، جـ٣، ص٣٣-٣٤.

(٢٣٧) آل عمران ٣: ١٤٢.

(٢٣٨) آل عمران ٣: ١٨٦.

(٢٣٩) وقد فصل الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس هذا الأذى، وذكر له صوراً منها: الحملات الإعلامية، كالاستهزاء والسخرية والتكذيب .. والتهديد بالأذى والإغراء بالجاه، والأذى الجسماني مثل السجن والتعذيب والتشريد، ومصادرة الأموال، والقتل ... الخ، راجع كتابه: *الابتلاء والمحن في الدعوات*، ص٤٤-١٣٣.

(٢٤٠) الأعراف ٧: ٩٤، ٩٥ ومثلها آية ٤٢، ٤٤ من سورة الأنعام.

(٢٤١) راجع: القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، جـ٧، ص٢٧، وسيد قطب، *الظلال*، جـ٨، ص١٧-٢٤.

ب – صور من الفتن والمحن بالخير:

الابتلاء بالشر معروف .. ولكن الابتلاء بالخير يحتاج إلى فهم دقيق لا يناله إلا ذوي الألباب .. قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢٤٢]، يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله .. ويدعوه، وإذا خوله نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم الله استحقاقي له ....، قوله: ﴿بل هي فتنة﴾ أي: ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي[٢٤٣] ؟

وقد قالها الذين سبقوهم.. قالها قارون وكل مخدوع.. غافلين أنها فتنة للاختبار.

ولعل فتنة الخير تعود كلها إلى «زينة الدنيا» التي تجمع كل خير .. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢٤٤].

ذهب الإمام القرطبي إلى « أن الزينة تشمل كل ما على وجه الأرض ... من جهة خلقه وصنعه وإحكامه »[٢٤٥]. وما ذاك إلا الابتلاء والاختبار في الزهد بهذه الزينة وعدم الاغترار بها واتخاذها غرضاً للشكر وليس للشهوات والأغراض الفاسدة .. لأنها زائلة بدليل التعقيب على الآية ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[٢٤٦].

وزينة الدنيا تعم جميع البشر .. فالدنيا يهبها الله للمؤمن والكافر ولكن الآخرة للمؤمن فقط، ومن ذلك فتنة العطاء قال تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٢٤٧] .. وأكثر المفسرين ومنهم القرطبي والرازي على أن المراد من قوله ﴿هؤلاء وهؤلاء﴾ المؤمنون والكافرون[٢٤٨].

والله ابتلى الناس بهذا العطاء لإظهار موقفهم من زينة الأرض.. فالمال والملك له أثر في

---

(٢٤٢) الزمر٣٩: ٤٩-٥٠.

(٢٤٣) راجع: الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٣، ص٢٢٤، سيد قطب، *الظلال*، جـ٢٤، ص٣٠٥٦.

(٢٤٤) الكهف ١٨: ٧.

(٢٤٥) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، جـ١٠، ص٣١٧-٣١٨.

(٢٤٦) الكهف ١٨: ٨.

(٢٤٧) الإسراء ١٧: ٢٠.

(٢٤٨) راجع: القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، جـ١٠، ص٢١٣، والرازي: *التفسير الكبير*، ٢٠/ ١٨١.

القلوب، فمن الناس من يجرف أمامه فيصيبه الجشع والطمع فيصبح عبداً لزينة الأرض فيتبع أحط السبل للاستزادة منها.. فكم من زلت قدمه في الترف وقسا قلبه فلا يعرف المعروف.

ولهذا حذر الله من فتنة الأموال والأولاد والأزواج وشهوات الدنيا جميعاً بآيات كثيرة.. منها: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٢٤٩] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢٥٠]، وقوله ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٢٥١]. ودل القرآن على أن كل ذلك من زينة الدنيا الفانية وأن هناك ما هو خير منها فقال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٢٥٢] وعدها من الابتلاء بالخير كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[٢٥٣].

ومن الفتنة بالخير الجاه والمنصب وله من السحر في النفوس ما فيه كما سيأتي.

وفتنة الناس بالتفاوت بينهم مختلفة، ففتنة الأعلى بالخير ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾[٢٥٤]، أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به.. ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره.. والفقير في فقره ويسأله عن صبره[٢٥٥].

ومن فتنة الخير القوة في الجسم فلا يغتر بها .. وقد عاب الله على قوم عاد - وكانوا عمالقة زادهم الله بسطة في الجسم - حين طغوا بقوتهم فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٢٥٦] وكانوا قد استغلوا قوتهم في الشر فقال عنهم ﴿وَإِذَا

---

(٢٤٩) التغابن ٦٤: ١٥ ومثلها آية ٢٨ من سورة الأنفال.

(٢٥٠) المنافقون ٦٣: ٩.

(٢٥١) آل عمران ٣: ١٤.

(٢٥٢) الكهف ١٨: ٤٦.

(٢٥٣) المؤمنون ٢٣: ٥٥- ٥٦.

(٢٥٤) الأنعام ٦: ١٦٥.

(٢٥٥) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ١، ص٦٤١-٦٤٢.

(٢٥٦) فصلت ٤١: ١٥.

﴿بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[257].

وأشد من ذلك فتنة جمال الخِلْقة وخصوصاً للنساء.

ومن الخير الصحة والفراغ للحديث: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[258] وهو أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة.. عن عمره فيم أبلاه وعن شبابه فيم أفناه..

وفتن ومحن الخير كثيرة لا تحصى والابتلاء بها أشد وطأة من ابتلاء الشر .. يقول سيد قطب رحمه الله: إن كثيرين ممن يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.. كثيرون يصمدون ويصبرون على المرض والفقر والحرمان، ولكن القليلين هم الذين يصبرون على الصحة والثراء..

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء.. ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء[259].

إن هذه النعم – كما يقول ابن عاصم الغرناطي[260] – لها من حيث الاستجلاب والاستدامة والاستزادة أسباب حافظة مثل الشكر ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[261].

ثالثاً: الفتن والمحن للتمحيص:

للابتلاء بالفتن والمحن حكم وأهداف كثيرة كما سيأتي في موضعه من البحث، ولكن سأتعرض لأهم هدف لها وهو التمحيص والتمييز لتكتمل الصورة في سنة الفتن والمحن.. ولأن ما غيرها تابع لها..

وإذا كان البلاء للكفار لكي يرجعوا إلى الحق فإن سنة الابتلاء للمؤمنين للتمحيص والتمييز، وهو ما جرت به سنة الله لإعداد الجماعة المؤمنة المستخلفة في الأرض .. ففي هذا الامتحان الخير الكثير ليعرف القوي من الضعيف والصادق المؤمن من الكاذب المنافق.

وعلى هذا فالتمحيص سنة خاصة بالمؤمنين دون الكافرين، بمعنى أن الله لا يمكّن للمؤمنين حتى يمحّصهم فيميز الخبيث من الطيب.

---

(٢٥٧) الشعراء ٢٦: ١٣٠.

(٢٥٨) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الرقاق، باب الصحة والفراغ، جـ٧، ص١٧٠، والترمذي، *جامع الترمذي*، كتاب الزهد، باب الصحة والفراغ نعمتان ...، جـ٤، ص٥٥٠، والإمام أحمد، *المسند*، جـ١، ص٢٥٨، والهيثمي، *مجمع الزوائد*، جـ١، ص٢٩٠.

(٢٥٩) راجع: سيد قطب، *الظلال*، جـ٤، ص٢٣٧٧ـ٢٣٧٨.

(٢٦٠) ابن عاصم الغرناطي، *جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى*، جـ١، ص١١١.

(٢٦١) إبراهيم ١٤: ٧.

يصاب المؤمنون بضروب الفتن والمحن فتعرف حقيقة إيمانهم، وقوتهم من ضعفهم .. وفي الحروب ومواجهات الأعداء يتجلى التمحيص في أعلى رتبه .. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[٢٦٢]، نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد .. وأكثر المفسرين - كما قال القرطبي - على أن الخطاب للكفار والمنافقين:

«أي ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق وعداوة النبي ﷺ، وقيل الخطاب للمشركين والمراد بالمؤمنين في قوله ﴿ليذر المؤمنين﴾ من في الأصلاب والأرحام .. وقيل الخطاب للمؤمنين: أي وما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق حتى يميز بينكم بالمحنة والتكليف فتعرفوا المنافق الخبيث والمؤمن الطيب، وقد ميز يوم أحد بين الفريقين وهذا قول أكثر أهل المعاني ..

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي: يا معشر المؤمنين ما كان الله ليعين لكم المنافقين حتى تعرفوهم ولكن يظهر ذلك لكم بالتكليف والمحنة.. والتعبير للآية بخطاب المؤمنين متصل، وعلى القولين الأولين منقطع »[٢٦٣].

ويؤيد ذلك تفسير الرازي يقول:« أي لا يجوز أن يحصل ذلك التمييز بأن يطلعكم الله على غيبه فيقول: إن فلاناً منافق وفلاناً مؤمن.. فلا سبيل إلى معرفة ذلك التمييز إلا بامتحانكم »[٢٦٤].

قال ابن كثير: «لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه »[٢٦٥].

وعلى هذا لا ينتظر المسلمون المؤمنون أن يأتيهم النصر على طبق من ذهب دون محن وفتن تظهر الأعداء، فإذا تمحصت صفوفهم فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٦٦] ولم يقل المسلمين.

إذن فتنة المؤمن بالبلاء سنة لتطهير الصف المؤمن كما يتميز الذهب الحقيقي من الزائف بالامتحان بالنار .. « وذلك لأن من الناس من يدخل في زمرة المؤمنين ويلبس لبوسهم ويتكلم بلسانهم فإذا أصابته فتنة أو محنة في سبيل دينه خارت قواه وانحلت عراه ويرئ مما

---

(٢٦٢) آل عمران ٣: ١٧٩.

(٢٦٣) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، جـ٤، ص٢٧٠-٢٧١.

(٢٦٤) الرازي، *التفسير الكبير*، جـ٩، ص١١١، وراجع: عبد الكريم زيدان، *السنن الإلهية*، ص٩٨.

(٢٦٥) الصابوني، محمد علي، *مختصر تفسير ابن كثير*، ١/ ٤٤١.

(٢٦٦) الروم ٣٠: ٤٧.

كان يدعيه من قبل»[٢٦٧]، وفيهم يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[٢٦٨]. وفي آية أخرى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[٢٦٩] قال سيد قطب:

«والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز وهي عملية تتم داخل النفس... وكثيراً ما يجهل الإنسان نفسه، حقيقة قوتها وضعفها إلا بتمييز... وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير، محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية»[٢٧٠].

ولهذا قال: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢٧١]، وليس كالمحنة يكشف ما في القلوب التي في الصدور فيظهر حقيقتها لأنها مقر الأسرار والخفايا «ولكنه سبحانه يريد أن يكشفها للناس ولأصحابها فقد لا يعلمونها من أنفسهم حتى تنقضها الأحداث وتكشفها لهم»[٢٧٢].

عندئذ يصدق على الجماعة المميزة قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾[٢٧٣] أي: خلّصها لهم - للتقوى - وجعلها أهلاً ومحلاً[٢٧٤]، ولذلك كان جزاؤهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

تدل الآيات السابقة على سنة التمحيص قبل التمكين «ولهذه السنة حكمة عظيمة وهي إن دولة الإيمان عندما تقوم على أسس راسخة، وجذور عميقة فتنشأ فتية قوية وتمتد في الزمن، فأعمار دول الإيمان أطول بكثير من أعمار دول الكفر»[٢٧٥].

كما نستدل بالآيات السابقة على أن المُمْتَحِنَ الذي يقوم بمهمة التمحيص هو الله سبحانه وتعالى، ولو أن الجماعة أرادت بنفسها أن تقوم بهذه المهمة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً فاللهم لك الحمد على كل بلاء كحمدنا لك على كل نعماء...

---

(٢٦٧) د. يوسف القرضاوي، *الصبر في القرآن الكريم*، ص٢١.
(٢٦٨) العنكبوت ١٠: ١١.
(٢٦٩) آل عمران ٣: ١٤١.
(٢٧٠) سيد قطب، الظلال، م١، جـ٤، ص٤٨٢.
(٢٧١) آل عمران ٣: ١٥٤.
(٢٧٢) سيد قطب، الظلال، م١، جـ٤، ص٤٩٧.
(٢٧٣) الحجرات ٤٩: ٣.
(٢٧٤) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٣، ص٣٥٩.
(٢٧٥) عبد السلام بن نصر الله الشريف، *سنة الله في عقاب الأمم*، ص١٨.

الباب الأول
أنواع الفتن والمحن في تاريخ المسلمين
الفصل الأول
الفتن السياسية والاقتصادية

المبحث الأول
الفتن السياسية

أولا: مشكلة الحكم والسلطة

لا شك أن الدارس للتاريخ الإسلامي سيستقر في ذهنه أن أبرز أسباب الفتن والمحن -على مر العصور- تعود إلى مشكلة الحكم والسلطان، واستبداد ذوي السلطة في تقرير الأمور، وقهرهم العامة بقبول ما يرونه، حتى في أخطر الأزمات، وانفراد الحكام بتوجيه الأمور وعدم المبالاة بآراء غيرهم.

وإذا كان هذا ممكناً أن يحدث لغير المسلمين، فإن الشريعة الإسلامية وضعت للأمة من الضمانات والمبادئ ما يحول دون ذلك، كما وضعت قيوداً وضوابط لما لهم وعليهم وشجعت على الوقوف بوجه المستبد الجائر، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[1].

ولكن الانحراف الذي حدث بعد الحكم الراشد، وابتعاد الناس شيئاً فشيئاً عن روح الإسلام وتعاليمه زاد النزاع على السلطة وحب السيطرة من قبل ولاة الأمور، مما أدى إلى وقوع أحداث دامية جرَّت الويلات على الأُمَّة الإسلامية إلى يومنا هذا..

مشروعية الحكم والسلطة: من المعروف أن الإسلام دين ودولة، ولا يمكن أن تطبق

---

(١) أبو داود، *سنن أبي داود*، كتاب الملاحم، باب (١٧)، جـ٤ ص٥١٤، والترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب الفتن، باب (١٣)، جـ٤ ص٤٧١، والنسائي، *سنن النسائي*، كتاب البيعة، باب (٣٦)، جـ٧ص١٦، وابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح(٤٠١١)، جـ٢ ص١٣٢٩.

تعاليم الإسلام من غير وجود دولة ورئيس لها... وقد تختلف الألقاب لمن يتولى أمر المسلمين كالخليفة والسلطان، والأمير.. وكلها مسميات لمعنى واحد.

أما وسيلة إسناد السلطة فهي «البيعة»، وهي:

«عقد رضائي بين الأُمَّة والحاكم ملزم للجانبين، يلتزم فيه الأمير بأن يسير الأُمَّة وفقاً للكتاب والسنة، وأن يقوم بفروض الإمامة... وتلتزم فيه الأُمَّة بتقديم الطاعة والنصرة له ما لم يتغير حاله»(٢)

وبما أنه عقد فأركان عقد البيعة هي(٣): الحاكم، والأُمَّة، ومحل العقد والذي هو إسناد السلطة لتنفيذ الشرع.

أما كيفية الاختيار فتكون أما عن طريق الانتخاب المباشر لجميع أفراد الأُمَّة، أو غير المباشر بطائفة أهل الحل والعقد.(٤) أما طريقة الاستخلاف أو العهد التي اعتمدها الأمويون ومن بعدهم بحجة استخلاف أبي بكر لعمر (رضي الله عنهما) فقد ردها العلماء بأن ما فعله أبو بكر ﷺ ليست بيعة بل ترشيح لمن يصلح لها ثم بايعته الأُمَّة بعد ذلك(٥).

أما الأدلة على وجوب نصب الحاكم (رئيس الدولة الإسلامية) فهي:

١ - القرآن الكريم، كالآيات التي تتعلق بالحكم ورده إلى الله والرسول ﷺ، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ...﴾(٦) والخطاب للرسول ﷺ خطاب لأمته ما لم يرد دليل يخصصه، والأمر بذلك لا يمكن إلا عن طريق من ينوب عنهم في السلطة... وبعكسه الآيات التي تحذر من الحكم بغير ما أنزل الله كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(٧).

---

(٢) البياتي، منير حميد، *النظام السياسي الإسلامي مقارناً بالدولة القانونية*، ط٢، دار البشير،عمان، ١٩٩٤، ص٢٠٩، وراجع: صبحي عبد سعيد، دكتور، *الحاكم وأصول الحكم*، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ص٤٧-٥٠.

(٣) راجع البياتي، ص٢١٢-٢٢٨.

(٤) راجع: عبد الكريم زيدان، *المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية*، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣، جـ٤ ص٣١٥-٣١٦.

(٥) راجع: المصدر السابق، ص٣٢٣، والخالدي محمود، *قواعد نظام الحكم في الإسلام*، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٠، ص٢٧٣-٢٧٩.

(٦) المائدة ٥: ٤٨.

(٧) المائدة ٥: ٤٤، وفي آية ٤٥ ﴿الظالمون﴾، و٤٧ ﴿الفاسقون﴾.

وكذلك آيات وجوب الطاعة لأولي الأمر، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ..﴾[٨].

٢ - السنة النبوية، فهناك أحاديث يرد فيها صراحة أو ضمناً ذلك، منها قول الرسول ﷺ: «لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم»[٩] وجاء الحديث بطرق أخرى بصيغة الأمر التي تدل على الوجوب، وإذا كان الأمير لثلاثة واجبا فللأمة من باب أولى.

ومنها أحاديث البيعة كقول الرسول ﷺ: «من خلع يداً من طاعتي لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[١٠].

وكذلك أحاديث وجوب الطاعة كقوله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير أطاعني، ومن عصى الأمير عصاني»[١١].

ومن أدلة وجوب الخلافة قول الرسول ﷺ: «إنما الإمام جُنة يقاتل من ورائه ويتقى به»[١٢].

٣ - الإجماع، وهو ما حدث بعد وفاة الرسول ﷺ، وتولية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومن ذلك الوقت لم يترك الناس بغير ولي «فاستقر ذلك إجماعا»[١٣].

٤ - القاعدة الشرعية «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[١٤] فإقامة الشرع وتنفيذ

---

(٨) النساء ٤: ٥٩.

(٩) الإمام أحمد، *مسنده*، جـ٢ ص١٧٦-١٧٧.

(١٠) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، جـ٢، ص١٤٧٨، أحمد، *المسند*، جـ٣ ص٤٤٦.

(١١) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأحكام، باب، قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾، جـ٨ ص١٠٤، الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، شرح النووي، جـ١٢ ص٢٢٣.

(١٢) البخاري، *الصحيح*، كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام، جـ٥ ص١١٦، برقم (٢٧٣٧، ٢٩٥٧)، الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الإمارة، باب الإمام جنة، جـ٣ ص١٤٧١، ح(١٨٤١، ٣٤٢٨)، أبو داود، *السنن*، كتاب الجهاد، باب في الإمام يستجن به في العهود، جـ٣ ص١٨٨-١٨٩، ح(٢٧٥٧)، النسائي، *السنن*، كتاب البيعة، باب ذكر ما يجب للإمام وما يجب عليه، جـ٧ ص١٥٥.

(١٣) ابن خلدون، *المقدمة*، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٠٢-٢٠٣، راجع: الخالدي، محمود، دكتور، *قواعد نظام الحكم في الإسلام*، ص٢٤٦.

(١٤) الغزالي، أبو حامد، *المستصفى من علم الأصول*، ط٢، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣، جـ١ ص٧٠.

أحكامه كالحدود والجهاد ونشر الدعوة... لا يتم إلا بوجود رئيس للسلطة له حق الطاعة والنصرة وبذلك يقول ابن المبارك:[١٥]

اللـه يدفـع بالسـلطان معضلـة عـن ديننـا رحمـة منـه ورضوانـا

لـولا الأئمـة لـم يـأمن لنـا سـبل وكـان أضعفنـا نهبـاً لأقوانـا

حدود سلطات الحاكم: بما أن الحاكم نائب عن الأُمَّة ووكيلها، فإن سلطته مقيدة بحدود تلك الوكالة وهو مقيد بما تُقيد به الأُمَّة في الأصل، فلا يملك أكثر مما يملكه الأصيل[١٦].

وللحاكم واجبات أهمها تطبيق الشرع، وقد فصل العلماء في ذلك[١٧]،وهي «رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ»[١٨]، والتي يجمعها قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[١٩]، وقال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٢٠]، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان الحاكم صالحاً متبعاً للشرع:

«إن الحاكم والحكومة ليست سلطة وتحكما في الناس بقدر ما هي مسؤولية وعمل دائب على أن يصل كل حق إلى صاحبه... ومن فهم من الحكام أو ممن يتولى أي مسؤولية في الإسلام غير ذلك فقد خرج عن نظام الإسلام في الحكم»[٢١].

---

(١٥) ابن المبارك، *ديوان الإمام المجاهد*...، تحقيق د. مجاهد مصطفى بهجت، ط٣، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٢، ص٦٦.

(١٦) راجع: البياتي، منير حميد، *النظام السياسي الإسلامي*، ص٢٤٠.

(١٧) فصلت كتب السياسة الشرعية حقوق وواجبات الحاكم كالماوردي،وأبي يعلى في *الأحكام السلطانية*، وابن تيمية والشهرستاني، وابن خلدون، وعبد الوهاب خلاف... وراجع: علي عبد الحليم محمود، دكتور، *فقه المسؤولية في الإسلام*، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥، ص٢٥٠-٢٧٧.

(١٨) حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي*، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤، جـ١ ص٤٦٤.

(١٩) الحج ٢٢: ٤١.

(٢٠) البخاري، *الصحيح*، كتاب الوصايا، باب تأويل قوله تعالى: ﴿من بعد وصية...﴾، جـ٣ ص١٨٩، ومسلم، *الصحيح*، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، جـ٢ ص١٤٥٩، ح(١٨٢٩)، والترمذي، *السنن*، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الإمام، جـ٤، ص٢٠٨، ح(١٧٠٥)، وأبو داود، *السنن*، كتاب الخراج و الإمارة والفيئ، باب ما يلزم الإمام من حق الرعية، جـ٣ ص٣٤٢، ح(٢٩٢٨).

(٢١) راجع: علي عبد الحليم محمود، *فقه المسؤولية*، ص٢٤٧.

أما حقوق الحاكم فأهمها الطاعة (غير المطلقة) المقيدة «بالمعروف» كما دلت النصوص على ذلك كقوله تعالى: ﴿...وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[٢٢]، وقال أبو بكر الصديق ﷺ: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم»[٢٣]، يقول ابن كثير: «أمر الله بطاعة رسوله وهو خيرة الله في خلقه بالمعروف»[٢٤]، فغيره من باب أولى... وقال رسول الله ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[٢٥].

وهذا يعني أن الطاعة في المعصية معصية، وعليه الإجماع، قال الرازي: «إن الأُمَّة مجمعة على أن الأمراء والسلاطين إنما يجب طاعتهم فيما علم بالدليل أنه حق وصواب»[٢٦].

مشكلة تجاوز السلطة لحدودها: بما أن وجود الحاكم واجب لا بد منه، فإن وجود السلطة يقسم الجماعة إلى حاكم ومحكوم، وآمر ومطيع، ولكي تقوم السلطة بمهمتها الداخلية والخارجية دون التعرض لحقوق الأفراد وحرياتهم وصيانتها، ودون ظلم لأحد الطرفين، فقد تكفل الإسلام – وهو النظام الرباني – بحل ذلك بأن قيد سلطة الحاكم بالشرع، فإذا تجاوز ذلك وانحرف فقد فتح باب المشكل السياسي والذي هو «مشكلة شعب في مواجهة سلطة»[٢٧] وذلك لأن الأُمَّة مسؤولة أمام الله في اختيارها للحاكم، وعليها ألا تسكت أمام إنحرافات السلطة، كما أن الفرد والأُمَّة مسؤولون في طاعة الحاكم بالمعصية والتي تستحق العذاب عليه بالنار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾[٢٨]، كما تثبت مسؤولية الجماعة في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢٩].

---

(٢٢) الممتحنة ٦٠: ١٢، ومثلها: الشعراء، آية ١٥١-١٥٢، الكهف آية ٢٨، الأحزاب آية ٦٧، ٦٨.

(٢٣) عبد السلام هارون، *تهذيب سيرة ابن هشام*، ص٣٠٤.

(٢٤) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٣ ص٤٨٩.

(٢٥) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة ما لم يكن معصية، جـ٨ ص١٠٥، والترمذي، *السنن*، كتاب الجهاد، باب لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، جـ٤ ص٢٠٩، ح(١٧٠٧)، وابن ماجة، *السنن*، باب لا طاعة في معصية الله، جـ٢ ص٩٥٦، ح(٢٨٦٤).

(٢٦) الرازي، *التفسير الكبير*، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠، جـ٥ ص١١٧.

(٢٧) الغنوشي، راشد، *الحريات العامة في الدولة الإسلامية*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٣، ص٢٧.

(٢٨) الأحزاب ٣٣: ٦٦، وانظر بمعناها البقرة ٢: ١٦٦، ١٦٧.

(٢٩) الأنفال ٨: ٢٥.

وفي الحديث سأل بعض الصحابة عن طاعة أميرهم الذي أمرهم بأن يلقوا بأنفسهم في النار فقال ﷺ: «...لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً إنما الطاعة في المعروف»[٣٠].

كما أن محاسبة الحاكم عند تجاوز حدود سلطته من قبل الأُمَّة ثابت لأن مسؤوليته ثنائية أمام الله وأمام الأُمَّة، لأنها صاحبة الحق في الاختيار فكذلك في المحاسبة، وكان الخلفاء الراشدون يطلبون ذلك، ففي خطبة أبي بكر ﷺ: «...فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني »، وكذلك عمر بن الخطاب: «من رأى منكم فيّ إعوجاجاً فليقومه، قال أعرابي: والله لو رأينا فيك إعوجاجاً لقومناه بسيوفنا»[٣١].

ومهمة الأُمَّة في ذلك فرض كفاية يبدأ بالنصح وتنتهي بالخلع[٣٢] مع مراعاة التدرج، فالإنكار القلبي فرض عين، ثم باللسان وهو واجب كفائي للعامة وعيني للعلماء ثم إسقاط حق الطاعة لمن قدر على ذلك[٣٣]..

ومبدأ عزل الخليفة بسبب يوجبه مبدأ ثابت بأدلة قوية جازمة[٣٤]، بشرط ألا يستلزم ذلك وقوع ضرر أكبر من بقائه، فإن استجاب لقرار تولي أهل الحل والعقد ترشيح غيره.. وإلا يحق للأمة الخروج عليه إذا وجدت مبرراً قوياً مما يعد كفراً في نظر الشرع.. فعن عبادة بن الصامت قال:«دعانا النبي ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وسيرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً، عندكم من الله فيه برهان»[٣٥].

وحدث في تاريخ المسلمين خروج -في القضايا السياسية- عن الشرع، أدى إلى الخروج على الحكام... ووقوع فتن كان قد تنبأ بها رسول الله ﷺ فقال: «إنكم ستحرصون على

---

(٣٠) انظر نص الحديث والقصة في: البخاري، *الصحيح*، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، جـ٨ ص١٠٦، النسائي، *السنن*، كتاب البيعة، باب جزاء من أمر بمعصية فأطاع، جـ٧ ص١٥٩.

(٣١) عبد الوهاب خلاف، *السياسة الشرعية*، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣، ص٣٠.

(٣٢) راجع: الخالدي، محمود، *قواعد نظام الحكم في الإسلام*، ص٢٠٣-٢٠٤.

(٣٣) راجع: صبحي عبد سعيد، *الحاكم وأصول الحكم في النظام الإسلامي*، ص١٩٥-١٩٦.

(٣٤) راجع: البياتي، منير، ص٣٣٦، والمصدر السابق، ص١٩٢.

(٣٥) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، جـ٨ ص١٢٢، مسلم، *الصحيح*، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء، ح(١٧٠٩)، جـ٢ ص١٤٧٠، والنسائي، سنن *النسائي*، كتاب البيعة، باب البيعة على السمع والطاعة، جـ٧ ص١٣٨، وابن ماجة، سننه، كتاب الجهاد، باب البيعة، جـ٢ ص٩٥٧، ح(٢٨٦٦)، ومسند *أحمد*، جـ٥ ص٣١٤، ٣٢١.

الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة»[٣٦].

ومبدأ الخروج على الحاكم أمر خطير، الغاية منه حفظ الدين، فهو ضرورة استثنائية عند ضمان نجاحها[٣٧].

وهكذا دب في المسلمين داء الأمم من قبلهم، فالصراعات البشرية قديماً وحديثاً تعود لتلك النزعة في أعماق الإنسان في حب السيطرة والتسلط مما جرّت على الأمم الفتن والويلات.. ولم تدم الخلافة الراشدة سوى ثلاثين سنة بدأت بعدها فتنة السلطة إلى يومنا هذا.. قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون، ثم ملك بعد ذلك»[٣٨].

ولقد حذر القرآن الكريم من الوقوع في فتنة الصراع بسبب السلطة، وضرب لنا الأمثلة على الطغاة المستبدين الذي غرهم سلطانهم فضلوا وأضلوا وذلك لأخذ العبرة منهم، لأن فتنة المال وشهوة الحكم جذورها عميقة في أعماق النفس البشرية، وقد ذكر لنا القرآن أبرز مثل في فرعون الذي استعبد الناس، وبلغ من تجبر هذا الطاغية أن استخف بدعوة موسى عليه السلام وقال القرآن عنه: ﴿**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾[٣٩] والأكثر من ذلك ﴿**فَحَشَرَ فَنَادَى**﴾﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾[٤٠].

كما بين القرآن بقصة فرعون حال الشعوب مع الطغاة فقال: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾[٤١]، مما يدل على أن الأُمَّة الصالحة لا يستطيع أن يستخف بها

---

(٣٦) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة، ح(٧١٤٨)، جـ٨ ص١٠٦، والنسائي، *سنن النسائي*، كتاب البيعة، باب ما يكره من الحرص على الإمارة، الإمام أحمد، *مسنده*، جـ٢ ص٤٤٨، ٤٧٦.

(٣٧) تعد فكرة المقاومة والخروج على السلطة – عند انحرافها – أحد المسائل الفقهية التي دار حولها جدل كبير بعد الخلافة الراشدة وتبلورت إلى نظرية «الخروج والمقاومة في الفقه الإسلامي» وأدت إلى ظهور ثلاث نظريات أولها تدعو إلى الخروج بغض النظر عن القدرة والتمكن، والثانية داعية إلى الصبر والمقاومة السلبية، والثالثة داعية إلى الثورة بشرط التمكن.. راجع: د. صالح حسن سميع، *أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي*،ط الزهراء للاعلام العربي، القاهرة ١٩٨٨،ص٦٢٧-٦٣٧.

(٣٨) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٤ص٢٧٣، جـ٥، ص٤٤، والترمذي، *الجامع الصحيح*، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة، جـ٤ ص٥٠٣، ح(٢٢٢٦)، وقال: هذا حديث حسن.

(٣٩) الزخرف ٤٣: ٥٠.

(٤٠) النازعات ٧٩: ٢٣-٢٤.

(٤١) الزخرف ٤٣: ٥٣.

طاغية جبار إلا إذا كانت في غفلة وابتعاد عن الله سبحانه وتعالى فيتحقق فيهم قول الرسولﷺ: «كما تكونوا يولّ عليكم»[٤٢]، وهذا ما هو حاصل في عموم الأُمَّة الإسلامية..

تاريخ انحراف السلطة وأسبابه: إن مشكلة الحكم والسلطة بدأت بالظهور بعد الخلافة الراشدة حين جعل معاوية بن أبي سفيان ﷺ الحكم وراثياً، وخالف حرية الاختيار وأصول البيعة، والتي يشترط فيها أن يكون منصب الرئاسة شاغراً[٤٣]، وفرض على الناس أن يقسموا على الولاء لابنه «يزيد» في حياته وسمى ذلك بيعة..

والأمر الآخر أن بني أمية أحاطوا أنفسهم بمظاهر الملوك وترفهم -خلافا لما كان عليه الخلفاء الراشدون من الزهد- وأحاطوا أنفسهم بالقدسية بأن الله اختارهم للملك وأشار إلى ذلك زياد بن أبيه في خطبته البتراء عندما عين والياً على البصرة فقال: «أيها الناس أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا...»[٤٤].

وعلى هذا النظام سار العباسيون، وربما جعلت ولاية العهد لاثنين أو ثلاثة، فحرم المسلمون من حقهم في الانتخاب الحر[٤٥].

ومن أسباب ذلك الانحراف ما يأتي:

١ - **ظهور العصبية القبلية:** والتي حاربها الإسلام واختفت في عهد النبي ﷺ وإلى أواخر عهد علي ﷺ، ويروي ذلك ابن خلدون فيقول: «إن الخلافة كانت في الصدر الأول إلى آخر عهد علي ثم صار الأمر إلى الملك، وبقيت معاني الخلافة وتحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق، ولم يظهر التغيير إلا في الوازع الديني، كان الوازع دينيا ثم انقلب إلى عصبية وسيف، وهكذا كان الأمر... إلى الرشيد وبعض ولده، ثم ذهبت معاني الخلافة ولم

---

(٤٢) لم أجد الحديث في كتب الصحاح والسنن، وذكره الألوسي، محمود شكري، في تفسيره «*روح المعاني*»، ط المنيرية، مصر، ١٩٨٥، جـ٨ ص٢٧.

(٤٣) راجع: كتاب *الخلافة* للسنهوري، بند ٧٠، ص١٥٣، نقلا عن: الشاوي، توفيق، دكتور، *فقه الشورى والاستشارة*، ط٢، دار الوفاء، القاهرة، ١٩٩٢، ص٤٤٧.

(٤٤) الطبري، *تاريخ الطبري*، جـ٥ ص١١٢.

(٤٥) أصبح الخليفة الأموي يعين ولي العهد ويأخذ له البيعة من وجوه الناس وكبار القواد في حضرته، وفي الأقاليم بحضور الوالي نيابة عنه، وتتم بالوعد والوعيد مما أدى إلى ظهور البغضاء في البيت الأموي ثم تعداه إلى القواد مما أدى إلى سقوطهم.. راجع: حسن إبراهيم حسن، جـ١ ص٤٧٤.

يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكاً بحتاً، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها»[٤٦] ويقصد بالوازع الديني في الملك فقط..

٢ - حب السلطة والمنصب والجاه: ومن المعروف أن للمنصب عند البعض نشوة تلعب بالرؤوس لا تعادلها نشوة، فتساعد على الغطرسة والاستعلاء والبطش، وتزين لصاحبها أنه على الحق والصواب[٤٧]وقد تنبأ الرسول ﷺ بمثل هؤلاء الحكام المسببين للفتن فقال: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع في أمتي السيف لم يرفع إلى يوم القيامة»[٤٨]،كما تنبأ بوجود الحاشية الفاسدة لهم فقال: «أخوف ما أخاف على أمتي رجل منافق عليم اللسان غير حكيم القلب، يغيرهم بفصاحته وبيانه ويضلهم بجهله...»[٤٩].

وعلى هذا واجه الحكامُ المعارضينَ بالقمع، وقد كانوا تعودوا على تواضع الخلفاء الراشدين كقول أبي بكر: «وليت عليكم ولست بخيركم»[٥٠] وإذا أحس أحدهم بنشوة الحكم فعل ما يردع نفسه كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ وقد نادى يوماً: الصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«أيها الناس لقد رأيتني وأنا أرعى على خالات لي من بني مخزوم فكنت استعذب لهن الماء فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب ثم نزل. فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: ويحك يا ابن عوف خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين وليس بينك وبين الله أحد فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها قدرها»[٥١]

ومن تواضع علي بن أبي طالب أنه «كان يكنس بيت المال ثم يصلي فيه»[٥٢].

---

(٤٦) ابن خلدون، *المقدمة*، ص٢٢٠، وراجع: طه عبد الباقي سرور، *دولة القرآن*، ط دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٠٧-١٠٨.

(٤٧) راجع: أبو زهرة، محمد، *تاريخ المذاهب الإسلامية*، جـ١ ص٢٨.

(٤٨) الترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأئمة المضلين، جـ٤ ص٥٠٤، ابن ماجة، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن، ح(٣٩٥٢)، الدارمي، *السنن*، المقدمة، باب كراهية أخذ الرأي، جـ١ ص٦٠.

(٤٩) الإمام أحمد، *المسند*، جـ١ ص٢٢.

(٥٠) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، *البداية والنهاية*، تحقيق، د. أحمد أبو ملحم، ود. علي نجيب عطوي وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، جـ٥ ص٢١.

(٥١) محمود شاكر، *التاريخ الإسلامي*، جـ٩ ص١٧٨.

(٥٢) السيوطي، جلال الدين، *تاريخ الخلفاء*، ط دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٣، ص٨٠.

٣ - **الاستعداد الشخصي للانحراف عند بعض الحكام**: فالنزوع إلى إساءة استعمال السلطة إنما هو نزعة سلوكية واعوجاج في سلوك الإنسان، وقد عالج الإسلام ذلك بربط أصول الحكم بالعقيدة والأخلاق - حماية للحاكم من الاستبداد - باعتباره منفذاً للشريعة وليس له سن القوانين، كما حث الإسلام على تولية الكفء الأمين ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾[٥٣] ثم العقاب الدنيوي بالخلع وعقاب الله بالآخرة[٥٤].

والاستبداد في السلطة ليس خاصا بالمسلمين، بل هو مرض إنساني قديم ناتج عن نقص في طبيعة البشر، وليس الانحراف بسبب عيب في الدين - بعد أن وضع الضمانات لمنعه - بل في طبيعة من تولى الأمر..

ومن العوامل المساعدة على الانحراف وزيادة الفتنة وجود بطانة السوء المحابين لذوي السلطة وهم أصناف:

١ - **الأقارب «العصبية»**: ويكون لهؤلاء تأثير إيجابي، ولكن الغالب أن يكون لهم تأثير سلبي للاستئثار بالمناصب والجاه والمال...

٢ - **الأعوان من ذوي المراكز**: كالوزراء والولاة والقادة، والحاكم مسؤول أمام الله عن حسن اختيارهم ومحاسبتهم، يقول رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن إراد غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»[٥٥].

ويدخل ضمن هؤلاء: الجند المدافعون عن الدولة، وغالباً ما تنفق الدولة عليهم بسخاء لضمان تأييدهم، وبهذا تجتمع للحاكم قوة السلطة والمال والسلاح..

ومنهم كذلك بعض الأغنياء وأصحاب المصالح الذين يتقربون للحاكم وذويه حفاظاً على ثرواتهم وخصوصاً ذوي الكسب غير المشروع، فيستغلهم بالمقابل لجمع المؤيدين وتضليل الناس...

٣ - **الأدباء المداحون**: وهم يمثلون (وسائل الإعلام في الوقت الحاضر)، وخصوصاً الشعراء فقد كان للشعر أثر بالغ في تدعيم الدولة، فقد عرف عن العرب تعلقهم بالشعر

---

(٥٣) القصص ٨: ٢٨.

(٥٤) راجع: البياتي، منير حميد، ص١٦٣-١٦٤.

(٥٥) أبو داود، *السنن*، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في اتخاذ الوزير، جـ٤ ص٣٤٥.

وتناقله والتمثل به، والإسلام لم يحرم ذلك حقاً وهدفه نشر الإسلام والحث على الجهاد، والذي نعنيه التكسب بالمدح فيجزل العطاء على قدر المبالغة في وصف الممدوح، وهم الذين قال عنهم القرآن الكريم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ۝أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ۝وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ...﴾(٥٦) وفي الحديث المشهور قال النبي ﷺ لما سمع رجلاً يمدح رجلاً: «ويلك قطعت عنق صاحبك»(٥٧).

وقد كان لهؤلاء الأدباء الذين يترددون على قصور الخلفاء أثر في تدعيم ملكهم.. حيث بالغ الشعراء في تصوير أحقية الأمويين بالخلافة، فهذا جرير يصف عبد الملك بن مروان بأن الله حباه بالخلافة لأنه الأحق والأجدر فيقول:(٥٨)

الله طوقك الخلافة والهدى	والله ليس لما قضى تبديل
ولّى الخلافة والكرامة أهلها	فالملك أفيح والعطاء جزيل

ويقول فيه الفرزدق(٥٩):

فالأرض لله ولاها خليفته	وصاحب الله فيها غير مغلوب
فأصبح الله ولى الأمر خيرهم	بعد اختلاف وصدع غير مشعوب

ونرى من يبالغ فيجعل للخليفة صفات الله... ومقام النبوة، فهذا ابن هانئ الأندلسي يمدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قائلاً(٦٠):

ما شئت لا ما شاءت الأقدار	فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد	وكأنما أنصارك الأنصار

وكان بعض الخلفاء يقربون هؤلاء ويجزلون لهم العطاء، متناسين تحذير الرسول ﷺ في المبالغة بالمدح بالحق فكيف بالباطل.. وذلك لأن الممدوح يغتر بذلك بأنه على حق فيزيد في

---

(٥٦) الشعراء ٢٦: ٢٢٤-٢٢٦.

(٥٧) مسلم، *الصحيح*، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، جـ٣ ص٢٢٩٦، ح(٣٠٠٠)، وفي مسلم أيضا ح(٣٠٠٢): «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»، وأبوداود، *السنن*، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح، جـ٥ ص١٥٤.

(٥٨) جرير، *شرح ديوانه*، تحقيق إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٢، ص٥٦٨.

(٥٩) الفرزدق، *ديوانه*، تحقيق علي فاعور، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص٢٦.

(٦٠) *ديوان محمد هانئ الأندلسي*، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥، ق٥٣، ص١٨١.

بطشه لمن خالفه.

٤- **العلماء (فقهاء السلاطين)**: وإذا وضعنا تأثير الأصناف السابقة في فتنة الأُمَّة في كفـة، نضع في الكفة المقابلة تأثير العلمـاء، لاقتـداء العامـة بهـم، يؤكـد ذلـك قـول الرسـول ﷺ: «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد النـاس: العلمـاء والأمـراء»[٦١]، والناس إنما يتبعون هذين الصنفين، والمفروض أن العلماء يعينهم علمهم على معرفة الحـق.. فزلة العالـم ليست كزلة الجاهل، فلا يليق به محاباة حاكم ظالم، «وإذا حدثنا التاريخ عن أمـة ذلت بعد عزة أو دولة سقطت بعد قوة فتبعة ذلك الذل أو السقوط ملقاة على رقاب أولئـك العلماء الذين لا ينصحون، أو الرؤساء الذين لا يحبون الناصحين»[٦٢]، وذلـك لأن للعلمـاء منزلة في الإسلام فهم «ورثة الأنبياء»، أكدت الأحاديث فضل العاملين منهـم، فقـال رسـول الله ﷺ: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السـماء يهتـدى بهـا في ظلمـات الـبر والبحر، فإذا طمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»[٦٣]،فلا يجوز للعالـم كتمـان الحـق ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُـمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾[٦٤]، كما لا يجوز لهم تزييف الحق تحيزاً واتباعـاً للهـوى ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[٦٥].

وقد تسمى الأصناف المذكورة «البطانة» فقد كان الخلفاء الراشدون ﷺ يتخذون من أكابر الصحابة بطانة صالحة فيُسْدونَ لهم النصح على مقتضى الشرع، وقد جاء بعدهم مـن يتخـذ بطانة سوء أو مـا تسـمى «الحاشـية الفاسـدة» تزيـن لـه عملـه، والمتـأمل في طغيـان الحكـام وفسادهم يجد أن للحاشية الفاسدة ونفاقهم أثراً كبيراً، وسبباً قوياً في حـدوث زلات الحكـام بتزيين أخطائهم لهم.

---

(٦١) المتقي الهندي، *كنز العمال*، جـ٦، ص٣٠، ح(١٤٧٠٨)، والزبيـدي، *إتحاف السـادة المتقين*، ط دار الفكر، بيروت، (د.ت)، جـ١ ص٧٨.

(٦٢) محمد خضر حسـين، الشـيخ، *رسـائل الإصـلاح*، دار الإصـلاح، السـعودية/ الدمـام، ١٩٧٧، جـ١ ص٢٢٤.

(٦٣) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص١٥٧، والمتقي الهندي، *كنز العمال*، جـ١٠ ص١٥١، ح(٢٨٧٦٩).

(٦٤) آل عمران ٣: ١٨٧.

(٦٥) آل عمران ٣: ٧١.

أما تعليل الانحراف بضعف الدين، فلا نؤيد القول على إطلاقه، فالانحراف كان في جانب واحد هو « تولي السلطة » وقد امتدح الرسول ﷺ تلك القرون فقال: «خير القرون قرني ثم الذي يليه ثم الذي يليه»[٦٦] وقامت الدولة الأموية ثم العباسية بالفتوحات والإنجازات الحضارية وترسيخ مبادئ الإسلام وتشجيع العلم، وكان بعض ما حدث من إنحرافات اجتهاداً خاطئاً[٦٧].

وفي نفس الوقت لا نريد أن نعلل كل ما ارتكبه آل أمية بحسن النية وخشية الفتنة، وتبرير البطش حماية للدولة، كما يقول الأستاذ محمود شاكر: « فإن من اعتاد الفتنة لا تردعه إلا القوة.. وحماية الدولة لا بد لها من قوة »[٦٨].

كما لا يمكن تعليل كل الإنحرافات بالاجتهاد الخاطئ كولاية العهد لأكثر من واحد وللصغير والضعيف.. إنما هو حب السلطة.. فكم من عابد تقي رقيق القلب انقلب حاله بعد تولي السلطة إلى شرس قاتل..

وكان الخلفاء العباسيون أشد فتكاً بالمعارضة من الأمويين، كما استهلوا الحكم بالتنكيل في بني أمية.. وتتكرر الصورة على مر الزمان فكم من الرؤساء من قتل أقرب الناس إليه إذا نازعه على السلطة فالتاريخ القديم والحديث مليء بتلك الشواهد[٦٩].

وقد يكون من جملة الأسباب الاجتهادات الخاطئة لبعض الفقهاء، ومع أن الفقه كان محمياً من أيدي الطغاة إلا أنه أمام الواقع نجد أن بعض الفقهاء أجاز هذا النوع من الحكم مما ساعد على تثبيته نتيجة الخلط بين أحكام الخلافة الصحيحة وخلافة الاستيلاء[٧٠].

كما سارت الدولة العثمانية على منهج الخلافة الأموية والعباسية، وتوسعت الدولة الإسلامية، ولكنها ضعفت لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها.. وقد تظافرت قوى الأعداء على إسقاط الخلافة وألزمت تركيا بالتخلي عن الشريعة، بل التخلي

---

(٦٦) الإمام مسلم، *صحيح مسلم بشرح النووي*، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ﷺ، جـ١٦ ص٨٦.

(٦٧) من ذلك اجتهادهم في ولاية العهد بحجة استخلاف أبي بكر لعمر.. وهو اجتهاد خاطئ لأنه كان ترشيحاً بعد استشارة للصحابة، كما أنه لم يستخلف أحد أبنائه...

(٦٨) راجع: محمود شاكر، *التاريخ الإسلامي 'مفاهيم حول الحكم الإسلامي'*، جـ٩ ص١١-١٢، ١٣-١٤.

(٦٩) انظر: عبد الأمير مهنا وحسين مرتضى، *أخبار المصلوبين وقصص المعذبين*، في ٢٨٣ صفحة.

(٧٠) راجع: د. توفيق الشاوي، *فقه الشورى والاستشارة*، ص٥٤٢-٥٤٣، وذكر من هؤلاء الفقهاء الماوردي وابن خلدون في جواز ولاية العهد.

عن الإسلام كدين للدولة -كما سيأتي في الباب الثالث-.

بعد ذلك زاد الانحراف والضعف السياسي وتبعه الابتعاد عن الدين، وإذا كان الانحراف في الماضي مقصوراً على الحكم فقد أصبح اليوم في كل المجالات.. وأصبح الاستبداد السياسي متعدد الألوان والأشكال، وأول الفتن كان في مفهوم فصل الدين عن السياسة واقتصار الدين على العبادة جرياً على المبدأ الغربي «دع ما لقيصر لقيصر».

كما لجأ الأعداء إلى إلصاق التهم بالخلافة بقصد تشويه الإسلام في أنه سبب الإنحرافات.. حتى - من المؤسف - وافقهم من المسلمين من ألّف كتاب «الإسلام وأصول الحكم»[٧١] وهو علي عبد الرازق الذي أنكر فيه أن الإسلام وضع قواعد للحكم.. فكان ضربة للمسلمين وخدمة للأعداء في استحالة توحيد الأُمَّة.

كما ظهرت المحاولات لترويج الديمقراطية - ولا زالت - بديلاً عن الإسلام فقام من المسلمين من يدافع عن الإسلام ببيان أوجه الشبه بين الديمقراطية والإسلام، وكان الأجدر وضع الحلول لتطبيق مبادئ الإسلام كالعدالة والشورى والحرية مع مراعاة الواقع دون أن نطلب المثال الذي كان في الخلافة الراشدة، وذلك لأن من أسباب استمرار الطغاة ما تضعه الكتب لحد الآن من شروط للخليفة[٧٢]، وهم يعرفون أنها ليست موجودة لأحد الآن، حتى أن المذكرة التركية عللت إنهاء الخلافة بعدم وجود الشخصية التي تصل إلى ما بلغه الراشدون من الصحابة...

وعلى هذا كان لفتنة الحكم والسلطة أثر في التراجع الحضاري للأمة الإسلامية وجرت عليها السنن الإلهية التي تصيب من نكص عن اتباع الرسالات السماوية.. ولا أمل إلا بالرجوع إلى حكم الله والاعتبار بالأمثلة القرآنية الواقعية في هذا المجال..

ومن هذا العرض الموجز لفتنة الحكم والسلطة يتبين لنا أنها بداية الفتن السياسية وما بعدها تبع لها..

---

(٧١) أثار هذا الكتاب ضجة وحوكم صاحبه من قبل لجنة من علماء الأزهر وفصل من زمرة العلماء، وقد رد عليه العلماء في كتب خاصة ونقضوا جميع أقواله.. راجع مثلا: *معركة الإسلام وأصول الحكم*، تأليف د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩.

(٧٢) وذلك مثل اشتراط «القرشية» علماً أن المسألة مختلف فيها، والمختار أنها عنصر تفضيل وليس بشرط، وكذلك كونه « مجتهداً »وليست في الحكام الآن هذه الصفة.

ثانياً: تعطيل مبدأ الشورى

للشورى أهمية كبيرة في الشريعة الإسلامية، حيث تعد من معالم الشريعة وميزة للحكم الإسلامي الصحيح، وسمة للمجتمع المؤمن بوصفها ضرورة للأمة والجماعة.

وتستند هذه الأهمية إلى نصوص القرآن والسنة وخصوصاً التطبيقات العملية من قبل الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، كما أن وجود سورة في القرآن تحمل اسم «الشورى» دليل على مكانتها في التشريع، والملاحظ على هذه النصوص أنها تربط مبدأ الشورى بالعقيدة والأخلاق.

والشورى بالمعنى العام مبدأ قرآني وأصل عام لجميع شؤون المجتمع تتفرع عنه قواعد وضوابط تقيم لنا نظماً إجتماعية وسياسية واقتصادية متكاملة.. تعتمد في مصدرها - فضلاً عن القرآن والسنة - على الإجماع والاجتهاد اللذين يمهدان للأحكام سبيل النمو والتطور لمواجهة مستجدات الحياة، وهذان المصدران يتجددان من خلال التشاور العلمي والفكري.

وقد شهدت الإنسانية تطبيقاً مثالياً للشورى في عصر الرسول ﷺ، وظهرت أكثر وضوحاً في عهد الخلفاء الراشدين لكون الحاجة إليها أكثر بعد انقطاع الوحي، فكانوا نموذجاً رفيعاً محققاً لقوله تعالى: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**(٧٣).

وبعد ذلك ابتعدت الأُمَّة الإسلامية عن الشورى تدريجياً.. وازدادت بعداً بمستوى الابتعاد عن الشريعة كمنهج للحياة، وكلما ازداد المجتمع بعداً عن الشورى زادت الفتنة فيه وعمت الفوضى أرجاءه، وازداد الانفصام بين الحاكم والمحكوم، وراح الناس يبحثون عن ملجأ ومخرج يقيهم الفتن من جَوْر الحكام فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فوقعوا في شباك المذاهب المستوردة إلى أن آل الأمر إلى ما نحن عليه حيث أصبحت مجتمعاتنا بعيدة عن الشورى وحقيقتها، إما لأنها لا تأخذ بها أصلاً أو تدعيها ادعاءً وتجري تحتها التسلط والاستبداد.

معنى الشورى: تدور المعاني اللغوية للشورى حول الاستخراج والإظهار والاستقصاء مادياً ومعنوياً بما في ذلك التفكير الصائب والرأي السديد(٧٤).

---

(٧٣) القصص ٢٨: ٨٣.

(٧٤) راجع: قحطان عبد الرحمن الدوري، *الشورى بين النظرية والتطبيق*، ط مطبعة الأمة بغداد، ١٩٧٤، ص١٤، ومحمود شيت خطاب، *الشورى العسكرية النبوية*، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٩٠، ص٤.

وفي الاصطلاح: استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض[٧٥].

ومهمة الشورى «هي تقليب أوجه الرأي واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة»[٧٦].

وقد ينص في التعريف على الفرق بين الشورى العامة والشورى بالمعنى الضيق ذات القرار الملزم[٧٧].

وللعلماء وجهات نظر في مجال الشورى، والراجح أن كلمة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[٧٨] عامة يدخل فيها كل أمر لا وحي فيه، وفي مقدمتها الأمور الهامة كالحرب والسياسة يقول البخاري: «كان الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها»[٧٩]،ويرى بعض المفكرين المحدثين: «إن من أهم مجالات الشورى إقامة رئيس للدولة، وإذا كان هذا المنصب أخطر منصب في الدولة.. فليس هناك مجال لعدم تطبيق الشورى العامة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ في مثل هذا الأمر الخطير»[٨٠].

والمتأمل لآيات الشورى في القرآن يجد أن الله تعالى يربط الشورى بالإيمان على أنها مبدأ عقدي وأخلاقي للمجتمع المسلم وفي أصغر وحداته وهي الأسرة كما قال: ﴿...فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[٨١].

حكم الشورى- وفيه ثلاثة آراء:

الرأي الأول - الوجوب: وهو رأي بعض العلماء الأوائل مثل ابن جرير الطبري وابن كثير وابن تيمية والجصاص وفخرالدين الرازي فضلاً عن غالبية العلماء المعاصرين مثل محمد عبده ومحمد رشيد رضا وآخرين[٨٢].

---

(٧٥) *المعجم الوسيط*، جـ١، ص٤٩٩، والآلوسي، *روح المعاني*، جـ٢٥ ص٤٢، وراجع تعاريف أخرى.

(٧٦) سيد قطب، *في ظلال القرآن*، جـ١ ص٥٠٢.

(٧٧) راجع: توفيق الشاوي، *فقه الشورى والاستشارة*، ص٨٠، ١١٧.

(٧٨) آل عمران ٣: ١٥٩.

(٧٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، جـ٨ ص١٦٢.

(٨٠) الغنوشي، راشد، *الحريات العامة*، ص١٤٨، والآية من الشورى ٤٢: ٣٨.

(٨١) البقرة ٢: ٢٣٣.

(٨٢) راجع: مهدي فضل الله، دكتور، *الشورى طبيعة الحاكمية في الإسلام*، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٤.

واستدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ... وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[(٨٣)]، وذلك لأنه تعالى ذكر الشورى بين فريضتين بعد الصلاة وقبل الزكاة فتأخذ حكمهما في الوجوب.

ثم إن مدح الله تعالى للمؤمنين العاملين بالشورى يعطيها معنى الصفة المرغوبة والمطلوبة على الدوام في الأُمَّة الإسلامية وبالتالي صفة الإلزام والوجوب[(٨٤)].

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[(٨٥)] وهو نص صريح بالأمر يقتضي الوجوب وقد نزلت هذه الآيات أعقاب غزوة أحد وما حدث فيها من ظروف، وبعد أن أخذ الرسول ﷺ برأي الأغلبية... ومع ذلك فهي تأمره بالعفو عنهم والاستغفار لهم والاستمرار في مشاورتهم وهذا يعني وجوبها مهما كانت النتائج.

وقد أشار القرطبي في تفسيره إلى قول ابن عطية: «الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم فعزله واجب»[(٨٦)].

كما يفهم من تفسير المرحوم سيد قطب ذلك فقال:

«بهذا النص الجازم ﴿وشاورهم في الأمر﴾ يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم.. وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه»[(٨٧)].

الرأي الثاني- الندب: وهو رأي عامة الفقهاء من الأوائل والسلف مثل الشافعي والغزالي وابن حزم وابن قيم الجوزية والماوردي[(٨٨)]، وهؤلاء فسروا الآية الأولى على أنها خبر فيه مدح للمؤمنين لا دليل فيه على الوجوب، والآية الثانية أمر يصرف إلى الندب من قبيل التودد للمسلمين وتطييباً لقلوبهم، كما ذكروا أمثلة على عدم استشارة الرسول ﷺ في حوادث خطيرة كصلح الحديبية، وقتال بني قريظة على أهميتهما، وقد رد العلماء ذلك بأن عدم الاستشارة لوجود الوحي[(٨٩)]، كما أنه لا دليل لصرف الأمر إلى الندب في الآية.

---

(٨٣) الشورى ٤٢: ٣٨.
(٨٤) راجع: مهدي فضل الله، ص١٠٧.
(٨٥) آل عمران ٣: ١٥٩.
(٨٦) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، دار الفكر، بيروت، م٢ جـ٤ ص٢٣٥.
(٨٧) سيد قطب، *في ظلال القرآن*، جـ١ ص٥٠١.
(٨٨) راجع: مهدي فضل الله، *الشورى طبيعة الحاكمية في الإسلام*، ص١١٧-١١٩.
(٨٩) المصدر السابق، ص١١٨.

الرأي الثالث- بين الوجوب والندب: وهؤلاء يرون أن تطورات الأمور استدعت تغيير حكم الشورى من حال إلى حال... فإذا كانت الأمور محل الشورى ذات طابع عام وخطيرة مثل سن القوانين والحرب..إلخ فالشورى واجبة، أما إذا كانت ذات طابع خاص أو أن مصحلة الأُمَّة تقتضي البتَّ فيه بسرعة فتكون مندوبة مع عدم اعتداد الحاكم برأيه، ويفرق الدكتور توفيق الشاوي بين نوعين من التشاور- أحدهما: واجب ملزم وهو الشورى الجماعية أو الشورى بالمعنى الضيق، وهي منشئة للقرار الملزم في حدود القواعد الشرعية، وثانيهما: وهي المشورة الاختيارية أو الشورى المعلمة – الاستشارة – أو شورى الرأي والنصيحة، وهذه غير واجبة وغير ملزمة وهي هنا بمعناها العام أو استشارة وهي مطلوبة ديناً وخلقاً[٩٠].

أما الحكم الآخر الذي يخص القرار الصادر عن الشورى هل هو ملزم أم لا؟ فبعض السلف وجمهور المعاصرين يرون أن الإمام ملزم برأي أهل الشورى، وعليه واجب التنفيذ.. ويرى جمهور السلف وبعض المعاصرين أن الإمام مخير.. لأنها لمجرد الاستنارة بآراء الغير، وعلى الأُمَّة السمع والطاعة، ما دام يعمل وفق اجتهاده، فهي غير ملزمة وإنما (فعلية) بلغة الفقهاء[٩١]، ويعتمدون على تفاسير لمعنى «العزم» عقب آية الشورى ﴿...**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾[٩٢] مثل قول قتادة: «أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله لا على مشاورتهم..»[٩٣] ، وليس لهم دليل من السنة، كما أن مدلول العزم وهو قطع الرأي ليس فيه دليل على المخالفة أو الإلزام[٩٤].

واعتمد أصحاب الرأي الأول على السنة واتباع الرسول ﷺ لرأي الأغلبية في مواقف كثيرة لأن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد[٩٥]، لقول الرسول ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة..»[٩٦]، يقول الشيخ محمد الغزالي:

---

(٩٠) الشاوي، توفيق، دكتور، *فقه الشورى والاستشارة*، ص١١٢.

(٩١) راجع: مهدي فضل الله، *الشورى طبيعة الحاكمية في الإسلام*، ص١٢٣.

(٩٢) الشورى ٤٢: ٣٨.

(٩٣) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*،جـ٤ ص٢٣٧،وللطبري قول مشابه،راجع *تفسيره*،جـ٤ ص١٥٣.

(٩٤) راجع: الخالدي، محمود، *الشورى*، ص٧٠، ط دار الجيل، بيروت، ١٩٨٤، ومهدي فضل الله، ص١٣٩.

(٩٥) محمد رشيد رضا، *تفسير المنار*، جـ٤ ص١٩٩.

(٩٦) الترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، جـ٤ ص٤٦٦، ح(٢١٦٧، ٢١٦٨) وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورواية النسائي: «فإن يد الله مع الجماعة»، *السنن*، كتاب تحريم الدم، باب قتل من فارق الجماعة، جـ٧ ص٩٢.

«وليس الأمر عبثاً صبيانياً، استشر الناس ثم خذ برأيك بعد ذلك، لا تلتفت إلى آراء الناس، إن الشورى التي لا تلزم من ينفذونها، شورى لا قيمة لها وهي نوع من العبث»[٩٧].

كما يرى بعض المعاصرين أن مبدأ الإلزام ظهر نتيجة لظروف المسلمين واستبداد الحكام، ويجب أن يقيد الحكم بظروف المسلمين المعاصرين[٩٨]، وقد نبه إلى ذلك الدكتور عبد الكريم زيدان وهو من الذين يرون أن نتيجة الشورى ليست ملزمة لولي الأمر - في الأصل - فقال:

«الرأي الثالث، وهو الأخذ برأي رئيس الدولة مطلقاً، قوي سديد من الناحية النظرية، ولكن ضرورات الواقع وتغير النفوس، ورقة الدين وضعف الإيمان، وندرة الأكفاء الملهمين، كل ذلك يقتضينا أن نأخذ بالرأي الثاني (وهو الأخذ برأي الأغلبية) فنلزم رئيس الدولة برأي الأكثرية»[٩٩].

والحقيقة أن الإلزام وعدمه يكون تبعاً لنوع الشورى.. «فالشورى ملزمة والاستشارة معلمة»[١٠٠] والله أعلم.

فوائد الشورى: وبصرف النظر عن حكم الشورى وجوباً أو ندباً أو بين ذلك فإن فوائد الشورى وحكمها ظاهرة وهي:

١ - ظهور الصواب - غالباً - بعد عرض الآراء المختلفة واختيار ما يتفقون عليه، فتكون وسيلة لتجنب الخطأ عند مشاورة أهل الاختصاص بالأمر المطلوب، ومعرفة الرأي الراجح، وخصوصاً إذا تجرد أهل الشورى جميعاً للحق، وابتعدوا عن الهوى والتعصب، وحسنت نياتهم كان النجاح حليفهم لقول الرسول ﷺ: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار»[١٠١].

٢ - استفادة المتشاورين من خبرة بعضهم البعض، فقد يلتقي صاحب الرأي بمن هو أكثر منه علماً فيتبين له إن كان على صواب أم خطأ، كما تتحقق استفادة ولي الأمر من آراء

---

(٩٧) محمد الغزالي، أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية، دارالشرق الاوسط، القاهرة، ١٩٩٠، ص١٤٧.

(٩٨) القادري، عبد الله أحمد، الشورى، دار المجتمع للنشر، جدة، ١٩٨٦، ص١٠٣.

(٩٩) عبد الكريم زيدان، *مجموعة بحوث فقهية*،ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦، ص١٠٨.

(١٠٠) المستشار، سالم البهنساوي، الاستشارة معلمة والشورى ملزمة، مجلة المجتمع، ٢٨/٥/٩٦، العدد (١٢٠١)، ص٤٤-٤٥.

(١٠١) سبق تخريجه في ص٧١ هـ٧٩، هامش ٣٧١، وراجع الطبري، *تفسيره*، جـ٤ ص١٥٢، في تفسير ﴿وشاورهم في الأمر﴾.

الآخرين، وبذلك يقول الشاعر:[١٠٢]

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي لبيب أو مشورة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم

٣ – مبدأ الشورى يتمشى مع الفطرة الإنسانية في التعبير عن أفكارها، فيكون في التشاور احترام للعقل البشري وما يبدعه من الخبرة[١٠٣]، وتظهر المشورة احترام الدولة للرأي العام المعبر عن رأي الأغلبية، فتكون وسيلة لإشعار الأُمَّة بأنها صاحبة القرار، ولرئيسهم بأنه مجرد وكيل عنهم في مباشرة السلطة، وليتحمل الجميع مسؤولية القرار الصادر عن المشورة دون اتهام لأحد الطرفين[١٠٤].

٤ – تثمر المشاورة عن استمرار الثقة بين ولي الأمر ورعيته، وتضييق هوة الخلاف بينهما، فالمشاورة في طلب الحق مجاهدة في الله سبحانه وتعالى كما يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[١٠٥]، وفي ذلك يقول الشافعي: «وفيها رضا الخصم والحجة عليه»[١٠٦]. وبها يتم القضاء على الفتنة والاضطرابات.

٥ – في الشورى ضمانة للمجتمع دون تسلط الحكام أو إساءة استعمال السلطة لأن النفوس جبلت على حب التسلط[١٠٧].

٦ – يتحقق في تطبيق الشورى رضا الله تعالى، بتطبيق الشرع، والعامل بها يسن سنة حسنة لمن بعده، وبذلك يقول ابن عباس:

لما نزلت﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال رسول الله ﷺ:«أما أن الله ورسوله غنيان عنها، ولكن جعلها رحمة لأمتي، فمن شاور منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غياً»[١٠٨].

---

(١٠٢) بشار بن برد، *ديوانه*، شرح وترتيب محمد ناصر الدين، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣، ص٥٩٣.

(١٠٣) راجع: الخالدي، محمود، *الشورى*، ص١٧١.

(١٠٤) راجع: الخالدي، محمود، *الشورى*، ص١٧٠-١٧١، ومهدي فضل الله، *الشورى طبيعة الحاكمية*، ص٥٣.

(١٠٥) العنكبوت ٢٩: ٦٩.

(١٠٦) الشافعي، محمد بن إدريس، *الأم*، جـ٧ ص٨٦، وراجع القادري، عبد الله أحمد، *الشورى*، ص١٤٩.

(١٠٧) الخطيب، زكريا عبد المنعم، *نظام الشورى في الإسلام والنظم الديمقراطية المعاصرة*، ط دار السعادة، القاهرة، ١٩٨٥، ص١٨.

(١٠٨) البيهقي، أحمد بن الحسين، *شعب الإيمان*، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠، جـ٦ ص٧٦-٧٧، رقم ٧٥٤٢.

٧ - الشورى وسيلة لتربية الأُمَّة وإعدادها للقيادة الرشيدة والتدريب على حمل التبعة، وحتى لو أخطأت تتعلم كيف تصحح أخطاءها، فلا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ[١٠٩].

ويستخلص من آراء بعض المفسرين والباحثين أن الشورى بدأت إرشاداً إليها قبل بدأ الخليقة، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١١٠]، يرى المفسرون:

«أن الله سبحانه وتعالى أراد بهذا التوجيه أن يعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على أهل الحل والعقد وأولي الأمر منهم»[١١١].

وقد جمع ابن العربي هذه الفوائد بقوله: «الشورى إلفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب، وما شاور قوم قط إلا هدوا»[١١٢].

وبعد أن عرفنا حكم الشورى وفوائدها، فإن إهمالها أوتعطيلها هو فوت وخسارة لتلك الفوائد والحكم.. والحصيلة تكون اتخاذ قرارات مصيرية طائشة تؤدي إلى الفتن والثورات، وضياع لحقوق الأمم والشعوب، لذا كان من أسباب تأخر المسلمين الابتعاد عن هذا المبدأ، والوقوع فيما حذر منه القرآن الكريم ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١١٣].

مراحل تعطيل الشورى: إن المتتبع لتاريخنا الإسلامي يتضح له أن الشورى لم تهمل دفعةً واحدة، ولكن الأمر مر بمراحل بعدت فيها الشعوب الإسلامية عن الشورى شيئاً فشيئاً.

لقد مارس الرسول ﷺ الشورى مع أصحابه، وخصوصاً في الأمور الخطيرة، وحث عليها كما قال: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد»[١١٤]. وقال أبو

---

(١٠٩) راجع: سيد قطب، *في ظلال القرآن*، جـ١ ص٥٠١.

(١١٠) البقرة ٢: ٣٠.

(١١١) الخطيب، زكريا، *الشورى في الإسلام وقضية الديمقراطية المعاصرة*، ص١١، وراجع: الزمخشري، *الكشاف*، جـ١ ص٢٠٩، والرازي، *مفاتيح الغيب*، جـ١ ص٣٨٢،و البيضاوي، *أنوار التنزيل وأسرار التأويل*، جـ١ ص٢٥.

(١١٢) الخطيب، زكريا، *الشورى*، جـ١ ص١٨.

(١١٣) النور ٢٤: ٦٣.

(١١٤) الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد*، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢، جـ٨ ص٩٦.

هريرة: «ما رأيت أحداً أكثر مشورة من رسول الله ﷺ»[115]، ومارس الصحابة الشورى بعد وفاته مباشرة في سقيفة بني ساعدة، فتحقق نظام الحكومة الإسلامية المثالي، في العصر الراشد، كما تقرر مبدأ دستوري هام هو نيابة أهل الحل والعقد عن الأُمَّة في الشورى في النطاق السياسي، ونيابة العلماء وأهل الذكر في الإجماع والاجتهاد في النطاق التشريعي[116]. قال البخاري: «وشاور النبي ﷺ.. وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم»[117]، وقال ابن حجر: «.. لذلك كان أبو بكر إذا ورد عليه أمر دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم»[118].

وكانت تعقد اجتماعات التشاور في المسجد غالباً كلما دعت الضرورة، وينتهي بالإجماع أو رأي الأغلبية، وتمت هذه بسهولة لأن الجميع يقيمون في المدينة، مع شمول الشورى لكل القضايا الفقهية والحربية وغيرها.

وبعد الخلافة الراشدة عطلت الشورى - كما مر - في نظام الحكم الذي تحول إلى ملك عضوض ولقد استخدمت في التاريخ الإسلامي أساليب العنف والتهديد لتزييف إرادة أهل الحل والعقد.. وإكراههم على البيعة التي لا تكون صحيحة إلا إذا تمتع المبايع بحرية اختياره، واقتصر هذا الانحراف على اختيار الحاكم الذي لا يملك سلطة تشريعية، فيبقى التشريع محصناً من الانحراف، ولم يحصل تعطيل الشورى في مجال الفقه لتناسب أهواء الحكام، وبقي للعلماء حق الاجتهاد الحر[119].

وربما كانت الشعوب المفتوحة من أسباب الانحراف، لأنها عاشت قروناً لم تعرف إلا الحكم الملكي الاستبدادي (كسروية وقيصرية وفرعونية)، ولم تستقر بعد مبادئ الإسلام لديهم بصورة كافية، فاستغلوا تسامح الشريعة الإسلامية، واغتالوا مبدأ الإسلام الفطري الذي جعل الحكام يختلطون بالعامة في المساجد والأسواق دون حراسة أو أي مظهر من مظاهر الأبهة المعروفة لديهم، فأدت أفكارهم الموروثة إلى اغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين

---

(١١٥) الترمذي، *السنن*، كتاب الجهاد، باب ما جاء في المشورة، جـ٤ ص٢١٣-٢١٤، ح(١٧١٤)، وقال: هذا حديث حسن (مرفوع منقطع)، البيهقي، أحمدبن الحسين، *السنن الكبرى*، ط دار الفكر، (د.ت)، جـ٧ ص٤٥-٤٦، جـ١٠ ص١٠٩.

(١١٦) راجع: الشاوي، توفيق، *فقه الشورى والاستشارة*، ص٥.

(١١٧) سبق تخريجه، ص ٦٠ هـ ٣٥٤.

(١١٨) ابن حجر العسقلاني، *فتح الباري*، جـ١٧ ص١٠٥.

(١١٩) راجع: الشاوي، توفيق، ص٤٠٣-٤٠٤.

وهم في صلاتهم أوعباداتهم يضربون أروع الأمثلة على مساواة الحاكم مع رعيته فظهر نوع من الحكام ابتعدوا عن سماحة الإسلام، وتحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض مفروض بقوة الجند والعصبية..

ويسمي بعض المفكرين الحكومات بعد الخلافة الراشدة «**بالحكومات الناقصة**»، وإن قبولها من باب الضرورة جرياً على قاعدة « الضرورة تقدر بقدرها » لكون ذلك الواقع لا يمكن تغييره إلا بالقوة والخروج على الحاكم وهي مخاطرة غير مضمونة النتائج، وكثيراً ما تنتهي بانتصار البغي كما حدث وأدى إلى استشهاد الحسين بن علي والزبير (رضي الله عنهما).

وكان لهذه المآسي تأثير على الفقه، حيث اتجه الفقهاء للبحث عن عذر للأمة يجيز لهم في حالة الضرورة الاعتراف بالحاكم المغتصب أخذا بمبدأ « الضرورات تبيح المحظورات »، بشرط السعي لإصلاح الأوضاع بطريق سلمي لا يعرض المجتمع لفتنة إراقة الدماء، وهذا يدل على مرونة الفقه الإسلامي وتعامله مع جميع الظروف، لأن الأصل في انتماء الحكومة للإسلام هو تطبيق الشريعة وسيادتها..

وأساس ذلك اتباع «أخف الضررين»لأن الضرر الأشد هو الفتن الدموية نتيجة الخروج على الحكام وعدم توافر القوة الكافية لمواجهتهم كما فعل الحسن بن علي بالتنازل للأمويين، وأكدت مأساة أخيه بعد نظره وحسن تقديره(١٢٠).

ومع ذلك التزمت تلك الحكومات بتطبيق الشريعة، ودافعت عن وحدة العالم الإسلامي، وسلامة أراضيه، ومقاومة العدو الأجنبي، كما حققت - على عِلاَّتِهَا - الفتوحات ووفرت للأمة الاستقرار والتقدم والحضارة، ولذا يجب إنصاف تاريخنا من التشويه الذي يحاول بعض الكتاب المحدثين ترويجه لأهداف سياسية تخدم مطامع القوى الأجنبية في فرض سيطرتها على شعوبنا.

وعندما نجح الاستعمار بإسقاط الخلافة الإسلامية وحولت تركيا مركز الخلافة إلى دولة علمانية وجزأت الدول الإسلامية، فرضت قوانين مستوردة عطلت فيها الشورى في الفقه والحكم، وراح الأعداء يشنون هجوماً على أصول الحكم في الإسلام لغرض إبعاد الدين عن الدولة ويهدف الهجوم على الإسلام، وللأسف شاركهم بعض كتابنا المعاصرين بحجة نقد

---

(١٢٠) راجع: الشاوي، توفيق، ص١٥٤.

عيوب الخلافة، متناسين أن التعطيل في الماضي مقصور على اختيار الحاكم أما اليوم ففي جميع المجالات باتباع القوانين الوضعية وعدم احترام استقلال الشريعة كما كان في الماضي.

كما حاولت الدول الاستعمارية أن تقنع الشعوب المغلوبة أنَّ البديل هو الديمقراطية فازدادت الفتنة وتحول شعب القطر الواحد إلى أحزاب وفرق ثم يتحول الحزب الفائز إلى الديكتاتورية.

ولا يمكن أن تكون الديمقراطية للمسلمين بديلاً عن الشورى، لارتباط الشورى بالعقيدة والأخلاق، على خلاف النظم الديمقراطية التي تترك الباب مفتوحاً للأهواء، كما تستعمل فيها الدعاية الكاذبة والرشوة والوعود الكاذبة.. والشورى أعمق أصولاً لأنها تفرض للمجتمع قيماً إلهية حكاماً ومحكومين، في حين يستمد ولي الأمر من النظم الديمقراطية سلطته من سيادة الشعب ممثلة بالأغلبية وإن كانت ضالة...

ومن جراء التنكر للشريعة السمحاء ومبادئها السامية أصبح الواقع الحالي فتنا كقطع الليل المظلم، فلا هم التزموا الشورى ولا هم طبقوا الديمقراطية إلا شعارات لإسكات الناس.

من هذا نرى أن تعطيل الشورى جزئياً ثم كلياً كان من أسباب تدهور المسلمين وسبباً في إحداث الفتن، وعلى الأُمَّة في ظل الصحوة معالجة الانحراف القديم في حرية الاختيار لولي الأمر، والانحراف الجديد الذي عطل سيادة الشريعة.

ثالثاً: الظلم وعدم المساواة

موقف الشريعة من الظلم: النصوص الشرعية في تحريم الظلم كثيرة جدا وهي تتحدث عن ظلم الإنسان لنفسه وغيره ومقرونة بالتهديد والعذاب والخسران، قال تعالى: **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾**[(١٢١)]، **﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾**[(١٢٢)]، **﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾**[(١٢٣)]، كما عرف القرآن الظلم فقال: **﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[(١٢٤)]، فيكون الظلم وضع الشيء في غير موضعه الشرعي[(١٢٥)]. وفي الحديث القدسي كما يرويه الرسول ﷺ: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته

---

(١٢١) إبراهيم ٤٢: ١٤.

(١٢٢) الأنعام ٦:٢١.

(١٢٣) لقمان ٣١: ١١.

(١٢٤) البقرة ٢:٢٢٩.

(١٢٥) ابن حجر العسقلاني، *فتح الباري*، جـ٥ ص٩٥.

بينكم محرما فلا تظالموا»[126].

كما شدد الشرع في حرمته لدرجة أن التائب عن الظلم يسقط عنه حق الله في عقابه ولا يسقط عنه حق المظلوم لمجرد التوبة، إلا بعد استيفاء حق المظلوم، قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه في عرضه أو شيء فليتحللـه منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[127].

ونتبين موقف الإسلام في تحريم الظلم في نصوص وجوب العدل- نقيضه - في آيات كثيرة، فالعدل شرعاً: «وضع الشيء موضعه الشرعي وإعطاء كل شيء حقه من المكانة أو المنزلة أو الحكم أو العطاء»[128].

فالعدل ميزان الله في الأرض، وهو قوام الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[129]، والآيات التي توجب العدل والقسط كثيرة منها قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[130]، وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[131].

فالأمر بالعدل نهي عن الظلم كما أن نصوص السنة زاخرة بالدعوة إلى العدل، بل إن أول وثيقة دستورية أعلنها النبي الكريم في المدينة تكرر فيها كلمة القسط والعدل أكثر من تسع مرات[132]، ومما يميز العدل وتحريم الظلم في الإسلام أنه مبدأ عام مطلق حتى مع ذات

---

(١٢٦) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، جـ٣ ص١٩٩٤، والترمذي، *السنن*، كتاب صفات القيامة، باب في صفة أواني الحوض، جـ٤ ص٦٥٦، وابن ماجة، سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، جـ٢ ص١٤٢٢، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٥ ص١٥٤، ١٦٠، ١٧٧.

(١٢٧) البخاري، *الصحيح*، كتاب في المظالم والغصب، باب من كانت له مظلمة، جـ٣ ص٩٩، وكتاب الهبة، باب إذا وهب دينا على رجل جـ٣ ص١٣٧، وكتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، جـ٧ ص١٩٧، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢ ص٥٠٦، والبيهقي، *السنن الكبرى*، جـ٣ ص٣٦٩، جـ٦ ص٨٣.

(١٢٨) عبد الكريم زيدان، *السنن الإلهية*، ص١١٥ .

(١٢٩) الحديد ٢٥:٥٧.

(١٣٠) النحل ٩٠:١٦.

(١٣١) النساء ٥٨:٤.

(١٣٢) البياتي، منير حميد، *النظام السياسي الإسلامي مقارنا بالدولة القانونية*، ص١٤٩-١٥٠.

الفرد وأقرب المقربين إليه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا﴾[١٣٣]. قال ابن كثير:

«أي اشهد الحق، ولو عاد ضرره عليك.. وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك، فلا تراعهم فيها.. ولا ترعاه لغناه ولا تشفق عليه لفقره الله يتولاهما»[١٣٤]، كما أنه واجب حتى مع الأعداء، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[١٣٥]، وإذا كان وجوب العدل وتحريم الظلم عموما فهو في مجال الحكم والولاية أكثر أهمية، فهو أساس الحكم الصالح فهو «من واجبات صاحب الولاية العامة.. ولهذا فقد نص الفقهاء على أن الولاية إذا شملها العدل كانت من أفضل الطاعات، وأن العادل من الأئمة والولاة والقضاة أعظم أجراً من جميع الأنام»[١٣٦].

وجعل رسول الله ﷺ الإمام العادل من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[١٣٧]. وقد قرن القرآن الكريم بين العدل في الحكم والخلافة في الأرض وأمر الخليفة بالحكم بالحق، فقال: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[١٣٨] ولهذا ففساد الحاكم أخطر من فساد المحكوم:

«لأن الحاكم الصالح يقود الأُمَّة إلى الصلاح، ويستطيع بسلطانه أن يأطرهم على الحق أطراً فيقوِّم من فساد المحكوم، في حين يعجز المحكومون في الغالب عن إصلاح الحاكم إلا بالثورة والدخول في الفتن والقلاقل»[١٣٩].

ويرتبط مفهوم العدل بالمساواة، وهي جزء منه ويستدل على وجوبها بنصوص العدل،

---

(١٣٣) النساء ٤: ١٣٥.

(١٣٤) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ١ ص٤٤٧.

(١٣٥) المائدة ٥: ٨.

(١٣٦) راجع نزيه حماد، *نظرية الولاية في الشريعة الإسلامية*، ط دار القلم، دمشق ١٩٩٤، ص ٢٧.

(١٣٧) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد، جـ١ ص ١٦١، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، جـ٧ ص١٨٥، مسلم، *الصحيح*، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، جـ١ ص٧١٥، الترمذي، *السنن*، كتاب الزهد، باب ما جاء في الحب في الله، جـ٤ ص٥٩٩٨، النسائي، *السنن*، كتاب آداب القضاة، باب الإمام العادل، جـ٨ ص٢٢٢.

(١٣٨) ص ٣٨ :٢٦.

(١٣٩) علي عبد الحليم محمود، *التراجع الحضاري*، ص٢٥٦.

وقد أكَّدَ أبو بكر الصديق ﷺ هذا المعنى حين توليه فقال: «ألا وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه، وأقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له»[١٤٠]. وأهم مجالاتها القضاء فليس في قوانين الشريعة محاباة لطبقة أو جنس أو لون، وقد رفض رسول الله ﷺ الشفاعة لامرأة من بني مخزوم سرقت فقال: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[١٤١].

ولهذا فعدم تطبيق المساواة ظلم محرم سواء في الحقوق أو الواجبات والذي كان وما يزال أحد مزالق الإنسانية[١٤٢]، ومن الظلم كبت الحريات ومصادرتها.. لأن الحرية مبدأ مهم في بناء الأُمَّة وهي منحة من الله بناءاً على تكريمه له وتفضله على من خلق، كما أنها لا تتحقق إلا في ظل العبودية لله تعالى لأنها تحرره من كل مخلوق غيره، وقد فهم البعض من قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[١٤٣]. «إنه لا سبيل للانفكاك والتحرر إلا بمنهج العبودية لله..»[١٤٤]، ولا يُحقِّقُ هذا المنهج إلا شريعة الإسلام .. ولهذا نَعِمَ المسلمون وغيرهم بالحرية في ظل الإسلام تحت مبدأ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[١٤٥]، وكانت الحرية الفكرية أساساً لوجود المذاهب الفقهية، وعلى هذا فإن أي مصادرة للحرية هي ظلم بما في ذلك حرية الرأي، وإبداء الرأي في أمور الأُمَّة المصيرية، وحسب سنة الله في الظلم والظالمين فإن الله تعالى - في الغالب - يعاقب الظالم في الدنيا على ظلمه للغير[١٤٦]، لقول رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه

---

(١٤٠) ابن قتيبة الدينوري، *عيون الأخبار*، دارالكتاب العربي، بيروت (د. ت)، جـ ٢ص٣٤، ابن عبدربه، *العقد الفريد*، أحمد بن محمد الأندلسي تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، ١٩٤٠، جـ٢ ص١٣٠

(١٤١) البخاري، *الصحيح*، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، جـ٨ ص١٦، ومسلم، *الصحيح*، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، جـ٢ ص١٣١٥، وص١٦٨٨، وابن ماجة، *سننه*، كتاب الحدود، باب الشفاعة في الحدود، جـ٢ ص٨٥١٠.

(١٤٢) راجع البياتي، منير حميد، ص١٤٨، وعلي عبد الحليم محمود، *فقه المسؤولية*، ص١٦١.

(١٤٣) البينة ٩٨:١٤.

(١٤٤) الغنوشي راشد، الشيخ، *الحريات العامة في الدولة الإسلامية*، ص٣٨، وذكر *التفسير* للعلامة علال الفاسي.

(١٤٥) البقرة ٢: ٢٥٦.

(١٤٦) عبد الكريم زيدان، *السنن الإلهية* ص١١٦.

العقوبة في الدنيا مع ما يدخره في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم»[147] وذلك لأن المظلوم مستجاب الدعوة، قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «.. واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»[148]، ولكن «أحياناً يمهل الظالم -ولا يهمل طبعاً- إلى أن يشاء الله لحكمة، يعلمها الله ونجهلها»[149].

ومن أمثلة العقاب الدنيوي، عقاب الظالم بتسليط ظالم عليه، سواء على الأفراد أو الجماعات، فإذا تظالمَ الناسُ بينهم سلّط الله عليهم حاكماً ظالماً، قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[150]. ويفسر الآية قول الرسول ﷺ: «كما تكونوا يوّلى عليكم»[151].

وقد تؤجل العقوبة إلى الآخرة، لهذا يحذرنا الرسول ﷺ فيقول: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[152]. وقد أهلك الله تعالى - كما قص علينا في القرآن - الأمم الظالمة فقال: ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾[153]. والعبرة منها أن من الأسباب القوية في هلاك الأمم وسقوط الحضارات هو الظلم قال تعالى: ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ**﴾[154]، وقال ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**﴾[155]، وكلمة لما «ظرف يدل على وقوع فعل لوقوع غيره مما هو سبب له وهو (الظلم)»[156]، ودلت آيات كثيرة على أن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، وإن الظالمين لا يفلحون فلا ينتصرون ولا يظفرون بمطلوبهم.

موقف المسلم تجاه الظلم: يجب شرعاً اتخاذ سبل الوقاية من الظلم وعقوبته المهلكة باتباع ما يأتي:

---

(١٤٧) أبو داود، سننه، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، جـ٥ ص٢٠٨، والترمذي، *السنن*، كتاب صفة القيامة، باب ماجاء في صفة أواني الحوض، جـ٤ ص٦٦٤، ابن ماجة، *السنن*، كتاب الزهد، باب البغي، جـ٤ ص ١٤٠٨، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٥ ص٣٦-٣٧.

(١٤٨) البخاري، *الصحيح*، *كتاب الزكاة*، باب أخذ الصدقة، جـ٢ ص١٣٦.

(١٤٩) من هذه الحكم: الاستدراج، أو جزاء الظلم، أو علم الله بصلاحه مستقبلاً ...الخ

(١٥٠) الأنعام ٦: ١٢٩.

(١٥١) سبق ذكره في هـ ٤٢ ص ٦١.

(١٥٢) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، جـ٣ ص١٩٩٦.

(١٥٣) الأنعام ٦: ٤٥.

(١٥٤) الأنبياء ٢١:١١.

(١٥٥) يونس٢١ :١٣، ومثلها آية ٤٩ .

(١٥٦) محمد رشيد رضا، *تفسير المنار*، ص٣١٥.

١ - الإنكار على الظالم، قال رسول الله ﷺ: «إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم بعقاب منه»[١٥٧].

٢ - عدم الاستكانة للظالم، وهو ما يجب أن يتربى عليه المسلم، حيث جعلها الله من الصفات الأصيلة لشخصيته، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ... وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[١٥٨]. «أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم، واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين..»[١٥٩]، وقال القرطبي: «أي إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه»[١٦٠]. وهذه إشارة إلى الأمر بالمعروف.

٣ - عدم الركون لِلْظَلَمَةِ، لأن ذلك يزيد قوتهم، وخصوصاً الحكام الظلمة فهم يرتكبون المظالم بأعوانهم، فقد حذرنا الله تعالى من ذلك فقال: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾[١٦١]. أي «ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ... ولاتستعينوا بالظَلَمَةِ فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم»[١٦٢].

٤ - عدم مساعدة الظالم على ظلمه وبقائه، فالله يعاقب الظالم مع أعوانه، قال تعالى عن فرعون وجنوده: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[١٦٣].

«وبذلك لا يعان على بقائه في مركزه، ولا يدعى له بالبقاء، لأن في بقائه استمرار لظلمه..»[١٦٤] وعلى المسلمين فوق ذلك القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حسب قواعده وفي مقدمة ذلك تقديم النصح لأولى الأمر.

---

(١٥٧) أبو داود، سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، جـ٤ ص٥٠٩ -٥١٠، ح(٤٣٣٨)، والترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، جـ٤ ص٤٦٧، والإمام أحمد، *المسند*، جـ١ ص٧.

(١٥٨) الشورى ٤٢: ٣٩، ٤١.

(١٥٩) الصابوني، *مختصر تفسيرابن كثير*، جـ٣ ص٢٨٠ .

(١٦٠) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، جـ١٦ ص٣٧.

(١٦١)هود ١١: ١١٣.

(١٦٢) الصابوني، *مختصر ابن كثير*، جـ٢ ص٢٣٤، وقد نقل فيه قول ابن جرير عن ابن عباس.

(١٦٣) القصص ٢٨: ٤٠.

(١٦٤) راجع: عبد الكريم زيدان، *السنن الإلهية*، ص١٢٩.

أثر المظالم في إحداث الفتن والمحن في تاريخ المسلمين: كان زمن الرسول ﷺ، ومن بعده عصر الخلفاء الراشدين تطبيقاً حياً وفريداً لمبدأ العدل ونبذ الظلم، وبعدها بقي العدل سمة ظاهرة في التعامل بين الناس على المستوى الفردي والعام في علاقاتهم وكذلك بقي القضاء نقياً في التطبيق والمساواة بين الناس، ولكن العدل المطلق لا يتحقق إلا بتطبيق الشرع كاملاً، ولما حصل تجاوز في بعض التطبيقات والتي أشرنا إليها سابقاً في قضية الحكم والشورى، تبعته تجاوزات نتجت عنها مظالم أدت إلى الفتن وعدم الاستقرار في المجتمع المسلم... ومن ذلك الاستئثار بالمناصب وحرمان ذوي الكفاءات منها، وعدم المساواة في العطاء بالإغراق على المحبين دون غيرهم... كما أن تمسك هؤلاء بالسلطة جعلهم يقفون تجاه المعارضين موقف العداء، كموقف الأمويين من الحسين بن علي ﷺ، مع ما عرف من منزلته وقرابته من الرسول ﷺ، وما أثر عنه في حقه، وكذلك ما وقع من بطشهم بالصحابة في موقعة «الحرة» الشهيرة[١٦٥]، وما بدر من الحجاج من مظالم بقتل كل معارض ولو بشبهة، وقد فعل خلفاء بني العباس وولاتهم مثل ذلك ...كما وقعت حروب ومصادمات مع الفرق السياسية، وتظالم أصحاب تلك الفرق فيما بينهم، فكان - علاوة على القتل- استعمال أسلوب التكفير فيما بينهم والذي نهى عنها الرسول ﷺ فقال: «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإذا كان كما قال، وإلا رجعت عليه»[١٦٦].

أدت المظالم السياسية إلى فتن ومحن ذات عواقب وخيمة، وبقيت أحقاداً تثار على مر التاريخ، كما أدت - علاوة على القتل - إلى ضعف الأُمَّة وانقسامها، وإهدار الطاقات والثروات. كما ظلت الأُمَّة تئن لذلك الجرح العميق بشأن ما وقع لسيدنا عثمان، والحسن والحسين وأبنائهم (رضي الله عنهم أجمعين)، تبعها التحزب ثم التعصب والمبالغة في عقائدهم... ومن آثارها ما نواجهه اليوم من التهم الموجهة للإسلام والمسلمين وتاريخهم متخذين من تلك الهفوات والزلات ذريعة للطعن في الإسلام وعدالته، علماً أن المظالم التي

---

(١٦٥) راجع التميمي، أبي العرب محمد بن أحمد، *كتاب المحن*، تحقيق د. عمر سليمان العقيلي، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٤ وفيه مأساة الحسين ﷺ جـ٢ ص١٤٨-١٥٤، وموقعة الحرة، جـ٢ ص١٧١.

(١٦٦) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه من غير تأويل، جـ٧ ص٧٩، ومسلم، *الصحيح*،كتاب الإيمان،باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر،جـ١ ص٧٩، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢ ص١٨،٤٤،٦٠،٧٩،١٠٥،١١٣ .

وقعت من قبل بعض الولاة والقادة لا تمثل الحالة العامة للتاريخ الإسلامي، كما أنها لا تمثل الإسلام بل هو منها براء، وتمثل أصحابها فقط بعد أن ابتعدوا عن المثال المطلوب، باعتبار أن الإسلام وضع لهم ضمانات كثيرة لمنع الجَوْرِ لكون السلطة تميل بطبيعتها إلى التجاوز[١٦٧]... إضافة إلى أن ذلك كان روح العصر السائد، يقول المستشار سالم البهنساوي: «إنه باستثناء تحول الخلافة إلى الملك الذي يتم تحت مظلة الشورى، فإن عهود الخلافة كانت في مجملها تلتزم بأحكام الشريعة الإسلامية، وليس فيها كل هذا الاستبداد الذي ينسبه العلمانيون إلى الخلفاء المسلمين»[١٦٨]. ويرى البهنساوي أن بعض الكتاب من أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم من المسلمين يتصيدون الأخطاء من كتب وأقوال كتبت قديماً من قبل الخصوم...

ويقول الشيخ راشد الغنوشي: «أنه ليس لأحد أن يثبت أن الجَوْرَ قد غدا في الأُمَّة عقيدة مشروعة... بل ظلت الثورات لا ينطفئ لهيبها في سبيل استعادة المثال المفقود في عهد الخلافة الراشدة...»[١٦٩].

ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن ننكر ما وقع في تاريخ المسلمين من مظالم، وقد بقيت آثارها عميقة، لأنها صدرت ممن كانت بيده السلطة والقوة، ولما كان من السنن الإلهية أنه لا يفلح الظالمون، فقد أدت إلى زوالهم، كما أكدت القصص القرآنية هلاك الأمم الظالمة.

ولذلك يقول العلماء: «إن الدولة تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[١٧٠]، يقول الرازي: «إن المراد من الظلم في هذه الآية، الشرك، والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم ...»[١٧١].

ومثله القرطبي قال: «إن الله لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط...»[١٧٢].

وهو رأي الشيخ ابن تيمية يقول: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم

---

(١٦٧) راجع: الغنوشي راشد، *الحريات العامة في الدولة الإسلامية*، ص ٣٢٧.

(١٦٨) البهنساوي سالم «*الخلافة والحكومة الدينية*»، مجلة«المجتمع»، العدد١٢٣٢، الكويت، ص١٢،٣١ ديسمبر ١٩٩٦ .

(١٦٩) الغنوشي راشد، ص٣٠٦.

(١٧٠) هود١١: ١١٧.

(١٧١) الرازي، *مفاتيح الغيب*، جـ١٨ ص٧٦.

(١٧٢) القرطبي، *الجامع الأحكام القرآن*، جـ٩ ص١٠٠.

الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة»[173]. وهذا ما نلمسه بعدم دوام من دولة الإسلام، بل ظل الاضطراب والتقلب وعدم الإستقرار سمة لها لأن «عذاب الله ليس بمقتصر على من تقدم من الأمم الظالمة، بل سنته تعالى في أخذ الظالمين سنة واحدة...»[174].

ومن النتائج الواقعية للظلم خراب البلاد اقتصادياً وعمرانياً، لترك الناس العمل والإنتاج وسعيهم للفرار والخروج منها... مما يؤدي إلى ضعفها أمام الأعداء الخارجيين وإن سيطرت على الرعية في الداخل، «فإن الجور والظلم يخرب البلاد بقتل أهلها وانجلائهم منها، وترفع من الأرض البركة»[175]. وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا...﴾[176].

ومن النتائج غير المباشرة كذلك وقوع الناس في الرِدَّةِ والكفر باعتراضهم على الله -حاشاه- بتأييد الظالم، ويقع ذلك من ضعاف الإيمان لقصور فهمهم لسنن الله في تدافع الحق والباطل[177].

رابعاً: الفرق ومواقفها السياسية

كان للفرق التي تكونت في وقت مبكر من تاريخ الإسلام -إثر مقتل عثمان وخلافة علي- أثر كبير في إثارة الفتن والاضطرابات والحروب الدامية التي أدت بالأُمَّة إلى الضعف والخور ومن ثم تكالب الأعداء عليها...

ولذلك فقد حذر الشرع من الفُرْقَةِ وحث على الأئتلاف واجتماع الكلمة فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[178].

كما أخبرنا تعالى أنه إذا أراد عذاب قوم جعل الفرقة بينهم، فعن جابر بن عبد الله قال: «لَمَّا نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجه الله»، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[179]. قال رسول الله ﷺ: «هاتان أهون أو هاتان أيسر»[180]. قال ابن

---

(173) ابن تيمية، *رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر*، تحقيق صلاح الدين المنجد، ص٤٠.
(174) عبد الكريم زيدان، *السنن الإلهية*، ص١٢١.
(175) المصدر نفسه، ص١٢٥.
(176) النمل ٢٧: ٥٢.
(177) راجع تفاصيل ذلك في: عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص١٣٣.
(178) آل عمران ٣: ١٠٣.
(179) الأنعام ٦: ٦٥ .
(180) البخاري: *صحيح البخاري*، كتاب الإعتصام، باب قوله: ﴿أو يلبسكم شيعا﴾، جـ٨ ص١٥٠، رقم٧٣١٣، والترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب التفسير، باب: ومن سورة الأنعام، جـ٥ ص٢٦١، رقم٣٠٦١.

كثير: «قال مجاهد... وغير واحد في قوله ﴿أو يلبسكم شيعا﴾: يعني يجعلكم ملتبسين شيعاً مزقاً متخالفين، ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾، قال ابن عباس وغير واحد: يعنى يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل»(١٨١)

ويفسر هذا قول رسول الله ﷺ: «دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعاً فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض وأن لا يلبسهم شيعاً، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع عنهم الخسف والرجم وأبى أن يرفع عنهم الآخرين»(١٨٢)، كما أن من تفسيرات كلمة الفتنة: افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً(١٨٣) .

وتحقق وعد الله بعد الفتنة الكبرى - بمقتل عثمان - فتفرقت الأُمَّة شيعاً ولا زالت إلى يومنا هذا... وقد أسهمت هذه الفِرَق في الأحداث المريرة في تاريخ المسلمين، وسوف أتناول بإيجاز أهم هذه الفِرَق وتأثيرها في الحياة السياسية.

أنواع الفِرَق وأقسامها :

(١) **الفِرَق الإسلامية**: وتشمل: السياسية، والعقدية، والفقهية، ونركز على الأولى لما لها من الأثر في أحداث الفتن.

أ - **الفِرَق السياسية**: وإطلاق صفة السياسة عليها لا يبعدها عن الدين بل هي ذات صلة عميقة به وتدور حوله .. مع ملاحظة أن الخلاف بينهم لم يتناول أساسيات الدين بل جزئياته، عدا ما انحرف وشذ منها فاستبعدها المسلمون من دائرة الإسلام. ويدور الخلاف بين هذه الفرق حول الإمامة الكبرى والتي أصبحت مثار جدل بعد الفتنة الكبرى -مقتل عثمان- عمن هو أولى بالإمامة ومن هو على حق .. وأهم هذه الفرق...

الشيعة: ترى هذه الفرقة أن علياً أحق المسلمين بالخلافة ومن بعده في أهل بيته، قال الشهرستاني: «هم الذين شايعوا علياً ﷺ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ظاهراً وتعييناً صادقاً من الرسول ﷺ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده»، وقال:

---

(١٨١) الصابوني، مختصر *ابن كثير*، جـ١ ص٥٨٧.

(١٨٢) أبوعمرو الداني، السنن الواردة في الفتن، جـ١ ص١٩٠.والامام أحمد، المسند جـ٤ ص١٢٣،جـ٥ص٢٤٠

(١٨٣) راجع: تفسير قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾، (الأنفال:٢٨)، في تفسير *البغوي*، جـ٢ ص٢٤١، وراجع أبو عمرو الداني، *السنن الواردة*، جـ١ ص٢٠٧.

«...ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة -وجوباً- عن الكبائر والصغائر»[184].

وبعد مقتل علي تنازل ابنه الحسن عن الخلافة، ولكن أخاه الحسين رفض مبايعة يزيد بن معاوية وخرج عليه ولم تنجح ثورته وقتل سنة ٦١هـ[185]. فظهر بعدها اتجاه الشيعة واضحاً، كما أن مَظَالِمِ الأمويين تجاههم كانت مُحَرِّضاً على ذلك...

وقد نشأت الشيعة ابتداء في مصر ثم وجدت لها مستقراً ومقاماً في العراق[186]...

وَفِرَقِ الشيعة كثيرة منها المعتدل وأكثرها المُغَالِي ومن أبرزها:

أ - الإمامية (الإثنا عشرية): وهم «الذين يقولون بإمامة علي بالنص، ثم تتسلل في أبنائه من فاطمة: «الحسن، الحسين، علي ابن الحسين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، ومحمد المهدي المنتظر» وهم اثنا عشر إماماً...ويطلق عليهم «الجعفرية» نسبة لمذهب الإمام جعفر الصادق و«الرافضة» لرفضهم إمامة الشيخين،كما يقولون بعصمة الأئمة وعودة المهدي، والتقية»[187]. وهم الآن أكثر أهل إيران، ومنهم بالعراق،وسوريا ولبنان، ودول أخرى...

ب - الإمامية الإسماعيلية: وهم يتفقون مع الاثنا عشرية إلى جعفر الصادق ثم ابنه اسماعيل الذي توفي قبل أبيه. وهؤلاء هم الأئمة الظاهرون وبعدهم المستورون الذين أنشأوا الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا، ولذلك سموا «بالباطنية» ولهم فروع كالناووسية ... وفرق

---

(١٨٤) الشهرستاني: *الملل والنحل*، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي القاهرة، ١٩٦٨، جـ١ ص١٤٦، وراجع: أبو زهرة :*تاريخ المذاهب الإسلامية*، ط دارالفكر العربي، القاهرة، د.ت،جـ١ ص٣٠، جـ٢ ص٢٦٢- ٢٦٣، د.أحمد رمضان أحمد: *الخلافة في الحضارة الإسلامية*، دار البيان العربي، جدة، ١٩٨٣، ص٢١٧.

(١٨٥) راجع من المصادر مثلا: الطبري: *تاريخ الطبري*، جـ٧ ص٣١٦، ابن الأثير، جـ٤ ص٥٥، التميمي، أبو العرب،*كتاب المحن*، جـ٢ ص١٤٨-١٥٤.

(١٨٦) قد تعود الأسباب إلى انتقال علي بن أبي طالب إلى العراق وإقامته بها، فلم يعلنوا الولاء من بعده لبني أمية قط .. كما أن العراق ملتقى الحضارات القديمة بأفكارها فنبتت فيه أكثر الفرق ومنها الشيعة... راجع أبو زهرة: *تاريخ المذاهب الإسلامية*، جـ١ ص٣٠، ٣٢-٣٣.

(١٨٧) راجع: محمد أبو زهرة: *تاريخ المذاهب الإسلامية*، جـ١ ص٤٤ـ٤٦، د:أحمد رمضان أحمد، *الخلافة في الحضارة الإسلامية*، ص٢٢٩، *الموسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب المعاصرة*، ص٤٩-٣٠٢، ود:مجاهد مصطفى بهجت: *التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول*، ط مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت، ١٩٨٢،ص٨٤-٨٥.

غالية كالنصيرية والحشاشين «كما يعد القرامطة منهم كذلك»[188].

جـ - **الزيدية**: وتعد أقرب فرق الشيعة إلى السنة والجماعة وأكثرها اعتدالاً، اعترفوا بالخلفاء الذين بايعهم علي قبله.. ولم يكفروا أحداً بل يرون علياً أفضل منهم .. والإمامة عندهم بالوصف «فالإمامة حق لكل فاطمي خرج داعياً لنفسه بالسيف وهو عالم زاهد شجاع» لذا أنكروا تسلل الإمامة والتقية والرجعة[189]. وإمامهم زيد بن علي بن زين العابدين، وتفرعت الزيدية كذلك إلى فرق منها: الجارودية، السليمانية، الصالحية، ومنهجهم الفقهي قائم الآن في اليمن.

ومن فِرَقِ الشيعة الغالية[190]:

أ - **السَبَئِيَّة**:أتباع اليهودي عبد الله بن سبأ، الذي أظهر الإسلام، وكان من أشد الدعاة ضد عثمان ﷺ قال بألوهية الإمام علي وهمّ بقتله.

ب - **الكَيْسَانِيَّة**: أتباع كَيْسَان مولى علي ﷺ الذي جاء بإنحرافات مثل قولهم بالبداء[191].

جـ - **الحاكمية أو الدروز**: قالوا بحلول الإله في نفس الإمام ومنهم «الحاكم بأمر الله الفاطمي».

د - **النصيرية**: ومقرهم جبل «النصير» في الشام، جمعوا مفاسد من سبقهم وأثاروا الفتن وسموا بالحشاشين..

الخوارج[192]: يطلق اسم الخوارج على الفرقة التي خرجت على الإمام علي ﷺ حين

---

(188) الشهرستاني، *الملل والنحل*،جـ1 ص172، أبوزهرة، *تاريخ المذاهب*، جـ1 ص50-52، *الموسوعة الميسرة*، ص393.

(189) راجع الشهرستاني، *الملل والنحل*، جـ1 ص132-137، أبو زهرة، *تاريخ المذاهب*، جـ1 ص40-44.

(190) راجع هذه المذاهب وأفكارها والرد عليها في: أبو زهرة، *تاريخ المذاهب*، جـ1 ص35-40.

(191) البداء: هو أن الله سبحانه وتعالى يغير ما يريده تبعا لتغير علمه.

(192) راجع: تفاصيل هذه الفرقة في: الشهرستاني، *الملل والنحل*، جـ1 ص155، حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي*، جـ1 ص409، محمد أبوزهرة، *تاريخ المذاهب*، جـ1 ص56 - 68، عرفان عبد الحميد، *دراسات في الفرق*، ص90-102، ود. أحمد رمضان أحمد: *الخلافة في الحضارة الإسلامية*، ط: دار البيان العربي، جدة 1983، ص199.

قبل بالتحكيم في« صِفّين» وقيل بعد نتائج التحكيم، كما سموا «بالحرورية» لخروجهم إلى حروراء -قرية بظاهر الكوفة- كما سموا بـ«المحكمة» و«الشراة» و«المارقة» لقول الرسول ﷺ: «يخرج في هذه الأمّة -ولم يقل منها- قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، يقرؤن القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية»(١٩٣). اجتمع الخوارج في النهروان «واخذوا يقتلون كل من لم يشاطرهم رأيهم ويعترف بخليفتهم ويلعن عثمان وعلياً»(١٩٤). وهكذا أصبح جهادهم ضد أهل السنة والجماعة من المسلمين ويحسبون أن قتال عدوهم الداخلي أهم الفروض .. ولما اشتدت حركتهم خرج إليهم الإمام علي رضي الله عنه وبادرهم بالمناقشة فعاد قوم منهم وانعزل آخرون، وثبت الباقون وعددهم نحوا من أربعة آلاف فقاتلهم ولم يفلت منهم إلا قلة..

وقد أوجز ابن حزم آراءهم فقال: «إنكار التحكيم وتكفير أصحاب الكبائر وأنهم مخلدون في النار، وخروجهم على أئمة الجَوْرِ، وجواز الأئمة في غير قريش»(١٩٥). بل أجازوا عدم وجود الإمام أصلاً(١٩٦). وعرفوا بالتشدد في فهم النصوص والأخذ بظواهرها، والتطرف والقوة والفصاحة..

وهم فرق كثيرة منها: المحكمة ،الأزارقة، النجدات... وأكثرهم اعتدالا الإباضية ومنهم فرق غالية: كالزيدية، والحفصية والبدعية...(١٩٧).

الزبيريون(١٩٨): ظهرت نواة هذا الحزب بعد فتنة مقتل عثمان وخروج طلحة والزبير وعائشة على علي بن أبي طالب رضي الله عنه ووقوع معركة الجمل بينهما ..

وكان الزبير يرى أحقيته بالخلافة متخذاً من تأمير عثمان له على داره سبباً لذلك، قياساً على تأمير الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه للصلاة في مرضه الأخير..ولم يعارض عبد الله

---

(١٩٣) البخاري: صحيح *البخاري*، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج بعد إقامة الحجة عليهم، *الفتح*، جـ٨ ص٥٢.

(١٩٤) حسن إبراهيم حسن: *تاريخ الإسلام السياسي*، جـ١ ص٤٠٩.

(١٩٥) ابن حزم : *الفصل في الملل والأهواء والنحل*، جـ٤ ص١١٣.

(١٩٦) راجع: الشهرستاني، *الملل والنحل*،جـ١ ص١٥٧.

(١٩٧) راجع: عرفان عبد الحميد: *دراسات في الفرق*، ص١٠٠-١٠١، وأبو زهرة: جـ١ ص٦٩-٧٥.

(١٩٨) راجع:الطبري:*تاريخ الطبري*، جـ٦ ص٢٧٣-٢٧٤، د.حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي*، جـ١ ص٤٤٣.

معاوية بل اشترك في جيشه لغزو القسطنطينية سنة ٥٠هـ.

وكان معاوية يكرم وفادته ولازم داره مدة تولي معاوية، ولكنه قاد المعارضة بعد تولية يزيد العهد. وتطورت دعوته بعد موت معاوية وخصوصا بعد مقتل الحسين بن علي (رضي الله عنهما) فدعا إلى نفسه سنة ٦٣هـ، ولكن مبايعة محمد بن الحنفية ليزيد ساعدت على ظهور الكيسانية بزعامة المختار في الكوفة... وكانت الأحداث الجسام في عهد يزيد سببا في إنتشار دعوة الزبيرين حيث ثار أهل المدينة وطردوا عامل يزيد فكانت موقعة الحرة على إثر ذلك... وبموت معاوية الثاني انضم إليه أهل الكوفة وعين مصعب بن الزبير عليها فاستطاع عبد الملك بن مروان أن يهزم مصعب في (باخمرا) ثم جهز جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف، فسار إلى الطائف ثم المدينة وإلى مكة فحاصرها وضرب الكعبة بالمنجنيق وقتل الزبير بعد أن قاتل قتالاًشديداً سنة٧٣هـ وبذلك سقط حزب الزبيريين بعد أن بسط سلطانه على الحجاز والعراق ومصر تسع سنوات من(٦٤-٧٣) ولم تقم له قائمة بعد ذلك.

ب - **الفِرَقِ العقدية**[١٩٩]: وقد ظهرت كذلك في أواخر العهد الراشدي لأن المؤمنين الأوائل يستقون عقيدتهم من القرآن ويعرفون ما يليق بذات الله وما ينزه عنه، لذلك لم يكن بينهم جدل في شؤون العقائد...

وكانت المسألة الأولى التي أثيرت حولها المناقشات مسألة (القَدَر) والتي شغلت أصحاب الديانات القديمة.. وقد نهى الرسول ﷺ عن الخوض فيه مع الإيمان به، فقد خرج على الصحابة يوماً، وهم يتنازعون في القَدَرِ فغضب حتى احمر وجهه كأنما فقيء في وجنتيه الرمان فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه»[٢٠٠].

وبعد اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم تسربت إليهم الظنون من بعض الديانات فثار الجدل حول مرتكب الكبيرة حتى نتج عنه فرق كثيرة منها: الجبرية، القدرية، المرجئة، المعتزلة، الأشاعرة والماتريدية ..إلخ.

والخلاف بينهم يقوم على المناظرات والمجادلات الكلامية دون استعمال السيف، وحتى الفتنة التي حصلت من المعتزلة في قضية (خلق القرآن) كان لها صبغة سياسية حين اعتنق

---

(١٩٩) راجع :تفاصيل هذه الفرق في: أبو زهرة: *تاريخ المذاهب*، جـ١ ص٩٣-١٣٠.

(٢٠٠) الترمذي، *السنن*، كتاب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، جـ٤ ص٤٤٣.

المأمون مذهبهم وأراد إجبار الناس والعلماء عليه...

جـ - **الفِرَقِ الفقهية**: ظهرت مذاهب فقهية متعددة في التاريخ الإسلامي نتيجة لاختلاف مدارك الناس في فهم النص أو لفظه، أو عدم وصول سنة في أمر ما لأحدهم ووصولها لآخر، وهذا الاختلاف لم يكن في المسائل الثابتة بل في الفروع وغالباً ما يكون عند غياب النص، فبعضهم يأخذ بالقياس وبعضهم بالمصلحة وغيرها... وكان عمر بن عبد العزيز يسره اختلاف الصحابة في الفروع فيقول: «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لا يختلفون، لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق..»[٢٠١]. وعلى هذا فلا يقع اختلافهم ضمن الاختلاف المذموم بل له فوائد منها:رفع الحرج الذي يكون بتطبيق مذهب واحد والتوسعة على الأُمَّة يؤيده «اختلاف أمتي رحمة»[٢٠٢].كما ينفي الجمود عن الشريعة ويوافق التطور، «والمذموم تعصب مقلدة المذاهب ومعاداة المخالف من المذهب الآخر»[٢٠٣].

نرى مما تقدم أن الخلاف العقائدي والفقهي كما يقول أبو زهرة:

«يدخل في دائرة الخلاف (العلمي النظري)... فطبيعة حياة هؤلاء العلماء لا تسمح بنقل الخلاف من القول إلى العمل.. ولم تظهر الحدة إلا في حكم كل واحد على الآخرين بالخطأ والابتداع، بل أن الاختلاف في الفقه لم يتجاوز حد اختلاف وجهة النظر، وكل فريق منهم يقول: «رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب»[٢٠٤].

ومع ذلك فليس هناك انفصام تام بين الفرق السياسية والعقائدية والفقهية، بل هناك تفاعل بينهما جميعا، كما أن المذاهب السياسية في حقيقتها دينية وخصوصاً أن بعضها اتخذت اتجاهاً فقهياً وعقائدياً في الفروع كالشيعة، والخوارج، والإباضية»[٢٠٥].

---

(٢٠١) محمد أبو زهرة: *تاريخ المذاهب*، جـ١ ص١١، الشاطبي، *الاعتصام*، جـ٣ ص١١.

(٢٠٢) المتقي الهندي: *كنز العمال*، ص٢٨٦٨٦، الزبيدي: *إتحاف السادة المتقين*، جـ١ ص٢٠٤-٢٠٥، وفيه «قال العراقي ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية بغير إسناد بهذا اللفظ، وأسنده في المدخل من رواية سليمان ابن أبي كريمة، عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رفعه، فذكر حديثا آخره «واختلاف أصحابي لكم رحمة»، وسليمان وجويبر ضعيفان جدا، والضحاك بن مزاحم مختلف فيه، وكان شعبة ينكر أن يكون سمع من ابن عباس».

(٢٠٣) راجع: بحث د. عاصم أحمد عجيلة ١٩٩٠: *الخلافات المذهبية*، ص٢٢٨، في كتاب الثقافة الإسلامية، ط٤، جامعة صنعاء.

(٢٠٤) أبو زهرة، المصدر السابق، جـ١ ص١٧.

(٢٠٥) نفس المصدر، جـ١ ص٢٩.

أثر الفرق السياسية في الفتن والمحن: ومن أبرز هذه الآثار :

١- **انقسام الأمّة الإسلامية**: وكان أول اختلاف صدع هذه الأُمّة ما جرى بين علي ومعاوية -بعد مقتل عثمان ﷺ- وما تلاه من أحداث حاول فيها علي ﷺ الحفاظ على وحدة المسلمين...ولكن اختلطت الأوراق والأفهام، وكثر الجدل بأسئلة كثيرة: من الذي كان على حق؟ ولماذا؟، وما هو السند الشرعي لكل منهما؟ وما حجة من اعتزل وصمت...إلخ

وجاءت أجوبة مدعومة بأسانيدها ومتكآتها الشرعية ثم تبلورت عن مدارس فكرية تحزب لها الناس، وتراوحت بين الافراط والتفريط، واتسمت الخلافات بالعمق المفضي إلى الإقتتال بعد أن صار يتعلق بالكفر والإيمان، ثم زادت الخلافات فانقسمت الفرقة إلى فرق وصار الخلاف حول مرتكب الكبيرة -وهو في الأصل موجه إلى الكبائر التي يرتكبها النظام السياسي- أهو مسلم أم كافر؟ وإذا كان كافرا هل تجب طاعته؟.

وجاءت الإجابات متنوعة عند الفرق: الخوارج، الشيعة، المرجئة، المعتزلة، اتجاه جمهور الفقهاء[٢٠٦]، وبهذا حدثت الفُرْقَةُ بدل جمع الكلمة مما أضعف المسلمين وَفَرَّقَهُمْ وحرك مطامع الأعداء فيهم، وذلك لأن الأمر وصل إلى أن تتفق أو تستنجد بعض الفِرَقِ الضالة بالأعداء والمتربصين على إخوانهم... وهذا هو الاختلاف المذموم الذي تنبأ به رسول اللهﷺ فقال: «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[٢٠٧].

٢ - **التعصب للمذهب الفقهي**: كان للفِرَقِ السياسية فقهها الخاص حول الأسئلة السابقة، كما كان للجمهور آراؤه المعتدلة والذي يمثل غالبية الناس، وهو الذي أقر الحكومات غير الصحيحة من باب «الضرورات تبيح المحظورات»، وبقي الفقه بعيداً عن الحكام، إلا أنه أحيانا كانت الدولة تغري بإنزال الأذى ببعض العلماء، إما لأنه يتبع منهجاً فيه تحريض فيكون الأذى للتحريض لا لأصل التفكير، أو لأنه يخشى على آرائه من إثارة

---

(٢٠٦) راجع: د. صالح حسن سميع، *أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي*، ص ٤٤١-٤٤٢.

(٢٠٧) رواه أصحاب السنن إلا النسائي، الترمذي: سنن *الترمذي*، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، ح(٢٦٤٠)، جـ٥ ص٢٥، وقال حسن صحيح، أبو داود: سنن *أبي داود*، كتاب السنة، باب شرح السنة، ح(٤٥٩٩)، جـ٥ ص٤، ابن ماجة:سنن *ابن ماجة*، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، ح(٣٩٩١)، جـ٢ ص١٣٢١، وصححه الألباني في *سلسلة الأحاديث الصحيحة*، مج١ جـ٣ ص١٢، وفي مسند الإمام أحمد، جـ٣ ص١٠٢، زيادة «كلها في النار إلا واحدة».

الفتنة، وأحياناً يكون في بعض الآراء خروجاً عن الإسلام إلى الزندقة[٢٠٨].

وقد انعكست الخلافات السياسية بتعصب اتباعها ذات المذهب المعين لمذهبهم والتاريخ يحدثنا عن وقائع دامية جرت بين الشيعة والسنة ولا زالت تحدث...

ويكمن الخطر أحيانا باتخاذ بعض الأحزاب الدين غطاء لترويج بضاعتهم واستغلال العاطفة الدينية عند العوام، وأشير فقط إلى تواريخ بعض الحوادث التي ذكرتها مصادر التاريخ مثلاً (سنة٤٠٨هـ،٤٤٤،٤٤٥،٤٤٩هـ)، نموذجاً لما حدث بين السنة والشيعة[٢٠٩].

٣ - **الطعن في الصحابة**: ونتج عن تعصب كل فرقة لزعيمها تلفيق الأحاديث ونسبتها للنبي ﷺ، كما أخذت بعض الفِرَقِ تسب الصحابة وتكذبهم وتنسب إليهم ما لا يليق من القول والعمل، وترميهم بالكفر، وخصوصاً الخلفاء الراشدون وقد عرف فضلهم ومواقفهم مع الرسول ﷺ، كما نسوا نهيه عن ذلك حيث قال: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[٢١٠].وفضلاً عن ذلك فإن هذا ليس من أخلاق الإسلام الذي يوجب الأدب في التعامل وحسن الخلق، وهم بذلك يهدفون إلى التشكيك بهذه الصفوة المختارة تحقيقاً لأهوائهم السياسية.

٤ ـ **الحروب** : وهي من أسوء وأخطر الآثار لما في الحروب من إزهاق الأرواح وتخريب الديار وتبديد الطاقات... وسوف أتعرض لأمثلة منها في الموضوع اللاحق «إثارة الحروب».

(٢) الفرق الخارجة عن الإسلام: ظهرت في وقت مبكر من تاريخ المسلمين فتن ومحن ذات طابع سياسي في ظاهرها، تهدف إلى القضاء على الخلافة والحكم ونقض عرى الإسلام والعودة إلى النظم الجاهلية الكسروية، الفارسية، والأهواء والرغبات الشخصية.

وقد ظهرت بوادر هذه الحركات بصورة مبكرة منذ عهد الرسول ﷺ، بادعاء البعض النبوة، وحركات الردة في بداية العصر الراشدي، واتسع الأمر في القرون التالية حيث ظهرت

---

(٢٠٨) راجع، د. طه جابر العلواني: *أدب الاختلاف في الإسلام*، ط٤، الدار العلمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ١٩٩١، ص٧٧، ح(٢٠٣).

(٢٠٩) د. عاصم أحمد عجيلة: *الخلافات المذهبية*، ص٢٣٠، بحث منشور في كتاب الثقافة الإسلامية بجامعة صنعاء سنة ١٩٩٠، ط٤.

(٢١٠) البخاري: *صحيح البخاري*، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب قول النبي: لو كنت متخذاً خليلاً جـ٤ ص١٩٥، وأبو داود، *السنن*، كتاب السنة، باب النهي عن سب أصحاب رسول الله، ح(٤٦٥٨)، جـ٥ ص٤٥، والترمذي، كتاب المناقب، باب ٨٥، جـ٥ ص٦٩٦، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٣ ص١١، مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب فضائل الصحابة، باب ٢٢١، جـ٥ ص١٨٥٤.

ثورات متأثرة بحركة الشعوبية[٢١١]، والزندقة[٢١٢]، التي اشتدت في زمن العباسيين. وما يهمنا في هذا المبحث الوقوف على أبرز الحركات الشاذة الخارجة على الإسلام: ففي خلافة أبي العباس السفاح عرفت حركة «بها فريد» الذي ادعى النبوة وخلافة زرادشت وتبنى مبدأ الرجعة وتمكن أبو مسلم الخرساني من القضاء عليه[٢١٣].

ثم قامت بعدها حركة «اشناس»[٢١٤] سنة١٥٠هـ التي أخذت بمبادئ « بها فريد »، وظهرت حركات كثيرة إثر مقتل أبي مسلم الخرساني منها حركة «سنباذ» سنة ١٣٧هـ، حيث ظهرت في إقليم الجبل و طبرستان وتغلبوا على نيسابور والري وقومس وأعلن أنه سيهدم الكعبة،... فوجه له المنصور (جهور العجلي) فتمكن منهم وقضى عليهم[٢١٥].

وأما الحركة «الراوندية» التي ألَّهَتْ المنصور واتخذت الخراساني نبياً، فقد تم القضاء عليها سنة ١٤١هـ[٢١٦] وادعى (استاذيس) النبوة سنة١٥٠هـ وآمن به أهل خراسان، واستطاع (خازم بن خزيمة) قائد المنصور القضاء عليه[٢١٧].

وفي زمن المهدي ظهرت «حركة المقنع» الذي ادعى الربوبية امتدادا للراوندية والخرمية، واتسع خطره، لكن الدولة تمكنت منه بعد حصار طويل، واحراق المقنع نفسه وأهله سنة١٦٧هـ[٢١٨]. واقترنت بهذه الحركة انتفاضة خرمية جرجان (المحمرة) سنة١٦٢هـ،

---

(٢١١) **الشعوبية**: تعني الاستهانة بالعرب والتعصب للفرس، وهي تهدف إلى مسخ الإسلام والاعتزاز بالتقاليد الفارسية والعودة إليها. راجع الجاحظ عمر بن بحر: *البيان والتبين*، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٨،جـ٣ ص٥ـ١٠٤، ابن عبد ربه: *العقد الفريد*، جـ٣ ص٤٠٣.

(٢١٢) **الزندقة**: تعني دعوة أصحاب ماني المجوسية لانحرافهم وتأويلهم كتاب زرادشت صاحب الثنوية ولقد مزج صاحبها بين الزرادشتية والبوذية والنصرانية ...والمزدكية . راجع تفاصيل الشعوبية والزندقة وأفكارها وحركاتها إضافة إلى المصادر التي تؤرخ للحركات، المراجع : د. شوقي ضيف، *العصر العباسي الأول*، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٧٢، ص٧٥، د. مجاهد مصطفى بهجت: *التيار الإسلامي في العصر العباسي*، ص١٠٥-١٢٣.

(٢١٣) راجع ابن النديم: *الفهرست*، ص٤٨٣، طبع الرحمانية، مصر، ١٣٤٨هـ.

(٢١٤) المصدر السابق.

(٢١٥) راجع: الطبري محمد بن جرير، *تاريخ الطبري*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف بمصر، (د.ت)، جـ٧ ص٥٠٥، ابن كثير: *البداية والنهاية*، جـ١٠ ص٧٥.

(٢١٦) نفس المرجعين السابقين.

(٢١٧) راجع المرجعين السابقين: الطبري، جـ٨ ص٢٩، *البداية والنهاية*، جـ١٠ ص١٠٦.

(٢١٨) راجع الطبري محمد بن جرير، *تاريخ الطبري*، جـ٨ ص١٢٥، ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد، *الكامل في التاريخ*، ط دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، جـ٥ ص٥٩٦٥٢.

وتزعمها عبد القهار، وتم قمع هذه الحركة وقتل زعيمها وأنصاره[٢١٩].

وفي خلافة الرشيد سنة١٩٢هـ، ظهرت حركة «الخرمية» بأذربيجان وتمكنت الخلافة من قمع الحركة وقتل ثلاثين ألفا[٢٢٠].

فظهرت اضطرابات «الزط» من الهنود بالعراق في خلافة المأمون والمعتصم، وبدأت سنة٢٠٥هـ، واستمرت إلى أن قمعها المعتصم سنة٢١٩هـ[٢٢١].

وكانت أخطر الحركات وأوسعها انتشاراً ثورة «بابك الخرمي» التي امتدت من سنة٢٠١هـ إلى ٢٢٣هـ وآمنت بالتناسخ والإباحية والاشتراكية... وسعت لإعادة الحكم الفارسي وتمكن «الأفشين» من القضاء عليها سنة٢٢٢هـ[٢٢٢]. وظهرت حركة «المازيار» المتابعة لحركة بابك الخرمي سنة٢٢٥هـ، وتمكن الخليفة المعتصم من أسره وصلبه، كما استطاع أن يكشف أمر مجوسية الأفشين فأودعه السجن حتى مات سنة٢٢٦هـ[٢٢٣].

ومن الثورات الكبيرة التي حدثت في القرن الثالث ثورة «الزنج» التي دامت أربعة عشر عاماً بقيادة علي بن محمد٢٥٥هـ واسمه يهبود، ادعى العلوية وقامت ثورته بالبصرة وانتصروا في بعض الجولات وألحقوا بالدولة الهزائم فاتسعت الثورة إلى الأهواز ثم حاصروا البصرة ودخلوها سنة ٢٥٧هـ وأحتلوا واسط سنة٢٦٤.. وبعد خروج يعقوب الصفار على الخلافة العباسية اتفق مع الزنج وحاربا الخلافة العباسية لكنهما هزما هزيمة جعلتهما منفصلين، وعقدت الخلافة الصلح مع الصفار، وبدأت جيوش الموفق تحرز النصر وتلحق الهزائم بالزنج فسقطت حصونهم حتى ظفر باقتحام آخرها سنة٢٧٠هـ.

ونضيف إلى هذه الحركات الخارجة عن الإسلام الفرق الضالة للشيعة والخوارج، التي أشرنا إليها سابقا. لاشتراكهما في كيد للإسلام ونبذ تعاليمه، وأخطر هذه الفرق الضالة (القرامطة)، فهي حركة باطنية هدامة اعتمدت التنظيم السري، ظاهرها التشيع وحقيقتها الإلحاد والإباحية وهدم الأخلاق، دامت حركتهم قرابة قرن بدأت جنوب فارس وانتقلت إلى الكوفة حيث جهر بها حمدان بن قرمط سنة٢٧٨هـ وامتدت إلى مناطق أخرى في الجزيرة

---

(٢١٩) راجع: الطبري، جـ٨ ص١٣٦.

(٢٢٠) راجع: أبو زيد البلخي، *البدء والتاريخ*، جـ٦ ص١٠٣.

(٢٢١) راجع الطبري، *تاريخ الطبري*، جـ٩ ص٨، ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، جـ٥ ص٢٣٢.

(٢٢٢) راجع الطبري، *تاريخ الطبري*، جـ٨ ص٥٥٦، ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، جـ٩ ص٥٥.

(٢٢٣) راجع الطبري، *تاريخ الطبري*، جـ٩ ص٩٨-١٠٠، ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، جـ٥ ص٢٥٣.

العربية وخراسان. وقامت لهم ثورة كبيرة في القرن الرابع، وأخيرا دب الخلاف بينهم وقاتلهم الأصفر التغلبي في البحرين وأنهى دولتهم[(٢٢٤)].

أثر الحركات الخارجة عن الإسلام في إحداث الفتن: لا شك أن لهذه الفرق والحركات عواقب وخيمة مباشرة وغير مباشرة سببت للمسلمين فتناً ومحناً كثيرة في الأموال والأنفس والثمرات...وأبرز هذه الآثار:

١ - إشغال الدولة وهدر الطاقات لصد هذه الحركات التي تستهدف الدين وتدعو إلى الانحراف... وبلغ من اهتمام الخلفاء بذلك - وخصوصا المهدي والهادي - إذ أقروا لها ديواناً خاصاً يتابع أمورها سمي بـ «ديوان الزنادقة»[(٢٢٥)].

٢ - تعويق وصرف المسلمين عن مهمتهم الأولى وهي الجهاد والفتح ونشر الإسلام... فانقسمت جهود الدولة وتوزعت بين الحركات الداخلية والخارجية بدل التوحد للوقوف ضد عدو مشرك مما أضعف المد الإسلامي...

٣ - استعانة تلك الفرق بالأعداء غير المسلمين كالروم والصليبيين ضد الدولة، وقد يتفقون معهم سراً في تسهيل دخول جيوش الأعداء كما حدث في دخول التتار لبغداد. يقول الذهبي: «وجرت فتنة مهولة ببغداد بين الناس والرافضة وقتل عدة من الفريقين، وعظم البلاء، ونهب الكرخ، فحنق ابن العلقمي الوزير الرافضي وكاتب هولاكو وطمعه في العراق»[(٢٢٦)]. ويقول المصدر السابق: إن الوزير أشار على هولاكو بقتل الخليفة المستعصم آخر الخلفاء ليستتب له الأمر، ثم استدرج الخليفة من قبل الوزير فقتل...

٤ - قتل المسلمين وسفك دمائهم ونهب أموالهم، كما حدث في ثورة الزنج، قال الذهبي: «وقتلت الزنج بالأبلة نحواً من ثلاثين ألفا»، وقال: «استولت الزنج على البصرة والأبلة والأهواز وقتلوا وسبوا وهم عبيد العوام». فسار خبيث الزنج إلى الأهواز، فوضع السيف وقتل نحو خمسين ألفاً وسبى أربعين ألفاً»[(٢٢٧)].

---

(٢٢٤) راجع الغزالي، *فضائح الباطنية*، ط دار البشير، عمان، ١٩٩٣، ص١٠، أبو زهرة، *تاريخ المذاهب*، *الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة*، ص:٣٩٥،٣٩٨.

(٢٢٥) الطبري، *تاريخ الطبري*، جـ٨ ص١٦٣، جـ١٠ ص٩، ابن الأثير، *الكامل*، جـ٥ ص٦٨، جـ٦ ص٥١.

(٢٢٦) الذهبي، سير *أعلام النبلاء*، جـ٣ ص١٨١-١٨٢.

(٢٢٧) الطبري، *تاريخه*، جـ٩ ص٤٧١، الذهب، سير *أعلام النبلاء*، جـ١٢ ص٥٤١-٥٤٢.

وربما كان من أخطر الفتن وأشدها ما قام به (القرامطة) في زمن زعيمهم سليمان بن الحسن الذي استولى على كثير من بلاد الجزيرة ودام ملكه ثلاثين سنة وبلغ من سطوته أن دفعت له حكومة بغداد الأتاوة وفتك بالحجاج حين رجوعهم من مكة واستحلوا الكوفة ستة أيام في زمن المقتدر(٢٩٥ - ٣٢٠) ثم هاجموا مكة واستباحوها سنة (٣١٩هـ) وفتكوا بالحجاج وهدموا زمزم وملؤا المسجد بالقتلى، ونزعوا الكسوة، وقلعوا باب البيت العتيق، واقتلعوا الحجر الأسود وسرقوه إلى الإحساء وبقي هناك عشرين سنة إلى عام (٣٣٩هـ)[٢٢٨].

٥ - الترويج للفساد لأن جميع هذه الفِرَقِ في حقيقتها تدعوا للفساد والانحلال الخلقي وتتستر بذلك، لإن من بينهم رجال السياسة والراغبين في الحكم، ومنهم أدباء وشعراء كبشار بن برد، والحمادون الثلاثة (عجرد والراوية وابن الزبرقان)، حيث تكشف أشعارهم الماجنة عن عقائدهم وهم يتغنون بها في مجالس الخمر واللهو[٢٢٩].

٦ - شغل العلماء وخصوصاً من أهل الكلام والفقهاء والأدباء بتوجيه جهودهم بالرد على هذه الفِرَقِ الضالة وتصنيف المؤلفات فيها، وبيان الانتحال في الأحاديث والأخبار والأشعار وكانت جهود الخلفاء تجاههم واعية تستتيب الزنادقة وتعفوا عن التائب. وقد ناقش المأمون بنفسه بعضهم[٢٣٠].

خامساً: الحروب الداخلية والخارجية

لاشك أن من أكثر المحن والابتلاءات التي قاست منها البشرية هي « فتنة الحروب » وقد عانى المسلمون من آثارها على مر العصور...

لا أقصد بهذه الحروب، حروب الفتح الإسلامي والجهاد لإعلاء كلمة الله فتلك فريضة هدفها نشر الإسلام الذي فيه الخير والبركة للبشرية، إنما القصد الحروب التي تثار بسبب الفتن الداخلية، وهجمات الأعداء على ديار المسلمين في الداخل والخارج.

أولاً: الحروب الداخلية: وهي الحروب التي وقعت داخل حدود الدولة الإسلامية من قِبَلِ الفِرَقِ (الإسلامية) السياسية: كالشيعة والخوارج والزبيريين تجاه الدولة الأموية والعباسية، وهذا عرض موجز لنشاط تلك الفرق[٢٣١].

---

(٢٢٨) راجع: الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، جـ١٣ ص٤٧٦.

(٢٢٩) راجع: مجاهد مصطفى، *التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول*، ص١١٥-١٢٣.

(٢٣٠) راجع: الجاحظ، عمرو بن بحر، *الحيوان*، تحقيق عبد السلام هارون، ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥، جـ٤ ص٤٤٢.

(٢٣١) لم أذكر نشاط الحركات الخارجة عن الإسلام.

كان مقتل عثمان بداية الفتنة التي تموج كموج البحر، بعدها وقعت معركة (الجمل) بين علي من جهة وعائشة وطلحة والزبير من جهة أخرى دون أن يكون قصد أحدهم القتال[٢٣٢].

«وقعت معركة (الجمل) دون أن يكون لهم قصد في القتال بل الاتفاق على المصلحة بالقضاء على قتلة عثمان بعد التمكن، ولكن القتلة خشوا من اتفاق علي معهم فحملوا على معسكر طلحة والزبير فظن الأخيران أن علياً حمل عليهم، فحملوا دفعاً عن أنفسهم فظن علي أنهم حملوا عليه، فحمل عليهم دفعاً عن نفسه، فوقعت الفتنة بغير اختيارهم وعائشة راكبة لا قاتلت ولا أمرت بالقتال»[٢٣٣]،رضي الله عنهم أجمعين.

ثم حدث ما يشابه ذلك في (صفين) بين علي ومعاوية، وقد غلب عليهما فيما وقع، «والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها...»[٢٣٤].

وبعد الاتفاق على التحكيم خرجت طائفة إلى (حروراء) اعتراضاً على التحكيم، وتحت شعار «لا حكم إلا لله» تجمعوا وقتلوا من اجتازهم من المسلمين فالتقى علي بهم في (النهروان) وهزمهم. وعندما قُتِلَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجهَهُ من قبل أحد الخوارج -عبد الرحمن بن ملجم- تنازل ابنه الحسن للأمويين منعاً للفتنة ثم استشهد مسموماً، ثم تَوَلَّى الحسين معارضة بيعة يزيد بن معاوية واستدرج إلى كربلاء واستشهد هناك من قبل جيش يزيد بقيادة عبيد الله بن زياد[٢٣٥]، بعدها استقرت الخلافة لبني أمية في جو مشحون بالعداء للأمويين من الشيعة والخوارج والزبيريين ونزاع مستحكم بين الشيعة والخوارج والزبيريين ...واستمر الصراع بينهم أمام جماعة المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة من غير خروج ولا تشيع ولا اعتزال..

وهذا موجز للحروب ووقائع هذه الفرق مع الدولة الإسلامية علماً أنه لا يمكن الفصل بينها لأنها متداخلة وخصوصاً حروب الشيعة والخوارج.

وَلَّى يزيد بن معاوية قائده عبيد الله بن زياد الكوفة لمواجهة الشيعة والخوارج فَنَكَّلَ بأهلها...وظهر المختار بن عبيد الثقفي رئيس فرقة المختارية واستطاع أن يجمع حوله

---

(٢٣٢) انظر التفاصيل في: ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٣ ص٥٤،٥٩، ويرى أبو بكر بن العربي: أن خروجهم إلى البصرة كان للصلح بين المسلمين وبذلك وردت الأخبار. راجع: أبو بكر العربي، *العواصم من القواصم*، تحقيق محب الدين الخطيب، ط دار الكتب السلفية، القاهرة، ١٤٠٥هـ ص١٥٥.

(٢٣٣) ابن تيمية، *منهاج السنة النبوية في نقض كلام القدرية*، جـ٢ ص١٨٥.

(٢٣٤) المصدر نفسه، جـ٢ ص٢٢٤.

(٢٣٥) راجع تفاصيل قصة استشهاد الحسن والحسين في، ابن كثير، *البداية والنهاية*، جـ٨ ص١٧٤.

«التوابين» فخرجوا بقيادته سنة٦٥هـ تعبيراً عن ندمهم وتفريطهم في الحسين وثأراً له، والتقوا مع جند مروان بن الحكم بقيادة عبيد الله بن زياد في «عين الوردة» ورغم هزيمتهم ثبتوا في القتال لأول مرة. فطردوا عامل ابن الزبير على الكوفة والتقى المختار بجيش عبيد الله بن زياد ثانية عبر نهر «الخازر» وانتصر عليه وأرسل برأس عبيد الله إلى الزبير بمكة(٢٣٦).

ترك مروان بن الحكم الأطراف المناوئة للدولة أن يقتل بعضها بعضاً، فأرسل الزبير جيشاً بقيادة أخيه مصعب بن الزبير إلى المختار فقتله مع اتباعه، ثم انتصر على الخوارج عندها توفى مروان بن الحكم، فوجّه عبد الملك بن مروان جيشاً إلى الكوفة حيث كان مصعب والياً عليها والتقى الفريقان عند (باخمرا) وقتل مصعب سنة٧١هـ.

بعدها جهز عبد الملك جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الطائف ثم المدينة ثم مكة فقتل ابن الزبير وضرب الكعبة بالمنجنيق سنة٧٣هـ(٢٣٧). «وكان من أسباب القضاء على دعوة الزبيريين قتالهم لعناصر قوية متفرقة وهم الخوارج والشيعة وبني أمية»(٢٣٨).

وخرج زيد بن علي زين العابدين على هشام بن عبد الملك بالكوفة فَقُتِلَ وَصُلِبَ سنة١٢٠هـ. ومن بعده ابنه يحيى في خراسان سنة١٢٥هـ أواخر عهد الدولة الأموية.

أما موقف الشيعة تجاه العباسيين، فالكيسانية ارتضت خلافتهم، والإمامية التزمت الصمت (تقية) إلا ثورة محمد بن جعفر الصادق زمن المأمون.

وتمثلت المقاومة في فرقة الزيدية، حيث خرج الإمام محمد (النفس الزكية) في المدينة سنة١٤٥هـ وأخوه إبراهيم في البصرة وكسبا الانصار، وأوذي الإمامان مالك وأبو حنيفة بذلك...وتمكن المنصور من الأخوين وقتلهما، وخرج الحسن بن إبراهيم سنة ١٦٩هـ، وقضى عليه الهادي في موقعه (فخ)، وفر إدريس أخو محمد النفس الزكية وأسس دولة الأدارسة في المغرب سنة ١٧٢هـ، وقضى المأمون على حركة ابن طباطبا سنة١٩٩هـ..وهكذا توالت الثورات، وآخرها في زمن المعتصم سنة ٢١٦هـ(٢٣٩) وهدأت بعدها الثورات وبقيت الأحقاد...

---

(٢٣٦) راجع: حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي*، جـ١ ص٤٣٦.

(٢٣٧) الطبري، *تاريخ الطبري*، جـ٧ ص٥٥٢،٦٦٢، الشهرستاني، محمد عبد الكريم، *الملل والنحل*، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، ط مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة، جـ١ ص١٥٤-١٦٨.

(٢٣٨) د. أحمد رمضان أحمد، *الخلافة في الحضارة الإسلامية*، ص٢٠٧.

(٢٣٩) راجع تفاصيل تلك الحوادث في الطبري، *تاريخ الطبري*، جـ٧ ص٥٥٣، ٦٢٢ وجـ٨ ص١٩٢، ٢٤٢، ٥٢٨، ٥٤٤، وجـ٩ ص٤١٨.

أما الخوارج فقد نصب لهم الأمويون قائداً اسمه «المهلب بن أبي صفرة» لقتالهم وكانت الأزارقة منهم تلقوا الصدمات الأولى من ابن الزبير والأمويين بقيادة نافع بن الأزرق لمدة تسع عشرة سنة، وتوالت هزائمهم بعده حيث كان المهلب يثير الخلاف بينهم قبل المعركة...

أما فرقة النجدات فقد أخذوا بمبدأ التقية ولما اشتد أمرهم استولوا على البحرين واليمن والطائف، وانقسموا إلى فرق ولكن عبد الملك أرسل إليهم جيشاً وهزمهم. وخرج الصفرية أيام معاوية في البصرة فَقَتَلَ عبيد الله بن زياد قائدهم أبا بلال مرداس[٢٤٠].

وتعاون الحجاج مع المهلب بن أبي صفرة للقضاء على الخوارج فانتصر الخوارج أولاً ثم طلب الحجاج نجدة من الشام فقضى على خطرهم في العراق. وهدأت ثوراتهم في زمن عمر ابن عبد العزيز حيث واجه رسلهم وقارعهم الحجة بالحجة إلى أن مات سنة١٠١هـ، واشتد خطرهم في عهد آخر خلفاء بني أمية فظهر الضحاك بن قيس الشيباني وزحف نحو الكوفة سنة ١٢٧هـ ثم الموصل، والتقى بجيوش الأمويين في (ماردين) وانهزم وقتل، وكان خروج أبي حمزة الخارجي الذي هزم، آخر ثوراتهم في عهد الأمويين[٢٤١].

وفي عهد الخلافة العباسية قامت لهم دويلات مستقلة كالدولة الصفارية في المغرب وبني رستم الإباضية، ورغم أنهم أضعفَ مما كانوا في العهد الأموي إلا أن ثوراتهم بقيت متواصلة. فخرجوا في عهد السفاح والتقى بهم في عُمَان سنة ١٣٤هـ وهزمهم، وكان لهم كرٌّ وفرٌّ في زمن المنصور وانتصر عليهم سنة ١٣٨هـ وسنة١٤٣هـ.

وفي خلافة المهدي خرجوا سنة ١٤٨هـ بالموصل وسنة ١٥٣هـ بالقيروان، و١٦٠هـ، و١٦٤هـ في خراسان، و١٦٢هـ بالجزيرة، و١٦٨هـ بالموصل كذلك.

وفي خلافة الهادي خرجوا بالجزيرة سنة١٦٩هـ، ونشطوا في خلافة الرشيد فكانت ثورة(صحصح) سنة١٧١هـ، و١٧٦هـ بالجزيرة، وخرج (العطاف) سنة ١٧٧هـ، ثم طريف...وتواصل خروجهم إلى سنة ١٩١هـ وخرجوا مرات بخراسان وكذلك في عهد المأمون سنة ٢٠٢هـ، ٢١٤هـ[٢٤٢]. فكانت الدولة الإسلامية تواجه الخروج حفاظاً على وحدة المسلمين.

---

(٢٤٠) راجع: محمد أبو زهرة ، *تاريخ المذاهب الإسلامية*، جـ١ ص٦٩-٧٢.

(٢٤١) راجع: ابن الأثير، *الكامل*، جـ٤ ص١١٨،١٢٠، جـ٥ ص١٣٥،١٤١، حسن إبراهيم، *تاريخ الإسلام السياسي*، ح١ ص٤١٨.

(٢٤٢) راجع: تلك الحوادث في *تاريخ الطبري*:جـ٧ ص٤٤٧-٤٩٩، جـ٨ ص١٣٢-٦٢٢.

الحروب الخارجية: ونقصد بهذه الحروب الهجمات على الدولة الإسلامية بقصد إزالتها ومن ثم القضاء على الإسلام.

وقد أدى ضعف المسلمين من جراء الحروب الداخلية وضعف الالتزام الديني إلى انقسامها إلى دويلات مجزأة داخل إطار الدولة الكبرى[٢٤٣]... ومحاولة كل دولة الحفاظ على كيانها على حساب الأخرى بالاقتتال والتناحر وطلب العون من الأعداء، هذا بالإضافة إلى الفرق والحركات السياسية والدينية المنحرفة والتي سبق الكلام عنها....

ولهذا طمع الأعداء فيهم لعلمهم أنهم يواجهون عدواً ممزقاً، وتحقق قول الله فيهم: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٢٤٤].ولن يتحقق النصر في كل مرة إلا بالتوحد والالتزام بالإسلام. وقد وقعت هذه الحروب من ثلاثة أطراف وهي:

أ - **الحروب الصليبية:** بدأت الحملة الصليبية على ديار المسلمين سنة (٤٩١هـ/١٠٩٨م)، عندما أعلن البابا الحرب على المسلمين واسترداد الأرض المقدسة... ووعدهم «بأن كل من يشترك فيها تغفر ذنوبه...وأن يتخذوا شعار الصليب»[٢٤٥]. وقد شارك في الحملة الأولى أمراء وفرسان أوربيون يتقدمهم رجال الكنائس، فدخلوا بلاد الشام وأسسوا إمارة الرها...وسقطت أنطاكية بسبب الخيانة، وفشل المسلمون باستردادها بسبب الخلاف بين الأمير والقواد[٢٤٦]. وتحالف الفاطميون مع الفرنجة وأخذوا القدس ... وظهرت التنازلات من أطراف أخرى بتقديم المعونات والمؤن والأدلاء للصليبيين! فاحتلوا بيت المقدس سنة ١٠٩٩م، «ولبث الفرنجة أسبوعاً يقتلون المسلمين، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم»[٢٤٧].

واستسلمت مدن أخرى إثر ذلك، وعاد بعض الصليبين إلى ديارهم بعد الاستيلاء على

---

(٢٤٣) وهذه الدول هي: (الطاهرية، الصفارية، السامانية، الغزنوية، الديلمية، البويهية، السلاجقة، الحمدانية، الطولونية، الأخشيدية، الفاطمية). راجع: د: علي عبد الحليم محمود: *التراجع الحضاري في العالم الإسلامي*، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٢٤٤) سورة الأنفال ٨: ٤٢.

(٢٤٥) راجع: سعيد عبد الفتاح عاشور، *الحركة الصليبية*، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ١٩٨٦، جـ١ ص١٠٤-١٠٧.

(٢٤٦) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، جـ٨ ص١٨٧.

(٢٤٧) نفس المصدر السابق، جـ٨ ص١٨٩.

القدس[٢٤٨]، مع استمرار الإمداد لهم واستمر الجهاد بفضل المجاهدين الذين أفقدوهم الاستقرار[٢٤٩]، وبدأت صفحة أخرى من الجهاد في عهد عماد الدين زنكي (٥٢١-٥٤١هـ) بتوحيد المسلمين فتوالت انتصاراته واسترد المدن عدا دمشق لتحالف صاحبها مع الفرنج! ثم قتل عماد الدين غدراً[٢٥٠].

وجاء ابنه نور الدين وفتحت صفحة أخرى من الجهاد دامت (٢٨سنة)وقد أثمرت جهوده في تحقيق الوحدة الإسلامية والتحرير التدريجي للمدن، وأدرك أهمية السيطرة على مصر، ونجح بعد ثلاث حملات من الانتصار على الفاطميين والفرنجة وولى صلاح الدين الأيوبي عليها،[٢٥١]وتمت الخطبة بأمر نور الدين للخليفة العباسي المستضيء بالله سنة ٥٦٧هـ، كما ضم الموصل واليمن فتوحدت الجبهة الإسلامية، كما حطم الحملة الثانية والتي شارك فيها ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا فكسر هيبتهم وقتل منهم عشرة آلاف وأسر مثلها...وأعد للهجوم على بيت المقدس وجهز منبراً جديداً للأقصى ولكنه توفي. وتولى القيادة بعده صلاح الدين الأيوبي فاستطاع القضاء على الفتن، وتوحيد المسلمين واستعادة ما سقط من المدن فانتصر في معركة حطين الفاصلة وقتل من الصليبين ثلاثين ألفاً وأسر ثلاثين ألفاً وفيهم ملوكهم . ثم حاصر القدس سنة ٥٨٣هـ وبداخلها مائة وستون ألف مقاتل واقتتل الطرفان قتالاً شديداً ثم طلبوا الأمان، ورفض صلاح الدين ذلك، غير أنهم هددوا بقتل أسرى المسلمين وهدم قبة الصخرة فأعطاهم الأمان وتسامح معهم كثيرا وأذن لهم بالذهاب إلى صور فخانوا الاتفاق وندم على ذلك، وبهذا رفع صوت الأذان في بيت المقدس بعد انقطاع دام ٩١ سنة هجرية.

وجاءت الحملة الثالثة يقودها ثلاثة ملوك من أوربا، فردريك ملك ألمانيا، وريتشارد قلب الأسد ملك الانكليز، وفيليب ملك فرنسا، فسقطت عكا وحيفا ويافا فحاصرها صلاح الدين سبعاً وثلاثين شهراً وقتل خمسين ألفاً وانتهت بهدنة بناء على الحاح مستشاريه بحجة خراب البلاد وتعب الأجناد...ومات صلاح الدين سنة٥٨٩هـ، وعاد الصراع بين أبناء

---

(٢٤٨) سعيد عاشور، *الحركة الصليبية*، جـ٨ ص٢٢٩-٢٣٠، أحمد المرعشلي (إشراف)، *الموسوعة الفلسطينية*، ط: هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ١٩٨٤.

(٢٤٩) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، جـ٨ ص٢٨٩.

(٢٥٠) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، جـ٩ ص٨-٩، د.جميل المصري، حاضر *العالم الإسلامي*، ص٦٨.

(٢٥١) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، جـ٩ ص٩٩-١٠٣.

الأيوبيين وجاءت حملة رابعة فخامسة وسادسة وملوك المسلمين يستنجدون بالأعداء على بعضهم ... وسلمت القدس واسترجعت مراراً ثم عادت نهائياً سنة٦٤٢هـ للمسلمين، وجاءت الحملة السابعة إلى مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، وانتهى الحكم الأيوبي، وبدأ الحكم المملوكي صفحة جديدة من الجهاد ضد المغول والصليبيين وانتهت بانتصار المماليك على المغول في « عين جالوت » ثم تابع سلاطين المماليك (قطز، الظاهربيبرس، وقلاوون وابنه..)، مهمة تحرير باقي أراضي فلسطين، والشام وجلاء الصليبيين منها، وانتهى بذلك وجودهم بعد قرنين من الزمان (٤٩٢-٦٩٠هـ/ ١٠٩٩-١٢٩١م) حتى الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧[٢٥٢].

ب - **المغول والتتر**: وفي القرن السابع الهجري -الثالث عشر الميلادي ظهر خطر المغول-التتر على بلاد الإسلام، وهم مجموعة قبائل توحدت تحت قيادة جنكيز خان -أي أعظم الملوك- اندفع بهم فسيطروا على الصين وكوريا.. ثم حطموا الدولة الخوارزمية المسلمة سنة٦١٦هـ،١٢٢١م التي كانت من دول الخلافة العباسية وتحميها من الشرق والشمال.

ثم فتحوا آسيا الوسطى وروسيا وتوغلوا في أوربا ثم العالم الإسلامي وأفغانستان والهند وفارس[٢٥٣].

ثم اجتاحوا العراق وحاصروا عاصمة الخلافة (بغداد) فتآمر الوزير ابن العلقمي الرافضي مع المغول ونصحهم بقتل الخليفة لإسقاط الخلافة. وقام بتسريح معظم جيش الخلافة الذي أصبح عشرة آلاف بعد أن كان أكثر من مائة ألف... فسقطت بغداد بيد هولاكو سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وقام بمذبحة هائلة استمرت أربعين يوماً، وذكر ابن كثير أن عدد الضحايا بلغ ثمانمائة ألف وقيل مليونان... وقيل أن الخليفة المستعصم بالله وضع في كيس وقتل رفساً[٢٥٤].

وكان سقوط بغداد عاصمة الخلافة أشبه بزلزال رهيب دك بنيان بلاد الإسلام من أقصاها إلى أقصاها، ونظم الشعراء من العرب والفرس المراثي التي تشيع الأسى في النفس وتثير الشجون[٢٥٥].

---

(٢٥٢) *الموسوعة الفلسطينية*، جـ٣ ص٤٤٧-٤٤٨، راجع د. محسن محمد صالح، *الطريق إلى القدس*، ص١٥١.

(٢٥٣) راجع ابن كثير، *البداية والنهاية*، جـ١٣ ص٢٠١، الذهبي، سير *أعلام النبلاء*، جـ٢٣ ص١٨٠ .

(٢٥٤) إضافة للمصادر السابقة، راجع سعيد عاشور، *الحركة الصليبية*، جـ٢ ص٨٩٩-٩٠١ .

(٢٥٥) ابن كثير: *البداية والنهاية*، جـ١٣ ص٢١٩ .

وبعدها اجتاح المغول بلاد الجزيرة ونزلوا حلب ثم حماة وولاتها بين مستسلم وهارب واستلموا دمشق بالأمان ثم غدروا بأهلها وتقدموا في بقية المدن دون مقاومة فتقاسم فلسطين المغول والصليبيون، وارتكبوا الفظائع ونشروا الرعب في المدن التي دخلوها حتى جرت دماء المسلمين في الأزقة.

وأرسل هولاكو إلى قطز سلطان مصر المعروف بتقواه وصلاحه رسالة تهديد تطلب منه الاستسلام، فقبض قطز على الرسل وأمر بإعدامهم توسيطاً -القطع من وسطهم- ثم بادر بالهجوم والزحف على التتر فحرر غزة واتجه شمالاً إلى (عين جالوت) والتقت القوتان هناك وكان النصر حليف المسلمين الذين رددوا مع قائدهم (وإسلاماه)، ثم استمر بمطاردة المغول فتركوا ما بأيديهم من أسرى المسلمين، واستعاد المسلمون خلال شهر بلاد الشام، أما من بقي واستقر من المغول في بلاد الإسلام فقد أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً فكان نصراً جديدا للمسلمين[٢٥٦]، فضاعت أحلام الصليبيين حيث كانت آمالهم معقودة على التتار في الانتصار على المسلمين.

جـ - الإسبان وسقوط الأندلس: فتح المسلمون الأندلس سنة٩٢هـ/ ٧١١م، بقيادة طارق بن زياد، وتبعه موسى بن نصير وأكمل افتتاحها سنة ٩٣هـ، بجيش أكثره من العرب في خلافة الوليد بن عبد الملك، وترك ابنه عبد العزيز أميراً عليها في إِشْبِيلِيَّةَ وعاد...

وبعد سقوط الدولة الأموية فر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وأسس الدولة الأموية في الأندلس، وبعد أن دب الخلاف بين أبناء الأسرة الأموية سقطت سنة ٤٠٧هـ، فانقسمت الأندلس إلى دويلات عرفت بـ « دول الطوائف » بلغت عشرين عداً، كلها دون استثناء يستعينون بالإسبان على إخوانهم مقابل التنازل عن مدن وحصون ودفع الجزية! وبذلك استرد الأسبان قرابة نصف مساحة البلاد بدون حرب، بل ثمناً لِعَوْن كاذب ضد إخوانهم في الإمارات الأخرى[٢٥٧]. فسقطت طُلَيْطِلَةَ وهاجموا إِشْبِيلِيَّةَ فاستنجد صاحبها ابن عباد بالمرابطين[٢٥٨]، فأجابه زعيمهم يوسف بن تاشفين بقوات ضخمة وانتصروا في معركة «الزلاقة» الشهيرة، ثم أدرك أن ملوك الطوائف بتناحرهم لا يصمدون أمام العدو فعاد فوحد

---

(٢٥٦) راجع: حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي*، جـ٤ ص١٣٠ .

(٢٥٧) راجع: د. أسعد حومد، *محنة العرب في الأندلس*، ط:٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٨، ص٩٨ .

(٢٥٨) المرابطون: جماعة من البدو في أقصى غرب إفريقيا دخلوا الإسلام وأخلصوا له ونذروا أنفسهم في الثغور للدفاع عن أرض الإسلام والجهاد فسموا بذلك.

الأندلس والمغرب سنة ٤٩٥هـ، وسميت دولة المرابطين، وبعده استعان الأمراء بالأسبان ضد المرابطين عام ٥٤٠هـ، وحقق الموحدون انتصارات على الأسبان أهمها «أراكوش» فاستعان الأسبان بالمتطوعين من أوربا وهزموا المسلمين في معركة «التل» رغم استعدادهم لخلل في صفوفهم، وانتهى حكم الموحدين وعاد نزاع الأمراء فأخذ الأسبان بعض المدن وسلمت بَلَنْسِيَةَ وحول مسجدها إلى كنيسة، وأخرج منها خمسون ألفاً خلافاً للاتفاق ثم سلمت قُرْطُبَةَ بعد أن حكمها المسلمون ٥٢٥سنة، ثم مرسية وإِشْبِيلِيَّةَ ولم يبق غير غِرْنَاطَةَ في أقصى الجنوب أسست فيها دولة بني الأحمر التي استطاعت الصمود بتماسك جبهتها الداخلية، ولكن سرعان ما دب الخلاف والانقسام في الوقت الذي توحد عدوهم بزواج الملكة إيزابيل ملكة قِشْتَالَةَ فرناندو ملك صِقِلِّيَةَ، وزاد الخلاف بين ملك غِرْنَاطَةَ أبي الحسن وابنه أبي عبد الله الصغير، وكان للإسبان دور في الوقيعة بينهم وتنازل أبو الحسن إلى أخيه الزَّغَل فتقاسم مع أبي عبد الله حكم غِرْنَاطَةَ، ثم اتفق الزَّغَل مع الإسبان ورحل إلى المغرب فحوصرت غِرْنَاطَةَ وتخاذل أبو عبد الله ووزراؤه فوقع معاهدة استلام غِرْنَاطَةَ مع الملكين على شروط تضمن للمسلمين حقوقهم(٢٥٩). وفي ١٢/ ١/ ١٤٩٢م خرج أبو عبد الله مع أتباعه وسلم مفاتيح غرناطة للملكين واستلم ابنه الرهينة ووقف عند جبل الريحان يودع غرناطة وهو يبكي فقالت له أمه عائشة قولها المشهور:

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً ... لم تحافظ عليه مثل الرجال

وهكذا قضى الحقد الصليبي على دول الأندلس التي دامت ثمانمائة عام وأسست فيها حضارة لم يكن لها مثيل في تلك العصور(٢٦٠).

وحدة الهدف والأسلوب لهذه الحروب: لا شك أن الحملات على الجزء الغربي من العالم الإسلامي (بلاد الشام) كانت صليبية بإسم الكنائس وكذلك حروب الأسبان على الجزء الشرقي منه...فقد أصدر البابا مرسوما حرم فيه على الأسبان المشاركة في حملات الشرق الصليبية... لأن محاربة المسلمين بأسبانيا لا تقل أهمية عن الحروب الصليبية فهرع الكثير من أوربا إلى الأندلس ليشاركوا في حرب صليبية هي أقرب سبيلاً وأقل مشقةً

---

(٢٥٩) تضمنت هذه المعاهدة الموقعة في ٢١ محرم ٨٩٧هـ (٤٦) بنداً تضمن للمسلمين المحافظة على دينهم ومساجدهم ويخيرون بين الرحيل والبقاء..الخ) راجع هذه البنود مترجمة عن النص الأسباني في المصدر السابق، ص١٤٨-١٥٩ وقد نكث الإسبان بهذه البنود بإلحاح من الكنيسة.

(٢٦٠) راجع: أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس،ص١٢٠-١٤٨

وعناء[٢٦١].

أما المغول التتر فهم وإن كانوا وثنيين إلا أن هولاكو عرف بميله للمسيحين فَأُمُّهُ نصرانيـة وزوجته نصرانية نسطورية كذلك. فعقد مـع أمـراء الفرنجـة حلفـاً بالقضـاء علـى المسـلمين وتسليمهم بيت المقدس، فاعتبر نفسه محرراً للنصارى من أيدي المسلمين وأرسل إليهـم قبـل أن يغزو المسلمين رسالة تتضمن ذلك[٢٦٢].

كما كان عدد من حاشيته نصارى، وقد لعبت زوجته النسـطورية دوراً خطـيراً تفخـر بـه الكنيسة من تجنيب أوربا أهوال المغول وتوجيهه إلى المسلمين، بل أن قائد معركة عين جالوت «كتبغا» كان مسيحياً حتى إن أحد الأساقفة وصف حملة التتار بأنها «حملـة صليبيـة نسـطورية بالمعنى الكامل».[٢٦٣]

وعندما خرب هولاكو بغداد طلب من بطريـق النسـاطرة أن يجمـع النصـارى في إحـدى الكنائس حتى يميزوا عن غيرهم فلا يتعرض لهم جند التتار[٢٦٤].

وبهذا تكتمل الصورة فنرى أن جميع الحروب صليبية في هدفها وهو القضاء على الإسلام والمسلمين وبنفس الأساليب من القتل والدمار والخديعة والغدر بناء علـى أكـاذيب تروجهـا الكنيسة في أوربا من أن المسلمين يعذبون النصارى ويجبرونهم على ترك دينهم.

آثارالحروب الخارجية: أثرت الحروب الخارجية تأثيراً بالغ الخطورة في جميع الجوانب بحياة المسلمين. ومن أبرز هذه الآثار ما يأتي:

١ - أصبح موقف المسلمين دفاعياً بصـد الهجمـات فـتراجعت الفتوحـات الإسـلامية عمـا كانت عليه، وضعفت قوة المسلمين، وغلبوا على أمرهم تجاه دسائس العدو ومكائده.

٢ - استنزفت الحروب الطاقات البشرية والمادية فأهلكت الحرث والنسل.. واتصفـت بـروح التعصب والانتقام فبالغ الأعداء في التنكيل بالمسلمين.

فالحروب الصليبية الغربية دامت قرنين، سفكوا خلالها الدماء وانتهكوا الحرمـات، ولقـد مر كيف قتلوا في بيت المقدس سبعين ألف مسلم وخاضت خيولهم بدم الضحايا..[٢٦٥]

---

(٢٦١) راجع: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي ص٦٦.

(٢٦٢) المصدر نفسه ص٥٩ .

(٢٦٣) انظر:د محسن محمد صالح ، الطريق إلى القدس ص١٤٦.

(٢٦٤) راجع : د جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص٥٩-٦٠، سـعيد عاشـور، الحركـة الصليبيـة جـ٢ ص٨٦٨، ٨٧٢، ٨٨١.

(٢٦٥) ابن كثير، *البداية والنهاية*، جـ١٢ ص١٥٦.

وقد ذكر المنصفون منهم روايات عن شهود عيان تلك المذابح فقال عن مذبحة مسجد عمر: «لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان...وأجمعوا على إبادة سكان القدس...وكان عددهم نحو ستين ألف فأفنوهم في ثمانية أيام»[٢٦٦].

أما المغول فقد دمروا الممالك التي زحفوا عليها دون رحمة حتى قال توماس أرنورلد:

«لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من غزوات المغول... فلقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قمم الجبال واكتسحت في طريقها الحواضر الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال بالية، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء»[٢٦٧]،وقال ابن الأثير: «حادثة التتار من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى التي عقمت الدهور عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين»[٢٦٨].

وقد مر ذكر عدد القتلى في بغداد..، أما حروب الإسبان فقال أحدهم:

«يقدر كثير من العلماء أن عدد المسلمين الذين خسرتهم إسبانيا منذ فتح غرناطة حتى إجلائهم بثلاثة ملايين... ولا يسعنا إلا الاعتراف بأننا لا نجد بين وحوش الفاتحين من اقترف مظالم كالتي اقترفها نصارى إسبانيا تجاه المسلمين» [٢٦٩].

والغريب في ذلك أن رجال الدين في الفاتيكان والكنائس يحرضون الحكام والشعب على ذلك ويحلون لهم النهب ونقض المواثيق.

٣ - التراجع الحضاري للمسلمين .. فالتتار خربوا المساجد وأتلفوا المكتبات بإحراق الكتب أو إلقائها في نهر دجلة .. وكذلك فعل الإسبان بإحراق جميع الكتب العربية في المكتبات العامة والخاصة لقطع صلة المسلمين بلغتهم فاحترقت جميعها إلا ثلثمائة كتاب في الطب ويقدر عدد ما أحرق بمليون كتاب[٢٧٠]، وبصورة عامة كان الصلبيون يسطون على كتب ومعارف العرب وينسبونها إليهم.

---

(٢٦٦) راجع: غوستاف لوبون، *الحضارة العربية*، ص٣٢٥-٣٢٧، د. جميل المصري، *حاضر العالم الإسلامي*، ص ٦٤-٦٥.

(٢٦٧) توماس أرنولد، *الدعوة إلى الإسلام*، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، ص٢٤٩.

(٢٦٨) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، جـ٩ ص٣٢٩.

(٢٦٩) غوستاف لوبون، *الحضارة العربية*، ص١٩١.

(٢٧٠) راجع: د.أسعد حومد، *محنة العرب في الأندلس*، ص٢٢٧.

٤ - أما الفتنة والمحنة في الدين فكانت الأقسى والأمر.. من ذلك: نظم المغول والنصارى مواكب عامة في بلاد الشام حملوا فيها الصلبان وانشدوا الأناشيد بذم المسلمين ودينهم وأجبروا المسلمين على أن يقفوا احتراما لمواكبهم .. وتظاهروا بالخمر في رمضان ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات ..[٢٧١] واتخذوا من مساجد بخارى اصطبلات ومزقت المصاحف.

٥ - الغدر ونكث العقود والمواثيق مع المسلمين من ذلك: اشترط صلاح الدين على ملك القدس الرحيل إلى أوربا وعدم محاربة المسلمين وبعد اطلاق سراحه ذهب إلى طرابلس فأعطاه الأسقف فتوى يحله من ذلك العهد.

ولم يَصدُقِ الإسبان مرة واحدة مع المسلمين... ففي كل معاهدة يشترط المسلمون المحافظة على دينهم ومساجدهم وبقائهم حسب اختيارهم... وسرعان ما يتم لهم الأمر فإذا المساجد تحول إلى الكنائس، ويجبر المسلمون على التنصير والتعميد والضغط عليهم بالهجرة والرحيل، كما يترك المسلمون بلا حماية عرضة للنهب والقتل والاسترقاق لمن يشاء، وحتى الذين تنصروا أنشأوا لهم ديوان التحقيق أو ما يسمى بـ«محاكم التفتيش» لملاحقتهم وصاروا ينادون النصارى الجدد (مورسكوس) أي المغربي الصغير... وتنفيذاً لذلك صدرت الأوامر الملكية تنص على ما يأتي[٢٧٢]:

١ - نزع سلاح المسلمين وتسليمه لأعضاء اللجنة، وعقوبة المخالف بالاسترقاق ومصادرة المال والجلْدِ.

٢ - إغلاق المساجد ومنع اجتماع المسلمين سواء للصلاة أو الحج أو الدفن أو الوعظ.

٣ - منعهم من الاحتفال بأعيادهم ومن ختن الأولاد والذبح على الطريقة الإسلامية.

٤ - إجبارهم على حضور القداس والركوع للصليب، وعقوبة المخالف بالرق والغرامة. أما الذين يعملون يوم الأحد فيدفعون غرامة ثقيلة، وتهجير من يرفض التعميد، وكانت التوصيات والقرارات الأخيرة سنة١٥٦٧م، تنص على ما يأتي:[٢٧٣]

١ - منع استعمال اللغة العربية والعادات والتقاليد العربية.

٢ - منع التسمي بأسماء عربية وارتداء الألبسة العربية.

---

(٢٧١) ابن كثير، *البداية والنهاية*، جـ١٣ ص٢١٩، د.جميل المصري، *حاضر العالم الإسلامي*، ص٦١.

(٢٧٢) د. أسعد حومد، *محنة العرب في الأندلس*، ص٢٤١.

(٢٧٣) المرجع نفسه، ص٢٥٤.

٣ – هدم الحمامات وكل ما له مظهر جامع أو حمام.

٤ – منع العرب من امتلاك العبيد.

٥ – إجبارهم على ترك أبوابهم مفتوحة في أيام الأعياد لمراقبة ما يجري فيها.

٦ – إجبار النساء العربيات على كشف وجوههن.

وبهذا ترك ديوان التحقيق (محاكم التفتيش) ذكرى تـرن في أسماع العصـور..لأن الذين تنصروا لم يتركوهم بل نقبوا عن أسرارهم وسرائرهم وأنكروا عليهم النظافة والاستحمام والامتناع عن أكل الخنزير وشرب الخمر وختن الأولاد.. وهي قرائن تدل على أنهم ما زالوا على الإسلام...وأزهقت أرواح كثيرة بسبب ذلك[٢٧٤].

وجاءت الفتنة الأخيرة سنة ١٦٠٩م، واتخذ قرار طرد العرب من إسبانيا واستمر التنفيذ إلى سنة ١٦١١م، ولم يُسْمَحْ لهم إلا بحمل الأموال المنقولة وَمُنِعُوا من بيع أملاكهم وتركت للسيد الإقطاعي ورافقت عملية هجرتهم الشاقة إلى شمال إفريقيا حوادث جسام تقشعر لها الأبدان من قتل ونهب لأموالهم علاوة على مشاق الطريق... ولم يبق في إسبانيا بعدها من المسلمين إلا قلة ليس لها أثر... فهل بعد هذه الفتنة من فتنة!

وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُـلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾[٢٧٥].

---

(٢٧٤) راجع نماذج من هذه الأمثلة والقصص في د. أسعد حومد، *محنة العرب في الأندلس*، ص٢٥٤.

(٢٧٥) البقرة ٢: ١٢٠.

المبحث الثاني:
الفتن الإقتصادية

معنى الإقتصاد وأهميته: الإقتصاد من القصد وهو لغة: الاعتدال بين الإسراف والتقتير، يقال فلان مقتصد في النفقة[٢٧٦]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾[٢٧٧]، وقوله ﷺ: «ما عال من اقتصد»[٢٧٨]، والمعنى لغة يطابق شرعاً: بالاعتدال بين الإسراف والتقتير[٢٧٩].

وهناك تعريفات اصطلاحية للإقتصاد كثيرة منها:

«هو تدبير شؤون المال بتكثيره وايجاده، أو بكيفية إنفاقه وتوزيعه»، والإقتصاد الإسلامي يتضمن المعنى نفسه إذا تم التدبير على ضوء تعاليم الإسلام وتوجيهاته في توفير الموارد المالية وتوزيعها وانفاقها[٢٨٠].

ومما لا شك فيه أن للإقتصاد أهمية كبيرة في الحياة الإنسانية لأنه وسيلة جمع الثروات والمال الذي يحبه الإنسان فهو عصب الحياة ولا تقوم الحياة إلا به.

وتشكل المشكلة الإقتصادية جانباً مهماً من جوانب الحياة الإجتماعية منذ القدم، بل تعد أخطرها في التأثير المباشر على سلوك الإنسان وتصرفاته.

ويؤثر الإقتصاد على الأوضاع الإجتماعية والسياسية لكل أمة، ويختلف هذا التأثير لاختلاف ازدهار الإقتصاد وتدهوره، فاذا كان الإقتصاد مزدهراً فانه يؤثر على هاتين الناحيتين ويظهر في رفع مستوى الأفراد والأسر والدول من الناحية المعيشية والصحية والتعليمية والعمرانية والدفاعية فيكون عاملاً فعّالاً في بناء الأُمّة[٢٨١].

ولهذا وجّه الإسلام نظر الإنسان إلى خطورة المشكلة الإقتصادية، ووضع الأسس الواقعية لها وَحَدَّدَ الخطوط الرئيسية لها بما يناسب أنظمته الأخرى لتكون نظاماً متكاملاً يقود الأُمّة

---

(٢٧٦) الجوهري، *الصحاح تاج اللغة*، ج٢ ص ٥٢٤-٥٢٥ وراجع فيه معاني أخرى مثل العدل . .

(٢٧٧) لقمان ٣١ :١٩.

(٢٧٨) الامام أحمد، مسند أحمد ج١ ص ٤٤٧.

(٢٧٩) راجع : أبو يحيى، محمد حسن، *اقتصادنا في ضوء القرآن والسنة*، دار عمار، عمان، الاردن سنة ١٩٨٩م، ص ١١.

(٢٨٠) حامد محمد اسماعيل، *النظام الاقتصادي في الإسلام*، بحث منشور في مجلة الثقافة الإسلامية، منشورات، جامعة صنعاء، ط٤ سنة١٩٩٠م، ص٣٧٤.

(٢٨١) أبو يحيى، محمد حسن، *اقتصادنا في ضوء القرآن والسنّة*، ص١٥.

إلى الأمن والسعادة، وذلك لأن الإسلام مترابط الأحكام وكلٌ لا يتجزأ فإذا ما اختل جانب منه أثَّرَ على الجوانب الاخرى ..

«وقد حالت عراقيل كثيرة في تاريخنا الطويل بعد الخلافة الراشدة دون تحقيق أهدافه ومبادئه على الوجه الصحيح، نتج عنه عدم بلورة التطبيقات السليمة له لتأصيل جذوره بشكلٍ ثابت، علماً بأن تأثير العدل الإسلامي واضح جداً حتى في عصر الانحراف قياساً بالتواريخ الإقتصادية للأمم الأخرى»[٢٨٢].

من هنا جاءت الفتن الإقتصادية المتمثلة بمجموعة المشكلات والإنحرافات حول تدبير المال والتي تنعكس على حياة البشر أفراداً ودولاً مسببة فتناً ومحناً شتى وصدق رسول اللهﷺ حيث قال :«إن لكل أُمة فتنة وفتنة أمتي المال»[٢٨٣].

وقبل الخوض في تلك الفتن لابد من معرفة نظرة الإسلام للمال، ومميزات النظام الإقتصادي الإسلامي.

نظرة الإسلام للمال: المال والتملك غريزة فطرية عند الإنسان وهي من أقوى الغرائز لديه، وبدافع هذه الغريزة يسعى الإنسان ويعمل لإشباعها والحصول على ما ترغب فيه..

والمفهوم الإقتصادي للمال: «إنه كل ما ينتفع به على أي وجه من وجوه النفع، كما يعد كل ما يقوم بثمن مالاً، أياً كان نوعه وأياً كانت قيمته»[٢٨٤].

والمال في نظر الشريعة زينة الدنيا ومتاعها كما أنه وسيلة لا غاية في حد ذاته، أي وسيلة لتحقيق غايات في مقدمتها طاعة الله عزّ وجل، قال تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾[٢٨٥].

ولما كان الإنسان بفطرته يحب المال ويسعد بتملكه فأنه لا يشبع منه، قال تعالى: ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾[٢٨٦]، وبذلك قال رسول الله ﷺ: « منهومان لا يشبعان: منهومٌ في العلم لا

---

(٢٨٢) محسن عبد الحميد، *الإسلام والتنمية الإجتماعية*، دار المنارة، جدة، السعودية، ط١ سنة ١٩٨٩م، ص ٨٧.

(٢٨٣) الترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب الزهد باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، ج٤ص٥٦٩ح(٢٣٣٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، الإمام أحمد، المسند ج٤ص١٦٠.

(٢٨٤) الخطيب عبد الكريم، *السياسة المالية في الإسلام وصلتها بالمعاملات المعاصرة*، ط٢ دار الفكر العربية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٢٩.

(٢٨٥) الكهف ٨ : ٤٦ .

(٢٨٦) الفجر ٨٩ : ٢٠.

يشبع منه ومنهومٌ في الدنيا لا يشبع منها»[287]، وقال في حديث آخر: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[288].

ذُكِرَ المال في القرآن الكريم ستاً وسبعين مرّة.. وهذا يدل على إهتمام الإسلام به، كما أنه ذُكِرَ مقترناً بالأولاد والأنفس وهو دليل على أنه لايقل عنهما أهمية يقول تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[289]، ويقول ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾[290]، بل ورد ذِكْرُ المال قبل النفس في الآيات كلها التي وردا فيها، ولم يتأخر إلا في واحدة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[291]، وهذا إلفاتٌ صريحٌ إلى أنّ منزلة المال فوق منزلة النفس، وقد أُخّرَ في موضع واحد لأنه في مقام البذل، فالمرء في مجال التضحية يجعل آخر شيء هو أعزّشيء عنده![292].

ومع أن المال نعمة إلا أنه -كما أثبتت النصوص- من أشدّ متع الدنيا فتنةً فتميل النفسُ إلى الإفراط والاستكثار منهُ، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[293] والله الذي فطر الناس يعلم سلطان المال على القلوب فعلى هذا جاءت دعوات الأنبياء إلى القناعة والتخفف من سطوة المال، وجاء التحذير منهُ مقروناً بالأجر العظيم في الآخرة، ولكن لايفهم التحذير المتكرر من فتنة المال في القرآن والسنّة أنّ الإسلام عدّو له، أو ينظر إليه على أنه شر، أو خطر يجب اجتنابهُ كما فهم البعضُ فرأى السلامة في الابتعاد عنه خيره وشره، وربما كان من هؤلاء العلماء الذين ألفوا في القناعة والزهد

---

(٢٨٧) الدارمي، سنن الدارمي، المقدمة، باب: فضل العلم والعالم، ج١ص ٨١، ح(٣٣٨)، انفرد به الدارمي وهو أثرٌ مقطوع.

(٢٨٨) الإمام مسلم: صحيح *مسلم*،كتاب الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً ج١ ص٧٢٥ ح (١٠٤٨).

(٢٨٩) التوبة ٩: ٤١.

(٢٩٠) النساء ٣: ٩٥ .

(٢٩١) التوبة ٩ : ١١١ وراجع آيات أخرى يتقدم فيها ذكر المال مثل: التوبة ٥٥، المجادلة ١٧، الاسراء٦، الكهف ٤٥ .

(٢٩٢) راجع: الخطيب، عبد الكريم، *السياسة المالية في الإسلام*، ص ٤٦-٤٧.

(٢٩٣) آل عمران ٢: ١٤ .

فشاع الخمول، واقنعوا أنفسهم بسراب الرضا والتواكل فخلت أيديهم منه ولم تخلُ قلوبهم من حبّه والحسرة عليه. وقد ردّ العلامة ابن الجوزي على الصوفية الذين ذمّوا المال باطلاق واعتبروه شراً وآفة، وأنكروا على من ملكه، واكتسب الغنى ولو من حلال، واستدل في كتابه «تلبيس إبليس» بالكتاب والسنة وعمل الصحابة وإذا كان هناك نهي عن جمع المال فالنهي عن سوء القصد في الجمع أو جمعه من غير حله..[294].

كما أن القرآن عدّه زينةً ولم يحرم الزينة..وأضافه إليه في الذِّكْر تشريفاً فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾[295]، وهو فضل الله ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[296]، فالإسلام دين واقعي يحذّر من الفتنة التي توقِع في الشرّ والفساد، والواقع يشهدُ بذلك حيث تطغى فتنتهُ على مشاعر المرء وتفكيرهِ فيُعَرِّضُ نفسه للمهالك بسببه، وقتل الأولاد مخافة الفقر وقلة المال كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَق﴾[297]فهو وسيلة الشيطان وعدّته في إغراء الإنسان وإضلاله..[298]

وعلى هذا حَدَّدَ الإسلام صلة الإنسان بالمال بشكلٍ يجعل منهُ نعمةً كبرى ووسيلة لإسعاده في الدنيا والآخرة ، فأعطاه الحق والحرية في اكتسابه بالطرق المشروعة بالسعي والعمل ﴿وَأَنْ لَّيسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ❁ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ❁ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾[299]، فهو إذن أداة خاضعة لتصرّف الإنسان إن شاء جعلهُ نعمة وفضلاً ورزقاً طيباً وإن شاء جعلهُ عكس ذلك.

---

(294) راجع ابن الجوزي البغدادي، جمال الدين ابي الفرج عبد الرحمن، *تلبيس ابليس*، ط ادارة الطباعة المنيرية، مكتبة المتنبي، القاهرة ١٨٦٨هـ، ص ١٧١-١٧٧ وقد ردّ على استدلال الحارث المحاسبي والذي تابعه فيه أبوحامد الغزالي بحديث أبي ذر مع كعب الاحبار عند موت عبد الرحمن بن عوف ﷺ وقال إن الحديث غير صحيح لأن أبا ذر توفي سنة ٢٥هـ وعبد الرحمن بن عوف توفي سنة ٣٢هـ.

(295) النور ٢٤: ٣٣ .

(296) الجمعة ٦٢: ١٠ .

(297) الإسراء ١٧: ٣١ .

(298) الخطيب، عبد الكريم، *السياسة المالية في الإسلام وصلتها بالمعاملات المعاصرة*، ط٢ دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٤٩.

(299) النجم ٥٣: ٣٩-٤١.

والمال وسيلة لتحقيق القوة المادّية الضرورية للأمة، حتى إذا ما اجتمعت مع القوة الروحية تحقق النصر بإذن الله، لأن الله أمر بذلك فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٣٠٠] ولا تتحقق القوة إلا بالمال ..

كما أنه عامل أساسي في إستقلال الأُمَّة والحفاظ على سيادتها من طمع الأعداء، فإذا كان اقتصادنا قوياً أَمِنَتْ المخاطر الداخلية والخارجية ..

وبالجملة فالإسلام ينظر للمال على أن ملكيته الحقيقية لله، وأن وضع يد الإنسان عليه وضع استخلافٍ وتوكيل، تَوَجَّبَ عليه أن يراعي الله فيه من حيث استثماره وإنفاقه على السواء، وذلك بأن يكون المال قِوَامُ الأُمَّة كلها وليس لمالكيها فقط، وأن يُتَّخَذَ وسيلة لقوة الأُمَّة وتماسكها ضدّ الأعداء، وهناك آيات تدل على أنّ صلاح الأُمَّة مرتبطٌ برعاية الله في شؤون المال قال تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[٣٠١] ويقول في أخرى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣٠٢].

وإذا كان الله يتولى الجزاء في الآخرة فولي الأمر في الدنيا مسؤولٌ عن تنفيذ ما أمر الله به لصالح الأُمَّة بإزالة الانحراف في ذلك كنزعه ممن يسيء التصرف فيه.

وبهذه النظرة للمال مع الخلقية الإسلامية الإجتماعية يتمّ إستئصال جذور الشرّ والفساد، وننجو من الوقوع في فتنة المال، ولمعرفة ذلك لابد من معرفة مميزات الإقتصاد الإسلامي.

خصائص النظام المالي والإقتصادي في الإسلام ومميزاته:

للنظام الإقتصادي في الإسلام خصائص، من أبرزها: [٣٠٣]

أولاً: إنه نظام إلهي ربّاني مرتبط بنظام العقيدة الذي يوجب الإيمان بأن الله هو المالك

---

(٣٠٠) الأنفال ٨: ٦٠ .

(٣٠١) النساء ٤: ٥ .

(٣٠٢) التوبة ٩: ٣٤ .

(٣٠٣) راجع تفاصيل هذه الخصائص متفرقة في الكتب الآتية:

- حامد محمود اسماعيل، *الفكر الاقتصادي في الإسلام*، بحث في مجلة الثقافة الإسلامية صنعاء ص ٣٧٥-٣٧٩.
- أبو يحيى، محمدحسن، *اقتصادنا في ضوء القرآن والسّنة*، ص٢١- ٧١ .
- محمد عبد سعيد، *الحاكم وأصول الحكم في الإسلام*، ص ٢١٧-٢٢٠ .
- عبد النعيم حسنين، *الإنسان والمال في الإسلام*، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٦ م، ص ١٥٥-١٧٦.

الأصلي والحقيقي لكل شيء، قال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَابَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾[٣٠٤]، وإضافة المال إلى الإنسان في بعض الآيات يأتي على سبيل التوقيت مع القيود لمصلحته ولمصلحة العامة.

وعقيدة المسلم تفرض عليه الإيمان بأن كلّ مافي الكون مسخرٌ له، وعليه أن يؤمن بالتفاوت بالرزق بين البشر كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٣٠٥] ويقول ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾[٣٠٦] وقد دلّت الآية على أن الاختلاف بالدرجاتِ أساس في الابتلاء .. ويفرّق الشيخ الغزالي بين الدرجات والطبقات المعروفة في المجتمعات فيقول: «إن اختلاف الناس درجات غير انقسامهم طبقات ... فالقوانين الطبيعية شيء والأمراض الإجتماعية شيء آخر»[٣٠٧]. ومن العقيدة الإيمان بأن العمل عبادة، وأنه مُرَاقَبٌ فيه ومُحَاسَبٌ عليه في الآخرة ..

وبما أنه نظام ربّاني فهو يحقق المطالب الروحية والمادية معاً لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣٠٨] وقال عمر رضي الله عنه: «ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا، وعمل للدنيا وترك الآخرة ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه»[٣٠٩]، وهذا ما يخالف الأنظمة الوضعية التي تلبي المطالب الماديّة فقط... فكان «الفراغ الروحي الذي يعانون منهُ»[٣١٠].

ثانياً: التكافل الإجتماعي أو ما يسمى الضمان الإجتماعي، وهو ضمان حدّ الكفاية لكل فرد لاتسعفه أحواله الخاصة لسبب ما، كما أنّه التزام عام على المجتمع وأفراده، ومسؤولية

---

(٣٠٤) طه ٢٠: ٦ وراجع أمثالها آل عمران ٣: ٢٦،١٨٩، المائدة ٥: ١٧،١٨،١٢٠، النور٢٤: ٣٣، فاطر٣٥: ١٣، الملك ٦٧: ١.

(٣٠٥) النحل ١٦: ٧١ .

(٣٠٦) الانعام ٦: ١٦٥ .

(٣٠٧) راجع محمد الغزالي، *الإسلام وأوضاعنا الإقتصادية*، ط٧ دار الصحوة للنشر، القاهرة ١٩٨٧ م، ص ٣٠-٣٢ .

(٣٠٨) القصص ٢٨: ٧٧ .

(٣٠٩) الغرناطي ،*جنة الرضا* ج١ص٢١٢

(٣١٠) راجع حامد محمود اسماعيل، *الفكر الاقتصادي في الإسلام*، الثقافة الإسلامية ص ٣٧٦.

مشتركة يترتب على التقصير فيها الجزاء والعقاب[٣١١].

وهو ثمرة طبيعية للعدالة الإجتماعية في المجتمع المسلم، وله أدلته لقول الرسولﷺ: «من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له، ومن كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له»[٣١٢].

ويتحقق التكافل من قبل الأفراد ابتداءً من المحيط الأسري، ويدخل في ذلك الإرث المنظم الذي وضعه الشارع، ثم مراعاة الأقربين الأولى بالمعروف ثمّ يتسع ليشمل الجار والقرية، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[٣١٣]،وقال رسول الله ﷺ:«وأيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى»[٣١٤] ويمتد التكافل ليشمل المدينة ثمّ على مستوى الأُمَّة، وهو من فروض الكفاية[٣١٥].

وفي معنى قوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[٣١٦] أي :لا يتركه للجوع والضياع[٣١٧].كما يتحقق التكافل من قبل الدولة للمسلمين وغيرهم ويشمل الرعاية الصحية للمرضى والعجزة، قال رسول الله ﷺ: «من ترك مالاً فلورثته ومن ترك كلاً فإلينا»[٣١٨]، وقد حقق الرسول ﷺ ذلك بتطبيق عملي حين آخى بين المهاجرين والأنصار

---

(٣١١) راجع :عفيفي، محمد صادق، *المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان*، رابطة العالم الإسلامي-مكة المكرمة ١٩٨٧ ص٨٢ .

(٣١٢) الإمام مسلم: صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب المؤاساة لفضول المال، ج٢ ص٩٣٥٤، ح (١٧٢٨)، أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب في حقوق المال، ج٢ ص٣٠٥، ح(١٦٦٣)، مسند أحمد، ج٣ص٣٤.

(٣١٣) النساء ٤ : ٣٦ .

(٣١٤) مسند أحمد ج٢٠ ص٣٣.

(٣١٥) راجع عفيفي، محمد صادق، *المجتمع وحقوق الإنسان*، ص٨٨ .

(٣١٦) البخاري: *صحيح البخاري*، كتاب المظالم والغصب، باب لايظلم المسلم المسلم ولايسلمه ج٣ ص٩٨.

(٣١٧) صبحي عبد سعيد، *الحاكم وأصول الحكم*، ص ٢٨٤ .

(٣١٨) البخاري، *الصحيح*، كتاب النفقات، باب قول الرسول (ﷺ):من ترك كلاً أو ضياعاً فإلي، ج٦ص١٩٥، مسلم، الصحيح، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ح(٨٦٧ج١ص٥٩٢، الترمذي، سننه، كتاب الفرائض، باب من ترك مالاً فلورثته، ج٤ص٤١٣، وقال: هذا حديث حسن صحيح،أبو داود، سننه، كتاب البيوع والإجارات، باب في التشديد في الدين، ج٣ص٦٣٧، ابن ماجة، سننه، كتاب الفرائض، باب ذوي الأرحام، ج٢ص٩١٤ح(٢٧٣٨)، الأمام أحمد، المسند، ج٢ص٢٨٧،٢٩٠،٣١٨،٣٥٦،٤٥٠ .

فكان عمله القاعدة التي انطلق منها الفقهاء في تأصيل هذا الموضوع ..

والمورد الرئيسي لهذا هو الزكاة وهو نظام تفرّد به الإسلام وهو حقّ المحتاجين في أموال الأغنياء ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾[٣١٩].

والزكاة هي الحدّ الأدنى المفروض في المال، فإذا لم تكف فمن حقّ الإمام في الظروف الإستثنائية أخذ ما يكفي للإصلاح، لقول الرسول ﷺ: «أنّ في المال حقاً سوى الزكاة»[٣٢٠].

ولا يخفى ما للزكاة من الآثار الإيجابية في المجتمع وأولها أنها وسيلة للحصول على رحمة الله، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣٢١]، كما أنّها طهارةٌ للمال والنفس من الذنوب والبخل، وعلاجها من الشحّ وترويضها على البذل والعطاء، وتعويدها على الكرم والجود ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٣٢٢]، وإيثار ما عند الله كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾[٣٢٣]، هذا إضافة إلى الجزاء الأخروي كما قال رسول الله ﷺ: «يقول العبدُ مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأبقى، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركه للناس»[٣٢٤].

وهناك زكاة الفطر التي تدفع من قبل ربّ الأسرة عن أفراد أسرته، وهي فرض على الجميع لتعودهم على البذل والانفاق، والمصدر الآخر للتكافل هو الصدقات، وهي أوجه الانفاق التطوعي أو الاختياري، وأبوابها كثيرة لاتحصى وهي تدعو لإقامة المجتمع المتراحم

---

(٣١٩) التوبة ٩: ٦٠ .

(٣٢٠) الترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب الزكاة، باب ما جاء ان في المال حقاً سوى الزكاة، ج٣ ص٤٨، ح (٦٥٩)، للدارمي، *سنن الدارمي*، كتاب الزكاة، باب ما يجب في المال سوى الزكاة، ج١ ص٣٢٤، ح (١٦٤٤).

(٣٢١) النور ٢٤: ٥٦ .

(٣٢٢) التوبة ٩: ١٠٣ .

(٣٢٣) البقرة ٢: ٢٦٥ .

(٣٢٤) الإمام مسلم: *صحيح مسلم*، كتاب الزهد والرقائق، باب ٣، ٤، ج٣ ص٢٢٧٣، ح(٢٩٥٨-٢٩٥٩)، الترمذي، *سننه*، كتاب الزهد، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، ج٤ص٥٧٢، النسائي، *سننه*،كتاب الوصايا، باب الكراهية في تأخير الوصية، ج٦ص٢٣٨ ح(٣٦١٢)، الأمام أحمد، *المسند*، ج٢ص٣٦٨، ٤١٢.

المتآلف كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له الجسد بالسهر والحمى»(٣٢٥).

ثالثاً: التوفيق بين المصلحة العامة والخاصة، وذلك بتحقيق مصلحة الفرد والمجتمع دون تضحية بأحدهما على حساب الأخرى، ولا أن تطغى إحداهما على الأخرى. ويتمثل ذلك في الحرية الفردية في العمل والسعي والكسب،وإقرار الملكية الفردية لأنها وسيلة تدفع الإنسان للجدّ والتنافس لزيادة الإنتاج، ولكن هذه الحرية مقيدة منظمة لا تضر بالآخرين حتى بعد مماتهم بتقييد الوصيّة بالثلث.

كما يعترف الإسلام بالملكية العامة للدولة، واعطائها حق التدخل في النشاطات الفردية إذا أضرّت بالمصلحة العامة، وتوضع القوانين التي تنظم العلاقة بين أصحاب الأموال والعاملين وما يتعلق بالعقود والموازين ..الخ وإذا تعارضت المصلحتان فتقدّم مصلحة العامة(٣٢٦).

ولنا في ذلك أمثلة من سيرة الخلفاء الراشدين منها منع عمر بن الخطاب تقسيم أرض السواد على المجاهدين حيث جعلها خراجية بيد أهلها(٣٢٧). وقد ورد أنّ رسول الله ﷺ أقطع بلال بن الحارث أرضاً فاحتجرها، فلمّا كانت خلافة عمر رضي الله عنه قال له: «إن رسول الله ﷺ لم يقطعك لتحتجره عن الناس إنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت عليه وردّ الباقي..»(٣٢٨) فأخذ منه عمر رضي الله عنه ما عجز عن عمارته وقسّمه بين المسلمين . وَتَصَرُّفُ عمر رضي الله عنه يدلُّ على فهمٍ للنصوص بمنع تكدّس الثروة بأيدي قليلة ومنع التعسف باستعمال الحق.

رابعاً: تقريب الفوارق الطبقية بين الناس، فالفوارق هي إحدى حقائق الحياة وليس بالإمكان القضاء عليها، بل التخفيف منها بالإجراءات الإقتصادية التي جاء بها الإسلام، لتقريب الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ويتحقق ذلك بالتواصل والرعاية للفقراء من قبل الأغنياء.

---

(٣٢٥) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأدب، باب رحمة الناس بالبهائم، ج٧ص٧٧-٧٨، الإمام مسلم: *صحيح مسلم*، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج ٣ ص١٩٩٩، ح(٢٥٨٦)، متفق عليه.

(٣٢٦) راجع، محسن عبد الحميد، *الإسلام والتنمية الإجتماعية* ص ١٠٢.

(٣٢٧) راجع أبو عبيد القاسم بن سلام، *الأموال*، تحقيق خليل هراس ط مكتبة الكليات الأزهرية،القاهرة،١٩٨١ ص ٢٩٨.

(٣٢٨) يحيى بن آدم: الخراج نقلاً عن محسن عبد الحميد ص٩٦.

خامساً: إنه نظام مستقل بذاته، وفريد من نوعه، له أصول ثابتة ولكنّه قابل للتطور مع الظروف الزمانية والمكانية، وفيه مرونة تتسع للمتغيرات الجديدة لما فيه من المرونة .. فيكون في ذلك اقتصادٌ واقعي لايستند إلى فرضيات خيالية لا يمكن تحقيقها أو غايات تخرج عن مبدأ الفطرة، بل تكون في مقدور الإنسان مع ارشاده إلى أن اليد العليا خير من اليد السفلى.

سادساً: إنهُ نظام أخلاقي تتجلى فيه قيم الأمانة، والصدق، والوفاء بالوعد، والسماحة، وتحرّي الحلال، والاعتدال في الربح ..ولكل ذلك أدلته الشرعية [٣٢٩].

وأهم الفتن الإقتصادية ما يأتي:

أولاً: فتنة الفقر وآثاره.

الفقر: عبارة عن فقد ما يحتاج إليه[٣٣٠]، وإذا ما أطلق فالمراد به الحاجة إلى المال. وَيُعَرَّفُ ذلك بأنّه: «عدم القدرة على الحصول على الخدمات الأساسية»، والتي هي حقٌّ من حقوق الإنسان في الإسلام، فإن لم يستطع الحصول عليها بنفسه لسبب وجيه فعلى الدولة أن توفرها له لكي يعيش خليفة الله في الأرض عيشة كريمة تليق بمستوى التكريم الذي خصّه الله به[٣٣١] ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾[٣٣٢].

وَيُعَدُّ الفقر مرضاً إجتماعياً، ويرى البعض أنه «نتيجة حتمية لإحدى مقدمتين إما كسل أو خمول وهذا مالا يقرّه الإسلام، وإما عجز عن الكسب والعمل وهذا لاحيلة للانسان في دفعه، ومن ثمّ وضع الإسلام له من الضمانات وسنّ له من قوانين التكافل المعاشي ما يكفل دفعه ويحفظ للفقير كرامته»[٣٣٣].

وقد ذكر الرسول ﷺ تلك الحاجات الاساسية في قوله «ليس لابن آدم حقّ في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلف الخبز والماء»[٣٣٤] أي المسكن المناسب والكساء اللازم والغذاء الضروري والماء الصالح النظيف وهذه الأمور تمنع عنه الجوع

---

(٣٢٩) راجع أبو يحيى، محمد حسن، اقتصادنا في ضوء القرآن والسنّة، ص ٣٧-٤٢ .

(٣٣٠) الجرجاني، التعريفات ص ٢١٦ .

(٣٣١) الطويل، نبيل صبحي، الحرمان والتخلّف في ديار المسلمين، ط٢ رئاسة المحاكم الشرعية، قطر،١٤٠٤هـ، ص٢٣.

(٣٣٢) الإسراء ١٧ : ٧٠.

(٣٣٣) فكري أحمد نعمان، النظرية الإقتصادية في الإسلام، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٥ ص ١٤٩.

(٣٣٤) الترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب الزهد، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، ج٤ص٥٧٢.

والعطش وتحقق الأمن فيكون صحيحاً في بدنه ونفسه . .

ولهذا فإن الإسلام ينكر النظرة التقديسية للفقر والتي شاعت عند بعض متصوفة المسلمين بتأثير الثقافات الأجنبية كالصوفية الهندية والمانوية الفارسية والرهبانية المسيحية وغيرها من النِّحَلِ الدخيلة على المسلمين، ولا زالت كتبهم تذكره بأنّه شعار الصالحين، فليس في كتاب الله ولا حديث رسوله ﷺ ما يمدح الفقر.. والأحاديث في القناعة ومدح الزهد لا تعني مدح الفقر فالزاهد من ملك الدنيا فجعلها في يده ولم يجعلها في قلبه، بل الإسلام جعل الغنى نعمة يمنّ بها الله على عبده، حيث يقول تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[٣٣٥]، ويرفض نظرة الذين يعدّون الفقر قدراً محتوماً لامفرّ منه إلا بالرضا[٣٣٦]، ويجعل الفقر مصيبة، وقد استعاذ الرسول ﷺ منه ومن الكفر فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»[٣٣٧] والمأثور عن علي بن أبي طالب ﷺ قوله: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته..» مع ما عرف عنه من الزهد، ولكن الزهد غير الرضا بالفقر .

واهتمام الإسلام بعلاج مشكلة الفقر دليل على ما وراء الفقر من أخطار وفتن جسيمة على مستوى الفرد والمجتمع والأُمَّة نلخصها فيما يأتي:

١ - أثر الفقر في العقيدة [٣٣٨]:

وهذا من أشدّ الفتن في هذا المجال ويتمثل ذلك في أن الفقر عند البعض مدعاة للشك في حكمة الله وعدالة التوزيع الإلهي للرزق، وهذا ما حفز شاعراً قديماً ليقول:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً
هذا الذي ترك الألباب حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقاً[٣٣٩]

أو يؤدي إلى نظرة جبرية مثل قول من قال:

---

(٣٣٥) الضحى ٩٣: ٨ .

(٣٣٦) راجع : يوسف القرضاوي، دكتور، *مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام*، ط٥ مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١١،٦ .

(٣٣٧) أبو داود، سنن أبو داود، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، ج٢ ص١٩٠-١٩١،ح(١٥٤٤)،والنسائي، سنن النسائي، كتاب السهو، باب في التعوذ دبر الصلاة،ج٣ص٧٤،ح(١٣٤٥)، والامام أحمد، المسند، ج٥ص٣٦،٣٩،٤٢،٤٤

(٣٣٨) راجع أبو يحيي، محمد حسن، *اقتصادنا في ضوء القرآن والسنّة*،ص ٩١ .

(٣٣٩) ينسب البيتان لأبي العلاء المعري، انظر:محمد سليم الجندي، *الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره*، ط٢، دار صادر،بيروت،١٩٩٢م، ج١،ص٣٨٨،وذكرأن البيتين لابن الراوندي.

الـرزق كـالغيث بـين النـاس منقســم هـذا غريــق وهــذا يشــتهي المطــرا

وقال آخر:

يسـعى القـوي فـلا ينــال بســعيه حظـاً و يحظـى عـاجز ومهــين[٣٤٠]

وهذا انحراف في العقيدة سببه الفقـر لأنـه يخـالف الآيـات في السـعي والمشـي في منـاكب الأرض ﴿وَأَن لَّيسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ وهذا ما جعل بعـض السـلف يقـول: «إذا ذهـب الفقر إلى بلد قال له الكفر خذني معك»!! وقال الصوفي ذو النون المصري: «أكفر النــاس ذو فاقة لا صبر له وَقَلَّ في الناس صابر!»[٣٤١]. لهذا نبه الرسول ﷺ على خطـره علـى العقيـدة فقال: «كاد الفقر أن يكون كفراً»[٣٤٢].

والعلماء قديماً وحديثاً يرون أن الأخذ من الدنيا حد الكفاية عون على الديــن وأن الفقـر مانع من أداء حق الله وشكره وبذلك يقول سيد قطب:«إن الإنسان خليفة الله في أرضه، قد استخلفه عليها لينمي الحياة فيها ويرقيها، ثمّ يجعلها ناضرة بهيّة ثم ليستمتع بجمالها ونضرتها ثم ليشكر الله على أنعمه التي آتاه،والإنسان لن يبلــغ مـن هـذا كلـه شـيئاً إذاكـانت حياتـه تنقضي في سبيل اللقمة،ولوكانت كافية، فكيف إذا قضى الحياة فلم يجد الكفاية؟»[٣٤٣].

ويرى الشيخ الغزالي كذلك عدم امكانية نشر الدين مع الفقر فيقــول: «وقـد رأيـت بعـد تجارب عدّة أنني لا استطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمـة والأعمال الصالحة والأعمال الفاضلة... وكذلك الشعوب العاجزة الكسول تحطّ مـن مكانـة الأديان التي تعتنقها وتهبط بمستوى العقائد التي تنتمي إليها »![٣٤٤].

٢ – أثر الفقر على الأخلاق والسلوك:

يؤثر الفقر تأثيراً بالغاً على سلوك الأفراد والجماعات حيـث يـؤدي إلى الحسـد مـن قبـل الفقراء ثمّ يجرُّ إلى التباغض والوقيعة كما أن ازدياد الهوة بينهما يـؤدي إلى تفكـك العلاقـات الإجتماعية .. كما يؤدي الفقر إلى ارتكاب الرذائل مثل الكذب وعدم الوفـاء بـالعهد ويـدل

---

(٣٤٠) ينسب البيت لعبد الله بن أبي عيينة، انظر:الدر الفريد،(خ)ج٥ص٤٩٥.

(٣٤١) ابو يحيى، محمد حسن، *اقتصادنا في ضوء القرآن والسنة*، ص٩٢ .

(٣٤٢) البيهقي، شعب *الإيمـان*، ح(٦٦١٢)ج٥ص٢٦٧،المتقـي الهنـدي، كنزالعمـال(١٦٦٨٢)،الزبيـدي، *اتحاف السادة المتقين*،ج٨ص٥٢.

(٣٤٣) سيد قطب، *العدالة الإجتماعية في الإسلام*، ص ٤٨، سنة ١٩٦٤م.

(٣٤٤) الشيخ الغزالي، *الإسلام وأوضاعنا الإقتصادية*، ص ٦١، ١٨٩.

على ذلك قول الرسول ﷺ: «إن الرجل إذا غرم -استدان- حدّث فكذب ووعد فاخلف»[345] لهذا كان ﷺ يستعيذ بالله من الدَّيْنِ لأنه يجر إلى الكذب وغيره ..

وقد يجر إلى الزنا وهو جريمة خلقية بالغة الفحش ..فلعل الاختلال الإقتصادي بما يخلقه من بؤس وترف أهم الأسباب المؤدية له ..[346]، ويدل على ذلك حديث الرجل الذي تصدّق بالليل فصادف صدقته سارقاً فتحدّث الناس بذلك، ثمّ تصدّق مرّة أخرى على امرأة فصادفت صدقته زانية فاصبح الناس يتحدثون بذلك فقيل له: «أمّا صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها تستعف عن زناها ...»[347].

هذه القصة تدل على أن الفقير قد يلجأ إلى السرقة والزنا وقد يضطر الفقير كذلك لقبول الرشوة وهي حرام ..

وقد ينافق الفقير للغني ويستذلّ له طمعاً في استعطافه ..وقد يضطر للتسول وسؤال الناس عما يحتاج والإسلام يربي المسلم على كراهة ذلك ..فالأصل السعي في مناكب الأرض، لأن السؤال فيه إراقة ماء الوجه، قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله على ظهره فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها فيكفّ الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[348]، والأصل فيها الحرمة لما فيها من ترويض النفس للذل والهوان فلا تحلُّ إلا لحاجة قاهرة.. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلّة والذلّة، وأعوذ بك من أن أَظلِم أو أُظلَم»[349] أمّا إذا سأل وعنده ما يغنيه فقال عنه: «لا تزال المسألة

---

(٣٤٥) البخاري، *صحيح البخاري*، باب من استعاذ من الدين، كتاب الاستقراض والحجر والتفليس،ج٣ص٨٥، والنسائي، *السنن*، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من المحرم والمأثم،ج٨ص٢٥٨-٢٥٩، ح(٥٤٥١) وباب الاستعاذة من المحرم،ج٨ص٢٦٤، ح(٥٤٦٩).

(٣٤٦) راجع: الشيخ محمد الغزالي، *الإسلام والاوضاع الإقتصادية*، ص٦٦، ٧٩، ٩٣ .

(٣٤٧) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، ج١ص١١٥-١١٦، والإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الزكاة، باب ثبوت أجر المتصدق وإن وقعت الصدقة في غير أهلها، ج١ ص٢٧٠٩، ح(١٠٢٢).

(٣٤٨) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ج٢ص١٢٩، والإمام مسلم، *صحيح مسلم*،كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة من الناس ج٢ص ٧٢١، الترمذي،سنن الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في النهي عن المسألة، ج٣ص٦٤-٦٥ ح(٦٨٠)، والنسائي، *سنن النسائي*، كتاب الزكاة، باب لايسئل الناس شيئاً ج٥ص٩٦ ح(٢٥٨٩).

(٣٤٩) ابو داود، *سنن ابو داود*، كتاب الصلاة، باب الاستعاذة،ج٢ص١٩٠،ح(١٤٥٥)، والنسائي، *سنن النسائي*، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الفقر، ج٨ص٢٦٨، ح(٥٤٦١)، ابن ماجة ، سنن ابن ماجة، كتاب الدعاء، باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ، ص١٢٦٣.

بأحدكم حتى يلقى اللهَ وليس في وجهه مزعة لحم»[٣٥٠].

٣ - أثر الفقر على الفكر الإنساني:

إنّ الشعور بالحرمان يمنع الفكر أن يتجه الوجهة الصحيحة، فالفقير الذي لا يجد كفايته لا يفكر تفكيراً دقيقاً في كثيرٍ من الأمور،ويدل على ذلك قول الرسول ﷺ: «لا يقضي القاضي أو لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان»[٣٥١] وقاس الفقهاء الجوع وغيره من الانفعالات المؤثرة على الغضب [٣٥٢].

وقد يحجب الفقر صاحبه عن العلم والمعرفة وخصوصاً إذا احتاج إلى السفر والترحال، ولذلك حثّ الإسلام على معونة طالب العلم وأوجب له النفقة، لأن الفقر يؤدي إلى الجهل وانتشار العقائد الفاسدة ..ولذلك تكون الدول الفقيرة أكثر الدول التي ينتشر بها الجهل والأمّية وتشير الاحصائيات التي جاءت عن منظمة الصحة العالمية إلى تلازم الأميّة للفقر والمرض [٣٥٣].

٤ - أثر الفقر في مجال الأسرة:

ويظهر أثره في الأمور الآتية:

أ - في تكوين الاسرة ابتداءً لأن الفقر يعيق الشباب عن الزواج وتحمل تبعاته من مهرٍ ونفقة البيت والأولاد .. هذه العوائق الإقتصادية قد تؤدي بِضِعَافِ الإيمان إلى جريمة الزنا فجاءت النصوص لتوجيه الشباب إلى الصبر فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ

---

(٣٥٠) البخاري،*صحيح البخاري*، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً، ج٢ص١٣٠. الامام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الزكاة، باب كراهة مسألة الناس، ج١ص٧٢٠، ح(١٠٤٠).النسائي، *سنن النسائي*، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ج٥ ص٩٤، ح(٢٥٨٣).

(٣٥١) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الأحكام، باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، ج٨ص١٠٨-١٠٩.الإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الأقضية، باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان، ج٢ص١٣٤٢-١٣٤٣، ح(١٧١٧). أبو داود، *السنن*، كتاب الاقضية، باب القاضي يقضي وهو غضبان، ج٤ص١٦، ح(٣٥٨٩).

(٣٥٢) راجع ابن حجر العسقلاني، *فتح الباري* وقد أورد رأي الشافعي بقوله: 'أكره للحاكم أن يحكم وهو جائع أو تعب أو مشغول القلب فإن ذلك يغير القلب' وكذلك قول ابن دقيق العيد :«وعداه الفقهاء بهذا المعنى إلى كل ما يحصل به تغيير الفكر كالجوع والعطش المفرطين وغلبة النعاس ..»، ج ٢٧ ص ١٥٩ .

(٣٥٣) الطويل، نبيل صبحي، *بؤس المسلمين المتنامي في عالم الجنوب*، ط مؤسسة الرسالة بيروت،١٩٩٤ ص ٧٦ .

﴿نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[٣٥٤].

وقال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء»[٣٥٥]، أي وقاية وعلاج وفي الصوم يتحقق الصبر.

ب - خطورة الفقر على استمرار الأسرة فقد يحول دون استمرار الزوجية حيث أجاز الإسلام للمرأة المتضررة بسبب عُسْرِ الزوج أن تطلب الطلاق وإذا ثبت إعسار الزوج أمر القاضي به معتمداً على قاعدة (لا ضرر ولا ضرار).

جـ - والفقر خطر على تماسك الأسرة وتكاثرها حيث تُقْدِمُ الأسرة على تحديد النسل وتقليله، والأكثر من ذلك قتل الأولاد بطرق جديدة كالإجهاض خشية الفقر، وقد نهى اللهُ سبحانه و تعالى عنه فقال: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[٣٥٦].

٥ - أثر الفقر على المجتمع واستقراره وَيَتَجَلَّى ذلك في المظاهر الآتية:

أ - التَسَوُّل: وهي ظاهرة مَرَضِيَّة في المجتمعات الفقيرة .

ب - ظاهرة التَعَطُّل (البطالة)

ولا أقصد بذلك عطل المترفين الأغنياء أو العطل بسبب العجز إنما القصد هو التفرغ من العمل من قبل القادر على مزاولة عمل له قيمة اقتصادية وإجتماعية ويسعى للحصول عليه ولكن لا يجده [٣٥٧].

وَيُجْمِعُ العلماء على أن البطالة خطر على الفرد والأسرة والمجتمع حيث تؤدي إلى زعزعة الإيمان، وعدم الثقة بالنفس، وقد تؤدي بالبعض إلى الإنتحار والكفر بالله وسوء الخُلُقِ والإحباط ..وقبول الأفكار المنحرفة، وعدم استقرار الأسرة وانتشار جرائم السرقة

---

(٣٥٤) النور ٢٤: ٣٣ .

(٣٥٥) الإمام مسلم، صحيح *مسلم*، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه ووجد مؤونته، ج٢ص١٠١٨، ح(١٤٠٠). البخاري، صحيح *البخاري*، كتاب الصلاة، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، ج٢ ص٢٢٨-٢٢٩.

(٣٥٦) الانعام ٦ : ١٥١، ومثلها في المعنى الإسراء ١٧: ٣١ .

(٣٥٧) الزحيلي: محمد، *اسهام الزكاة في حل مشكلة البطالة*، بحث منشور في مجلة الخيرية عدد٦٤ ربيع الأول ١٤١٦هـ، السعودية ص ٣٢.

والزنا والاغتصاب ..الخ [٣٥٨].

وتظهر خطورة الفقر على المجتمع من ناحية الأمن وعدم استقرار الأوضاع إذا نشأ ذلك عن سوء توزيع الثروة والظلم وَتَسَلُّطِ المترفين فتحدث الفتن والاضطرابات وتقوّض أركان المحبّة والإخاء بين الناس.

كما تظهر خطورة الفقر على سيادة الأُمَّة واستقلالها لأن المحتاج لا يجد الحماس للدفاع عن وطنه كما يربط الدولة بديون خارجية تجعلها ضعيفة أمام الأعداء ..

٦- أثر الفقر على الصحة العامة وعلى الصحة النفسية:

لاشكّ أن هناك صلة بين الفقر والمرض فقد ينتج عن الفقر سوء التغذية والسكن، وله علاقة بالمرض النفسي نتيجة للضجر والقلق والسخط.

وإذ جاءت منظمة الصحة العالمية في أواسط القرن العشرين بتعريفها الجامع للصحة بأن «الصحّة هي حالة اكتمال السلامة بدنياً وعقلياً وإجتماعياً» لا مجرد انعدام المرض أو العجز فالرسول ﷺ وَضَّحَهَا قبل أربعة عشر قرناً في معرض توجيهه للمؤمنين فقال: «من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنّما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[٣٥٩]، وهذا ما يسمونه في هذه الأيام بالأمن النفسي والغذائي والإجتماعي[٣٦٠]، وقد ظهر في كثير من الاستبيانات تلازم الفقر والمرض حتى في العالم المتقدم وعن ارتباطه بالتخلّف العقلي[٣٦١].

وَتَجَنُّباً لفتنة الفقر ومحنته فقد عالج الإسلام ذلك بالقضاء على أسبابه[٣٦٢] ووضع الحلول له عند وقوعه، وذلك باتباع الوسائل الآتية [٣٦٣]:

---

(٣٥٨) المصدرالسابق، ص ٣٢-٣٥ وأبو زيد ص ٤٤، وراجع أسباب البطالة:حسين شحاته، *الاستثمار الإسلامي هو سبيل لمواجهة البطالة*، مجلة الخيرية العدد٦٩ شعبان ١٤١٦هـ السعودية ص ٤٤-٤٥.

(٣٥٩) الإمام ابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، كتاب الزهد، باب القناعة، ج٢ ص ١٣٨٧، ح(٤١٤١).

(٣٦٠) راجع: الطويل، نبيل، *الحرمان والتخلّف*، ص ٢٥ .

(٣٦١) راجع: التقرير السادس عن الحالة الصحيّة في العالم،ج١ منظمة الصحّة العالمية١٩٨٠ ص٣٤ نقلاً عن المصدر السابق ص ٣١-٣٦.

(٣٦٢) ويرجع البعض من المحدثين أسباب الفقر إلى ثلاثة أسباب رئيسية أولها: أسباب الطبيعة كالجفاف والتصحر، وثانياً: العوامل الدخلية كإزدياد السكان وسوء توزيع الثروة، وثالثها: العوامل الخارجيّة مثل آثار الاستعمار وخلل النظام الاقتصادي العالم ..راجع: عبد الرحمن آل سعود، *مشكلة الفقر* ج١ ص ٧٥-١٢٤ .

(٣٦٣) راجع تفاصيل هذه الوسائل عند: القرضاوي، *مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام*، ص٣٥-١٢٤، كما ذكر المصدر السابق علاج الفقر بالوحي والعقل وهي لاتخرج عما ذكره القرضاوي، ص ٤٨-٧٧ .

١ - **العمل**: بالحثّ عليه واعتباره عبادة يترتب الأَجْرُ عليها، وليس ذلك بالوعظ فقط بل بتوفير العمل للقادرين من قبل الدولة وهذا هو السلاح الأول لمحاربة الفقر، كما حارب الإسلام البطالة والكسل في آيات كثيرة..

٢ - **كفالة المُوسِرِيْنَ الأقارب**: وذلك لغير القادرين على الكسب.. وفي مقدمة ذلك الآباء والأبناء والزوجة والصغار.. وَأَدِلَّتُهَا الشرعية كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾(٣٦٤) والإنفاق في مقدمة الأمور لصلة الأرحام المأمور بها ..

٣ - **الزكاة**: والأدلة على وجوبها والحثُّ عليها متواترة من الكتاب والسنّة والإجماع، وهي حقٌّ في أعناق الأغنياء ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٣٦٥) وقد اقترن «ذكرها بالصلاة في القرآن في اثنين وسبعين موضعاً» (٣٦٦) وهي من خصائص الإسلام..

أما المقدار الذي يُعْطَى للفقير أو المسكين، فبعض الفقهاء من قدّر له نصاباً، ولكل واحدٍ من أفراد عائلته، وبعضهم من يعطيه كفاية السنة، ومنهم من يعطيه كفاية العمر، قال الشافعي: «ولا وقت فيما يعطي الفقير إلا ما يخرجه من حدِّ الفقر إلى الغنى قلّ ذلك أو كثُر»(٣٦٧).

والمختار أن لكل من هذه المذاهب مجاله الذي يعمل فيه، فالقادر على الكسب وتنقصه أدوات الصنعة أو رأس المال، فالواجب اعطاؤه ما يمكّنه من اكتساب كفاية العمر وعدم الاحتياج إلى الزكاة مرّة أخرى. أما العاجزون عن الكسب فيعطون كفاية السنة في صورة راتب يتقاضونه كل عام أو يوزع على أشهر السنة خيفة الإسراف (٣٦٨).

وقد تَنَبَّهَ العلماء إلى أن من الكفاية الزواج لأنه من الحاجات الغريزية وذلك لمن عجز عن تكاليفه.

وكذلك أكد العلماء على أن المتفرغ للعلم وتعذّر عليه الجمع بين العلم والعمل فإنه يعطى من الزكاة ما يعينه على أداء مهمته ومنها الكتب لأنه يقوم بفرض كفاية تعود فائدته على الأمّة ..(٣٦٩).

---

(٣٦٤) النحل ١٦: ٩٠ ومثلها النساء ٤: ٣٦، الروم ٣٠: ٣٨، الإسراء ١٧: ٢٦ .

(٣٦٥) الذاريات ٥١: ١٩ .

(٣٦٦) راجع : الخطيب، ص ٢١٤.

(٣٦٧) مجلّة الخيرية، العدد ٦٤، ص ٣٥ .

(٣٦٨) مطالب أُولى النهى،ج١ ص١٣٦، نقلاً عن القرضاوي ص ٩٢، والخيرية عدد ٦٧ جمادى الآخرة ١٤١٦هـ السعودية ص٣٦-٣٧.

(٣٦٩) راجع أدلته في حاشية الروض المربع ج١ وشرح غاية المنتهى ج٢ ص١٣٧ط المكتب الإسلامي نقلا عن القرضاوي ص ٨٥-٨٦.

ومبدأ إغناء الفقير موافق لما طبقه عمر الفاروق ﷺ في سياسته الراشدة حيث عُرِفَ عنه « إذا أعطيتم فاغنوا»[٣٧٠]، وليس لمجرد سد جوعة الفقير، أو حاجة عاجلة، وَذُكِرَ أنه أعطى لفقير ثلاثاً من الأبل وقال لعماله: «كرروا عليهم الصدقة وإن راح على أحدهم مائة من الأبل» وهذا المذهب رَجَّحَهُ أبو عبيد القاسم بن سلاّم في كتابه الأموال [٣٧١].

٤ – **كفالة بيت مال المسلمين بمختلف موارده**: للدولة أملاك وأموال تديرها وتشرف عليها كالأوقاف العامة والمناجم والمعادن والغنائم والفيء والخراج والضرائب، وفي بيت المال نصيب لكل مسلم ولغير المسلمين كذلك حقُّ المعونة .. قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى بكل مسلم من نفسه، من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك ديناً أو ضَياعاً – بفتح الضاد– فإليَّ وعليَّ»[٣٧٢]. وإذا ضاق بيت المال جاز لولي الأمر الأخذ من الأغنياء.

٥ – **حقوق غير الزكاة**: كحق الجوار والحنث في اليمين والنذور وفدية رمضان، وَالهَدْيِ والأضحية وأنواع الكفارات.

٦ – **الصدقات الاختيارية والإحسان الفردي**: وقد جاءت آيات وأحاديث مبشرة ومنذرة تُرَبِّي المسلمين وتدعوهم إلى البَذْلِ والإنفاق ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾[٣٧٣] وقوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[٣٧٤]وَجُعِلَتْ الصدقة سبباً في تكفير الخطايا والذنوب ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۞وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞فَكُّ رَقَبَةٍ ۞أو إطعام...﴾[٣٧٥] وقالﷺ: «الصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار»[٣٧٦].

---

(٣٧٠) الغزالي، إحياء علوم الدين، تحقيق سيد ابراهيم، ط دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢م، ج١ ص٣٥٠.

(٣٧١) أبو عبيد: *الأموال* ص ٥٦٥.

(٣٧٢) سبق تخريجه في أول المبحث .

(٣٧٣) آل عمران ٣: ١٣٣-١٣٤ .

(٣٧٤) الحشر ٥٩: ٩ .

(٣٧٥) البلد ٩٠: ١١-١٤.

(٣٧٦) الترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب الجمعة، باب في فضل الصلاة، ج٢ ص٥١٢-٥١٣ ح(٦١٤).ابن ماجة،*سنن ابن ماجة*، كتاب الفتن، باب كفّ اللسان في الفتنة، ج٢ ص ١٣١٤،ح(٣٩٧٣).الامام أحمد،*المسند*، ج٣ ص٣٢١-٣٩٩، ج٥ص٢١٣-٢٣٧.

ثانياً: فتنة الغنى وآثاره:

الغنى هو امتلاك المال الفائض عن الحاجة، والمال نعمة منّ الله بها على عباده فقال: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[٣٧٧] كما سماه القرآن خيراً فقال:﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا..﴾[٣٧٨].

وفي الغنى فوائد دينية ودنيوية، فهو عونٌ على الدين، فالغني ينفق على نفسه ويستعين بالمال على العبادة كالحج والجهاد، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة، كما أنّ الغني يتصدّق على غيره وينفع عامة المسلمين كبناء المساجد والقناطر والوقف، وكان بعض السلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء، وإنما قنع بعضهم باليسير منه إيثاراً للعبادات، وقد أجمل سعيد بن المسيب ذلك في قوله: «لا خير فيمن لا يريد جمع المال في حله، يكفّ به وجهه عن الناس ويصل به رحمه ويعطي منه حقه ». وقال سفيان الثوري: «المال في زماننا سلاح المؤمنين»[٣٧٩].

والمال نعمة خصوصاً عندما يكون في يدٍ تعرف حقّه كما قال رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[٣٨٠].

ولكن قد يكون الغنى فتنة ونقمة -وهو الغالب- يدل عليه قول الرسول ﷺ: «إن لكل أمّة فتنة وفتنة أمتي المال»[٣٨١].. وهذه الفتنة تكون من وجوه:

١ - توهم رضا الله عنه، فقد يُخَيَّلُ لِلْغَنِيِّ أَنَّ غناه منحة إلهية تدل على الرضا العالي وأن السعادة لاتقوم إلا به، وقد نفى القرآن ذلك وسمى كلاً من الغنى والفقر ابتلاء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[٣٨٢]، كما بين القرآن أنه لولا الفتنة على ضعاف النفوس لقصر الغنى والجاه على الكفار، فقال: ﴿وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا

---

(٣٧٧) نوح ٧١: ١٢ .

(٣٧٨) البقرة ٢: ١٨٠ .

(٣٧٩) المقدسي، ابن قدامة، *مختصر منهاج القاصدين* ص٢٥٣-٢٥٤، وابن الجوزي، *تلبيس ابليس*، ١٧٦-١٧٧ .

(٣٨٠) الإمام أحمد، *المسند*، ج٤ ص ١٩٧.

(٣٨١) الإمام أحمد، *المسند*، ج٤ص ١٦٠ .

(٣٨٢) الفجر ٨٩: ١٥-١٦ .

لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣٨٣].

وَيُقَرِّرُ القرآن قيمة الناس بأعمالهم وليس بما يملكون، ومع ذلك كانت وما زالت مقاييس الناس غير ذلك، يقول ابن تيمية رحمه الله: ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر، بل بالتقوى، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة..وقال: «لايوزن غداً الفقر ولا الغنى وإنما يوزن الصبر والشكر»[٣٨٤].

ومن هنا يتبين أن «ليس للمال دلالة معنوية مجردة على خير أو شر وإن كان من الممكن أن يكون خيراً، ومن الممكن أن يكون شراً على حسب الطُّرُق التي يؤخذ منها أو ينفق فيها»[٣٨٥] وصدق القائل: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[٣٨٦].

٢ - عدم أداء حق المال وذلك في حالات:

أ - إمساك المال وعدم إنفاقه: وإمساك المال مُمْحِقٌ للمال مُذْهِبٌ للبركة يؤيده قوله ﷺ: «ما نقص مال من صدقه»[٣٨٧].وقد يؤدي إمساك المال بصاحبه إلى عدم أداء حقّه وقد يكون ذلك سبباً في مَحْقِهِ، يؤيده قول الرسول ﷺ: «ما تلف مال في بر وبحر إلا بمنع الزكاة»[٣٨٨].

والإمساك يدل على البخل والشُّحُّ المنهي عنهما شرعاً «إياكم والشُّحَّ فإنه أهلك من كان قبلكم، دعاهم فسفكوا دمائهم، ودعاهم فقطعوا أرحامهم، ودعاهم فاستحلوا حرماتهم»[٣٨٩]. وفي حديث آخر قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة فقال أبو ذر -راوي الحديث- من هم يا رسول الله قال: هم الأكثرون أموالاً إلا من قال بالمال هكذا و هكذا

---

(٣٨٣) الزخرف ٤٣: ٣٣-٣٥ .

(٣٨٤) العلي، عبد المنعم صالح، *تهذيب مدارج السالكين* لابن القيم الجوزية ص ٤٧١، دار التوزيع والنشر الإسلامية / القاهرة د.ت.

(٣٨٥) الغزالي، محمد، الشيخ، *الإسلام واوضاعنا الإقتصادية*، ص ١٥٤ .

(٣٨٦) المؤمنون ٢٣: ٥٥-٥٦ .

(٣٨٧) الترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب الزهد، باب ١٧ .الامام أحمد، *المسند*، ج١ص١٩٣، ج٤ص٢٣١.

(٣٨٨) الهيثمي، *مجمع الزوائد*، ج٣ ص٦٣ .

(٣٨٩) مسلم ،*صحيح مسلم* ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم، ج٣ ص١١٩٦، ح (٢٥٧). والامام احمد مسند *أحمد*، ج٢ص ١٥٩-١٦٠ .

وهكذا- من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله»[٣٩٠].

ب - **كَنْزُ المال**: هو جمع المال وادخاره، والكَنْزُ: المال المدفون[٣٩١]، وقد فَسَّرَ العلماء الكَنْزَ بأقوال كثيرة[٣٩٢] أقربها قول عبد الله بن عمرﷺ: «ما أُدِّيَ زكاته فليس بِكَنْزٍ، وإن كان تحت سبع أرضين، وكل ما لم تؤد زكاته فهو كَنْزٌ وإن كان فوق الأرض» ومثله جاء عن جابر وهو ما رجحه القرطبي[٣٩٣].

وقد حَذَّرَ القرآن منه فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[٣٩٤].

وتدل الآية على حرص الإسلام على تداول الثروة في المجتمع وعدم حبسها لتعم منفعتها الجميع لقوله تعالى: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[٣٩٥].

ويقول الدكتور محمد البهي[٣٩٦]:

« فخشية الفتنة بإغراء المال قائمة، إذا ترك المال يتكدس في يد صاحبه وَشَحَّتْ نفسه فأمسكه عن الإنفاق أو التداول، وعندئذ تطغى غريزة الملك والاقتناء .. وتتوحش وحينئذ يتحول المال في يد صاحبه إلى نقمة بعد أن كان نعمة ...وإلى وسيلة للتخريب للذات الفردية والعلاقات الإجتماعية على السواء، بعد أن كان وسيلة للبناء والتعمير ويومئذ يكون سوء المصير: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ۞وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ۞فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ۞وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ...﴾[٣٩٧].

---

(٣٩٠) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الايمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ،ج٧ ص٢١٩-٢٢٠ . مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الزكاة، باب تغلظ عقوبة من لا يؤد الزكاة، ج١ ص٦٨٦،ح(٩٩٠).

(٣٩١) الفيومي، *المصباح المنير*، مادة كنز .

(٣٩٢) راجع: فكري أحمد نعمان، *النظرية الإقتصادية في الإسلام*، ص ٣٤٠ .

(٣٩٣) راجع الأقوال الأخرى في القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، م٤ ج٨ ص٥٨ في تفسير قوله تعالى «والذين يكنزون الذهب والفضة..»).

(٣٩٤) التوبة ٩: ٣٤-٣٥.

(٣٩٥) الحشر ٥٩: ٧ .

(٣٩٦) راجع : البهي،محمد، *الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر مشكلات الأسرة والتكافل*، ط٣ مكتبة وهبة، مصر١٩٨٢م، ص٣١٨

(٣٩٧) الليل ٩٢: ٨-١١ .

٣ - **اللهو والصرف عن العبادة**: وإن كان الإسلام يَعُدُّ العمل عبادة، إلا أن الإفراط في حُبِّ المال وجمعه بحيث يطغى على القلب فيجرّ صاحبه للتقصير حتى في أداء الفروض، وهذا هو موطن الفتنة، أو يصبح المال كل همّه وتفكيره دون ذكر الله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٣٩٨).

٤ - **البَطَرُ وَالتَجَبُّرُ وَالطُغْيَان**: كما قال تعالى في المال عندما يفيض فيغرق صاحبه: ﴿كَلاَّ إنَّ الإنسان لَيَطْغَىأن رآه استغنى﴾(٣٩٩) والله العارف بمن خلق يعلم بغي الغني فيقول: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرْضِ﴾(٤٠٠).

٥ - **الإغراء بالمعاصي**: لأن فيه القدرة على ذلك والمال نوع من القدرة وخصوصاً عند ضعاف الإيمان وهنا يثبت الابتلاء حيث فتنة السراء أعظم من الضراء ..فقد يجمع الغني بين كثير مما ذكرنا فيصل إلى حد المترفين الذين يشكلون خطراً على المجتمع كما ذكر القرآن الكريم ولذلك سأتناوله بشيء من التوضيح ..

الترف والمترفون:

الترف (لغة): التنعم والترفه والنعمة، واترفته النعمة: أي أطغته، وقيل التوسع في النعمة. والمترف: هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش(٤٠١)، ومن المعاني اللغوية والأدلة القرآنية يلخص الدكتور عبد الكريم زيدان ثلاث صفات للترف والمترفين(٤٠٢):

١ - الترف: بطر النعمة، والمترف من أبطرته النعمة وسعة العيش.

٢ - الترف: الطغيان بسبب النعمة، والمترف هو الذي طغته النعمة.

٣ - الترف: التنعم والتوسع في ملاذ الدنيا، والمترف: هو المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها.

وقد نبه القرآن إلى خطورة هؤلاء فذكر أن أول عاداتهم المسارعة في تكذيب الحق والرسل وردّ الحق الذي جاءوا به استدلالاً بما لديهم فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُون۞ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ

---

(٣٩٨) المنافقون ٦٣: ٩ .

(٣٩٩) العلق ٩٦: ٦-٧ .

(٤٠٠) الشورى ٤٢: ٢٧ .

(٤٠١) ابن منظور : *لسان العرب*، ج١ ص ٣٦٠ .

(٤٠٢) زيدان، دكتور، عبد الكريم، *السنن الإلهية*، ص ١٨٣ .

بِمُعَذَّبِينَ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٤٠٣]
قال ابن كثير: «وهم أولو الحَسَبِ والنعمة والثروة والرياسة»[٤٠٤]، أي أن حجتهم في التكذيب أنهم أكثر من غيرهم أموالاً وأولاداً ... وهذا دليل على كرامتهم على الله فرد عليهم: ﴿قل إن ربي يبسط...﴾ وقال في أخرى:﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [٤٠٥].

وتكرار مثل هذه الآيات يدل على أن تكذيب الرسل من قبل المترفين سنة مطّردة، وقد فصل القرآن مواقفهم هذه تجاه كل نبي فقد تشابه ردهم وكأنّهم يشعرون بعاطفة واحدة ويدافعون عن مصلحة واحدة [٤٠٦].. كما أنه منهج المترفين قديماً وحديثاً في معاداة الحق يقول سيد قطب: « إن الترف يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصرّ على الباطل ولا تتفتح للنور»[٤٠٧].

والمترفون يزدرون نعم الله وتغريهم كثرتها بابتذالها وعدم شكر المنعم، وتضييعها فيما لا فائدة فيه في الوقت الذي يضنون به على المحتاج فقال تعالى عنهم : ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[٤٠٨].

وفتنة هؤلاء على المجتمع كبيرة فهم يهتمون بملاذهم وجمع المال من أي وجه حل أو حرم، ويكاثرون غيرهم ويتنافسون فيما بينهم على المتع،كل ذلك على حساب الحق والخير ومطالب الايمان وحدود الله[٤٠٩] ولا يهمهم ما يرون من منكرات، فلا ينهضون لنصرة الحق أو الدفاع عنه وفوق ذلك أنهم أعداء كل إصلاح قال تعالى عنهم :﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُوْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوْا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِيْ الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيْلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مَا أُتْرِفُوْا فِيْهِ وَكَانُوْا مُجْرِمِيْنَ﴾[٤١٠]وفسر الآلوسي «الذين ظلموا» بأنهم: تاركو النهي

---

(٤٠٣) سبأ ٣٤: ٣٤-٣٦ .

(٤٠٤) الصابوني، محمد علي، *مختصر ابن كثير*، ج٣ ص١٣٢-١٣٣ .

(٤٠٥) سبأ ٣٤ : ٣٧ .

(٤٠٦) أنظر الشيخ الغزالي، *الإسلام وأوضاعنا الإقتصادية*، ص٤٤-٥٧، ومن هذه الآيات التي يقصدها سورة هود آية ٣٧، ٣٣-٣٤، الاعراف ٧٥،٧٦،٨٨، المؤمنون ٤٦-٤٨ .

(٤٠٧) سيد قطب، *في ظلال القرآن*، م ٦ ج٢٢ ص ٨٥ .

(٤٠٨) الواقعة ٥٦: ٤١-٤٥ .

(٤٠٩) الغزالي، محمد، الشيخ، *الإسلام وأوضاعنا الإقتصادية*، ص ٤٤ .

(٤١٠) هود ١١: ١١٦.

عن المنكرات[٤١١].

وكشف القرآن عما يدور في مجالسهم من اللغو﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾[٤١٢].

ولا يقتصر خطر المترفين على أنفسهم بل هم خطر على الأمم، يكونون طبقة تتسلط على الناس مع الطغيان والاستكبار واحتقار الضعفاء والفقراء منهم بحكم مالهم - كما يعتقدون - يجب أن تكون لهم الصدارة في الحياة كما أنهم مصدر فساد ومثار فتن ودمار يصيب الاوطان، وقد شجّع الاستعمار هذه الطبقة وضمنوا لهم ما يريدون على حساب الشعوب الجاهلة المريضة لتسهل أمام الاعداء ..

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين ردوا دعوة الانبياء أن يهلكهم الله ويذيقهم العذاب في الدنيا والآخرة قال تعالى:﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾...﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾[٤١٣].

ولما كان في القصص عبرة فقد جاءت القصة الثانية في سورة الكهف لتقرر فتنة الغنى والفقر فقال تعالى:﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾[٤١٤] والله وهب لأحدهما، ولو ساوى بينهما لما حصل الابتلاء والافتتان، وقد وصف الله تلك الجنتين بانها جامعة للاقوات والفواكه وتمام الأُكل من غير نقص، إضافة الى ما وهبه من الأولاد والخدم ..فطغى وبطر وتجبر وتطاول فأنكر الساعة كما قال تعالى:﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ثمّ أقسم أنّه لو رجع الى الله يوم القيامة ليعطيه خيراً من ذلك .. وانتهت القصّة بالخسران والندم بعد أن أحيط بثمره، وتدل القصة على بطر النعمة من قبل المترفين وعاقبة الخسران وأنّه لا نجاة لفتنة المال إلا باللجوء الى الله وشكره ..[٤١٥]

كما قرر القرآن الكريم أن الترف سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات قال

---

(٤١١) الآلوسي، محمود، *روح المعاني*، ج٢٢ ص ١٤٧-١٤٨ .

(٤١٢) الهمزة ١٠٤: ١-٢ .

(٤١٣) الانبياء ٢١: ١١-١٣، وراجع : عبد الكريم زيدان، *السنن الآلهية* ، ص١٨٦ .

(٤١٤) الكهف ١٨: ٣٢ .

(٤١٥) طهماز، عبد الحميد، *العواصم من الفتن في سورة الكهف*، دار القلم، دمشق أو دار المنارة، بيروت ١٩٨٧، ص٧٦ .

تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[٤١٦] قال الزمخشري : «والأمر مجاز: لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون، ووجه المجاز أنه صبّ عليهم النعمة صباً فجعلوها ذريعة الى المعاصي واتباع الشهوات ...وإنما خوّلهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير.. فلما فسقوا حقّ عليهم القول فدمّرهم»[٤١٧].

والذي حصل للأمم الماضية يحصل لمن هو على شاكلتهم وربما وُجِدَ هذا النوع في الأُمَّة الإسلامية في بعض العصور فضعفت الأُمَّة وزالت حضارتها كما حصل لدولة الأندلس..

وسنّة الله لا تتغير، وما نراه من رخاء المجتمعات الكافرة قد يكون مقدمة للهلاك والدمار، فالمتأمل في حياتهم يرى عوامل السقوط والدمار في مجتمعاتهم، من التفكك الأسري والإنحلال الأخلاقي والشذوذ الجنسي وشيوع الأمراض والإيدز والمخدرات...الخ كل ذلك مؤشرات على اقترابهم من هاوية الهلاك والسقوط[٤١٨].

فتنة سوء استخدام المال: ويظهر ذلك في ناحيتين :

١ - الفتنة في سوء الكسب:

الاكتساب لغة: من كسبت شيئاً واكتسبته، وهو يدل على إبتغاء وطلب وإصابة[٤١٩] ومنه قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[٤٢٠] «والكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه إجتلاب نفع وتحصيل حظ لكسب المال»[٤٢١].

وأول طرق الكسب وأهمها العمل.. وقد حثّ الإسلام عليه، وقد خلق الله الإنسان وفي طبعه حب العمل والسعي، كما جعله عبادة في ترتب الأجر عليه فقال :﴿... إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[٤٢٢] وقوله ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ

---

(٤١٦) الاسراء ١٧: ١٦ .

(٤١٧) الزمخشري، الكشاف، ج٢ ص٦٥٤.

(٤١٨) طهماز، عبد الحميد، *أسباب هلاك الامم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف*، دار القلم، دمشق ١٩٩٢، ص ٩٤ .

(٤١٩) راجع الجوهري، اسماعيل بن حماد، *الصحاح* (مادة كسب)،وأحمد بن فارس، معجم *مقاييس اللغة* (مادة كسب).

(٤٢٠) المسد ١١١: ٢ .

(٤٢١) الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد، *المفردات في غريب القرآن* ص ٤٣٠ .

(٤٢٢) الكهف ١٨: ٣٠ .

اللّٰهِ﴾[٤٢٣] وقال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[٤٢٤] وسئل رسول الله ﷺ: أي الكسب أطيب؟ فقال: «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور»[٤٢٥].

ومن مقاصد الشريعة الإسلامية إعداد الإنسان المكتسب كما تعد الحاجات والصنائع التي تحتاجها الأُمَّة من فروض الكفاية، كما أن من مقاصدها المحافظة على المال بتنميته واستثماره[٤٢٦].

ونظراً لأهمية العمل فقد ذكرت في القرآن الكريم (٣٦٠) آية تتحدث عن العمل و(١٠٩) آيات تتحدث عن الفعل[٤٢٧] والمقصود بها في النصوص الكسب الحلال الطيب في مصدره وفعله مع أداء شكره بالانفاق كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَنْفِقُوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[٤٢٨]

وهناك طرق أخرى ثانوية لكسب المال كالإرث والوصية والهبة والإجارة ..الخ والفتنة في الكسب تكون في مصادره غير المشروعة، فلا تكون حلالاً طيباً بل وبالاً وبلاءً ويتمثل في الحالات التالية :

١ - **كسب المال بغير حقّ**: وذلك مثل السرقة والنهب والغصب والسطو وقطع الطريق والغلول (وهو سرقة أموال العامة)[٤٢٩]، ولكل ذلك أدلته في التحريم والنهي، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤٣٠]، وقال رسول الله ﷺ: «لايحل لمسلم أن يأخذ عصا بغير طيب نفس منه»[٤٣١] وقد جمع ذلك كله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً

---

(٤٢٣) المزمل ٧٣: ٢٠ .

(٤٢٤) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب البيوع، باب كسب الرجل من عمل يده ج٣ ص٥٩. وابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، كتاب البيوع، باب الحث على المكاسب، ج٢ص ٧٢٣، ح(٢١٣٧).

(٤٢٥) الامام أحمد، *مسند أحمد*، ج٤ ص١٤١، والحاكم، *المستدرك*، كتاب البيوع ج٢ ص١٠ ..

(٤٢٦) أنظر آل سعود، عبد الرحمن بن سعد، *مشكلة الفقر وسبل علاجها في ضوء الإسلام (دراسة مقارنة)*، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب / الرياض ١٩٩٠-١٩٩١، ج١ ص٢١٤-٢١٥ .

(٤٢٧) أنظر، فكري أحمد نعمان، *النظرية الإقتصادية في الإسلام*، ص ٢٧٤.

(٤٢٨) البقرة ٢: ٢٦٧.

(٤٢٩) ويطلق في الاصل على غنائم الحرب قبل أن تقسم على المجاهدين من قبل الحاكم.

(٤٣٠) المائدة ٥: ٣٨.

(٤٣١) الامام أحمد، *مسند أحمد*، ج٥ ص٤٢٥

عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[٤٣٢].

ويدخل في ذلك الغشّ والاحتيال قال رسول الله ﷺ: «من غشنا فليس منّا»[٤٣٣] ومثله تطفيف الكيل والميزان لقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ...﴾[٤٣٤]، ومنه أكل مال اليتيم حيث شدد الشرع في تحريمه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٤٣٥].

وكذلك الإحتكار «وهو أن يمتنع أرباب السلع من بيعها -مع ضرورة الناس إليها- إلا بزيادة على القيمة المعروفة»[٤٣٦] وقد قال عنه رسول الله ﷺ: «لا يحتكر إلا خاطئ»[٤٣٧] و«من احتكر الطعام أربعين يوماً فقد برئ الله منه»[٤٣٨] وذلك لما فيه من ضرر التضييق على الناس، ومثله التلاعب بالأسعار من قِبَلِ التجار وفي هذه الحالة تقدم مصلحة المجموع ويباح التسعير لوقاية المجتمع من المستغلين الجشعين ومعاملتهم بنقيض مقصودهم كما تقر القواعد والأصول[٤٣٩].

٢ - الكسب غير المشروع ولو برضا الطرفين وذلك مثل:

أ - الرشوة، قال تعالى :﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤٤٠] وعن ثوبان قال: «لَعَنَ رسول الله

---

(٤٣٢) النساء ٤: ٢٩.

(٤٣٣) مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ «من غشنا فليس منا»، ح(١٦٤)، ج١ ص٩٩، وأبو داود، *السنن*، كتاب البيوع، باب النهي عن الغش، ح(٣٤٥٢)، ج٣ ص٧٣٢، والترمذي، *السنن*، كتاب البيوع، باب ما جاء في كراهية الغش، ح(١٣١٥)، ج٣ ص٦٠٦، وابن ماجة، *السنن*، كتاب التجارات، باب النهي عن الغش، ح(٢٢٢٤)، ج٢ ص١٤٩، والدارمي، كتاب البيوع، باب في النهي عن الغش، ح(٢٥٤٤)، ج٢ ص٥٦٢، والإمام أحمد، *المسند*، ج٢ ص٥٠، ٢٤٢، ٤١٧، ج٣ ص٤٦٦، ج٤ ص٤٥.

(٤٣٤) المطففين ٨٣: ١.

(٤٣٥) النساء ٤: ١٠ .

(٤٣٦) القرضاوي، يوسف، *الحلال والحرام في الإسلام*، ص ٢٣٨.

(٤٣٧) الامام مسلم، *صحيح مسلم*، كتب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الاقوات، ج٢ص ١٢٢٧، ح(١٦٠٥)، كتاب البيوع، باب ما جاء في الاحتكار، ج٣ص ٥٦٧، ح(١٢٦٧)، أبو داود، *السنن*، كتاب البيوع والاجارة، باب في النهي عن الحكرة ج٢ص ٧٢٨، رقم الحديث ٢١٥٤.

(٤٣٨) ابن ماجة، سنن *ابن ماجة*، كتاب التجارات، باب الحكرة والجلب، ج٢ص ٧٢٩، رقم الحديث ٢١٥٥.

(٤٣٩) القرضاوي، *الحلال والحرام في الإسلام*، ص ٢٣٨.

(٤٤٠) البقرة٢: ١٨٨.

ﷺ الراشي والمرتشي»[٤٤١].

ب - **القمار والميسر**: وحُرِّم لأنه تملك مال غير مقترن بجهد، ورضا الطرف الآخر لا عبرة به، لأن كلاً من الطرفين قصد الربح، فيسبب العداوة والبغضاء ويصد عن واجبات الإسلام لأن هدفه الربح بأقرب الطرق وغالباً ما يخالطه المجون والفساد قال تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾[٤٤٢]وكذلك اليانصيب وما شاكله هو ضرب من القمار .

٣ - **العقود المحرمة**: إن الأصل في العقود والشروط والبيوع الجواز والصحّة، ولا يحرم و يبطل منها إلا ما دَلَّ على ذلك نص أو قياس[٤٤٣].

ومن العقود المنصوص على حرمتها كل عقد فيه ربا لضرره البالغ على الأفراد والمجتمع حيث أنه وسيلة لإفساد الأخلاق ورفع الأسعار وتكوين طبقة إجتماعية خطيرة، وخطره أكبر إذا كان على مستوى الدول حيث تكون المستدينة تحت رحمة الدائنة في كثير من القضايا التي تمس سيادتها وأمنها[٤٤٤].

وقد جاءت نصوص كثيرة في تحريم الربا «**وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**»[٤٤٥] وقد شدد القرآن التحريم الى حد الإنذار بالحرب من الله فقال :﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ**﴾[٤٤٦]وفي الحديث: «لَعَنَ رسول الله آكل

---

(٤٤١) أبو داود، *السنن*، كتاب الأقضية، باب في كراهية الرشوة، ج٤ص٩ح(٣٥٨٠)، الترمذي، *السنن*، كتاب الأحكام، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، ج٣ص٦٢٢ح(١٣٣٦)، ابن ماجة، سننه، كتاب الأحكام، باب التغليض في الحيف و الرشوة، ج٢ ص٧٧٥ ح(٢٣١٣)، الامام أحمد، *المسند*، ج٢ص١٦٤، ١٩٠، ١٩٤، ج٥ص٢٧٩.

(٤٤٢) المائدة ٥:٩٠-٩٢ .

(٤٤٣) راجع :فكري أحمد نعمان، النظرية الإقتصادية في الإسلام، ص ٢٩٤ .

(٤٤٤) راجع أبو يحي، محمد حسن، *اقتصادنا في ضوء القرآن والسنّة* ص ٣١٣-٣١٦ والقرضاوي يوسف، *الحلال والحرام في الإسلام*، دار القرآن الكريم، الإتحاد العلمي للمنظمات الطلابية- الكويت ١٩٧٨، ص ٢٤٦-٢٤٨ .

(٤٤٥) البقرة ٢: ٢٧٥ .

(٤٤٦) البقرة ٢: ٢٧٨-٢٧٩ .

الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء»[٤٤٧] .

وقد ذكر الفقهاء والعلماء مجموعة من البيوع المحرمة والمكروهة تضمن الحديث الآتي جزء منها، قال رسول اللهﷺ: «..ولاتلقوا الركبان ولا يبيع بعضكم على بعضٍ ولا يبيع حاضر لباد ، ولا تصروا الإبل والغنم فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها إن رضيها أمسكها وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر»[٤٤٨].

والنهي في تلك البيوع واضح في كل ما من شأنه خلق شحناء وتباغض وانعدام ثقة .. وقد لخص (سَيِّد سابق) تلك البيوع المنهي عنها مثل: بيع المكره، والمضطروالتلجئة، والغرر، والحصاة، والملامسة، والمنابذة، والمحاقلة، والصوف في الظهر، والسمن في اللبن، والمغصوب والمسروق، والعنب لمن يتخذه خمراً، والسلاح في الفتنة وعند صلاة الجمعة ويكره البيع في المسجد[٤٤٩]، وإذ يحرم الشرع كل أنواع هذه البيوع لما تحتويه من إستغلال وخداع تجاري مثل بيع النجش، وشراء المسروق، أو تدخل مفتعل في حرية السوق مثل بيع الحاضر للبادي.. لأن كل هذا يؤدي الى فتنة بين المسلمين في حين يريد الإسلام مُجْتَمَعَاً متعاوناً على الخير و الإصلاح مع الحث على التناصح كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٤٥٠]

أما عقود التأمين فقد اختلف فيها العلماء لشبهة الربا والمقامرة وعدم التوكل، والحق أن لنا في أنظمة الإسلام الإقتصادية ما يعوّضنا عنها مثل التكافل الإجتماعي ونصيب الغارمين في الزكاة[٤٥١].

---

(٤٤٧) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب البيوع، باب من كره أن يبيع حاضر لباد ج٣ص ٢٧ . والامام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، ج٢ص ١٢١٩، ح(١٥٩٨) .الترمذي، *وسنن الترمذي*، كتاب البيوع، باب في أكل الربا،ج٣ص٥١٢، ح(١٢٠٦) .ابو داود، *وسنن ابي داود*، كتاب البيوع، باب اكل الربا ومؤكله، ج٣ص ٦٢٨،ح(٣٣٣٣).ابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ج٢ص٧٦٤، ح(٢٢٧٧) .

(٤٤٨) الامام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه وسومه مع سومه وتحريم النجش وتحريم التصرية، ج٢ص١١٥٥، ح(١٥١٥)، وأبو داود، *سنن ابو داود*، كتاب البيوع والتجارات، باب من اشترى مصرّاة ج٢ص٧٢٢،ح(٣٤٤٣).

(٤٤٩) سيد سابق، *فقه السنة*، ط١٥، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٥٣-١٦٥.

(٤٥٠) المائدة ٥: ٢.

(٤٥١) راجع : الشيخ أحمد محمد عسّاف، *الحلال والحرام في الإسلام*، ط٧ دار احياء العلوم، بيروت١٤٠٨هـ١٩٨٨م، ص ٤٠٠-٤٠٩

٤ - **الكسب مقابل فعلٍ محرم**: مثل التجارة بالمحرمات كالخمور والمخدرات إنتاجاً وبيعاً وترويجاً، وبيع الخنزير، وكل عمل محرّم كامتهان الكهانة والترويج للفاحشة عن طريق الصحف والمجلات ووسائل الدعاية الأخرى. ولا شكّ أن كل ذلك يؤثر في فساد الأخلاق والأمراض والتفكك الإجتماعي، وأكل أموال الناس بالباطل وإثراء فئة ضالة، وأشدّ تلك المحرمات الإتجار بالبغاء والفساد أو احترافه -والعياذ بالله- لما فيه من أخطار تلحق بالمجتمع علاوةً على الأمراض والأوبئة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٤٥٢]، وقال ﷺ: «ما ظهرت الفاحشة في قوم قط إلا أصابهم الطاعون والأوباء التي لم تكن في أسلافهم»[٤٥٣]، ويدخل في ذلك الكسب من الغناء والرقص والتمثيل الماجن، وكل ما يثير الغرائز لأنه مقدمة للفاحشة ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾[٤٥٤].

ومنها كذلك صناعة كل محرم كالخمر والتماثيل لقوله ﷺ: «من صوّر صورة فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً»[٤٥٥].

٥ - **تزييف العملة وترويجها**: وقد نبه إلى ذلك حجة الإسلام الإمام الغزالي عند ذكره لانواع الأمور المحرّمة فقال: «النوع الثاني ترويج الزيف من الدراهم في أثناء النقد فهو ظلم، أو يستضر به المعامل إن لم يعرف، وإن عرف فسيروجه على غيره، فكذلك الثالث والرابع، ولا يزال يتردد في الأيدي ويعم الضرر ويتسع الفساد، ويكون وزر الكل ووباله راجعاً إليه، فإنه هو الذي فتح الباب»[٤٥٦]

٢ - الفتنة في الإنفاق:

إن قضية الإنفاق وكيفيته ووجوهه لا تقل أهمية عن قضية الكسب ووسائله، وذلك لأن إنفاق المال يحتاج الى الحكمة والعقل التي يحتاجهما في كيفية الحصول عليه..

---

(٤٥٢) النور ٢٤: ٣٣ .

(٤٥٣) ابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، كتاب الفتن، باب العقوبات، ج٢ ص ١٣٣٢، ح(٤٠١٩٠)، حديث مرفوع .

(٤٥٤) الاسراء ١٧ : ٣٢ .

(٤٥٥) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب البيوع، باب بيع التصاوير، ج٣ ص٤٠. مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، ج٢ ص ١٦٧١ ح(٢١١٠). الترمذي، *السنن*، كتاب اللباس، باب ما جاء في المصورين، ج٤ص٢٣١ ح(١٧٥١) .

(٤٥٦) الامام الغزالي، *حياء علوم الدين*، ج٢ ص١١٧.

فالذي يتحرى الحلال والكسب الطيب عليه كذلك أن ينفقه في وجوه وطرق سليمة نافعة وغير ضارة، ولا يتأتى ذلك إلا بمعرفة أحكام الإسلام ونظرته إلى المال على أنه مال لله وهو الوكيل والمستخلف فيه، وَمُحَاسَبٌ على إنفاقه، وأنه نعمة إذا لم يحسن التصرف فيها تنقلب نقمة وفتنة تستوجب الحساب في الآخرة وزوالها محتمل في الدنيا يقول الرسول ﷺ: «لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسْأَلَ عن ماله مم اكتسبه وفيم أنفقه..»(٤٥٧).

ويقول الحسن البصري ﷺ: «...إذا أردتم أن تعرفوا من أين اكتسب الرجل ماله فانظروا فيم أنفقه»(٤٥٨).

وفي طرق الإنفاق التي حددها الإسلام يكون قد وضع الأسس والضوابط القويمة للحفاظ على المال والمكتسبات بإنفاقها في محلها المشروع وهذه الأسس هي(٤٥٩):

١ - تطهيرها بالزكاة بالإنفاق على الفقراء وذوي الحاجات.

٢ - الإنفاق على الأهل والولد وذوي القربى بحسب القدرة والحاجة التي تدور بين الضرورات والحاجيات والتحسينات، ولا يتوسع بها لحد الترف المؤدي للضياع ..

٣ - الصدقة الموصولة على أصحاب الحاجات، وإذا ساءت الأحوال فعليهم أن يسدّوا خلّة إخوانهم كما قال تعالى :﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤٦٠).

٤ - توجيه الفائض للإستثمار.

٥ - إخلاص النية في الإنفاق طلباً لمرضاة الله كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾(٤٦١)،وذلك بأن لايتبعه مناً ولا أذى يُحْبِطُ العمل.

٦ - الإنفاق من الكسب الطيب كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا

---

(٤٥٧) الترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ج٤ص٩٥ح(٢٥٣٢)وقال الترمذي هذا حديث صحيح .

(٤٥٨) الخطيب، عبد الكريم، *السياسة المالية في الإسلام وصلتها بالمعاملات المعاصرة*، ص٢١٢.

(٤٥٩) انظر بعض هذه الاسس في : الخطيب، عبد الكريم، *السياسة المالية في الإسلام*، ص ٢١٢، وانظر : آل سعود، عبد الرحمن، *مشكلة الفقر وسبل علاجها في ضوء الإسلام*، ج١ ص ٢٤٦-٢٥٢.

(٤٦٠) الحشر ٥٩: ٩.

(٤٦١) الروم ٣٠: ٣٩.

كَسَبْتُمْ﴾[٤٦٢]، وقول الرسول ﷺ:«إن الله طيب لا يقبل الا طيباً ..»[٤٦٣].

٧ - الاعتدال في الإنفاق: كما دعت اليه النصوص الكثيرة والتي تمثل الوسطية ومثالية الإسلام، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[٤٦٤]، وفي الحديث: «كلوا وتصدّقوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة»[٤٦٥]، ويدخل في ذلك تحريم كَنْزُ المال الذي سبق الكلام عنه. وإذا كان الاعتدال مطلوباً على مستوى الأفراد ففي الأموال العامة أكثر أهمية، وأولياء الأمر أمناء عليه.

٨ - الرشد والأمانة فيمن يتولى الإنفاق: والرشد ضد السفه قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[٤٦٦]، ولذلك منع القرآن إعطاء اليتامى الصغار أموالهم حتّى يبلغوا الرشد فقال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[٤٦٧]

وقال الزمخشري في شرحه لمعنى السفهاء في الآية الاولى: «والسفهاء: المبذرون أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي ولايد لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرّف فيها، والخطاب للأولياء وأضاف الأموال إليهم لأنها من جنس ما يقيم به الناس معايشهم... وقيل هو أمر لكل أحد ألا يخرج ماله إلى أحد السفهاء... يعلم أنه يضعه فيما لا ينبغي ويفسده»[٤٦٨]

ومن أجل ذلك شرّع الإسلام الوصاية على مال القاصر وَالْحَجْرِ على السفيه كما يجب «إحسان الإختيار في حق من يقوم بإنفاقه ابتداءً من الأسرة الصغيرة، ثم الشركات والمؤسسات المتنوعة، ثم الحكومات والدولة... فإذا أُسْنِدَ الأمر إلى غير أهله فإن النتيجة المؤكدة هي عمليات الإختلاس المتكررة

---

(٤٦٢) البقرة٢: ٢٦٧ .

(٤٦٣) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، ج١ ص ٧٠٣ ح(١٠١٥). الدارمي، *سنن الدارمي*، كتاب الرقاق، باب في أكل الطيب، ج٥ ص ٦٠٨ ح(٢٧٢٠).

(٤٦٤) الفرقان ٢٥: ٦٧ .

(٤٦٥) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب اللباس، باب قول الله:قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده، ج٧ ص ٣٣ . ابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، كتاب اللباس، باب إلبس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة، ج٢ ص ١١٩٢ ح (٣٦٠٥) .

(٤٦٦) النساء ٤: ٥ .

(٤٦٧) النساء٤: ٦ .

(٤٦٨) الزمخشري، *الكشاف*، ج١ ص ٤٧١ .

التي تنكب خاصة أصحاب الحقوق ثم الأُمَّة جمعاء بالفقر والحرمان»[٤٦٩]

إن اتباع الأسس السابقة يقود إلى الإنفاق المشروع وهذا هو الأصل من كلمة (إنفاق) حتى إذا ما أطلقت أريد بها ذلك، أو أخص بأنه: بذل المال في سبيل الله والذي شجع عليه الشرع لما له من الأثر في شخصية المسلم[٤٧٠].

أما الفتنة في الإنفاق فتكون بوضع المال في غير محله مما يؤدي الى ضائقة إقتصادية، أو فساد خُلُقِيْ على المستوى الفردي والجماعي ويتمثل في الوجوه التالية:

١ - وجود المال في أيدي غير آمنة أو غير قادرة على حفظه واستثماره كما مر في السفيه..

٢ - عدم أداء حقّ الله في المال وشكره بدفع الزكاة والصدقات في وجوه البر المختلفة .

٣ - الإسراف والتبذير والترف، والمقصود بها الإفراط في الإنفاق فيما لا يُحْتَاجُ إليه والذي قد يؤدي الى الفقر وقد حرّمه الإسلام لخطره على الفرد والأُمَّة، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٤٧١] كما قرنهم بالشياطين للتقبيح والإنكار فقال: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[٤٧٢]وقد يصل الإسراف والتبذير لحد الترف الذي تكلمنا عن آثاره الخطيرة..

ويتحقق الإسراف في كل وجوه الإنفاق من المأكل والمشرب والملبس والزينة وخصوصاً في المظاهر كالأثاث والبناء، ويكون ذلك على مستوى الخاص والعام، وهذه هي فتنة السراء التي لا يستطيع المرء أن يصمد أمامها - إلا ما شاء الله - وتكون النكسة إذا عَوَّدَ المرء نفسه على ذلك فلا يستطيع الصبر دونه فيلجأ إلى الأساليب المنحرفة ليحقق ذلك.. وقد بين القرآن أثر الإسراف فقال: ﴿..وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٤٧٣]

---

(٤٦٩) آل سعود، عبد الرحمن، *مشكلة الفقر وسبل علاجها*، ج١ ص ٢٤٩-٢٥٠ .

(٤٧٠) راجع : عبد الخالق، أحمد محمد، *الإنفاق وأثره في بناء شخصية المسلم*، حيث ذكر ثمانية آثار وهي:١-انه يربي المسلم على الثقة بالله،٢-الثقة في وعده بالمضاعفة الى سبعمائة ضعف، ٣- على الصدق مع الله، ٤- على تزكية النفس وتطهيرها من الشح والبخل، ٥- على تحري الحلال، ٦- الإحساس بالاخرين، ٧- على الإخلاص،٨ - الاستعداد للقاء الله، بحث منشور في مجلة الخيرية العدد٦٨ رجب (١٤١٦هـ) -السعودية ص ٢٤-٢٧ .

(٤٧١) الاعراف٧: ٣١ .

(٤٧٢) الاسراء ١٧: ٢٧ .

(٤٧٣) الاسراء ١٧: ٢٩ .

٤ - الْشُحُّ وَالْبُخْلُ: الْبُخْلُ: «هو المنع من مال نفسه، والشُحُّ هو بُخْلُ الرجل من مال غيره»، وقيل البُخْلُ: «ترك الإيثار عند الحاجة. وهو محو الصفات الإنسانية وإثبات عادات الحيوانية» [٤٧٤] وذلك لأن البُخْلَ وَالشُحَّ حب مفرط للمال الى حد الأنانية ولها تأثير على السلوك يظهر في قسوة القلب وفقدان الرحمة والجشع والطمع..

وكما نهى الإسلام عن الإسراف نهى عن الْبُخْلِ والتقتير فقال تعالى:﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾[٤٧٥] وفي آية آخرى:﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٤٧٦]

كما نهى الرسول ﷺ عنه فقال: «خصلتان لاتجتمعان في مؤمن: الْبُخْلُ وسوء الْخُلُقِ»[٤٧٧] وتعوذ الرسول ﷺ فقال:«اللهم إني أعوذ بك من الجُبْنِ وَالْبُخْلِ»[٤٧٨] كما أوضح الآثار المترتبة على الْبُخْلِ فقال «إياكم والشُحَّ فإن الشُحَّ أَهْلَكَ من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبُخْلِ فَبَخلُوْا، وأمرهم بالفُجُوْرِ فَفَجَرُوا»[٤٧٩]، فالشُحُّ وهو شِدَّةُ الْبُخْلِ يؤدي الى إرتكاب الحرام كالتعامل بالربا والامتناع عن دفع الزكاة وقطع أواصر القرابة وغير ذلك .

٥ - الإنفاق في المحرمات والمكروهات: وذلك مثل اقتناء الأشياء المحرمة كالتماثيل، وعلى الملاهي وشرب الخمر والميسر أو إهلاك المال في الفساد ... وفي المخدرات بأنواعها بالقياس والنص[٤٨٠]، وذلك لأنها كالخمر في التأثير وعلّة التحريم قال ابن تيمية: «إن من غاب عقله منها يجب أن يقام عليه الحد ثمانون جلدة كحد الشرب من الخمر سواء بسواء»[٤٨١].

وآفة المخدرات شائعة اليوم بشكل يهدد السلامة العامة بالإضافة الى إهدار المال..أما التدخين فهناك من العلماء من يحرمه لأضراره البالغة على الصحّة والجسم إضافة إلى إهدار

---

(٤٧٤) الجرجاني، *التعريفات* ص ٦٢ .
(٤٧٥) الاسراء ١٧: ٢٩ .
(٤٧٦) آل عمران ٣ : ١٨٠.
(٤٧٧) الترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب البر والصلاة، باب ما جاء في البخيل، ج٨ ص ١٤١.
(٤٧٨) النسائي، *سنن النسائي*، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الجبن ج٨ ص ٢٥٦ ح ٢٥٤٤٢.
(٤٧٩) الامام أحمد، *مسند أحمد*، ج٢ ص ١٥٩-١٦٠ عن عمرو بن العاص.
(٤٨٠) راجع الشيخ أحمد عسّاف، *الحلال والحرام في الإسلام*، ص ٢٩٢.
(٤٨١) المصدر السابق ص ٢٦٣ .

المال، والبعض يعدّه مكروهاً، ومن العادات السيئة .

نرى مما تقدم أن سوء الإنفاق فتنة تؤدي الى سَخَطِ اللـه وزوال النعمة والإفلاس على المستوى الفردي والجماعي بحيث يهدد أمن الدولة واستقرارها .

والخلاصة نتبين أن المشاكل الإقتصادية لم يكن سببها الطبيعة وقلة مواردها أو عدم كفايتها مع ازدياد السكان - كما يظن الرأسماليون والإشتراكيون - فالطبيعة لها القابلية على تأمين كل حاجيات الحياة، والله هيأ للإنسان الكون الفسيح، ووفر له الموارد الكافية لإمداده قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[٤٨٢] وقال:﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٤٨٣].

وقد حقق الإسلام إنتصاراً على الفقر حتى صار مسألة عارضة قابلةً للحل، وقد بشر الرسول ﷺ بإفاضة المال كثمرة لتطبيق نظام الإسلام وأحكامه الإقتصادية، وتحقق ذلك في زمن عمر بن الخطاب ﷺ، وحصل في أعوام قليلة تحقيق الاكتفاء والاستقرار حتى لم يجد عامله على اليمن (معاذ بن جبل ﷺ) من يأخذ الزكاة.

وقد تم الرخاء في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ في كل الأقاليم الإسلامية فلم يوجد من يستحق الصدقة، ووجد كل ذي حاجة حاجته من بيت المال دون شكوى ولا طلب[٤٨٤]، ولكن سوء الحظ حرم الأُمَّة من بركات هذا النظام عندما استبدّ الظالمون واستحوذ السفهاء على المال، وساد الجهل والابتداع «والأمر الخطير عند المسلمين اليوم: فقدان جدول الأولويات في الإنفاق والتصدق»[٤٨٥].

فقد تدهورت الأحوال الإقتصادية في العالم الإسلامي شيئاً فشيئاً بسبب غياب النظام الإسلامي، فراح المسلمون يبحثون عن حلّ عند الأمم، فوقعوا في حبال الإشتراكية والرأسمالية، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.. فالإشتراكية تحارب الغنى وتمنع الملكية الخاصة في حين تفتح الرأسمالية الحرية المطلقة للعمل، دون قيود، فتتغلب مصلحة الفرد على الجماعة، ولم ينل المسلمون بين هؤلاء إلا مزيداً من الخسران والفشل، فغرقت كثير من الدول الإسلامية بالديون وفوائدها مما هدد أمنهم واستقرارهم، علماً أن العالم الإسلامي

---

(٤٨٢) لقمان ٣١: ٢٠ .

(٤٨٣) هود ١١: ٦.

(٤٨٤) انظر : أبوعبيد، *الاموال*، ص ٥٩٦ .

(٤٨٥) الطويل، نبيل، *الحرمان والتخلف في ديار المسلمين*، ص ١٦ .

متكامل اقتصادياً لأنه يمتلك الثروات الطبيعية والبشرية مما يؤهله أن يكون مخزوناً للغذاء إضافةً الى ما يملكونه من عقيدة مثالية.

ومع ذلك فإن أفقر دول العالم من المسلمين - كما تقول الإحصائيات الدولية - ولذلك أصبح إخراج الفكر الإقتصادي الإسلامي الى حيز التطبيق العملي ضرورة حتمية، وبذلك يقول الإقتصادي الفرنسي (جاك أوستري)[٤٨٦]: «إن طريق الإنماء الإقتصادي ليس محصوراً في المذهبين المعروفين الرأسمالي والإشتراكي، بل هناك مذهب اقتصادي ثالث راجح هو المذهب الإقتصادي الإسلامي.. ويقول: إن هذا المذهب سيسود عالم المستقبل لأنه أسلوب كامل للحياة».

---

(٤٨٦) العسال، أحمد محمد وفتحي أحمد عبد الكريم، *النظام الاقتصادي في الإسلام*، نقلاً عن دكتور محسن عبد الحميد، الإسلام والتنمية الإجتماعية، ص ١٠٧ .

الفصل الثاني

الفتن الاجتماعية والفكرية

المبحث الأول:

الفتن الاجتماعية

لمحــة

الفتن الإجتماعية كثيرة ومتشعبة ومتداخلة، لأنها تتعلق بــالنفس الإنســانية ذات التركيبــة المزدوجة، وما يستقر فيها من قيم فطرية ومكتسبة تظهر في السلوك والأخلاق.

وقبل البدء في أنواع تلك الفتن لابد مــن فهــم طبيعــة الكــائن الــذي يقــع فيهــا فــالمنظور الإسلامي للطبيعة الإنسانية: أنه كائن خلقه الله سبحانه وتعالى وفضّله على كثـير ممـن خلـق وجعل الغاية من خلقه عبادة الله سبحانه وتعالى.

كما جعل هذا الإنسان من عنصرين: جسد ، وروح تحل فيه ، كما قــال تعــالى: ﴿إِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَـرًا مِّـن طِـينٍ فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْـتُ فِيـهِ مِـن رُّوحِـي فَقَعُـوا لَـهُ سَاجِدِينَ﴾[1]، ثم ينتج من هذا الاندماج نفس بشرية متكاملة..

ويـترتب علـى الطبيعـة المادية للجسـد ميلهـا الطبيعـي لضمـان المحافظـة علـى البقــاء والإستمرار، مما يؤدي للإفراط وتجاوز الحد، وينتج عن ذلــك صفــات في النفــس إذا تُركَـتْ دون قيد فإنها تتعارض مع بقاء الإنسان في حيــاة إجتماعيــة تعاونيــة منظمــة.. فتـأتي أهميـة الطبيعة الروحية للإنسان وإرتباطه بخالقه متوازنة مع متطلبات الجسد، فتعطي للإنسان قيمتـه بمعرفة الله سبحانه وتعالى وصفاته وتصديقه رسله، والإيمان بالآخرة والجزاء والحساب[2].

ومحور الحياة الروحية هو القلب، فإذا قام بوظيفتـه بعبـادة اللـه سـبحانه وتعـالى وإيثـاره استقامت حياة الإنسان وعاش حياة طيبة مـع الآخريـن، ومآلـه لنعيـم الآخـرة ﴿مَـنْ عَمِـلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَـنِ مَـا كَـانُوا

---

(١) الحجر ١٥: ٢٩.

(٢) راجع : د. إبراهيم رجب، *التأصيل الإسلامي للعلوم الإجتماعية* ، دار علم الكتب – الرياض، سـنة ١٩٩٦ ص ٢٨٧-٢٩٠.

يَعْمَلُونَ﴾[٣]، فإذا مرض القلب فإن حياة الإنسان ستضطرب ويعيش في بـلاء وشـر ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٤]

وقد حدثنا القرآن الكريم عـن القلـوب وأمراضهـا كقولـه تعـالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[٥]، فوجوده كـأحد أوجـه الحيـاة الروحيـة، وإن لـه أمراضاً أشـد مـن أمـراض البـدن. مـع وجـود الشـيطان كعـدو للإنسـان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[٦]، يزين للإنسان عمله، يوسوس له ويخونه، فينعكس ذلـك علـى أخـلاق وسـلوك الأفراد والمجتمعات فتنشأ المشاكل الإجتماعية التي تتطور إلى فتن، عانت منها البشرية والتي من مظاهرها التفكك الاجتماعي والسلوك الانحرافي[٧].

أما السبب الأساسي للفتن الاجتماعية، فإن علماء الاجتماع -غير المسـلمين- يرجعونهـا إلى المصالح الذاتية، وأسباب مادية بحتة مـن القصـور في إشـباع الحاجـات الإنسـانية، تتبعهـا حاجات نفسية تُفْقِدُهُ التوافق الاجتماعي. وعلى رأي هؤلاء تبقى المشكلة دون حل ..

ولكن القرآن الكريم – على رأي البعض –[٨] يقرر أن سبب ذلك هو غريزة حب الذات الكامنة في الذات الإنسانية كما تدل عليها الآيات القرآنية كقوله تعـالى: ﴿إن الإنسـان خلـق هلوعـاً﴾[٩] و﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[١٠] وفي أخـرى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[١١]، وهي غريزة موجهة للسلوك تجعل الإنسان يستغل مَن حولَه لتحقيق مصلحته، ومن البديهي أن المقابل له نفس الغرائز فينشـأ الصـراع والتنـاقض ويـزداد في إطـار المفهـوم المادي للحياة، وليس أمام البشرية إلا الحل الإلهي الذي يتجه إلى المشكلة الأساس (حب الذات)

---

(٣) النحل ١٦:٩٧.

(٤) طه ٢٠: ١٢٤.

(٥) البقرة ٢: ١٠، ومثلها قوله تعالى:﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض﴾. الأحزاب ٢٢: ٣٢.

(٦) فاطر ٣٥:٦.

(٧) راجع : د . إبراهيم رجب ، *التأصيل الإسلامي للعلوم الإجتماعية*، ص ٢٩٨.

(٨) راجع التفاصيل عند: محمد عبد الجبار ، *المجتمع ، بحوث في المذهـب الاجتماعي القرآني* ، ط٢، دار الأضواء – بيروت ، سنة ، ١٩٨٧ ص ٨٥.

(٩) المعارج ٧٠: ١٩.

(١٠) إبراهيم ١٤: ٢٤.

(١١) العلق ٩٦ : ٦-٧.

ليس بإلغائها أو تجاهلها، بل حل التناقض بينها وبين المصالح الإجتماعية، وهذه هي رسالة الدين الحقيقية، بتغذية الحاجات الروحية ومن ثم انتزاع التعلق الشديد بالدنيا بإعطائها حجمها الطبيعي كدار عمل وطريق للآخرة.

وعلى هذا فحاجة الإنسان في المنظور الإسلامي تقع في شيئين(١٢):

١ - الافتقار إلى الله والحاجة لدوام الصلة به، ضماناً لإشباع الحاجات الأخرى ، فضعف الصلة بالله سبب كاف لوقوع الفرد في مشاكل اجتماعية ، لأنه يتخبط لإشباع حاجته الذاتية فيميل للجزع لفقدانها والبطر لوفرتها.

٢ - الحاجات الدنيوية مادية ونفسية (كالأمن والتقدير).. وصولاً لتحقيق الذات، فإن حرمانه أو قصور حاجته سبب - ولكنه ليس كافيا وحده - لوقوعه في الفتن الاجتماعية ، وهذا يتوقف على مدى صلته بالله..

وسأتناول أبرز الفتن الإجتماعية، والتي هي في الحقيقة مطردة في كل المجتمعات والعصور بنسب متباينة مع تطورها في الأشكال والأساليب.

أولاً - حب الدنيا

إن حب الدنيا وزخرفها حباً جماً يُعَدُّ في مقدمة الفتن الاجتماعية، بل إِنَّ كثيراً منها يعود أساساً إلى المبالغة في طلبها والتوجه إليها.. ومع حب الدنيا يضطرب سلوك الفرد والمجتمع وتنحرف معه الفطرة السوية لإختلاف الأهواء والمصالح..

ولما كانت الحياة سريعة فانية، فإن ما فيها من أسباب زينتها كذلك سريع الزوال قال تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾(١٣) والباقيات الصالحات تشمل كل قول وعمل صالح ، فهو غير زائل، وثوابه يوم القيامة، وصاحبه يؤمل فيها ما كان يرجوه في الدنيا.. «وفي الآية دليل على أن المال والبنين زينة وليسا قيمة فلا يجوز وزن الناس بهما ، وقيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات»(١٤).

وسبيل النجاة من فتنة تلك الزينة إنزالها المنزلة التي وضعها الله لها، فالإسلام لم يُحَرِّمْ

---

(١٢) راجع : د. إبراهيم رجب ، *التأصيل الإسلامي للعلوم الإجتماعية* ص ٣٠٢.

(١٣) الكهف ١٨: ٤٦.

(١٤) عبد الحميد طهماز، *العواصم من الفتن في سورة الكهف*، دار المنارة - بيروت ، ١٩٨٧ م ص ٧٨.

الزينة المباحة في حدود ما أحل الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القيامة...﴾[١٥].

فالإسلام يدعو للعمل في الدنيا وتعمير الأرض والسعي في مناكبها، والأخذ من متاعها، فَأَحَلَّ الطيبات وَحَرَّمَ الخبائث، فعلى الإنسان تحصيل ما يكفيه في الدنيا على أن يجعلها مزرعة للآخرة، كما أنها ليست بدار خديعة وغرور إلا عند الجاهل بحقيقتها ، أما العالم بها فيوجه كل عمل لوجه الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[١٦] وقال رسول الله ﷺ:«لا تزول قدما عبد حتى يُسْأَلَ: عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[١٧].

وقد يَغْتَرُّ الإنسان بالدنيا وزينتها فيحبها وينسى الآخرة فيجري لاهثاً وراءها لا يقنع، وقد يدوس على القيم والمبادئ في سبيلها، لذلك لا عجب أن ترى رب العزة قد أفاض في توجيه عباده إلى الإبتعاد عن الشهوات وعدم الإنغماس في ملذات الدنيا الفانية، والنظر في أحوالها المتقلبة، فَرُبَّ نعمة أعقبتها غصة.. فليست المخادعة إذن من قِبَلِ الدنيا ولكنها من قبل الإنسان لنفسه «فإن الدنيا أظهرت له جميع ما في طبعها من نعيم وبؤس فاغتبط الإنسان الضعيف العقل بنعيمها واعتقده دائما ونسي بؤسها وأهمله فكان لذلك المخادع نفسه والمهلك لها لا الدنيا»[١٨].

وقد ضرب القرآن الكريم الأمثلة الكثيرة بوصف الدنيا تنبيهاً من الغفلةِ الباعثةِ على الفِتَنِ، وإيقاظاً لطلابها فقال تعالى مثلاً: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[١٩] فهذا العرض السريع يناسبها للتقليل من شأنها .. فما أقصرها وما أهونها !!

---

(١٥) الأعراف ٧ : ٣٢

(١٦) الكهف ١٨ : ١١٠

(١٧) الترمذي، *السنن*، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ج ٤ ص ٣٥ ح (٢٥٣٢) وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح وذكر المنذري، *الترغيب والترهيب* ج ٥ ص ٣٧٥ وقال : رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح.

(١٨) محمد أحمد جاد المولى بك ، *الخلق الكامل*، المطبعة العثمانية المصرية سنة ١٩٢٦ م ج ٢، ص ٣٨٣.

(١٩) الكهف ١٨ : ٤٥.

قال الزمخشري: «شَبَّهَ حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفاً ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن ...»[٢٠].

كما نجد حشداً من الأحاديث النبوية في التعريف بحقيقة الدنيا وتحذيراً من الاغترار بها، قال رسول الله ﷺ:«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة»[٢١].

وقد رُوِيَ أن رسول الله ﷺ قد مرَّ على شاة ميتة فقال: «والذي نفسي بيده لَلدُّنْيَا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً شربة ماء»[٢٢].

وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك تربية للمؤمنين وللمجتمع المسلم الوليد الذي يحتاج للتضحيات من أجل رفع راية الإسلام، وفي مقدمة تلك التضحيات عدم التعلق بالدنيا وزخرفها، وفي ذلك يقول :«مالي وللدنيا ! وإنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فَقَاْلَ تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها»[٢٣]، فالناظر إلى الدنيا بهذه العين لا يركن إليها.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة وكذلك أقوال الصحابة والصالحين والشعراء[٢٤].

---

(٢٠) الزمخشري : *الكشاف* ج ٢ ص ٧٢٥

(٢١) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الرقاق باب ٢٧ ج ٧ ص ١٨٦ . مسلم، *صحيح مسلم* ، كتاب الفضائل، باب توقير النبي ﷺ ج ٢ ص ١٨٣٢ ح (٢٣٥٩) والترمذي، *سنن الترمذي* ، كتاب الزهد، باب ما جاء في قول النبي ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا» ح (٢٤٢٤) ج ٣ص ٣٨٠ - ٣٨١ وقال حديث صحيح.

(٢٢) ابن ماجة، *سنن ابن ماجة* ، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا ح (٤١١٠) ج ٢ص ١٣٧٦، والترمذي *سنن الترمذي* كتاب الزهد، باب ماجاء في هوان الدنيا على الله ح (٢٤٢٢ - ٢٤٢٣) ج ٢ص ٣٨٣ - ٣٨٤ وقال حديث حسن. وقال الهيثمي في *مجمع الزوائد*: في إسناده زكريا بن منظور وهو ضعيف وأن أصل المتن صحيح.

(٢٣) الترمذي، *سنن الترمذي* ح (٢٣٧٨) وقال حديث حسن صحيح. ابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، كتاب الزهد باب مثل الدنيا ح (٤١٠٩) ج ٢ ص ١٣٧٦، والإمام أحمد، *المسند* ، ج ١ ص ٣٩١، وصححه الحاكم، *المستدرك* ج ٤ ص ٣١٠

(٢٤) راجع: كتاب ذم الدنيا ضمن *إحياء علوم الدين* للإمام أبي حامد الغزالي، ط دار الحديث، القاهرة سنة ١٩٩٢ ج ٣ ص ٣١٢ - ٣٥٨، وكتاب: ابن أبى الدنيا، *ذم الدنيا* حيث جمع فيه فضلاً عن الأحاديث، كثيراً من الأشعار وأقوال الصالحين.

فمن الآثار قول علي ﷺ: «من جُمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن الآخرة مهرباً .... وذكر منها : وعرف الدنيا فرفضها»[٢٥]

وقال آخر :«إن مهلكات النفوس ثلاثة أجناس: الشرك والظلم والتلذذ، وأصل هذه الأجناس حب الدنيا فليتحرز المرء منها ولينظر إليها بعين الخائف والوجل، كالطائر الذي عرف الفخ المنصوب وفطن له ...»[٢٦]

ما يترتب على حب الدنيا

ينتج عن الحب الزائد للدنيا الفانية، إيثارها على الآخرة الباقية، وذلك هو موطن الفتنة، حيث التنافس، ونسيان النفس، والمخاصمات التي ينشأ عنها الحِقْدُ وَالحَسَدُ و الشُحُ والأَنَانِيَّة.. إلى غير ذلك من الأمراض النفسية والقلبية التي تجعل الإنسان في موجاتٍ من الفِتَنِ لا تنتهي ما دام مستمراً في طلبها.

والمقصود بطلب الدنيا «إرادة الشخص لها، والحرص عليها وإيثارها على الآخرة مطلقاً، وعند تزاحمها مع متطلبات الآخرة ، فرغبة مريدها فيها وتعلق قلبه بها وسعيه لها»[٢٧] وبعكسه يكون طلب الآخرة .

وقد ذَمَّ الله هؤلاء وتوعدهم فقال:﴿... **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[٢٨]، وقال عنهم رسول الله:«من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[٢٩]،وقال الزبيدي في شرحه: «لأن حب الدنيا يشغله عن تفريغ قلبه لحب ربه، ولسانه لذكره فيضر بآخرته.. ولأن حب الآخرة يعطل عليه أسباب الكسب والمعاش فيضر بدنياه ...»[٣٠].

---

(٢٥) الإمام الغزالي ، *الإحياء* ج٣ ص ٥٥٩.

(٢٦) محمد أحمد جاد المولى بك ، *الخلق الكامل*، ج ٣ ص ٣٨٣.

(٢٧) عبد الكريم زيدان، *السنن الإلهية*، ص ٢٥٣.

(٢٨) البقرة ٢ : ٨٦.

(٢٩) الإمام أحمد، *مسند أحمد* ج ٤ ص ٤١٢. الحاكم ا*المستدرك على الصحيحين* بذيله التلخيص للحافظ الذهبي، دار المعرفة – بيروت (د.ت) ج ٤ ص ٣٠٨، وصححه على شرط الشيخين. الهيثمي، *مجمع الزوائد* ج ١٠ ص ٢٤٩ وقال : رجاله ثقات.

(٣٠) الزبيدي، العلامة مجمد بن الحسين الزبيدي، *إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين*، دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٩٨٩، ج ٩ ص ٥٣٩.

وطلاب الدنيا طوائف كثيرة[٣١]، بحسب نسبة تعلق القلب بالدنيا، إلى أن يصل صنف - والعياذ بالله - قلبه كالعبد للدنيا، فيدخل في قلبه كل الصفات المتعلقة بها.. وقد تخوّف رسول الله ﷺ على أمته من ذلك فحذرهم، فقد روى أنه قال لهم بعد أن جاءه أبو عبيدة بمال من البحرين: «أبشروا وأمّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»[٣٢]

وفي حديث آخر قال: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرجه الله لكم من بركات الأرض فقيل: ما بركات الأرض؟ قال: زهرة الدنيا»[٣٣]

ولهذا كان الصحابة والصالحون من بعدهم قلوبهم وجلة من انفتاح الدنيا عليهم ، حتى قال بعضهم :

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا	ولا أراهم رضوا بالعيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما	ستغنى الملوك بدنياهم عن الدين[٣٤]

وقيل لإبراهيم بن أدهم - مع ما عرف عنه من الزهد - كيف أنت ؟ فقال :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا	فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه	وجاد بدنياه لما يتوقع[٣٥]

والمتعلق بالدنيا كذلك يكون تصرفه تبعاً لهواه بدل الانقياد للشرع، غافلاً أنها دار ابتلاء،

---

(٣١) راجع تفاصيل تلك الطوائف في : الإمام الغزالي، *إحياء علوم الدين* ج ٢ ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٣٢) البخاري، *صحيح البخاري* - كتاب الرقاق، باب ٧ ج ٧ ص ١٧٢ - ١٧٣، ومسلم: *صحيح مسلم*، كتاب الزهد والرقائق، باب ٥٣ ح (٢٩٦) ج ٣ ص ٢٢٧٤.

(٣٣) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الرقاق ، باب ٧ ح ٧ ص ١٧٣ . مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الزكاة باب باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا ح(١٠٥) ج ١ ص ٧٢٧ - ٧٢٩.

(٣٤) *ديوان الإمام عبد الله بن المبارك*،تحقيق:د.مجاهد مصطفى بهجت ط٣،دار الوفاء ،القاهرة ١٩٩٢م، ق ٤٥،ص ٦٩.

(٣٥) الجاحظ، *البيان والتبيين* ج ١ ص ٦٠ ونسب لابن المبارك ، *ديوان الإمام عبد الله بن المبارك* ق١٩٠ص ٨٤.

وقد مدح الله من جاهد هواه فقال: ﴿.. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[36] وقد جمع الله ما تهفو إليه النفس في خمسة أمور فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[37] وحب الدنيا كذلك يشغل المسلمين عن القيام بواجبهم عن الدعوة ونشر الإسلام، والتقاعس عن الجهاد كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ...﴾[38].

وسنة الله فيمن أراد الدنيا أن الله سبحانه وتعالى يعطيهم ما قسم لهم وليس ما يريدونه ويحرصون عليه[39]، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[40].وفي أخرى:﴿ من كان يريد الدنيا نؤته منها ...﴾ [41] فهاتان الآيتان مفيدتان بمشيئة الله سبحانه وتعالى كما قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[42]،كما يوفيهم الله سبحانه وتعالى أجور أعمالهم في الدنيا دون الآخرة ،قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[43]، قال بعض المفسرين إنها مختصة بالكفار، وقيل في الكافر والمؤمن الذي يعمل الخير رياء وسمعة والله سبحانه وتعالى أعلم[44].

أما من طلب الآخرة فسعيه مشكور .. وَيُضَاعَفُ له الأجر ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ...﴾[45]، وفوق ذلك فمن الممكن الجمع بين الدنيا والآخرة، فالله سبحانه

---

(٣٦) النازعات ٧٩ : ٤٠- ٤١.

(٣٧) آل عمران ٣ : ١٤.

(٣٨) التوبة ٩ : ٣٨.

(٣٩) راجع: عبد الكريم زيدان، *السنن الإلهية* ، ص ٢٥٣.

(٤٠) الشورى ٤٢ : ٢٠.

(٤١) آل عمران ٣ : ١٤٥.

(٤٢) الإسراء ١٧ : ١٨، وراجع تفسيرها في مختصر *تفسير ابن كثير* ج ٢ ص ٣٧١.

(٤٣) هود ١١ : ١٥ - ١٦.

(٤٤) راجع: القرطبي : *تفسير آيات الأحكام* ج ٩ ص ١٣.

(٤٥) الشورى ٤٢ : ٢٠.

وتعالى أرشدنا إلى ذلك ومدح فاعله وَذَمَّ من قَصُرَ هَمُّهُ على الدنيا فقط[٤٦] فقال:﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الأَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ۞وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ۞أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٤٧].

ويتأتى ذلك بأن يحصل الإنسان على ما يريد في الدنيا بالوسائل المشروعة .. ويؤدي حق ما أعطاه الله سبحانه وتعالى حسب الشرع، باتباع تعاليمه ومنهج الأنبياء والأتقياء «أنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أحدهم بين ذلك قواما، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى...»[٤٨] ولا يحصل ذلك إلا لمن وضع تعاليم الشرع نصب عينيه، واتقى الغفلة ووازن بين متطلبات الحياة وجعل ذلك إبتغاء الآخرة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الأَخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[٤٩].

ومن أهم مظاهر حب الدنيا:

(١) **فتنة الأموال**: أثبتت النصوص أن الأموال فتنة دنيوية وقد سبق الكلام عنها في المبحث السابق ضمن الفتن الاقتصادية.

(٢) **فتنة الأولاد**: لا شك أن في الأولاد فتنة، كما أثبتت النصوص، وتكون هذه الفتنة في حالتين:

الأولى – عند الحرمان منهم بسبب العقم أو غيره، فتكون فتنة في الشر، لأن الأولاد من زينة الدنيا المحببة للنفوس، والحرمان منها يقتضي الصبر والاحتساب وإلا أصاب النفوس العنت، وأوقعها في فتنة الجزع والحسد والحقد وغير ذلك..

الثانية – في حالة وجود الأولاد تكون فتنتهم في الخير، والله تعالى عالم بمواطن الضعف في الإنسان، ويعلم أن الحرص على الأولاد من أعمق تلك المواطن، ويكون الامتحان فيهم من وجوه:–

---

(٤٦) راجع: د. عبد الكريم زيدان: *السنن الإلهية* ص ٢٥٧.

(٤٧) البقرة ٢ : ٢٠٠ – ٢٠٢.

(٤٨) راجع : الإمام الغزالي، *إحياء علوم الدين*، ج ٣ ص ٣٥٨.

(٤٩) القصص ٢٨ : ٧٧.

أ - عدم أداء حق الله سبحانه وتعالى وشكره على نعمة الأولاد، قال تعالى:﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٥٠]، فقد قرن الأولاد بالمال وكلاهما ابتلاء وامتحان من الله سبحانه وتعالى، فمن أطاع الله سبحانه وتعالى فيهما وشكر فقد فاز ومن شُغِلَ بهما فقد خسر، قال ابن كثير: «أي إختبار وإمتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه»[٥١].

وقد ورد في التفاسير أن هذه الآية متعلقة بما قبلها، وهي التي نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الذي خان الأمانة وأفشى السر ليهود بني قريظة، وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم فندم .. فنزلت الآية لتعلمهم أن الأمانة مع الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ فوق كل شيء، حتى ولو كان المال والولد ، فقال الزمخشري فيها : «جعل الأموال والأولاد فتنة لأنهم سبب الوقوع في الفتنة، أو محنة من الله سبحانه وتعالى ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده»[٥٢]،فالأمانة تقتضي الإستعلاء على فتنة الأولاد، والتطلع إلى ما عند الله، ويدخل في ذلك إيثار محبة الله سبحانه وتعالى ورسوله على محبتهم كما قال ﷺ :«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، و ... ...»[٥٣].

ب - الانشغال بهم عن الطاعات والقربات من العمل الصالح وذكر الله سبحانه وتعالى.. بل وربما الإنشغال بهم عن أداء الفروض الموجب تركها الإثم والعقوبة كالجهاد.

والفتنة في هذا الجانب كبيرة كما أشار النص السابق ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ حيث يعالج القرآن الكريم ذلك مُحَذِّراً من الضعف عن اجتياز الامتحان .. يقول المرحوم سيد قطب :« إنه سبحانه هو الذي وهب الأموال والأولاد وعنده وراءهما أجرٌ عظيم لمن يستعلي على فتنة الأموال والأولاد»، فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمانة وتضحيات الجهاد ، وهذا هو العون والمدد للإنسان الضعيف الذي يَعْلَمُ خَالِقَهُ مواطن الضعف فيه ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾[٥٤].

---

(٥٠) الأنفال ٧ : ٢٨.

(٥١) ابن كثير ، *مختصر تفسير ابن كثير* ج ٢ ص ٩٨.

(٥٢) الزمخشري، *الكشاف* ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٥٣) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الإيمان باب ٩ ج ١ ص ٩ - ١٠.

(٥٤) سيد قطب : *الظلال* م٣ ، ج ٩ ص ١٤٩٨ والآية : النساء ٤ : ٢٨.

كما نبه على عدم الإنشغال بهم عن ذكر الله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾(٥٥)،وقد شَدَّدَ في التحذير منهم حتى جعلهم كالأعداء إذا صدوا عن مسألة خطيرة تتعلق بمصالح الأمة حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٥٦)

وقد سأل رجل ابن عباس عن الآية فقال: «فهؤلاء الرجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ﴿وإن تعفوا..﴾(٥٧) والنص عام والآيتان تشيران إلى أن الأولاد قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان ، كما تدل على العداوة المستترة في بعض الأبناء والأزواج.. وقال الزمخشري: «إن من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ويجلبن عليهم، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى فاحذروهم لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عداء ، فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم ...»(٥٨) وهي عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد.

وقد رُوِيَ أنه: «كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين فحملهما، فوضعهم بين يديه ، ثم قال: «صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة، نظرت إلى هذه الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»(٥٩).

---

(٥٥) المنافقون ٦٣ : ٩.

(٥٦) التغابن ٦٤ : ١٤ - ١٥ .

(٥٧) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير* ج ٣ ص ٥١٠.

(٥٨) الزمخشري ، *الكشاف* ، ج ٤ ص ٥٥٠

(٥٩) المصدر السابق، والقرطبي ، *الجامع لأحكام القرآن* ج ١٨، ص ١٣٣، الترمذي، *السنن* كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين ح (٣٨٦٣) ج ٥ ص ٣٢٣ - ٣٢٤، وقال: هذا حديث حسن غريب. أبو داود،*السنن*، كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة لأمر يحدث ح (١١٠٩) ج١، ص ٦٦٢ - ٦٦٤ . والنسائي : *سنن النسائي* ، كتاب الجمعة ، باب نزول الإمام من المنبر ح (١٤١١) ح ٣ ص ١٠٨، والإمام أحمد،المسند ح ٥ ، ص ٣٥٤. وابن ماجة ،السنن، كتاب اللباس باب (٢٠) لبس الأحمر للرجال ح (٣٦٠٠) وإسناده صحيح .

جـ - ومن مواطن الفتنة التنافس والتكاثر بهم للتفاخر والزينة ، قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[٦٠]، وجاءت آيات كثيرة تعيب على الذين يتباهون بكثرة الأولاد وخصوصا البنين منهم، لأنهم سوف يأتون يوم القيامة فُرَادَى ولن تنفعهم أولادهم بل هي أعمالهم كما قال تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾[٦١].

د - ومن فتنة الأولاد التقصير في تربيتهم وتوجيههم ونصحهم ، وقد نَبَّهَ القرآن الكريم إلى ذلك فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[٦٢].

ويتضمن ذلك عدم المساواة بينهم في العطاء وقد أمر الرسول ﷺ بذلك فقال : «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»[٦٣].

ومن ذلك تفضيل البنين على البنات وعدم المساواة بينهم في المحبة والعطاء والتربية، وقد عدَّ الإسلام ذلك من الجاهلية ، قال تعالى:﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٦٤]، فَحَثَّ الرسول ﷺ على رعايتهن وجعلها سبباً لدخول الجنة، ومع ذلك فإن هذه الفتنة لازال يقع فيها الكثير حتى ممن يدعى الثقافة، والعلم الشرعي!!

ومنها القسوة في معاملة الأولاد، وقد حَثَّ الرسول ﷺ على الرِّفْقِ معهم وخفض الجناح والملاطفة، وكان ﷺ قدوة في ذلك، ولنا في وصايا لقمان الحكيم لابنه التي قصها القرآن الكريم نموذجاً للتربية الصالحة.

(٣) **فتنة النساء**: تنظر الشريعة نظرة تكريم للمرأة ، لمساواتها للرجل في الطبيعة الإنسانية والتكليف والجزاء ، إلا بعض الاختلافات في الوظائف التي اقتضتها طبيعة المرأة..

وهي للرجل من متاع الدنيا وزينتها، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ

---

(٦٠) التكاثر ١٠٢ : ١-٢.

(٦١) آل عمران ٣ : ١٠.

(٦٢) التحريم ٦٦ :٦ .

(٦٣) انظر نص الحديث في : مسلم: صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب (٢) ج ٢، ص ١٢٤٢، ح (١٦٢). الإمام مالك: *الموطأ*-كتاب الأقضية، باب ما لا يجوز من النَّحَلِ ح (٣٩)،ج ٢ ص ٧٥١ - ٧٥٢. أبي داود: *سنن أبي داود*، ح (٣٠٤٢ - ٣٥٤٢)، ج ٣ ص ٨١١ ، ٨١٣ ، ٨١٥.

(٦٤) النحل ١٦ : ٥٨.

وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ...﴾[٦٥]، فإذا كانت المرأة صالحة كانت خير متاعها، وإلا فلا، كما قال رسول الله ﷺ: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»[٦٦] كما قال عن نفسه: «حُبِّبَ إلي من دنياكم النساء والطِّيبُ وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٦٧].

ومن جانب آخر نجد أحاديث تحذر من فتنة النساء كقول الرسول ﷺ:«إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل في النساء»[٦٨]

وفي حديث آخر: «فما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[٦٩].

وهذه الأحاديث تنبيه للأمة للاهتمام بتربية البنات تربية صالحة ، وبيان خطورة المرأة إذا تنكبت عن شرع الله سبحانه وتعالى ، فما صلحت أمة إلا إذا كانت نساؤها منضبطات بشرع الله سبحانه وتعالى، وما فسدت أمة إلا إذا كانت نساؤها فتنة بالغة ، وذلك لأنها نصف المجتمع وتلد وتربي النصف الآخر.

وَتَتَجَلَّى فتنة النساء في المظاهر الآتية:-

١ - كَيْدُ النساء: وإليه يرجع بقية أسباب فتنة النساء ، لما في طبيعة المرأة وفطرتها من الكيد الذي تستعمل فيه وسائل التأثير على الغير، وقد وصفها بذلك القرآن الكريم فقال:﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[٧٠].وقال سيد قطب في تفسير الآية «فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها: إن كيدكن عظيم ! فهو دلالة في حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم»[٧١]هذا علماً أن هذه الصفة في الجنسين إلا أنها في النساء أظهر

---

(٦٥) آل عمران ٣ : ١٤.

(٦٦) مسلم، *الصحيح*، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، م ٢ ص ١٠٩٠ ح (١٤٦٦).

(٦٧) الإمام أحمد، المسند، ج ٣ ص ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥، عن أنس، والنسائي، *سنن النسائي*، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء ج ٧،ص ٦١، ح (٣٩٣٧).

(٦٨) مسلم ،*الصحيح* ، كتاب الذكر والدعاء (كتاب الرقاق)، باب أكثر أهل الجنة .. وبيان الفتنة بالنساء ٢٠٩٨/٣ح (٢٧٤٥).

(٦٩) سبق تخريجه في المدخل لمفهوم السنن الإلهية.

(٧٠) يوسف ١٢ : ٢٨.

(٧١) سيد قطب، *في ظلال القرآن* م٤ ج ١٢ ص ١٩٨٢.

«وإنما استعظم كيد النساء لأنه وإن كان في الرجال، إلا إن النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة، ولهن في ذلك نيقة ورفق، وبذلك يغلبن الرجال»[٧٢]، وهي بذلك تُحَرِّفُ الحقيقة وتثير الفتنة.وعلى هذا يُفْهَمُ قول سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى:«ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء...وما شيء أخوف عندي من النساء»[٧٣].

٢ - **حب المرأة للمظاهر والنعيم**: إن الطبيعة الإنسانية تميل إلى الدعة والرفاه ، والنساء بطبيعتهن أكثر ميلاً لهذا من الرجال ، لما في نفوسهن من رقة ونعومة وحب للمظاهر.. ولم تسلم من ذلك حتى نساء النبي ﷺ حين رأين - بعد النصر - النعمة والغنائم، مالت نفوسهن إلى الدنيا وطلبن السعة في النفقة، فخيرهن الله سبحانه وتعالى بين متاع الدنيا وبين الله ورسوله ﷺ، فاخترن الأخيرة ، وإن كان طلبهن من المباحات إلا أنهن لسن كأحد من النساء بل قدوة لغيرهن...

والميل المفرط من جانب المرأة لذلك قد يوقع الرجل الضعيف في فتنة الكسب الحرام أو المشبوه لإرضاء تطلع المرأة، أو يكون حازماً فإما الفراق وإما المعاناة، «وقد يكون سبب الإعراض عن الزواج اتساع رغبات النساء في صنوف الملابس والمآكل والفرش...»[٧٤]، وهذه فتنة أخرى.

٣ - **الاختلاط والتبرج**: إن من دواعي الفتنة خروج المرأة وإختلاطها بالرجال دون الحاجة الضرورية لذلك، فالإسلام لم يحرم خروج المرأة وعملها، ولكن إذا تحقق لها ذلك من غير إختلاط فهذا أفضل، وإذا اضطرت للعمل أو طلب العلم أجاز لها الشرع ذلك بشرط تحقق الحشمة والوقار بارتداء الحجاب، ففيه جمال الروح والعفة والحياء التي أرادها الإسلام، كما نهى عن كل دواعي الفتنة والإثارة ، كإبداء الزينة لغير الزوج والمحارم، كما نهى عن التبرج فقال:﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾[٧٥]، وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقاً، إنما هي إيماءة لطيفة إلى أن

---

(٧٢) الزمخشري، *الكشاف* ج ٢ ص ٤٦١ن و (نيقة) اسم للتأنق في الأمر، أي عمله بنيقة. راجع ترتيب مختصر الصحاح ص ٥٢.

(٧٣) الغزالي، الإحياء،ج٣ص١٠٤ ،ط دار الندوة ،لبنان .

(٧٤) محمد الخضر حسين ، *رسائل الإصلاح* ، دار الإصلاح، السعودية - الدمام سنة ١٩٧٧، ج ١، ص ١٧٦.

(٧٥) الأحزاب ٣٣ : ٣٣.

يكون ... وما عداه استثناء[٧٦].

وكل ما ورد في تفسير تبرج الجاهليات هي أنها كانت تمشي بين الرجال، أو تمشي مشية تكسر، أو عدم شد الخمار ..[٧٧] وكل ذلك لا يقاس بما تفعله نساء اليوم !!كما نهى الاسلامُ المرأةَ عن كل ما يثير انتباه الرجال ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾[٧٨] ودواعي ذلك قلة الحياء لضعف الإيمان أو عدمه، وهو من علامات الساعة التي أشار إليها الرسول ﷺ.

٤ - **الخضوع بالقول**: من الأخطاء الشائعة أن صوت المرأة عورة ! وليس لهذا القول أصل في الدين [٧٩] فقد كانت الصحابيات يأتين رسول الله ﷺ ليتفقهن في الدين، ويراجعنه في مسألة ما، وفي نزول سورة المجادلة شاهد على ذلك، كما كان النبي ﷺ يمتحن المهاجرات ويبايعهن بالقول، وفي قصص الأنبياء ما يدل على ذلك فقد جاءت بنت شعيب لتقول لموسى (عليه السلام): ﴿ إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾[٨٠].

فالمَحْذُوْرُ هو الخضوع في القول ، قال تعالى: ﴿فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾[٨١]. وهو الكلام اللين الرقيق.. قال ابن كثير: «ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها»[٨٢]

والخالق سبحانه وتعالى يعلم ما يؤججه القول الرقيق الناعم في القلوب المريضة لذلك «ينهاهن حين يخاطبن الأغراب أن يكون في نبراتهن ذلك الخضوع اللين الذي يثير شهوات الرجال ويحرك غرائزهم ويطمع مرضى القلوب ...»[٨٣]، ولذلك عقب تعالى فقال ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾أي أن يكون حديثهن في أمور معروفة غير منكرة، فموضوع الحديث قد يطمع قبل لهجته، فيدخل في ذلك الهزل والهذر والضحك والدعابة والمزاح والغناء ...

---

(٧٦) سيد قطب، *في ظلال القرآن* ، ج ٢٢، ص ٢٨٥٩.

(٧٧) راجع التفاسير ومنها : سيد قطب ، *الظلال* ، ج ٢٢، ص ٢٨٥٩.

(٧٨) النور ٢٤ : ٣١.

(٧٩) راجع : الشيخ محمد الغزالي، *الحق المر*، دار الشروق، القاهرة، ط٣، سنة ١٩٩٣، ص ١٢٨.

(٨٠) القصص ٢٨ : ٢٥.

(٨١) الأحزاب ٣٣ : ٣٢.

(٨٢) ابن كثير ، *مختصر تفسير ابن كثير*، ج ٣، ص ٩٣.

(٨٣) سيد قطب ، *في ظلال القرآن* م ٥ ، ص ٢٨٥٩.

٥ - **تَسلُّطُ النساء على الرجال**[٨٤]: وهي أن تنقلب الموازين فتصبح الكلمة للمرأة دون الرجل، وهو خلاف الفطرة والشرع ، قال تعالى :﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[٨٥]، وَتُعَدُّ قوامة المرأة مع وجود الرجل خروجاً عن المألوف، ويذلك يقول سيد قطب «المنهج الرباني يراعي هذا ويراعي به الفطرة والإستعدادات الموهوبة لشطري النفس لأداء الوظائف المنوطة بكل منهما وفق هذه الإستعدادات»[٨٦]، ويظهر تَسَلُّطُ النساء على الرجال في مجالين :-

أ - **في مجال الأسرة والأمور الخاصة**: وهو خلاف قوامة الرجل ، وقطعاً لذلك نبَّهَ الإسلام على عدم إغترار الرجل بجمال المرأة لأنه من دواعي فتنته وَتَسَلُّطِهَا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع ، لمالها ، ولحسبها، ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[٨٧]، كما نَبَّهَ على المرأة السيئة المخبر فقال: «إياكم وخضراء الدمن»[٨٨].

وإذا تحققت سيطرة المرأة فقد تنفرد بالأمر وخصوصاً تربية الأبناء وتوجيههم فيحصل الخلل في ذلك، كما أنها قد تفسد علاقته بالآخرين وأقرب الناس إليه فتوصله إلى قطيعة الرحم وعقوق الوالدين، وهي فتنة تعاني منها أغلب المجتمعات اليوم كما تنبأ رسول الله ﷺ في حديثه الطويل عن أشراط الساعة فقال: «ومن اقتراب الساعة.. وأطاع الرجل امرأته، وعق أمه، وقرب صديقه وأقصى أباه ...»[٨٩].

ب - في مجال السياسة

لم يمنع الإسلام مشاركة المرأة في الأمور السياسية، بدليل مشاركتها في مبايعة الرسول ﷺ

---

(٨٤) وفي تراثنا الإسلامي من ألف كتابا بعنوان *«إبتلاء الأخيار بالنساء الأشرار»* جمع فيه أخبار فتن الرجال ومحنهم مع نماذج من النساء.

(٨٥) النساء ٤ : ٣٤

(٨٦) سيد قطب ،*في ظلال القرآن*،م٢ص٦٥٠-٦٥١

(٨٧) البخاري ، *صحيح البخاري* ، كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين ، ج ٦ ، ص ١٢٣

(٨٨) ذكره الغزالي *في الإحياء* ج ٢ ص ٣٨، وذكره الألباني *في سلسلة الأحاديث الضعيفة* ح (١٤)ج١، ص ٦٩، وقال: ضعيف جداً، ورواه القضاعي في *مسند الشهاب* وابن الملقن في خلاصة البدر المنير وحكم عليه الكوثري بأنه موضوع.

(٨٩) أبو عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف،ح(٢٢١٠) ج٤، ص٤٩٤.

في العقبة وما بعدها ... ولكن ليس هذا المقصود بل أريد تأثير المرأة على الرجل الذي يتولى الأمر في قرارات خطيرة تتعلق بأمور المسلمين .. وقد حدثنا التاريخ كيف أثرت النساء في هذا المجال فمثلا: فقد استطاعت زوجة هولاكو النصرانية توجيه شر المغول وصرفه إلى ديار الإسلام والفتك بالمسلمين وإظهار عطفٍ شديدٍ للمسيحية والنساطرة بوجهٍ خاص حتى اعتنق كثير من جند المغول المسيحية [٩٠]، كما حدثنا التاريخ عن زوجة الملك أبي الحسن ملك غرناطة النصرانية التي كانت من أسباب سقوط غرناطة [٩١]، وكيف تدخلت النساء بشكل واضح في عصر المماليك بمصر [٩٢] ... وعن زوجة السلطان سليمان القانوني اليهودية المملوكة التي دبرت مؤامرات بالخفاء لقتل ابن سيدها الكبير مصطفى ليتولى ابنها سليم الأول الحكم [٩٣].

ولهذا فإن تسلط المرأة فيه ما فيه من الفتنة التي حَذَّرَ منها الرسول ﷺ فقال: «. . وإذا كان أمراؤكم شراركم ... وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها» [٩٤]

٦ - تكليف المرأة بأعمال لا تناسبها وتشبهها بالرجال

وهي الأعمال التي تقتضي وجود المرأة المستمر بين الرجال، أو البحث معهم في أمور تقتضي الخلوة المحرمة شرعاً، أو ممارستها لأعمال لا تتناسب مع أنوثتها، لأن الإسلام كفل لها حياة كريمة وأوجب لها النفقة على والدها أو زوجها وإلا فمن مال الدولة ...

---

(٩٠) راجع: توماس أرنولد ، *الدعوة إلى الإسلام*، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، سنة ٩٧، ص٢٥٢-٢٥٣.

(٩١) راجع أسعد حومد، *محنة العرب في الاندلس* وانظر فيه ما فعلته زوجة أبي الحسن النصرانية ضد أبنه ابو عبد الله الصغير وأمه عائشة فأدى الى فتنة بين الأب وابنه زادت من تدهور أوضاع الأندلس، مع تنصر ابنه (يحيى النير) من زوجته الإسبانية ص١٢٩-١٣٠،١٤٢.

(٩٢) راجع: عمر كحالة، *أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام* ، ط٤، مؤسسة الرسالة، ١٩٨، ج، ص ٢٦٦ - ٢٩٠ . قامت به شجرة الدر زوجة الملك الصالح.

(٩٣) راجع : على حسون ، *تاريخ الدولة العثمانية* ، ط٣، المكتب الإسلامي - بيروت ، سنة ١٩٩٤، ص ١١١ - ١١٢، ٣٩.

(٩٤) راجع : الترمذي ، *السنن* ،كتاب الفتن باب ٧٨ ح (٢٢٦٦)، ج٤، ص ٥٢٩وقال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلامن حديث صالح المري وفي حديثه غرائب ينفرد بها لايتابع عليها وهو رجل صالح.

كما أراد الإسلام أن تكون للمرأة طبيعتها المتميزة ، وأن يكون مظهرها مطابقاً لتلك الطبيعة ، فنهى الرجال والنساء من تشبه أحدهما بالآخر سواء في الملبس أو الكلام أو الحركة أو غير ذلك ...[٩٥]

فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: «لَعَنَ رسولُ الله ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، وَلَعَنَ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»[٩٦]، وفي آخر: «لَعَنَ رسولُ الله الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل»[٩٧]وقد فصل العلماء في شروط حجاب المرأة بأن يكون فضفاضاً، لا يصف، ولا يشف، ولا يكون زينة بذاته .

ثانياً - الأمراض القلبية (النفسية)

أثبت القرآن الكريم أن للقلوب أمراضاً هي أشدُّ من أمراض الجسد ، قال تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**...﴾[٩٨]، وسأتناول أبرز هذه الأمراض التي تسبب الفتن الإجتماعية للمسلمين .

١ - **غلظة القلوب: الغلظة:** هي الشدة والصعوبة في الخلق والطبع والقول والفعل، وهي ضد الرفق، وغليظ القلب: قاسيه، وهو الذي لا يتأثر قلبه بشيء فلا يرق لأحد ولا يرحم[٩٩]. وقد أُمر الرسول ﷺ بالرفق والتواضع في قوله تعالى:﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[١٠٠]، وهو مطلوب لمن هو في مقام القدوة، وإلا فلا يشفع له إتصافه بأوصاف أخرى .

---

(٩٥) سيد سابق ، *إسلامنا* ، ص ٣٥.

(٩٦) البخاري ، *الصحيح* ، كتاب اللباس ، باب المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال ، ج ٧ ص ٥٥، وباب إخراج المتشبهين من النساء من البيوت ، ح ٧ ص ٥٥ ، وأبو داود ، *السنن* ، كتاب الأدب، باب الحكم في المخنثين ، ج ٥،ص ٢٢٦، ح (٤٩٣٠). والإمام أحمد ، *المسند*، ح ١ ص٢٢٥، ٢٢٦ عن ابن عباس.

(٩٧) أبو داود، سنن *أبي داود* ، كتاب اللباس ، باب ٢٨، ح (٤٠٩٨) ج ٤ ، ص ٣٥٥ ، والإمام أحمد ح ٢ ص ٣٢٥ ، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم.

(٩٨) البقرة ٢ : ١٠، وراجع : الأحزاب ٣٣ : ٣٢.

(٩٩) راجع، عبد الكريم زيدان، *السنن الإلهية* ص ٢٨٢.

(١٠٠) الشعراء ٢٦ : ٢١٥.

وتظهر غلظة القلوب في القسوة والفظاظة مع أقرب الناس كالوالدين والأولاد والزوجة مما يسبب سَخَطَ اللهِ.. «ومظهر القسوة في سلوكهم الاعتداد بالشخصية حتى لا يعرف التواضع، والميل إلى إتهام الغير حتى لا يقبل العذر، والفرح بافتضاح المخطئين حتى يمتلئ بالشماتة»(١٠١).

والفتنة في ذلك أن الناس ينفرون من الفظ الغليظ القلب حتى ولو كان ناصحاً، ولذلك عَصَمَ اللهُ سبحانه وتعالى الأنبياءَ من هذه الصفة فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(١٠٢).

٢ - الحِقْدُ وَالحَسَدُ: الحِقْدُ :«هو طلب الانتقام وتحقيقه، إن الغضب إذا لزم كظمه لِعَجْزٍ عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن وصار حِقدَاً»(١٠٣). فالحِقْدُ إذاً غضب مخبوء في أعماق القلب إذا انفجر خَرَّبَ وَدَمَّرَ، وهو ليس من خُلُقِ المؤمن، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن ليس بحقود»(١٠٤).

والحَسَدُ: كراهة النعمة وحب زوالها عن المُنْعَمِ عليه(١٠٥)، أو هو حالٌ في النفس تثيرها آلاء الله سبحانه وتعالى في عباده وحباؤه لمن اصطفى من خلقه، ولا تستقر حتى تزول تلك النعم(١٠٦)والحِقْدُ والحَسَدُ مرضان قديمان، وأوله حِقْدُ إبليس على آدم عليه السلام ... ولم تهدأ ثائرة حَسَدِهِ بإخراج آدم وزوجه من الجنة، فطلب أن يتبعهما وذريتهما في الدنيا ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(١٠٧)، كما أن الحِقْدَ والحَسَدَ السبب في أول خطيئة وقعت في الأرض بقتل قابيل لهابيل ثم صار مرضاً في البشرية ..

وآثار الحَسَدِ سيئة على الفرد والمجتمع، إذا خالط قلباً عجز عن ضبطه وكتمانه حتى يغلب على من اتصف بالدهاء فتظهر في كلامه وفلتات لسانه وأسارير وجهه، كما أنه مضر

---

(١٠١) الشيخ الغزالي، *دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين* ، ط٣، دار الوفاء - المنصورة، سنة ١٩٩٢، ص ١٧٠.

(١٠٢) آل عمران ٢ : ١٥٩.

(١٠٣) الجرجاني، *التعريفات*، ص ١٢١.

(١٠٤) محمد أحمد جاد المولى ، *الخلق الكامل*، ج ٤، ص ٤٢٧، وراجع العجلوني في *كشف الخفا* ج٢،ص٤٠٥.

(١٠٥) الإمام أبو حامد الغزالي ، *إحياء علوم الدين* ، ج ٣ ص ٢٩٥.

(١٠٦) محمد أحمد جاد المولى بك ، *الخلق الكامل* ، ج ٤ ص ٤١٩.

(١٠٧) الإسراء ١٧ : ٦٢ .

بالجسد والنفس، وقد يفضي بصاحبه إلى التلف، قال معاوية بن أبي سفيان :«ليس في خصال الشر أعدل من الحَسَدِ ، يقتل الحَاسِدَ قبل أن يصل إلى المَحْسُودِ» [108]، وإذا عُرِفَ في شخص نَفَرَ الناس منه.

يثمر الحِقْدُ والحَسَدُ الشماتة وهجران المَحْسُودِ، واستصغاره، وغيبته، ومنعه حقه إذا قدر على ذلك، كما يحملان على القسوة، ولو لأقرب الناس، ويفسد الأخلاق، وقد يجر صاحبه لفعل المنكر، مثل المكابرة في الحق، والتحريش بين الناس، ولا يكون أمينا ولا ناصحاً إذا استشير. والأكثر من ذلك سَخَطُ اللهِ سبحانه وتعالى لأنه يدل على عدم الرضا بما قدر الله سبحانه وتعالى، وبذلك قال رسول الله ﷺ: «إن الحَسَدَ يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[109]

وقد يكونان السبب في إثارة الفتن في المجتمعات، وبذلك يقول ﷺ:«دُبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم، الحسد والبغضاء، هي الحالقة ، حالقة الدين، لا حالقة الشعر»[110]، وذلك لأنه سبب الجفوة والقطيعة بين الناس، كما يكون شَرُّهُ على مستوى الأمم .. وما يلقاه المسلمون من غيرهم ليس إلا بسبب حِقْدِهِمْ وَحَسَدِهِمْ على الإسلام وأهله على مر التاريخ.

٣ – **الكِبْر والعُجب**: هما داءان مهلكان يظهر أثرهما في أعمال تصدر وتسيء للآخرين، ولذلك فقد ذَمَّ الله الكِبَرَ والمُتَكَبِّرَ بأنه مصروف عن الحق فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[111].كما نهت عنه أحاديث كثيرة لأنه من الصفات الخاصة بالله سبحانه وتعالى، فقال رسول الله ﷺ :«يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدة فيهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»[112].

والتكبر درجات أعلاها وأهلكها التكبر على الله سبحانه وتعالى بدافع الجهل والطغيان مثل فرعون، ثم التكبر على الرسل وعدم طاعتهم، ثم التكبر على العباد بأن يُعَظِّمَ نفسه ويستحقر غيره.

كما أن العُجْبَ مذموم، قال تعالى :﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ

---

(١٠٨) محمد احمد جاد المولى، المصدر السابق .

(١٠٩) ابن ماجة ، سننه ، كتاب الزهد باب الحسد ، ج ٢ ص ١٤٠٨،ح (٤٢١٠) أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في الحسد ح(٤٩٠٣) ج ٥ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(١١٠) الإمام أحمد ،*المسند* ، ج ١ ص ١٦٧.

(١١١) الأعراف ٧ : ١٢٦.

(١١٢) مسلم، *الصحيح*، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، ح(٢٦٢٠)، ج٤ ص٢٠٤٣.

شَيْئًا﴾[113] وقد يُعْجَبُ الإنسان بنفسه وهو مخطئ، لذلك قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[114]، وقد يكون العُجْبُ بالنفس، وبالمال، وبالأتباع والأولاد والعشيرة، وبالقوة، وبالنسب، وبالرأي والعلم –وقيل: آفة العلم الخيلاء– وبالعمل والعبادة .

والكِبَرُ والعُجْبُ يورث بعضهما البعض ، فتظهر آفة الكِبَرِ في إعجاب المرء بنفسه وتعاليه ، كما أن العُجْبَ يورث التكبر ويؤدي إلى الطغيان والتجبر، وكلاهما يسبب الخِصَامَ والحَسَدَ والبَغْضَاء لأن العُجْبَ يظهر في التفاخر، واستجهال الناس ، والاستبداد بالرأي والسفه عليهم[115]، ومن ثم سَخَطِ الله سبحانه وتعالى وعقوبته ، فقد قال تعالى : «إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِيْنَ» [116] وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كِبْرٍ»[117]، وفي آخر «قالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين»[118].

٤ – حُبُّ الجاه: أصل الجاه : انتشار الصيت والاشتهار، وهو مذموم إذا قصده المرء، كما أنه من أعظم مظاهر الحياة الدنيا، لذا كانت فتنة الجاه من أعظم الفتن.

ومعناه : «هو قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال في شخص، إما من علم، أو عبادة ، أو نسب، أو قوة، أو حُسْنُ صورة، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالاً، فبقدر ما يعتقدون له من ذلك، تُذْعِنُ قلوبهم لطاعته، ومدحه وخدمته، وتوقيره»[119].

ويقترن حب الجاه بحب المال، وهما على رأي الإمام الغزالي ركنا الدنيا، وعلى هذا فالجاه محبوب بالطبع، وقد يفوق حب المال، لأن المال ليس هدفاً بذاته بل وسيلة متاع الدنيا،

---

(١١٣) التوبة ٩ : ٢٥ ومثلها الحشر ٥٩ : ٢ ، الكهف ١٨ : ١٠٤.

(١١٤) ابن ماجة ، *سنن ابن ماجة* ، كتاب الفتن ، باب قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » ح (٤٠١٤) ج٢، ص ١٣٣٠-١٣٣١ ، والترمذي ، *السنن* ، كتاب التفسير ، سورة (٥) ح (٥٠٥١)، ج ٥، ص ٣٢٣، وأبو داود ، *سنن أبي داود* ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ، ج ٤ ، ص ٥١٢ .

(١١٥) راجع : الإمام الغزالي ، *إحياء علوم الدين* ، ج ٣ ن ص ٥٢٠ – ٥٤٦ ، ٥٧١ – ٥٨٥ ، *الخلق الكامل* ج ٤ ، ص ٣٧٨ – ٣٨٢.

(١١٦) النحل ١٦: ٢٣، ومثلها غافر ٤٠ : ٣٥ن ٦٠ ، إبراهيم ١٤ : ١٥، الفرقان ٢٥: ٢١.

(١١٧) الإمام مسلم ، *صحيح مسلم* ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، ج ١، ص ٩٢،ح (٩١).

(١١٨) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ح(٢٨٤٦) ج٣، ص٢١٨٦.

(١١٩) الإمام الغزالي : *إحياء علوم الدين* ، ج ٣، ص ٤٣٢، وابن قدامة المقدسي، *مختصر منهاج القاصدين* ، دار الفيحاء ، الأردن سنة ١٩٨٦، ص ٢٧٠.

وقد يكون الجاه طريقاً إلى المال ..

وهذا لا يعني أن الجاه مذموم جملة وتفصيلاً، بل فيه ما يُحْمَدُ، وفيه ما يُذَمُّ وهو الغالب.. فحب المرء أن يكون له منزلة في قلوب من حوله لضرورة التعايش معهم ليس بمذموم ، أو لصفة هي فيه لغرض نافع فهو مباح ، كقول يوسف عليه السلام ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[١٢٠]، أو قصد إخفاء ما لا يليق لأن الستر على القبائح جائز.

والمحظور أن يطلب الجاه لذاته أو بما ليس فيه كالعلم والورع والنسب، وإن يكون ذلك كل همه ، فتظهر الفتنة فيمن غلب على قلبه ذلك فيعمد لتحقيقه بارتكاب المعاصي كالكذب والخداع، أو بالعبادة فيدخل في الرياء المحرم، وربما بالنفاق كما قال النبي ﷺ: «حبك المال والجاه يُنبِتَانِ النفاق في القلب كما يُنبِتُ الماء البقل»[١٢١] وحب الجاه يؤدي بصاحبه إلى حب المدح وإن كان بما ليس فيه ، وكان أهل الصلاح يفرون من الشهرة والجاه ، كما رُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من منزله فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: «علام تتبعوني فوالله لو علمتم ما أُغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان» وفي لفظ آخر أنه قال: «ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع»[١٢٢]. وقد قَرَنَ تعالى بين إرادة العلو والفساد فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٢٣].

٥ - الرياء: وهو مشتق من الرؤية، ومعناه: هو طلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها»[١٢٤] والجاه أعم حيث يطلب بالعبادة وغيرها، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عنه لأنه من أخبث السرائر فقال :﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾[١٢٥].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف المرائي: «للمرائي أربع علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان بين الناس، ويزيد في العمل إذا أُثنِيَ عليه، وينقص منه إذا ذُمَّ به»[١٢٦].

---

(١٢٠) يوسف ١٢ : ٥٥.

(١٢١) الزبيدي ، *إتحاف السادة المتقين* ،ج٨ ص١٤١.

(١٢٢) راجع الغزالي، *إحياء علوم الدين*، ط دار الندوة، بيروت، (د.ت)، ج٣ ص ٢٧٦.

(١٢٣) القصص ٢٨ : ٨٢.

(١٢٤) الإمام الغزالي : *الإحياء* ، ح ٣ ، ص ٤٦٠.

(١٢٥) الماعون ١٠٧ : ٤ - ٥ - ٦.

(١٢٦) محمد جاد المولى بك ، *الخلق الكامل* ج ٤ ، ص ٤٦٤.

والرياء مبطل للعمل مفسد للأحوال، لـذا قـال رسـول اللـه ﷺ:«إن أخـوف مـا أخـاف عليكم الشرك الأصغر ، قيل وما الشرك الأصغـر؟ قـال: الريـاء»[127]، وقـد توعدهـم اللـه بقوله:﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَـذَابٌ شَـدِيدٌ وَمَكْـرُ أُولَئِـكَ هُـوَ يَبُـورُ ﴾[128] قـال مجاهد: أهل الرياء.

وآثاره سيئة في النفس لأنه يحجبها عن الله سبحانه وتعالى، وفي المجتمع لأنه خداع.

٦ - **النفاق**: وهو شعبة من الرياء ، والنفـاق نوعـان: إعتقـادي بـأن يُظْهِـرَ الإسـلام ويُبْطِـنَ الكفر، وعملي: هو أن يشابه عمله عمل المنافق من غير استحلاله ، بل في باطنـه الإقـرار بالتحريم [129]. وقد ذكر رسول الله ﷺ علامة هؤلاء فقال: «أربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفـاق حتـى يدعهـا: إذا اؤتمـن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[130]

والنفاق خطره عظيم على الفرد والأمة ولذلك نبه القرآن الكريم إليه كثيراً وخص سورة باسم المنافقين تُحَذِّر منهم، ويشترك النفاق مع الكذب في تغيير الحقيقة، كما يتسبب في فساد الخُلُقِ، واضطراب النُّظُمِ وتعويق النهوض والارتقاء[131].

ثالثاً - الأمراض الأخلاقية (السلوكية)

من الأمراض الأخلاقية المفضية إلى الفتن:

١ - **الغضب**: «هو تغير يحصل عند غليان دم القلب ليحصل عنـه التشـفي للصـدر»[132] والناس في قوة الغضب على درجات: إفراط، وتفريط، وإعتدال.

فالإفراط مذموم لأنه خروج بالعقل والدين عن مقتضاهما، والتفريط مذموم كذلك لأنـه لا يُبْقِي حمية ولا غيرة، والاعتدال مطلوب..

والغضب مفتاح للشر، وله أثر في القلـب، حيـث ينتـج الحِقْـد والحَسَـد وإضمـار السـوء

---

(١٢٧) الإمام أحمد ، *مسند أحمد* ج ٥ ، ص ٤٢٨ ، ٤٢٩.

(١٢٨) فاطر ٣٥ : ١٠.

(١٢٩) راجع :حسين العوايشة ، *حصائد الألسن*، ط دار الهجرة، الرياض ١٩٩٢م ص٩٥-٩٦.

(١٣٠) البخاري ، *صحيح البخاري*، كتاب المظالم ، بـاب إذا خـاصم فجـر ، ج٣،ص ١٠١ ، وفي كتـاب الجمية والموادعة ، باب إثم من عاهد ثم غدر ، ج ٤ ، ص ٦٩ . مسلم : *صحيـح مسـلم* ، كتـاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق ، ح (٥٨) ، ج ١ ، ص ٧٨.

(١٣١) راجع : سيد سابق، *إسلامنا*، ص ٤٤.

(١٣٢) الجرجاني ، *التعريفات* ، ص ٢٠٩.

والشماتة.. وأما أثره في اللسان، فقد ينطلق بالشتم والفحش الذي قد يستحي منه قائله ويندم عليه بعد فتور الغضب، وقد يؤثر بإطلاق اليد بالضرب والكسر والتهجم .. ولذلك مَدَحَ اللهُ سبحانه وتعالى من اتصف بالحلم فقال:﴿.. وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[١٣٣]، وقال رسول الله ﷺ للرجل الذي استوصاه :«لا تغضب، وردد عليه ذلك مراراً»[١٣٤]. وقال في حديث آخر: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[١٣٥]،لأنه إذا زاد قتل صاحبه..

«والمحمود منه غضب يثيره العقل والدين ، وينبعث حين تجب الحمية وحين تنتهك حرمات الله..»[١٣٦]

٢ - **المكر السيء والخديعة**: قيل في معنى المكر : الاحتيال والخديعة [١٣٧]. وله تعاريف كثيرة منها:

«تدبير خفي لإيقاع ما يريده الماكر بالممكور من حيث لا يحتسب»[١٣٨]، ومنه الحسن والسيء.. ولكن الغالب استعماله في السوء والشر والفساد[١٣٩]. والكبراء هم أهل المكر غالباً. قال تعالى:﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا..﴾[١٤٠] كما ذكر القرآن الكريم أنواعاً من ذلك المكر.. وتتضح خطورة المكر لكون هؤلاء يصلون إلى مراكز القيادة في المجتمع، فيصدون عن سبيل الله سبحانه وتعالى، وخصوصاً إذا كان أهل الحق غافلين، أو بسبب تفرقهم وجهلهم[١٤١].

---

(١٣٣) آل عمران ٣ : ١٣٤.

(١٣٤) البخاري ، *الصحيح* ، كتاب الأدب ، باب ٧٦، الحذر من الغضب ، ج ٧ ، ص ١٠٠، والترمذي، *السنن*، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في كثرة الغضب ، ح (٢٠٢٠) ج ٤ ، ص ٣٧١.

(١٣٥) البخاري ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب ، ج ٧ ، ص ٩٩. ومسلم: *صحيح مسلم*، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، ح (٢٦٠٩)، ج ٣، ص٢٠١٤.

(١٣٦) الإمام الغزالي ، *إحياء علوم الدين* ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ - ٢٦٨.

(١٣٧) ابن منظور ، *لسان العرب* ، ج ٧ ، ص ٣٢ - ٣٣ ، وعند الجرجاني : إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر ، راجع *التعريفات* ص ٢٩٣.

(١٣٨) د. عبد الكريم زيدان ، *السنن الإلهية* ، ص ٢٣٧.

(١٣٩) محمد رشيد رضا ، *تفسير المنار* ، ج ٣ ، ص ٣١٥.

(١٤٠) الأنعام ٦ : ١٢٣.

(١٤١) راجع التفاصيل عن سنة الله في المكر والماكرين: د . عبد الكريم زيدان: *السنن الإلهية*، ص ٢٣٧ - ٢٥١ . وراجع : محمد جاد المولى بك ، *الخلق الكامل* ، ج ٤ ، ص ٣٧٩ - ٤٨٠.

٣ – **الفساد وانحراف الأخلاق**: إن الأخلاق ترجمة عملية للعقيدة التي يدين لها الإنسان، وجوهر عقيدة المسلم التوحيد ومصدره القرآن الكريم الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فالأخلاق إذن هي فعل المعروف وترك المنكر .

ويكمن الفساد في إبتعاد الناس عن منهج الله سبحانه وتعالى وفي المقدمة أداء العبادات لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى:﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾(١٤٢)وقد شكرها الله سبحانه وتعالى في مقدمة صفات المؤمنين فقال: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُون وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾(١٤٣)، وذكر بقية الصفات التي يتحلى بها المؤمن وبعكسها يكون سوء الخُلُقِ ...

ومساوئ الأخلاق كثيرة متداخلة يفضي بعضها إلى بعض، وأعلاها ما يسمى بالموبقات أو الكبائر ، وأمهات الذنوب(١٤٤)، مثل الكفر والعقوق والغش والربا والزنا والخمر والميسر وما يثير الغرائز مثل الغناء والرقص و الإختلاط، ولكل ذلك أدلة في تحريمه والنهي عنه في الكتاب والسنة.

وأول الفساد التجرد من صفة الحياء ، وقد قال فيه الرسول ﷺ: «إن لكل دين خُلُقاً وخُلُقُ الإسلام الحياء»(١٤٥)، فإذا تجرد الإنسان منه فعل المنكرات كما قال نبينا محمد ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»(١٤٦).

ويترتب على اقتراف هذه المفاسد الأمراض الجسدية النفسية وانهيار المجتمع وَسَخَطِ الله.. وإذا كان المجتمع الإسلامي في القديم متمسكاً بالأخلاق، وإذا وجد من ذلك فهو على سبيل الشذوذ، ولم تتفش المنكرات إلا في الوقت الحاضر.

٤ – **قطيعة الرحم**: وهو نتيجة القسوة التي مردها الجهل والغفلة .. فيعيش الإنسان لنفسه دون الشعور بأرحامه التي أمر الله سبحانه وتعالى بصلتها بآيات كثيرة منها:﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**﴾(١٤٧). أي «اتقوا الله أن تعصوه واتقوا الأرحام أن

---

(١٤٢) العنكبوت ٢٩ : ٤٥.

(١٤٣) المؤمنون ٢:٢٣.

(١٤٤) راجع تفاصيل ذلك في كتب الأخلاق منها *إحياء علوم الدين* ، الكبائر للذهبي.

(١٤٥) الإمام مالك ، *الموطأ* ، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الحياء ، ح (٩) ج ٢ ص ٩٠٥ ، وابن ماجة كتاب الزهد ، باب الحياء ح (٤١٨١) ج ٢ ص ١٣٩٩.

(١٤٦) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأدب، باب (٥٤) ج ٤ ص ١٥٢.

(١٤٧) النساء ٤ : ١ ومثلها آية ٣٦.

تقطعوها»[148].

وتجتمع الأدلة على وجوب صلة الرحم وحرمة قطيعتها وفي مقدمة ذلك عقوق الوالدين، وجعل للقريب حقاً مقدماً على غيره، لأن من لا يصل رحمه لا يصل من هو أبعد، والإسلام يريد الأمة متضامنة متعاونة، لذلك نبَّهَ الرسول ﷺ بقوله: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[149]، وَقَرَنَ اللهُ سبحانه وتعالى ذلك بالإفساد في الأرض الذي يستوجب اللعنة فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[150] ومثل ذلك سوء الجوار المنهي عنه لأنه يؤدي إلى تفكك المجتمع..

رابعاً - آفات اللسان

جاءت الأدلة الشرعية تأمر بحفظ اللسان وجعلته صفة من صفات المؤمنين فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .... ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ..﴾[151] وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[152]، كما نهى عن الآفات مثل الغيبة ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[153]، والمسلم مُحَاسَبٌ على ما يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[154].

ومن السنة، قول الرسول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[155]، وعن معاذ بن جبل قال: قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما يقول؟ فقال: «ثكلتك أمك يا ابن جبل، وهل يكبُّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[156].

---

(١٤٨) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، ج٥ ص٢ ط إحياء التراث.

(١٤٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأدب، باب: إثم القاطع، وفيه «لا يدخل الجنة قاطع» قال ابن عمر: قال سفيان: قاطع رحم.

(١٥٠) محمد ٢٢ : ٢٣ وراجع: الرعد ١٢ : ٢٥.

(١٥١) المؤمنون ٢٣ : ١ - ٣.

(١٥٢) الفرقان ٢٥: ٧٢.

(١٥٣) الحجرات ٤٩ : ١٢.

(١٥٤) ق ٥٠ : ٨.

(١٥٥) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأدب، باب ٨٥ - إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، ج ٧، ص١٠٤ ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير، ج١، ص ٦٧ - ٦٨.

(١٥٦) ابن ماجة، *السنن*، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ح (٣٩٧٢) ج ٢، ص ١٣١٤ - ١٣١٥. والإمام أحمد، *المسند*، ح ٥ ن ص ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧. والترمذي السنن، ح(٢٦١٩).

والآفات كثيرة والأدلة على تحريمها والنهي عنها وفيرة كذلك، لا يمكن استقصاؤها في هذا المبحث القصير، من ذلك: الشرك (قولاً)، الكذب بأنواعه، الحلف بأنواعه، القذف، الغيبة، النميمة، السخرية والتنابز بالألقاب، الغناء، السباب، النياحة، التقعر في الكلام، المدح في الوجه ....الخ، ولكنها ثمرة ضعف الإيمان ، وسأقف على أبرزها مما يشكل فتنة إجتماعية.

فالكذب محرم، قال تعالى :﴿إِنَّمَا يَفْتَرِيْ الْكَذِبَ الَّذِيْنَ لاَ يُؤْمِنُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُوْنَ﴾[١٥٧]، وفي الحديث :«... وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا»[١٥٨]

وأشد من ذلك الكذب على الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، قال تعالى :﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِأَيَاتِهِ﴾[١٥٩]، وفي الحديث: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[١٦٠]، وقد ظهر الوضع في الحديث النبوي في وقت مبكر لأغراض كثيرة، ويدخل في ذلك الفتوى بلا علم بدافع حب الشهرة .

ومن الكبائر اليمين الغموس ، قال رسول الله ﷺ: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة، فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: وإن قضيباً من أراك»[١٦١]، ومثلها شهادة الزور، لقوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[١٦٢]، فهي كذب وظلم .

ومنها القذف قال تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١٦٣]، وهي من

---

(١٥٧) النحل ١٦ : ١٠٥ وراجع الآيات ق ٥٠ : ١٨ ، البقرة ٢ : ١٠ ، الجاثية ٤٥ : ٧.

(١٥٨) البخاري ، *صحيح البخاري*، كتاب الأدب، باب ٦٩ - قول الله تعالى :«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»، وما ينهى عن الكذب، ج ٧ ، ص ٩٥. ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب كالبر والصلة، ح (٢٦٠)، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، ج ٣، ص ٢٠١٢ - ٢٠١٣.

(١٥٩) الأعراف ٧ : ٢٦.

(١٦٠) مسلم ، *صحيح مسلم*، المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، ج ١، ص ١٠، ح (٢).

(١٦١) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، ج ١ ، ص ١٢٢، ح (١٣٧).

(١٦٢) الحج ٢٢ : ٣٠.

(١٦٣) النور ٢٤ : ٢٣.

السبع الموبقات[١٦٤].

ومنها الغناء، وهو من أكبر الفتن الإجتماعية في جميع العصور، ابتليت بها الأمة في عصر مبكر، والمحرم منه ما اتصف بأمرين: الوصف المثير الذي يغري بالوقوع في المعاصي، وما يرافق الغناء من آلات العزف المحرمة، قال تعالى:﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ..**﴾، وقال رسول الله ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والمعازف ...»[١٦٥].

.ويدل على ذلك كتب التراث الأدبي المليئة بما يشير إلى إنتشار مجالس الغناء والطرب وآلاتها ، ولكن لا يقارن بما شاع في العصور المتأخرة حتى أصبح سماعه كالأكل والشرب.

آثار آفات اللسان :-

لآفات اللسان آثار وخيمة على صاحبه خاصة والمجتمع عامة، ومن أبرزها نيل غضب الله وبغضه وعقابه في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾[١٦٦]، وأصحاب الآفات من أبغض الناس إلى النبي ﷺ كما قال: « ... وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون»[١٦٧].

وغالبية آفات اللسان يتبعها تحريف الحقيقة وتضييع الحقوق مما يؤدي إلى تنافر المجتمع وتباغضهم، وإشعال نار الفتنة بينهم، ولذلك كتب العلماء في فضيلة الصمت وحفظ اللسان لأن من كثر كلامه كثر سقطه، قال الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه وليس يموت المرء من عثرة الرِّجل[١٦٨]

---

(١٦٤) وهي قول الرسول ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقذف المحصنات .... الخ » رواه البخاري، *الصحيح*، كتاب الوصايا، باب ٢٣، قول الله تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما...﴾، ح (٢٧٦٦)، ج ٥، ص ٣٩٣، ومسلم، صحيح *مسلم*، كتاب الإيمان، باب ٣٨، بيان الكبائر وأكبرها، ح (٨٩) ج ١ ص ٩٢. والإمام أحمد، *المسند* ج ٤، ص ٣٩٩.

(١٦٥) البخاري، الصحيح، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر...، فتح الباري ج١٠، ص ٥١، والآية في سورة لقمان ٣١ : ٦٠.

(١٦٦) المطففين٨٣ : ١٠.

(١٦٧) الإمام أحمد ، *المسند*، ج ٢، ص ٣٦٩.

(١٦٨) الغرناطي، جنة *الرضى*، ج، ص٤٦، ونسبه لابن المعتز.

خامساً – العادات الإجتماعية المخالفة للشرع

هناك عادات مخالفة للشرع شاعت في مجتمعات إسلامية كثيرة ، درجوا عليها وأقرتها أعرافهم فمن أبرزها:

السحر: هو من الأمور التي تسبب الفتن الاجتماعية ، ومما يؤكد خطورته وجود الظاهرة بكل أنواعها في أغلب الأمم منذ القديم بدليل رميهم الأنبياء بتهمة السحر كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك .

وفي هذا العصر تزداد الظاهرة إنتشاراً، بل واكبت التطور في أكثر البلدان تقدماً أمريكا وفرنسا وألمانيا، فأقيمت له الجمعيات والمعاهد لتعلمه[١٦٩].

كما زاد انتشارها في بلاد المسلمين لضعف الإيمان، وللجهل بحال السحرة وحكم الشرع الذي عطل فيهم .

وهو محرم بنص القرآن الكريم والسنة والإجماع[١٧٠]، لقوله تعالى :﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ...﴾[١٧١]

وقال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، الشرك بالله، والسحر ...»[١٧٢]، وهو يدخل في الشرك لاستخدام الشياطين فيه، والتعلق بهم وإرضائهم، وادعاء الغيب ومشاركة الله سبحانه وتعالى في علمه ولذلك فهو كفر[١٧٣]، ويلحق به التنجيم والكهانة والعيافة وغيرها..

ويرى البعض أن السحر حقيقة ويرى آخرون أنه تخييل[١٧٤]، ولكن التفريق به بين المرء وزوجه، وأَمْرُ القرآن الكريم بالتعوذ من السواحر دليل على أن منه حقيقة، والآية تدل على سبب التشديد في تحريمه لأنه يقطع أقوى الروابط والأواصر ما بين الزوجين، وقد وصفها

---

(١٦٩) راجع : عبد العزيز ين محمد، *نواقض الإيمان القولية والعملية*، ط دار الوطن، الرياض، ١٤١٥ هـ. ص ٥٠٠.

(١٧٠) ابن تيمية، *فتاوى ابن تيمية*، ج ٣٥، ص ١٧١.

(١٧١) البقرة ٢ : ١٠٢.

(١٧٢) سبق تخريجه في هـ ١٦٤.

(١٧٣) ابن حجر ، *فتح الباري*، ج ١، ص ٢٢٤.

(١٧٤) مذهب أهل السنة أنه حقيقة، وذهب المعتزلة، وأبو اسحق الاسترابادي، وبعض المتأخرين، أنه لا حقيقة له، بل تمويه وتخييل.. انظر أدلتهم والرد عليها في: القرطبي: *تفسيره* ج ٢، ص ٣٢ – ٣٣.

الله سبحانه وتعالى بالمودة والرحمة، وضرب القرآن الكريم مثلاً بها لأنه أعلى الروابط الإجتماعية فيقع على ما دونها.

والتأثير فيه بإذن الله سبحانه وتعالى، وإذا تحصن العبد بذكر الله سبحانه وتعالى لا يضره السحر، وهو يؤدي إلى الفتن الإجتماعية التي تحول العلاقة إلى عداوة والمحبة إلى بغضاء والصلة إلى قطيعة وهجران.

وهناك أضرار يوقع بها السحر على المسحور، كالجنون، والمرض والخمول والأحلام المزعجة، وتعطيل الأعضاء وغير ذلك[١٧٥].

ومنها ما **يحدث في المسرات**: مثل حفلات الزواج وغيرها ، فقد يرافقها كثير من المحرمات مثل الغناء الفاحش والرقص المختلط وربما شرب الخمر.. هذا غير الإسراف والبذخ، علماً بأن الشرع أباح الضرب بالدف في الأعياد ولإشهار النكاح.

وفي المآتم: عند حدوث الموت الذي هو ظاهرة طبيعية من قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره يقتضي الصبر والإحتساب لها، ولكن الأعراف أحياناً توجب عادات محرمة مثل الجزع المذموم والمبالغة فيه بضرب الخدود، وشق الجيوب والنياحة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك كله فقال: «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[١٧٦]، وقال: «لَعَنَ اللهُ الخادشة وجهها والشاقة جيبها والداعية بالويل والثبور»[١٧٧]، وكذلك بناء القبور المرتفعة خلافاً للسنة .. وتتجلى الفتنة في ذلك بأن ما يقومون به يتضمن اعتراضاً على قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره... وانحرافاً وبعداً عن سنة رسوله ﷺ.

ومنها: **الثأر والانتقام**: ويقومان على عاطفتين: الغضب والإستعلاء[١٧٨]، وهو من العادات الجاهلية وخصوصاً في الجزيرة العربية، وقد كان غسل العار بالدم قاعدة فصل الخصومات عندهم، والغفلة عنها من أكبر العار.. كما أنه يتعدى الجاني إلى أي فرد في

---

(١٧٥) انظر: وحيد عبد السلام بالي، *الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار*، ط٣، مكتبة الصحابة، جدة ، ١٤١٢هـ ص١٥٩-١٩٠.

(١٧٦) البخاري، *الصحيح*، كتاب الجنائز، باب ٤٠، باب ما ينهى من الويل ودعوى الجاهلية عند المصيبة، ج ٢ ، ص ٨٢ . ومسلم ، الصحيح ، كتاب الإيمان ، باب تحريم ضرب الخدود، ح (١٠٣) ج ١، ص ٩٩، والترمذي ، *سنن الترمذي* ، كتاب كالجنائز، باب ما جاء في النهي ج ٣، ص ٣٢٤، والنسائي، *سنن النسائي*، كتاب الجنائز، باب دعوى الجاهلية، ح (١٨٥٨) ج ٤، ص ٢٠.

(١٧٧) ابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، كتاب الجنائز، باب ما جاء في النهي عن ضرب الخدود، ح (١٥٨٥) ج ١ ص ٥٠٥.

(١٧٨) راجع: محمد جاد المولى بك، *الخلق الكامل*، ج ٤، ص ٤٠٤ - ٤١٠.

القبيلة لما عرف عنهم (العصبية القبلية) فاستبدلها الإسلام بالجهاد، ولكن ما لبث المسلمون أن عادوا إلى عاداتهم الجاهلية وخصوماتهم المتوارثة ، وصارت وبالاً عليهم في خراسان والشام والأندلس..

وقد جعل الإسلام المسؤولية على الجاني والدولة تتولى حق تطبيق الحدود و العقوبات وجعلت الصفح والعفو مقدماً على ذلك ... والفتنة في ذلك تَوَارُثُ الثأرِ جيلاً بعد جيل وثأراً بعد ثأر مما يؤدي إلى إستمرار الأحقاد والخصومات ، وتلاشي عواطف الود والإخاء .

وخلاصة القول إن جميع الفتن الاجتماعية تؤدي إلى الإنحراف عن الحق الذي يتبعه الظلم، وما وقع الظلم في أمة إلا استحقت العذاب ، قال تعالى :﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾(١٧٩)، وقد يكون الهلاك معنوياً كما هو حاصل اليوم مع كثرة المسلمين.

السنن النفسية والاجتماعية في ضوء القرآن الكريم والسنة

يؤكد الإسلام أصالة كل من الفرد والمجتمع، أي ثبوت سنن خاصة بالفرد وأخرى بالمجتمع، وهذا لا يعني الإستقلال التام لكل منهما، لأن الحياة الإجتماعية تقوم على الأفراد أنفسهم، كما أن الفرد يفقد استقلاله الذاتي نسبياً بانتمائه للمجتمع ويحافظ على جزء منها كمواهبه الفطرية ومكتسباته التي لا تذوب نهائياً في المجتمع، لذا فالإنسان محكوم عليه بسنن نفسية وأخرى اجتماعية(١٨٠).

فمن السنن الفردية (النفسية) مثلاً (١٨١):

- إن الإنسان يولد على الفطرة، وتتحمل الأسرة ابتداءً مسؤولية الحفاظ على سلامتها وتحقيق التوازن بين حاجاته المادية والروحية، قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(١٨٢).

- ثم تأتي مهمة المجتمع من مدرسة وعلاقات وغيرها في التأثير عليه، قال تعالى:﴿**فَأَقِمْ**

---

(١٧٩) الكهف ١٨ : ٥٩. وراجع يونس ١٠ : ١٣.

(١٨٠) راجع : محمد عبد الجبار : *المجتمع* ص ٣٢ - ٥٢.

(١٨١) راجع : تفاصيل هذه السنن في : د. إبراهيم رجب ، *التأصيل الإسلام للعلوم الإجتماعية*، ص٢٩١- ٢٩٥.

(١٨٢) البخاري، *الصحيح*، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ج ٢، ص ١٠٤ ومسلم صحيح *مسلم*، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ح (٢٦٥٨) ج ٣ ص٢٠٤٨.

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١٨٣]، وقال الزمخشري: «أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، حتى لو تُرِكُوا ما اختاروا عليه ديناً آخر، ومن غوى منهم فإغواء شياطين الإنس والجن»[١٨٤].

- والإنسان نفسه مسؤول عن المحافظة على نقاء فطرته﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ..﴾[١٨٥]، فطاعة الله هي الضمانة لسلامة القلب فبالقدر الذي تسود فيه الفطرة السليمة والمتصلة بربها يكون التوافق بين الإنسان وبين نفسه والآخرين مع تأييد الله سبحانه وتعالى وملائكته ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ قَالُوْا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ اَلاَّ تَخَافُوْا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِيْ كُنْتُمْ تُوْعَدُوْنَ ❁ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِيْ الآخِرَةِ﴾[١٨٦].

ويعكسه إذا انحرفت الفطرة إضطرب الإنسان وَشَعَرَ بعدم التوافق مع الخَلْقِ،﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[١٨٧].

- ثم تأتي مهمة الضبط الإجتماعي الممثل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم الضبط من مثل الدولة بتطبيق الحدود لمواجهة الإنحراف، ومن السنن الاجتماعية:[١٨٨].

١ - الاستقامة في الحياة تحقق الحياة الرضية الطيبة، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١٨٩].

٢ - التغيير الداخلي للإنسان أساس في تغيير المجتمع﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١٩٠]، كما قضى أنه لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

٣ - العقاب الدنيوي يَعُمُّ المجتمع الظالم كله ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[١٩١].

---

(١٨٣) الروم ٣٠ : ٣٠.

(١٨٤) الزمخشري، *الكشاف*، ج ٣، ص ٤٧٩.

(١٨٥) الشمس ٩١ : ١٠.

(١٨٦) فصلت ٤١ : ٣٠ - ٣١.

(١٨٧) مريم ١٩ : ٨٢.

(١٨٨) راجع التفصيل في: د. إبراهيم رجب، *التأصيل الإسلامي للعلوم الإجتماعية*، ص ٢٩٥.

(١٨٩) الأعراف ٧ : ٩٦.

(١٩٠) الرعد ١٣ : ١١.

(١٩١) الأنفال ٨ : ٢٥.

٤ - شيوع الترف وكثرة المترفين من عوامل انهيار المجتمع ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَـةً أَمَرْنَـا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(١٩٢).

٥ - تراكم الخبائث يؤدي إلى انهيار المجتمع ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١٩٣).

٦ - المفاصلة الإجتماعية على العقيدة يدل عليه قوله تعالى:﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِـي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(١٩٤).

٧ - لكل أمة أجل كما أن لكل فرد أجلاً .. قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُـمْ فَـلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾(١٩٥).

---

(١٩٢) الإسراء ١٧ : ١٦ وراجع الأنبياء (في جزاء المترفين الظالمين) ٢١: ١٥.

(١٩٣) الأنفال ٨ : ٣٧.

(١٩٤) الممتحنة ٦٠ : ٥.

(١٩٥) يونس ١٠ : ٤٩ والحجر ٤ - ٥.

المبحث الثاني:
الفتن الفكرية والثقافية

حقق الإسلام نقلة فكرية وثقافية في المجتمع المسلم سواء في البيئة العربية التي ظهر فيها، أو البلاد التي فتحت فيما بعد.. وما ذاك إلا لأنه منهج رباني يوازن بين العقل والوحي، لأن الدين أتى بكل ما يوافق العقل السليم ولم يقع تعارض بينهما.. فالإسلام لا يلغي العقل ولا يهمله، كما لا يسمح بإطلاق عنان الفكر ولا يعطيه زمام القيادة، لأن الإنسان قاصر بعقله وفكره يحتاج للهداية الكاملة، فلا بُدَّ من الوحي الذي يوجهه.. وقد جاء الإسلام ليوجه الفكر الوجهة الصحيحة بفك قيوده والكشف عن إبداعه للارتقاء بالحياة لما ينفع الناس.

فقد حَثَّ القرآن الكريم على التفكر والتدبر.. وعقب بعد عرضه للآيات الكونية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[196]، وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[197]، والآيات في طلب إعمال الفكر كثيرة حتى قال الغزالي: «...ولذلك فإعمال الفكر خير من الذكر والتذكير، والتفكر أفضل من جملة الأعمال»[198]. هذا بالإضافة إلى حث السنة على ذلك..

ومن هنا حدثت نهضة فكرية كان لها الأثر في تطور العلوم في تاريخ المسلمين، خصوصاً أن الإسلام أقرّ حرية الفكر بشرط أن تدور مع مصلحة المسلمين وعدم الاضرار بعقيدتهم حيث لا تتجاوز ممارسة الحرية إلى إنحرافات تؤدي إلى الفتن وشيوع الأفكار الخبيثة.

وقد تعرض الإسلام ومنذ عصوره الأولى لهزات فكرية عنيفة إستهدفت القضاء عليه، حيث وجدت في الداخل من غير المسلمين أو ممن تظاهر بالإسلام ألوان من المذاهب والأفكار الغريبة عن السلام مع ما سبق في تاريخ المسلمين من فتن بعد الخلافة الراشدة، وفضلاً عن الاحتكاك بالثقافات والحضارات القديمة فحدثت فتن فكرية واختل التوازن الذي هدف إليه الإسلام بين العقل والوحي فانقسم الناس بين متبع للنقل فقط، وبين مبالغ في تقدير العقل، فنشأت جماعات متطرفة طغى أثرها على وسطية الإسلام الجامعة بينهما،

---

(١٩٦) الرعد ١٣: ٣.

(١٩٧) الحديد ٥٧: ١٧ .

(١٩٨) الغزالي، أبو حامد، *الإحياء*، ج١٥، ص٧٩٢.

فحدثت انتكاسات لا فائدة منها أهدرت الطاقات العقلية في الجدل والمشـاحنات، وفسحت المجال لأعداء الإسلام..

وسوف أتناول باختصار أبرز الفتن الفكرية في تاريخ المسلمين..

الأولى: ظهور البدع:

البدع لغة: الاختراع على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[199] أي مخترعها، ويقال: ابتدع فلان بدعة: يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق، وعلى هذا سمي العمل الذي لا دليل عليه في الشرع بدعة[200] «ويلاحظ في غالب ما دارت عليه مادة بدع معنى الإحداث والاختراع»[201] أما في الاصطلاح والشرع فقد اختلف العلماء في تعريفها بحسب نظرتهم إلى مدلولها، فمنهم من توسع في تحديدها ومنهم من ضَيَّقَ..

فمن الصنف الأول: الشافعي حيث قسم البدعة إلى حسنة وسيئة ومحمودة ومذمومة، وبهذا تشمل كل حادث بعد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، ومثل الشافعي ابن حزم وابن الأثير والدهلوي[202].

وأما الصنف الثاني فقسمان:

الأول: البدعة عندهم مخالفة السنة، ومنهم ابن رجب الحنبلي فيقول: «المراد بالبدعة: ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، فأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه، فليس ببدعة شرعاً، وإن كان بدعة لغة»[203]، ومثله ابن حجر[204] والهيثمي والزركشي وغيرهم[205].

الثاني: يتمثل في رأي الشاطبي ومن وافقه في اعتبار البدعة بالمحدث المخالف للسنة الذي جعل ديناً قويماً وصراطاً مستقيماً، سواء في العبادات أو العادات، فيقول: البدعة: «طريقة في

---

(١٩٩) البقرة ٢: ١١٧.

(٢٠٠) الشاطبي، أبي إسحاق إبراهيم بن موسى، *الاعتصام*، بيروت: دار المعرفة ١٩٨٢، ج١، ص٣٦.

(٢٠١) راجع: عزت علي عطية، دكتور، *البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها*، دار الكتاب العربي، بيروت: ط٢، ١٩٨٠، ص١٥٧.

(٢٠٢) المصدر نفسه، ١٦٠-١٦٢.

(٢٠٣) الحنبلي، ابن رجب، *جامع العلوم الحكم*، ج٢، ص١٢٧.

(٢٠٤) العسقلاني، ابن حجر، *فتح الباري*، ج٥، ص١٥٦.

(٢٠٥) راجع: عزت علي عطية، *البدعة*، ص١٦٣.

الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها، المبالغة في التعبد لله تعالى، أو يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية»[206] فهو يخص العبادات مرة، ويشمل العبادات والعادات أخرى..

ويستخلص من آراء الفقهاء في البدعة أنها تطلق إما على العموم في كل ما أحدث بعد النبي ﷺ خيراً أو شراً فيشمل الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام، وإما على معنى أخص في الحادث المذموم المخالف للشرع..واستند من عممها إلى قول عمر بن الخطاب ﷺ في صلاة التراويح جماعة: «نِعْمَ البدعة هذه»[207].

والحق أن الرسول ﷺ خص البدعة بما يصادم الشرع، ووصفها بالضلالة، ولا يُفْهَمُ من قول عمر ﷺ أن مجرد إطلاق لفظ البدعة يدل على ما هو حسن، «والبدعة في نظر الشرع إذا أطلقت عن التقييد بوصف أو إضافة أو غيرها لا تدل إلا على ما هو مخالف للشرع، ولا يقصد بها غير ذلك فيه»[208] وقد جاءت الأحاديث في ذَمِّ البدعة مطلقة كذلك..

وقد ناقش بعض العلماء الشاطبي في تخصيصه للبدعة بمضاهاة الدين ومخالفتها للمعاصي، بأن هذا حالة أو نوع خاص منها وهو ما يستحسنه صاحبه ويقع موقع الاقتداء، ولا ينفي أن منها ما ليس كذلك[209].

وقد قسم العلماء البدعة إلى:

١- عادية وتعبدية. ٢- حقيقية وإضافية. ٣- فعلية وَتَرْكِيَّة.

٤- إعتقادية وقولية. ٥- كلية وجزئية. ٦- بسيطة ومركبة[210].

أما أسباب الابتداع والتي تعود في جملتها إلى الزيادة في الدين أو النقصان منه بالتأويل الفاسد، فهي كثيرة لا يمكن تحديدها لأنها متجددة متغيرة، ظاهرة ومستترة، نذكر منها[211]:

---

(٢٠٦) الشاطبي، *الاعتصام*، ج١ ص٣٧.

(٢٠٧) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب صلاة التراويح، باب الأول، ج٢، ص٢٥٢، وابن مالك، *الموطأ*، كتاب الصلاة في رمضان، باب ما جاء في قيام رمضان، ص١١٤.

(٢٠٨) عزت علي عطية، *البدعة*، ص١٧٨.

(٢٠٩) المصدر السابق، ص١٧٨-١٨٢.

(٢١٠) راجع هذه الأنواع في المصدر السابق ص٢٥٧-٣٠٧، وزاد (الحسنة والسيئة)، وذكر أكثرها الشيخ علي محفوظ، *الإبداع في مضار* الإبتداع، دار الاعتصام، مصر ١٩٧٨، وزاد (العام والخاص) ص١٦٩.

(٢١١) راجع بعضا منها عند الشاطبي *في الاعتصام*، ص٤١-٤٢، ٦٤-٦٥.

أ- القول في الدين بغير علم، أو ممارسة الجاهل لأمور الفتوى والتعليم، فتحرف النصوص جهلاً بها أو جرأة لسببين أولهما: الجهل بأساليب اللغة، والثاني: الجهل بالسنة من حيث التمييز بين الأحاديث، والأخذ بالموضوعة أو رد الصحيحة بحجة مخالفة العقل.

ب - إتباع المتشابه وتأويله إبتغاء الفتنة.

جـ - إتباع الهوى ولذا سموا بـ«أهل الأهواء».

د - الأخذ من الطرق غير الشرعية لإثبات الأحكام، كاتخاذ الشيعة للأئمة المعصومين -حسب قولهم- سنداً شرعياً في نسبة بعض الأحكام إليهم..

ويقسم الشاطبي انتشار البدع إلى أربعة أوجه:[٢١٢]

١ - أن يخترعها المبتدع، وهو الغالب.

٢ - أن يعمل بها العالم على وجه المخالفة فيفهمها الجاهل مشروعة وعمله حجة..

٣ - أن يعمل بها الجاهل مع سكوت العالم عن الإنكار -وهو قادر عليه- ولهذا يستقبح زلة العالم، فقد رُوِيَ عن عمرﷺ قال: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال (زياد بن جرير) قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم وجدال المنافق، وحكم الأئمة المضلين»[٢١٣].

٤- من باب الذرائع، وهو أن يكون العمل في أصله معروفاً إلا أنه يتبدل الإعتقاد به مع طول العهد .

حكم البدعة: يستدل على حكم البدعة من الأدلة التي جاءت في ذمها والعقوبة عليها، وإن لم يرد لفظ البدعة في القرآن الكريم، إنما جاءت آيات مما يتضمن معناها كقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾**[٢١٤]وقال القرطبي في تفسيرها: «الآية عامة في جميع الكفار، وكل من إبتدع وجاء بما لم يأمر الله عز وجل به ، فقد فرق دينه»[٢١٥]وقال تعالى: **﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾**[٢١٦] قال مجاهد: «طريق الحق على الله»، وقال ابن عباس: «وعلى الله البيان أي يبين الهدى والضلالة»،وقال في «ومنها جائر» أي هي الطرق

---

(٢١٢) الشاطبي، *الاعتصام*، ج١، ص١٠١-١٠٩.

(٢١٣) الدارمي، *سنن الدارمي*، الرقم: ٢٢٠، باب كراهية أخذ الرأي، ج١، ص٦٣.

(٢١٤) الأنعام ٦: ١٥٩.

(٢١٥) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، مجلد٤، جزء ٧، ص١٣٥.

(٢١٦) النحل ١٦: ٩.

المختلفة الآراء والأهواء المتفرقة..»[217].

وأول الأحاديث الصريحة في رد البدع قوله ﷺ: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[218] يقول ابن رجب الحنبلي: «وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أن حديث «الأعمال بالنيات» ميزان الأعمال في باطنها»[219]

ومثله حديث العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ، وفيه: «...وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى إختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[220]وفي بعض الروايات زيادة «وكل ضلالة في النار»

وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»[221]ويدخل في هذا الموضوع كل الأحاديث في مدح متبع السنة وذَمّ مخالفها.

ويُستنتج من الأحاديث أن إحداث البدع مذموم ، بل يصل إلى درجة المحرم ، وإن وقع في شيء مباح ، كإنكار الرسول ﷺ على من صام وقام في الشمس، أو من ترك الزواج، أو من قام الليل ولا ينام... فقال: «من رغب عن سنتي فليس مني»[222]وذلك لأن فاعلها

---

(٢١٧) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، ج٢، ص٣٢٤.

(٢١٨) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ج٣، ص١٦٧، ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ج٢، ص١٣٤٣، رقم:١٧١٨، وأبو داود، *سنن أبي داود*، كتاب السنة باب لزوم السنة.ج٥، ص١٢، رقم: ٤٦٠٦.

(٢١٩) الحنبلي، ابن رجب، *جامع العلوم الحكم*، ص١٧٦.

(٢٢٠) أبو داود، *سنن أبي داود* ، كتاب السنة، باب لزوم السنة، ج ٥، ص١٣، رقم: ٤٦٠٧، والترمذي، *السنن*، كتاب العلم، باب ماجاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ج ٥، ص٤٤، رقم: ٢٦٧٦، وأحمد بن حنبل، *مسند أحمد*، ج٤، ص١٢٦، وابن ماجة، سنن ابن ماجة، المقدمة، باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ج١، ص٤٣-٤٤.

(٢٢١) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ج١، ص٥٩٢، رقم: ٨٦٧، والنسائي ، *سنن النسائي* ، كتاب صلاة العيدين باب كيف الخطبة، ج٣، ص١٨٨، وابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، المقدمة، ج١، ص١٧.

(٢٢٢) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ج٦، ص١١٦، ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح، ج٢، ص١٠٢.

أجراها مجرى الشرع وأنها من الدين فتصبح من المعاصي..

وليست البدع على درجة واحدة فيختلف لذلك حكمها بين الكفر والحرام والكراهة، وإن كان وصف الضلالة يشمل الجميع للحديث السابق، يقول الشاطبي: «وإذا كانت البدع من جملة المعاصي وقد ثبت التفاوت في المعاصي فكذلك يتصور مثله في البدع»[٢٢٣] وحتى البدع المحرمة تنقسم إلى الكبائر والصغائر، فالتي تقع في الضروريات والكليات فهي التي تقع تحت الوعيد بالنار ، أما في الجزئيات فلا، وذلك لأن المفسدة الحاصلة بالجزئية ليست كالمفسدة الحاصلة بالكلية[٢٢٤]،وبهذا نرى أن حكم البدع يتراوح في دائرة الحرام على رأي من يعدها مخالفة السنة..

آثار البدع:

١- الإضرار بصاحبها، مثل عدم قبول عمله، وأنه ملعون لقوله ﷺ: «من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[٢٢٥] وإنها مانعة من الشفاعة لقولهﷺ: «حلت شفاعتي لأمتي إلا صاحب بدعة»[٢٢٦] كما يتحمل وزر من عمل ببدعته فوق وزره للحديث: «....ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[٢٢٧] وإنه لا يرد الحوض لقوله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، ليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا تأهبت لأتناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي رب! أصحابي، يقول: لا تدري ما أحدثوه بعدك»[٢٢٨] كما تؤدي البدع وخصوصاً في العقائد إلى الكفر وبراءة الرسول ﷺ منه لقوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾[٢٢٩]وقول رسوله ﷺ: «من اقتدى بي

---

(٢٢٣) الشاطبي، *الاعتصام*، ج١، ص٣٩.

(٢٢٤) المصدر السابق، ج١، ص٦٥. والشيخ محفوظ، *الإبداع*، ١٤٩.

(٢٢٥) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الحج، باب حرم المدينة، ج٢، ص٢٢٠، ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الحج، باب فضل المدينة، ج١، ص٩٩٤-٩٩٨، وأبو داود، *سنن أبي داود*، باب في تحريم المدينة، ج٢،ص٥٢٩-٥٣١.

(٢٢٦) ابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل، ج١،ص١٩.

(٢٢٧) الإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ، ج١، ص٧٠٥، وابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، المقدمة ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ج١، ص٧٤، والدارمي، *سنن الدارمي*، المقدمة، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ج١، ص١٠٧-١٠٨.

(٢٢٨) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الرقاق، باب في الحوض،ج٧، ص٢٠٦، ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة، ج١، ص٢١٨.

(٢٢٩) الأنعام ٦: ١٥٩.

فهو مني ، ومن رغب عن سنتي فليس مني»[٢٣٠].

٢- في البدع ضلالة متحققة على مستوى الفرد والمجتمع كما مر في الحديث وذلك لأسباب:

أ- إن في الابتداع اتهاماً للدين بالنقصان والقصور خلافاً لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ..﴾[٢٣١] وقوله ﷺ: «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[٢٣٢] وقال مالك رحمه الله: «من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها، فقد زعم أن النبي ﷺ خان الرسالة» وقوله لمن أراد أن يحرم من المدينة: «أي فتنة أعظم من أن تظن أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ؟!»[٢٣٣].

ب- في الإبتداع مخالفة ومعاندة للشرع ، إما بسبب إتباع الهوى أو العادات وإن كانت فاسدة، وقد ذَمَّتِ النصوص التقليد المخالف للحق.

ج- فيه خروج عن الصراط القويم، عن ابن مسعود ﷺ قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً فقال: هذه سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢٣٤]

د- في إنتشار البدع دليل على الجهل بمقاصد الشريعة والأخذ بالظن من غير تثبت ولا يكون ذلك من راسخ في العلم.

٣- فيها ضياع للسنن وإماتتها، وقد حَثَّ الرسول ﷺ على إحياء السنن فقال: «من أحيا سنة من سنني فعمل بها الناس كان له أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا، ومن ابتدع بدعة فعمل بها كان عليه أوزار من عمل بها لا ينقص من أوزار من عمل بها شيئا»[٢٣٥].

---

(٢٣٠) أحمد، مسند *أحمد*، ج٢، ص١٦٨ .

(٢٣١) المائدة ٥: ٣.

(٢٣٢) ابن ماجة، سنن *ابن ماجة*، المقدمة، ج١، ص١٦، رقم: ٤٣، وأحمد بن حنبل، مسند *أحمد*، ج٤، ص١٢٦.

(٢٣٣) راجع الشاطبي، *الاعتصام*، ج٢، ص٦٤، مع أقوال أخرى للصحابة السلف في ذلك، وانظر: القحطاني، محمد بن سعيد، *الولاء والبراء*،دار الصفوة، السعودية، ط٣، ١٤٠٩هـ، ص٣١٢-٣١٣.

(٢٣٤) ابن ماجة، سنن *ابن ماجة*، المقدمة، باب إتباع سنة رسول الله ﷺ ج١، ص٦، رقم: ١١، والإمام أحمد، مسند *أحمد*، ج١، ص٤٣٥، عن عبد الله بن مسعود. والآية من الأنعام ٦:١٥٣.

(٢٣٥) ابن ماجة، سنن *ابن ماجة*، المقدمة، باب من أحيا سنة قد أميتت، ج١، ص٢٧٦، رقم: ٢٠٩.

٤- فيها هدم لأصل من أصول الإسلام وهو «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر» وهـي فتنة تؤدي إلى إنهيار المجتمع ، فلو نهي عنها من قبل العلماء لما انتشرت..

٥- وأسوأ تلك الآثار ما في البدع من فرقة للدين والمسلمين وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم، قال تعالى:﴿... وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾(٢٣٦).

وذلك لما يلازم البدع من التعمق في الجدال ثم الخصام والخوض في الكلام الذي يعرض للزلل وسوء المعتقد، ثم ما يترتب عليه من جَوْر وظلم من حروب وقتل وتكفير... والشواهد على ذلك كثيرة، قديماً وحديثاً، وكان أول ذلك بدعة الخوارج كيف فرقت المسلمين ومزقتهم، وما تبعها من ويلات ودمار، حيث كانت بدعتهم وسيلة لتجويز قتل المخالفين، فكان تكفير العاصي عندهم سبباً لنشوء الفرق الكلامية من معتزلة ومرجئة وجبرية...(٢٣٧) وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل»(٢٣٨) ولذلك قال أئمة الحديث: «الداعية إلى البدع لا يجوز الاحتجاج به عند أئمتنا قاطبة، لا أعلم بينهم فيه خلافاً»(٢٣٩).

٦- والآثار السلبية لكل بدعة بحسبها، فالزيادة فيها زيادة في التكاليف والخروج على مقاصد الشريعة في التيسير ورفع الحرج، كما إن البدع في المناسبات مثلاً كالحفلات في الموالد وغيرها فيها الإسراف، وربما انتهاك حرمات المساجد، والتبرج، كما إن بدع العقائد عند بعض الصوفية تفضي إلى الكفر..

الثانية : الترجمة وظهور الفلسفة:

تعد الترجمة أثراً من آثار الحضارة الإسلامية وصلتها بالحضارات الأخرى، وهي علامة تميز هذه الحضارة لاستيعابها وتمثلها تلك الحضارات..وقد كانت الحركة العلمية في العصر العباسي واضحة المعالم والسمات، في مركز الخلافة الإسلامية والمدن الأخرى، شجع عليها الخلفاء والأمراء وأنفقوا عليها بسخاء وصارت المساجد في العواصم قبلة طلاب العلم فأصبحت المساجد الكبيرة في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة بمثابة جامعات، وأصبح العلم

---

(٢٣٦) الروم ٣٠: ٣١-٣٢.

(٢٣٧) راجع عزت علي عطية، *البدعة*، ص٣٤٥.

(٢٣٨) ابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، المقدمة، ج١، ص١٩،رقم:٤٨، وفيه «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه..».

(٢٣٩) عائشة بنت عبد الرحمن، *مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح*، ط: دار الكتب، القاهرة،١٩٧٤، ص٢٢٩.

هواية، حتى وجدت مكتبات خاصة تحوي -كما يقول أحد المستشرقين- من الكتب أكثر مما تحويه مكتبات الغرب مجتمعة[٢٤٠].وتجاوز العلماء البحث والتأليف من المصادر العربية الإسلامية إلى الاطلاع على التراث العلمي للأمم القديمة والترجمة لها..

وقد مرت الترجمة بمرحلتين[٢٤١]:

الأولى: اقتصرت على ترجمة العلوم الطبيعية والطبية والرياضيات، وأعرضت عن كل ما يتصل بالعقائد والآداب والفن لمخالفتها منهج الإسلام والذوق العربي المسلم، وابتدأت حركة الترجمة من خلافة أبي جعفر المنصور سنة ١٣٦هـ حتى وفاة هارون الرشيد سنة ١٩٣هـ.

الثانية:تُرجمت الكتب المتصلة بالعقائد والآداب والفنون من الفلسفة اليونانية والغربية دون تقدير لأثرها، هذا ما حصل في زمن المأمون في بداية القرن الثالث فبدأت مرحلة الخطر، وتجاوزت الهدف حيث ترجمت إلهيات اليونان وعقائد الفرس والصوفية الهندية، فنتجت عنها الفتنة للفكر الإسلامي، وخصوصاً «خَلْقُ القرآن».

وقد واجه الإسلام ثلاث فلسفات كبرى هي[٢٤٢]:

الفلسفة الغنوصية[٢٤٣] الشرقية ، والفلسفة الإغريقية ، والفلسفة اليهودية والمسيحية الغربية.

ويكمن الخطر في الأخطاء التي واكبت الترجمة إلى العربية حيث قام بترجمتها النساطرة الذين استغلوا بها تأييد المسيحية فأبعدوها عن أصلها اليوناني ، كما ظهر من تحقيق الباحثين أن كتباً كثيرة ترجمت إلى العربية باسم أرسطو وأفلاطون وهي ليست لهما.. وكان ابن المقفع وحنين بن إسحاق وغيرهما ممن حمل لواء الترجمة قد استهدفوا غاية خطيرة وهي تسلل مذاهبهم إلى المسلمين وإدخال ما ليس في الإسلام فيه..وظهر علم الكلام متسلحاً بالمنطق لتنمية القدرات العقلية للفيلسوف[٢٤٤].

---

(٢٤٠) راجع: أحمد فؤاد باشا، *الحضارة الإسلامية والتقدم العلمي*، بحث في مجلة صنعاء، ص١٤٩.

(٢٤١) راجع: الجندي، أنور، *الإسلام في مواجهة الفلسفات القديمة*، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٧، ص٥٣-٥٤.

(٢٤٢) المصدر السابق، ص١٠.

(٢٤٣) الغنوص لفظة يونانية معناها المعرفة ، واصطلاحاً: الصراع العارم في الإنسان بين قوى الخير فيه وقوى الشر للخلوص من الشر إلى الخير.. انظر النجار عبد المجيد، *مباحث في منهجية الفكر الإسلامي*، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢، ص٩٦.

(٢٤٤) راجع: المصري، جميل، *حاضر العالم الإسلامي*، ج١، ص٤٣.

ويتبين مدى خطر الفلسفة اليونانية في استنادها إلى أصول مخالفة للإسلام وجوهره كتعدد الألهة، وتقديس العقل، وتكذيب ما لا يتفق معه، في حين يجمع الإسلام بين الوحي والعقل، كما أن الفكر اليوناني نظري قائم على التأمل، والفكر الإسلامي عملي يقوم على العقل والتجربة والحس، إضافة إلى ما دعا إليه أفلاطون من الإباحية ومشاعية النساء، واحتقار المرأة وإعلاء الرجل...الخ(٢٤٥).

وقد وقف المسلمون تجاه تلك الفلسفات مواقف متباينة: فهناك فئة رفضتها جملة، وأخرى قبلت الصحيح منها في العلوم دون الإلهيات..وفئة حاولت التوفيق بينهما فكانت محاولتهم واضحة الاضطراب فتورطت في التأويل لاستحالة التوفيق بين فكرين متضادين.. وقد عارض جُلُّ العلماء من الفقهاء والمحدثين هذه المفاهيم فتصدوا لها وكشفوا خطرها.. وابن تيمية في مقدمتهم، كما عارض التفسير الإسلامي قول الفلاسفة بقدم العالم وأنه أزلي، وقولهم إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات...

وقد يرى البعض أن الرفض لها كان متأخراً، حيث أُسْتُقْبِلَتْ استقبال المفتون بها..ثم معارضة غير مباشرة على يد الأشعري تجاه المعتزلة بعد مضي قرن من الزمن، ثم اشتدت المعارضة في النصف الثاني من القرن الخامس حين أَلَّفَ الغزالي «تهافت الفلاسفة» رداً عليهم، أما القابلون لها من أصحاب النزعة العقلية في الإسلام فمنهم من بالغ في ذلك ولقبوا بالفلاسفة، ومنهم من احتاط في الأخذ والتأثر وهم المعتزلة (٢٤٦)، وكان الذي أغرى بقبولها هو الميل العقلي لدى بعض المسلمين الذين اشتغلوا بالدفاع عن العقيدة، كما أن منهم من بهرته دقة المنطق الأرسطي في العلوم فترجموا الإلهيات لاعتقادهم بعصمة الفكر الإغريقي من الخطأ، في حين أن ما نقل لم يمثل الفلسفة الإغريقية فحسب بل ثقافات أخرى أشرنا إليها(٢٤٧).

الآثار السلبية للفلسفة: أثارت الفلسفة فتناً فكرية في الجوانب الآتية:

أولاً: أثرها في العقيدة والدين: وذلك لكونها تقوم على مفاهيم معارضة للإسلام وفي مقدمتها «الألوهية» القائمة على التوحيد الخالص في الإسلام، وإثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم دون تأويل، مع الإيمان بالنبوات واليوم الآخر.. في حين تقوم

---

(٢٤٥) راجع: الجندي، أنور، *الإسلام في مواجهة الفلسفات القديمة*، ص٤٩-٥١.

(٢٤٦) راجع: البهي محمد، *الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي*، دار الكتاب العربي، القاهرة، سنة١٩٦٧، ص٢٧٣-٢٧٧.

(٢٤٧) المصدر السابق، ص٢٧٨-٢٨١.

الفلسفة على:

أ - تعدد الآلهة: فالفلسفة الشرقية والتي هي أقرب وأنفذ من غيرها الغربية[(٢٤٨)] وهي أديان أهل فارس كالزرادشتية والمانوية والمزدكية وكلها تقوم على الإيمان بالثنائية، النور والظلمة تقابل الخير والشر، وقد حمل هذه الأفكار من تظاهر بالإسلام من أهل فارس وانتشرت في أخريات القرن الأول الهجري ومن أهم رجالها «ابن المقفع» عند الأمويين والبرامكة عند العباسيين.. مع ما تحمله من مفهوم الاتحاد والحلول والإباحية.. كما انتقلت أفكار المسيحية المحرفة من الإيمان بالتثليث، الأب والابن وروح القدس.. وقد ناظروا المسلمين متسلحين بالفلسفة لإثبات تجسد الكلمة في المسيح وهم في ذلك طوائف.. علماً أن الفلسفة اليونانية والديانات القديمة بابلية وهندية وفارسية كان لها الأثر في تحريف المسيحية، وكان رائد هذا التحريف هو «بولس» الحبر اليهودي «شاؤول» حيث غير العقيدة البسيطة إلى فلسفة والتوحيد إلى التثليث، ومن عقيدة تراقب الضمير إلى مجرد طقوس يلجأ إليها الإنسان لِيُكَفِّرَ عن خطاياه، إلى غير ذلك من التحريفات[(٢٤٩)].

ومن هنا تَجَرَّأَ المسيحيون على القول بِقِدَمِ القرآن الكريم قاصدين بذلك إثبات قِدَمَيْنِ وبالتالي إثبات إلهين: ذات الله سبحانه وتعالى وكلامه على غرار ما عندهم من ذات الله وكلمته المتحدة في المسيح، وكان للقديس «يوحنا الدمشقي» (ت١٢٧هـ) الذي نشأ في بلاط الأمويين، كان له حوار مع المسلمين حول الجَبْرِ والاختيار، وقد أسهم النساطرة واليعاقبة في زمن الدولة العباسية في نقل تلك الأفكار بالترجمة إلى العربية[(٢٥٠)].

ب - التجسيم والتشبيه: وهو الاعتقاد بأن الله تعالى جسم في هيئة الأجسام فيلحقه من الأحكام ما يلحقها، ومن الصفات والأفعال كذلك، وقد تسربت هذه الفكرة من اليهود، فهناك من دخل في الإسلام، وحظي الباقون بتسامح ديني وتقلد بعضهم المناصب وتبحروا في العلوم كوهب بن منبه (ت١١٣هـ)، وَعُنُوا بنقل أخبار الرسل واليوم الآخر... فالله سبحانه وتعالى عند اليهود يشبه الإنسان تماماً، فنقل تلك التحريفات طائفة المشبهة من المسلمين، والثنوية كذلك كانوا على شيء من التجسيم في عقيدة النور والظلمة، والمتأثرون

---

(٢٤٨) راجع: إبراهم مدكور، *في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق*، المكتب المصري للطباعة والنشر، سمير كو، مصر، ١٩٨٣، ج٢، ص٢٤، والنجار، *مباحث في منهجية الفكر الإسلامي*، ص٨٢.

(٢٤٩) راجع: الشهرستاني، *الملل والنحل*، ج٣، ص٣٠-٣١.

(٢٥٠) راجع: إبراهيم مدكور، ص٢٥-٢٦،والنجار، *مباحث منهجية* ص٨٣.

بالفلسفة كانت لهم تجسيمات[٢٥١].

جـ - **الاتحاد والحلول**: «وكلاهما يعني اختلاط ذات الله أو جزء منها بذات الإنسان جزئياً أو كلياً، إلا أن الإتحاد يكون بصعود الإنسان إلى الله، والحلول بنزول الله إلى الإنسان»[٢٥٢] وأول من رَوَّجَ لها بين المسلمين «عبد الله بن سبأ اليهودي» الذي كان يزعم أن علياً هو الله تعالى[٢٥٣]، بحلول جزء إلهي فيه فيجب أن يُعْبَدَ، ولها أصول في كل الديانات القديمة غير أن أكثر المتنصرين لها والمروجين بين المسلمين هم المسيحيون باعتبار أن كلمة الله سبحانه وتعالى حلت في مريم فولدت إلهاً قديماً..

د - **إنكار النبوة**: وهو أصل ديانات الهند، وقد أوردوا شبهاً صاغوها في أدلة عقلية فهاجموا بها أهل النبوات عموماً والمسلمين خصوصاً، كما أنكر اليهود والنصارى نبوة محمدﷺ مع شُبه لذلك تصدى لها المسلمون..

هـ - **الرجعة**: وقد قالت اليهود بعودة نبيهم عزير، كما بث ابن سبأ فكرة عودة عليﷺ وتظهر خطورة هذه الدعوة باعتقاد استمرارية الوحي بعد محمد ﷺ، مما أدى إلى ظهور مُدَّعِيْ النبوة في التاريخ الإسلامي، كما أخذ الشيعة هذا المبدأ واعتقدوا بعودة المهدي المنتظر..

و - **إنكار البعث**: ويظهر هذا الإنكار في عقائد الهند في مبدأ تناسخ الأرواح بدلاً عن الثواب والعقاب، كما أنكرها الفلاسفة اليونان، بذلك ينكرون البعث والقيامة ووقع الفلاسفة المسلمون في اضطراب منها فقالوا بالبعث بالأرواح فقط منهم ابن سينا وكذلك بالنسبة للثواب والعقاب وهو مما يخالف النصوص الإسلامية[٢٥٤].

انتقلت كل هذه العقائد مع الترجمة وحاول فلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا والكندي التوفيق بينهما فوقعوا في خلط وآراء متضاربة أدت إلى بلبلة الأفكار حيث أدخلوا مصطلحات فلسفية كالجوهر والعرض والوجود والعدم وحين أرادوا تفسير الصفات تفسيراً عقلياً وقعوا في مشكلة نفي الصفات (التعطيل) حين لجأوا إلى التأويل العقلي لتفسير النصوص[٢٥٥].ويظهر في محاولة هؤلاء في التوفيق، تمسكهم بالفلسفة ووضعها مع الإسلام على قدم المساواة وإلا لضحوا بالرأي المخالف دون تكلف الجمع ودفع المعارضة، فهذا

---

(٢٥١) راجع: النجار، عبد المجيد، *مباحث منهجية*، ص٨٥.
(٢٥٢) المصدر السابق، ص٨٧.
(٢٥٣) محمد أبو زهرة، *تاريخ المذاهب الإسلامية*، ج١، ص٣٥.
(٢٥٤) المصدر السابق، ص ٨٨.
(٢٥٥) راجع: إبراهيم مدكور، في الفلسفة الإسلامية، ص٥٨.

الفارابي يرى أن الفلسفة الإغريقية طريق الرشاد وهداية الناس! وفي نظر ابن سينا متآخية مع الدين ومؤدية إليه! وفي رأي السجستاني متممة للدين حيث يقول: «وهل الحكمة إلا مولدة الديانة؟ وهل الديانة إلا متممة للحكمة؟»(٢٥٦).

ثانياً: أثر الفلسفة في انحراف التصوف:

نشأ التصوف الإسلامي أساساً من الإسلام نفسه.. من خلال نصوصه التي حثت على التقليل من التعلق بالدنيا والعمل للآخرة.. فاستمدت أصولها الأولى من القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، والآيات الداعية لذلك أكثر من أن تحصى، كما ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى في ذلك فقال:«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس»(٢٥٧).

وقد ساعدت عوامل داخلية وخارجية على تطور الفكر الصوفي غير إنه لم يبتعد كثيراً عن دائرة التصوف السني في بادئ الأمر.. وساعد توسع الفتوحات على نشأة مدارس التصوف لمن رفض حياة الترف والرخاء كأبي ذر الغفاري رضي الله عنه الذي هاله الثراء العريض للبعض.. وَعُرِفَ في تاريخ التصوف نماذج أمثال إبراهيم بن أدهم (١٦١هـ)، وداود الطائي (١٦٥هـ)، وشقيق البلخي (١٩٤هـ) وليس في أقوالهم ما يدل على تأثرهم بمؤثر خارجي(٢٥٨)، كما أثرت عوامل فردية سياسية أو إجتماعية أو نفسية إلى هروب البعض من الحياة الإجتماعية واللجوء للعبادة فقط، كما تأثرت المتصوفة بالمدارس الإسلامية فقهية وكلامية وفلسفية فعرضوا لبعض القضايا فيها كما كانت لهم أبحاث فلسفية كأحوال النفس ومقاماتها، وصلة التصوف بالتشيع معروفة، حيث يقومان على السرية والتفرقة بين علم الظاهر والباطن، كما يلتقون مع الإسماعيلية في الرمز والتأويل وغير ذلك..(٢٥٩).

أما المؤثرات الخارجية فتتمثل في دخول أجناس تحمل أفكاراً موروثة عن التصوف صاغها المسلمون على نحو يلائم عقيدتهم والأكثر من ذلك دخول فلسفات دينية غير إسلامية.. وقد تزامن ذلك مع عوامل سياسية أدى إلى فرار البعض وهروبهم من الواقع مع ما عرف من

---

(٢٥٦) راجع: البهي محمد، الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، ص٢٩٠.

(٢٥٧) ابن ماجة، *سنن ابن ماجة*،كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا ج٢، ص١٣٧٣، رقم:٤١٠٢.

(٢٥٨) راجع: نيكلسون (رينولد ألن)، *في التصوف الإسلامي وتاريخه*، ترجمة: أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٩، ص٣.

(٢٥٩) راجع: إبراهيم مدكور، *في الفلسفة الإسلامية*، ج٢، ص١٣٣-١٣٤، نقلا عن مصطفى كامل الشيبي « *الصلة بين التصوف والتشيع*» بغداد، ١٩٦٤.

شطحات، يقول الدكتور عمر فروخ: «الصوفية حركة بدأت زهداً وورعاً ثم تطورت فأصبحت نظاماً شديداً في العبادة ثم استقرت نظاماً نفسياً وعقلياً بعيداً عن مجراها الأول وعن الإسلام في كثير من أوجهها المتطرفة»[٢٦٠].

فخرجت الصوفية عن التوحيد الخالص بعد ما دخلته أفكار من الفلسفة اليونانية كوحدة الوجود وعدم التفريق بين الله سبحانه وتعالى وخلقه فقال أبرز دعاتهم الحلاج «أنا الحق»، وأخذهم من فلسفات الشرق والمسيحية الاتحاد والحلول، والاعتزال عن الحياة في الأديرة والرهبنة المخالفة لتعاليم الإسلام فقد قال عنهم تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾[٢٦١] كما تسربت إليهم إنحرافات اليهود من التشبيه والتجسيم، فكان من آثارها أن قال أصحاب الشطحات «الفناء في الحق» أي الإتحاد بذات الله وعدم إدراك العالم الخارجي، وتعطيل الحياة العملية الواعية وهي حالة «الجذب» في حين أن العبادة الواعية هي المطلوبة في الإسلام..

والملاحظ أن كل تلك الفلسفات تؤكد أهمية النفس وتفرق بين الظاهر والباطن، وليس في الإسلام أهل ظاهر وأهل باطن بل يجمع بينهما وبين العقل، كما ليس في الإسلام اعتزال الناس وتحريم الطيبات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ..﴾[٢٦٢].

ويهذا انحرف الزهد الذي كان في العصور الأولى مطابقاً لتعاليم الإسلام من غير غلو من ذلك ما قاله الجنيد: «مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة» فأتوا بالخير الكثير بمواعظهم، وكان لهم الفضل في هداية كثير من الغافلين، ولكن آراء وأعمال مبتدعة تسربت إلى التصوف عن جهالة أو سوء قصد فكان لها الأثر السيئ في أمور منها :

أ - إن الصوفية جعلوا يتحدثون عما يرد عليهم من خواطر ويعبرون عنها بكلمات إما مألوفة أو غير مألوفة حتى صارت لهم قواعد وإصطلاحات.

ب - وقوم منهم خلطوا التصوف بالفلسفة، وراج ما توهمه بعضهم من أن التوكل ترك الأخذ بالأسباب، مع إستعمال العبارات الفلسفية من ذلك ما اشتمل عليه كتاب «ابن عربي» الفصوص من الكفر الصريح.

---

(٢٦٠) عمر فروخ، *تاريخ الفكر العربي*، بيروت، دار العلم للملايين، سنة ١٩٧٢، ص٤٧٠.
(٢٦١) الحديد ٥٧: ٢٧.
(٢٦٢) المائدة ٥: ٨٧ .

جـ - ثم دخله من الباطل ما زعم بعضهم أن السالك تسقط عنه أحكام الشريعة من أوامر ونواه، وأنشد أحد شعرائهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلا   فكيف بقلب كل أوقاته ورد

د - ومنهم من ادعى سقوط التكاليف عمن شهد الحقيقة ووصل إلى مقام الفناء فيها! قال الغزالي فيهم: «لو زعم زاعم أن بينه وبين الله حالاً أسقطت عنه الصلاة وأحلت له شرب الخمر وأكل مال السلطان، كما زعمه بعض من ادعى الصوفية فلا شك في وجوب قتله».

هـ - ومنهم من ادعى أن الغيوب تكشف له، ويرى الملائكة.. حتى ينتهي إلى مشاهدة الله جل جلاله... وكان لإسراف بعضهم عن حديث المكاشفة أثر في اعتقاد بعض الناس بعلو منزلتهم، لدرجة أنهم يحلفون بهم.

و - وبالغوا في مسألة الكرامات وإن ذهب أهل السنة إلى جوازها، لكن الناس بالغوا في إثباتها للشيوخ الصوفية وما نتج عنه في التوسل بالأضرحة..

ز - ومن آثار التصوف المنحرف العبادة بقصد الاطلاع على عالم الأرواح وغرائب العلوم، وأن تخرق لهم العادات وتجري على أيديهم الكرامات ... فالعبادة بهذا القصد نزعة فلسفية لأن العبادة الخالصة يقصد بها الإمتثال لأمر الله سبحانه وتعالى...[٢٦٣].

ثالثاً: أثر الفلسفة في انحراف علم الكلام:

يرتبط علم الكلام بالعقيدة ورد الشبهة عنها، يقول الغزالي: «وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدعة»[٢٦٤] ويقول الإيجي: «الكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه»[٢٦٥]، وكل التعاريف تثبت لعلم الكلام وظيفتين: إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية، ورد الشبهات عنها بالأدلة العقلية أيضاً[٢٦٦].

ونشأ علم الكلام لأسباب داخلية بعد الفتنة الكبرى بمقتل عثمان ﷺ، فظهرت الجبرية، والقدرية ، والمرجئة إضافة إلى الخوارج والشيعة كما مر.

---

(٢٦٣) راجع هذه الشطحات للصوفية عند : *محمد الخضر حسين*، رسائل الإصلاح، ج١، ص١٩٦-٢٠١.

(٢٦٤) الغزالي، أبو حامد، *المنقذ من الضلال*، الجامعة السورية، ط٥، ١٩٥٦، ص٦٦.

(٢٦٥) الأيجي، *المواقف*، بيروت، عالم الكتب، د.ت. ص٧.

(٢٦٦) النجار، عبد المجيد، *مباحث منهجية في الفكر الإسلامي*. ص٩٩-١٠٠.

والخارجية هي دخول الفلسفات الجديدة على إثر الفتوحات واصطـدام المسـلمين بحضـارات وفلسفات إستطاع الإسلام إزاحتها عن عقول الجماهير، إلا أن أهـل السـلطة وأصحـاب النفـوذ فيهم انهزموا في المعركة ليبدأوا أخرى أكثر خطورة استعملوا فيها الكيد المنظم، فَقُتِلَ عمر وعثمان رضي الله عنهما، واستطاعوا إخراج المسلمين من العمل إلى الجدل.. فكان علم الكلام إسـتجابة لظروف التحدي ومواجهة الفلسفات بنفس السلاح.. وطرق المواجهة كـانت بالمنـاظرة والتـأليف وكان في مقدمة هذه الفرق المعتزلة، حيث اعتمدوا على العقل في رد الخصوم، وخصوصاً بعـد أن اشتدت المواجهة إلا أنهم بتأثير تلك الفلسفات إنحرفوا عن العقيدة البسيطة الصافية لا سيما على يد فلاسفة المسلمين .. ومن ذلك[٢٦٧]:

أ – التركيز على مواضيع القضاء والقدر والـذات والصفـات ممـا ليـس لـه صلـة بـالتكليف والعمل..

ب – فقدان الروح في كتابات المتكلمين ومباحثهم عن اليوم الآخر من الـترغيب والـترهيب بل كلفوا أنفسهم بأسئلة لا جواب لها فكانت مجرد إهدار الطاقات.

جـ – زاد المتكلمون في المسائل المرتبطة بالعقيدة والتي لا وجود لها في أصل الوحـي، وهـذه الزيادة حصلت إما بتضخيم ما كان له أصل، كقوله تعالى: ﴿ لَيْـسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْبَصِيـرُ﴾[٢٦٨] وهكـذا أَوَّلُـوْا أو أنكـروا علـى أساسـها كثيراً مـن النصـوص الصحيحة، كتأويل الصفات الخبرية وإنكار المعتزلة للرؤية مع وجـود النصـوص الدالـة عليها، كما جعلها أهل الظاهر من المتشابه.. ومما ليس له أصل ما جعله المعتزلة أصـولاً للدين وهي خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلـة بـين المـنزلتين، والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر...

د – إدخال أساليب فلسفية كالعرض والجوهر والوجود، وإطلاق اسم «الصـانع» علـى اللـه سبحانه وتعالى ...وواجب الوجود، والدليل، هذا عند أهل السلف كابن تيمية فما بالنـا بغيرهم، وقد أنكرها ابن حزم.

هـ – فصل المتكلمون بين مسـائل العقيـدة والشـريعة، والإسـلام ربـط كـل جوانـب الحيـاة بالإيمان مما لا نجده عند المتكلمين .

---

(٢٦٧) راجع بعض هذه الآثار في محمد عياش الكبيسي، *العقيـدة الإسـلامية في القـرآن الكريـم ومنـاهج المتكلمين*، مطبعة الحسام، بغداد، سنة ١٩٩٥،ص٥٤-٦٨.

(٢٦٨) الشورى ٤٢: ١١

و - أساليب المتكلمين الصعبة في مؤلفاتهم أبعدها عن عامة الناس، لأنها رد على شبهات متعددة المصادر والفلسفات، وكل له أسلوبه ومصطلحاته، لذا نرى أسلوب الغزالي في الرد على الفلاسفة ليس كأسلوبه في كتبه الأخرى، وعلى هذا حقق المتكلمون نجاحاً كبيراً في صد العدوان الخارجي ومحاصرة الفِرَق الضالة وتحجيمها.. وأخفقوا على الصعيد الداخلي فكل متمسك برأيه ومع إنتصار أهل السنة على المعتزلة لكن أفكار الاعتزال تسربت في المذاهب الأخرى....

ز - التفرق الخطير بين أهل الكلام، وكلما زادت المسائل الكلامية زاد الشقاق مما هو واضح في كتبهم، كما استخدم بعضهم أساليب لا تناسب مقام الحوار العلمي من التكذيب، والتكفير والشتائم...

ح - وكان من أشد الآثار فتنة القول بِخَلْقِ القرآن الكريم والذي انتصر له المأمون بعد أن ترجمت الإلهيات في زمنه، فكانت سبباً في مواجهة المخلصين من أهل السنة ومحنتهم كأحمد بن حنبل وما لاقاه من سجن وتعذيب، وقد صمد ستة عشر عاماً في وجه «خلق القرآن» خلال خلافة المأمون والمعتصم والواثق حتى انحسر خطرها[٢٦٩].

رابعاً: أثر الفلسفة في فُشُوِّ الجدل:

قال الذهبي عن علم المنطق: «نفعه قليل ضرره وبيل وما هو من علوم الإسلام»[٢٧٠]، وذلك لإلتماس كل فريق سنداً لدعواه من المنطق الكلامي، والهدف إفحام الخصوم وليس التوصل للحق والصواب.. ومن هنا كان الجري وراء الفلسفات الإلهية المستوردة ضلالاً كان ينبغي تجنبه، لأن البحث عن الله سبحانه وتعالى وصفاته عن طريق غير الأنبياء ضلالة، كما يقول الندوي عنهم: «وهذا سر ضلالة الفلسفة الإغريقية... خاضوا في الإلهيات فجاؤوا بالسخيف المرذول، والتهافت الساخط وبالمتناقض المتضاد في الآراء والأقوال..»[٢٧١] ومنع مجادلة أصحاب الفكر الخبيث منع وقاية وحذر، لأن الإعراض عنهم نجاة من الوقوع في حبائلهم﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٢٧٢] كما شُغِلَ العلماء في مواجهتها والرد عليها

---

(٢٦٩) من البدع المأمونية لبس الخضرة، وتقريب العلوية، والقول بخلق القرآن، وأخذ الجند بالتكبير في الصلوات الخمس، وإباحة زواج المتعة الذي رجع عنه فيما بعد..

راجع : الجندي، *المؤامرة على الإسلام* ص٣١، وله *الإسلام في مواجهة الفلسفات الحديثة*، ص٦٩.

(٢٧٠) الذهبي، سير *أعلام النبلاء*، ج١، ص٢٤.

(٢٧١) الندوي، أبو الحسن، *النبوة الأنبياء في ضوء القرآن*، دار القلم، دمشق، ١٩٨٤، ص٢٨.

(٢٧٢) الأعراف ٧: ١٩٩.

فانصرفوا عن دعوة غير المسلمين وجهادهم، وممن تصدى لهـم الغزالـي فوصـف فلسـفتهم «ظلمات فوق ظلمات لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه...»[٢٧٣].

خامساً: أثر الفلسفة في التآمر على دولة الإسلام:

يعدُّ المفكرون المحدثون دخول تلك الفلسفات جزءاً من المؤامرة على الإسلام يقول أنـور الجندي[٢٧٤]: «هناك إجماع على أن دخول الفلسفة إلى الفكر الإسلامي هو الذي أسقط صرح الحضارة (فقد كانت طابع شؤم ونذير سوء وإيذاناً للعرب بزوال سلطانهم) حـين انتهـى إلى المأمون زمام الخلافة العباسية فشجع الفلسفة وعمل على ترويجها وتمكـن مـن جلـب أشـهر كتب الفلسفة من اليونان والصين والهند وعهـد بترجمتهـا إلى محترفي الترجمـة مـن السـريانية والكلدانية والسنسكريتية والفارسية»[٢٧٥].

سادساً: أثر الفلسفة في إثارة الشبهات:

إن دخـول الفلسـفات الأجنبيـة إلى الفكـر الإسـلامي أدى إلى قـول المستشـرقين بتبعيـة الفكرالإسلامي للفكر اليوناني الذي هو أساس الفكر الأوربـي الحديـث.. فـإذا لقيـت هـذه الشبهة قبولاً بُنِيَ عليها القـول بأنـه لا مـانع في تبعيـة الفكـر الإسـلامي في حـاضره للفكـر الأوربي والفلسفة الحديثة!! وهذه شبهة واهية حيث إن مقومات الفكـر الإسـلامي تكـاملت قبل دخول الفلسفات ، مسـتمدة مـن القـرآن الكريـم والسـنة ، وإلا لكـان خطرهـا كبـيراً، والحقيقة إن المسلمين لا حاجة لهم بتلـك الفلسـفات، لأن الإسـلام وضـع لهـم الإجابـات الصحيحة إزاء كل المسائل التي خاضتها الفلسفات، ولم يترك للعقل مجالاً فيهـا.. بـل وجـه العقل للبحث في الكون وآثار الله..

مما تقدم يظهر أن الترجمة التي هي وسيلة لتبادل الثقافات بين الأمم كـان نفعهـا مقصـوراً على الكتب العلمية، أما الفلسفة البحتة فقد أثرت في تشويش العقيدة الصافية، وإلى إنحـراف مبادئ أصيلة كالتصوف، والخوض فيما لا حاجة فيه..وكـل ذلـك إبتـلاء وفتنـة للمسـلمين تعلموا منه مجابهة التحديات ومقارعة الخصوم بالحجج والبراهين.

---

(٢٧٣) الغزالي، *تهافت الفلاسفة*، ص١٠٥.

(٢٧٤) الجندي، *المؤامرة على الإسلام*، ص٧٦.

(٢٧٥) أرسل المأمون إلى حاكم صقلية النصراني يطلب منه أن يبادر بإرسال مكتبة صقلية الشـهيرة الغنيـة بكتب الفلسفة ، وتردد في إرسالها ، واستشـار رجـال دولتـه فأشـار عليـه المطـران الأكـبر بقولـه: «أرسلها إليه فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها».
راجع :جميل المصري، *حاضر العالم الإسلامي*، ج١، ص٤٣.

الثالثة : في رواية الحديث النبوي والتفسير:

إن الانحرافات الفكرية التي سبق ذكرها إنعكست على رواية الحديث النبوي، وتفسير القرآن الكريم، حيث سلك أصحاب المبادئ والمعتقدات أساليب كثيرة لِدَسِّهَا في كِلا المجالين، علماً أن الترابط بينهما وثيق جداً، فكثير ما يفسر لنا الحديث النبوي القرآن الكريم، مبيناً لمجمله ومقيداً لمطلقه، وشارحاً لمبهمه أو غير ذلك..

وسوف أتعرض لأبرز تلك الانحرافات والتي أدت إلى فتن فكرية :

في رواية الحديث النبوي :

أولاً: الوضع والإنتحال: بقي الحديث النبوي فترة من الزمن يتناقل مشافهة من الرسول ﷺ إلى الصحابة ثم التابعين، ولم يدون إلا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.. ولما كان التبديل والتحريف محالاً في القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢٧٦]، فقد سعى البعض إلى الوضع والتحريف في الحديث النبوي..

وقد ساعدت عواملُ داخلية سياسية واجتماعية، وعوامل خارجية من دخول الفلسفات وغيرها إلى وضع أحاديث ونسبتها إلى الرسول ﷺ كذباً بقصد ترويجها، وقد عَرَّفَ العلماء الحديث الموضوع بأنه: «المختلق المصنوع وشر الضعيف»[٢٧٧]وَتَحْرُمُ روايته مع العلم به إلا مبيناً، ويعرف الوضع بإقرار واضعه أو معنى إقراره، أو قرينة الراوي أو المروي، فقد وضعت أحاديث يشهد بوضعها ركاكة لفظها ومعانيها.

والوضاعون أقسام، وهم[٢٧٨]:

١- قوم ينسبون إلى الزهد: وضعوه حسبة، وقد عدهم العلماء أعظم الوضاعين ضرراً «فقبلت موضوعاتهم ثقة بهم، وجوزت الكرامية الوضع في الترغيب والترهيب»[٢٧٩]مثال مرويات هذا الصنف: ما رُوِيَ عن أبي عصمة، نوح بن مريم أنه قيل له: من أين لك عن

---

(٢٧٦) الحجر ١٥: ٩.

(٢٧٧) عائشة عبد الرحمن، *مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح*، ص٢١٢، والسيوطي، جلال الدين، *تدريب الراوي*، ط٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٦٦، ص٢٧٤.

(٢٧٨) أذكر هنا من تعمد الكذب بوضع أحاديث لها سند لمن لم يسمعوا منهم، وقد ذكر ابن الجوزي أربعة أصناف أخرى ممن وضع من غير تعمد الكذب، راجع: ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، *الموضوعات*، ط٢، دار الفكر، ١٩٨٣، ص٣٥-٣٧.

(٢٧٩) السيوطي، *تدريب الراوي*، ص٢٨٢-٢٨٣؛ *ومقدمة ابن الصلاح*، ٢١٤، راجع: ابن الجوزي، *الموضوعات*، ص٣٩-٤١.

عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة ؟ فقال إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق، فوضعت الأحاديث حسبة .ومثله الحديث الطويل عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في فضائل القرآن، وقد بحث باحث عن مخرجه فانتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه، وقد أخطأ بعض المفسرين -كالواحدي- في إيداعه تفاسيرهم[٢٨٠].

٢- ومنهم من يضع الأسانيد لكل كلام حسن لنفسه أو بعض الحكماء مثل «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء»، أو إسرائيليات مثل «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[٢٨١].

٣- الزنادقة: وقصدوا بالوضع هدم الدين بإيقاع الشك فيه، وخصوصاً في أمور العقيدة، وقد إعترف عبد الكريم بن أبي العوجاء حين أُمِرَ بقتله فقال: «والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام..»[٢٨٢]

٤- صنف يضعون الحديث انتصاراً لمذهبهم كالخوارج والشيعة والمبتدعة، أو وضع دليل لفتواهم، قال أحد الخوارج بعد توبته: «إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا»[٢٨٣]. وقد وضع الشيعة عموماً، والمغالون خاصة أحاديث في فضل علي رضي الله عنه وآل البيت وَذَمٌ مخالفيهم..

٥- أصحاب الأغراض الخاصة، كالتقرب للسلطان، مثل الذي دخل على المهدي -وكان يحب الحمام- فقال:«لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر أو جناح» فأعطاه ثم أمر بذبح الحمام..[٢٨٤]ومنهم من يرتزق به كالقصاصين والشحاذين فيأتون بكل ما هو غريب، وقد حصل من هؤلاء معظم البلاء وخصوصاً أن من يحضرهم جهال...[٢٨٥] وقد يضع الواضع لحاجة في نفسه ، كَذَمِّ من يريد.. كالذي قال -عندما ضرب المعلم ابنه: حدثني عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «معلمو صبيانكم شراركم»، والذي أراد ذَمَّ الشافعي تعصباً لمذهبه: «يكون في أمتي رجل يقال له ابن إدريس أضر على أمتي من إبليس»، كما وضعت أحاديث في مدح بعض الصحابة وفي فضل بعض المدن وأنواع الطعام..

---

(٢٨٠) المصادر السابقة على التوالي، ص٢٨٨، ٢١٤،٤٠.

(٢٨١) السيوطي، *تدريب الراوي*، ص٢٧٨.

(٢٨٢) راجع أمثلة أخرى لمن اعترف عند قتله، ابن الجوزي، *الموضوعات*، ٣٧-٣٨.

(٢٨٣) راجع أمثل أخرى لمن تاب من المبتدعة، المصدر السابق،٣٨-٣٩.

(٢٨٤) المصدر السابق، ص٤٢.

(٢٨٥) المصدر السابق، ٤٤-٤٦.

٦- ومنهم من يضع أحاديث إغراباً وسمعة ، فربما وضع للمتن الضعيف إسناداً صحيحاً، أو يقلب الأسانيد أو يزيد فيها..

مما تقدم يظهر أن حركة الوضع لم تكن ارتجالية عفوية دائماً، بل تطورت إلى حركة هادفة مدروسة، وخطة شاملة ذات خطر شامل ، كان من نتائجها المباشرة: شيوع ما لا يحصى من الآراء الغريبة، والقواعد الفقهية الشاذة، والعقائد الزائفة ونظريات مضحكة روجت لها طوائف تظاهرت بالتصوف والفلسفة والزهد، خالفت السلوك والفكر السليم فضلاً عن مخالفة الكتاب والسنة[٢٨٦] ويؤيد رأي ابن الجوزي غالبية المفكرين الإسلاميين المحدثين حيث يرون إنها خطة لتقويض الإسلام كما سنرى في الحركات الهدامة..

وإزاء هذا الوضع.. وفي منتصف القرن الثاني الهجري ، قامت محاولة لتخليص الأحاديث الصحيحة من المزيفة، وقد تخيّر أبو جعفر المنصور لهذه المهمة مالك بن أنس ﷺ فكان أهلاً لها: فجمع مائة ألف حديث انتخب منها عشرة آلاف، واستمر أربعين سنة ينقيها حتى رجعت إلى خمسمائة حديث فقط.. وكان ذلك نقطة تحول من الرواية والسماع إلى التدوين، وقد عرف عنه قوله: «لا يؤخذ العلم عن أربعة: عن مبتدع يدعو إلى بدعته، ولا عن سفيه يعلن بالسفه، ولا عمن يكذب في أحاديث الناس، وإن كان يصدق في أحاديث الرسول ﷺ، ولا عمن لا يعرف هذا الشأن»[٢٨٧] كما قد تحوّط كل من البخاري ومسلم في جمع الأحاديث الصحيحة واشترطوا لذلك شروطاً معروفة لقبولها.. كما ظهر علم فريد من نوعه وهو علم الجرح والتعديل أو علم الرجال للبحث في رواة الحديث وَعِلَلِهِ.. حيث قَيَّضَ اللهُ سبحانه وتعالى لهذه الأمة في كل عصر من يَذُبُّ عن سنة نبيها، كما قال النبي ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين»[٢٨٨].

ثانياً: شبهات حول حجية السنة:

قد تمثل ذلك في رد السنة النبوية بغية إقصائها عن الحياة العملية بعدم اعتبارها مصدراً للتشريع، وذلك بالتشكيك فيها للوصول إلى التشكيك بالإسلام، ولكن العلماء كانوا لهؤلاء بالمرصاد. وقد تنوع هذا الرد للسنة إلى[٢٨٩]:

---

(٢٨٦) راجع ابن الجوزي، *الموضوعات*، ص٧.

(٢٨٧) راجع السيوطي، *تدريب الراوي*، ص٤٣.

(٢٨٨) التبريزي، *مشكاة المصابيح*، ص٢٤٨، المكتب الإسلامي ، والمتقي الهندي، *كنز العمال*، ج٨، ص٢٨٩. التراث الإسلامي، والقرطبي، *تفسير القرطبي*، ج١، ص٣٦، ج٧، ص٣١١.

(٢٨٩) راجع: الزهراني، محمد بن مطر، *تدوين السنة النبوية، نشأته وتطوره من ق الأول-ق٩هـ*، دار=

١- **رد السنة مطلقاً** وخلاصته: إن القرآن الكريم وحده يكفي ولا حاجة إلى السنة.. وقد بدأت بذور ذلك من أواخر عصر الصحابة من خلال مواقف بعض الأفراد.. ورد عن الحسن البصري أن عمران بن حصين ﷺ كان جالساً ومعه أصحابه فقال رجل من القوم: لا تحدثونا إلا بالقرآن، قال: فقال: أدنه فدنا ، فقال: أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن، أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعاً وصلاة العصر أربعاً...»[٢٩٠]. وكانت هذه حالات فردية ولم تتخذ طابعاً جماعياً إلا في أواخر القرن الثاني كما ذكر الشافعي في كتاب الأم، حيث قال: «باب حكاية قول الطائفة التي ردت الأخبار كلها..» ثم رد عليهم[٢٩١]. ومن المعلوم أن الرافضة ردت الأحاديث مطلقاً، لأنهم يتهمون الصحابة بالكذب والخيانة إلا ما جاء عن آل البيت، وبعض القائلين برد السنة يستثنون السنة العملية كتفاصيل الصلاة والزكاة وغيرها..

٢- **رد خبر الآحاد** وقد تعرض له الشافعي في كتاب الرسالة: الرد على من رد خبر الخاصة والآحاد، وسوف نوضح ذلك في الكلام عن علامات الساعة في الباب الثاني...

الإنحراف في التفسير:

أولاً: الوضع في التفسير:

نشأ الوضع في التفسير مع نشأته في الحديث لأنهما كانا أول الأمر مزيجاً لا يستقل أحدهما عن الآخر، فكما نجد في الحديث صحيحاً وحسناً وضعيفاً وفي رواته من هو موثوق به ومن هو مشكوك فيه ، ومن عُرِفَ بالوضع، نجد ذلك فيما رُوِيَ من التفسير ومن رَوَى من المفسرين .

وكان مبدأ ظهور الوضع سنة إحدى وأربعين من الهجرة حين اختلف المسلمون سياسياً بعد الفتنة الكبرى إلى فِرَق وجمهور إضافة إلى أهل البدع وممن تظاهر بالإسلام. ولنفس الأغراض التي ذكرناها في الحديث حاول كل فريق أن يؤيد مذهبه بشيء من القرآن الكريم..ولسبب سياسي كثر الوضع على علي وابن عباس رضي الله عنهما، بما يفوق حد الكثرة لأنهما من بيت النبوة، فوضع الشيعة على علي ﷺ، وتزلف الناس للخلفاء العباسيين

= الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٦، ص٤٨-٥٤.

(٢٩٠) المصدر نفسه.

(٢٩١) الشافعي، الأم، ج٧، ص٢٧٣.

بوضع تلك الأحاديث منسوبة إلى جدهم ، وزاد القصاص هذا النوع من التفسير فجاءت روايات متناقضة لموضوع واحد لا يمكن أن تصدر من رسول الله ﷺ.

وكان من آثار ذلك أن ضاع كثير من التراث العظيم الذي خلفه أعلام المفسرين من السلف بسبب إحاطة الشكوك به، وفقدان الثقة بالكثير منه، ورد كل رواية تطرق إليها الضعف، كما أن إختلاط الصحيح بغيره أفقد القدرة عند البعض على التمييز بينها فحكموا عليها بحكم واحد[٢٩٢].

كما أدى إلى إتهام الرواة بالتناقض واتهام المسلمين بقبولها، ومن ذلك ما ورد في اتهام ابن عباس لورود روايتين متناقضتين في قصة الذبيح عنه، واحدة تقول «إسماعيل» والأخرى «إسحاق»، فقد عزا ابن كثير الرواية بأنه «إسحاق» إلى كعب الأحبار الذي كان يحدث عمرﷺ، فربما استمع الناس مع عمر ونقلوها غثها وسمينها[٢٩٣]، وقد رَوَى ابن جرير الطبري رواية عن ابن عباس ﷺ: «والمفدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود»[٢٩٤].

ثانياً: الإسرائيليات:

نقصد بالإسرائيليات المفهوم الواسع لها وهي: «جميع العقائد غير الإسلامية»[٢٩٥]، وخصوصاً ما دَسَّهُ أهل الكتاب ويتعارض مع التعاليم الإسلامية، لا سيما في عصمة الأنبياء والرسل.. وسميت الإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودي على النصراني.

وتعتمد الثقافة اليهودية على التوراة والتلمود -شروحها- مع أساطيرهم، والكتاب المقدس عند النصارى يشمل التوراة والإنجيل ويطلق عليهما العهد القديم والعهد الجديد مع الشروح والقصص..وفيهما تفصيل لقصص الأنبياء والأمم الماضية مما ذكره القرآن مجملاً غالباً مركزاً على جانب العبرة والعظة منها[٢٩٦].

ويرجع دخول الإسرائيليات إلى عهد الصحابة ﷺ، وسؤالهم اليهود الذين أسلموا

---

(٢٩٢) راجع: الذهبي، محمد حسين، *التفسير والمفسرون*، ط٤، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٩،ج١، ص١٥٩-١٦٠.

(٢٩٣) راجع: تحقيق ابن كثير في قصة الذبيح وإنه إسماعيل ، الصابوني ، *مختصر تفسير ابن كثير*،ج٣، ص١٨٧-١٨٨.في تفسير الصافات ١٠٧: ٣٧.

(٢٩٤) الطبري، *تفسير الطبري*، ج٢٣، ص٥٣.

(٢٩٥) المصري، جميل، *حاضر العالم الإسلامي*، ج١، ص٥٢.

(٢٩٦) راجع: الذهبي، *التفسير والمفسرون*، ج١، ص١٦٧.

توضيحاً للقصص المجمل مع الحذر، امتثالاً لقول الرسول ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا»[٢٩٧]. وقال ابن حجر في تفسيره: «...أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لئلا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه، أو كذباً فتصدقوه فتقعوا في الحرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما يخالف شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه»[٢٩٨].

ومدارس التفسير التي تكونت زمن الصحابة والتابعين تعتمد على المأثور عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، ويختلط فيه من الإسرائيليات، وتوسع التابعون في ذلك، وأفرط البعض وإن كان يخالف النص، أو مما لا فائدة في معرفته، كأسماء أصحاب الكهف، وكلبهم واسم الشجرة التي أكل منها آدم... ثم جاء بعدهم من التابعين من شغف بها حتى وصلت إلى حد الخرافة، وكان أخطرها ما يطعن في عصمة الرسل والأنبياء، فوجد في المفسرين من حشوا تفاسيرهم بذلك.

ومن أعلام رواة الإسرائيليات، عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز (ابن جريج)، وقد نبّه ابن عباس على ذلك فقال[٢٩٩]: «كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الإخبار بالله، تقرؤونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب.. ولا والله ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذي أنزل إليكم». وكان عمر بن الخطاب قد فطن مبكراً لخطر الاستماع إليها فنهى عن التحدث بها وذهب الباحثون إلى أن ذلك كان عن تدبير وتخطيط وأنها من عوامل الحرب الفكرية[٣٠٠].

والحقيقة أن الطعن الموجه ضد أعلام رواة الإسرائيليات لم يثبت عند أهل الجرح والتعديل، وذلك لأنهم لم يرفعوا رواياتهم للرسول ﷺ، بل على أنها في كتبهم، وَتَنَبُّهُ عمر

---

(٢٩٧) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، ج٣، ص١٦٣.

(٢٩٨) ابن حجر، *فتح الباري*، ج٨، ص١٢٠، والآية من المائدة ٥: ٥٩

(٢٩٩) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الشهادة، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ج٢، ص٧٤.

(٣٠٠) انظر: عبد الصبور مرزوق، *الغزو الفكري أهدافه ووسائله*، ص٦٤-٦٥؛ والنجار، عبد المجيد، مباحث منهجية في الفكر الإسلامي، ص٩١؛ وجميل المصري، *حاضر العالم الإسلامي*، ج١، ص٥٣.

بن الخطاب يُحمل على تأثيرها السيئ، وقد عاد كعب الأحبار للتحديث أيام عثمان ﷺ إبان الاضطرابات السياسية، وحتى على احتمال حسن النية فقد أثار عند البعض الجرأة على الوضع وتحريف العقيدة عن طريق الأسلوب الإخباري.. وبذلك يمكن تقسيم الإسرائيليات إلى ثلاثة أنواع[٣٠١]:

١- صحيح مقبول، وهو ما له شاهد من النصوص كاسم صاحب موسى(الخضر).

٢- لا يصح ولا يقبل، وهو ما كان يصادم الشرع ويعلم كذبه..

٣- يتوقف فيه وهو مما ليس من الأول ولا الثاني، ومما لا فائدة في معرفته.

وعلى العموم دخلت هذه الإسرائيليات كتب التفسير، منها المقل ومنها المكثر[٣٠٢]، وكان من آثار ذلك[٣٠٣]: أن ضاعت الأخبار الصحيحة بجانب المكذوبة، كما أن إسنادها إلى أهل الكتاب جعل الناس ينظرون إليهم بعين الريبة والاتهام وهذا يؤدي إلى الشك في الرواية وصحة المصدر التشريعي، ولذلك تصدى لها العلماء في «مصطلح الحديث» بوضع أسس لنقد الرواية..

وصارت هذه الروايات عقبة أمام المفسرين لأن القدرة على فحصها وتمييزها محدودة، فتكلف النقاد عبء التصحيح والغربلة وأهدروا طاقات كان الأجدر أن توجه للدعوة... وزعم المغرضون بأن المصادر غير علمية ولا معقولة، وأنه دين خرافة لا يحترم العقل فاحتاج تفنيد ذلك إلى جهود العلماء..ويطبق الأعداء المعاصرون الأساليب الإسرائيلية التي تناسب العصر، كطبعات المصحف المريبة، ووسائل التعمية حيث يختلط الصحيح بالزائف.

ثالثاً: التأويل الفاسد:

التأويل في الإصطلاح: «صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى مرجوح يحتمله، لدليل يصيّره راجحاً»[٣٠٤] أو: «صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر غير المتبادر منه، بقرينة توجب صرفه عن المعنى الأول»[٣٠٥] ومجال التأويل: الفقه وفروعه، أما في العقائد وأصول

---

(٣٠١) راجع: الذهبي، *التفسير والمفسرون*، ج١،ص ١٧٨-١٧٩.

(٣٠٢) من المكثرين: ابن جرير الطبري لتأثره بالروايات التاريخية، وإن كان يعقب بالنقد، والسمرقندي في *بحر العلوم*، يذكرها دون تعقيب، والثعالبي، والبغوي يذكرها أحيانا دون تعقيب وينقل ابن كثير عن ابن جرير وينبه على منكراتها ويحذر منها تارة..

(٣٠٣) راجع بعض هذه الآثار في : عبد الصبور مرزوق، د. *الغزو الفكري*، ص٦٤-٦٦.

(٣٠٤) انظر: الشوكاني، *إرشاد الفحول*، ط مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة، د.ت. ص١٧٦.

(٣٠٥) القرضاوي، يوسف، *من محاذير التفسير*: سوء التأويل بحث في مجلة «إسلامية المعرفة » العدد ٨،

الدين وصفات الله سبحانه وتعالى فقد ذكر الشوكاني ثلاثة اتجاهات:

١ - لا تأويل بل تجري على ظاهرها، وهو قول المشبهة.

٢ - لها تأويل ولكن نمسك عنه، مع تنزيه الإعتقاد عن التشبيه والتعطيل لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ...﴾(٣٠٦) وهو قول السلف.

٣ - لها تأويل.

والأول باطل، ونقل الثاني والثالث عن الصحابة، والغالب مذهب السلف، والتأويل لا بد منه، وقد لجأت إليه كل المدارس الإسلامية، وقد يلجأ إليه لتنسجم النصوص مع بعضها، فقد أولوا قول الرسول ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(٣٠٧) وقوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »(٣٠٨)، بأن المراد الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة، لأن القرآن الكريم أثبت الإيمان للمقتتلين.

وحتى العلماء الذين أخذوا بالظاهر كابن حزم والذين حاربوا التأويل لجأوا إليه أحياناً(٣٠٩). أما التأويل الفاسد الذي وقع بقصد وبغير قصد ، فقد حدث من جهات متعددة كل واحدة حسب معتقدها ومن هؤلاء:

تأويلات الفرق الشيعية:

من المعلوم أن الشيعة -إلا الزيدية- يؤمنون بأن للقرآن ظاهراً وباطناً، والباطن لا يعرفه إلا أئمتهم، ولما كانوا فرقاً كثيرة ومنها الغالية، كانت كل فرقة تؤول حسب معتقدها... لأنهم لا يجدون في ظاهر القرآن الكريم ما يحقق أغراضهم وميولهم، فحاولوا الربط بينهما، واعتمدوا في ذلك على أمور من قبيل الأوهام والخرافات... كالجفر والجامعة، ومصحف فاطمة.. مثاله: يقول أحد مفسريهم (الطبرسي) في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ

سنة ١٩٩٧، مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص١٠٩.

(٣٠٦) آل عمران ٣: ٧.

(٣٠٧) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، ج٥، ص١٢٦، ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي لا ترجعوا بعدي كفارا، ج١، ص٨١-٨٣، والدارمي، *سنن الدارمي*، كتاب المناسك، باب في حرمة المسلم، ج٢، ص٣٩٥، رقم ١٩٢٧.

(٣٠٨) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الأدب باب ما ينهي من السباب واللعن، ج٧،ص٨٤، ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الإيمان باب بيان قول النبي سباب المسلم فسوق. ج١، ص٨١، وأحمد، *مسند أحمد*، ج١، ص١٧٦.

(٣٠٩) راجع : القرضاوي، يوسف، *من محاذير التفسير سوء التأويل*، ص١١٦-١٢٠.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[310] يقول: «...واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة»[311] وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾[312] يقول: «ويدخل في الغيب ما رواه أصحابنا من زمان غيبة المهدي ووقت خروجه»[313]، وفي قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[314] يقول: «ويحمل ذلك تبليغه الناس إمامة علي ﷺ ويروي قصة غدير خم»[315]، ومن منكرات تأويلاتهم :﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[316] هما أبو بكر وعمر..! وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[317] هي عائشة! و﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[318] علي وفاطمة...﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[319] الحسن والحسين..

والأدهى من ذلك إعتقادهم بتحريف القرآن الكريم من قبل الصحابة بحذف ما جاء بخصوص العهد لعلي ﷺ.. وإن أكثر القرآن الكريم وارد في أئمتهم ومخالفيهم،[320] والمعتدلون من الشيعة يرفضون فكرة التحريف.

أما تأويلات غلاة الصوفية:

فالتفسير الصوفي إما نظري فلسفي أو عملي فيضي إشاري، وكل يؤول القرآن الكريم حسب نظرته.. وذلك لأن ظاهر القرآن الكريم لا يشهد لهم، فيعمدون إلى التعسف في تفسيره بما يخرجه عن ظاهره المؤيد بالشرع واللغة. وشيخ الطريقة الأولى (ابن عربي) الذي يفسر القرآن الكريم تفسيراً فلسفياً يؤيد (وحدة الوجود) ويؤول قوله تعالى:﴿وإلهكم إله

---

(٣١٠) البقرة ٢: ٥٩.

(٣١١) الطبرسي، مجمع *البيان*، ج١، ص٥٠، نقلا عن الذهبي، *التفسير والمفسرون*، ج٢، ص١٠٥.

(٣١٢) البقرة ٢: ٣.

(٣١٣) الطبرسي، مجمع *البيان*، ج١، ص١٧، والذهبي، *التفسير والمفسرون*، ج٢، ص١٠٥.

(٣١٤) المائدة ٥ : ٦٧.

(٣١٥) الكاشاني، ملا حسن، الصافي في تفسير القرآن، ج١، ص١٦٤. والآية من المائدة: ٥: ٦٧. الذهبي، *التفسير والمفسرون*، ج٢، ص١٦٢.

(٣١٦) المسد ١١١: ١.

(٣١٧) البقرة ٢: ٦٨.

(٣١٨) الرحمن ٥٥: ١٩.

(٣١٩) الرحمن ٥٥: ٢٢.

(٣٢٠) راجع هذه التفاسير للشيعة عند الذهبي، *التفسير والمفسرون*، ج٢، ص١٩-٣٢؛ والقرضاوي، *في محاذير التفسير سوء التأويل*، ص١٢٤.

واحد﴾ قال: «إن الله تعالى خاطب المسلمين والذين عبدوا غيرالله قربة إلى الله فما عبدوا إلا الله»[٣٢١]. وفي قوله تعالى:﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ يقول: «نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا وظهورنا في صوركم»[٣٢٢]وهو تفسير يخرج القرآن الكريم عن هدفه..

والتفسير الإشاري وهو رياضة روحية يصل الصوفي إلى درجة تنكشف له فيها من الإشارات القدسية من الغيب بما تحمله الآية من معارف..والحقيقة هو ضرب من التفسير الباطن الخارج عن الشرع.. مثل قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ..﴾ إشارة إلى خلع الدنيا والآخرة من قلبه[٣٢٣]، وفي قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يقول سهل التستري: «وأما باطنها فالجار ذي القربى: هو القلب، والجنب: هو الطبيعة، والصاحب بالجنب: هو العقل المقتدي بالشرع، وابن السبيل: هو الجوارح المطيعة لله»[٣٢٤].

ومن تأويلات الفرق الكلامية:

ومنها تأويلات الجبرية الذين يعدون الإنسان مسيراً، اعتمدوا على آيات المشيئة كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٣٢٥]، لذا أولوا الآيات التي تحمّل الإنسان مسؤولية عمله وتحضه..ولا يخفى أن شيوع تلك الأفكار تقعد الأمة عن العمل. وتأويلات المعتزلة معروفة لإثبات عقائدهم، كالمنزلة بين المنزلتين، ونفي الشفاعة والرؤية.. وتفسير الكشاف للزمخشري خير شاهد على ذلك.. فنراه يتحايل على النصوص في عدم إعتقاده بالسحر فيقول في شرح ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ بعد كلام طويل..:«ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات...تشبيها لكيدهن بالسحر...»[٣٢٦]، وفي إثبات حرية الإرادة يؤول الهداية بمعنى: اللطف والتوفيق، ففي قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣٢٧] قال: أي يخذله ويخلّه وضلاله.. لأنه ليس من أهل اللطف، ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ

---

(٣٢١) ابن عربي، محي الدين، *الفتوحات المكية*، ج١، ص١١٥. والآية من البقرة ٢: ١٦٣؛ *الذهبي*، ٢/ ٣٣٤.

(٣٢٢) ابن عربي، تفسير *ابن عربي*، ج٢، ص٢٩٢. والآية في الواقعة ٥٦: ٥٧.

(٣٢٣) القرضاوي، *من محاذير التفسير سوء التأويل*، ص١٢٧، والآية من طه ٢٠: ٢٠.

(٣٢٤) التستري، *تفسير القرآن العظيم*، ص٤١-٤٥؛ والذهبي، *التفسير والمفسرون*، ج٢، ص٣٥٠، والآية من النساء ٤: ٣٦.

(٣٢٥) الإنسان ٧٦: ٣٠.

(٣٢٦) الزمخشري، *الكشاف*،ج٤، ص٨٢١-٨٢٢.

(٣٢٧) الأنعام ٦: ٣٩.

عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يلطف به لأن اللطف يجدي عليه[٣٢٨].

ومن شطحات التفسير العلمي:

ما فعله الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره «الجواهر» حيث تعامل مع القرآن الكريم كأنه كتاب علمي.. وتكلف في هذا المسلك بشكل يُخِلُّ بجلال القرآن الكريم وقدسيته، فضلاً عن اعتماده على إنجيل برنابا، ونقله عن أفلاطون وإخوان الصفا، وحساب الجمل، وهو عدوى اليهود..

ومنها: التفسيرالإلحادي:

الذي لا يعتمد على دليل بل على الهوى، وقد ظهرت في العصر الحديث وسيلة من وسائل الكيد للإسلام مثل «القرآن والمفسرون»..وغالباً ما تظهر تلك التفسيرات كمقالات وبحوث ..من ذلك تأويل آيات الحدود بأن الأمر فيها ﴿**فاجلدوا**﴾ و﴿**فاقطعوا**﴾ للإباحة لا للوجوب.. وبذلك -في رأيه- تكون الشريعة مرنة وصالحة لكل زمان ومكان!! وهو إجتهاد مردود لأنه فيما لا مجال فيه للاجتهاد.. فهو أمر قطعي الثبوت..ومراد الكاتب أن يتهم الإسلام بالقسوة والوحشية، وإن كل الأوامر قابلة للاجتهاد[٣٢٩].وتفسير «الهداية والعرفان في تفسير القرآن» فيه هدم للسنة وإنكار معجزات الأنبياء، وإنكار للملائكة والجن، وبعض الأحكام..

الرابعة : الحركات الفكرية الهدامة:

تتمثل حركات التدمير الفكرية داخل المجتمع المسلم في الفكر الشعوبي والزندقة، وأفكار الحركات الباطنية بأنواعها، والتي تسربت إلى الفكر الإسلامي غالباً بعد الترجمة، ثم الاستشراق والتنصير فيما بعد..

وهدفهم جميعاً هو تقويض الإسلام من الداخل بالتعاون مع جهات خارجية..والملاحظ عليها أن جميعها نبتت خارج الرقعة العربية نتيجة لعجزهم عن المقاومة المسلحة فلجأوا إلى الغزو الفكري وتخريب عقائد المسلمين..

وقد مر الكلام في مبحث الفتن السياسية عن الفِرَقِ الضالة ودورها في إثارة الفتن والحروب المدمرة ، وجاء دور الحركات الفكرية إتماما للفتنة.

ويؤكد ذلك أن جميع هذه الحركات لا تقصد الوصول للحق، بل أرادت بإصرار استمرار

---

(٣٢٨) الزمخشري، *الكشاف*، ج١، ص٤٥١.

(٣٢٩) راجع هذه التفاسير وإنحرافاتها عند : *الذهبي، التفسير والمفسرون* ج٢، ص٤٩٩-٥٢٣.

الجدل والفتنة التي تؤدي إلى انهيار الدولة..وقد كسبت نجاحاً نسبياً بالرغم من مقاومة المسلمين لها ومواجهتها لمدة قرنين.. ثم جاءت بعدها حركات التغريب لإحيائها بجهود المستشرقين مدعية أنها حركات إصلاحية!.

ومن أبرز هذه الحركات:

أولاً: الشعوبية والزندقة:

والحركتان وإن اختلفتا في الإتجاه والأسلوب، متفقتان في الهدف والمضمون، تلتقيان في بغيهما وحربهما للإسلام، وذلك بالشك والإلحاد والانتقاص من العرب والاعتزاز بالفُرْسِ فتفضي الأولى إلى الأخرى..[٣٣٠].

يقول الجاحظ: «إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله..»[٣٣١]. والشعوبية: «مبدأ احتقار العرب والتصغير من شأنهم»[٣٣٢]، وتعني:«الاستهانة والازراء بالعرب والازراء بهم وتجريدهم من كل فضل والتعصب للفُرْسِ..»[٣٣٣]. وقاد هذه الحركة من تظاهر بالإسلام من يهود ونصارى ومجوس ، وتطبيقاً لتلك الدعوة قامت الشعوبية بإحياء الثقافة الفارسية وتمجيدها والتقليل من شأن الثقافة العربية[٣٣٤]. وركزت الدعوة على مهاجمة اللغة العربية، وإذاعة المجون والشراب واللهو والإنحراف الجنسي.. كما ركزوا على تزييف التاريخ العربي الإسلامي وظهر ما يعرف بـ«المثالب» حملت صوراً مشوهة للعرب مع الطعن والإسراف في الذم..

أما الزندقة[٣٣٥] فهي دعوة أصحاب ماني المجوسية لإنحرافهم ، ثم اتسع معناها من ديانة المجوس إلى سائر أتباع الديانات الفارسية التي تظاهر أهلها بالإسلام... إلى كل كفر وإلحاد

---

(٣٣٠) راجع: الدوري، *العصر العباسي الأول*، ص١٢١. نقلا عن مجاهد مصطفى ، *التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي* ص١٠٥.

(٣٣١) الجاحظ، *الحيوان*، ج٧، ص٢٢٠.

(٣٣٢) لسان العرب، ج١، ص٤٨٢. *والقاموس المحيط*، ج١، ص٩١.

(٣٣٣) الجاحظ، *البيان والتبيين*، ج٣، ص٥-١٢٤.

(٣٣٤) راجع: الجندي، *أنور، المؤامرة على الإسلام*، ص١٠٨.

(٣٣٥) اختلف العلماء في أصل الكلمة أهي فارسية أم معربة راجع: مجاهد مصطفى، *التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي*، ص١٠٦-١٠٧. وفي دائرة المعارف الإسلامية تعني: الملحد الذي يشكل تفسيره لنصوص الشرع خطرا على الدولة، ج١٠، ص٤٤٠.

وشك وفلسفة ومجاهرة بالمجون والإثم.. وبلية هؤلاء أعظم لأنهم يتسترون بالإسلام وحقيقتهم معاداته ، تبدأ بالتهجم على العرب ثم لغتهم وتنتهي بالهجوم على الإسلام..

وكان من آثارها رد الفعل من المتعصبين للعرب، وخالف الجميع روح الإسلام التي تنكر التفريق بين المسلمين، لأن الإسلام حدد مبدأ التفاضل وهو «التقوى» قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٣٣٦)

ومن آثارها استغلال هؤلاء للأدب للتعبير عن المفاخرة والمفاضلة بينهم وبين العرب.. وقد كان العصر العباسي من أخصب العصور للشعوبية حين ولي المجوس والنصارى في مراكز الدولة، فسيطرت تقاليدهم بأن أصبح الترف أمراً مألوفاً، فتجرأ المفسدون وكان من أهم رموزهم الكاتب «ابن المقفع» فقد نقل إلى العربية كتباً فارسية كثيرة، ومن أهم ما كتبه «الدرة اليتيمة» والذي يدل على دوره المنحرف، وإن كانت الظروف لا تساعده حيث قتله المنصور بالزندقة وقد كان يعارض القرآن فيه ويبدأ فقراته ببسملة جديدة: بسم النور الرحمن الرحيم (٣٣٧). وقد رُوِيَ أنه مر على بيت نار بعد إسلامه فقال:

يا بيت عاتكة الذي أتعزل	حذر العدا ، وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنني	قسماً إليك مع الصدود لأميل

ولهذا قال المهدي فيه: «ما وجد كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع»(٣٣٨). وقد زاد هذا الإتجاه زمن نفوذ البرامكة فطردوا الأصمعي من بلاط الخليفة وأحلوا محله أبا عبيدة الذي يجمع بين اليهودية والمجوسية، فألف كتب المثالب على العرب، كما أنه عرف بالوضع في الأحاديث والأخبار، وقد تسربت مروياته في كتب التاريخ.. ومثله «أبان اللاحقي» ترجم كتاب مزدك ونظم للبرامكة «كليلة ودمنة» شعراً. ومن هؤلاء «بشار بن برد» الذي فضل النار على الطين، وهو رأي إبليس وأفكار الثنوية، فيقول:

إبليس خير من أبيكم آدم	والطين لا يسمو سمو النار(٣٣٩)

---

(٣٣٦) الحجرات ٤٩: ١٣.

(٣٣٧) ألف القاسم بن إبراهيم « *الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع* » وجاء بفقرات من كتابه.... انظر شيئا من تلك التخريصات في: عبد الصبور مرزوق، *الغزو الفكري*، ص٦١.

(٣٣٨) ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، (ترجمة الحسين الحلاج)، ج٩، ص١٧٨.

(٣٣٩) المبرد، *الكامل*، ج٢، ص ٢٣.

وقد أعانت حلاوة شعره على رواج ما يدعو إليه ... فقتله الخليفة المهدي..[٣٤٠]. وفي مدرسة بشار (أبو نواس) المعروف بمجونه ودعوته للتحرر من أساليب العرب في نظم الشعر، وإستبدال إستفتاح القصائد بالأطلال بوصف الخمرة والغزل بالمذكر.. ونتج عن ذلك طائفة المخنثين المجاهرين بالرذيلة كأمثلة واقعية للاستهانة بالدين، ويرى الباحثون أن انحراف هؤلاء ليس ضرباً من الانحراف الفردي، فالمدرسة البشارية مع المناخ الذي ظهرت فيه، وأدوار هؤلاء .. كأن الأمر حلقة متكاملة كل له نصيب[٣٤١]. ومن آثار ذلك أن نظر الكثير جرياً مع المستشرقين على أن العصر العباسي عصر مجون وتهتك..وليس الأمر كذلك..[٣٤٢].

ثانياً: الباطنية:

وهي من أكبر معاول الهدم الفكري في التاريخ..فقد ضمت جميع العناصر المعادية للإسلام، وقد مر ذكرها كفرقة شيعية (الإسماعيلية)، لقولهم بباطن القرآن الكريم دون ظاهره أو بالإمام الباطن المستور[٣٤٣]. وكل فِرَقِ الباطنية تظاهرت بالإسلام للوصول إلى مآربهم، وتقوم مفاهيمهم على الرفض والتعطيل وإبطال النبوات، وإسقاط التكاليف، وغيرها مما سنتعرض له، وتضم الباطنية الدعوات التالية:

دعوة الزنج وثورتهم:

وقد سبق ذكرها في «إثارة الحروب»، وثورتهم كانت مقدمة لظهور القرامطة، واستمرت فتنتهم خمسة عشر عاماً.. فقد تظاهر مؤسسها وهو من خراسان، بالدعوة لآل البيت وادعى أن نسبه لأبناء الحسن، وكسب ثقة الزنج وسار بهم إلى (البحرين) مركز القرامطة ثم البصرة واستدرج العبيد وسار بهم إلى القادسية وهاجم البصرة وقام يحرق بها ويقتل يوم الجمعة وما بعدها لثلاثة أيام، وفعل مثل ذلك بواسط إلى أن هزمهم أبوالعباس الموفق سنة ٢٦٧هـ، ودخل عاصمتهم المختارة وقضى عليهم نهائياً سنة ٢٧٠هـ[٣٤٤]. ودور هؤلاء تمثل في ادعاء

(٣٤٠) الأصفهاني، *الأغاني*، ج٣، ص٢٣٩.

(٣٤١) راجع: عبد الصبور مرزوق، *الغزو الفكري*، ص٦١-٦٣.

(٣٤٢) راجع مؤيد فاضل ملا رشيد، *شبهات حول العصر العباسي الأول*، ط٢ دار الوفاء، مصر سنة ١٩٩٠، ص٥٥-٨٨. تفنيد الأباطيل ودحضها.

(٣٤٣) الذهبي، *التفسير والمفسرون*، ج٢، ص٢٢٧.

(٣٤٤) الإمام الغزالي ، *فضائح الباطنية* ،ص٨٧.

النبوة من قبل زعيمهم وتمهيدهم للقرامطة..[٣٤٥].

القرامطة:

حركة باطنية هدامة هدفها الإلحاد والإباحية، بشّر بها حمدان قرمط بالكوفة سنة ٢٧٨هـ، بعد وفاة القائد أبي العباس الموفق وامتدت قرناً من الزمان[٣٤٦]، والذي يؤكد الوحدة الفكرية لهذه الحركات، اتباعهم أسلوب صاحب الزنج حيث ادعى القرمطي الأول أنه المسيح والكلمة والمهدي وجبريل.. كما نهجوا منهج الزنج في معاملة الأسرى وسبي النساء والسلب والنهب.

وقد عاصر الحلاج الحركتين، وكان حلقة الوصل بينهما، فقد كان يجوب خراسان سنة ٢٨٥هـ، ويقسم بظهور المهدي المنتظر.. وقبض على الحلاج سنة ٣٠١هـ، في أوج دعوة القرامطة، ويتضح الربط بين الحلاج ومهاجمة القرامطة للحجاج ومكة، أنه كان يدعو لإبطال فريضة الحج وتجريد مكة من أفضليتها مما شجع القرامطة على مهاجمتها وقلع الحجر الأسود وإرساله إلى هجر مدة (٢٢) عاماً ولم يعد إلى موضعه إلا بعد إستقرار الدولة الفاطمية.. وثبوت الحكم الفارسي ببغداد، علماً أن تدنيس مكة هدف من أهداف الدولة الفاطمية.

وكان الحلاج قد ادعى الألوهية «أنا الحق» ، وكان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه «سبحانك يا ذات الذات»، وفتن الناس به فقبض عليه، وحوكم علانية وأفتى الفقهاء بقتله بالإجماع.. ويبدو أن الخليفة المقتدر اكتشف سراً خطيراً بان له، أن الجبة التي قال عنها الحلاج «ما في الجبة إلا الله» كانت ستاراً يغطي اتفاقاً سرياً بين الحلاج ورئيس القرامطة لقلب الدولة وتقويض أركان الإسلام[٣٤٧].

إخوان الصفا:

وهم جماعة سرية مزجت الفلسفة اليونانية مع العقيدة الباطنية والعقيدة الإسلامية فكانت مزيجاً متضارباً فاسداً، وقد ألفها عشرة كتموا أسماءهم، في خمسين رسالة سموها رسائل «إخوان الصفا» وبثوها في الوراقين ووهبوها للناس، وقد وصفهم أبو حيان التوحيدي بأنهم: «عصابة تألفت بالعشرة وتصادفت بالصداقة، فوضعوا مذهباً زعموا أنهم قربوا به

---

(٣٤٥) راجع: الجندي، أنور، *المؤامرة على الإسلام*، ص١٨٩-١٩٠.

(٣٤٦) راجع في زعماء الحركة وتفاصيلها ومعقداتهم ، *الموسوعة الميسرة*، ص٣٩٥-٣٩٨.

(٣٤٧) قيل عنه أنه مشعوذ، وأنه كان يستعيض بكعبة مصغرة يطوف بها هو وأتباعه، راجع في ذلك: الجندي، أنور، *الإسلام في مواجهة الفلسفات الحديثة*، ص١١٦.

الطريق إلى الفوز برضوان الله سبحانه وتعالى، وذلك أنهم قالوا: «إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة...»[٣٤٨].

وكانوا يفسرون أمور الشرع خلافاً للمأثور..يعتقدون بألوهية الإمام وعصمته، كما دعوا إلى وحدة الأديان وإلغاء التعصب الديني! وقولهم إن الشرائع للعامة، ولا حاجة للخاصة بها.. وبهذا يثبت انحرافهم، وكتمان هؤلاء لأسمائهم، وأخذهم من كل دين وعلم وفلسفة، مع إهتمام المستشرقين بهم وإعتبارهم من حركات الإصلاح! كل ذلك دليل على أنهم من الحركات الفكرية ضد الإسلام..ولم تلق دعوتهم آذاناً صاغية في العالم الإسلامي لأنها تناقض جوهر الفطرة[٣٤٩].

الحشاشون:

طائفة إسماعيلية منشقة، أسسها الحسن بن الصباح الذي اتخذ قلعة «الموت» مركزاً لنشر دعوته، عرفت بإستعمال الحشيش لتخدير الأعضاء الجدد ، كما تميزت باحتراف القتل والاغتيال المنظم لأهداف سياسية ودينية، يمتنعون بالقلاع والحصون.. وينتشرون في بلاد فارس والشام وبلاد الشرق..[٣٥٠].

وليس ما ذكر من الحركات هي الوحيدة فهناك غيرها الكثير كالخرمية والراوندية والخرسانية والأفشين.. كما أن الملاحظ عليها جميعاً إعتمادها التأويل بالرموز والإشارات وصولاً إلى إسقاط التكاليف والحث على الشهوات.. فقالوا إن الظاهر إلى الباطن كنسبة اللب إلى القشر! والمتمسك بالظاهر معذب..! وباطنه يؤدي إلى ترك العمل، مؤولين قوله تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾[٣٥١].

وقد ثبت كره هؤلاء للإسلام، وصلتهم بالإسماعيلية في دور التستر، وصلتهم بالصليبيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين، وإستعمال جماعة منهم العنف حيث إغتالوا عدداً من قادة المسلمين كما حاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبي أكثر من مرة..[٣٥٢]. وكان كل

---

(٣٤٨) أبو حيان التوحيدي، *الإمتاع والمؤانسة* ، ج٢ ص٥.

(٣٤٩) انظر أفكارهم ومعتقداتهم وتفسيراتهم: الجندي، *المؤامرة*، ١١٧.

(٣٥٠) *الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة*، ٤٧، ٢٠٣-٢٠٧.

(٣٥١) راجع: الأيجي، *المواقف*، ج٨، ص٣٨٨، والذهبي، *التفسير والمفسرون*، ج٢، ص٢٣٢. والآية من سورة الحديد ٥٧: ١٣.

(٣٥٢) راجع: المصري، جميل، *حاضر العالم الإسلامي*، ج١، ص٤٩.

ذلك مقدمة لسقوط بغداد ٦٥٦هـ وزحف الصليبيين[٣٥٣].

الباطنية المتأخرون:

ما مر ذكره هم الباطنية المتقدمون ، أما المتأخرون منهم فهم موجودون بين المسلمين إلى يومنا هذا، ومنهم:

البابية والبهائية (Bahaism):

وهي حركة نشأت سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م تحت رعاية الإستعمار الروسي واليهودية العالمية والإستعمار الإنجليزي بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية[٣٥٤].

والبابية نسبة إلى الباب (لقب ميرزا علي محمد) المؤسس الأول (١٢٣٥-١٢٦٥هـ) ولادته ونشأته في «شيراز» جنوب إيران، ادعى أنه الباب (ومعناه المهدي المنتظر عند الشيعة) وذلك سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م. ولما مات قام بالأمر من بعده «الميرزا حسين علي» الملقب بالبهاء وسمى الحركة «البهائية»، توفي في «عكا» من بلاد الشام، وله كتاب سماه «الأقدس».

وللبابية والبهائية نفس تعاليم الباطنية من التظاهر بالتشيع وإبطال الشريعة، وقد ادعى كل منهما النبوة [٣٥٥]، وقد بعث الباب رسالة إلى المفسر «الألوسي» يدعوه للإيمان به، وقد ذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٣٥٦]، فقال: «فقد ظهر في هذا العصر عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية، لهم في هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم في سلك ذوي العقول»[٣٥٧].

والحركة ليست نِحْلَةً جديدة، بل امتداد للباطنية باسم جديد، ولهم تأويلات مضحكة للقرآن وخصوصاً في «قصة يوسف عليه السلام» قال الباب في تفسير الآية (٤) من سورة يوسف: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا...﴾ وقد قصد الرحمن من

---

(٣٥٣) انظر: الجندي، *المؤامرة على الإسلام*، ص١٥٠-١٥١.

(٣٥٤) *الموسوعة الميسرة*، ص٦٣.

(٣٥٥) الحقيقة أنهما طائفة واحدة، والباب مؤسسها الأول، والبهاء زعيمها الثاني، وقد واجه المسلمون هذه الدعوة واظهروا بطلانها، حيث أمر الصدر الأعظم بقتل الباب في ميدان تبريز سنة ١٢٦٥هـ رميا بالرصاص، راجع: الذهبي، *التفسير والمفسرون*، ج٢، ص٢٣١-٢٤٨.

(٣٥٦) الأحزاب ٣٣: ٤٠.

(٣٥٧) الآلوسي، *روح المعاني*، ج٢، ص٣٩.

ذكر يوسف نفس الرسول ﷺ وثمرة البتول حسين بن علي بن أبي طالب مشهوداً، إذ قال حسين لأبيه يوماً: إني رأيت ...رأيتهم بالإحاطة على الحق لله القديم سجاداً .. وإن الله أراد بالشمس فاطمة والقمر محمداً وبالنجوم أئمة الحق..، وفي قوله تعال: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾، يا بني لا تخبر مما أراك الله من أمره إخوتك ترحماً على الفهم، وصبراً لله العلي وهو الله كان عزيزاً حميداً ... فيكيدوا لك كيداً بأن يقتلوا أنفسهم في محبة الله من دون نفسك..»[٣٥٨]. مع إعتقادهم بالتناسخ والحلول والإتحاد، وإنكار معجزات الأنبياء والإعتقاد بنبوة بوذا وغيره من حكماء الصين والهند، وإن شريعتهم ناسخة للإسلام، وهم يرمون بذلك إستمرار الوحي كيداً للإسلام[٣٥٩].

ومما يؤكد تآمرهم على الإسلام رعاية الاستعمار لها حيث أتاح لها حرية الحركة في العالم الإسلامي، وخصوصاً في مصر مع فتح المراكز وإصدار النشرات التي تؤكد على التشكيك بالرسالة، وإبطال الجهاد والحج والأمر بالمعروف، والدعوة لوحدة الأديان، وأخطر دعواتهم: محاربة اللغة العربية، والدعوة لدين جديد (دين الحب)، وهو دعوة الماسونية، والسلام العالمي وهو دعوة إسرائيل، فأكدت إرتباطها باليهودية العالمية، كما دعت للمساواة بين الرجل والمرأة والإختلاط والإباحية بهدف تدمير الأسرة[٣٦٠]. ويؤكد صلتهم باليهود عقد مؤتمر البهائية في إسرائيل الذي كشف عن بعض الأسرار، كما اعتنق البهائية كثير من يهود إيران[٣٦١].

القاديانية (Qadianism):

«حركة نشأت سنة ١٩٠٠م بتخطيط من الإستعمار الإنجليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم، وعن فريضة الجهاد بشكل خاص حتى لا يواجهوا المستعمر بإسم الإسلام ، وكان لسان حال هذه الحركة هو مجلة الأديان التي تصدر باللغة الإنكليزية»[٣٦٢].

وقد مهد الإستعمار لهذه الحركة، وميرزا غلام أحمد القادياني (١٨٢٩-١٩٠٨م) أداة التنفيذ الأساسية فسميت باسمه، وهو ينتمي إلى أسرة معروفة بالخيانة للوطن، ألف الكثير

---

(٣٥٨) مفتاح الأبواب، ص٣٠٩-٣١٠. نقلا عن الذهبي، *التفسير والمفسرون* ج٢، ص٢٦٥-٢٦٦.
(٣٥٩) الذهبي، *التفسير والفسرون*، ج٢، ص٢٥٤-٢٥٧.
(٣٦٠) وقد دعت على ذلك امرأة منهم اسمها (قرة العين) في خلال مؤتمر (بدمشق سنة ١٢٦٩هـ) فأعدمها الشاه، راجع *الموسوعة* ص٦٣، والجندي، ص٢٠٩-٢١١.
(٣٦١) راجع: عبد الصبور مرزوق، *الغزو الفكري*، ص٨٧.
(٣٦٢) *الموسوعة الميسرة*، ص٣٨٩.

من الكتب لدعوته، وقاد بعده الحركة مجموعة من الجواسيس[٣٦٣]، كما تسمى الأحمدية نسبة إليه، وقد إدعى أنه المسيح الموعود والمهدي..

وأبرز انحرافاتهم: بروز الجانب الشعوبي المعادي للإسلام ومقدساته، فقد نقل المودودي عن أحد أتباعهم يقول: «فإن الذي يزور قبة المسيح الموعود البيضاء في قاديان له نصيب من البركات التي تختص بقبة النبي الخضراء بالمدينة، فما أشقى الرجل الذي يحرم نفسه من هذه البركات خلال الحج الأكبر إلى قاديان»[٣٦٤]، مع إستخدام عبارات التوقير للرسول ﷺ له، يقولون: الميرزا عليه السلام! ولأهل بيته: أم المؤمنين[٣٦٥]!.

فهي إذن محاولة لإحلال عقيدة مكان عقيدة ونبي مقام نبي وقبلة بدل قبلة، ومما يدل على صلتهم بالاستعمار اشتراطهم على المبايع لهم الولاء والطاعة للحكومة القائمة، كما أنهم جواسيس الإنكليز في الهند وخارجها، ونقل لنا المودودي خطابات المؤسس وأتباعه لصرف المسلمين عن الجهاد.. مع فرحهم بمصائب المسلمين، كاحتفالهم بدخول جيش الإنكليز إلى العراق[٣٦٦]، وهم استمرار للبابية بدعوى إحداث دين جديد ونسخ الشريعة الإسلامية وإحلال المحرمات كالمخدرات، والتأويل الباطن للنصوص الصريحة..[٣٦٧]، ولهم علاقة وطيدة بإسرائيل التي فتحت لهم المراكز والمدارس ومكنتهم من النشر.. ويسعى أتباعهم بمساعدة الاستعمار في الحصول على المراكز الحساسة في كل بلد يستقرون فيه[٣٦٨]، وقد حاول المستشرقون خداع المسلمين على أنها حركة إصلاحية! ومما حققته هذه الحركة إثارة الجدل بين المسلمين بشأنها وإثارة شبهات حول الإسلام مع إثارة العنصرية بشأن رسول عربي وهندي..[٣٦٩]. والصلة واضحة بين القاديانية (في الهند) والبابية (في فارس) بإلغاء الجهاد كاملاً في وقت كان المسلمون بأمس الحاجة إليه لطرد الغزاة، يقول البهاء: «إن البشارة الأولى لجميع أهل العالم هي محو الجهاد من الكتب (أي القرآن)[٣٧٠] .

---

(٣٦٣) المصدر السابق، والجندي، *المؤامرة على الإسلام*، ص٢٢٠.

(٣٦٤) راجع :المودودي، أبو الأعلى، *ما هي القاديانية*، ص٥١-٥٢.

(٣٦٥) المصدر السابق، وراجع: عبد الصبور مرزوق، *الغزو الفكري*، ص٨١.

(٣٦٦) راجع ذلك مع نماذج لخطاباتهم في المصدرين السابقين المودودي ص١٤، والآخر ص٨٤.

(٣٦٧) راجع نبذة عن معتقداتهم في *الموسوعة الميسرة*، ص٣٩٠.

(٣٦٨) المصدر السابق، ص٣٩١.

(٣٦٩) راجع: الجندي، أنور، *المؤامرة على الإسلام*، ص٢١٥.

(٣٧٠) *نبذة من إشراقات البهاء*، ص١٠٩، نقلا من المصدر السابق، ٢١٧.

يتبين مما تقدم الوحدة الفكرية للباطنية جميعاً، في الدعوة لآل البيت والتأويل الفاسد، وقد كشف الغزالي لذلك كله ورد عليها في«فضائح الباطنية» ونقل لنا من تأويلاتهم مثلا: الغسل: بمعنى تجديد العهد، الطهور: التبرؤ من كل مذهب مخالف، التيمم: أخذ العلم من المأذون، الصلاة: الدعاء للإمام، والحج: طلب العلم، الجنابة: إفشاء السر، النار: الجهل بعلم الباطن..[٣٧١]. كما قَيَّضَ الله للباطنية القدامى من يفضحهم فقد هيأ من يرد على الملاحدة الجدد..

ثالثاً: الاستشراق والتنصير

الإستشراق (Orientalism):

هو دراسة علوم الشرق، وهو حركة علمية غربية تستهدف التعرف على حضارات الشرق وأديانه ولغاته ولهجاته، وتاريخه وعلومه وطبائعه، وأحواله الإجتماعية بقصد السيطرة عليها وتدمير مقوماتها[٣٧٢].

المستشرقون: أولئك الغربيون الذين عنوا بالدراسات الإسلامية والتراث العربي، وهم على اتصال وثيق بالكنيسة..والدافِع له العداء للمسلمين بسبب الفتوحات الإسلامية ودخول كثير من الممالك المسيحية في الإسلام، كمصر، والشام، وشمال إفريقيا والأندلس والذي إزداد بعد فشلهم في الحروب الصليبية..

أما بداياته، فالحقيقة أن أول اتصالهم كان في الأندلس حيث أخذ الرهبان منهم بالوفود إلى الأندلس إبان ازدهارها، وتثقفوا في مدارسها فترجموا القرآن الكريم وبعض الكتب، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم ثم حملوه إلى بلادهم، أي «في عهد الإصلاح الديني بدأ الإستشراق ينتشر في أوربا، ولهذ قام في أول أمره على أكتاف المنصرين الرهبان، ثم اتصل بالإستعمار»[٣٧٣]. ولم يكن ذلك لحب العلم، أو لميول فردية أو جماعية، بل بناء على أوامر البابوات ويعدون في مآثر البابا «دلان» أنه افتتح أول مطبعة عربية عام

---

(٣٧١) راجع: الغزالي، أبو حامد، *فضائح الباطنية*، ص٥٥-٥٩.

(٣٧٢) راجع في معنى الإستشراق: علي جريشة، *الاتجاهات الفكرية المعاصرة*، ط٢، دار الوفاء، المنصورة مصر، ١٩٩٠، ص١٥.وحامد محمود إسماعيل، *الإستشراق والتنصير*، ضمن كتاب *الثقافة الإسلامية*، جامعة صنعاء، ص٣١٧، والجبري، عبد المتعال، *الإستشراق وجه للإستعمار الفكري*، مكتبة وهبة القاهرة، ١٩٩٥، ص١٣.

(٣٧٣) الجبري، عبد المتعال، المصدر السابق، ص١٣.

١٥١٤م[٣٧٤]، وعلى هذا ما كان هؤلاء -إلا نادراً- منصفين للإسلام وتراثه، بل صبوا عليه حقدهم.. وقد مر الإستشراق بمراحل ثلاث[٣٧٥]:

الأولى: استكشاف معارف المسلمين وسر قوتهم.

الثانية: معرفة نقاط الضعف لدى المسلمين لضربهم، وسار في هذه المرحلة مع الحروب الصليبية.

الثالثة: مرحلة العدوان الفكري المباشر على أمة الإسلام، بعد فشل الحروب الصليبية واقترنت هذه المرحلة بعقد المؤتمرات والتي لا تزال مستمرة التوجيه لحرب العقيدة.

وأهداف الاستشراق كثيرة [٣٧٦]، في مقدمتها الهدف الديني (الصليبي) لوقف حركة المد الإسلامي، والدفاعي خشية أن يغزو الإسلام بلادهم، والاستعماري، حيث مكن المستشرقون الاستعمار من تحقيق أهدافه، بل مهدوا له، وإعتمدوا عليهم في ذلك، وذلك بدارسة المناطق الشرقية وإخضاع أهلها فكرياً قبل أن يكون عسكرياً... فيكون الإستشراق قد سبق الاستعمار ومهد له وصاحبه..[٣٧٧].

وكان لبعضهم هدف علمي، ولذلك وقف بعضهم موقفاً منصفاً، وهناك من اعتنق الإسلام طواعية[٣٧٨]، غير أن أكثرهم جانب الصواب تعصباً، كما بدا ذلك في مطاعنهم وشبهاتهم التي تنم عن الحقد والكراهية، وقد أفصح «يوهان فيك» عن ذلك فقال: «إن الاستشراق لم يكن عملاً علمياً محضاً، بل المراد منه الرد على الإسلام والتبشير بالنصرانية بين المسلمين»[٣٧٩].

وأما الهدف الإقتصادي فهو إستغلال موارد الشرق وإضعافه اقتصادياً، ليسهل وقوعه في قبضة الغرب،

---

(٣٧٤) عبد الحليم، محمود، *الغزو الفكري*، ص٨٨، وعلي جريشة، المصدر السابق، ص١٦.

(٣٧٥) راجع، علي جريشة، المصدر السابق، ص١٦-١٧.

(٣٧٦) راجع هذه الأهداف في المصادر السابقة: علي جريشة، ص١٧-١٨، وعبد المتعال الجبري، ص٦١٧٤، وحامد إسماعيل، ص٣١٨-٣٢٠.

(٣٧٧) إن أول حملة إستعمارية (حملة نابليون على مصر) كانت تضم عدداً كبيراً من المستشرقين لمساعدة جيش الإستعمار بالتعرف على البلاد.

(٣٧٨) راجع أسماء عدد من هؤلاء في المصادر السابقة، وقد يكون الهدف العلمي حقيقياً للعلوم الأخرى، وقد استفادوا من الكتب العلمية في نهضتهم حيث أرسلوا من يجمع لهم المخطوطات من بلاد المسلمين وتنافسوا في ذلك خصوصاً عند ما سيطروا على البلاد فصادروا كتب المساجد، واشتروا بثمن بخس الأخرى من الأفراد، ومكتباتهم في الغرب ومتاحفهم دليل على ذلك.

(٣٧٩) عبد المتعال الجبري، ص١٦-١٧.

ويضمن لهم مصدراً رخيصاً للمواد الخام، وسوقاً لبضائعهم وهو نفس هدف الإستعمار[٣٨٠].

وأما الهدف التبشيري فالصلة واضحة كما سنبين فيما بعد.. والهدف السياسي متصل بما سبق من الأهداف[٣٨١].

الخلاصة: إن الاستشراق وجه جديد للصليبية بل سلاح من أسلحة الاستعمار وذلك بعد أن رأوا أن إستخدام السلاح يزيد المسلمين عناداً وإصراراً بما يملكون من عقيدة الجهاد فأرادوا أن يذبحوا الإسلام داخل المسلم بالشبهات والفكر الملحد..

وهناك من يرجح هدفاً على هدف، والحقيقة أنها تعمل مجتمعة ولا يمكن الفصل بينها، وقد تتفاوت الأهداف حسب المرحلة والظرف وحسب الأشخاص، وإن كانوا يرفعون دائماً راية الصليب ستاراً وتغطية لكسب تأييد شعوبهم باستغلال العاطفة الدينية..

أما المرجحون للهدف الديني فدليلهم قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[٣٨٢] وقوله: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[٣٨٣].

أما وسائلهم: فهي إما مباشرة لإيصال أفكارهم وهي الكتابة وأجهزة الإعلام..وإما غير مباشرة: وهي أكثر خطورة، مستخفية تحت أسماء إسلامية مع ألقاب كبيرة ! وهم تلاميذ المستشرقين، واشتهر هذا الأسلوب في القرن الأخير حيث أدى هؤلاء ما عجز عن تحقيقه المستشرقون أنفسهم، واعتمد المستشرقون على الكذب في تشويه عقائد المسلمين وتاريخهم ولغتهم مما سنبينه فيما بعد..

التنصير (التبشير) (Christionization Process):

«حركة دينية سياسية إستعمارية، بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية بغية نشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث بعامة وبين المسلمين بخاصة بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب»[٣٨٤].

---

(٣٨٠) المصدر السابق، ص٧٦.

(٣٨١) يتبع المستشرقون في الغرب وزارات خارجية، ولا يتخذ قرار سياسي بشأن الشرق إلا بالرجوع إليهم، راجع: المصدر السابق، ص١٣٣-١٧٣.

(٣٨٢) البقرة ٢: ١٢٠

(٣٨٣) البقرة ٢: ٢١٧

(٣٨٤) *الموسوعة الميسرة*، ص١٥٩، وانظر التأسيس وأبرز الشخصيات والمؤتمرات، ص١٥٩-١٦١.

والمنصرون هم حملة هذا الغزو الفكري، وهم يتظاهرون بالورع والتقوى في كل مكان يحلونه، وأنهم ملائكة الرحمة، ورسل الإنسانية، وحملة النور والثقافة.. بينما هم- كما يشهد الواقع وباعترافاتهم- غير ذلك..

وتلتقي أهدافهم مع الاستشراق وتفترق عنها بالأسلوب وفي مقدمة تلك الأهداف:

١- **محاربة الوحدة الإسلامية** لأنها الخطر الذي يواجه مطامعهم، يقول القس سيمون: «إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوربية، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة»[٣٨٥] ويقول لورانس براون: «إذا إتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أو أمكن أن يصبحوا أيضاً نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين ، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير»[٣٨٦]

٢- **التنفيس عن الأحقاد الصليبية** لإنهزامهم في حرب دامت قرنين بغية الاستيلاء على بيت المقدس ويظهر الفرق بينهما في الوسائل :

أ - سلك الاستشراق أسلوب الكتاب، والمحاضرة والمقالة في الجامعات، أما التنصير فمجاله من رياض الأطفال حتى الثانوية.

ب - سلك الاستشراق أسلوب البحث العلمي، أما التنصير فسلك أسلوب العمل الخيري(ظاهرياً) للتغطية، كبناء المدارس والمستشفيات ودور الملاجئ والأيتام[٣٨٧].

ويرى بعض الباحثين أن للاستشراق والتنصير تاريخاً واحداً من حيث النشوء بعد الحروب الصليبية ويراهما عملاً واحداً، كل يتمم الآخر، ويرى البعض-وهو ما نرجحه- أن الاستشراق سبق التنصير لأنه وسيلته وأداته، فلا تتم عملية التبشير إلا بعد معرفة ثقافة من يراد تنصيرهم ودراسة أحوالهم مع معرفة مواطن القوة والضعف واستغلالها وهذا عمل المستشرقين ، ثم رافقه وتعاون معه فيما بعد..[٣٨٨]. وقد كشف المبشرون عن خطتهم صراحة فقال أحدهم: «إني أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح»، وقال: «إن جزيرة العرب التي هي مهد الإسلام لم تزل نذير خطر للمسيحية» «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة»[٣٨٩]

---

(٣٨٥) المصدر السابق، ص ١٦١.

(٣٨٦) المصدر السابق، وحامد إسماعيل، *الإستشراق والتنصير*، ص٣٢١.

(٣٨٧) راجع حامد إسماعيل، المصدر السابق، ص٣٢١.

(٣٨٨) راجع، علي، جريشه، *الاتجاهات الفكرية المعاصرة*، ص٢٣-٢٤.

(٣٨٩) انظر هذه الأقوال وأصحابها في المصدر السابق، ص٢٤.

وقد فشل هؤلاء فشلاً ذريعاً، لأنهم اصطدموا بالعقيدة الإسلامية الراسخة في القلوب، فلجأوا إلى أسلوب آخر ومرحلة أخرى بعد أن عقدوا مؤتمرات أهمها مؤتمر التبشير بالقاهرة سنة ١٩٠٦م تناصحوا فيها على إخراج المسلم وتذبذبه، فقال صموئيل زويمر: «تبشير المسلمين بواسطة رسول منهم، ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها» وقال: «لا ينبغي للمبشر أن يفشل أو ييأس.. لكن يكفي جعل الإسلام يخسر المسلمين بذبذبة بعضهم..»[٣٩٠].

وقد تولى زويمر زعامة المبشرين في مؤتمر «القدس» سنة ١٩٣٥م فقال: «لكن مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله سبحانه وتعالى وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها»[٣٩١].

ولما فشلوا في إخراج المسلم من الإسلام لجأوا إلى أسلوب زحزحة المسلم عن الإلتزام الكامل، بأن يصلي الجمعة فقط، ويصوم رمضان فقط، وأن تلقي المرأة بجزء من الحجاب، وبهذا سار التنصير مع الاستشراق ومع الاستعمار كذلك.. بل أن الإستعمار كان يرعاهما، كما لا ننسى الدور اليهودي ودفعهم للإستشراق ومدهم بالإمكانات المادية كما أن أكثر طلاب الدراسات الشرقية في جامعات أوربا وأمريكا هم من اليهود ! ثم جنوا الثمرات بعد ذلك، حيث مَكَّنَ الاستشراق والتنصير والإستعمار اليهود من فلسطين..

وقد تعاون الاستشراق مع التنصير في عملية الهدم للإسلام وقيمه وتراثه وإلحاق الضرر بالمسلمين وإقتصادهم عن طريق الاستعمار، ومن ثم السيطرة على مُقَدَّرَاتِهِمْ.. فقد عمدوا إلى تشويه العقيدة الصحيحة ولم ينج أي مجال من ذلك التشويه.. وأولها مصادر الشريعة (القرآن والسنة)، ثم محاربة اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم ثم الطعن في الفقه وأصوله وإتهامه بالرجعية والقسوة في الأحكام وخلطوا بين المصادر الإلهية والإجتهاد..

ومما يدل على أنهم حركة تدميرية اهتمامهم بالتراث الأدبي وإغفال التراث العلمي، مع نزع الثقة من نفوس المسلمين..كذلك تركيزهم على المواضيع التي تثير الجدل والفتنة سواء في ترجمتهم أو كتابتهم أو فيما يحققون من تراث ... فقد أبدوا إهتماماً بالحركات الهدامة

---

(٣٩٠) راجع تواريخ وأماكن هذه المؤتمرات في *الموسوعة الميسرة*، ص ١٦٣-١٦٤

(٣٩١) *الموسوعة الميسرة*، ص١٦٢-١٦٣؛ وعلي جريشه، المصدر السابق، ص٢٦.

مثلاً كالتركيز على حركة الزنج، والحلاج والصوفية ..

كما ركزوا على دراسة اللهجات والدعوة للإقليمية كالفرعونية، والبابلية ونادوا بإستبدال العامية بالفصحى، وقد سعى الاستعمار إلى إستبدال اللغة العربية وحرفها باللاتينية في المناطق التي احتلوها كتركيا وجنوب شرق آسيا...

كما ركزوا على قضية تحرير المرأة، وإقناع المسلمين أن الإسلام سبب تخلفهم وبضرورة الفصل بين الدين والدولة وللأسف فقد نجحوا في هذا المخطط، فقد خلفوا جيلاً يستهين بالإسلام، وبهذا يقول زويمر: «إنكم أعددتم شباباً في ديار الإسلام لا يعرف الصلة بالله سبحانه وتعالى ولا يريد أن يعرفه، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، وإذا جمع المال فللشهرة، وإذا تبوؤا أسمى المراكز ففي سبيل الشهرة يجود بكل شيء»[٣٩٢].

إن آثار حركات الهدم والتدمير الفكرية عميقة أصابت الأمة في الصميم، وإن كل ما سوف نتعرض له من واقع المسلمين وحاضرهم المأساوي في الفصل القادم هو نتيجة لهذه الحركات وتخطيطها والله سبحانه وتعالى المستعان..

(٣٩٢) *الموسوعة الميسرة*، ص٦٣؛ وعلي جريشه، *الاتجاهات الفكرية المعاصرة*، ص٢٧-٢٨.

الباب الثاني
الفتن والمحن في آخر الزمان وعلامات الساعة

مدخل لعلامات الساعة

أهمية الإيمان باليوم الآخر والساعة وعلاماتها

إن الإيمان باليوم الآخر يتبعه ضرورة الإيمان بالساعة وعلاماتها كجزء منه، وذلك كله من الغيب.. والإيمان بالغيب هو من صفات المتقين كما قال تعالى: ﴿الم ۞ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[1].

وقد أكد القرآن في آيات كثيرة أهمية الإيمان باليوم الآخر كركن من أركان الإيمان، وجعل الإيمان به من البر فقال: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[2]، كما جعل الإنكار له من صفات المنافقين فقال: ﴿..كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[3]، كما قرن بين الإيمان بالله واليوم الآخر فقال: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[4].

ومما يدل على أهمية اليوم الآخر ذكر القرآن له بأسماء وصفات كثيرة «وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه، ولما عظم أمرها وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتبه بأسماء عديدة ووصفها بأوصاف كثيرة..»[5].

وقد جاء تفصيل اليوم الآخر في نصوص كثيرة قرآناً وسنة وبصورة مستقلة، وسبب ذلك تأكيد كثرة المنكرين له مع أن إيمانهم بالله سبحانه وتعالى فطري، وخصوصاً العرب قبل الإسلام،

---

(١) البقرة ٢: ١-٤.

(٢) البقرة ٢: ١٧٧.

(٣) البقرة ٢: ٢٦٤.

(٤) الطلاق ٦٥: ٢.

(٥) القرطبي، *التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة*، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦، ص٢٤٧، وراجع فيه تلك الأسماء ومعانيها مما جمع في ثلاث سور التكوير والانفطار والانشقاق، وذكر ابن كثير في *النهاية في الفتن والملاحم* «أكثر من ثمانين إسماً ليوم القيامة»، انظر: جـ١، ص٢٥٥-٢٥٦.

فقد كانوا يسخرون منه ويعدون العودة إلى الحياة مرة أخرى محض هراء، كما أثبت القرآن ذلك حاكياً عنهم قولهم ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[٦]، أما أهل الكتاب منهم وإن كانوا يؤمنون به إلا أن تحريفاتهم لكتبهم جعلت تصوراتهم عنه في منتهى الفساد، فلهذا كان لا بد للرسالة الخاتمة أن توضح ذلك وترد على المنكرين..

ويرى الأستاذ محمد قطب أن تكرار الحديث عن اليوم الآخر في القرآن الكريم ليس موجهاً للمنكرين له فقط، بل للمؤمنين به كذلك، لأنهم في حاجة للتذكير الدائم به فيقول: «والله العليم بخلقه، فلو علم سبحانه أن مجرد حدوث الإيمان باليوم الآخر يكفي لما عاد القرآن لتذكيرهم المرة بعد المرة ... إنما علم الله أنه لا بد من التذكير، وإعادة التذكي»[٧].

ولما كان اليوم الآخر يقتضي قيام الساعة وهي أوله فقد أفاض القرآن الكريم بذكرها وسرد أهوالها والمتغيرات الكونية في حدوثها.. كما فصلت الأحاديث النبوية في أماراتها، وعلى هذا فالإيمان بالساعة وعلاماتها شيء واحد.

والإيمان باليوم الآخر وما يسبقه من قيام الساعة وما بعدها من القيامة والحشر والحساب.. كل ذلك من الأسس التي تبنى عليها العقيدة الإسلامية لأن الحياة ليست هي الحياة الدنيا بل تمتد إلى الآخرة إما إلى الجنة وإما إلى النار، وما الدنيا الفانية إلا منزلة قبل منازل الآخرة الباقية.. فهي محطة ابتلاء واختبار يترتب عليها منزلة الإنسان فيما بعد، وقد عَبَّرَ الرسول ﷺ عن ضآلة الدنيا بالنسبة للآخرة فقال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[٨].

ولذا فمعرفة اليوم الآخر والإيمان به تجعل لحياة الإنسان هدفاً وغاية سامية كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[٩]، حيث بينت الآية أن المؤمن بها يسارع إلى فعل الخيرات

---

(٦) الجاثية ٤٥: ٢٤.

(٧) محمد قطب، *دراسات قرآنية*، ط دار الشروق، القاهرة (دت)، ص٦٤.

(٨) مسلم، *الصحيح*، ٢٨٥٨، كتاب الجنة وصفة نعيمها باب فناء الدنيا، جـ٤، ٢١٩٣. الترمذي، كتاب الزهد، باب ١٥، (٢٣٢٣). ابن ماجة، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، ج٢، ص ١٣٧٦ (٤١٠٨). البغوي *شرح السنة*، جـ١٤، ص٢٢٦.

(٩) المؤمنون ٦٠: ٦١.

وترك المنكرات والتحلي بالفضائل وترك الرذائل، كما أن الآية تبين ثمرات ذلك الإيمان في بقاء الإنسان بين الخوف والرجاء بقوله تعالى: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي خائفة مترقبة من عدم قبول العمل، وهو شعور مهم جداً، فإن خلا القلب من ذلك خرب كل الخراب لأنه سيتجه لأحد النقيضين، وإن عمر بهما أوجب الخوف الإنتهاء عن المعاصي والدوام على الطاعات مع بقاء الرجاء والثقة بالله سبحانه وتعالى ومعرفة فضله وعدله في المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة وبذلك تبقى وتستمر الرغبة في عمل الخير.. ومن هنا فليس هناك نظام أو قانون يجعل الإنسان مستقيماً كمعرفته باليوم الآخر وما فيه ثواباً وعقاباً على ما يكتسبه في الدنيا، فالآخرة هي الحياة الحقيقة لأنها الأبدية، وهي السعادة الحقة لمن نالها، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(١٠)، وعلى ذلك يتضح الفرق بين المؤمن باليوم الآخر وبين منكره، حيث يسعى الأول للأعمال الصالحة ويتزود من الدنيا للآخرة، حرصاً على رضا الله تعالى كما قال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾(١١)، وقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا﴾(١٢)، وأملاً في بشرى القرآن الكريم ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(١٣)، ومن هنا يكون المؤمن متزناً في حياته لا تبطره النعمة ولا يسخطه الابتلاء، بل عنده من اليقين ما يجعله يواجه به فتن الدنيا ومحنها بثبات وصبرابتغاء الأجر في اليوم الآخر..

كما يدفع الإيمان باليوم الآخر إلى الإحساس والشعور بالمسؤولية وَعِظَمِ الأمانة لأنه محاسب في ذلك اليوم على كل صغيرة وكبيرة..

أما المنكر لليوم الآخر فلا يعرف إلا الحياة الدنيا وكل أمانيه وحساباته محصورة فيها مستبعدة للبعث، فحاله كما أشار القرآن الكريم ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾(١٤)، ذكر القرطبي عن ابن عباس «يعني الكافر يكذب بما أمامه من البعث والحساب..» وقال: وقيل: الهاء ليوم القيامة والمعنى: يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدي يوم القيامة، والفجور أصله

---

(١٠) آل عمران ٢: ١٨٥.
(١١) البقرة ٢: ١٩٧.
(١٢) الكهف ١٨: ٤٦.
(١٣) الإسراء ١٧: ٩.
(١٤) القيامة ٧٥: ٥ - ٦.

الميل عن الحق[15].

والمنكر لليوم الآخر يحرص كل الحرص على تحقيق مآربه -ولو على حساب الآخرين- لاهثاً وراء متع الدنيا، فهي أكبر همه ومبلغ علمه، كما أخبر تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[16].

لذلك أكد القرآن قضية الإيمان باليوم الآخر فقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[17]. كما ناقش الذين ينكرون البعث بأدلة عقلية ملموسة، وضرب لهم أمثلة من أنفسهم ومن الآفاق من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ...﴾[18].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[19].

كما نبهت النصوص إلى علامات دالة على قيام الساعة وقربها، وليس القصد من ذكرها إدخال الفزع والرعب في القلوب بل تذكير الإنسان لتحقيق التقوى لله والخشية له وطاعته..

الساعة والعلامة وأسماؤها الأخرى

الساعة في اللغة: هي جزء من أربع وعشرين جزءاً، وهي مجموع اليوم والليلة، أو هي جزء من أجزاء الليل والنهار وجمعها ساعات.

وفي الإصطلاح: الوقت الذي تقوم فيه القيامة فيفنى الخلق كلهم بنفخة واحدة[20] وفي لسان العرب: إنها إسم الوقت الذي تصعق فيه العباد، والوقت الذي يبعثون فيه، وتقوم فيه القيامة، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى[21].

---

(١٥) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، جـ٩، ص٨٧.
(١٦) الأنعام ٦: ٢٩.
(١٧) التغابن ٦٤: ٧.
(١٨) الحج ٢٢: ٥ – ٧.
(١٩) يس ٣٦: ٧٨ – ٧٩.
(٢٠) راجع: ابن الأثير، مجد الدين المبارك الجزري، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، جـ٢، ص٤٢٢.
(٢١) ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، *لسان العرب*، جـ٨، ص١٦٩.

يقول القرطبي: «وحقيقة الإطلاق فيها بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وسميت به القيامة إما لقربها فإن كل آت قريب، وإما أن تكون سميت بها تنبيهاً على ما فيها من الكائنات العظام... وقيل إنما سميت بالساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة»[٢٢] أو «السرعة حسابها..»[٢٣].

وتطلق الساعة على ثلاثة معان:

١- الساعة الصغرى، وهي موت الإنسان، فمن مات فقد قامت قيامته الصغرى لانقطاعه عن الدنيا ودخوله في عالم الآخرة.

٢- الساعة الوسطى، وهي موت أهل القرن الواحد، فقد رُوِيَ عن أنس بن مالك ﷺ: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: متى تقوم الساعة؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ هنيهة ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنؤة فقال: إن عمَّر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة»[٢٤] وأراد بذلك ساعة المخاطبين بموتهم.

٣- الساعة الكبرى، وهي بعث الناس من قبورهم للحساب، وإذا أطلقت الساعة في القرآن فالمراد بها الساعة الكبرى، و العلامة لغة: السمة، أو ما ينصب في الطريق ليهتدى به[٢٥] وعلامات الساعة: هي ما يسبقها من إشارات تدل على قرب قيامها، وقيل هي أسبابها التي دون معظمها وقيامها[٢٦].

ولما كانت الساعة وعلاماتها من الغيب الذي لا سبيل لمعرفته إلا بالوحي، فأمارات

---

(٢٢) القرطبي، *التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة*، جـ١، ص٢٤٩.

(٢٣) الزمخشري، *الكشاف*، جـ٢، ص١٨٣.

(٢٤) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، مع فتح الباري، جـ١١، ص٣٦٣، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، جـ١٨، ص٩٠. قال ابن حجر: وأطلقت الساعة على ثلاثة أشياء: الساعة الكبرى: وهي بعث الناس للمحاسبة، والوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد نحو ما روى أنه ﷺ رأى عبد الله بن أنيس فقال: إن يطل عمر هذا الغلام لم يمت حتى تقوم الساعة، فقيل إنه آخر من مات من الصحابة، والصغرى: موت الإنسان، فساعة كل إنسان موته. ومنه قوله ﷺ عند هبوب الريح: تخوفت الساعة يعني موته. انظر فتح الباري ج١١ ص٣٦٣.

(٢٥) راجع: ابن منظور، *لسان العرب*، ج١٢، ص٤١٩، والطاهر أحمد الزاوي، *ترتيب القاموس المحيط*، جـ٣، ص٣٠٢، والزبيدي، *تاج العروس*، جـ٨، ص٤٠٦، *والمعجم الوسيط*، جـ٢، ص٦٢٤.

(٢٦) راجع: ابن الأثير، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، جـ٢، ص٤٦٠، وابن منظور، *لسان العرب*، جـ٧، ص٣٢٩-٣٣٠.

الساعة: ما أخبر به الشرع أنه أمارة يستدل بهـا علـى قـرب قيـام السـاعة أو قيامهـا، تنبيهـاً للناس وهداية لهم.

وبعض هــذه الإمـارات وردت في القـرآن الكريـم، وأغلبهـا بنصـوص الحديـث النبـوي والإيمان بما صح منهـا واجـب كالإيمـان بالسـاعة، وتسـمى علامـات السـاعة، بالأمـارات، والأشراط، وهي بمعنى العلامات و أشراط الشيء أوائله.. وتسمى كذلـك بالآيـات وهنـاك فرق بين العلامة والآية، وقد سبق تعريف العلامة وأما الآية فيعرفها الطيبي بقولـه: الآيـات إمارات للساعة، إما على حصولها، فمن الأول: الدجال ونزول عيسى، ويأجوج ومـأجوج، والخسف، ومن الثاني: الدخان وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة والنار التي تحشـر الناس[٢٧] نستدل على الفرق بين العلامة والآية بالأحاديث التي ذكرت أشراط الساعة بأحد اللفظين فقد رُوِيَ عن حذيفة ﷺ قال: «اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة فقـال: مـا تذكـرون؟ قلنـا نذكـر السـاعة فقـال: إنهـا لـن تقـوم حتـى تـروا عشـــر آيـــات: الدخـــان والدجال...»[٢٨] الحديث وسمي هذه آيات ولم يقل علامات أو غيرها.. والآية هـي غالبـاً أمر خارق للعادة.. فكل واحدة من هذه العشـر خـوارق للسـنن الكونيـة والطبيعيـة الجاريـة فتتميز عن العلامات بأمور[٢٩]:

أ - العلامات أحداث تاريخية وبشرية موافقـة للسـنن الجاريـة تقـع بعللهـا وأسـبابها وتبـدو للمعاصرين لها أموراً عادية، أما الآيات فتكون مخالفة للسنن الفلكية والكونية والطبيعة البشرية الجارية كطلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة.

ب - تكون العلامة محدودة بموضوع معين في الأرض أو مجتمع من المجتمعات، كالزنا جهاراً فهو ليس في كل المجتمعات، ومثل رفع القرآن فهـو آيـة خارقـة للعـادة لكنهـا محـدودة بكتاب الله سبحانه وتعالى، ومثلها الريح التي يفيض الله سبحانه وتعالى بهـا علـى كـل

---

(٢٧) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١١، ص٣٥٢.

(٢٨) الإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبـل السـاعة، جـ٤، ص٢٤٢٥، ح٢٩٠١، أبو داود، *السنن*، كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة، (٤٣١١) جـ٤، ص٤٩١، الترمذي، *السنن*، كتاب الفتن باب ما جاء في الخسف، جـ٤، ص٤٧٧، ابن ماجة، *السـنن*، كتاب الفتن باب أشراط الساعة، جـ٢، ص١٣٤٧، ح ٤٠٥٥، الإمـام أحمد، المسند، جـ٤، ص٧١٦، والمتقي الهندي، *كنز العمال*، ح(٣٨٦٣٩)، جـ٤، ص٢٥٨.

(٢٩) راجع: تفاصيل هذه الفروق عند: بشير محمد عبـد اللـه، *زلـزال الأرض العظيـم في القـرآن الكريـم والسنة والإنجيل والعهد القديم*، د.م، ١٩٩٤، ص١٧-٢١.

نفس مؤمنة فلا تعم البشر أما تأثير الآيات الكبرى فهو شامل لمحيط الأرض كلها والبشرية كلها.

جـ- العلامات غير متسلسلة في الحدوث وغير متتابعة، إذ قد تحدث في مكان وتختفي وتعود مرة أخرى وأشد من الأول كالفتن التي تعصف بالأمة الإسلامية فقد تعود لرشدها وتعود مرة أخرى.. فحدوثها غير مباشر لقيام الساعة، ولا يدل على نهاية الأرض.

أما الآيات فهي متسلسلة و متتالية «كعقد انفرط نظامه» كما سيأتي، يتبع حدوثها الساعة مباشرة. كما أن هناك من يسمى العلامات والآيات مجتمعة بأشراط الساعة، فالعلامات أشراط صغرى والآيات أشراط كبرى مباشرة[٣٠].

موعد قيام الساعة:

دلت نصوص كثيرة على قرب قيام الساعة منها قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[٣١] وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾[٣٢]، وقال كذلك: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[٣٣].

وأما من الأحاديث فمثل قوله ﷺ: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم - ما بين صلاة العصر ومغرب الشمس»[٣٤]وقوله كذلك: «بعثت أنا والساعة جميعاً، إن كادت لتسبقني»[٣٥].

هذه النصوص تبين أن الساعة قريبة وأن ما بقي من عمر الدنيا بالنسبة لما مضى منها شيء يسير ولكن دون تحديد له بسند صحيح...

أما علم الساعة و موعد قيامها على وجه التحديد والدقة فهو غيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وهو مما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه ولم يطلع عليه حتى الأنبياء عليهم السلام، وقد كان النبي ﷺ يكثر ذكر الساعة وأهوالها وعلاماتها وعندما يسأل عن موعد

---

(٣٠) المصدر السابق، ص٤٣.

(٣١) القمر ٥٤: ١.

(٣٢) الأحزاب ٣٣: ٦٣.

(٣٣) الأنبياء ٢١: ١.

(٣٤) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، مع فتح الباري، جـ٦، ص٤٩٥.

(٣٥) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٥، ص٣٢٨، وقال ابن حجر: أخرجه أحمد والطبري وسنده حسن، *فتح الباري*، جـ١١، ص٣٤٨.

قيامها يرد العلم لله سبحانه وتعالى وحده كما أثبت ذلك القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾[٣٦]. وقد ورد في سبب نزولها «قيل إن قوماً من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً فإنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحاناً منهم، مع علمهم أن الله استأثر بعلمها، وقيل: السائلون قريش»[٣٧]. ومرساها من أرساها الله أي أثبتها أي متى مُثْبتُها أي متى وقوعها»[٣٨].

ولما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الساعة كما جاء في حديث جبريل الطويل، قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[٣٩] والحديث يدل على عدم علم جبريل بها وقد تكرر السؤال للنبي ﷺ عن الساعة وخصوصاً من الأعراب وكان جوابه واحداً كما علمه الله سبحانه وتعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[٤٠]. وقوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾[٤١].

وكان الرسول ﷺ يجيب بمعنى الساعة الوسطى، من ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها قالت:«كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: إن يعش هذا الغلام لم يدركه الهرم، قامت عليكم ساعتكم»[٤٢].

فجوابه للأعراب من باب الأسلوب الحكيم وهو إجابة السائل بخلاف ما يترقب... سألوه عن الساعة الكبرى فأجابهم بالوسطى إشارة إلى أنها الأهم، وإشارة إلى أن الكبرى طوى سبحانه علمها وتعيينها[٤٣]. ومثله قوله ﷺ قبل أن يموت بشهر: «تسألوني عن

---

(٣٦) الأعراف ٧: ١٨٧.

(٣٧) الزمخشري، *الكشاف*، ١٨٣، وكذلك القرطبي في تفسيره، جـ٧، ص٣٠٠. وابن كثير، راجع *المختصر*، جـ٢، ص٧١. ولكنه رجح أن السائل من قريش لأن الآية مكية وكانوا يسألون استبعادا لوقوعها وتكذيبها.

(٣٨) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، جـ٧، ص٣٠٠.

(٣٩) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام...، جـ١، ص١١٤.

(٤٠) الأعراف ٧: ١٨٧.

(٤١) النازعات ٧٩: ٤٢-٤٤.

(٤٢) سبق تخريجه.

(٤٣) راجع: القنوجي، السيد محمد صديق حسن، *الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة*، ط دار الإيمان، بيروت، ١٩٨٤، ص١٨٧.

الساعة؟ وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة»[٤٤].

وهذه النصوص -كتاباً وسنةً- وغيرها كثيرة تدل على عدم معرفة الرسول ﷺ لوقت الساعة فهي أحد مفاتيح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٤٥].

ولله سبحانه وتعالى حكمة في إخفاء موعد الساعة عن البشر، فالأمر الذي يستيقن المرء وقوعه، ولكنه يجهل موعده يجعله مترقباً له باستمرار، فالمجهول أمر ضروري في حياة البشر فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه، ليبقوا على حذر دائم واستعداد دائم[٤٦]. وبناء على ما تقدم لا يجوز الاشتغال بتحديد وقت الساعة طالما أنه لم يعلم بها حتى الأنبياء أما من ادعى غير ذلك فقد خالف الكتاب والسنة من ذلك ما قاله البرزنجي «وقد استأثر بعلمها ولم يعلمها أحداً من خلقه وعَلِمَها النبي ﷺ ونهاه عن الإخبار بها تهويلاً لشأنها وتعظيماً لأمرها...[٤٧] وهذا غير صحيح لمخالفته النصوص الكثيرة الصريحة وما اتفق عليه العلماء..

ولما كانت النصوص تدعو ضمناً إلى عدم السؤال عن ذلك، وإلى الاشتغال بالأهم وهو الإستعداد لها، فلا يجوز الخوض في تحديد وقت الساعة وقد أخطأ من حاول ذلك، ومع اختلاف منهاجهم حيث أرادوا الإتيان بما لم يأت به الرسول ﷺ فضلاً عن أن كل من حدد لها أجلاً بان خطؤه بعدم حدوثها، ومن هؤلاء ابن جرير الطبري رحمه الله سبحانه وتعالى (ت٣١٠هـ) حيث إستظهر في بعض النصوص أن فناء الدنيا يكون بعد خمسمائة عام من البعثة المحمدية[٤٨]، ومنهم جلال الدين السيوطي (ت٩١١) رحمه الله سبحانه وتعالى حيث أَلَّفَ رسالة مستقلة سماها «الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف» وقد رد على من زعم أن الساعة تقوم في سنة الألف، ولكنه زاد عليها خمسمائة وزعم أنها تقوم على رأس خمسمائة

---

(٤٤) مسلم، صحيح *مسلم*، كتاب فضائل الصحابة ﷺ باب بيان معنى قوله ﷺ وعلى رأس مائة سنة لا يبقى نفس منفوسة، مع شرح النووي، جـ١٦، ص٩٠-٩١.

(٤٥) لقمان ٣١: ٣٤.

(٤٦) الأشقر، عمر سليمان دكتور، *اليوم الآخر، القيامة الصغرى*، ط٣، دار النفاس، الكويت، ١٩٩١، ص١٢٠.

(٤٧) الأشقر، عمر سليمان دكتور، *اليوم الآخر، القيامة الصغرى*، ط٣، دار النفاس، الكويت، ١٩٩١، ص١٢٠.

(٤٨) الأشقر، عمر سليمان دكتور، *اليوم الآخر، القيامة الصغرى*، ط٣، دار النفاس، الكويت، ١٩٩١، ص١٢٠.

بعد ألف من البعثة النبوية [٤٩] و ها قد مضت أكثر المدة دون أن تنقضي أشراط الساعة!.

كما استند السهيلي (ت٥٨١) إلى الحروف المقطعة في أوائل السور وحذف المكرر وأخذ عددها بحساب الجمل، ثم حدد بناءً على ذلك أجلاً لا يبلغ بضع مئات من السنين! وجاء من حددها بـ(١٧١٠) وقد بان بطلان ما جاءوا به، وكل ما جاءوا به تَقَوّلٌ لا دليل عليه فيلزم الاتعاظ بهم وعدم الخوض بما خاضوا فيه، وقد رد العلامة ابن تيمية على هؤلاء ووصفهم بالكذب والافتراء[٥٠]، كما رد كل من ابن القيم وابن كثير والقرطبي وابن حجر على هؤلاء[٥١].

الساعة في القرآن الكريم:

تكرر لفظ الساعة في القرآن الكريم ثماني وأربعين مرة[٥٢] عدا مسمياتها الأخرى.. وجاءت الآيات التي تضمنتها بصيغ مختلفة وأساليب متعددة منها:

- تأتي بصيغة السؤال والجواب برد علمها إلى الله تعالى قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا۞فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا۞إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾[٥٣]، أي متى وصولها ووقوعها؟ كرسوّ السفينة وفي أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها؟ والمعنى: لست في شيء من علمها وذكرها إنما يعملها الله سبحانه[٥٤] وقوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٥٥] وقد مر أن الراجح نزولها في قريش وكانوا يسألون استبعاداً وتكذيباً لوقوعها، كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٥٦]. وفي

---

(٤٩) الأشقر، عمر سليمان دكتور، *اليوم الآخر، القيامة الصغرى*، ط٣، دار النفاس، الكويت، ١٩٩١، ص١٢٠.

(٥٠) ابن تيمية، *مجموعة الفتاوى*، جـ٤، ص٣٤٢.

(٥١) راجع مزيدا من تلك الأقوال في: ابن أبي الدنيا، *كتاب الأموال*، ط الدار السلفية، بومباي، الهند، ١٩٩٣، ص٣٩-٤٣، والوابل، يوسف بن عبد الله، *أشراط الساعة*، ط٦، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤١٦هـ، ص٦٠-٦٥.

(٥٢) راجع: *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*، مادة (الساعة)، ص٤٧٠-٤٧١.

(٥٣) النازعات ٧٩: ٤٢-٤٤.

(٥٤) الأشقر محمد سليمان، *زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني*، ص٧٩١، وراجع: البغوي، *معالم التنزيل*، جـ٧، ص٢٠٨.

(٥٥) الأعراف ٧: ١٨٧.

(٥٦) يونس ١٠: ٤٨.

أخرى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾[٥٧] فكان الجواب واحداً ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٥٨]. قال قتادة: ثقلت على أهل السماوات والأرض. وقال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السماوات والأرض.. واختار ابن جرير، رحمه الله سبحانه وتعالى قول قتادة..، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السماوات والأرض ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٥٩]. وروي أنه ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله- وتلا هذه الآية[٦٠]..». والأمثلة على ذلك من القرآن كثيرة[٦١].

– وتأتي أحياناً مشيرة إلى قربها -كما مر في آيات كثيرة – مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[٦٢]. وقال: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[٦٣]. وفي أخرى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٦٤]. وهذه الآيات فيها تنبيه من الله عز وجل للغافلين عنها كي يستعدوا لها، ولذلك تأتي الأخبار عن قربها ودنوها بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، ﴿مثل اقترب للناس حسابهم﴾، ﴿وأتى أمر الله﴾. وهذه الصيغ فيها ترغيب وترهيب وتزهيد في الدنيا..

– وتتحدث آيات الساعة عن سرعتها بأن تأتي مفاجئة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[٦٥] ففيها يذكر تعالى «أن في كمال قدرته اختصاصه بعلم الغيب وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، أي: فيكون ما يريد كطرف العين»[٦٦] وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ

---

(٥٧) الشورى ٤٢: ١٨.

(٥٨) الأعراف ٧: ١٨٧.

(٥٩) لقمان ٣١: ٣٤.

(٦٠) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب التفسير، باب مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، مع فتح الباري، جـ١٨، ص٢٩١، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٢٤، ٥٢، ٥٨، ١٢٢، عن ابن عمر.

(٦١) انظر الآيات: الأحزاب ٣٣، ٦٣، الزخرف ٤٣: ٨٥، فصلت ٤١: ٤٧.

(٦٢) الحجر ١٥: ٨٥.

(٦٣) القمر ٥٤: ١.

(٦٤) الأحزاب ٣٣: ٦٣.

(٦٥) الأحزاب ٣٣: ٦٣.

(٦٦) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٢، ص٣٤٠.

﴿يَشْعُرُونَ﴾[٦٧]، والله تعالى ينذر الكفار بعذاب يغشاهم ويستأصلهم أو تأتيهم الساعة فجأة من حيث لا يشعرون..

- وتأتي آيات الساعة لبيان موقف المؤمن منها، قال تعالى:﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾[٦٨]. وقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[٦٩] هذه الآيات جاءت بعد ذكر الحساب في اليوم الآخر، ثم ذكرت الأنبياء بأنهم على هذه الصفة.. أي خائفون وجلون[٧٠]. وقال تعالى:﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾[٧١] «أي إنما بعثتك لتنذر الناس، وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي وخاف مقامه ووعيده إتَّبَعَكَ فأفلح ونجح..»[٧٢] كما تذكر الآيات الصنف الآخر، الجاحد للساعة فتعرض تارة أقوالهم مجردة بصورة التبكيت، وتارة تجادلهم، كما ورد في سورة الكهف عن الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۞ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[٧٣]

وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة ولهذا قال: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾أي كائنة.. ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا»[٧٤] ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾[٧٥].

ثم تأتي الآيات مخبرة عن خسارة من كذب بلقاء ربه وخيبته وندامته على ما فرط في العمل وما بدر منه من سوء الفعل، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا

---

(٦٧) يوسف ١٢: ١٠٧.

(٦٨) الشورى ٤٢: ١٨.

(٦٩) الأنبياء ٢١: ٤٩.

(٧٠) راجع: الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٢، ص٥١١.

(٧١) النازعات ٧٩: ٤٥.

(٧٢) الصابوني، جـ٣ ص٥٩٨.

(٧٣) الكهف ١٨: ٣٥ - ٣٦.

(٧٤) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٢، ص٤١٩.

(٧٥) فصلت ٤١: ٥٠.

جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[٧٦] ويحتمل عودة الضمير «فيها» على الحياة الدنيا وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة أي: في أمرها[٧٧] ولذلك جاءت الآيات بالوعيد لمنكر الساعة كقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[٧٨] وذلك لأن تكذيبهم مرده العناد فقط لا تبصراً واسترشاداً، ولذلك تتوعدهم الآيات بالنار التي: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً﴾[٧٩] كما تتوعد آيات الساعة المنكرين لرسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾[٨٠]، فقد رُوِيَ أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً، فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر»[٨١]، حيث أخبرت الآية النبي ﷺ بالغيب، فكانت هزيمة الكفار يوم بدر فالساعة موعدهم كذلك يوم القيامة وهي أشد مرارة من قتلهم وَأَسْرِهِمْ.. وكل الآيات التي تضمنت تهديداً لهم جاءت بعد جدالهم وإنكارهم لأمر الساعة..

وتأتي الآيات واصفة أحوال الساعة، وما يصحبها من الفزع الأكبر للناس ففي قوله تعالى: ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٨٢] جاءت عدة تفسيرات لها مرّ ذكرها منها قول الضحاك عن ابن عباس قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة، وقال ابن جريج: إذا جاءت انشقت السماء وانتثرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال وكان ما قال الله عز وجل فذلك ثقلها[٨٣].

---

(٧٦) الأنعام ٦: ٣١.
(٧٧) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ١، ص٥٧٤.
(٧٨) الفرقان ٢٥: ١١. ومثلها الأنعام ٦: ٤٠، الكهف ١٨: ١-٢، طه ٢٠: ١٥، غافر ٤٠: ٤٦، ٥٩، الزخرف ٤٣: ٦٦.
(٧٩) الفرقان ٢٥: ١٢.
(٨٠) القمر ٥٤: ٤٦.
(٨١) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الجهاد، باب ما قيل في درع النبي والقميص في الحرب، مع *فتح الباري*، جـ٦، ص٩٩، والترميذي، *سنن الترميذي*، كتاب الزهد.
(٨٢) الأعراف ٧: ١٨٧.
(٨٣) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٢، ص٧١.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(٨٤) وهذا على من يرى أن المقصود بها زلزلة قيام الساعة، لأن هناك من يرى أن تلك الزلزلة تحدث في الدنيا كعلامة أو آية من أشراط الساعة الكبرى القريبة لقيامها كما سيأتي..

كما تصف هذه الآيات ندمهم وحسرتهم وذهولهم، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾(٨٥) أي يسكت المجرمون وتنقطع حجتهم.

وتأتي آيات الساعة أحياناً مقرونة بعلاماتها، كقوله تعالى:﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ﴾(٨٦) وهي لبيان أن عيسى عليه السلام من علامات الساعة كما سيأتي الكلام عنه في الآيات الكبرى.. وقد نبَّهَ القرآن الكريم إلى مجيء بعض أشراط الساعة وحدوثها فقال تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾(٨٧) وأول هذه الأشراط هو البعثة النبوية كما سيأتي.

علامات الساعة في الحديث النبوي:

علامات الساعة: ما أخبر به الشرع أنه إمارة يستدل بها على قرب الساعة أو قيامها، تنبيها للناس وهداية لهم.

وبعض هذه الأمارات وردت في القرآن الكريم، وأغلبها بنصوص الحديث النبوي، والإيمان بما صح منها واجب كالإيمان بالساعة..

وقد أكثر الرسول ﷺ من ذكر علامات الساعة وفصل فيها وأخبر أصحابه بما سيكون إلى يوم القيامة بما في ذلك الفتن والمحن والبلايا التي تنزل بالمسلمين.

فقد روى الإمام مسلم عن أبي زيد عمرو بن أَخْطَب قال:«صلى بنا رسول الله الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ثم نزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا»(٨٨).

---

(٨٤) الحج ٢٢: ١-٢ش.
(٨٥) الروم ٣٠: ١٢
(٨٦) الزخرف ٤٣: ٦١.
(٨٧) محمد ٤٧: ١٨.
(٨٨)مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، مع شرح النووي، جـ١٨، ص١٦.

وعن حذيفة ﷺ قال: «لقد خطبنا النبي ﷺ خطبة ما ترك فينا شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله، إن كنت لأرى الشيء قد نسيته، فأعرفه كما يعرف الرجلُ الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه»(٨٩).

وتضمنت الأحاديث النبوية في ذكر علامات الساعة وأشراطها مواضيع وجوانب متعددة منها:

تشير بعض هذه الأحاديث إلى قرب الساعة كما قال النبي ﷺ: «بعثت في نسم الساعة»(٩٠).

وقال رسول الله ﷺ كذلك: «بعثت بين يدي الساعة حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»(٩١).

قال المناوي: «بعثت بين يدي الساعة»: مستعار مما بين يدَيْ جهة الإنسان، تلويحاً بقربها، والساعة هنا القيامة، وأصلها قطعة من الزمان»(٩٢).

وأحاديث الرسول ﷺ فيها إشارة إلى أن بعثته أمارة من أمارات الساعة..

وتأتي أحاديث النبي ﷺ في هذا المجال للتحذير والتنبيه ليكونوا على علم بالأمارات التي يرونها، وخصوصاً من الفتن والمحن التي هي من أماراتها، ورأينا في الحديثين الأوليين المذكورين كيف أن النبي ﷺ خصص يوماً كاملاً أخبر الصحابة فيه عن الغيوب المستقبلية وبما سيكون إلى يوم الساعة، وحذرهم مما فيها من فتن وكيف يتصرفون تجاهها، إما بإمضاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بالعزلة وتجنب الفتن عند التباس الأمر.. كما حذرهم من فتنة الدجال وبين لنا أوصافه وظروفه وكل ذلك من أجل تحذير المسلمين ألا يقعوا في

---

(٨٩) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب القدر، باب «وكان أمر الله قدراً مقدوراً»، مع الفتح، جـ١١، ص٤٩٤، والإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، مع شرح النووي، جـ١٨، ص١٥.

(٩٠) الألباني، *سلسلة الأحاديث الصحيحة*، وقال: رواه الدولابي في «الكنى»، جـ١، ص٢٣، وابن مندة في «المعرفة»، جـ٢، ص٢٣٤، عن أبي حازم عن أبي جبيرة مرفوعاً، وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات، وفي صحبة أبي جبيرة خلاف، ورجح الحافظ في التقريب «أن له صحبة». انظر: جـ٢، ص٣٧٧، ح(٨٠٨). وعن قوله «نسم الساعة» قال ابن الأثير: «هو من النسيم، أول هبوب الريح الضعيفة، أي: بعثت في أول أشراط الساعة، وضعف مجيئها، وقيل: هو جمع نسمة، أي: بعثت في ذوي أرواح خلقهم الله تعالى قبل اقتراب الساعة، كأنه قال: في آخر النشىء في بني آدم»انظر: *النهاية في غريب الحديث والأثر*، جـ٥، ص٤٩-٥٠.

(٩١) الألباني، *صحيح الجامع*، رقم٢٨٢٨.

(٩٢) المناوي، *فيض القدير*، جـ٣، ص٢٠٣-٢٠٤.

الفتنة أو عمل ما هو مخالف للطبيعة ما يعد خروجاً عن المألوف الذي هو من علامات الساعة. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال:«إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمورٌ تنكرونها، وتجيء الفتنة، فيرقق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه، هذه.. فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر»[٩٣]، وقد نبه كذلك ﷺ في أحاديث كثيرة متفرقة مضى ذكرها على الابتداع في الدين، وفتنة المال، والجاه وغيرها من الفتن الاجتماعية والفكرية.

كما حددت أحاديث أشراط الساعة أن قيامها سيكون في يوم جمعة، وهذا من الخلال العظيمة التي اختص الله سبحانه وتعالى بها يوم الجمعة، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:«خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»[٩٤].

قال المناوي: «قال القاضي: بين الصبح وطلوع الشمس، واختصاصه بوقوع ذلك فيه يدل على تميزه بالخيرية، لأن خروج آدم فيه من الجنة سبب لوجود الذرية الذين منهم الأنبياء والأولياء، وسبب للخلافة في الأرض، وإنزال الكتب، وقيام الساعة سبب تعجيل جزاء الأخيار وإظهار شرفهم»[٩٥].

وقال ﷺ في حديث آخر: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه قبض، وفيه تقوم الساعة، ما على وجه الأرض من دابة إلا وهي تصبح يوم الجمعة مُصيخة حتى تطلع الشمس، شفقاً من الساعة، إلا ابن آدم، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مؤمن وهو في الصلاة يسأل الله شيئاً، إلا أعطاه إياه»[٩٦].

---

(٩٣) الإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول، مع شرح النووي، جـ٢، ص٢٣٢-٢٣٣.

(٩٤) مسلم، *الصحيح*، كتاب الجمعة باب فضل يوم الجمعة، جـ١، ص٥٨٥، ح(٨٥٤)، الترمذي، *السنن*، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الساعة التي ترجي في يوم الجمعة، جـ٢، ص٣٦٢، ح(٤٩١)، وقال: أحمد: *المسند*، جـ٢، ص٤٨٦.

(٩٥) المناوي، *فيض القدير*، جـ٣، ص٤٩٣.

(٩٦) أبو داود، *السنن*، كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة، جـ١، ص٦٣٤، ح(١٠٤٦)، *الموطأ*، كتاب الجمعة، باب ما جاء في الساعة التي في يوم الجمعة، جـ١، ص١٠٨، رقم١٦.

وتدل أحاديث الساعة وأماراتها أنه مع اقتراب الساعة يزداد الناس بعداً عن ربهم، كما قال النبي ﷺ: «اقتربت الساعة، ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً، ولا يزدادون من الله إلا بعدا»[97] وذلك لأن الحرص على الدنيا يجعل الإنسان بعيداً عن الآخرة والعمل لها..

كما وضحت أحاديث الأمارات على من تقوم الساعة، حيث تقوم على الأشرار كما قال رسول الله ﷺ:«لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»[98].

وفصلت أحاديث أخرى مَنْ هؤلاء الأشرار.. وهم الأسافل والرعاع، وعلى حثالة الناس كما قال ﷺ:«يذهب الصالحون الأول فالأول ويبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله بالة»[99]. وقال الحافظ ابن حجر:«يذهب الصالحون.. المراد قبض أرواحهم، والحفالة أوالحثالة: سقط الناس، و «يباليهم الله بالة» قال الخطابي: أي: لا يرفع له قدراً ولا يقيم لهم وزناً، وقال ابن بطال: في الحديث أن موت الصالحين من أشراط الساعة، وفيه الندب إلى الاقتداء بأهل الخير والتحذير من مخالفتهم ...»[100].

كما تدل أحاديث أخرى على قيام الساعة على غير المسلمين وغير الموحدين. كما سيأتي ويؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من الكلام عن غفلة البشر عن هذا اليوم الذي يكاد يفجأهم، دلالة على أن الساعة تقوم على هؤلاء المعرضين عنها قال تعالى: ﴿**اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم**﴾[101].

وينبغي التنبه إلى أنه ليس كل ما يذكره الرسول ﷺ من علامات الساعة يفيد معنى الذم، إنما الإشارة إلى قرب الساعة من مثل استتباب الأمن، وكثرة الأموال، وانتشار الكتابة وغيرها مما سيأتي.

تفيد أحاديث علامات الساعة ضرورة العمل والاستعداد لذلك اليوم العصيب فعن

---

(٩٧) الحاكم، *المستدرك*، عن ابن مسعود، *صحيح الجامع*، رقم ١١٥٧.

(٩٨) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، جـ٨، ص٨٩، مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب قرب الساعة، جـ٤، ص٢٢٦٨، أحمد، *المسند*، جـ١، ص٣٩٤، ٤٠٥، ٤٣٥.

(٩٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب الرقاق، باب ذهاب الصالحين، جـ٧، ص١٧٤. وكتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، جـ٥، ص٦٣. وفيه (حفالة). أحمد، *المسند*، جـ٤، ص١٩٣.

(١٠٠) ابن حجر، *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، كتاب الرقاق، جـ١١، ص٢٥٢.

(١٠١) الأنبياء ٢١: ١ - ٣.

عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾(١٠٢). قالت عائشة رضي الله عنها: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق! ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»(١٠٣).

ففي الأحاديث اغتنام آخر فرصة في الحياة للعمل من أجل الأجر الذي ينفعه يوم القيامة في الحديث: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»(١٠٤).

وتبقى الغاية والهدف من أحاديث علامات الساعة كلها هو الاستعداد ليوم الحساب.

مما سبق نرى أن الرسول ﷺ حدث عن الغيوب المستقبلية باستفاضة إلى قيام الساعة ويدل على ذلك قول حذيفة بن اليمان وهو المعروف بأنه أمين سر الرسول ﷺ حيث قال: «أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة فما منه من شيء إلا قد سألته إلا أني لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة»(١٠٥).

وقد اهتم الصحابة ﷺ بتدارس هذه الأشراط، وسألوا الرسول ﷺ عنها، وشغلوا أنفسهم بها، وإيمانهم بها كإيمانهم بالمغيبات الأخرى والتي هي من صفات المؤمنين.

ويزداد الإيمان بتلك العلامات على مر الأجيال، بعد أن وقعت الحوادث على النحو الذي أخبر بها النبي ﷺ، فقد يرى المسلمون في كل عصر وقائع وأحداثاً جاءت بها الأخبار، وهذا مما يزيد تثبيت المؤمن على إيمانه، كما يثبت يقينه بيوم القيامة وما أخبر الله ورسوله عنها من أهوال وما بعدها من حساب على نحو ما جاءت به النصوص..

ولا عجب أن نرى كل هذا التفصيل لعلامات الساعة في الحديث النبوي وذلك لأن النبي محمدا ﷺ خاتم الأنبياء ورسالته خاتمة الرسالات وأنه بعث بين يدي الساعة فلا بد أن يوضح لأمته ما يكون من أمارات للساعة وما يقع من أحداث، وفيها الحكم الشرعي لمن

---

(١٠٢) المؤمنون ٢٣: ٦٠.

(١٠٣) الترمذي، *السنن*، جـ٢، ص٢٠١، الحاكم، *المستدرك*، ص٣٩٣. الإمام أحمد، *المسند*، جـ٦، ص١٥٩، ٢٠٥، وصححه الحاكم والألباني في *سلسلة الأحاديث الصحيحة*، جـ١، ص٧٨، ح(١٦٢).

(١٠٤) البخاري: *الأدب المفرد*، ص٤٦، أحمد، *المسند*، جـ٣، ص١٨٤، ١٩١.

(١٠٥) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، مع شرح النووي، جـ١٨، ص١٦.

جاءوا بعده بكيفية التصرف حيالها فقد يخفى عليهم وجه الحق فيها، فلذا تضمنت أحاديث علامات الساعة الوسائل التي يتبعها المسلم للنجاة من الفتن ولو ترك ذلك لاجتهادهم فإنهم قد يختلفون ولا يهتدون إلى الصواب.

أما الذين ينكرون على المسلمين اشتغالهم بهذه النصوص في هذا الجانب فلينظروا إلى الجهود الهائلة التي يبذلها العلماء المعاصرون للكشف عن الغيب للماضي والمستقبل كي يعلموا ما خفي عنهم، فإذا كان هذا هو حال البشر في الرغبة لاستكشاف المجهول ومعرفة الكون من حولهم، أفلا يكون الاطلاع على حقائق الأمور من الجهة التي لا تكذب أبداً أولى وأحرى[106]!!.

ولذا نرى علماء المسلمين قديماً وحديثاً قد اهتموا بهذا الجانب وأفرد المحدثون لها أبواباً، واهتم بعدهم شراح الحديث في الجمع والتوضيح والترجيح بين الأحاديث، كما ألف القدماء كتباً ورسائل اعتماداً على ما ورد من الأحاديث فيها، فقد ألف القرطبي «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»، وابن كثير «النهاية في الملاحم والفتن» كما ألف ابن أبي الدنيا والسخاوي والسفاريني وغيرهم كثير[107]..

ومن الجدير بالذكر أن الملاحم تذكر مع الفتن في أحاديث أشراط الساعة فالملاحم تعني: صراع المسلمين مع الكفار، والفتن تعني: صراع المسلمين وحروبهم فيما بينهم، وعلى هذا سمى ابن كثير كتابه «النهاية في الملاحم والفتن» وجمع بعضهم بينها في تبويب كتب الحديث كما في البخاري ومسلم تحت كتاب «الفتن»، وبعضهم «كتاب الملاحم والفتن»..

ولما كانت الأحاديث بشأن علامات الساعة كثيرة جداً، منها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع، كما دخلت الإسرائيليات في جزء منها فلذا عنى علماء الحديث في تنقية أخبار الأشراط بتمييز الصحيح من غيره..

أما حديثاً فالاهتمام بالموضوع متصل، والمؤلفات المختصة بهذا الجانب كثيرة اعتماداً على كتب الأحاديث والمصادر القديمة.

---

(١٠٦) راجع: الأشقر عمر سليمان، *اليوم الآخر: القيامة الصغرى*، ص١٢٩.

(١٠٧) يعد كتاب «الفتن والملاحم» لنعيم بن حماد، من المصنفات الأولى في علم الحديث المتخصصة بهذا المجال، كما يدل على نشأة التصنيف الموضوعي عند المسلمين، ومن المصنفات القديمة كذلك كتاب «السنن الواردة في الفتن»، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، (ت٤٤٤هـ)، وربما هناك مؤلفات أخرى ولكنها لم تصل إلينا وفقدت.

علامات الساعة وأحاديث الآحاد[108]

من المعلوم أن العلم بأشراط الساعة من العقائد الإسلامية التي ينبغي على المسلم الإيمان بها ومعرفتها، ولكننا نجد أن هناك من ذهب إلى رد كثير من أخبار علامات الساعة بحجة أنها من أحاديث الآحاد وإن كانت صحيحة، فقد ذهب بعض أهل الكلام والأصوليين وبعض المتأخرين[109] إلى أن خبر الآحاد لا تثبت به عقيدة وإنما تثبت بالدليل القطعي الآية أو الحديث..

علماً بأن القائلين بعدم الأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد، يقولون بثبوت الأحكام الشرعية بحديث الآحاد، وهم بهذا فرقوا بين العقائد والأحكام من غير دليل فوقعوا في التناقض، لأن المدار يترتب في كل ذلك على صحة الحديث من غير تفريق بين خبر الواحد والخبر المتواتر، فإذا اثبتت صحة الحديث وجب الإيمان به وتصديقه آحاداً أو متواتراً وأنه يوجب العلم اليقيني، وهذا ما عليه السلف الصالح التزاماً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[110].

وقد رد العلماء الذين يرون حديث الآحاد حجة في العقائد والأحكام على أصحاب الرأي الآخر بأدلة من الكتاب والسنة وعدوا أقوالهم بدعة محدثة لا أصل لها، ولم يقل به أو يفكر به أحد السلف وخصوصاً الصحابة.. ومن هؤلاء ابن حجر رحمه الله حيث قال: «قد شاع فاشياً علم الصحابة والتابعين بخبر الواحد من غير نكير، فاقتضى الاتفاق منهم على

---

(١٠٨) خبر الآحاد: هو ما سوى المتواتر (انظر تقريب النووي مع تدريب الراوي، جـ٢، ص١٧٦)، وهو الذي يرويه عن الرسول ﷺ واحد أو اثنان أو جمع لم يبلغ حد التواتر والاشتهار، ثم يرويه عن الصحابي تابعي أو اثنان أو جمع لم يبلغ حد التواتر والاشتهار.. وهكذا لمن بعدهم، أو هو الذي تفرد به واحد فيسمى غريباً، وقد يرويه اثنان فأكثر فيسمى عزيزاً، وقد يستفيض بأن يرويه جماعة فيكون مشهوراً وذلك ما لم يجمع شروط الحديث المتواتر، راجع: *مقدمة في مصطلح الحديث* للألباني، ص١٤. أما حكمه عند جمهور المسلمين فهو وجوب العمل به إذا استوفى شروط الصحة، واختلفوا في إفادته علم اليقين أو عدم إفادته ولكل أدلته.. راجع: سهير رشاد مهنا، *خبر الواحد في السنة وأثره في الفقه الإسلامي*، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٣-٢٩.

(١٠٩) من أهل الكلام المعتزلة ومن تابعهم، انظر: البغدادي، *الفرق بين الفرق*، ص١٨٠. وابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٢٣٣، وعن بعض الأصوليين انظر: *شرح الكوكب المنير في أصول الفقه*، جـ٢، ص٣٥٠-٣٥٢، للعلامة أحمد محمد الحنبلي، تحقيق د.محمد الزحيلي ود.نزيه حماد، ومن المتأخرين الشيخ محمدعبده، ومحمود شلتوت وغيرهم، انظر: *رسالة التوحيد*، للشيخ محمد عبده، ص٢٠٢، *والفتاوى* للشيخ محمود شلتوت، ص٦٢.

(١١٠) الأحزاب ٣٣: ٣٦.

القبول»[111]، وهو رأي ابن القيم رحمه الله كذلك وآخرين ولهم أدلتهم التي لا مجال لذكرها وتراجع في مظانها[112]. وأشير فقط إلى أن القول بعدم حجية الآحاد في العقائد يستلزم رد مئات الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ في باب العقائد منها أفضلية نبينا محمد على جميع الأنبياء والمرسلين، وشفاعته العظمى في المحشر، وسؤال منكر ونكير في القبر وغير ذلك[113]..

أقسام علامات الساعة

اختلف المؤلفون الذين أفردوا كتباً لعلامات الساعة وأشراطها في كيفية تقسيم هذه العلامات، فبعضهم قسمها إلى: -

١ - علامات صغرى ظهرت وانقضت.

٢ - علامات ظهرت وهي مستمرة متزايدة.

٣ - علامات لم تظهر بعد ومنها الكبرى[114].

وبعضهم قسمها إلى:

١ - ما ظهر وانقضى.

٢ - علامات قريبة من الكبرى.

٣ - الأمارات الكبرى[115].

وجعلها بعضهم أربعاً: صغرى مضت، وصغرى مستمرة ومتكررة، وصغرى لم تقع بعد، وعلامات كبرى[116]..

ومنهم من قسمها إلى معتادة وغير معتادة، ومنهم من قسمها إلى سماوية وأرضية مع

---

(١١١) ابن حجر، *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، جـ١٣، ص٢٣١.

(١١٢) راجع المصدر السابق، وابن القيم، *مختصر الصواعق*، جـ٢، ص٤١٢، وآل مبارك ماهر بن صالح، *الرسالة في الفتن والملاحم وأشراط الساعة*، ط مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، القاهرة، ١٩٨٩، ص٩-٢٠، والوابل، يوسف بن عبد الله، *أشراط الساعة*، ص٤٧-٥٠.

(١١٣) راجع: الوابل، يوسف بن عبد الله، أشراط الساعة، ص٥١-٥٢.

(١١٤) مثل كتاب *الإشاعة لأشراط الساعة* للبرزنجي، و*الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة* للسيد محمد صديق القنوجي، و*المسيح الدجال وأسرار الساعة* للعلامة السفاريني.

(١١٥) مثل كتاب *علامات الساعة* لسعيد اللحام، و*علامات الساعة الصغرى والكبرى* لليلى مبروك.

(١١٦) مثل كتاب *القيامة الصغرى* د.عمر سليمان الأشقر.

الإشارة خلال ذلك إلى كونها معتادة وغير معتادة(١١٧).

كما أن هنـاك مؤلفـات اختصـت بالعلامـات الكـبرى وأشـارت بإيجـاز للصغـرى(١١٨)، وبعضها اقتصر على علامة واحدة من الكبرى بالتفصيل(١١٩).

قال ابن حجر في تعليقه على حديث جبريل المتضمن لعلامات صغـرى «قـال القرطبـي: علامات الساعة على قسمين: ما يكون من النوع المعتاد أو غيره...»(١٢٠).

ورأيت تقسيم علامات الساعة وأشراطها إلى قسمين:

الأول: علامات الساعة الصغرى وأشراطها بأصنافها الثلاث ما مضـى ومـا ظهـر ولا يـزال مستمراً، وما لم يظهر بعد.

الثاني: علامات وآيات الساعة الكبرى. فـالصنف الأول منهـا علامـات كـبرى تقـع خـلال الآيات، والصنف الثاني الآيات الكبرى بشقيها الأرضي ثم السماوي.

وأود الإشارة إلى أنه من غير الممكن ترتيب هذه العلامات ترتيباً دقيقاً لعدم وجـود نـص على ذلك، وقد حاول العلماء ترتيب ما وقع منها حسب الوقائع التاريخية الثابتة، واجتهـدوا في ترتيب ما لم يقع منها.. وسأحاول التوفيق بين اختلافات العلماء في ذلك مـع الاختصـار والتركيز..

---

(١١٧) مثل كتاب *فقد جاء أشراطها* لمحمود عطية محمد علي.

(١١٨) مثل *القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشراط الساعة* لشمس الدين السـخاوي، *وأشـراط السـاعة وأسرارها* لمحمد سلامة جبر.

(١١٩) مثل *القول المختصر في علامات المهدي المنتظر* لابن حجر الهيثمي، *وعقد الـدرر في أخبـار المهـدي المنتظر* للسلمي، *والممهدون للمهدي* لعلي الكوراني، *والمسيح المنتظـر* لمحمـد علـي البـار، *ورفـع عيسى والأديان السماوية ومولد عيسى*..الخ

(١٢٠) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١، ص١٢١، ح(٥٠).

الفصل الأول

علامات الساعة الصغرى وأشراطها

المبحث الأول:

علامات ظهرت وانقضت

١ - بعثة النبي ﷺ وموته:

وقد مر ذكر طائفة من الأحاديث الدالة على أن بعثة النبي محمد ﷺ من علامات الساعة ومنا كذلك قوله: «بعثت أنا والساعة هكذا ويشير بإصبعيه فيمدُّ بهما»[١].

وفي مسلم عن أنس ﷺ قال: «وضم السبابة والوسطى»[٢].

وذكر المفسرون أن بعثة النبي هي المقصودة في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[٣].

قال ابن كثير: «... فبعثة رسول الله ﷺ من أشراطها، لأنه خاتم الرسل، الذي أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر رسول الله ﷺ بإمارات الساعة وأشراطها»[٤].

وقال القرطبي: «وهذا وعيد للكفار.. وكانوا قد قرأوا في كتبهم أن محمداً آخر الأنبياء فبعثه من أشراطها وأدلتها»[٥].

كما ورد أن موت النبي ﷺ كذلك من علامات الساعة، قال رسول الله ﷺ: «اعدد ستاً بين يدي الساعة، موتي، ثم...»[٦].

وقد كان موت النبي ﷺ من أعظم المصائب التي حلت بالمسلمين يومها، فقد اضطرب

---

(١) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتي»، جـ٧، ص١٩٠.

(٢) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، جـ٣، ص٢٢٦٩، النووي، جـ١٨، ص٨٩-٩٠.

(٣) محمد ٤٧: ١٨.

(٤) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٣، ص٣٣٤.

(٥) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، م٨، جـ١٦، ص٢١٩.

(٦) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الجزية والموادعة، باب ما يحذر من الغدر، جـ٤، ص٦٨.

الصحابة بين مصدق ومكذب حتى تذاكروا ما جاء في موته من قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ..﴾[٧].

قال أنس بن مالك ﷺ: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم فيها كل شيء، ومـا نفضنا من رسول الله ﷺ الأيدي -وإنا لفي دفنه- حتى أنكرنا قلوبنا»[٨].

قال ابن حجر: «يريد أنهم وجدوها تغيرت عما عهدوه في حياته من الألفة والصفاء والرقة، لفقدان ما كان يمدهم به من التعليم والتأديب»[٩].

وكان من أسباب حزن الصحابة انقطاع الوحي بموت النبي ﷺ الذي كان لهم المدد الروحي الذي يثبتهم في المواقف العصيبة، وهذا ما قالته أم أيمن رضي الله عنها لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما عندما زاراها بعد موت النبي ﷺ، فلما انتهيا إليها بكت فقالا لها: «ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله، فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها»[١٠].

قال القرطبي: «بل أول أمر دهم الإسلام موت النبي ﷺ ثم بعده موت عمر، فبموت النبي ﷺ انقطع الوحي وماتت النبوة، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه»[١١].

ولهذا أمرنا الرسول ﷺ أن نتعزى بالمصيبة به عما يصيبنا فقال: «المصيبة بي»[١٢] وقال في مرض موته: «أيها الناس أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من

---

(٧) آل عمران ٢: ١٤٤.

(٨) الترمذي، *السنن*، أبواب المناقب، مع تحفة الأحوذي، جـ١٠، ص٨٧-٨٨. وقال: هذا صحيح غريب، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، انظر: *شرح السنة* للبغوي تحقيق الأرناؤوط، جـ١٤، ص٥٠.

(٩) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٨، ص١٤٩.

(١٠) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن، ح(٢٤٥٤)، جـ٤، ص١٩٠٧، مع شرح النووي، جـ١٦، ص٩-١٠.

(١١) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٦١.

(١٢) ابن ماجة، سنن *ابن ماجة*، كتاب الجنائز، باب ماجاء في الصبر على المصيبة، جـ١، ص ٥١٠، ح(١٥٩٩، و ١٦٠٠).

مصيبتي»[١٣]، أي أن تذكر المصاب المصيبة العامة -بفقد نبينا- تهون عليه وتسليه، وتخفف عليه لأنه الرحمة المهداة من الله إلى خلقه...

٢ - انشقاق القمر

ومن العلامات التي ظهرت في زمان الرسول ﷺ وهو في مكة، والتي تعد إحدى المعجزات الباهرات على نبوته: انشقاق القمر، وقد نص القرآن الكريم على ذلك، فقال تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[١٤]، فقد أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنهما أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما[١٥].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى، إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا»[١٦].

قال ابن حجر: «وقال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة، لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمح في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر»[١٧].

ويلاحظ مع عظمة هذه الآية وثبوتها في القرآن الكريم قلة من نقلها من الصحابة كابن مسعود وجبير وحذيفة ممن شهدوا الآية، أما رواة الحديث المشهورون فكانوا صغاراً ونقلوها سماعاً، وقد أجاب الحافظ ابن حجر أيضاً على هذا التساؤل ما ملخصه: إن الآية وقعت ليلاً -وأكثر الناس نيام- لقوم سألوا واقترحوا، فلم يتأهب غيرهم لها، علماً بأن القمر يراه قوم دون قوم لاختلاف الآفاق في تلك اللحظة[١٨].

---

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) القمر: ٥٤: ١-٢.

(١٥) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي آية فأراهم انشقاق القمر، جـ٤، ص١٨٦. مع فتح الباري، جـ٦، ص٦٣١، وكتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر، جـ٧٤، ص٢٤٣، ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، مع النووي، جـ١٧، ص١٤٥.

(١٦) الإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، جـ٣، ص٢١٥٨.

(١٧) ابن حجر، *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، كتاب المناقب، باب انشقاق القمر، جـ٧، ص١٨٢.

(١٨) انظر ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٧، ص١٥٨-١٨٢.

ويلاحظ أن من رآها من الكفار - بعد طلبهم لها - أنكرها، وقالوا: سحرنا محمد كما ذكر القرآن الكريم ذلك ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[١٩].

وتعدّ هذه العلامة من العلامات الصغرى -وإن كانت غير معتادة- لأنها لم يتبعها حدوث تغيير في العالم الأرضي أو العلوي[٢٠].

٣ - الفتوحات الإسلامية وفتح بيت المقدس

أخبرنا رسول الله ﷺ أن الإسلام سيتعدى حدود الجزيرة العربية وأنه سيقضى على ملكي كسرى وقيصر، فقد سمع الرسول ﷺ يقول: «وتغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله»[٢١]، وفي الصحيحين قوله: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[٢٢]، وفي رواية لتقسمن كنوزهما...

قال النووي في شرح الحديث: «قال الشافعي وسائر العلماء معناه لا يكون كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام كما كان في زمنه، فعلمنا منه ﷺ بانقطاع ملكهما في هذين الإقليمين فكان كما قال، فأما كسرى فانقطع ملكه وزال بالكلية من جميع الأرض وتمزق ملكه كل ممزق، وأما قيصر فانهزم من الشام ودخل أقاصي بلاده فافتتح المسلمون بلادهما واستقرت للمسلمين ولله الحمد وأنفق المسلمون كنوزهما في سبيل الله كما أخبر..»[٢٣].

ومن أهم الفتوحات والتي نص عليها الرسول ﷺ كعلامة للساعة وتمت فتح «بيت المقدس» كما ورد في الحديث السابق ذكره «اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي ثم فتح بيت المقدس، ثم..»[٢٤] وذلك لأن لبيت المقدس ارتباطاً بعقيدة الإسلام فهي ثالث الحرمين بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، وإليها أسري الرسول ﷺ ومنها عُرج إلى السماء، وقبلة المسلمين الأولى، وأحد المساجد الثلاث التي تشد إليها الرحال.. لذا سارع الصحابة لتطهيرها من وثنيات الرومان، فتم فتح بيت المقدس في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ حيث حاصرت الجيوش الإسلامية بيت

---

(١٩) القمر ٥٤: ٢.

(٢٠) محمود عطية، *فقد جاء أشراطها*، ص٦١.

(٢١) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، ح(٢٩٠٠)، باب ما يكون من فتوحات الدجال، جـ٤، ص٢٢٢٥.

(٢٢) البخاري، صحيح *البخاري*، كتاب المناقب، ح(٣٦١٨) مع الفتح، جـ٦، ص٦٢٥، مسلم، صحيح *مسلم*، كتاب الفتن، مع النووي، جـ١٨، ص٤٢.

(٢٣) النووي، صحيح *مسلم بشرح النووي*، جـ١٨، ص٤٢-٤٣.

(٢٤) سبق تخريجه.

المقدس إلى أن أجاب أهلها إلى الصلح بشرط أن يقدم عليهم أمير المؤمنين عمر ﷺ فاستجاب وصالح أهلها واشترط عليهم إخراج الروم خلال ثلاثة أيام ثم دخل المسجد من حيث دخل رسول الله ﷺ يوم الإسراء، وصلى فيه مع المسلمين[٢٥]، كما طهرها من اليهود وذلك سنة ست عشرة من الهجرة وبنى بها مسجداً في قبلة بيت المقدس[٢٦].

وسقطت القدس بيد الصليبيين -كما سيأتي- بسبب فرقة المسلمين وتمزقهم السياسي إلى أن فتحها صلاح الدين الأيوبي وهزم الجيوش الصليبية عام ٥٨٢ هـ، ثم سقطت بيد اليهود منذ عام ١٩٦٧م ولازالت تستصرخ المسلمين لخلاصها وسوف يكون بإذن الله كما بشرنا الرسول ﷺ.

٤ - طاعون عمواس[٢٧]

أخبر النبي ﷺ أن الموتان علامة من علامات الساعة وقربها ففي حديث عوف بن مالك ﷺ -السابق الذكر- أن الرسول ﷺ قال: «اعدد ستّاً بين يدي الساعة، موتي ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم ... الخ. الحديث»[٢٨].

وظهرت هذه العلامة في الأمة الإسلامية في خلافة عمر ﷺ في طاعون عمواس كما قال ابن حجر: «فقال: إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر، وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس»[٢٩].

ففي سنة ثمان عشرة للهجرة -على المشهور الذي عليه الجمهور- وقع طاعون في كورة عمواس ثم انتشر في أرض الشام فمات خلق كثير من الصحابة ﷺ وغيرهم قيل: بلغ عدد من مات فيه خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين منهم أبو

---

(٢٥) راجع: محمود شاكر، *التاريخ الإسلامي*، جـ٣، ص١٦٢.

(٢٦) ابن كثير، *البداية والنهاية*، جـ٧، ص٥٦. وراجع: محمد سلامة جبر، *أشراط الساعة وأسرارها*، ط٤، مطابع القبس التجارية، الكويت، ١٩٨٩، ص١٤. ومصطفى أبو النصر الشلبي، *صحيح أشراط الساعة*، ط٢، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، ١٩٩٤، ص٣١-٣٢.

(٢٧) عمواس، بلدة فلسطينية تبعد عن الرملة ستة أميال على طريق بيت المقدس. انظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، جـ٤، ص١٥٧-١٥٨.

(٢٨) الحديث في البخاري وسبق تخريجه. والموتان: بضم الميم وسكون الواو، هو الموت الكثير الوقوع، والقعاص: داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة، وقال ابن فارس: القعاص داء يأخذ في الصدر كأنه يكسر العنق. راجع ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٦، ص٢٧٨، وابن الأثير، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، جـ٤، ص٨٨.

(٢٩) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٤، ص٨٨.

عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة رضي الله عنه[٣٠].

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام فلما بلغ سرغ[٣١] بلغه أن الوباء وقع بالشام، فأخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» فرجع عمر بن الخطاب من سرغ[٣٢].

٥ - شيوع الأمن وانتشاره

وقد أخبر النبي ﷺ أن من علامات الساعة أن يأمن المسافر على ضيعته من العراق إلى مكة لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، وما ذاك إلا لأن الأمن كان منعدماً في الجزيرة العربية من قطاع الطريق وغير ذلك، فلهذا جاءت الأحاديث لتخبرهم بالأمن بسبب ظهور الإسلام فيها فقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق»[٣٣]. وهذا ما وقع فعلاً في زمن الصحابة رضي الله عنهم حين عم الإسلام والعدل في البلاد التي فتحها المسلمون.

ومما يؤيد ذلك قول الرسول ﷺ لعدي بن حاتم حين جاء من شكا إليه قطع السبيل: «هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أُنبئت عنها قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟»[٣٤].

وسيكون ذلك مرة أخرى زمن المهدي وعيسى عليه السلام حينما يظهر العدل ويسود على العباد.

---

(٣٠) راجع: ابن كثير، *البداية والنهاية*، جـ٧، ص٩٠-٩٤.

(٣١) هي بفتح الراء وسكونها قرية بوادي تبوك، انظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، جـ٣، ص٢١٢.

(٣٢) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، وكتاب الجدل، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون، وليس فيه الزيادة من رجوع عمر.. مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، ح(٢٢١٩)، جـ٤، ص١٧٤٢، ورواه الإمام مالك مطولاً، *الموطأ*، كتاب الجامع، باب ما جاء في الطاعون، ح(٢٤)، جـ٢، ص٨٩٤-٨٩٦، وفيه ذكر رجوع عمر مع الناس بعد استشارة كبار الصحابة، والإمام أحمد، *المسند*، جـ١، ص١٩٤.

(٣٣) الإمام أحمد، *مسنده وبهامشه منتخب كنز العمال*، جـ٢، ص٣٧٠-٣٧١، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، انظر: *مجمع الزوائد*، جـ٧، ص٣٣١.

(٣٤) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، مع الفتح، جـ٦، ص٦١٠-٦١١. والبغوي، *شرح السنة*، كتاب الفتن، باب ما يكون في كثرة المال والفتوح، جـ١٥، ص٣١-٣٣. أحمد، *المسند*، جـ٤، ص٢٥٧.

٦ - استفاضة المال

وهو المشار إليه في حديث عوف بن مالك ﷺ الآنف الذكر وهو قوله ﷺ: «اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي.. ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً» [٣٥]، أي أنه يكثر المال حتى إذا أعطي الرجل الكثير منها فيتقالها ويعرض عنها.

وقد تحقق ذلك حين أنعم الله عليهم بالفتوحات وبكنوز كسرى وقيصر كما مر، وفي تمام حديث عدي بن حاتم قال: «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت: كسرى بن هرمز. قال: كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه..» قال عدي: «فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه..» [٣٦].

وتحققت نبوءة الرسول بإنفاق كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله، وفي حديث آخر «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر، والأبيض» [٣٧]، وقد وقع كل ذلك حيث بلغ ملك هذه الأمة على امتداد في جهتي الشرق والغرب، أما في الشمال والجنوب فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب.

وبسبب ذلك كثر المال حتى إن صاحبه يسعى بزكاة ماله شهراً يبحث عمن يقبلها فلا يجد من يأخذها، وهذا ما حدثنا به رسولنا ﷺ فقال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض، حتى يُهمَّ ربَّ المال من يقبل منه صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي عرض عليه: لا أرب لي فيه» [٣٨].

وقد تحقق كل ذلك فكثر المال في عهد الصحابة بعد الفتوح واقتسموا أموال الفرس والروم، ثم فاض في خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله حتى يعرض الرجل ماله فيقول

---

(٣٥) سبق تخريجه.

(٣٦) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

(٣٧) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك الأمة بعضهم ببعض، جـ٤، ص٢٢١٥، ح(٢٨٨٩)، وقال ابن الأثير: (زوى): يقال زويته أزويه زيا، أي جمعته والمعنى أن الله جمع له الأرض وقربها حتى رأى مشارقها ومغاربها، انظر: *النهاية في غريب الحديث*، جـ٢، ص٣٢٠-٣٢١.

(٣٨) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الفتن، باب٢٥، ح(٧١٢٠)، مع الفتح، جـ١٢، ص٨١. والإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الزكاة، باب كل نوع من المعروف صدقة، جـ٧، ص٩٦.

الآخر: لا أرب لي فيه، وكان الرجل يأتي بالمال العظيم ويقول: اجعلوا هذا حيث ترون من الفقراء، فما يرجع إلا وقد أعاد ماله معه، حيث لا يوجد من يقبل الصدقة أو يستحقها، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس[٣٩]، وسيكثر المال في آخر الزمان كما دلت الأحاديث على أن ذلك سيحدث زمن المهدي وعيسى عليه السلام فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، قال: فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً»[٤٠].

وذهب ابن حجر إلى أن ذلك يحتمل أن يقع وقت خروج النار واشتغال الناس بأمر الحشر، فلا يلتفت أحد إليه بل يحرص على التخفف ما استطاع..[٤١].

ولكن هذا لا ينافي أن يكون استغناؤهم لسبب آخر وهو كثرة المال. والله أعلم.

٧ - ظهور نار الحجاز والدخان

أخبر النبي ﷺ أن من علامات الساعة خروج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى[٤٢]، حيث قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»[٤٣].

وقد ظهرت هذه العلامة على الصورة التي أخبر بها الصادق، وكان خروجها سنة (٦٥٤هـ)، وكانت حدثاً عظيماً وصفها العلماء الذين عاصروا ظهورها.

قال ابن كثير: ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة وفيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه، وقد بسط القول في ذلك الشيخ العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه الذيل وشرحه،

---

(٣٩) راجع ابن حجر، فتح الباري، جـ٢، ص٨٣.

(٤٠) مسلم، *الصحيح*، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لايوجد من يقبلها، جـ٢، ص٧٠١.

(٤١) انظر ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٨٨.

(٤٢) بصرى بضم الباء، مدينة معروفة بالشام، ويقال لها حوران، بينها وبين دمشق ثلاث مراحل. انظر: ياقوت، *معجم البلدان*، جـ١، ص٤٤١.

(٤٣) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الفتن، باب خروج النار، ح(٧١١٨). ومسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار في أرض الحجاز، ح(٤٢)، جـ٤، ص٢٢٢٧، وهذه النار غير النار التي تخرج قبيل الساعة وتحشر الناس إلى أرض المحشر. انظر: أبا عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، ط دار العاصمة، الرياض، ١٩٩٥، جـ٥، ص٩٩٩-١٠٠٢.

واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار التي شوهدت معاينة وكيفية خروجها وأمرها(٤٤)، وقد فصل أبو شامة في وصف هذه النار وفق الكتب التي جاءته من المدينة إلى الشام.

وذكر القرطبي ظهور هذه النار وأنها رئيت من مكة ومن جبال بصرى، وكذلك ابن حجر، نص على أن النار المقصودة في الحديث هي التي ظهرت بنواحي المدينة.

وكان النووي ممن عاصر ظهور هذه النار فقال: وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة، وكانت ناراً عظيمة جداً من جانب المدينة الشرقي، وراء الحرة، تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام وسائر البلدان وأخبرني من حضرها من أهل المدينة.

وملخص ما ذكره هؤلاء أن هذه النار سبقها دوي وزلازل قبل ثلاثة أيام ثم كانت النار قرب المدينة في الحرة، سدت طريق الحاج العراقي استمرت صاعدة في الهواء خمسة أيام، ورئيت من مكة وبصرى، وكتب في تيماء على ضوئها الكتب وكأنه في كل بيت سراج، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها، بل يأتي المدينة نسيم بارد.. فكانت بحق آية من آيات الله عز وجل.

ومن خلال ما كتب يظهر ما كان لهذه العلامة من أثر بالغ في نفوس الناس حيث أعلنوا توبتهم وأقلعوا عن معاصيهم، كما قال أبو شامة: «والمدينة قد تاب جميع أهلها، ولا بقي يسمع فيها رباب، ولا دف ولا شرب، وبات الناس تلك الليلة بين مصل، وتال للقرآن، وراكع وساجد، وداع إلى الله عز وجل، ومتنصل من ذنوبه ومستغفر وتائب».

علماً أن القرطبي وغيره أجمعوا على أن هذه النار غير النار التي تحشر الناس والتي هي من الآيات التي تسبق قيام الساعة أي النار ناران.

وكذلك الأمر بالنسبة للدخان كعلامة انقضت ومرت زمن الرسول ﷺ وكآية من آيات الساعة الكبرى فقد وردت الأدلة الصحيحة بهذه وتلك وبهذا نخرج تعارض الأدلة ونجمع بينهما، قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾. حيث روى الشيخان عن ابن مسعود أنها نزلت لما استعصت قريش على الرسول ﷺ فدعا عليهم فأصابهم قحط وجهد فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى كهيئة الدخان.

فأنزلت الآية، فأتى رسول الله وطلب منه أن يستسقي لهم ففعل فسقوا فنزلت: ﴿إنكم عائِدون﴾، فعادوا إلى حالهم بعد ما كشف عنهم فأنزل الله:﴿يَومَ نَبطشُ البَطْشَةَ الكُبرى إنّا

---

(٤٤) راجع: ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، تحقيق د. زيني، جـ١، ص١٤، و*البداية والنهاية*، جـ١٢، ص١٨٧-١٩٢.

مُنتَقِمون﴾[٤٥] وبذلك تكون هذه العلاقة مضت ولكنها تتكرر قرب الساعة كما هو ثابت[٤٦] وسيأتي الكلام عنها مفصلاً في الآيات الكبرى.

٨ - قتال الترك والعجم وزوال ملك العرب

جاءت أحاديث نبوية كثيرة عن قتال المسلمين للترك[٤٧] والعجم منها قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك، قوماً وجوههم كالمجان المطرقة[٤٨] يلبسون الشعر ويمشون في الشعر...»[٤٩].

وجاء الحديث في البخاري عن أبي هريرة ﷺ كذلك قول النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر، وحتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة»[٥٠].

كما جاء الحديث بطريق آخر قوله: «من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عِراض الوجوه

---

(٤٥) الدخان ٤٤:١٦

(٤٦) راجع الأحاديث التي سيأتي الكلام عنها في دخان قبيل الساعة في: أبو عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، باب ما جاء في الدخان، جـ٥، ص١٠٠٣.

(٤٧) للعلماء عدة أقوال في أصل الترك منها: أ - أنهم من نسل يافث بن نوح الذي من نسله يأجوج ومأجوج، فهم بنو عمهم. ب - أنهم من بني قنطوراء، اسم جارية كانت لإبراهيم الخليل عليه السلام، ولدت له أولاداً جاء من نسلهم الترك والصين. جـ - وقيل أنهم من نسل تبع. د - وقيل من نسل أفريدون بن سام بن نوح. انظر: ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص١٥٣، وياقوت الحموي، *معجم البلدان*، جـ٢، ص٢٣، وابن الأثير، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، جـ٤، ص١١٣، وابن حجر، فتح الباري، جـ٦، ص١٠٤، و٦٠٨.

(٤٨) (المجان) جمع مجن وهو الترس، والميم زائدة لأنه من الجُنة، وهي السترة. فالمجان المطرقة: هي التي عُليت بطارق، وهي الجلد الذي يغشاه... فشبه وجوههم في عرضها ونتوء وجناتها بالترس قد أُلبست الأطرقة. انظر ابن الأثير، جـ٣، ص١٢٢، جـ٤، ص٣٠١، والنووي، جـ١٨، ص٣٦-٣٧.

(٤٩) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، جـ٤، ص٢٢٣٣، ح(٢٩١٢)، أبو داود، *السنن*، كتاب الملاحم، باب في قتال الترك، ح(٤٣٠٣)، جـ٤، ص٤٨٦، والترمذي، سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء من قتال الترك، ح(٢٢١٥)، جـ٤، ص٤٩٧، وقال حسن صحيح والنسائي، *سنن النسائي*، كتاب الجهاد، باب غزوة الترك والحبشة، ح(٣١٧٥)، جـ٦، ص٤٥.

(٥٠) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، جـ٤، ص١٧٤، ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل... جـ٤، ص٢٢٣٤، ح(٢٩١٢)، والإمام أحمد، المسند، جـ٢، ص٤٧٥، ٥٣١، جـ٥، ص٦٩.

كأن وجوههم المجان المطرقة»[٥١].

والأحاديث يفسر بعضها بعضاً، فقوله في الحديث الأول «يمشون في الشعر» ما معناه في الثاني «نعالهم الشعر».

واختلف مَن المراد بالترك هنا، فقيل هم التتار: ولكن يبدو أنهم أقوام كثيرة منهم التتار وغيرهم والذين سكنوا تركستان[٥٢].

وجاءت أحاديث للتحذير منهم، وتصفهم بشدة البأس..وكان مشهوراً بين الصحابة ﷺ قوله ﷺ: «اتركوا الترك ما تركوك»[٥٣]، ولذلك غضب معاوية بن أبي سفيان عندما جاءه كتاب من عامله يخبره بأنه أوقع بالترك وهزمهم وسبى وغنم، لانه كره قتالهم.

والظاهر من الأحاديث التي سقناها أنها تذكر قتال المسلمين للترك والعجم من غير إشارة للطرف الغالب، ولكن القتال معهم في بادئ الأمر وقع على الصفة التي أخبر بها الرسول ﷺ وهزمهم المسلمون وغنموا وسبوا نسائهم وقد يتكرر ذلك في آخر الزمان حين خروج يأجوج ومأجوج.. ولكن أحاديث أخرى أشارت إلى أن تلك الأقوام سوف تكون لها الغلبة على العرب وقد كان، حيث قال رسول الله ﷺ: «إن أمتي يسوقها قوم عِراض الأوجه، صغار الأعين كأن وجوههم الحجف[٥٤](ثلاث مرات) حتى يلحقوهم بجزيرة العرب، أما السابقة الأولى فينجوا من هرب منهم، وأما الثانية فيهلك بعض وينجوا بعض، وأما الثالثة فيصطلمون[٥٥] كلهم من بقي منهم»، قالوا يا نبي الله من هم؟ قال: «هم الترك»

---

(٥١) البخاري، *الصحيح*، كتاب الجهاد، باب قتال الترك، جـ٣، ص٢٣٣، ابن ماجه، السنن، كتاب الفتن باب الترك، جـ٢، ص١٣٧٢، ح(٤٠٩٨)، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٤٩٣، جـ٣، ص٣١، جـ٥، ص٧٠.

(٥٢) قال الحموي في معجم *البلدان*: تركستان: «اسم جامع لجميع بلاد الترك» ثم ذكر حدَّهم فقال: «وحدهم الصين والتبت.. وأول حدهم من جهة المسلمين فاراب» انظر: جـ٢، ص٢٣.

(٥٣) أبو داود، سننه، كتاب الملاحم، باب النهي عن تهييج الترك والحبشة، جـ٤، ص٤٨٦، ح (٤٣٠٢). ورواه الطبراني عن معاوية بن أبي سفيان مرفوعاً بطرق يشهد بعضها لبعض، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عثمان بن يحيى القرقساني ولم أعرفه وبقية رجاله رجال صحيح، *مجمع الزوائد*، جـ٧، ص٣١٢، وقال عنه ابن حجر حسن، *فتح الباري*، جـ٦، ص٦٠٩، وقال عنه الألباني موضوع وأراد بذلك الزيادة التي في نهاية الحديث وهي «أول من يسلب أمتي ملكه وما خولهم الله بنو قنطوراء» وقد استشهد به ابن حجر.. انظر التحقيق في الحديث: الوابل، يوسف عبدالله، *أشراط الساعة*، ص٢٣-٢٤.

(٥٤) الحجف: الترس، راجع ابن الأثير، جـ١، ص٣٤٥، انظر: ابن الأثير، جـ٣، ص٤٩.

(٥٥) يصطلمون من الصلم وهو القطع، أي يحصدون.

قال: «أما والذي نفسي بيده ليربطن خيولهم إلى سواري مساجد المسلمين». قال: «وكان بريدة -راوي الحديث- لا يفارقه بعيران أو ثلاثة ومتاع السفر والأسقية بعد ذلك للهرب، مما سمع من النبي ﷺ من البلاء من أمراء الترك»[٥٦]، فالأحاديث تظهر ما كان من هؤلاء الترك بعد أن غزاهم المسلمون وانتصروا عليهم..

ووقعت الحوادث على نحوها ما ورد ما في الحديث المذكور من قبل التتار وقد فصل القرطبي تلك الخرجات الثلاث لهم والتي كانت الأولى سنة سبع عشرة وستمائة في بلاد ما وراء النهر وجميع خراسان وخربوا المدن وأغرقوها ثم الثانية حين وصلوا العراق الثاني وأعظم مدنه أصبهان وهم مشتغلون بعلم الحديث فحفظهم الله، وجاهدوا العدو فمرقوا وكانت الثالثة إلى بغداد وتدميرها وهو خروجهم الأخير وقتلهم للخليفة والعلماء والأمراء والفضلاء والعباد، ثم أوغلوا في البلاد حتى ملكوا الشام..[٥٧]

وقد أكد ذلك النووي الذي عاصر تلك الحوادث فقال: «وقد وجد في زماننا الترك الذين تحدث عنهم الرسول الكريم ﷺ هكذا بجميع صفاتهم»[٥٨]. كما ذكر ابن حجر تغلب الترك والعجم على الملك ثم خراب البلاد فقال: وقاتل المسلمون الترك في خلافة بني أمية، وكان ما بينهم وبين المسلمين مسدوداً إلى أن فتح ذلك شيئاً بعد شيء وكثر السبي منهم، ثم غلب الأتراك على الملك فقتلوا ابنه المتوكل، ثم أولاده واحداً بعد واحد إلى أن خالط المملكة الديلم، ثم كان الملوك السامانية من الترك أيضاً فملكوا بلاد العجم، ثم غلب على تلك الممالك آل سبكتكين، ثم آل سلجوق، وامتدت مملكتهم إلى العراق والشام والروم، ثم كان بقايا أتباعهم بالشام - وهو آل زنكي وأتباع هؤلاء - وهم آل أيوب، واستكثر هؤلاء أيضاً من الترك فغلبوهم على المملكة بالديار المصرية والشامية والحجازية، ثم خرج على آل سلجوق في المئة الخامسة الغزُّ فخربوا البلاد وفتكوا في العباد.. ثم جاءت الطامة الكبرى بالتتر فكان خروج جنكيزخان بعد الستمائة فاسعرت بهم الدنيا ناراً، خصوصاً المشرق بأسره، حتى لم يبق بلد منه إلا دخله شرُّهم، ثم كان خراب بغداد وقتل الخليفة المستعصم آخر خلفائهم على أيديهم في سنة ست وخمسين وستمائة، ثم لم تزل بقاياهم يخربون إلى أن

---

(٥٦) الأمام أحمد، *المسند*، جـ٥، ص٣٤٨-٣٤٩.

(٥٧) راجع القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٢٢-٣٢٣.

(٥٨) النووي، *صحيح مسلم بشرح النووي*، جـ١٨، ص٣٨.

كان آخرهم اللنك[٥٩].. فطرق الديار الشامية وعاش فيها وحرق دمشق حتى صارت على عروشها، ودخل الروم والهند وما بين ذلك، وطالت مدته إلى أن أخذه الله، وتفرق بنوه في البلاد. تحقق ذلك كله مصداقاً لقوله ﷺ: «إن بني قنطوراء[٦٠] أول من سلب أمتي ملكهم» وكأنه يريد بقوله: «أمتي» أمة النسب لا أمة الدعوة، يعني العرب والله أعلم[٦١].

وعلى هذا تفسر الأحاديث أن الترك هم التتار المغول بصفاتهم المذكورة في الأحاديث.

وتفسر هذه كلها -الأحداث والأحاديث- حديثاً آخر لرسول الله ﷺ يقول: من اقتراب الساعة هلاك العرب[٦٢] والمقصود زوال ملكهم وقد زال ملك العرب بزوال الملك عن بني العباس[٦٣].

وقد دخل عدد كبير من الترك الإسلام، وظهر على أيدي المسلمين منهم خير كثير مصداقاً لقوله ﷺ: وتجدون في خير الناس أشدّهم كراهية لهذا الأمر، حتى يقع فيه، والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام[٦٤]، فكانوا أنصاراً للإسلام فيما بعد وحصل في عهدهم الفتوحات العظيمة ومنها فتح القسطنطينية عاصمة الروم وهو الفتح الأول، وستفتح مرة أخرى قبل ظهور الدجال كآية من آيات الساعة[٦٥].

وقد ذكر الرسول ﷺ الصفات ذاتها بشأن العجم حيث قال: لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزاً وكِرمان[٦٦] من الأعاجم، حمر الوجه، فطس الأنوف، صغار الأعين، كأن وجوههم

---

(٥٩) هو تيمور لنك.

(٦٠) قنطوراء، قيل كانت جارية لإبراهيم عليه السلام فولدت له أولاداً منهم الترك.

(٦١) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٦، ص٦٠٩-٦١٠.

(٦٢) الترمذي، *السنن*، كتاب المناقب باب مناقب في فضل العرب، جـ٥، ص٧٢٤، ح(٣٩٢٩)، وقال هذا حديث غريب.

(٦٣) البرزنجي، *الإشاعة*، ص٧٧.

(٦٤) البخاري، *الصحيح*، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، جـ٤، ص١٧٤.

(٦٥) راجع: القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٥٢، والسخاوي، أبو الخير محمد بن عبدالرحمن، *القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشراط الساعة*، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ص٨٦-٨٩.

(٦٦) خوز، بلاد خوزستان، وهي من بلاد الأهواز من عراق العجم ومثل: الخوز صنف من الأعاجم. انظر: ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، جـ٢، ص٤٠٤، وكرمان بلاد واسعة مشهورة يحدها من الغرب بلاد فارس ومن الشمال خراسان، وجنوبها بحر فارس، انظر: ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، جـ٤، ص٤٥٤.

المجان المطرقة، نعالهم الشعر[٦٧].

وهذا الحديث عن قتال المسلمين للعجم لأن خوز وكرمان ليس من بلاد الترك بل من بلاد العجم وجاءت أوصافهم كأوصاف الترك، يقول ابن حجر: «يمكن أن يجاب بأن هذا الحديث غير حديث قتال الترك ويجتمع منها الإنذار بخروج الطائفتين»[٦٨]، يؤيد ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ قوله: «يوشك أن يملأ الله عز وجل أيديكم من العجم، ثم يكونون أسداً لا يفرون، فيقتلون مقاتلتكم، ويأكلون فيئكم»[٦٩]، وعلى هذا فقتال العجم من أشراط الساعة.

ويقول ابن حجر: «بعض هذه الأحاديث ظاهر في أن الذين ينتعلون الشعر غير الترك»[٧٠]. ثم ذكر رحمه الله أن أصحاب بابك الخرمي كانوا ينتعلون الشعر، وقال عن بابك الخرمي: «كان من طائفة الزنادقة، استباحوا المحرمات، وقامت لهم شوكة كبيرة في أيام المأمون، وغلبوا على كثير من بلاد العجم كطبرستان والري إلى أن قتل بابك المذكور في أيام المعتصم»[٧١].

وعلى هذا يكون قتال الترك والعجم من أشراط الساعة والله أعلم أما قول الرسول ﷺ لعوف بن مالك السابق ذكره «اعدد ستاً بين يدي الساعة، موتي..... ثم هدنة بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً»[٧٢]وبنو الأصفر هنا الروم الذين يأتون تحت ثمانين غاية: أي راية تحت كل راية اثنا عشر ألفاً يعني قريباً من مليون، ولعل هذا ما حدث في تحالف الغرب على هدم الخلافة الإسلامية في الحرب العالمية الأولى، والله أعلم[٧٣]،وتعني الروم في أيامنا دول الغرب، ففي الحديث تنبأ بما عليه الغرب من الغدر والخداع مع المسلمين وقد كان منهم ما كان في الحروب الصليبية، ثم كانت الهدنة وبعدها غدروا بالقضاء على الخلافة الإسلامية، والله أعلم.

---

(٦٧) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، جـ٤، ص١٧٤.

(٦٨) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٦، ص٦٠٧.

(٦٩) الأمام أحمد، *المسند*، جـ٥، ص١١، قال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح» *مجمع الزوائد*، جـ٧، ص٣١٠.

(٧٠) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٦، ص١٠٤.

(٧١) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٦، ص١٠٤.

(٧٢) سبق تخريجه في أول المبحث.

(٧٣) راجع، محمد سلامة جبر، *أشراط الساعة وأسرارها*، ص١٥.

المبحث الثاني:
علامات ظهرت ولا زالت مستمرة

١ - ظهور الفتن

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تتعرض الأمة الإسلامية لأنواع شتى من المحن والفتن لكشف النفوس وصهرها وتمييز الناس وغير ذلك مما ستتعرض له في مبحث قادم، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[٧٤].

وقد أخبر رسول الله ﷺ بالفتن العظيمة التي تقع ابتلاءً للأمة ليعدوا لها العدة، وخصوصاً تلك الفتن التي تعد من أشراط الساعة وإماراتها، والتي يلتبس فيها الحق بالباطل، ولذا كان صلوات الله عليه حريصاً على تنبيه أمته فقد روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي، إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء، وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فَيُزلِق[٧٥] بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»[٧٦].

وقد بين لهم الرسول ﷺ كذلك أن تلك الفتن تتراوح في شدتها، وربما أسر الرسول ﷺ بعضها إلى بعض الصحابة كما قال حذيفة بن اليمان ﷺ: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسر إلي في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال يوماً -وهو في مجلس يتحدث فيه عن الفتن-

---

(٧٤) العنكبوت ٢:٢٩

(٧٥) فُيزلِق: أي يدفع بعضها بعضاً، كأن الثانية تزحم الأولى في سرعة ورودها، وجاءت في بعض الروايات: فيرقّق.

(٧٦) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، ح(١٨٤٤)، جـ٣، ص١٣١٧، وأبو داود، سننه، كتاب الفتن، باب ذكر الفتن ودلائلها، ح(٤٢٤٨)، والنسائي، سننه، كتاب البيعة، باب ذكر من بايع الإمام وأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، ح(٤١٨٨).

فقال: «منها ثلاث لا يكدن يذرن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصيف[77] منها صغار ومنها كبار، فذهب أولئك الرهط الذين سمعوه معي كلهم غيري»[78].

وذكر رسول الله ﷺ أن بعض تلك الفتن يبلغ من شدتها وظلمتها أن تخرج المسلم عن دينه فقال: «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمس مؤمناً ويصبح كافراً، القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، فكسروا قسيّكم، وقطعوا أوتاركم، واضربوا بسيوفكم الحجارة، فإن دخل على أحدكم فليكن كخير ابني آدم»[79].

وهذا الحديث يشير إلى تعليم المسلم كيفية النجاة من الفتن إذا التبس عليه وجه الحق، فليس له إلا الاعتزال وإلا فلينصر الحق إذا تيقن منه كما سيأتي ذلك.. وبعض روايات الحديث توجه المسلمين للمبادرة بالأعمال الصالحة اتقاءً للفتنة كقول الرسول ﷺ «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[80].

والحديث ينبه إلى فتنة الدنيا بأنواعها التي تجعل المسلم يستجيب لها ولإغراءاتها ويخسر دينه.. ولذلك عليه أن يبادر بالأعمال الصالحة ووصف النبي ﷺ شدائد تلك الفتن وعظمها بأن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب.

وأما كون الرجل يمسي مؤمناً و يصبح كافراً أو عكسه فذكر المباركفوري أن ذلك أما يكون حقيقة، وأما يكون مجازاً، وعلى الثاني يكون المعنى كافراً للنعمة أو مشابهاً للكفرة أو

---

(٧٧) كرياح الصيف: يريد أن فيها بعض الشدة، وإنما خصّ الصيف لأن رياح الشتاء أقوى، انظر: الشلبي، *صحيح أشراط الساعة*، ص٤٣.

(٧٨) الإمام مسلم، *صحيحه*، كتاب الفتن، باب أخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، ح(٢٨٩١)، جـ٤، ص ٢٢١٦، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٥، ص٣٨٨، والحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٤٧١.

(٧٩) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٤ ص ٤٠٨، وأبو داود، *السنن*، كتاب الفتن والملاحم، مع عون المعبود، جـ١١، ص٣٣٧، وابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة، جـ٢، ص١٣١٠، والحاكم، المستدرك، جـ٤، ص٤٤٠، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. والحديث صححه الألباني، *صحيح الجامع الصغير*، جـ٢، ص١٩٣، ح(٢٠٤٥).

(٨٠) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، ح(١٨٦)، جـ١، ص١١٠، والترمذي، سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء ستكون الفتن كقطع الليل المظلم، ح(٢١٩٥)، جـ٤، ص٤٨٧، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٣٠٤، ٣٧٢، ٥٢٣، والبغوي، شرح *السنة*، كتاب الفتن، ح(٤٣٢٣)، جـ٥، ص١٥.

عاملاً عمل الكافر. وقيل: أن معناه أنه يصبح محرماً لما حرمه الله ثم يمسي مستحلاً إياه وبالعكس[81].

وعن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول: «سبحان الله! ما أنزل الله من الخزائن! وماذا أنزل الله من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات -يريد أزواجه- لكي يصلين؟ رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»[82].

وإذا كان النبي ﷺ يطلب من أزواجه ذلك، بالمبادرة بالعمل الصالح فما بال من يعيش زمن الفتن حيث يكون الماسك على دينه غريباً وكالقابض على جمر، فليس له إلا الاعتصام بدينه.

وفضلاً عن تحذير الرسول ﷺ من الفتن علم أمته التعوذ منها بأدعية كثيرة كما أشار إلى الوقت الذي تبدأ فيه الفتن ففي حديث ابن مسعود ﷺ قال: «تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم، يقوم سبعين عاماً، قال: قلت: أمما بقي أو مما مضى؟ قال مما مضى»[83].

وقد حدد رسول الله ﷺ الجهة التي تجيء منها الفتن وهي المشرق فعن ابن عمر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «ألا إن الفتنة هاهنا ألا إن الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان»[84].

وفي رواية لمسلم «رأس الكفر من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان»، يعني المشرق[85].

---

(٨١) راجع المباركفوري، *تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي*، جـ٣، ص٢٢١.

(٨٢) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، ح(٧٠٦٩)، وذكر ابن حجر خمسة أقوال لمعنى «رب كاسية..»، منها: رب كاسية في الدنيا بالثياب لوجود الغنى، عارية في الآخرة من الثواب لعدم العمل في الدنيا، أو كاسية من نعم الله عارية من الشكر الذي تظهر ثمرته في الآخرة بالثواب، انظر: *الفتح*، جـ١٣، ص٢٠-٢٢.

(٨٣) الإمام أحمد، *المسند*، جـ١، ص٣٩٠، ٣٩١، وأبو داود، سننه، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، ح(٤٢٥٤)، جـ٤، ص٤٥٣ وصححه الحاكم في *المستدرك*، جـ٤، ص١٢٥، ووافقه الذهبي. و(دوران الرحى) كناية عن الحرب والقتال، شبه دوران الرحى التي تطحن الحب بما يكون في القتال من تلف الأرواح وهلاك الأنفس.

(٨٤) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الفتن، باب قول النبي: الفتنة من قبل المشرق جـ٨ ص٩٥، والإمام المسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان، ح(٢٩٠٥) جـ٤ ص٢٢٢٨. وقرن الشيطان: قوة الشيطان وأتباعه وقيل غير ذلك انظر: ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٣ ص٤٦.

(٨٥) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الفتنة من المشرق...جـ٤ ص٢٢٢٩.

والمتبع للفتن بين المسلمين يجد أن منبعها من المشرق كما أخبر المصطفى وبذلك يقول ابن حجر: «وأول الفتن كان منبعها من قبل المشرق، فكان ذلك سبباً للفرقة بين المسلمين، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به، وكذلك بدع نشأت من تلك الجهة»[٨٦].

وكان كما قال نبينا حيث ظهر من المشرق الخوارج والشيعة والباطنية وفرق الكلام[٨٧] وكان منشأ الزرادشتية والمانوية والهندوسية والبوذية، ثم القاديانية والبهائية.. وقد كان ظهور التتار من المشرق.. وإلى عصرنا الحاضر من الشيوعية والوجودية.. ثم سيكون ظهور الدجال ويأجوج ومأجوج من جهة المشرق[٨٨].

وقد جاء النص على أن بعض هذه الفتن من أشراط الساعة فمن أبرز تلك الفتن التي ظهرت وطرقت المسلمين:

- مقتل عثمان بن عفان ﷺ

ظهرت الفتنة بعد مقتل عمر بن الخطاب ﷺ، فقد كان باباً مغلقاً دونها، فلما ذهب ظهر دعاتها من المنافقين الذين يضمرون الكيد للإسلام..

فعن حذيفة ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتن؟ فقال حذيفة: أنا، قال: هات، إنك لجريء وكيف؟ قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فتنة الرجل في أهله، وماله، ونفسه وولده وجاره يكفرها الصلاة والصيام والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر، قال قلت: ما لك ولها يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال: فيكسر الباب أو يفتح؟ قال قلت: بل يكسر، قال؟ ذلك أحرى أن لا يغلق أبداً، قال فقلنا: لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غد الليلة، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط. قال: فهبنا نسأل حذيفة من الباب؟ فقلنا لمسروق سله، فسأله، فقال: عمر»[٨٩].

---

(٨٦) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣ ص٤٧.

(٨٧) راجع الشهرستاني، *الملل والنحل*، جـ١ ص٢٣٦-٢٣٧.

(٨٨) راجع *الوابل*، يوسف بن عبدالله، أشراط الساعة ص٩٥.

(٨٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج موج البحر مع الفتح ٨/ ٩٦ والإمام مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الفتنة التي تموج كموج البحر، ح(١٤٤) جـ٤ ص٢٢١٨.

وقول عمر «إذا كسر لم يغلق" أخذه من جهة أن الكسر لا يكون إلا غلبة، والغلبة لا تقع إلا في الفتنة، وعلم من الخبر النبوي أن بأس الأمة بينهم واقع وأن الهرج لا يزال إلى يوم القيامة»[٩٠].

فقتل عمر ﷺ وكسر الباب وعم البلاء وكان أول الفتنة قتل الخليفة الراشد عثمان ﷺ في داره على يد طائفة تألبوا عليه من مصر وغيرها، وحاصروا داره، لكنه منع الصحابة من الدفاع عنه وطلب منهم وضع أسلحتهم، فقتل وهو يقرأ بالمصحف ووقع دمه الطاهر على قوله تعالى: ﴿فَسيكْفيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم﴾[٩١] ولم يتعين له قاتل معين بل أخلاط من الناس[٩٢].

وكان النبي ﷺ قد ذكر لعثمان أنه سيصيبه بلاء ولهذا صبر ونهى الصحابة عن قتال الخارجين عليه، كي لا يراق دم من أجله، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «خرج النبي ﷺ إلى حائط من حوائط المدينة... وذكر الحديث بطوله إلى أن قال: فجاء عثمان فقلت: كما أنت حتى أستأذن لك، فقال النبي ﷺ: «إئذن له وبشره بالجنة مع بلاء يصيبه»[٩٣].

وبمقتل عثمان سادت الفتنة وانقسم المسلمون كما ترائى للرسول ﷺ حين أشرف على أطم من آطام المدينة فقال: «هل ترون ما أرى؟ قالوا: لا، قال: فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كمواقع القطر»[٩٤].

وتتابعت الفتن بعد عثمان وسل سيف الفتنة..

---

(٩٠) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣ ص٥٠.

(٩١) البقرة ٢:١٣٧.

(٩٢) راجع القرطبي، *التذكرة* جـ٢ ص٢٦٢،٢٦٣ وراجع تفاصيل قصة مقتل عثمان ﷺ ودوافعها وظروفها في: ابن كثير، *البداية والنهاية* جـ٦ ص٢١٤-٢٢٤ و جـ٧ ص١٤١-١٤٢، ١٧٧-٢٠٠، وأبي العرب التميمي، كتاب المحن ص ٤٤، ٧٨-٩٤، وأبي بكر ابن العربي، *العواصم من القواصم* ص١٣٢-١٣٧.

(٩٣) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر ٨/٩٧.

(٩٤) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر، ح(٢٨٨٥) جـ٤ ص٢٢١١، وقال النووي: والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي أنها كثيرة تعم الناس، لا تختص بها طائفة وهذه إشارة إلى الحروب الجارية بينهم..، *صحيح مسلم بشرح النووي* جـ١٨ ص٨.

- موقعة الجمل

وسط تلك الفتنة بويع علي بن أبي طالب ﷺ تحت ضغط الصحابة، فلم يجد بداً من القبول، وكان ممن بايعه طلحة والزبير ﷺ وبعد اتفاق بينهما وبين عائشة رضى الله عنها بشأن مقتل عثمان توجه إلى البصرة وطلبوا من الإمام علي تسليم قتلة عثمان واتفق معهم -كما سبق ذكره- على ذلك بعد أن يتمكن منهم، وعندها خشي من نسب إليهم القتل أن يتفقوا على قتلهم فانشبوا الحرب بين الطائفتين[٩٥]. وكان النبي قد تنبأ بما سيكون بين عائشة وعلي ﷺ، وتشير المصادر إلى أن الثلاثة لم يخرجوا بقصد القتال وإنما للصلح بين المسلمين ووقع القتال دون قصد منهم ولا من علي ﷺ. قال ابن تيمية: «إن عائشة لم تخرج للقتال، وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين، وظنت أن في خروجها مصلحة للمسلمين ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى، فكانت إذا ذكرت خروجها تبكي حتى تبلَّ خِمارها، وهكذا عامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزبير وعلي ﷺ أجمعين..»[٩٦].

- موقعة صفين

وقعت حرب صفين بين طائفتين مؤمنتين، طائفة علي ومن معه وطائفة معاوية ومن معه وهي التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة»[٩٧]. وكان ذلك في ذي الحجة سنة ست وثلاثين من الهجرة.. قتل فيهما نحواً من سبعين ألفاً من الفريقين[٩٨]. وقد كان في جيش كل من علي ومعاوية ﷺ متعسفون يحرضون على القتال الأمر الذي أدى إلى خروج الأمر من أيديهما.

وبعد أن طلب جند الشام التحكيم حين هزموا ورفعوا المصاحف واجتمع الحكمان في دومة الجندل لم يتفقا على شيء وافترقا...[٩٩].

---

(٩٥) انظر التفاصيل في: ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣ ص٥٤-٥٩.

(٩٦) ابن تيمية، *منهاج السنة* جـ٢ ص١٨٥ ح(٣٦٠٩) الفتح جـ٦ ص٦١٦.

(٩٧) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الفتن، باب (٢٥) ح (٧١٢٠) *الفتح* جـ١٣ ص٥٨١ وكتاب المناقب باب علامات النبوة، ومسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ح(١٥٧) جـ٤ ص٢٢١٤، والإمام أحمد، *المسند* جـ٢ ص٥٣٠.

(٩٨) راجع: ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣ ص٨٦.

(٩٩) راجع مزيداً من التفاصيل في: محمود شاكر، *التاريخ الإسلامي* جـ٣ ص٢٦٣-٢٨٣.

وكان سبب الحرب ابتداءً تريث معاوية في مبايعة الإمام علي بحجة أن الأمر لم يستتب له بعد، ويمكن القول أن ما بينهما كان اختلاف اجتهاد، وزاده المحرضون على الفتنة.

- ظهور الخوارج وفتنتهم

وهم الذين خرجوا على الإمام علي ﷺ اعتراضاً على قبوله للتحكيم وانحازت هذه الجماعة من جيشه إلى حروراء يصيحون لا حكم إلا لله فقال علي ﷺ: كلمة حق أريد بها باطل.. فكانت بذلك فتنة الخوارج التي تركت آثاراً بالغة في فرقة المسلمين واختلافهم.. حيث ذهبوا إلى أفكار ضالة بتكفير مخالفيهم واستباحة دمهم مع أنهم كانوا يجهدون أنفسهم في العبادة، وقد حاول الإمام علي تفادي الأمر بالحكمة وبعث إليهم ابن عباس ليناقشهم فأبى بعضهم ثم اضطر لقتالهم بعد أن أخذوا يقتلون من يجتاز بهم من المسلمين وجرت معركة النهروان وهزمهم شر هزيمة، فما كان منهم إلا أن دبروا لقتله، وكان منهم فرق كثيرة فيما بعد وحروب وويلات أضعفت المسلمين وقد تواترت الأحاديث بخروج هذه الطائفة وأمر الرسول ﷺ بقتالهم وبين أن في قتلهم أجراً.. وهذا ما يدل على فسادهم وبعدهم عن الإسلام، فمن تلك الأحاديث: عن علي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج قوم في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»[١٠٠]، وقال في آخر: «تمرق مارقة منذ فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق»[١٠١]، وقال البخاري: «كان ابن عمر يراهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين»[١٠٢].

وسوف يستمر ظهور الخوارج حتى يدرك آخرهم الدجال لقول رسول الله ﷺ: «ينشأ نشء يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج قرن قطع، حتى يخرج في عراضهم الدجال»[١٠٣].

---

(١٠٠) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب المناقب، باب علامات النبوة من الإسلام جـ٦ ص٦١٨ رقم ٣٦١١ وكتاب فضائل القرآن، باب إثم من رائى بالقرآن (٩/ ٩٩ رقم ٥٠٥٧) وكتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج (١٢/ ٢٨٣ رقم ٦٩٣٠)، ومسلم، صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج ح(١٥٤) جـ٢ ص ٧٤٦).

(١٠١) مسلم، *الصحيح*، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة ومن يخاف على إيمانه جـ٢ ص٧٣٣ ح(١٠٥٩)

(١٠٢) البخاري، *الصحيح*، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج مع الفتح ١٢/ ٢٨٢ وقال ابن حجر «سنده صحيح» *الفتح* ص٢٨٦.

(١٠٣) ابن ماجة، سننه، المقدمة، باب ذكر الخوارج جـ١ ص٦١ ح(١٧٤) وهو حسن، انظر الألباني، *صحيح الجامع الصغير* ٦/ ٣٦٢ ح(٨٠٢٧).

- ثم فتنة مقتل الحسين

لما مات معاوية بن أبي سفيان واستخلف يزيد خرج الحسين إلى العراق فخرج إليه جيش من الشام بقيادة عبيدالله بن زياد وقتل الحسين وجماعة من أهل بيته.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «لقد دخل علي البيت ملك لم يدخل علي قبلها، فقال لي: إن ابنك هذا: حسين مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء»[١٠٤]، ولقد كانت لمقتل الحسين آثار عميقة جعلت فرقة -وهم التوابون- يحاولون التكفير عن سيئاتهم بدعوى حب آل البيت فيضلون بأفكارهم علاوة على ما زادوه من الفرقة والانقسام والكوارث والحروب.

- ثم موقعة الحرة

وهي في عهد يزيد كذلك والتي استبيحت فيها مدينة الرسول، وقتل فيها كثير من الصحابة رضي الله عنهم، قال سعيد بن المسيب: «ثارت الفتنة الأولى، فلم يبق ممن شهد بدراً أحد، ثم كانت الثانية فلم يبق ممن شهد الحديبية أحدٌ» قال البغوي: «أراد بالفتنة الأولى مقتل عثمان، وبالثانية: الحرة»[١٠٥].

وهكذا بقيت الفتن تتوالى من مقتل عثمان إلى يومنا هذا مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «إذا وقع في أمتي السيف لم يرفع عنها إلى يوم القيامة...»[١٠٦].

هذه الفتن حدثت واستمرت آثارهما ولا تزال، وكانت ولا تزال سبباً في تمزق المسلمين فرقاً، وظهور أعدائهم عليهم.

---

(١٠٤) الإمام أحمد، *المسند* جـ٦ ص٢٩٤، جـ٣ ص٢٤٢،٢٦٥ وقال الألباني: قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي، *مجمع الزوائد*، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، جـ٩ ص١٨٧. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ٢ ص٣٩١ ح(٨٢٢).

(١٠٥) البغوي: شرح السنة، جـ١٤ ص ٣٩٦.

(١٠٦) الإمام أحمد، *المسند* جـ٥ ص٣٧٨، والدارمي، سننه، المقدمة جـ١ ص٧٠، وورد جزءٌ من أحاديث مطولة في: أبي داود، *سننه*، كتاب الفتن، باب ذكر الفتن جـ٤ ص٤٥٠-٤٥٢ ح(٤٢٥٢) وأورده مختصراً في باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض جـ٤ ص٢٢١٥ رقم (١٩)، والترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثاً في أمته جـ٤ ص٤٧٢ ح(٢٠٧٦) والإمام أحمد جـ٤ ص١٢٣ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد جـ٧ ص٢٢١: «رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال *الصحيح*» وقال الألباني رجاله ثقات وله شواهد، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ٤ ص١٠٩ ح(١٥٨٢) وانظر تحقيق المباركفوري لسنن الواردة في الفتن لأبي عمرو الداني جـ١ ص١٨٦، ١٩٠،٢٧٢.

٢ - ظهور الكذابين والدجالين ومدعي النبوة

هذه العلامة ظهرت منذ زمن النبي محمد ﷺ، ولا زالت وتستمر.. قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم انه رسول الله» [(١٠٧)] وفي بعض الروايات كذابون ثلاثون..

وليس المراد «بالبعث» الإرسال المقارن للنبوة، بل هو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[(١٠٨)] وقال ابن حجر «والمراد ببعثهم: إظهارهم لا البعث بمعنى الرسالة»[(١٠٩)].

والأحاديث الصحيحة في ظهور الكذابين والدجالين كثيرة، فبعضها ينص على الثلاثين، وبعضها على غير ذلك، ففي حديث آخر «في أمتي كذابون دجالون سبعة وعشرون، منهم أربعة نسوة، وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي»[(١١٠)].

وليس التحديد في الأحاديث مراداً به كل من أدعى النبوة مطلقاً، فإنهم كثير لا يحصون، وإنما المراد من قامت له شوكة وكثر أتباعه واشتهر بين الناس.

كما أن بعض الأحاديث تنص على الكذب وهو كثير كقوله ﷺ: «إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم»[(١١١)].

---

(١٠٧) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٦/٦١٦ رقم ٣٦٠٩ وجاء ضمن حديث طويل في كتاب الفتن باب (٢٥) رقم (٧١٢١) ١٣/ ٨١-٨٢ مع الفتح. والإمام مسلم، صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل... جـ٤ ص٢٢٣٩-٢٣٤٠ ح(٨٤) والإمام أحمد، المسند جـ٢ ص٢٣٧، ٥٣٠، ٣١٢-٣١٣. أما النص على ثلاثون كذابا فقد رواه: الإمام أحمد جـ٢ ص٤٥٧ وأبوداود، سننه، كتاب الملاحم، باب خبر ابن صائد جـ٤ ص٥٠٧ ح(٤٣٣٤). وفي النص زيادة «كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي» أخرجه الإمام أحمد في مسنده وجـ٥ ص١٧٨، وأبو داود في سننه كتاب الفتن باب ذكر الفتن جـ٤ ص٤٥٠ ح(٤٢٥٢)، والترمذي، سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء «لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون» جـ٤ ص٤٩٩ ح(٢٢١٩)، وابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن جـ٢ ص١٣٠٤ ح(٣٩٥٢).

(١٠٨) مريم ١٩:٨٣.

(١٠٩) انظر: *فتح الباري*، ١٣ ص٨٧ ومثله النووي جـ١٨ ص٤٥ ويؤيد ذلك رواية «ينبعث».

(١١٠) الإمام أحمد، المسند، جـ٥ ص٣٩٦، وهو صحيح، انظر «صحيح «الجامع الصغير» تحقيق ناصرالدين الألباني ط المكتب الإسلامي ١٣٨٨ هـ جـ٤ ص٤٩٧ (٤١٣٤)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط والبزار ورجاله رجال *الصحيح*» مجمع الزوائد جـ٧ ص٣٣٢.

(١١١) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل جـ٤ ص ٢٢٣٩ ح(٢٩٢٣).

وقد ادعى النبوة مسيلمة الكذاب في عهد النبي ﷺ فخرج في بني حنيفة وقال لهم: إني أشركت في الأمر وجعل يسجع لهم بما يضاهي القرآن بزعمه فاستخفهم فلما مالوا إليه أسقط عنهم الصلاة وأحل الخمر..، وارتد كذلك الأسود العنسي وادعى النبوة في صنعاء، وكان صاحب شعبذة يظهر بها عجائب، وتنبأت سجاح بنت سويد في تميم، فقصدت اليمامة مع جيوشها إلى مسيلمة -الذي كاتبه النبي وسماه الكذاب- ثم اتفقا على الزواج(١١٢).

ولما كثر أتباع مسيلمة وعظم شره قضى عليه الصحابة في عهد أبي بكر الصديق ﷺ في معركة اليمامة المشهورة، أما الأسود العنسي فقتله الصحابة قبل موت النبي ﷺ أما سجاح فقد رجعت إلى الإسلام بعد مقتل مسيلمة(١١٣).

وخرج في زمن أبي بكر ﷺ طليحة بن خويلد الأسدي وأدعى النبوة ثم تاب ورجع إلى الإسلام.

كما خرج المختار الثقفي في زمن الزبير وعبدالملك وادعى أنه يوحى إليه ويكتب في مكاتيبه من المختار رسول الله. وكانت فتنة كبيرة وقبل ذلك أظهر محبة أهل البيت والمطالبة بدم الحسين إلى أن كثر أتباعه فأغواه الشيطان.

وعن أسماء يخرج من ثقيف كذاب ومبير، قالوا الكذاب هو المختار بن أبي عبيد والمبير هو الحجاج بن يوسف الثقفيان(١١٤).

ومنهم الحارث الكذاب في خلافة عبدالملك بن مروان فقتل.

وخرج في خلافة بني العباس جماعة منهم الشاعر المتنبي ثم تاب، ومنهم في أيام المعتمد قائد فتنة الزنج (بهبود)، وزكرويه القرمطي، ثم أبو طاهر القرمطي في خلافة المقتدر الذي قلع الحجر الأسود.

وفي خلافة المطيع ادعى شاب أن روح علي انتقلت إليه، وامرأته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها.

وخرج جماعة بالمغرب منهم رجل تسمى بـ لا، وحرّف الحديث المشهور «لا نبي بعدي» فجعله إخباراً من الرسول ﷺ بنبوته بعده.. وادعت امرأة فذكروا لها الحديث فقالت: إنما قال لا نبي ولم يقل لا نبية(١١٥).

---

(١١٢) راجع البرزنجي: الإشاعة لأشراط الساعة ص٧٢-٧٣.

(١١٣) راجع: ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣ ص٨٧.

(١١٤) راجع البرزنجي: الإشاعة لأشراط الساعة ص٧٦.

(١١٥) راجع البرزنجي، الإشاعة لأشراط الساعة ص٧٥-٧٦.

وأظهر في العصر الحديث ميرزا أحمد القادياني النبوة، وأنه المسيح المنتظر، ثم حسين بن علي بن الميرزا عباس في إيران ولقب ببهاء الله وأتباعه البهائية وآخر من السودان أدعى النبوة (محمود طه السوداني) والذي أعدم عام ١٩٨٥، ثم آخر أمريكي في المكسيك وتبعه عدد أغلبهم من الزنوج[١١٦].. وهكذا نجد سلسلة لا تنقطع من الكذابين إلى أن يظهر الدجال الكبير ويندرج في هؤلاء من أدعى أنه المهدي المنتظر وهم كثير آخرهم ما حصل عام ١٩٧٩ وما كان من آثارها في الحرم المكي في شهر ذي الحجة، ومن الكذب وضع الأحاديث المكذوبة على رسول ﷺ، فإذا كان الكذب عامة رذيلة منهي عنها، فالكذب على دين الله من أقبح المنكرات، وقد حذر منه الرسول ﷺ وقد وقع الكذب في الحديث -كما مر في الفتن الفكرية- مع تحذير الرسول ﷺ منه و توعد من فعله بالنار، فقد تنبأ بوجود هؤلاء فقال: «سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياكم»[١١٧].

٣- اتباع سنن الأمم الماضية

حذر رسول الله ﷺ أمته من إتباع الأمم الأخرى وتقليدها والتشبه بها حيث تنبأ بما سيكون من أمته فقال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع» فقيل يا رسول الله: كفارس والروم؟ فقال: «ومن الناس إلا أولئك»[١١٨].

وفي رواية أخرى «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن! »[١١٩].

وهذا كان ولا يزال من أعظم الفتن التي ابتلي بها المسلمون، وهو مما لا يليق بالأمة الوسط وأصحاب الرسالة الخاتمة أن يفعلوا ذلك.. فقد وقع التقليد والتشبه بالأمم الكافرة

---

(١١٦) راجع: الأشقر عمر سليمان، القيامة الصغرى ص١٦٣، وآل المبارك، الرسالة في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ص٦٢.

(١١٧) الإمام مسلم، *الصحيح*، المقدمة باب النهي عن رواية الضعفاء، حديث رقم (٧) جـ١ ص٣٥.

(١١٨) البخاري، *الصحيح*، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم» ١٣/ ٣٠٠ ح(٧٣١٩). والإمام أحمد، المسند جـ٢ ص٣٢٥، ٣٣٦.

(١١٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب الاعتصام، باب لتتبعن سنن..(الفتح) ١٣/ ٣٠٠ ح(٧٣٢٠) ومسلم، *الصحيح*، كتاب العلم، باب إتباع سنن اليهود والنصارى جـ٤ ص٢٠٥٤ ح(٦)، والإمام أحمد، المسند جـ٢ ص٤٥٠، ٥٢٧، وابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم جـ٢ ص١٣٢٢ ح(٣٩٩٤).

من المسلمين، من عادات وتقاليد، بـل وفي الأفكـار والمعتقـدات، والشـبر والـذراع ودخـول الجحر التي أشار إليها المصطفى تظهر شدة الإتباع والتقليـد، وفي الحديـث إشـارة إلى فـارس والروم لأنهما الأمتان المشهورتان في ذلك الوقت إذ كانوا أكثر البلاد رعية وأوســطهم بـلاداً وأكبرهم ملكاً.

قال ابن بطال: «أعلَمَ ﷺ أن أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كمـا وقـع للأمم قبلهم، وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأن الآخر شر، والســاعة لا تقـوم إلا علـى شـرار الناس، وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من الناس.. »[١٢٠].

وقد ذكر رسول الله ﷺ اليهود والنصارى في الحديث الثاني، وذلـك لأن الـروم نصـارى وفارس كان بها يهود، و أن ذلك للتمثيل لا للحصر، وإذا كان للحصر فالمراد حصر النـاس بالمتبوعين ففي ذلك الوقت كان الملك منحصراً فيهما وبقية الأمم تبع وتحـت أيديهـم، وقـد ذكر ابن حجر احتمالاً آخر هو: «أن يكون الجواب اختلف بحسب المقام فحيث قال: فـارس والروم كان هناك قرينـة تتعلـق بـالحكم بـين النـاس وسياسـة الرعيـة، وحيـث قيـل اليهـود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات أصولها وفروعها»[١٢١].

وقد حصل كل ذلك في المجتمعات الإسلامية فدخلت فيهم البدع وأحدثوا أمـوراً مخالفـة لسنة رسولهم، وفي هذا الزمن ازداد التشبه بالكفار وافتتنوا بهم رجالاً ونساءً حتـى ظنـوا أن ذلك هو التطور والتقدم، فابتعدوا عن تعاليم الإسلام، وربما انسلخوا من الدين بالكلية، فقد حكموا قوانين الغرب ورفعوا شعاراتهم وعابوا دينهم إرضاء لمتبوعيهم وصـار حـالهم كمـا وصفه النبي هو الاتباع شبراً بشبر.. ففتنوا كما فتن أولئك بالدنيا وزينتها من مال وشــهوات وحب للجاه والسيادة وغير ذلك، فأحلوا الربا والمفاسد وقلدوهم في الملبس وغيره مما سـيرد في العلاقات الأخرى..

قال النووي: «والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة، والمراد بالموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر، وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول اللــه ﷺ، فقـد وقـع مـا أخبر به»[١٢٢].

وقد حذر الرسول ﷺ في أحاديث أخرى من التقليد فنهى عن مشابهة اليهـود والنصـارى

---

(١٢٠) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣ ص٣٠١.

(١٢١) ابن حجر،*فتح الباري*، جـ٣ ص٣٠١.

(١٢٢) النووي، *صحيح مسلم* بشرح النووي جـ١٦ ص٢١٩-٢٢٠.

وبين عواقب التقليد فقال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[123] وقد علا شأن المسلمين وقوى سلطانهم يوم كانوا متمسكين بهذه التوجيهات وما خسروا إلا بعد أن قطعوا صلتهم بإسلامهم وفقدوا ثقتهم بأنفسهم ويا ليتهم قلدوا ما هو نافع وغير متعارض مع الدين من علومهم لكنهم أخذوا القشور والمظاهر الفاسدة فقط مما هو مخالف للشرع.

٤- ولادة الأَمَة رَبَّتها والتطاول في البنيان

وهي من الأمارات التي أخبر بها النبي محمد ﷺ بأن تلد الأمة من يكون له السيادة عليها، وتفاخر الناس بالبنيان والعمارات وتزيينها بعد أن كانوا حفاة عراة يرعون الإبل والماشية، وقد ورد ذلك في حديث جبريل عليه السلام وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة، فقال له:...فأخبرني عن الساعة؟ فقال ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»[124] وفي رواية 'إذا ولدت الأمة ربها' وهو تنبأ عن تغيير الأحوال وانقلاب الأوضاع، وللعلماء أقوال عدة في معنى ولادة الأمة لربتها.، وقد ذكر ابن حجر أربعة أقوال [125]:

١- قال الخطابي: «معناه اتساع الإسلام، واستيلاء أهله على بلاد الشرك وسبي ذراريهم، فإذا ملك الرجل الجارية، واستولدها، كان الولد منها بمنزلة ربها، لأنه ولد سيدها».
وذكر النووي أن هذا هو قول أكثر العلماء[126] واستبعده ابن حجر، لأن هذا موجود حين المقالة، والاستيلاء على بلاد الشرك واتخاذ السراري وقع في صدر الإسلام وسياق الكلام يقتضي وقوع ما لم يقع مما سيقع قرب قيام الساعة.

٢- أن تبيع السادة أمهات أولادهن ويكثر ذلك فيتداولها الملاك فيشتريها أولادها، ولا يشعر بذلك فيصير سيدها..

٣- أن تلد الأمة حراً من غير سيدها بشبهة، أو رقيقاً بنكاح أو زنا ثم تباع الأمة بيعاً صحيحاً وتدور في الأيدي حتى يشتريها ابنها أو بنتها، وهذا القول قريب من الذي قبله.

---

(١٢٣) أبو داود، سننه، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة ح(٤٠٣١) جـ٤ ص٣١٤ والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢ ص٥٠،٩٠ وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ٤ ص١٣١.

(١٢٤) سبق تخريجه في أول الباب.

(١٢٥) راجع: ابن حجر، *فتح الباري*، شرح *صحيح البخاري*، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل جـ١ ص١٢٢-١٢٣ مختصرا.

(١٢٦) النووي، شرح *صحيح مسلم*، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان جـ١ ص١٥٨

٤- أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه أو البنت أمها معاملة السيد أو السيدة مع الأم من الإهانة والاستخدام وغير ذلك، فكان بذلك ربها أو ربتها مجازاً أو المربي حقيقة.

وهذا ما رجحه ابن حجر لأن المراد حالة تدل على فساد الأحوال وانعكاسها مما يقع قرب الساعة بحيث يصير المربي مربياً والسافل عالياً وهو مناسب للعلاقة الأخرى: أن تصير الحفاة ملوك الأرض.

وهذا ما نرجحه حيث كثر العقوق ولم يعد للأباء والأمهات السلطة على أولادهم -خصوصاً في المجتمعات غير الإسلامية- من التوجيه والإرشاد بل انقلبت الموازين وأصبحت في غير محلها جرياً مع بقية العلامات والله أعلم.

وهناك قول آخر لابن كثير رحمه الله وهو: أن الإماء تكون في آخر الزمان من المشار إليهن بالحشمة، فتكون الأمة تحت الرجل الكبير دون غيرها من الحرائر ولهذا قرن ذلك بقوله: «وأن ترى الحفاة العراة يتطاولون في البنيان»[١٢٧].

وقد تكون لها صور أخرى لم تكن معروفة من قبل مما ذكره البعض عن واقعنا فقال: «وقد يكون المراد -والله أعلم- عند اختلاف ما يطلق عليه بالجنسية، فيصبح الولد كفيلاً والوالد أو الوالدة مكفولة وما يترتب على ذلك من تبعات يندى لها الجبين والله المستعان»[١٢٨].

وكذلك الأمر بالنسبة للحفاة العراة رعاء الشاة حيث تكثر الأموال بأيديهم ويصبحون رؤوس الناس، فيتطاولون بالقصور والبنيان والعمارات الشاهقة ويتنافسون في زخرفها على وجه التفاخر والخيلاء بعد أن كانوا في بيوت الشعر من البدو والرحل..

وهذا ما حصل منذ مدة ولا زال في ازدياد، والحديث يدل على التنافس في جمع الأموال وصرفها في غير وجهها الشرعي وقد نص حديث آخر في البخاري على ذلك بقول المصطفى ﷺ: «لا تقوم الساعة...» وحتى «يتطاول الناس في البنيان»[١٢٩].

يقول ابن حجر: «ومعنى التطاول في البنيان أن كلاً ممن كان يبني بيتاً يريد أن يكون ارتفاعه أعلى من ارتفاع الآخر، ويحتمل أن يكون المراد المباهاة به في الزينة والزخرفة أو أعم

---

(١٢٧) ابن كثير، النهاية في الفتن والملاحم جـ١ ص ١٧٧.

(١٢٨) الشلبي مصطفى أبو النصر، صحيح أشراط الساعة ص١٠٣.

(١٢٩) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الفتن، باب (٢٥) مع *فتح الباري*، جـ١٣ ص٨١-٨٢.

من ذلك، وقد وجد الكثير من ذلك، وهو في ازدياد»(١٣٠).

وفي حديث آخر يخبر النبي ﷺ أن الناس سوف ينشغلون بزخرفة بيوتهم مثل زركشة الملابس فقال: «لا تقوم الساعة حتى يبني الناس بيوتاً يوشونها وشي المراحيل»(١٣١) والمراحيل: هي الثياب المخططة.

وهذه العلامة ظاهرة جلية في هذا العصر، وبنى من كانوا رعاة الشاء العمارات الشامخة في الصحراء العربية خصوصاً بما يشبه ناطحات السحاب في دول الغرب مع التفاخر بزينتها لدرجة الإسراف.

استدل ابن رجب الحنبلي بذلك على فساد نظام الدين والدنيا(١٣٢).

٥- زخرفة المساجد

ذكر الرسول ﷺ أن زخرفة المساجد والتباهي بها والمبالغة في تزينها من علامات الساعة. والتي ظهرت ولازالت، بقوله: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»(١٣٣). وفي رواية أخرى: «إن من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد»(١٣٤). وهذه المبالغة في تزيين المساجد يخرجها عن المهمة التي وضعت لأجلها علاوة على الإسراف والتبذير، وما يصاحب ذلك من قلة الخشوع للمصلي قال البخاري: قال أنس: يتباهون بها، ثم لا يعمرونها إلا قليلاً، فالتباهي بها: العناية بزخرفتها، قال ابن عباس: لتزخرفنّها كما زخرفت اليهود والنصارى(١٣٥) ويفهم من كلام أنس أن تشيد للتباهي ولا تعمر بالمصلين ولا يرتادونها..وكلام ابن عباس يفيد تقليد اليهود والنصارى حيث زخرفوا بيعهم وكنائسهم

---

(١٣٠) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣ ص٨٨.

(١٣١) البخاري، الأدب المفرد، باب البناء رقم (٧٧٨) ص٦٣.

(١٣٢) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم جـ١ ص١٣٩.

(١٣٣) الإمام أحمد، *المسند* جـ٣ ص١٣٤، وابن ماجه، *سننه*، كتاب المساجد، باب تشييد المساجد جـ١ ص٢٤٤ ح(٧٣٩) والدارمي جـ١ ص٣٢٧، صححه الألباني، صحيح الجامع ٦/ ١٧٤

(١٣٤) أبو داود، سننه، كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد جـ١ ص٣١١ ح(٤٤٩)، والنسائي، سننه، كتاب المساجد، باب المباهاة في المساجد جـ٢ ص٣٢، وقال الألباني: صحيح، انظر صحيح الجامع جـ٥ ص٢١٣ ح(٥٧٧١).

(١٣٥) البخاري، *صحيح البخاري* كتاب الصلاة، باب بنيان المسجد، أخرج قول ابن عباس تعليقاً، جـ١ ص٤٤٩.

بعدما حرّفوا وبدلوا دينهم، فكذلك المسلمون يصير حالهم بتشييد المساجد وتزيينها مراءات.

وقد نهى عمر بن الخطاب ﷺ عن ذلك لأنه يشغل المصلين عن صلاتهم وعندما أمر بتجديد المسجد النبوي قال: «أكنّ الناس من المطر، وإياك أن تحمر وتصفر فتفتن الناس»(١٣٦).

ولم يقتصر الناس بعد ذلك على التحمير والتصفير بل تعدوا ذلك إلى نقش المساجد كما ينقش الثوب وتباهى الملوك والخلفاء في ذلك، حتى أصبحت المساجد القائمة حتى الآن مفخرة في العمران يرتادها الزوار للمشاهدة بدل أن تكون أماكن للطاعة والذكر.

وقد ازدادت الظاهرة وعمت مع انحسار المفاهيم الإسلامية وأصبح التسابق في تزويق المساجد أمراً ملفتاً للنظر، فقد ضمت كل مستحدث للزينة من نقش وفرش وثريات تفتن المصلي وتصرفه عن الخشوع بدل أن تكون ملاذاً يهرب إليها الإنسان من زينة الدنيا ومباهجها..

والأكثر من ذلك أصبحت المساجد أماكن لزيارة السائحين الكفار، بعد أن كانت منهلاً للعلم والمعرفة، ودوراً للصلاة والعبادة.

وعن الصحابي الجليل أبي الدرداء ﷺ قال: «إذا حليتم مصاحفكم وزخرفتم مساجدكم، فالدمار عليكم»(١٣٧). وأي دمار أكثر مما نحن فيه حيث نرى من يتظاهر ببناء المساجد والمبالغة في هندستها وزخرفتها يسعى في خرابها معنوياً بخطط ووسائل كثيرة. قال المناوي: «فزخرفة المساجد وتحلية المصاحف منهي عنها، لأن ذلك يشغل القلب، ويلهي عن الخشوع والتدبر والحضور مع الله تعالى، والذي عليه الشافعية أن تزويق المسجد -ولو الكعبة- بذهب أو فضة حرام مطلقاً وبغيرهما مكروه»(١٣٨).

---

(١٣٦) من تعليقات البخاري، وقال ابن حجر: هو طرف من قصة تجديد المسجد النبوي، *فتح الباري*، جـ١ ص٥٣٩.

(١٣٧) ذكره الألباني في (صحيح الجامع الصغير جـ١ ص٢٢٠ ح(٥٩٩) وقال: إسناده حسن وكذلك في سلسلة الأحاديث الصحيحة م٣ ص ٣٣٧ أنه رواه الحكيم الترمذي في كتاب (الأكياس والمغترين) ص٧٨ مخطوطة الظاهرية) عن أبي الدرداء مرفوعاً وكذلك عن ابن المبارك وقال: هذا إسناد رجاله ثقات رجال علم). ورواه البغوي في شرح السنة جـ٢ ص٣٥٠ ونسبه لأبي الدرداء. وضعفه المناوي في فيض القدير جـ١ ص٣٦٧ ح(٦٥٨) وكذلك ضعفه المباركفوري محقق كتاب *السنن* الواردة لأبي عمرو الداني، وقال: الحديث ضعيف... ولكن وردت عدة أحاديث مرفوعة وموقوفة في النهي عن تزيين المساجد وزخرفتها، وأن ذلك من أشراط الساعة. انظر جـ٤ ص٨١٨-٨١٩.

(١٣٨) المناوي، فيض القدير ح١ ص٣٦٧.

٦- ظهور الكاسيات العاريات

أخبر الرسول ﷺ بظهور صنف من النساء، كاسيات عاريات.. وهي ظاهرة ونتيجة لاتباع سنن الأمم الأخرى والتشبه بهم، وفيه دلالة على ضعف الإيمان والابتعاد عن منهج الله، وإشارة إلى اختلال القيم وانعكاسها مما هو علامة على قرب الساعة.

قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات[١٣٩] رؤوسهن كأسنمة البخت[١٤٠]، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا..»[١٤١]. وهذا وصف معجز دقيق وكأنه ينظر بعينيه إلى ما نراه الآن، فالكاسية العارية هي من تلبس الثياب ولكن ملابسها لا تؤدي الستر المطلوب، أما لقصرها وانكشاف ما هو عورة أو لضيقها وإبرازها لمقاطع الجسم ومفاتنه، وإما لأنها خفيفة تشف وتصف لون البشرة.. فهي بذلك كاسيات في ظاهر الأمر، عاريات في الحقيقة لكشف ما هو عورة، أو أن ما يكشفن أكثر مما يسترن والحكم للغالب..

وقال النووي: «أي كاسية جسدها ولكنها تشد خمارها، وتضيق ثيابها، حتى تظهر تفاصيل جسمها فتبرز صدرها وعجيزتها، أو تكشف بعض جسدها، فتعاقب على ذلك في الآخرة»[١٤٢].

وقد وصف النبي ﷺ هؤلاء النسوة بأنهن «مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت» هو إخبار عما هو مشاهد من التبختر في المشية والتمايل لجذب الأنظار، ومما هو مشاهد من ارتفاع الشعر بطريقة التسريحة أو بوصله «بالباروكة» من شعر طبيعي أو اصطناعي حيث أصبح لتسريح شعور النساء وتصفيفها محلات خاصة وقد يشرف عليها الرجال!.

---

(١٣٩) ذكر النووي لـ(مميلات مائلات) أربعة أوجه: أـ زائغات عن طاعة الله تعالى وما يلزمهن من حفظ الفروج وغيرها، ومميلات: يعلمن غيرهن مثل فعلهن بـ - مائلات: متبخترات في مشيتهن، مميلات أكتافهن، جـ - مائلات: يمتشطن المشطة الميلات... ومميلات: يمشطن غيرهن تلك المشطة كمائلات إلى الرجال مميلات لهم بما يبدين زينتهن وغيرها، انظر شرح النووي لمسلم جـ١٧ ص١٩١.

(١٤٠) أسنمة البخت: أي يعظمن رؤوسهن، وذلك بجمع شعرهن، ولفه فوق رؤوسهن، حتى يميل إلى ناحية من جوانب الرأس كأسنمة الإبل. انظر المصدر السابق.

(١٤١) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات.. ح(٢١٢٨) جـ٣ ص١٦٧٦ وكتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ومنهم مميلات مائلات ح٤ ص٢١٩٨.

(١٤٢) صحيح *مسلم* بشرح النووي ح١٧ص١٩٠.

وقد ظهر كل ذلك في المجتمعات الإسلامية ويزداد بتجدد الموديلات (التقليعات) ضراوة وتسارعاً يفتك بالمجتمعات لأن ذلك من أشد الفتن العصرية، والتي تشكل جانباً من فتنة النساء التي نبه عليها الرسول ﷺ «ما تركت فتنة بعدي على الرجال أضر من النساء»(١٤٣).

وقد أخبرنا كذلك في حديث آخر بأن ذلك من أشراط الساعة فقال: «سيكون في آخر هذه الأمة رجال يركبون على سروج كأشباه الرجال، ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهم كأسنمة البخت العجاف العنوهن، فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمن نساؤكم نساءهم كما يخدمنكم نساء الأمم قبلكم»(١٤٤).

وقد صارت -للأسف- هذه المناظر مألوفة في ديار المسلمين، بل ربما يعتقدون جهلاً أن من التقدم مجاراة نساء الغرب بذلك، دون تمييز وإدراك أن الحجاب جعله الله علامة لتميز المسلمة عن غيرها الكافرة ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ..﴾(١٤٥).

والحديث فيه تنبيه ليس فقط للنساء بل للرجال كذلك وذلك بمنعهن وتبصيرهن بأمور دينهن، فهم أولياء الأمور ولولا استحسان الرجال لذلك ما فعلته النساء.

٧- التهاون بالسنن وظهور البدع والشرك

أنبأنا رسول الله ﷺ بتهاون الناس في تطبيق السنن التي رغب بها الإسلام.. من ذلك تسليم الخاصة، بأن تترك التحية المشروعة والتي حث عليها الإسلام وجعلها سبباً للتآلف والمودة وأن تقتصر على المعارف فقط، قال رسول ﷺ:«إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة....»(١٤٦).

وهذا مما حدث، في المجتمعات وهو خلاف السنة فقد حث رسول الله ﷺ على إفشاء السلام فقال: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(١٤٧).

وقد وقعت هذه العلامة كما أخبر رسول الله «إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية

---

(١٤٣) سبق تخريجه.

(١٤٤) الإمام أحمد، *المسند*، جـ١٢ ص٣٦، والحاكم، المستدرك جـ٤ ص٢٣٦، وقال:"هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" وللحديث طرق أخرى تقويه.

(١٤٥) الأحزاب ٣٣:٥٩.

(١٤٦) الإمام أحمد، *المسند* جـ١ ص٤٠٧-٤٠٨،٤١٩-٤٢٠، والحاكم، المستدرك جـ٤ ص٤٤٥-٤٤٦ وقال الألباني:"هذا إسناد صحيح على شرط مسلم" انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ٢ ص٢٠٠-٢٠١ ح(٦٤٧).

(١٤٧) مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ح(٥٤) جـ١ ص٧٤.

على المعرفة» وفي رواية «أن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة»[١٤٨]، وهذا مما هو في ازدياد ونتج عنه قطع وشائج المحبة وتنافر القلوب.

ومن أمثلة التهاون بالسنن والشعائر الإسلامية المرور بالمسجد دون الصلاة فيه، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «إن من أشراط الساعة أن يمر الرجل بالمسجد لا يصلي فيه ركعتين»١٤٩ وفي رواية: «أن يجتاز الرجل بالمسجد، فلا يصلي فيه»١٥٠ وعن ابن مسعود ﷺ قال: «إن من أشراط الساعة أن تتخذ المساجد طرقاً»[١٥١] وفي رواية رفعه أنس إلى النبي ﷺ.

إن تعظيم شعائر الإسلام علامة الإيمان والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[١٥٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين»[١٥٣]، وقد حدث التهاون بذلك وأصبحت المساجد أماكن للسياحة والفرجة دون الصلاة والذكر..

ومنها كذلك رفع الألفة بين الناس كما جاء عن عمير بن إسحاق قال: «كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس الألفة»[١٥٤] وهو ما يؤدي إلى وقوع التناكر بين الناس المشار إليه في علامات الساعة في قول الرسول ﷺ: «...ويلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف احداً»[١٥٥]. ووقوع التناكر وعدم الألفة وعدم الاكتراث بمصالح الآخرين بل كل يعمل

---

(١٤٨) الإمام أحمد، *المسند* جـ١ ص٣٨٧، ٤٠٥-٤٠٦، ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث جـ٢ ص٢٠٢ ح(٦٤٨).

(١٤٩) ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، ط المكتب الإسلامي ١٣١٩هـ باب كراهية المرور في المساجد من غير أن تصلي فيها والبيان أنه من أشراط الساعة جـ٢ ص٢٨٣-٢٨٤، وقال الألباني: «وإسناده ضعيف ولكن له أو لغالبه طرق أخرى». انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ٢ ص٢٠٣ ح(٦٤٩).

(١٥٠) الهيثمي، مجمع الزوائد من رواية البزار وصححه جـ٧ ص٣٢٩.

(١٥١) الحاكم، المستدرك جـ٤ ص٤٤٦ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد».

(١٥٢) الحج ٢٢:٣٢.

(١٥٣) مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحية المسجد بركعتين وكراهة الجلوس قبل صلاتهما، وأنها مشروعة في جميع الأوقات ح(٧١٤) جـ١ ص٤٩٥

(١٥٤) البخاري، الأدب المفرد ص١٠٣ رقم (٢٦٣) وانظر: أبو عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، باب ما جاء في رفع الألفة، جـ٣ ص٦٠٩.

(١٥٥) الإمام أحمد، مسنده، جـ٥ ص٣٨٩، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال *الصحيح*» مجمع الزوائد جـ٧ ص٣٠٩ وراجع مزيداً من الأحاديث والآثار في: الوابل يوسف بن عبدالله، وأشراط الساعة ص٢٠٠-٢٠١.

لحظوظ نفسه وخصوصاً حين تستولي المادة على النفوس، وكل ذلك خلاف التعاليم الإسلامية التي تؤكد الأخوة الإيمانية والتعاون على البر والتقوى..

وظهر ما هو أسوء من التهاون بالسنن وهو ظهور البدع المخالفة للسنن وأخبر الرسول ﷺ بظهور هذه الفئة، ووقعت في وقت مبكر واستمرت حيث تتنوع البدع في كل عصر، فقال: سيكون في أمتي اختلاف وفرقة قوم يحسنون القرآن ويسيئون الفعل والعمل، يدعون إلى كتاب الله، وليسوا منه في شيء، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم في الرمية ثم يرجعون إليه حتى يرتد إلى فوقه، هم شر الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلوه ومن قتلهم كان أولى بالله منهم « قيل: ما سيماهم؟ قال: التحليق»[156].

وعن ابن عباس قال: «ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعة، وأماتوا فيه سنة، حتى تحي البدع وتموت السنن»[157].

والبدع كثيرة وقد مر الكلام عنها في الفتن الفكرية، وأكثرها في العادات والتقاليد المخالفة للشرع، والتي تصل أحياناً إلى الشرك وصوره كثيرة، كبناء المشاهد على القبور وقصدها للتبرك والتقبيل والتعظيم، وتقديم القرابين لها والنذور مما هو مشاهد في جميع البلاد الإسلامية، فهي عبادة من دون الله..

أما عن وقوع الشرك فقد قال ﷺ: «..ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان»[158]. وربما لم تقع هذه العلامة بهذه الصورة[159] بعد، بل وقعت على شكل أفراد وليس قبائل، ولكن صور الشرك الواقعة كثيرة لم تقتصر على عبادة الأوثان وظواهر الطبيعة فحسب بل تعددت إلى عبادة الطواغيت الذين يشرعون للبشر، ونبذ الدين بالكلية واعتناق مذاهب إلحادية أو علمانية أو شيوعية أو قومية..

---

(١٥٦) أبو داود، *السنن*، كتاب السنة، باب في قتال الخوارج جـ٥ ص١٢٣ ح(٤٧٦٥)، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٣ ص٢٢٤، والحاكم، المستدرك جـ٢ ص١٤٨ وقال: هو صحيح على شرط الشيخين. وحكم عليه الألباني بالصحة في «صحيح الجامع الصغير» جـ٣ ص٢١٧-٢١٨ ح(٣٥٦٢).

(١٥٧) أبو عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن* وغوائلها والساعة واشراطها، باب ما جاء في ظهور البدع والأهواء المضلة وأحيائها وإماته *السنن* جـ٣ ص٦١٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد جـ١ ص١٨٨: «ورجاله موثقون» وهو موقوف.

(١٥٨) أبو داود، *السنن*، كتاب مع عون المعبود ١١/ ٣٢٢،٣٢٤، والترمذي، *السنن*، كتاب ٦/ ٤٦٦ وقال حديث صحيح، وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير جـ٦ ص١٧٤ ح(٧٢٩٥).

(١٥٩) ربما القصد من ارتد من العرب بعد وفاة الرسول ﷺ.

٨- ظهور الغش وقطيعة الرحم وسوء الجوار

قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفاحش وقطيعة الرحم وسوء المجاورة»[١٦٠] وفي رواية: «من أشراط الساعة» وفي أخرى «إن بين يدي الساعة... قطع الأرحام».

وكل ذلك ظهر ولازال في ازدياد.. فكثر الفحش[١٦١] بكل أنواعه من القول والعمل.. ومنها قطع الأرحام فلا تواصل ولا تراحم ولا تزاور إلا ما شاء الله، فضلاً عن التدابر والتحاسد وما ذاك إلا لضعف الإيمان متغافلين عن تحذير الشرع حيث قرن القرآن الكريم بين الإفساد في الأرض وقطع الرحم، وجعل اللعنة على فاعلها فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[١٦٢]وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[١٦٣].

ومنها كذلك سوء الجوار كما هو حاصل فلا تعارف ولا تعاون، ولا تفقد، فلا يعلم الجار ما يحل بجاره من خير أو شر..

وكل ذلك منهي عنه وأنه من علامات الساعة، علماً أن الوصية بالجار منصوص عليها، قال تعالى: ﴿...وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[١٦٤].

والأحاديث في حسن الجوار كثيرة منها قوله ﷺ: «وما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[١٦٥].

---

(١٦٠) الإمام أحمد، مسند أحمد الحاكم، المستدرك جـ١ ص٧٥-٧٦ وصححه وقال الهيثمي: رجاله ثقات، مجمع الزوائد جـ٧ ص٢٨٤.

(١٦١) قال ابن الأثير: الفحش «هو ما يشتد من الذنوب والمعاصي، وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا، وكل خصلة قبيحة منهي عنها فاحشة في الأقوال والأفعال»، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر جـ٣ ص٤١٥.

(١٦٢) محمد ٤٧: ٢٢-٢٣.

(١٦٣) الإمام مسلم، *الصحيح*: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ح(٢٥٥٦) جـ٤ ص١٩٨١.

(١٦٤) النساء ٤:٣٦ وانظر في الباب أحاديث أخرى في وجوب صلة الرحم

(١٦٥) مسلم، *الصحيح*، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه ح(٢٦٢٥) جـ٤ ص٢٠٢٥، وانظر في الباب أحاديث أخرى في الوصية بالجار.

٩- استحلال المحرمات

أخبر النبي ﷺ أن من إمارات الساعة استحلال المحرمات والفواحش والمجاهرة بها، وكما مر في العلامة السابقة من قول الرسول ﷺ «من أشراط الساعة الفحش والتفحش...».

وظهور هذه الأمارات نتيجة طبيعية لقلة الإيمان أو انعدامه فقل الحياء واستحلت المحرمات..، ومن هذه المحرمات (الزنا) الذي ظهر وفشا بين الناس حتى غدا ظاهرة طبيعية في كثير من المجتمعات وخصوصاً غير الإسلامية..قال رسول الله ﷺ: «إن من اشراط الساعة..(فذكر منها): ويظهر الزنا[١٦٦]».

كما نص حديث آخر على استحلاله فقال: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير...» [١٦٧]، والحديث يشير إلى استحلال الرجال للبس الحرير كما هو واقع.

وقد أخبر الرسول كذلك أنه بعد ذهاب المؤمنين سيبقى شرار الناس يتسافدون كالبهائم فقال: «..ويبقى شرار الناس يتهارجون[١٦٨] فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»[١٦٩].

يذكر العلماء هذه العلامة ضمن الأشراط الكبرى أو خلال الآيات الكبرى.. ومرادهم بذلك أنها حالة عامة في ذلك الوقت.. ولكن هذا حاصل في دول الغرب، وعلى الصفة التي ذكرها رسول الله ﷺ بقوله: «والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق، فيكون خيارهم يومئذ من يقول: لو واريتها وراء هذا الحائط!»[١٧٠].

ومن المحرمات التي استحلت، وهي من أشراط الساعة، شرب الخمر، وهي ضمن الحديث السابق «إن من أشراط الساعة أن... ويشرب الخمر ويظهر الزنا». كما نص الحديث الآخر على ظاهرة استحلالها «...يستحلون الحرّ والحرير والخمر والمعازف..» كما قال

---

(١٦٦) البخاري، *الصحيح*، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (مع *فتح الباري*، ١/ ١٧٨) ومسلم، *الصحيح*، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان جـ٤ ص٢٠٥٦.

(١٦٧) سبق تخريجه في ص ١٧٤، هـ ١٦٥.

(١٦٨) يتهارجون: أصل الهرج: الكثرة في الشيء والاتساع، والمراد به هنا الجماع وكثرة النكاح، والمعنى: أن يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير. انظر ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث جـ٥ ص٢٥٧ وشرح النووي لمسلم جـ١٨ ص٧٠

(١٦٩) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفة ما معه ح(٢١٣٧) جـ٤ ص٢٢٥٠-٢٢٥٥.

(١٧٠) رواه أبو يعلى، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال *الصحيح*»مجمع الزوائد جـ٧ ص٣٣١.

رسول الله ﷺ: «لتستحلن طائفة من أمتي الخمر باسم يسمونها إياه»[171]، أي يسمونها بغير اسمها.. وتحققت نبوة النبي ﷺ بكل ذلك.. فكل هذه المحارم تسمى بغير اسمها تغطية لقبحها، فتحت اسم (الفن) يستباح كل فجور وتستحل المشارب تحت أسماء كثيرة، كالمشروبات الروحية وغيرها.

وقد فسر ابن العربي استحلالها بأمرين: -

١- الاعتقاد بحل شربها

٢- الاسترسال في شربها كالاسترسال في الحلال[172].

وكلما تقدم الزمن ازداد من يشربها، وهي تباع جهاراً في أغلب الدول الإسلامية كما دلت الأحاديث السابقة على ظهور المعازف واستحلالها كما هو واقع، حيث ظهرت هذه العلامة في وقت مبكر وهي في ازدياد مضطرد، فقد شاع كثرة المغنيين والمغنيات وأصبح الغناء ظاهرة مألوفة استحلّه الناس وتجاهلوا حرمة السماع.

وقد توعد الله سبحانه وتعالى استحلال ذلك جميعاً، فكلها من الفواحش التي نبه القرآن عليها وتوعد مرتكبيها والمحرضين عليها والمروجين لها بعقاب في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[173].

كما جاء الوعيد على ذلك من رسول الله ﷺ والانتقام من الله لمحارمه في الدنيا بالخسف والمسخ والقذف فقال: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم -يعني الفقير- لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[174].

ومن العقاب الذي أنذر به المصطفى كذلك قوله: «ما فشا الزنا في قوم قط إلا سلط

---

(١٧١) الإمام أحمد، *المسند*، ٣١٨/٥، وابن ماجه، سننه، كتاب الأشربة، باب الخمر يسمونها بغير اسمها جـ٢ ص١١٢٣ وقال ابن حجر، في الفتح، سنده جيد جـ١٠ ص٥١ وصححه الألباني في حديث الجامع الصغير جـ٥ ص ٤٠١٣ ح(٤٩٤٥).

(١٧٢) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٠ ص٥١.

(١٧٣) النور ١٩:٢٤.

(١٧٤) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه (من الفتح١٠/ ٥١).

عليهم الموتان» وفي رواية «..إلا كثر فيهم الموت..»(١٧٥).

وفي آخر: «يا معشر المهاجرين، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم -وأعوذ بالله أن تدركوهن- لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشى فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم..»(١٧٦).

ومعنى الحديث أن تفشي الفاحشة والإعلان بها والترويج لها يتبعه حتماً تفشي الطاعون (الأوبئة) والعلل والأمراض المستجدة التي لم تكن معروفة من قبل.. وفي زماننا هذا وبعد أكثر من أربعة عشر قرناً نجد أن ما ورد في القرآن والسنة قد تحقق وظهرت أوبئة جديدة لم تعرفها الإنسانية من قبل ولم يسمع بها أحد وأخطرها مرض نقص المناعة المكتسبة (الأيدز)(١٧٧).

ومن المحرمات التي استحلت (التعامل بالربا) وأكل مال الحرام الذي شدد الشرع في تحريمه، وأصبح الناس لا يبالون بالأكل من مال الحرام، وقد أخبر الرسول ﷺ بأن ذلك سوف يكون فقال: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أمن حلال أم من حرام»(١٧٨)، وقد انتشرت المصارف الربوية في جميع البلاد الإسلامية والأدهى من ذلك ما يظهر من فتاوى تحللها!!.

إن استحلال ما ذكرنا عُدّ من علامات الساعة علماً أن المعاصي والذنوب تقع من ابن آدم الخطاء، وذلك لأن النفوس بالفطرة تعرف المعروف وتنكر المنكر، لذا عند وقوعها للحرام وارتكابها له تستتر فيه، أما الوصول إلى درجة استحلالها والمجاهرة والإعلان بها، والترويج لها على أنها مسألة طبيعية أو أنها من الحرية الشخصية فيعد انحرافاً عن الفطرة السوية مما جعله علامة من علامات الساعة.

---

(١٧٥) الإمام مالك، الموطأ، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الغلول ح(٢٦) جـ١ ص٤٦٠.

(١٧٦) ابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات جـ٢ ص١٣٣٣ ح(٤٠١٩)، والحاكم، المستدرك جـ٤ ص٥٤٠. وذكره الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ٢ ص٨-٩ ط المكتب الإسلامي ١٩٧٠ ح(١٠٦) وقال عن سند ابن ماجة ضعيف، وعن رواية الحاكم -التي صححها- حسن الإسناد.

(١٧٧) راجع بعض الإحصائيات الجديدة عن الأيدز في د.محمد زكريا مطر، رواية الإسلام عن الأيدز تؤيدها البحوث الغربية، المجتمع، العدد ١٢٩٢ ذوالقعدة ١٤١٨هـ، ١٧/٣/١٩٩٨ ص٥٢-٥٣. يقول المقال: «١٦ ألف حالة أيدز جديدة تحدث يومياً في العالم بينها ١٦٠٠ طفل! » وقال: «لا يعتبر هذا الوباء الجديد فقط فلقد تعرف العلماء ما يزيد على ١٢١ مرضاً جديداً في العقود الماضية لم تصل إلى حجم ضرر الأيدز ولكن يخشى من تحولها لذلك..».

(١٧٨) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب البيوع، باب قول الله عزوجل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا﴾ جـ٤ ص٣١٣ والنسائي، سننه، كتاب البيوع، باب اجتناب الشبهات في الكسب جـ٧ ص٢٤٣.

فلو أخذنا ذلك على وجه العموم وليس للمسلمين فحسب فنجد أن تلك المنكرات معروفة لعامة الناس وخصوصاً أهل الأديان السماوية.. فلقد كانت الحياة الغربية قبل الحرب العالمية الثانية مختلفة تماماً عما هي عليه اليوم.. كانت هناك قيم خلقية سائدة تتضمن العفة، والنساء أكثرهن شبه محتشمات، وكان الزنى في العرف الاجتماعي والديني يعد جريمة.. ولكن الصهيونية خططت لإشاعة الفاحشة والانتقال بها من كونها منكراً إلى كونها معروفاً، ثم جاءت ظروف الحرب الثانية وما تبعها من آثار مما جعل أوربا تستجيب لدعاة الفاحشة كفرويد وغيره من دعاة الحرية الشخصية فألغيت عقوبة الزنى والشذوذ ووصل الحال إلى تدريس مادة الزنا في المناهج!! وتحول المسرح إلى عرض للجنس..! فكانت النتيجة الأمراض السارية وأخطرها المرض الفتاك (الأيدز) والذي من أعراضه الدمامل الخبيثة الوردية... وكل ذلك بسبب الزنى والشذوذ الجنسي، فهم كما وصفهم الله: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(١٧٩).

ومن الغريب أن نجد هذه العلامة في الكتب المقدسة عند الغرب المسيحي كإنذارات للفساد ففي سفر يوحنا اللاهوتي ست عقوبات عاجلة هي دعوة للتوبة وإلا وقعت السابعة.. وأذكر منها ما يخص الموضوع، جاء في الإصحاح السادس عشر من رؤيا يوحنا اللاهوتي ما نصه: «وسمعت صوتاً عظيماً من الهيكل قائلاً للسبعة الملائكة: امضوا واسكبوا جامات غضب الله على الأرض: فمضى الأول وسكب جامه على الأرض، فحدثت دمامل خبيثة وردية على الناس الذين بهم سمة الوحش، والذين يسجدون لصورته..»(١٨٠) فالسجود لصورته يعني الخضوع له والرضا بنمط الحياة الذي يقدمه زعماء الغرب للناس

---

(١٧٩) الأعراف ٧:١٧٩.

(١٨٠) رؤيا يوحنا اللاهوتي، الإصحاح، السادس عشر من ١-٢١. نقلاً عن بشير محمد عبدالله زلزال الأرض العظيم ص٣١٠-٣١٢. وكلمة الوحش في النص، يذكرها أحياناً في الإصحاح باسم (التنين ذو الخمسة رؤوس والعشر قرون..) أو النبي الكذاب، والتي تقابل في السنة النبوية الدجال لأن أكثر أتباعه من أولاد الزنا.. وأهل الكتاب يفسرون هذه النصوص حسب أهوائهم.. وقد فسر صاحب الكتاب بشير محمد عبدالله التنين.. بهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الذي فيه خمسة أعضاء دائميين وعشرة غير دائمين ليس لهم سلطان الرؤوس الخمسة..والله أعلم.. ويستغرب صاحب الكتاب من دول الغرب التي لا تجرم الفاحشة مع ضررها والمؤتمرات التي تنادي بذلك والاحتجاج بالحرية الشخصية.. فانعدمت العقوبات في حين أن القانون في ألمانيا يجرم من يتعرض لليهود بفضحهم ولو بمقال ويعاقب بتهمة النازية! الا يعد هذا خرقاً لمبدأ الحرية الشخصية: راجع المصدر ص٣٢١.

ويزينوه لهم. وللحديث بقية عند الكلام عن الخسوفات والزلزلة..

١٠- تغير الأحوال وانقلاب الموازين واختلالها

يندرج تحت هذه العلامة أمور كثيرة تبدلت فيها القيم مما يدل على فساد الأحوال وكلها وقعت ومستمرة في ازدياد وتحققت كما وصفها المصطفى ﷺ مما يدل على الإعجاز النبوي..

وأول ذلك إسناد الأمر إلى غير أهله.. قال رسول الله ﷺ: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»(١٨١).

ويندرج تحت ذلك: سيطرة الأشرار وارتفاع الأسافل على الأخيار، فيكون الأمر والحكم بأيديهم ويسير الناس على هواهم، وهو مظهر لانعكاس المفاهيم.. كما أنه واقع في هذا الزمن غالباً، حيث نجد مصير الناس بيد الأراذل والسفهاء، والأصل أن يكون الأمر بيد أهل الورع والتقوى والخبرة والتجربة..فالله جعل التقوى ميزاناً للتفاضل فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١٨٢).

وكان رسول الله ﷺ ومن بعده الخلفاء الراشدون وغيرهم لا يولون إلا من هم أصلح الناس وأعلمهم، فعن حذيفة ﷺ أن النبي قال لأهل نجران: «لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين» فأستشرف لها أصحاب النبي ﷺ فبعث أبا عبيدة(١٨٣).

أما أن يتولى الأشرار فذلك من أشراط الساعة كما قال نبينا ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم ويرث دنياكم شراركم»(١٨٤).

ومثل ذلك تولى الصبية للأمور. عن أنس بن مالك قال: قيل يا رسول الله متى ندع الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل، إذا كانت

---

(١٨١) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة مع *فتح الباري*، جـ١ ص٣٣٣.

(١٨٢) الحجرات ٤٩:١٣.

(١٨٣) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق مع الفتح جـ٣ ص٢٣٢.

(١٨٤) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٥ ص٣٨٩ والترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ح(٢١٧٠) جـ٤ ص٤٦٨ وقال هذا حديث حسن، وابن ماجة، *السنن*، كتاب الفتن، باب اشراط الساعة ح(٤٠٤٣) جـ٢ ص١٣٤٢، وأبو عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، باب ما جاء في كثرة الفتن وتواترها وسوء عواقبها جـ١ ص٢٨٩، وقال المحقق: فيه إسناده عبدالله بن عبدالرحمن الأشهلي لم يوثقه إلا ابن حبان وأورده الألباني في ضعيف ابن ماجة ص٣٢٥ ح(٨٧٦).

الفاحشة في كباركم والعلم في أراذلكم والملك في صغاركم»[(١٨٥)].

وقد أخبر النبي ﷺ بتولي الصغار والصبيان والسفهاء وعدّه من علامات الساعة لما يترتب عليها من الإفساد والهرج وعدم التصرف بحكمة فقال: «هلكة أمتي على يدي أغيلمة من قريش» وفي رواية «إن فساد أمتي أو هلاك أمتي على رؤوس غلمة سفهاء من قريش»[(١٨٦)]. وفي رواية أخرى «يهلك أمتي هذا الحي من قريش»[(١٨٧)]. وللحديث في بعض طرقه زيادات أخرى.

وغلام وأغيلمة تقال للصغير أو الرجل المستحكم القوة وقد يكون التصغير لضعيف العقل والتدبير والدين.

والأحاديث هذه تشير إلى بعض الأسباب التي تؤدي لحدوث الفتن في صفوف المسلمين وهو تولي الصبيان من غير ذوي الرشد والأحلام أو الرجال الذين يحملون في عقولهم رؤوس الصبيان إلى السلطة والإمارة ولعدم خبرتهم يتسببون في الفتن كما تدل بذلك الوقائع التاريخية عن دولة بني أمية.. فقد صدرت من بعضهم الحوادث الجسام كقتل الحسين وموقعة الحرة.. وهو ما حدّث به المصطفى ﷺ ويعد معجزة من معجزاته الكثيرة.

والهلاك في الحديث يفسره حديث آخر «أعوذ بالله من إمارة الصبيان، قالوا: وما إمارة الصبيان؟ قال: إن أطعتموهم هلكتم -أي في دينكم- وإن عصيتموهم أهلكوكم»[(١٨٨)] أي في دنياكم بإزهاق الأنفس وذهاب المال أو بهما.

وكان أبو هريرة ﷺ -راوي الحديث- يقول: «أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان» يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية لأنها كانت سنة ستين من الهجرة واستجاب الله

---

(١٨٥) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٣ ص ١٨٧.

(١٨٦) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الفتن، باب قول النبي: هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء (١٣/ ٩ رقم ٧٠٥٨) وكتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٦/ ٦١٢ رقم ٣٦٠٥) والإمام احمد، *المسند* جـ٢، ص٣٢٤، وأبو عمرو الداني، *السنن الواردة*، باب هلاك أمتي، جـ٢ ص٤٧٢-٤٧٣.

(١٨٧) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٢ ص٢٨٨،٢٩٩،٣٢٨، والنسائي، *السنن الكبرى*، كتاب الفتن، جـ١٠ ص٣١٣ والحاكم، المستدرك، جـ٤ ص٤٧٠.

(١٨٨) البخاري: *الصحيح*، كتاب المناقب، باب علامات النبوة (٦/ ٦١٢ رقم ٣٦٠٤) ومسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل.. جـ٤ ص٢٢٣٦ ح(٢٩١٧) والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢ ص٣٠١.

دعاءه فمات قبلها بسنة[١٨٩].

ومن انقلاب الموازين التماس العلم عند الأصاغر. قال رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة ثلاثاً: إحداهن أن يلتمس العلم عند الأصاغر»[١٩٠]، وهؤلاء هم أدعياء العلم الذين يتزينون بزي العلماء، وهم كثير في مجتمعاتنا..

وفسر ابن المبارك الأصاغر بأهل البدع..

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب محمد ومن أكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قبل أصاغرهم وتفرقت أهواؤهم هلكوا»[١٩١]. وقال ابن مسعود ﷺ كذلك: «..وسيأتي على الناس زمان كثير قراؤهم قليل فقهاؤهم، تحفظ فيه حروف القرآن، وتضيع حدوده، كثير من يسأل، قليل من يعطي يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون فيه الصلاة، يبدون أهواءهم قبل أعمالهم»[١٩٢]، وهذا كله واقع في زماننا.

ومنها أن يصدّق الكاذب ويكذب الصادق، ويؤمن الخائن ويخون الأمين.. وهذه العلامات مشار إليها في قول الرسول ﷺ: «أنها ستأتي على الناس سنون خداعة، يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، ويؤمن فيها الخائن ويخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: السفيه يتكلم في أمر العامة»[١٩٣].

والمتأمل في أحوالنا يجد كل ذلك حاصلاً فالكذبة والمشركون يصدقون وأهل الصدق والعدل يكذبون! وتضيع الأمة الإسلامية أموالها في أيدي الخونة الكفرة ويؤتمنون عليه ويخون المسلمون ولا يؤتمنون ويتكلم في الأمور العظام التافة من الرجال فيقود الناس إلى الدمار..

وفي قول رسول الله ﷺ «...حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في

---

(١٨٩) راجع: ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١ ص٢١٦، جـ١٣ ص١٠، والقرطبي، التذكرة جـ٢ ص٢٨٨-٢٨٩.

(١٩٠) ابن المبارك، الزهد رقم (٦١) ص٢٠-٢١ وأبو عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، باب من الأشراط والدلائل والعلامات جـ٤ ص٨٤٨ والهيثمي، مجمع الزوائد جـ١ ص١٣٥ وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ٢ ص٢٥٢ رقم (٦٩٥) وقال إسناده جيد وله شواهد.

(١٩١) ابن المبارك، الزهد ص٢٨١ ح(٨١٥).

(١٩٢) الإمام مالك، الموطأ جـ١ ص١٧٣، والبخاري، الأدب المفرد ص٢٦٧ رقم (٧٩٠).

(١٩٣) الإمام أحمد، *المسند* جـ٢ ص٢٩١ وقال ابن كثير هذا إسناد جيد ولم يخرجوه من هذا الوجه النهاية في الفتن جـ١ ص٢٣٥.

قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[194]. وهذا ما هو واقع في هذا العصر يمدح الرجل وهو من أفسق الناس وأقلهم أمانة وديناً، وربما أشد عداوة للمسلمين... وقد ورد عن عمرو بن العاص قوله: «من أشراط الساعة أن يرفع الأشرار ويوضع الأخيار»[195].

ومرت الإشارة في حديث جبريل الطويل إلى بعض من الإمارات التي تدل على انعكاس الموازين من ولادة الأمة ربتها وتطاول رعاء الشاة في البنيان...

ومنها ما جاء في وصف سعداء الدنيا بقول رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يصير أسعد الناس بالدنيا لكع[196] بن لكع[197]».

ومنها تشبب المشيخة أي تشبه الشيوخ بالشباب وهي ظاهرة منشرة في رجال المسلمين، قال رسول الله ﷺ: «يكون قوم يخضبون في آخر الزمان بالسواد كحواصل الحمام، لا يرحون رائحة الجنة»[198]، وذلك بصبغ لحاهم وشعورهم بالسواد. وقوله «كحواصل الحمام»[199]، وذلك بحلق اللحى من عوارضها وترك ما على الأذقان من الشعر وصبغها بالسواد فتغدو كحواصل الحمام.

قال ابن الجوزي: «يحتمل أن يكون المعنى لا يرحون رائحة الجنة، لفعل يصدر منهم أو اعتقاد لا لعلة الخضاب ويكون الخضاب سيماهم، كما قال في الخوارج سيماهم التحليق، وإن كان تحليق الشعر ليس بحرام»[200].

---

(١٩٤) البخاري، *الصحيح*، كتاب الرقاق باب رفع الأمانة ١١/ ٣٣٣ مع الفتح، ومسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب ح(١٤٣) جـ١ ص١٢٦.

(١٩٥) الحاكم، المستدرك جـ٤ ص٥٥٤، وأبو عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، جـ٤ ص٧٩٧، والهيثمي في مجمع الزوائد جـ٧ ص٣٢٦ وقال: رجاله رجال *الصحيح*.

(١٩٦) قال ابن الأثير: اللكع عند العرب: العبد، ثم استعمل في الحمد والذم، يقال: رجل لكع وللمرأة لكاع، وأكثر ما يقع في النداء وهو: اللئيم، والوسخ،...انظر النهاية في غريب الحديث جـ٤ ص٢٦٨.

(١٩٧) الترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، جـ٤ ص٤٩٣ ح(٢٢٠٩)، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٥ ص٣٨٩ وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير جـ٦ ص١٧٧ ح(٧٣٠٨)، نعيم بن حماد، الفتن، ص١١٦.

(١٩٨) أبو داود، سننه، كتاب الترجل، باب ما جاء في خضاب السواد جـ٤ ص٤١٨ ح(٤٢١٢)، والنسائي، *السنن الكبرى*، كتاب الزينة، باب النهي عن الخضاب بالسواد جـ٨ ص١٣٨، والإمام أحمد، *المسند* جـ١ ص٢٧٣.

(١٩٩) راجع: الوابل، يوسف، أشراط الساعة ص١٦٧.

(٢٠٠) ابن الجوزي، الموضوعات جـ٣ ص٥٥.

١١- ضياع الأمانة وكتمان الحق

وهذه العلامة نتيجة حتمية لانقلاب الأحوال والموازين وانعكاسها، وأشار إلى ذلك المصطفى بقوله: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا اسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[٢٠١].

وهذه صورة أحوال العالم المعاصر ظهرت وهي في ازدياد فلا يوضع المرء في المكان اللائق به، أو ما هو له أهل في غالب الأحوال فيتولى الأشرار والمفسدون الأمر.. وخصوصاً تقليد الوظائف الخطيرة لغير الأكفاء فتضيع حقوق الناس وتثار الفتن..

وقد وصف لنا حذيفة ﷺ كيفية رفع الأمانة من القلوب بحديث سمعه من رسول الله ﷺ يقول: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت[٢٠٢]، ثم ينام النومة فتقبض، فيبقى أثرها مثل المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله!..»[٢٠٣] الحديث.

والحديث يدل على فساد سرائر الناس الذي يؤدي إلى تولية الأمر لغير أهله فيجنح به الهوى إلى بطر الحق وغمط الناس وظلمهم.

ومن علامات ضياع الأمانة كتمان الحق، وله صور كثيرة فيكون بالكذب كما قال ﷺ: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم». وقوله: «أن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم»[٢٠٤].

ومن كتمان الحق شهادة الزور وهو كذب عمد قصده إبطال الحق وهو من الكبائر ولذا فظهوره يعد علامة من علامات الساعة كما في قول رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة

---

(٢٠١) البخاري، *الصحيح*، كتاب الرقائق، باب رفع الأمانة مع الفتح جـ١١ ص٣٣٣ وفي كتاب العلم، باب من سأل علماً وهو مشتغل في حديثه جـ١ ص١٤١ (٥٩).

(٢٠٢) سبق تخريجه والوكت: جمع وكتة وهي الأثر في الشيء، والمجل ما يكون في الكف من أثر العمل بالأشياء الصلبة، و(نفط): والنفطة: بثرة تخرج في اليد من العمل ملأى ماء. انظر: ابن الأثير، المنتبر كل مرتفع ومنه أشتق المنبر يقال انتبر الجرح إذا ورم وامتلأ ماء، انظر ابن حجر، الفتح ١٣/ ٣٩.

(٢٠٣) مسلم، *الصحيح*، المقدمة، باب النهي عن رواية الضعفاء جـ١ ص٣٥.

(٢٠٤) سبق تخريجه.

شهادة الزور و كتمان الحق»[٢٠٥].

ومما هو شائع في المجتمعات عدم التورع عن الكذب ونقل الأقوال من غير تثبتُ من صحتها، ولهذا لا يميز بين الأخبار المتضاربة كما يتوقف على شهادة الزور ضياع الحقوق، وزيادة الأحقاد بين الناس، والمقصود بضياع الأمانة هنا، الأمانة بالمعنى العام وليس حصرها في حفظ الودائع! بل شعور المرء بالمسؤولية في كل أمر يوكل إليه، والأحاديث في نفي الإيمان عمن لا أمانة له معروفة، فهي الفضيلة التي أثقلت كاهل الوجود وحملها الإنسان فلا ينبغي أن يستهين بها، قال تعالى:﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾[٢٠٦]. والأحاديث السابقة في العلامتين السابقتين تقع ضمن اختلال الأمور وانقلابها رأساً على عقب وهي من أمارات الساعة بحيث يرفع الأشرار ويكرمون ويستذل الأخيار ويوضعون ويسود الناس أشرارهم...كما تبين الأحاديث أن السيادة والزعامة تكون من أيدي المنافقين والفساق ويملك الدنيا اللئام ووفرة حظوظهم في هذه الدنيا ونعيمها وملاذها والوجاهة فيها وغير ذلك من المتاع الدنيوي.

١٢- كثرة أعوان الظلمة (الشُرط)

جاءت الأحاديث النبوية بظهور هذا الصنف من النساء وتصفهم وصفاً دقيقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس.. ونساء...»[٢٠٧].

قال النووي: «وهذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر به ﷺ، فأما أصحاب السياط فهم غلمان والي الشرطة»[٢٠٨].

وقد بين الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أن ذلك سيكون بين يدي الساعة فقال: «يكون في هذه الأمة في آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر يغدون في سخط الله ويروحون في غضبه»[٢٠٩]. وفي قوله الآخر لأبي هريرة ﷺ: «إن طالت بك مدة، أوشكت أن ترى قوماً يغدون في

---

(٢٠٥) الإمام أحمد، ٥/٣٣٣ أحمد شاكر.

(٢٠٦) الأحزاب ٣٣: ٧٢.

(٢٠٧) سبق تخريجه.

(٢٠٨) النووي، صحيح *مسلم* بشرح النووي جـ١٧ ص١٩٠.

(٢٠٩) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٥ ص٢٥٠، وأبى عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، باب من الأشراط والدلائل والعلامات جـ٤ ص٨٤٧، والحاكم، المستدرك جـ٤ ص٤٣٦، وقال: صحيح الإسناد،=

سخط الله ويروحون في لعنته، في أيديهم مثل أذناب البقر»[٢١٠]، وقد فسرت كلمة (رجال) في رواية الطبراني بالشرطة «سيكون في آخر الزمان شرطة يغدون...»[٢١١].

وقد وقع كل ما أخبر به النبي ﷺ بأوصافهم، فهم رجال الشرطة الذين يحملون السياط يضربون الناس... وفي الأحاديث وعيد لهذا الصنف الذين يعذبون المسلمين بغير حق.

ويعد ذلك من علامات الساعة التي وقعت ولازالت، وإن ذلك رافق وجود الحكام الظلمة الذين همهم المحافظة على سلطتهم فهم يقهرون الناس لذلك بواسطة الأعوان الذين لا يقيمون حرمة لمسلم، وقد جاء النهي في الأحاديث عن إذلال المسلم وتعذيب الناس. فقال رسول الله ﷺ: «إن الذي يعذب الناس في الدنيا يعذبه الله في الآخرة» وفي رواية إن الله يعذب الذين يعذبون في الدنيا[٢١٢].

وقد وقع بأكثر من ذلك في سجون المسلمين ولذلك تخوف الرسول ﷺ على أمته من أئمة الجور، فقال: «من أخوف ما أخاف على أمتي أئمة مضلون، إذا وقع السيف لم يرفع إلى يوم القيامة»[٢١٣].

والأحاديث دليل على ما وقع ويقع من فساد الحكام وتسلطهم على رقاب الناس، لأن أعوان الظلمة - أصحاب السياط - كناية عنهم، وقد ازداد الأمر سوءً فالسياط أصبحت أجهزة تعذيب متنوعة متطورة في داخل المعتقلات والله المستعان.

١٣- غلبة التجارة، والشح، وبيع الدين بعرض الدنيا

وهي علامة ظهرت ولازالت متطورة متزايدة حتى فشت بين الناس وشاركت المرأة فيها الرجال.

وقد أخبر بذلك الصادق ﷺ فقال: «بين يدي الساعة، تسليم الخاصة، وفشو التجارة،

= ووافقه الذهبي والألباني في *سلسلة الأحاديث الصحيحة* جـ٤ ص٥١٧ رقم (١٨٩٣).

(٢١٠) مسلم، *الصحيح*، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ح(٢٨٥٧) جـ٤ ص٢١٩٣، والامام أحمد، *المسند* جـ٢ ص٣٠٨، ٣٢٣، وأبو عمرو الداني، السنن الواردة في الفتن، جـ٤ ص٨٤٨.

(٢١١) الطبراني، *المعجم الكبير*، تحقيق: حمدي السلفي، ط. الدار العربية، بغداد جـ٨ ص٣٠٨ رقم (٨٠٠٠).

(٢١٢) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب البر والصلة، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق ح(٢٦١٣) جـ٤ ص٢٠١٧.

(٢١٣) سبق تخريجه.

حتى تشارك المرأة زوجها في التجارة»[٢١٤].

وفي آخر: «إن من أشراط الساعة أن يفشوا المال ويكثر، وتفشوا التجارة»[٢١٥]. وهي ظاهرة أصبحت مألوفة وبنفس الوقت ملفتة للنظر حيث أفتتن بها الناس وتنافسوا كوسيلة لجمع المال..

وليس المحذور في ذلك التجارة الحلال وربحها بل لأمور قد تصاحبها -كما هو واقع- فالأموال من فتن الدنيا -كما مر- وإذا تعلق قلب العبد بها تنافس لأجلها وألهته عما يجب، وينبغي الحذر من مداخلة الربا وألاعيب السوق وهو الغالب الآن كما أن التنافس على المصالح يسبب تفريق الأمة.

ومن العلامات التي أخبر بها النبي ﷺ كثرة الشح وغلبته، مع النهي عنه وتحذير الشرع من الهلاك بسببه كما حصل للذين من قبل حملهم على سفك الدماء واستحلال المحارم. قال رسول الله ﷺ: «من أشراط الساعة أن يظهر الشح»[٢١٦]. وفي آخر: «يتقارب الزمان وينقص العمل ويلقى الشح»[٢١٧] وقد ذم القرآن الشح وأوجب الفلاح لمن لا يتصف به فقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢١٨].

والشح قد يؤدي إلى بيع الدين بعرض الدنيا الذي هو من علامات الساعة كذلك والذي أرتبط بالفتن التي تكون كقطع الليل المظلم والتي تغير حال الإنسان كما قال ﷺ: «تكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا»[٢١٩].

وتمثل الأحاديث النبوية واقع المسلمين ففي مقابل عرض الدنيا يجري كل ما هو محرم ومخالف للدين.

---

(٢١٤) سبق تخريجه عند نقطة «التهاون بالسنن» ص ٢٧٢.

(٢١٥) الإمام أحمد، *المسند* جـ٥ ص٦٩ والنسائي، *السنن الكبرى*، كتاب البيوع باب التجارة جـ٧ ص٢٤٤، والحاكم، المستدرك، جـ٢ ص٧ وقال: إسناده شرطهما صحيح. وهو عند النسائي «إن من اقتراب الساعة أن يفيض المال ويكثر التجار..»وأبو عمرو الداني، *السنن الواردة*، باب ما جاء في فيض المال ح٢٥١ جـ٣ ص٥٦٦.

(٢١٦) الطبراني، *المعجم الأوسط*، انظر *فتح الباري*، جـ١٣ ص١٥، والهيثمي، *مجمع الزوائد* جـ٧ ص٣٢٧: (رجاله رجال صحيح).

(٢١٧) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن مع الفتح جـ١٣ ص١٣.

(٢١٨) الحشر ٥٩:٩ والتغابن ٦٤:١٦.

(٢١٩) سبق ذكره في الحديث عن ظهور الفتن.

١٤- غربة الإسلام ونقض عراه

أخبر رسولنا الكريم أن الإسلام سيكون غريباً كما بدأ، وقد آل الأمر إلى ذلك ولا زال...

وقد جاءت أحاديث كثيرة تتحدث عن غربة الإسلام يكمل بعضها بعضاً ويوضح بعضها البعض الآخر ويعضدها وبطرق كثيرة....

قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ وهو يأرز[٢٢٠] بين المسجدين كما تأرز الحية في حجرها»[٢٢١].

وقال في آخر: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى[٢٢٢] للغرباء»[٢٢٣].

وقد فسر الرسول ﷺ معنى الغربة والغرباء في أحاديث أخرى منها: «إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل، إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»[٢٢٤].

فقد فسر(المسجدين) في الحديث السابق و(الحجاز) في هذا الحديث و (بالمدينة) في حديث آخر «لينحازن الإيمان إلى المدينة...» ولا تعارض بينها، وفسرالغرباء بالمصلحين القائمين على السنة وفي حديث آخر قال ﷺ:«طوبى للغرباء، فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»[٢٢٥].

وفي رواية: «...الفرارون بدينهم يبعثهم الله -عز وجل- يوم القيامة مع عيسى بن مريم

---

(٢٢٠) يأرز: الأرز: الاجتماع والانقباض، والمعنى أنه يرجع إليها ويجتمع بعضه إلى بعض فيها، انظر: النهاية جـ١ ص٢٧.

(٢٢١) مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يأرز بين المسجدين ح(١٤٦) جـ١ ص١٣١.

(٢٢٢) طوبى: من الطيب قيل في معناها: الخير والفرح والنعيم، وقيل: الجنة، وقيل: شجرة في الجنة، انظر: شرح النووي لصحيح مسلم جـ٢ ص١٧٦، وابن الأثير: *النهاية* جـ٣ ص١٤١.

(٢٢٣) مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، بيان أن الإسلام بدأ غريباً... ح(١٤٥) جـ١ ص١٣٠، وابن ماجة، *السنن*، كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريباً (٣٩٨٦) جـ٢ ص١٣١٩-١٣٢٠. والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢ ص٣٨٩.

(٢٢٤) الترمذي، *السنن*، كتاب الإيمان، باب ما جاء إن الإسلام بدأ غريباً ح(٢٦٣٠) جـ٥ ص١٨ وقال: هذا حديث حسن صحيح، والبغوي، شرح السنة، كتاب الإيمان، باب الإسلام بدأ غريباً جـ١ ص١٢٠-١٢١.

(٢٢٥) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٢ ص١٧٧،٢٢٢. وعبدالله بن المبارك، الزهد، رقم (٧٧٥) ص٢٦٧.

عليه السلام»[٢٢٦].

فمن مجموع هذه الأحاديث تتضح الغربة وهي: «كون المـرء على حالـة مـن الاستقامة العلمية والعملية، يقل موافقوه فيها ويكثر مخالفوه وشانئوه، وإذا دعى الناس إلى ما هو عليـه قل متبعوه... وهذا وجه من وجوه الغربة يتمثل في قلة المعـين علـى الخير وقلـة المستجيب لدعوة الله، وثمة وجه آخر وهو المشقة التي يجدها السالك... في تجنـب العـثرة، فإنـه كلمـا بعد عهد الناس بالنبوة زاد الشر... وأصبح من العسير تحصيل المصلحة إلا ومعها قـدر مـن المفسدة، ومن العسير أيضاً فعل المصلحة الراجحـة لكـثرة المعوقـات والمثبطـات التـي تقعـد بالإنسان عن ذلكر»[٢٢٧].

ولغربة الإسلام صورتان: غربة أهل الإسلام في أهل الأديان، وغربة أهل السنة الصابرين عليها مما عداها في أهل الإسلام، وقد تكون الثانية اشد!

وعلى هذا نجد أن بعض أحكام الإسلام أضحت غريبـة كـالأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر والجهاد في سبيل الله، عن حذيفة ﷺ: «ولتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة، ويكـون أول نقضه الخشوع حتى لا ترى خاشعاً»[٢٢٨]. وفي آخر قـال ابـن مسـعود ﷺ: «إن أول مـا تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة»[٢٢٩].

ولا تعارض بين الحديثين لأن من فقد الخشوع والخوف لابد أن يفقـد الأمانـة التـي هـي ضد الخيانة[٢٣٠].

وهؤلاء الغرباء هم الذين يحولون دون أن تستحكم الغربـة وتعـم الجاهليـة الأرض كلهـا قبل قبض أرواح المؤمنين قبيل الساعة، فقد وعد الله على لسان رسوله ببقاء طائفة مصلحـة وهي الطائفة المنصورة كما قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم مـن

---

(٢٢٦) ابن المبارك، *الزهد* رقم (٢٠٦) ص١٤٩.

(٢٢٧) سلمان بن فهد العودة، *الغرباء الأولون*، ط دار ابن الجوزي، السعودية، الدمام ١٩٨٩ ص٤٧-٤٨

(٢٢٨) الترمذي، *السنن*، كتاب العلم، باب ذهاب العلم ح(٢٦٥٣) جـ٥ ص٣١-٣٢، والحاكم، المستدرك جـ١ ص٩٩. وقال الترمذي: حديث حسـن غريـب وصححـه الحـاكم ووافقـه الذهبـي والدانـي، *السنن* جـ٣ ص٥٩٩، ح(٢٧١).

(٢٢٩) الطبراني، *المعجم الكبير* جـ٩ ص١٥٣ رقم (٨٧٠٠)، والحاكم في *المستدرك* جـ٤ ص٥٠٤ وأبـو عمرو الداني، *السنن*، باب مـا جـاء في رفـع القـرآن ح (٢٦٩) جـ٣ ص٥٩٥، والهيثمي، *مجمع الزوائد* جـ٧ ص٥٢،٣٣٠، وقال: رجاله رجال *الصحيح*..

(٢٣٠) راجع المباركفوري ضياء الله محقق السنن الواردة..للداني في رفع التعارض بين الأحاديث جـ٣ ص٦٠٧.

خذلهم حتى يأتي أمر الله»[٢٣١]. وفي رواية: «لا يضرهم من خالفهم»، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حرصاً على دينهم.

١٥- تداعي الأمم على الأمة الإسلامية

ومن علامات الساعة التي أخبرنا بها تكالب أمم الكفر على هذه الأمة، وهو نتيجة لما قبلها من حصول غربة الإسلام وأهله وتفرقهم... فقال رسول الله ﷺ:«يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[٢٣٢].

والحديث ذو دلالات كثيرة: فلو كانت الأمم متمسكة بدينها قوية متماسكة ما فكر أعداؤها بالتداعي عليها، فأسباب الفتنة في داخل الأمة لضعفها وتمزقها وتفرقها -غثاء كغثاء السيل- وقد حصل ذلك مرات كثيرة في التاريخ وازدادت شراسة الأعداء وتكالبهم في الوقت الحاضر وأنهم سيتفقون جميعاً مع الدجال.. ووصل الحال كما وصف المصطفى في الحديث أن نزعت مهابة المسلمين في صدور أعدائهم من الإهانة والإذلال بشتى صنوفه ولا أدل على ذلك مما نراه في أيامنا من تباحث دول الغرب والأعداء في أمورنا الخاصة والداخلية ومنع المسلمين من حوزة أي قوة حتى لو كانت غير عسكرية..

هذه الأمارة وقعت وتقع وسوف.. ومع ذلك كله فالله عز وجل حافظ هذه الأمة كرامة لنبيه وحبيبه ﷺ الذي كان يسأل الله الخير لأمته فاستجاب لبعض دعواه حين قال ﷺ: «..وأني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيك لأمتك أن لا

---

(٢٣١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الأمارة، باب قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي..» ح(١٧٠) جـ٣ ص١٥٢٣، وأبو داود،سننه، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها ح(٤٢٥٢) جـ٤ ص٤٥٢ في سياق طويل، والترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأئمة المضلين ح(٢٢٢٩) جـ٤ ص٥٠٤ وأبو عمرو الداني، *السنن*، باب قول النبي: لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ح(٣٦٠) جـ٣ ص٧٣٩.

(٢٣٢) أبو داود، سننه، كتاب الملاحم، باب تداعى الأمم على الإسلام (٤٢٩٧) جـ٤ ص١١١، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٥ ص٢٧٨ وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة م٢ ص ٥٥٩، ح(٩٥٨) وقال: سنده جيد ورجاله ثقات.

أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو قال من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»(٢٣٣)، فالذي يدل عليه الحديث أن وحدة الأمة عصمة لها من تداعي أعدائها عليها فإذا أصبح بأسها بينها ووقعت الفرقة فيما بينها سلط الله عليها أعدائها وطمعوا بها(٢٣٤)، والتاريخ مشاهد على ذلك فقد تداعت الأمم مرات إلى غزو هذه الأمة، فقد كانت هجمة الحروب الصليبية، وكانت هجمة التتار المغول وتحققت نبوة الرسول ﷺ في هذا القرن بصورة أوضح حين اتفقت ملة الكفر جميعاً من نصارى ويهود وملاحدة على هدم الخلافة الإسلامية ثم تجزئة الديار وتقاسمها، وإعطاء فلسطين لليهود.. ولا تزال هذه القوى تتداعى بأشكالها المتعددة فأخذت خيراتها ونهبت ثرواتها واستغلت أراضيها لقواعد عسكرية لضرب بعضها! والأمة الإسلامية على كثرتها غثاء والعلة كما في الحديث: الوهن حب الدنيا وكراهة الموت، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٦- انتشار الكتابة

جاءت أحاديث على علامات الساعة يفهم منها انتشار الكتابة ومنها قول النبي ﷺ: «إن بين يدي الساعة...ظهور القلم»(٢٣٥). والقلم أداة للكتابة وهي المقصود والله أعلم.

وجاء في رواية: وفشو القلم، يقول البرزنجي: «وفشو القلم كناية عن كثرة الكتبة وقلة العلماء، يعني يكتفون بتعليم الخط ليخالطوا الحكام»(٢٣٦).

وجاء في رواية: «إن من اقتراب الساعة أن يفيض المال ويكثر التجار ويظهر العلم»(٢٣٧). قال ابن معبد: يعني الكتاب(٢٣٨). وجاء في رواية «ويظهر القلم».

وقد فسر أكثر العلماء ذلك بالكتابة والكتبة ولا تعارض بين رواية «العلم» و«القلم» إذ المراد من القلم الكتابة وهو وسيلة من وسائل العلم(٢٣٩).

---

(٢٣٣) سبق تخريجه في الفتن السياسية.

(٢٣٤) راجع: الأشقر عمر سليمان، *القيامة الصغرى*، ص١٨٦.

(٢٣٥) الإمام أحمد، *المسند* جـ٥ ص٣٣٣-٣٣٤.

(٢٣٦) البرزنجي، *الإشاعة* ص١١٤.

(٢٣٧) سبق تخريجه في الكلام عن غلبة التجارة.

(٢٣٨) وهو شرح راوي الحديث.

(٢٣٩) راجع المباركفوري ضياءالله، شرح وتعليق على الفتن الواردة للداني، أقوال العلماء في معنى القلم جـ٣ ص٥٦٧.

والواقع يشهد بذلك حيث ظهرت هذه الأمارة وانتشرت في جميع العالم وتطورت وسائلها بسبب توافر آلات الطابعة والتصوير التي سهلت الانتشار، ومع ذلك ظهر الجهل بين الناس بالعلوم الشرعية والعمل بها.

١٧- تقارب الأزمان والأسواق

ورد في الأحاديث ما يدل على أن تقارب الأزمان والأسواق من علامات الساعة.. فمن ذلك قول المصطفى ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان... ويتقارب الزمان...»[٢٤٠].

وعنه أيضاً: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر ويكون الشهر كالجمعة، ويكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السعفة»[٢٤١].

وفي رواية: «من أشراط الساعة تقارب الزمان، قيل: يا رسول الله وما تقارب الزمان؟ قال: تكون السنة كالشهر... كاضطراب السعفة».

وللعلماء في تقارب الزمان أقوال متعددة:-

- منها أن المراد قرب القيامة حكاه القرطبي والنووي[٢٤٢].

ومنها تقارب أحوال الناس في الشر والفساد والجهل وهو قول الطحاوي وأنكره القرطبي بأن الناس لا يتساوون في العلم والفهم.. ويحتاج إلى تقدير أي يتقارب أهل الزمان.

ومنها ما يكون زمن المهدي من استلذاذ العيش، ووقوع الأمن في الأرض وغلبة العدل، فيستلذ العيش وتستقصر مدته، والناس هكذا مع أيام الرخاء، وهذا التفسير لا يناسب سياق الحديث من ذكر الفتن والهرج وغيره..

- ومنها المراد من قصره عدم البركة فيه فإن اليوم يصير الانتفاع فيه بقدر الانتفاع

---

(٢٤٠) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن باب (٢٥) جـ٨ ص١٠١. ومسلم، *الصحيح*، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه..ح(١٥٧) جـ٤ ص٢٠٥٧، وأبو داود، سننه جـ٤ ص٤٥٤ رقم (٤٢٥٥) والإمام أحمد، *المسند* جـ٢ ص٥٣٠، جـ٤ ص٢٣٣.. وأبو عمرو الداني، *السنن*، باب ما جاء في تقارب الزمان ح (٢٤٤) جـ٣ ص٥٥٦.

(٢٤١) الترمذي، *السنن*، كتاب الزهد، باب ما جاء في تقارب الزمان ح(٢٣٣٢) جـ٤ ص٥٦٧، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢ ص٥٣٧-٥٣٨، وأبو عمرو الداني، *السنن*، باب ما جاء في تقارب الزمان ح(٢٤٥،٣٩١) جـ٣ ص٥٥٧،٧٨١، والهيثمي، مجمع الزوائد جـ٧ ص٣٣١ وقال: «رجاله رجال *الصحيح*».

(٢٤٢) القرطبي، *التذكرة* جـ٢ ص٣٦٢، والنووي، شرح *صحيح مسلم* جـ١٦ ص٢٢١.

بالساعة، ذكره ابن حجر عن القاضي عياض والنووي واختاره لأنه أوفق لبقية الأحاديث وقال: «والذي تضمنه الحديث قد وجد في زماننا هذا، فإننا نجد من سرعة مر الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هذا... والحق أن المراد نزع البركة من كل شيء من الزمان من علامات قرب الساعة»(٢٤٣). وابن حجر وقد مضى عليه ما يزيد على خمسمائة وخمسين سنة، يشكو من قلة البركة في الوقت!

- ومنها ما ذهب إليه بعض العلماء المتأخرين من أن المراد ما حصل من تقارب المواصلات وقطع المسافات البعيدة في الزمن القصير براً وبحراً وجواً (وهو إشارة إلى ما حدث في زماننا من المراكب الأرضية والجوية والآلات الكهربائية التي قربت كل بعيد) وهو قول التويجري وقد سبقه محمد رشيد رضا إلى هذا فقال: «إن بعض ما يعمل الآن في ساعة واحدة لم يكن يمكن عمله في يوم، وما يعمل في يوم واحد كان يحتاج إلى أسبوع»(٢٤٤).

وقال التويجري: «فالمراكب الأرضية والجوية قربت الأبعاد من ناحية السير، والآلات الكهربائية قربت الأبعاد من ناحية التخاطب وسماع الأصوات»(٢٤٥).

والحقيقة أن الحديث يحتمل القولين، فقلة البركة في الوقت هو أمر ملاحظ وهو يناسب أشراط الساعة، ولكن سرعة قضاء الحوائج بالأجهزة الحديثة والوصول إلى أبعد الأماكن بأقل زمن هو الواقع والله أعلم..

وعلى هذا فالتقارب يحتمل أن يكون حسياً ومعنوياً، فالحس: لم يقع بعد وسيقع قرب الساعة، وأما المعنوي: فهو قلة البركة في الوقت لضعف الإيمان ومخالفة الشرع لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾(٢٤٦).

ومثل ذلك يقال في تقارب الأسواق الذي هو من علامات الساعة، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن ويكثر الكذب وتتقارب الأسواق»(٢٤٧).

ويبدو أن تقارب الأسواق -والله أعلم- ما حصل في العصر الحديث من تطور وسائل

---

(٢٤٣) راجع هذه الأقوال وغيرها في: ابن حجر، *فتح الباري* جـ١٣ ص١٦-١٧ وجـ٢ ص٥٢٢ والقرطبي، التذكرة جـ٢ ص٣٦٢.

(٢٤٤) محمد رشيد رضا، *تفسير المنار* جـ٩ ص٤٨٥-٤٨٦.

(٢٤٥) التويجري حمود بن عبدالله، *اتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة*، ط مطبعة المدينة، الرياض ١٣٩٤/١٣٩٦ جـ١ ص٤٩٧-٤٩٨.

(٢٤٦) الأعراف ٧:٩٦.

(٢٤٧) راجع: الوابل يوسف بن عبدالله، *أشراط الساعة* ص١٥٩-١٦٠.

الاتصال والسفر والتبليغ والأعلام للتجار مما جعل التقارب معنوياً وحاصلاً من ثلاثة أوجه:

أ - سرعة العلم بتغير الأسعار

ب - سرعة التنقل من سوق إلى آخر

جـ - المقاربة في الأسعار بناءً على الوجهين الأوليين

١٨- كثرة القتل، وموت الفجاءة

ذكر رسول الله أن ذلك من أشراط الساعة فقال: «والذي نفس بيده لا تذهب الدنيا، حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل؟! فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: الهرج، القاتل والمقتول في النار»[٢٤٨].

وقال في آخر: «يتقارب الزمان وينقص العمل، ويلقى الشح وتظهر الفتن ويكثر الهرج. قالوا: يا رسول الله أيما هو؟ قال: القتل»[٢٤٩] والهرج بلسان الحبشة: القتل.

وقد وقع القتل بين المسلمين من عهد مبكر بعد الفتنة الكبرى ثم تكررت الحروب وحدث القتل وازداد في القرون الأخيرة بسبب الحروب العالمية وما تبعها حتى آل الأمر إلى ما نحن فيه مصداقاً لحديث رسول الله لا يعرف القاتل لماذا قتل؟ ولا المقتول لماذا قتل؟ وللأسلحة المتطورة والفتاكة علاقة وثيقة بكثرة القتل الحاصل في أيامنا هذه ولكثرة الفتن كذلك.. كما يصدق وصف النبي لذلك: «إنه لينزع عقول أكثر أهل ذلك الزمان» وقد نسمع كل يوم أخبار القتل من قبل الأطفال الأغرار لا لشيء إلا لتجريب ما يتوافر بأيديهم من السلاح!.

أما عن موت الفجاءة فقد قال فيه رسول الله ﷺ «إن من أمارات الساعة أن يظهر موت الفجاءة»[٢٥٠]، وقد وقعت هذه العلامة منذ مدة وكثرت جداً في هذه السنين فيما صار يعرف «بالسكتة القلبية» وياليت ذلك يكون رادعاً لابن آدم ليؤوب إلى الله قبل أن يفاجئه القدر، وعند البرزنجي: من أشراط الساعة موت البدار[٢٥١].

---

(٢٤٨) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٠٨)، جـ٤، ص٢٢٣١-٢٢٣٢.

(٢٤٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، جـ٨، ص٨٩، ومسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، جـ٥، ص٢٢١٥.

(٢٥٠) الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٧، ص٣٢٥، وقال الألباني: حسن. انظر: *صحيح الجامع الصغير*، جـ٥، ص٢١٤.

(٢٥١) البرزنجي، *الإشاعة*، ص١٢٤.

١٩- تمني الموت

قال رسول الله: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: ياليتني مكانه»[٢٥٢]، وقال ابن مسعود ﷺ: «سيأتي عليكم زمان لو وجد أحدكم الموت يباع لاشتراه، وسيأتي عليكم زمان يغبط فيه الرجل بخفة الحاذ[٢٥٣] كما يغبط فيه بكثرة المال والولد»[٢٥٤]. وقال الحافظ العراقي: «ولا يلزم كونه في كل بلد، ولا كل زمن، ولا في جميع الناس، بل يصدق اتفاقه للبعض في بعض الأقطار وفي بعض الأزمان»[٢٥٥].

وهذه الأحاديث لا تناقض النهي عن تمني الموت، ولكن للإخبار عما يكون، وليس فيه حكم شرعي.. وتمني الموت يكون بحسب شدة البلاء وعظيم الفتن وهو واقع الآن في بعض الأقطار التي تتعرض للمحن والفتن وشتى أنواع الأذى في الدين والمال والعرض.. «ومن أسباب تمنيه كون الأشرار من الناس الأمراء، والأشحاء منهم الأغنياء»[٢٥٦].

وقد اختلف العلماء بناء على هذه الأحاديث في جواز تمني الموت في الفتنة، وأكثر القول على أنه يجوز عند الخوف من فتنة الدين[٢٥٧].

٢٠- كثرة النساء وقلة الرجال

قال رسول الله ﷺ: «من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا وتكثر النساء، ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»[٢٥٨].

---

(٢٥٢) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور، جـ٨، ص١٠٠. ومسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل... جـ٤، ص٢٢٣١. والإمام مالك، الموطأ، كتاب الجنائز، باب جامع الجنائز، جـ١، ص٢٤١، رقم (٥٣). والداني، *السنن*، باب تغبيط أهل القبور، ح(١٧٥،١٧٦،١٧٧) جـ٢، ص٤٥٣-٤٥٤.

(٢٥٣) أي خفة الظهر من العيال، وقال ابن الأثير: الحاذ هو ما يقع عليه اللبد من ظهر الفرس، النهاية، جـ١، ص٤٥٧.

(٢٥٤) أبو عمرو الداني، *السنن*، باب تغبيط أهل القبور، ح (١٨١) جـ٢، ص٤٥٨، والحاكم، المستدرك، جـ٤، ص٤٨٦، فقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، والهيثمي، *مجمع الزوائد*، جـ٧، ص٢٨٣.

(٢٥٥) المناوي، *فيض القدير*، جـ٦، ص٤١٨.

(٢٥٦) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٦٣.

(٢٥٧) المصدر السابق، وابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٧٥.

(٢٥٨) البخاري، *الصحيح*، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل، جـ١، ص٢٨، ومسلم، *الصحيح*، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، جـ٤، ص٢٠٥٦، ح(٢٦٧١)، والترمذي كتاب =

وفي رواية: «... يرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به من قلة الرجال وكثرة النساء»[259] وهذا يدل على أنه ليس المراد في الخمسين حقيقة العدد إنما المراد الكثرة، لاختلاف الروايات في العدد.

وقد اختلف العلماء في سبب هذه القلة والكثرة.. فيرى القرطبي أن الرجال يقتلون في الملاحم وتبقى نساؤهم أرامل فيقبلن على الرجل الواحد في قضاء حوائجهن ومصالح أمورهن[260]. وذكر أن ذلك حدث أو قريباً منه في الأندلس.. فقد كان هناك من ربط خمسين إمرأة واحدة بعد أخرى في حبل واحد مخافة سبي العدو حتى خرجوا من قرطبة.. وذهب بعضهم إلى أنه إشارة إلى كثرة الفتوح فتكثر السبايا فيتخذ الرجل عدة نساء..

وذهب ابن حجر إلى أن حدوث ذلك علامة محضة تتقدم وقوع الساعة دون أن تكون لها صلة بسبب آخر، بل يقدر الله قلة المواليد من الذكور وكثرته من الإناث وهو مناسب - في نظره - لبقية العلامات -في الحديث- الدالة على اختلال الأوضاع وعدم توازنها..

ويمكن الجمع بين قول القرطبي وابن حجر فقد يحصل ذلك لسبب أو آخر، كما أن ظاهرة ارتفاع عدد النساء ملحوظة الآن وفي كثير من بقاع العالم، وخصوصاً البلدان التي تتعرض للحروب، ولكن الزيادة لم تصل للحد الذي ذكر في الأحاديث، ومعنى ذلك أنه سيكون في المستقبل..

وأما علاقة الرجل، وكيفية وجوده مع الخمسين أو الأربعين ففيه قولان:

الأول: أن يقوم الرجل الواحد بقضاء حوائجهن ومصالحهن لقلة الرجال..

والثاني: أن يقع ذلك في زمان الجهل الذي لا يبقى من يقول فيه الله، الله، فيتزوج الواحد بغير عدد جهلاً بالحكم الشرعي..

واختار القرطبي الأول وضرب له المثل السابق لما حصل بقرطبة، وذكر ابن حجر القولين وقال باحتمال الثاني كذلك لأنه وجد من بعض أمراء التركمان وغيرهم مع دعواهم الإسلام.. ومن المغول الذين حكموا الهند[261].

= الفتن، باب ما جاء في أشراط الساعة، جـ٤، ص٤٩١، ح (٢٢٠٥)، وابن ماجه، *السنن*، كتاب أشراط الساعة، جـ٢، ص١٣٤٣، ح (٤٠٤٥).

(٢٥٩) مسلم، *الصحيح*، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، ح(١٠١٢)، البخاري، *الصحيح*، كتاب النكاح، باب يقل الرجل ويكثر النساء، جـ٦، ص١٥٨.

(٢٦٠) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٧١.

(٢٦١) راجع، ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١، ص١٧٩، والنووي، شرح *صحيح مسلم*، جـ٧، ص٩٦.

والعلامات التي ذكرناها وقعت ولا زالت مستمرة وأغلبها يدل على سوء الأحوال والفساد الذي وقع في البر والبحر كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢٦٢].

فالإعراض عن دين الله يسبب الفساد في الأرض بعد أن جعلها الله صالحة لهم، فقد أدى طمع الإنسان إلى إفساد الأرض وتلويث البر والبحر والجو حتى أصبح الوجود البشري مهدداً، وأخذت بعض الحيوانات والنباتات بالانقراض، كما أن نفايات المفاعلات النووية وتسرب اشعاعها ونفايات المعامل وأسلحة التدمير من ذرية وجرثومية وكيمياوية أثرت على بيئة الأرض ويسببها حدثت الفجوة في الغلاف (الأوزوني)، المحيط بالأرض.. هذا إلى جانب الإنحراف الفطري للنفوس وتغلب الأنانية.. كل ذلك «بما كسبت أيدي الناس» ولذلك نجد علماء البيئة والطبيعة ينذرون بكوارث تهدد مستقبل البشرية من التصحر ومخاطر المجاعة وارتفاع نسبة الغاز الكربوني، وزيادة الأمراض القلبية وانتشار الأوبئة، وارتفاع نسبة مياه المحيطات بما يهدد حياة (٩٢) مليون نسمة[٢٦٣]، وبعض هذا ما سنجده في العلامات المقبلة التي لم تظهر بعد، أو لما يرافق الآيات الكبرى.

٢١- الحصار على الدول الإسلامية

من علامات الساعة في آخر الزمان استيلاء العجم والروم على البلاد الإسلامية وحصارها -كما هو حاصل- سياسياً واقتصادياً والتحكم بمقدراتها..

عن جابر بن عبد الله قال: «يوشك أهل العراق لا يجبى إليهم قفيز ولا درهم، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قبل العجم، يمنعون ذلك، ثم قال: يوشك أهل الشام أن لا يجبى إليهم دينار ولا مدى. قلنا من أين ذلك؟ قال: من قبل الروم. ثم أسكت هنيّةً. ثم قال: قال رسول الله ﷺ:«يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعده عداً»[٢٦٤].

قال النووي: «وفي معنى منعت العراق وغيرها قولان مشهوران»:

أحدهما: لإسلامهم فتسقط عنهم الجزية وهذا قد وجد.

---

(٢٦٢) الروم ٣٠: ٤١.

(٢٦٣) راجع: جمال الطاهر، *الكوارث الطبيعية تهدد مستقبل البشرية*، مجلة المجتمع، العدد ١٢١٣، ٢٠/٨/١٩٩٦، ص٤٦-٤٧.

(٢٦٤) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، ح(٢٩١٣)، جـ٤، ص٢٢٣٤.

والثاني: وهو الأشهر معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان فيمنعون حصول ذلك للمسلمين.. قال -النووي- وقد وجد في زماننا وهو الآن موجود..[٢٦٥]. وقصد النووي -وهو من عاصر حملة التتار على العراق- أن ذلك تم ومن قبل العجم كما في الحديث.. وهذا لا يعني أنه لن يتكرر، فقد تتكرر الأشراط أكثر من مرة كما حدث في تداعي الأمم على المسلمين ولكن الآن يحدث بشكل أوسع كما هو واقع في حصار العراق الشامل وعلى الوصف الموجود في الحديث يوشك أن لا يجبى إليهم قفيز ولا درهمْ وذلك تحت أعذار شتى؟! وهناك حصار على دول إسلامية أخرى وبشكل جزئي كما هو حاصل بالنسبة للسودان وباكستان وإيران وليبيا... وفي الحديث إشارة إلى أن الحصار سيقع على الشام في المستقبل وهو المتوقع.. وربما غيرها كما في الرواية الأخرى للحديث وهو قول الرسول ﷺ: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه»[٢٦٦]، وهو راوي الحديث.

وقول الرسول ﷺ: «وعدتم من حيث بدأتم...» إشارة إلى الحديث الآخر بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ.

ويدل قول جابر بعد أن سكت هنية «يكون في آخر أمتي خليفة..» وهو إشارة إلى المهدي وعلاقة الكلام بما قبله فيه إشارة إلى أن ذلك سيقع قبيل ظهور المهدي كما هو حاصل والله أعلم.

---

(٢٦٥) النووي، شرح صحيح *مسلم*، جـ١٨، ص٣٨-٣٩.

(٢٦٦) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، ح(٢٨٩٦)، جـ٤، ص٢٢٢.

المبحث الثالث:

علامات لم تظهر بعد

١- تكليم السباع والجماد للإنس

قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكلّم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»(٢٦٧).

إن التكليم المشار إليه في الحديث خارج عن المألوف وقد أخبرنا الله تعالى أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢٦٨).

والتكليم للسباع والجماد من قبل الإنس في الحديث إما أن يكون حقيقة أو يحمل على المجاز..

«فإذا كان التكليم حقيقة ككلام الدابة التي هي من الآيات الكبرى فإنه لم يحدث بعد وسيقع خلال الآيات الكبرى انسجاماً مع نطق الشجر والحجر في قتال اليهود، وتشير الأحاديث أن الوحوش زمن المهدي تكون أليفة مع الإنسان.. والله قادر على كل شيء، أما حمله على المجاز فهو إخبار منه ﷺ بما يصل إليه البشر من علوم ومخترعات يستطيعون بها فقه لغة الحيوان، وينطقون بها الجماد، كما هو الحال في الراديو، والتلفاز..(٢٦٩)، وربما المراد كذلك أجهزة التلفون فالكلام خلالها هو ما عبر عنه عذبة سوطه -أي طرفه- وشراك نعله».

والتفسير المجازي وإن كان واقعاً لكنه لا ينفي الكلام الحقيقي الذي جاء في رواية أبي هريرة ولا يفسر قوله ويخبره فخذاه بما.. والله أعلم.

عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء ذئب إلى راعي الغنم فأخذ منها شاة فطلبه الراعي حتى

---

(٢٦٧) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص٨٣-٨٤، والترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في كلام السباع، جـ٤، ص٤٧٩، ح(٢١٨١) وقال: هذا حديث حسن غريب.. وذكر أن راويه ثقة، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث *الصحيحة* ح(١٢٢)، ج٢١، ص٢٦-٢٧.

(٢٦٨) فصلت ٤١: ٢١.

(٢٦٩) راجع الأشقر، عمر سليمان، *القيامة الصغرى*، ص١٩٧-١٩٨، والسخاوي، *القناعة*، ص٧١.

انتزعها منه، قال فصعد الذئب على تل فأقعى واستذفر، فقال: عمدت إلى رزق رزقنيه الله عز وجل انتزعته مني، فقال الرجل، تالله إن رأيت كاليوم ذئباً يتكلم، قال الذئب: أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى وبما هو كائن بعدكم، وكان الرجل يهودياً فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره فصدقه النبي ﷺ ثم قال النبي ﷺ: «إنها إمارة بين يدي الساعة قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى تحدثه نعلاه وسوطه ما أحدث أهله بعده»(٢٧٠).

٢- جفاف نهر الفرات وانحساره عن جبل من ذهب

وهو أحد أمارات الساعة التي أخبر عنها الرسول ﷺ فقال: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم، لعلي أكون أنا الذي انجو»(٢٧١).

وجاء في الصحيحين كذلك: «يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً»(٢٧٢).

ولمسلم في رواية: «يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله، قال فيقتتلون عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون»(٢٧٣).

ومعنى انحساره: انكشافه لذهاب مائه، وقد يكون بسبب تحول مجراه، فإن هذا الكنز أو هذا الجبل مطمور بالتراب وهو غير معروف، فإذا ما تحول مجرى النهر لسبب من الأسباب،

---

(٢٧٠) الإمام أحمد، جـ٢، ص٣٠٦، جـ٣، ص٨٩. والحاكم، المستدرك مفرقا، جـ٤، ص٤٥٧،٤٦٧-٤٦٨، وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢٧١) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، ح(٢٨٩٤)، جـ٤، ص٢٢١٩، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٣٠٦،٣٣٢، جـ٥، ص١٣٩-١٤٠، وأبو عمرو الداني، *السنن*، باب ما جاء في الملاحم، ح(٤٩٦)، جـ٤، ص٩٣٥.

(٢٧٢) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب خروج النار، جـ٨، ص١٠١، ومسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات، جـ٤، ص٢٢٢٠، وأبو داود، سننه، كتاب الملاحم، باب في حسر الفرات عن كنز، جـ٤، ص٤٩٣، والترمذي، سننه، كتاب صفة الجنة، جـ٤، ص٦٩٩، ح(٢٥٦٩).

(٢٧٣) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى... ح(٢٨٩٥)، جـ٤، ص٢٢٢٠.

ومر قريباً من هذا الجبل كشفه والله أعلم بالصواب[٢٧٤].

وتسميته كنزاً باعتبار حاله قبل أن ينكشف، وتسميته جبلاً للإشارة إلى كثرته[٢٧٥]، يؤيده ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً "تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً"[٢٧٦].

والملاحظ لمن يسكن حول الفرات من أراضي العراق أن جريان الفرات لم يعد كما كان في السابق، بل هو في انحسار تدريجي مستمر، وذلك لكثرة ما يبني عليه من السدود قرب المكان الذي ينبع منه في تركيا ومروراً بأراضي سوريا وقبل أن يدخل أرض العراق، وربما يزداد الأمر لأسباب أخرى[٢٧٧] حتى يتحقق جفافه وانحساره وظهور ذلك الجبل من الذهب واقتتال الناس عليه والله أعلم.

ولذلك فالعلامة بانحساره عن كنز الذهب لم تقع بعد، وقد اختلف العلماء في تحديد وقته، فقد ذكر البخاري بأنه سيقع عند الحشر[٢٧٨].

وأما الحكمة في النهي عن الأخذ منه ففيه أقوال أقربها لما ينشأ عنه من الفتنة والاقتتال عليه[٢٧٩].

وقد ذهب بعض المتأخرين في حسر الفرات إلى أن المقصود هو الذهب الأسود (البترول)[٢٨٠] ورد عليه التويجري من عدة أوجه:

- منها أنه تأويل للنص الصريح بغير دليل وإن البترول لا يسمى ذهباً لا حقيقة ولا مجازاً.
- وإن ذكر الفرات يدل على تخصيصه، وبحور البترول ليست في نهر الفرات بل في أماكن مختلفة من الأرض.

---

(٢٧٤) النووي، شرح *صحيح مسلم*، جـ١٨، ص٧٨.

(٢٧٥) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٧٩.

(٢٧٦) سبق تخريجه في استفاضة المال.

(٢٧٧) يحاول اليهود اقناع تركيا بتحويل مجرى نهر الفرات إلى إسرائيل! وهو من أحلام اسرائيل، ولا يخفى ما بين حكومة تركيا واليهود من تفاهم وتعاون.. وذلك رغبة من اليهود في السيطرة على المياه، كما يحاولون السيطرة على مياه النيل..

(٢٧٨) وضع البخاري الحديث ضمن باب «خروج النار»إشارة لذلك، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٧٨-٧٩.

(٢٧٩) وهو رأي ابن حجر، انظر: *فتح الباري*، جـ١٣، ص٧٩، والقرطبي، التذكرة، جـ٢، ص٣٧٣.

(٢٨٠) الرأي لمحمد فهيم أبو عبية محقق «النهاية في الفتن والملاحم»، جـ١، ص٢٠٨.

- كما نهى النبي ﷺ من حضر جبل الذهب الأخذ منه، فيلزم حمله على البترول النهي عنه كذلك، وهذا معلوم (البطلان)[281].

٣- ذهاب البركة وكثرة المطر وقلة النبات

قال رسول الله ﷺ: «إن أمام الدجال سنين خداعة، يكذب فيه الصادق، ويصدق فيها الكاذب..»[282].

وقد فسر خداعها بكثرة الأمطار فيها وقلة الريع، لأنها تطمعهم في الخصب بالمطر، ثم لا تنبت الأرض شيئا[283].

ويؤيد ذلك أحاديث أخرى توضح ذلك، منها قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمطر الناس مطراً عاماً ولا تنبت الأرض شيئاً»[284].

فالله تعالى قادر على أن يمنع هذا السبب في ترتب المسبب عليه.. مما يكون أمارة على الساعة كقوله ﷺ: «ليست السنة بأن لا تمطر ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا ولا تنبت الأرض شيئاً»[285].

وتفسر هذه الأحاديث بحصول الاختلاف للقوانين الطبيعية والسنن الكونية، بأن لا يتحقق من المطر ما يرجى منه من البركة والزرع.

وهناك من يفسر المطر على غير ظاهره بالمجاز والتأويل ففي قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطراً لا تكن منها بيوت المدر ولا تكن منها إلا بيوت الشعر»[286]. علق الشيخ الغماري على هذا الحديث فقال:

«فالمطر الذي لا تكن منه البيوت المبنية بالحجر والطين هو القنابل النازلة من الطائرات

---

(٢٨١) راجع التويجري، *إتحاف الجماعة*، جـ١، ص٤٨٩-٤٩٠.

(٢٨٢) أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٢٩١.

(٢٨٣) راجع: السخاوي، *القناعة*، ص٣١، واللحام، علامات الساعة، ص٥٩.

(٢٨٤) أحمد، *المسند*، جـ٣، ص١٤٠، والهيثمي في *مجمع الزوائد*، جـ٧، ص٣٣٠، وقال: رواه أحمد والبزار.. ورجال الجميع ثقات.

(٢٨٥) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن.. باب في سكنى المدينة، جـ٤، ص٢٢٢٨، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٣٤٢، ٣٥٨، ٣٦٣، والبيهقي، *السنن الكبرى*، جـ٣، ص٣٦٣، وأبو عمرو الداني، *السنن*، باب ما جاء فيما ينزل من البلاء ويحل من العقوبة، ح(٣٢٣)، جـ٣، ص٦٨٧.

(٢٨٦) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٢٦٣.

كالمطر، فإنه يهدمها على من فيها ولو لم تنزل على البيت نفسه لأن قوة انفجارها يهدم البيوت القريبة من مكان الانفجار، فلا تكن بيوت المدر أي لا تصمد ولا تستقيم، إنما تكن منها بيوت الشعر في البوادي التي يسكنها أهلها في خيام الشعر، فإن القنابل إذا لم تنزل على نفس الخيمة لا يحصل فيها ضرر، وأمر القنابل وما تقذفه الطائرات من القنابل بأنواعها والصواريخ وغيرها أمر يخرج عن ا لحصر مما تولده من دمار.. »[٢٨٧].

وإذا احتمل هذا الحديث للتأويل فالأحاديث التي سبقته لا تحتمله وهي واضحة في أن المراد كثرة المطر وقلة الزرع مما ينسجم مع بقية العلامات...

٤- عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً

قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة.... وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»[٢٨٨]، والحديث يدل على أن أرض العرب كانت كذلك وأنها ستعود كما كانت.

ويدل على أن بلاد العرب ستكثر فيها المياه حتى تكون أنهاراً.. مروجاً وطرائق وغابات، ويتحقق ذلك إما بتفجر العيون والآبار أو حفرها وما يترتب عليها من نشاط زراعي.. فهذا قد تحقق، فقد ملئت تبوك جناناً وبساتين.

وإما أن يحصل بسبب تغيير المناخ بقدرة الله فتتحول الصحراء إلى جنات وأنهار مما يناسب كونها أمارة للساعة فهذا لم يتحقق بعد.

ويدل على ذلك حديث معاذ بن جبل ﷺ وما جرى من معجزات النبي ﷺ في غزوة تبوك من تفجير ماء العين ببركة فضل غسل ماء يديه ووجهه وتبشيره لمعاذ بأنه إن طالت به حياة فسيرى ما هنالك قد مليء جناناً وأنهاراً[٢٨٩].

وقد أشار الشيخ الزنداني حفظه الله أن الزحف الجليدي يتقدم الآن باتجاه جزيرة العرب

---

(٢٨٧) الصديق الغماري، *مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية*، ص١٧، نقلاً عن الدكتور عزالدين حسين الشيخ، *أشراط الساعة الصغرى والكبرى*، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣، ص٣٦.

(٢٨٨) مسلم، *الصحيح*، كتاب الزكاة، باب كل نوع من المعروف صدقة، جـ٢، ص٦٩٧.

(٢٨٩) انظر تفاصيل القصة والتي في نهايتها قول الرسول ﷺ لمعاذ: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً» انظر: مسلم، كتاب الفضائل، باب معجزات النبي ﷺ، جـ٤، ص١٧٨٤، والإمام مالك، *الموطأ*، جـ١، ص١٤٣-١٤٤.

والذي يحمل معه الثلوج والأمطار التي تكون عادة سبباً في إنبات الزرع وكثرة الخيرات(٢٩٠). وهذا التفسير أوسع وأشمل لجزيرة العرب وليس فقط لمنطقة تبوك كما يظهر من الأحاديث والله أعلم.

٥- كثرة الروم وقتالهم للمسلمين

قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس، فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً، إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك(٢٩١)، وفي الرواية الأخرى «وأجبر الناس عند مصيبة».

إن الحديث النبوي يبين أن الروم سيكونون أكثر الناس قبيل الساعة، وقد اختلفت التفاسير حول سبب كونهم أكثر الناس في آخر الزمان مع أن العالم فيه أقوام أكثر منهم، علماً أن المقصود بالروم في الحديث النبوي هي دول العالم الغربي اليوم - وكل هذه التفاسير محتملة - وهناك حديث آخر يربط بين كونهم أكثر الناس وهلكتهم مع الساعة وبين عداوتهم وقتالهم للمسلمين، قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس عليكم الروم، وإنما هلكتهم مع الساعة»(٢٩٢).

إذن في الحديث إشارة إلى كثرة قتالهم للمسلمين الذي يجعلهم أكثر عدداً، وخصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن قتالهم المسلمين يكون بأسلحتهم الفتاكة المعاصرة بجميع أنواعها والتي تهلك أعداداً كبيرة من المسلمين بينما هم لا يفقدون بقتالهم هذا إلا القليل.

وقضية قتال الروم للمسلمين ليست جديدة، بل هي سلسلة متواصلة وواقعة ومستمرة ولكن الأمارة تتمثل في كثرتهم وتقوم عليهم الساعة..

---

(٢٩٠) عبد المجيد الزنداني، - وهو أحد علماء اليمن المعاصرين الذي يربط بكتاباته ومحاضراته بين العلم والإيمان - وانظر: د. عزالدين الشيخ، أشراط الساعة الصغرى والكبرى، ص٥١-٥٢.

(٢٩١) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس، جـ٤، ص٢٢٢٢، ح(٢٨٩٨).

(٢٩٢) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٤، ص٢٣٠.

وقد تنبأ بذلك الرسول ﷺ للعداوة المستمرة الشديدة منهم فقال: «فارس نطحة أو نطحتان، ثم لا فارس بعد هذا، والروم ذات القرون، كلما هلك قرن خلفه قرن أهل صبر، وأهله أهل لآخر الدهر، هم أصحابكم ما دام في العيش خير»[٢٩٣].

فالحديث معجزة نبوية.. الخطر الفارسي الشرقي انهار «بنطحتين» واحدة في «القادسية» والأخرى في «نهاوند» ثم لا فارس بعد.. أما الأمم التي تلي فارس في الصين والمغول فلم تكن خطراً حقيقياً، فالهجمات التي قام بها المغول كانت بسبب تفرّق المسلمين وتجزأ الخلافة، وبتحريض من الدولة المسيحية.. كما أن الحديث يشير إلى إمكانية التعايش مع الغرب رغم عنادهم بشرط «فهم أصحابكم ما دام في العيش خير» ولعل المقصود: ما دام في المجتمع التزام بمنهج الله وفي توفير أسباب المنعة فسوف يقدر الغرب ذلك فيسعون لمصاحبة أهله، أما عندما ينتكسون فسوف ينظرون إليهم نظرة استخفاف ويعاملونهم بالذي يستحقون[٢٩٤] وهذا هو الواقع... فالغرب ما تجرأ على المسلمين في كل حوادث التاريخ إلا بسبب ضعفهم وتشرذمهم وتمزقهم، ويوم يجدون فيهم المنعة من الوحدة والقوة فسوف يقدرون ذلك..

ولذلك فهذا الحديث مع الحديث الأول للمستورد القرشي قد استنتج منهما البعض أنهم سيكونون أكثر الناس عند قيام الساعة لأنهم يتصفون بصفات كثيرة إيجابية تجعلهم أهلاً لذلك! وفي الحديث دلالة وتنبيه للمسلمين إلى النظرة الشمولية للمقابل ولو كان عدواً، فلا ينظر إلى معايب الغرب وسلبياتهم فقط، وإنما النظر إلى إيجابياتهم والاعتراف بها، وليس قصد ذلك المدح، إنما البحث عن الحكم والمواعظ والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها.. ولكي يكون المسلمون على بينة مما عند الطرف المناقض من مزايا للنظر في كيفية التعامل معهم.. فهم كما يقول الحديث: أحلم الناس عند فتنة: أي معالجة الوقائع بفطنة وروية فلا تطيش عقولهم ولا تحار في مواجهة المشكلات، وأسرعهم نهوضا بعد النكسات وأوشكهم كرة بعد هزيمة، وخيرهم في توفير الضمان الاجتماعي للمحتاجين، وتمسكهم بالحرية ومنعتهم ضد

---

(٢٩٣) المتقي الهندي، *كنز العمال*، جـ٢، ص٣٠٣، ح(٣٥١٢٧).

(٢٩٤) الكيلاني، ماجد عرسان، *هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس*، ص٤٣١.

استبداد الملوك والرؤساء[٢٩٥].

فربما هذا هو سبب كونهم أكثر الناس...

وهناك رأي آخر يقول: بأن الروم سوف يتحولون إلى الإسلام في آخر الزمان لأن هذه الصفات لا تكون إلاّ لأهل الإيمان[٢٩٦] ولكن إيمانهم -إن وقع- لن يمنع أن تكون هذه الصفات موجودة فيهم سلفاً ويكون «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام».

ومع أن هذه التفسيرات محتملة ولكن نص الحديث على أن هذه الكثرة قرب الساعة، وثمة أحاديث أخرى تؤكد على أن الساعة لا تقوم إلاّ على شرار الناس، ويرجح لدي أن كون أكثرهم لهذا السبب، لأن المؤمنين سيرحمهم الله من هول القيامة يموتون بالريح الطيبة، ويبقى الأشرار الذين تقوم عليهم القيامة وأغلبهم الروم لشدة عداوتهم للإسلام والله أعلم.

وموضوع قتال الروم للمسلمين كما قلنا ليس جديداً، فهو تحد عنيد مستمر كلما هلك جيل خلفه جيل، والأمثلة لذلك في وجه الإسلام تمثلت في الأندلس وشرق أوروبا والهجمات على ديار الإسلام ابتداءً من الحروب الصليبية والقضاء على الخلافة وإلى اليوم.

ولقد مر الحديث عن ابن عوف «اعدد ستاً بين يدي الساعة.. ثم هدنة بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا»[٢٩٧] وكما مر فقد فسر البعض تلك الغدرة بما كان منهم للقضاء على الخلافة فتكون العلامة بهذا قد مرت.. أو ربما -والله أعلم- ما حصل منهم من تجمع في حرب الخليج..، إذ كان لهذا التجمع المشرك غايات وغايات.. وبذلك تكون الإمارة قد مضت، وإلا فسوف يكون لهم تجمع لم يحصل بعد يشير إليه حديث آخر يفيد حصار المسلمين وانهزامهم فقد قال رسول الله ﷺ: «يوشك المسلمون أن يحاصروا إلى المدينة حتى يكون أبعد مسالحهم سلاح»[٢٩٨]

---

(٢٩٥) راجع الكيلاني، ماجد عرسان، *هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس*، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ١٩٩٥، ص٤٣٢.

(٢٩٦) الشلبي، مصطفى أبو النصر، *صحيح أشراط الساعة*، ص١٨٠.

(٢٩٧) سبق تخريجه في علامة «موت النبي وبعثه».

(٢٩٨) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، جـ٤، ص٤٤٩. الإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٤٠٢.

وعلى هذا يفيد الحديث أن المسلمين سوف يتعرضون من قابل أيامهم إلى محن شديدة ويهزمون هزيمة منكرة وتقصر حدودهم في رقعة محدودة من الأرض والله أعلم.

٦- ظهور القحطاني والجهجاه

قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه»(٢٩٩).

قال القرطبي: «يسوق الناس بعصاه» كناية عن غلبته عليه وانقيادهم له، ولم يرد نفس العصا، لكن في ذكرها إشارة إلى خشونته عليهم وعسفه بهم، وقد قيل: أنه يسوقهم بعصا حقيقية كما تساق الإبل الماشية لشدة عنفه وعدوانه... وقال: ولعله الجهجاه المذكور في الحديث الآخر، وأصل الجهجاه: الصياح، وهي صفة تناسب ذكر العصا..(٣٠٠).

ويقصد بالحديث الآخر «لا تذهب الأيام والليالي، حتى يملك رجل يقال له الجهجاه»(٣٠١). وفي بعض الروايات «من الموالي يقال له...».

وقد رد ذلك ابن حجر لأن القحطاني من الأحرار والجهجاه من الموالي كما ورد في بعض الروايات ورجح كونه رجلاً صالحاً وأنه سيكون في آخر الزمان بعد المهدي وعلى سيرته وأنه يهلك من خرب البيت من الحبشة واستدل على ذلك بأن البخاري خرج الحديث في العلامات الأخيرة «باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان» وكذلك الإمام مسلم خرج الحديث عقب تخريب الكعبة على يد ذوي السويقتين(٣٠٢).

وعلى هذا كان إمارة من إمارات الساعة لأن وجود الظلمة المتعسفين الذين يسوقون شعوبهم بالذل والهوان كثير إلى درجة المألوف!

---

(٢٩٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان، جـ٨، ص١٠٠، وفي كتاب الأنبياء باب ذكر قحطان، والإمام مسلم، كتاب الفتن.. باب يمر الرجل بقبر الرجل.. ح(٢٩١٠)، جـ٤، ص٢٢٣٢.

(٣٠٠) ابن حجر، الفتح، جـ١٣، ص٧٧-٧٨، والقرطبي، جـ٢، ص٣٦٧-٣٦٨.

(٣٠١) الإمام مسلم، كتاب الفتن، باب لا يمر الرجل بقبر الرجل، ح(٢٩١١)، جـ٤، ص٢٢٣٢-٢٢٣٣، والإمام أحمد، جـ٢، ص٣٢٩.

(٣٠٢) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٧٨.

أما سوقه للناس بعصاه فهـو كناية عـن طاعـة النـاس لـه وخشـونته تكـون علـى أهـل المعصية[٣٠٣] يؤيد ذالك ما نقله ابن حجر عن «نعيم بن حمـاد» أنـه روى عـن عبـد اللـه بـن عمرو أنه ذكر الخلفاء ثم قال: «ورجل من قحطان» وعن ابن عباس أنه قال فيه: «ورجل من قحطان كلهم صالح»[٣٠٤].

(٣٠٣) انظر: الوابل، عبد الله يوسف، *أشراط الساعة*، ص٢١٩.

(٣٠٤) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٦، ص٥٢٥، وانظر: نعيم بن حماد، أبو عبد الله المروزي، كتاب الفتن، ط دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، ص٦٠.

الفصل الثاني
أشراط الساعة وآياتها الكبرى
المبحث الأول:
علامات تقع خلال الآيات الكبرى

١- ظهور المهدي

المهدي: هو الذي بشّر به الرسول ﷺ بأن يأتي في آخر الزمان، يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون وينقادون له، وتتبعه الممالك الإسلامية، وهو من نسب الرسول، ويخرج قبيل زمن عيسى والدجال..

قال السفاريني: «وهو المقتدَى بأقواله وأفعاله، الخاتم للأئمة، فلا إمام بعده، حيث تنقلب الأحوال على يده إلى الأفضل»[١].

ويرى بعض العلماء أن ظهور المهدي مقدمة وعلامة للآيات الكبرى وليس منها، ويرى آخرون أنه من الأشراط الأولى وظهوره أولها[٢]، ولأهمية هذه العلامة سأدرسها مفصلة:

اسمه ونسبه: المهدي صفته ولقبه، ويغلب عليه، أما اسمه فقد جاء أن اسمه اسم النبي وكذلك اسم أبيه، فيكون محمداً أو أحمد بن عبد الله، من ولد فاطمة ثم الحسن بن علي رضي الله عنه..

قال ابن كثير: «هو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني رضي الله عنه»[٣] وقال البرزنجي: «ففي أكثر الروايات أنه محمد، وفي بعضها أنه أحمد، واسم أبيه عبد الله»[٤]، فقد صح عنه ﷺ قوله: «لا تذهب الليالي والأيام حتى يملك رجل من أهلي يواطئ اسمه اسمي»[٥]. وفي رواية: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطّول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجل من أمتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي»[٦].

---

(١) العلامة السفاريني، *المسيخ الدجال وأسرار الساعة*، ص١٤.
(٢) المصدر السابق، والبرزنجي، *الإشاعة*، ص١٣٩. والشلبي، صحيح *أشراط الساعة*، ص١٨٩.
(٣) ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص٥٥.
(٤) البرزنجي، *الإشاعة*، ص١٣٩.
(٥) أبو داود، سننه، كتاب المهدي، في أول الكتاب ح(٤٢٨٢)، جـ٤، ص٤٧٢، والحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٤٤٢، والطبراني، *المعجم الكبير*، جـ١٠، ص١٦٥، ح(١٠٢١٩).
(٦) أبو داود، سننه، كتاب المهدي، جـ٤، ص٤٧٣، ح(٤٢٨٣). والإمام أحمد، جـ١، ص٩٩، وصححه =

وأما كونه من ولد فاطمة: فلقول رسول الله ﷺ: «المهدي من ولد فاطمة»[7] وفي رواية: «من عترتي من..».

وجاء في بعض الروايات أنه من ولد العباس والأول أصح..

أما ما زعمه الشيعة الإمامية من أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري فقالوا: في حديث الرسول ﷺ «واسم أبيه اسم ابني» وهم يريدون الحسن أو الحسين، وزعمهم هذا غير صحيح، لأن «محمد بن الحسن العسكري» قد مات وأخذ عمه جعفر ميراث أبيه الحسن[8]، كما زعموا أنه آخر الأئمة المعصومين، ويعرف بالحجة، وأنه المنتظر والقائم والمهدي، الذي دخل السرداب في دار أبيه، وأمه تنظر إليه، فلم يعد يخرج إليها وذلك سنة ٢٦٥هـ، وعمره يومئذ تسع سنين... وهم ينتظرون خروجه كل يوم[9]، وهذا ضرب من الهذيان ولا دليل عليه، لمعارضته ما جاء عن المهدي من أوصاف..

كما زعمت الكيسانية إحدى فرق الشيعة الضالة: أن المهدي هو محمد بن الحنفية وأنه حي مقيم بجبل رضوى..

أما صفته الواردة: فقد عرفت الأحاديث الواردة بشأنه صفته قال رسول الله ﷺ: «المهدي مني، أجلى الجبهة[10]، أقنى الأنف[11]، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، ويملك سبع سنين»[12].

ودلت الأحاديث على أن خروجه في وقت يعم فيه الظلم والجور والانهيار فيقيم الحق

=الألباني، *صحيح الجامع الصغير*، جـ٥، ص٧٧، ح(٥٨١).

(٧) أبو داود، سننه، كتاب المهدي ح(٤٢٨٤)، جـ٤، ص٤٧٤، وابن ماجة، كتاب الفتن، باب خروج المهدي، ح(٤٠٨٦)، جـ٢، ص١٣٦٨، والحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٥٥٧، وصححه الألباني، *صحيح الجامع الصغير*، جـ٦، ص٢٢ رقم(٦٦١٠)، وأبو عمرو الداني، *السنن*، ح(٥٦٥)، جـ٥، ص١٠٥٠.

(٨) البرزنجي، *الإشاعة*، ص١٤٠، والسفاريني، *المسيخ الدجال*، ص١٦.

(٩) السفاريني، *المسيخ الدجال وأسرار الساعة*، ص١٦.

(١٠) أجلى الجبهة: الأجلى: الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين والذي انحسر الشعر عن جبهته، انظر: ابن الأثير، *النهاية في غريب الحديث*، جـ١، ص٢٩٠.

(١١) أقنى الأنف: القناني الأنف: طول ورقه أرنبته مع حدب في وسطه. انظر: *النهاية*، جـ٤، ص١١٦.

(١٢) أبو داود، سننه، كتاب المهدي، جـ٤، ص٤٧٤، ح(٤٢٨٥)، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص١٧، والحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٥٥٧. وقال: صحيح على شرط مسلم، والداني، *السنن*، باب المهدي، ح(٥٥٣)، جـ٥، ص١٠٣٨.

والعدل ويمنع الظلم وتنال الأمة على يده الخير العميم من بركات السماء والأرض، ويفيض المال فيقسمه.

قال رسول الله ﷺ: «يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطى المال صحاحاً وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمانيا، يعني حججاً وجاء في رواية أخرى سبعاً أو تسعا»[١٣].

والحديث يوضح مدة حكمه بين سبع وتسع من السنين وهناك روايات أخرى بهذا المعنى وفي إحداها «خمساً أو سبعاً أو تسعاً»[١٤] على الشك ومنها قول الرسول «لتملأن الأرض جوراً وظلماً فإذا ملئت جوراً وظلماً يبعث الله رجلاً مني، اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي فيملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، فلا تمنع السماء شيئاً من قطرها، ولا الأرض شيئاً من نباتها، يمكث فيكم سبعاً أو ثمانياً، فإن أكثر فتسعاً»[١٥].

أما وقت ظهوره ومكانه فليست هناك روايات صريحة صحيحة تدل على ذلك بالتحديد، ولكن أهل العلم فهموا من بعض الروايات وإن لم تكن قطعية أن وقت ظهوره يكون قبل نزول عيسى ﷺ ومكان ظهوره من قبل المشرق، قال ابن كثير رحمه الله: «يكون ذلك في آخر الزمان ويكون ظهوره في بلاد المشرق لا من سرداب سامراء كما تزعم جهلة الروافض..». وقال: «وأظن ظهوره يكون قبل عيسى بن مريم ﷺ كما دلت على ذلك الأحاديث»[١٦].

ففي الحديث عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم... (ثم ذكر شيئا لا أحفظه)، فقال: فإذا رأيتموه، فبايعوه، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي»[١٧]، والمراد بالكنز هو كنز الكعبة كما يرى ابن كثير[١٨].

---

(١٣) الحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٥٥٧-٥٥٨ وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه الألباني في *سلسلة الأحاديث الصحيحة*، رقم (٧١١)، م٢، ص٢٧٠.

(١٤) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص٣٧..

(١٥) أبو داود، سننه، كتاب المهدي، باب(١)، جـ٤، ص٤٧٥-٤٧٦.

(١٦) ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص٤٩.

(١٧) ابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي، جـ٢، ص١٣٦٧، رقم (٤٠٨٤)، ومستدرك الحاكم، جـ٤، ص٤٦٣-٤٦٤، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(١٨) ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص٥٥.

وفي حديث الدجال الطويل: «... وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرى ليتقدم عيسى، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له: تقدم فصل فإنها لك أقيمت، فيصلي بهم إمامهم»[19].

وفي الصحيحين: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم؟! »[20].

أحاديث المهدي

بلغت الأحاديث التي ذكرت المهدي حد التواتر المعنوي، ولقد شهد لذلك العلماء الأجلاء..

قال السفاريني: «وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي، وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عد من معتقداتهم»، وقال: «وقد روي عمن ذكر من الصحابة، وغير من ذكر منهم ﷺ بروايات متعددة، وعن التابعين من بعدهم ما يفيد مجموعه العلم القطعي.. فالإيمان بخروج المهدي واجب، كما هو مقرر عند أهل العلم، ومدون في عقائد أهل السنة والجماعة...»[21]

وقال البرزنجي عن المهدي: «واعلم أن الأحاديث الواردة فيه على اختلاف رواياتها لا تكاد تنحصر» وقال أيضاً: «قد علمت أن أحاديث وجود المهدي وخروجه آخر الزمان، وأنه من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة عليها السلام بلغت حد التواتر المعنوي فلا معنى لإنكارها»[22].

وقال الشوكاني: «الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثا، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة لها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»[23].

---

(١٩) ابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، ح(٤٠٧٧)، جـ٢، ص١٣٦١، وصححه الألباني، انظر: *صحيح الجامع*، ح(٧٧٥٢).

(٢٠) البخاري، *الصحيح*، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام، جـ٤، ص١٤٣، الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً، جـ١، ص١٣٦، ح(٢٤٤).

(٢١) السفاريني، *المسيخ الدجال وأسرار الساعة*، ص٣٢،٣٣.

(٢٢) البرزنجي، *الاشاعة*، ص١٧٣.

(٢٣) راجع:القنوجي صديق حسن، *الاذاعة لما كان ويكون في أشراط الساعة*، نقل فيه كلام الشوكاني في رسالته: «التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح»، ص١١٣-١١٤.

ومثل ذلك أقوال كثيرة للعلماء المشهورين[٢٤].

وقد وردت أحاديث في الصحيحين فيها إشارة للمهدي ولم تصرح به مثل: قول رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[٢٥].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة قال: فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»[٢٦].

وعن جابر كذلك: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعده عدد» قال الجريري -أحد رواة الحديث-: «قلت لأبي نضرة وأبي العلاء: أتريان أنه عمر بن عبد العزيز؟ فقالا: لا»[٢٧].

فهذه الروايات تشير إلى إمام المسلمين الذي يصلي عيسى خلفه دون أن تصرح باسمه فهذا الإمام يفسر بروايات جاءت من السنن باسمه الصريح أنه المهدي، ومثلها كذلك الروايات التي تشير إلى خليفة يكثر الخير في زمانه حتى أنه يحثو المال حثواً..

وقد جاء في الصحيحين كذلك ذكر العائذ بالبيت دون التصريح باسمه، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم، فقالت: يا رسول الله فكيف بمن كان كارهاً؟: قال: يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»[٢٨].

ذكر العلماء له: ذكرت كتب السنن الأربعة المشهورة وغيرها والمسانيد والمصنفات أحاديث المهدي. واعتماداً على ما جاء فيها بشأن المهدي وما رمز إليه في الصحيحين صنف

---

(٢٤) راجع أقوال أخرى في المصدرين السابقين، وراجع: الوابل يوسف بن عبد الله، *أشراط الساعة*، ص٢٥٩-٢٦٢.

(٢٥) سبق تخريجه في الصفحة السابقة هامش ٢٠.

(٢٦) مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى مريم حاكماً بشريعة محمد ﷺ، جـ١، ص١٣٧، ح(٤٤٧)، والإمام أحمد، جـ٣، ص٣٤٥، ٣٨٤، والداني، *السنن*، باب ما جاء في نزول عيسى، ح(٦٨٦)، جـ٦، ص١٢٣٧.

(٢٧) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب يمر الرجل بقبر الرجل، ح (٢٩١٣)، جـ٤، ص٢٢٣٤، والبغوي، شرح *السنة*، باب المهدي، جـ٥، ص٨٦ـ٨٧.

(٢٨) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، ح(٢٨٨٢)، جـ٤، ص٢٢٠٨-٢٢٠٩، الترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب (١٠)، جـ٤، ص٤٦٩، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٦، ص٢٩٠، والحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٤٢٩، والداني، *السنن*، باب ما جاء في الجيش الذي يخسف به، جـ٥، ص١٠٨٢.

العلماء قديماً كتباً ورسائل مستقلة في المهدي فضلاً عن الكتب التي أدرجت له فصولاً ضمن مؤلفات أشراط الساعة كابن كثير في «النهاية في الفتن والملاحم» الذي أفرد له جزءً على حدة، وكذلك القرطبي ضمن كتاب «التذكرة»، أما المؤلفات المستقلة مثل: «العرف الوردي في أخبار المهدي» للسيوطي ضمن «الحاوي للفتاوي» كما كتب ابن حجر المكي: «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر»، وكذلك ملا علي القاري والشوكاني وغيرهم.. وهناك مؤلفات لمعاصرين في شأن المهدي التي ألفت رداً على بث الشكوك أو الإنكار لظهور المهدي كما سيأتي.

أما عن عقائد الفرق الإسلامية في المهدي: فعقيدة أهل السنة والجماعة موافقة لما ذكرنا من الأحاديث، وهو ظهور إمام في آخر الزمان من أهل البيت مؤيد للدين ومجدد له، وعلى أثره يخرج الدجال..

أما عقيدة الشيعة الإمامية، فهو الإمام الثاني عشر «محمد بن الحسن العسكري» من ولد الحسن بن علي الذي دخل سرداب سامراء وهو صغير وهم ينتظرون عودته... ومهدي الكيسانية هو محمد بن الحنفية، ومهدي المغاربة «محمد بن تومرت» ومهدي القرامطة «عبد الله بن ميمون القداح» كما ادعى المهدية كثير قديماً وحديثاً...

أما مهدي اليهود: فهو الدجال يتبعه سبعون ألفاً منهم كما قال النبي ﷺ: «يتبع الدجال من يهود إصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة».

أما مهدي النصارى فهو عيسى بن مريم عليه السلام[٢٩].

الشبهات حول ظهور المهدي

ظهر التشكيك أو التردد في عقيدة المهدي في العصور المتأخرة وبالتحديد في القرن الثامن الهجري، وأما قبل ذلك فلم يظهر في عصر التابعين ومن بعدهم حتى عصر شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد حصل أن البعض نزّلها على عمر بن عبد العزيز لما رأى فيه الأوصاف المذكورة للمهدي، كما نزلها بعضهم على عيسى بن مريم عليه السلام لأجل حديث «لا مهدي إلا عيسى بن مريم»، وهذا من الاجتهادات الخاطئة في تعيين المهدي مع الإيمان بخروجه. علماً أنه صرح بعض التابعين بخلافها عندما سئلوا عنه..[٣٠].

---

(٢٩) راجع: البرزنجي، *الإشاعة*، ص١٨٥-١٨٨، وآل المبارك ماهر بن صالح، *الرسالة في الفتن والملاحم*، ص٩٤-٩٦.

(٣٠) راجع: محمود عطية محمد علي، *فقد جاء أشراطها*، ص٣٠٢-٣٠٨.

ثم جاء ابن خلدون (٧٢٣-٨٠٨هـ) وتردد في قبول الأحاديث الـواردة في المهـدي ومـع ذلك فإن كلامه لا يدل على رفض فكرة المهدي حيث قال بعد أن نقـد الأحـاديث وصحـح بعضها: «وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقـد إلا القليـل أو الأقـل منـه» ثـم في القـرن الثالث عشر الهجري جاء البيروتي، محمد بن درويش وشكك في الأحاديث...

أما الإنكار والرفض الصريح فهو ما حدث في هذا العصر من الكتاب المعـاصرين أمثـال محمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي وأحمد أمـين ومحمـد الغزالـي... وكـان أشـدهم حماساً وأكثرهم جرأة هو «عبد الله بن زيد آل محمود» فصرح بأن «أحـاديث المهـدي كلهـا حديـث خرافة وهي بمثابة ألف ليلة وليلة»[٣١]، وقد سخر من العلماء ووصمهم بالغفلة والتقليد بـل وبالغ في ذلك إلى أن قال بأنه لـو ظهـر بصفاتـه سيكون أول مـن يقاتلـه لأنـه يشـق عصـا المسلمين! وهو في ذلك يتبع محمد رشيد رضا حيث قال: «وجملة القـول إننـا لا نعتقـد بهـذا المنتظر، ونقول بضرر الاعتقاد به ولو ظهر، -ونحن له منكرون- لما ضره ذلك إذا كان مؤيـداً بالخوارق كما يقولون»[٣٢].

وقد تصدى المسلمون لهذه الأقاويل وغيرها وقد أعدّ الشيخ عبد العليم عبد العظيم البسـتوى قائمة مفصلة بأسماء من خالف أحـاديث المهـدي سـواء بالتشـكيك والرفـض حسـب التسلسـل الزمني في رسالته «الأحاديث الـواردة في المهـدي في مـيزان الجـرح والتعديـل»، ذكـر فيهـا أقـوال العلماء في سند كل حديث، وجملة ما ذكره من الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة وغـيرهم سـت وثلاثون وثلاثمائة رواية منها اثنان وثلاثون حديثـاً وأحـد عشـر أثـراً مـا بـين صحيـح وحسـن، الصريح منها في ذكر المهدي تسعة أحاديث وستة آثار، والباقي فيها أوصاف وقرائن تدل على أنها في المهدي[٣٣].

---

(٣١) انظر أقوال هؤلاء في المرجع السابق والرد عليهـا. وراجـع: د. عبـد المنعـم النمـر، *الشيعة المهدي، الدروز، تاريخ ووثائق*، ط. دار الحرية، القاهرة، (د.ت)، وكان من أنصار الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود والمتحمسين له، وتحت عنوان: ما الذي جاء بعقيدة المهدي قال: بأنها عدوى سرت للمسلمين من اليهود والشيعة وغيرهم، ونقل آراء الشيخ المذكور في أحاديث المهدي بعنوان: «التحقيـق المعتبر في أحاديث المهدي المنتظر» انظر: ص١٩٢-٢٠٤.

(٣٢) فتاوى محمد رشـيد رضـا، جـ١، ص١٠٨، نقـلاً عـن المبـاركفوري، محقـق *السـنن الـواردة*، جـ٥، ص١٠٦٨.

(٣٣) وهي رسالة ماجستير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة، عام ١٣٩٧/١٣٩٨هـ. انظر: ص٢٠-٢٩.

وقام بالرد على عبد الله بن زيد آل محمود الشيخ حمود بن عبد الله التويجري[٣٤] والشيخ عبد المحسن العباد[٣٥] وفند جميع الشبهات التي بنى عليها كتابه، كما فعل ذلك قديماً وحديثاً علماء الأمة بالرد على من يتظاهر بالرفض لأحاديث المهدي في مؤلفات مستقلة..

فأما من قال أنه عمر بن عبد العزيز فيرد عليه بالأحاديث الصحيحة ونفي الرواة التابعين لذلك كما ورد في حديث جابر الصحيح السابق ذكره، «أتريان أنه عمر بن عبد العزيز؟ فقالا: لا»[٣٦].

وأما من قال أنه عيسى عليه السلام احتجاجاً بحديث: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدباراً ولا الناس إلا شحاً، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، ولا المهدي إلا عيسى ابن مريم»[٣٧].

فقد أجاب العلماء على ذلك بأن الحديث ضعيف قال الذهبي: «... وهو خبر منكر أخرجه ابن ماجة»[٣٨].

كما ضعفه ابن تيمية رحمه الله وقال: «هذا الحديث ضعيف وقد اعتمد أبو محمد بن الوليد البغدادي وغيره عليه، وليس مما يعتمد عليه...»[٣٩].

وحاول ابن كثير التوفيق بين هذا الحديث وغيره وقال أن المراد: «أن المهدي حق المهدي هو عيسى بن مريم ولا ينفي ذلك أن يكون غيره مهدياً أيضاً والله أعلم»[٤٠].

كما حاول القرطبي الجمع فقال: «يحتمل أن: لا مهدي كاملاً معصوماً إلا عيسى، وعلى هذا تجتمع الأحاديث ويرتفع التعارض»[٤١].

وعلى كل حال وعلى فرض ثبوته فإنه لا يقاوم الأحاديث الكثيرة الدالة على مهدي آخر الزمان..

كما رد العلماء على ابن خلدون الذي ضعف أحاديث المهدي لأنه ليس من أهل الجرح

---

(٣٤) في كتاب الاحتجاج بالأثر.

(٣٥) له كتاب: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر.

(٣٦) سبق تخريجه.

(٣٧) ابن ماجة، *سننه*، كتاب الفتن، باب شدة الزمان، جـ٢، ص١٣٤٠، ح(٤٠٣٩)، والحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٢٢٠-٢٢١، وأبو عمرو الداني، *السنن*، جـ٣، ص٥٢٢، ح(٥٨٩،٢١٧) وحكم عليه أكثر الأئمة بأنه منكر. راجع أقوالهم في تحقيق السنن الواردة للمباركفوري، جـ٣، ص٥٢٢-٢٢٣.

(٣٨) راجع مثلاً: الذهبي، *ميزان الاعتدال*، جـ٢، ص٣٨٠.

(٣٩) ابن تيمية، *منهاج السنة النبوية*، جـ٤، ص٢١١.

(٤٠) ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص٥٨.

(٤١) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٤٨.

والتعديل، وليس ممن له باع طويل في علم الحديث بل هو إخباري[٤٢].

أما شبهات المعاصرين أمثال محمد رشيد رضا فمن حججهم التعارض بين أحاديث المهدي وصعوبة الجمع بينها وأنها لم ترد في الصحيحين..حيث يقول: «أما التعارض في أحاديث المهدي فهو أقوى وأظهر، والجمع بين الروايات أعسر، والمنكرون لها أكثر، والشبهة فيها أظهر، ولذلك لم يعتد الشيخان بشيء من رواياتها في صحيحيهما، وقد كانت أكبر مثارات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية»[٤٣].

ثم ذكر نماذج من تعارض الاسم ودخول الروايات الإسرائيلية فيها.. وقد أجاب العلماء الذين ذكرتهم عن كل تلك الشبهات بأن اسمه الصحيح وارد في الروايات الصحيحة وقد بين أئمة الحديث الصحيح من غيره من الاسرائيليات وموضوعات الشيعة، أما كون أن الشيخين البخاري ومسلم لم يعتدا بأحاديث المهدي فإن من المعروف أن الصحيحين لم يشتملا على كل الصحيح أو أن السنة كلها لم تدون في الصحيحين فقط بل ورد في غيرهما من الصحاح في السنن والمسانيد والمعاجم. وقد صح عنها التصريح بذلك فقد نقل ابن حجر عن البخاري أنه قال: «لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر»، وقال مسلم: «ليس كل شيء عندي صحيح وضعته ها هنا، وإنما وضعت هاهنا ما أجمعوا عليه»[٤٤].

أما وصف الأحاديث بالضعف فيدل على عدم اختصاصهم واشتغالهم بالحديث لا رواية ولا دراية، ومنهم من له مواقف خاصة مخالفة لأحاديث البخاري ومسلم! أما حجتهم بأنها مثار فتنة بدليل من ادعى المهدية قديماً وحديثا، فقد رد ذلك الأشقر فقال: «إلاّ أن هذا خطأ هؤلاء، والخطأ يقوّم، ولا يدفعنا هذا الخطأ إلى إنكار ما صحت به النصوص، فالحق حق، والباطل باطل، ولا ندفع الباطل بإنكار الحق.. »[٤٥].

وعلى هذا يفترض الاعتقاد بصحة ظهور المهدي في آخر الزمان دون الإفراط والتفريط بذلك

---

(٤٢) يمكن الرجوع إلى كتاب حمود التويجري في الرد عليه، كما رد الشيخ أحمد شاكر على ابن خلدون في تعليقه على *مسند الإمام أحمد*، جـ٥، ص١٩٧-١٩٨، وراجع الوابل، *أشراط الساعة*، ص٢٦٧.

(٤٣) محمد رشيد رضا، *تفسير المنار*، جـ٩، ص٤٩٩.

(٤٤) راجع: كلام المحقق لكتاب أبي عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، حيث نقل كلام الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد في كتابه *عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر*، ص١٦٨-١٧١، والتويجري، *الاحتجاج بالأثر*، ص٢٨-٢٩، ورسالة عبد العظيم البستوي، ص١٠٠-١١١ في ردهم على الشبهات، جـ٥، ص١٠٦٧-١٠٧٠.

(٤٥) راجع: الأشقر، عمر سليمان، *القيامة الصغرى*، ص١٢٩.

فالإيمان به لا يلزم التواكل عليه وترك الاستعداد والعمل لإقامة حكم الله، وإذا كانت فكرة المهدية قد استغلت استغلالاً سيئاً[٤٦] في فترات من التاريخ بادعاء البعض لها فلا ينبغي انكارها لذلك لأن انكارها يؤدي إلى إنكار غيرها من الآيات الثابتة بالنصوص الصحيحة.

كيفية ظهور المهدي

إن الأحاديث التي جاءت بشأن المهدي لم تفصل ذلك بوضوح شأنها شأن بقية العلامات، وهذه من الحكم الإلهية لكي يبقى جانب منها غيباً وإلا لما صح كونها من الغيب.

وقد ذكرت الأحاديث اسمه ونسبه وكنيته، ويستفاد منها أنه رجل صالح، فعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة»[٤٧]، وقد ذُكر في معناه احتمالات: أحدها: أن يكون المراد أن الله تعالى يصلحه للخلافة ويهيؤه لها.. والثاني: أن يكون متلبساً ببعض النقائص فيصلحه الله ويتوب عليه ويلهمه رشده[٤٨]. والأول أظهر لأن اجتماع الناس عليه يقتضي معرفتهم بصلاحه والله أعلم..

كما تفيد الروايات أنه من المشرق يخرج من المدينة إلى مكة عائذاً بالبيت وأنه من قريش فيبايعه الناس بالحرم عند الكعبة بين الركن والمقام كما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج خليفة من بني هاشم فيأتي مكة فيستخرجه الناس من بيته بين الركن والمقام، فيجهز إليه جزء من الشام أخواله من كلب، فيجهز إليه جيش فيهزمهم الله فتكون الدائرة عليهم، فذلك يوم كلب، الخائب من خاب من غنيمة كلب، فيستفتح الكنوز ويقسم الأموال، ويلقي الإسلام

---

(٤٦) راجع: حسن أحمد إبراهيم، وابراهيم محمد زين، ١٩٩٦، تطور فكرة المهدية في الصناعة الحديثية: دراسة في العلاقة بين التجديد والتقديس، مجلة إسلامية المعرفة، العدد الرابع، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.. ذكر الباحثان قضية تطور المهدية في التاريخ، وبعد عرض جميع وجهات النظر، يفهم من مجمل أقوالهم أن المهدية فكرة للتجديد..ص١٧-٥٨.

(٤٧) الإمام أحمد، *المسند*، جـ١، ص٨٤، وابن ماجة في سننه كتاب الفتن، باب خروج المهدي، جـ٢، ص١٣٦٧، ح(٤٠٨٥)، وأبو عمرو الداني، *السنن*، باب ما جاء في المهدي، ح(٥٧٩)، جـ٥، ص١٠٥٩، وقال الذهبي في *ميزان الاعتدال* عن ابن معين «ليس به بأس» وصححه الألباني، *صحيح الجامع الصغير*، جـ٦، ص٢٢، رقم(٦٦١١).

(٤٨) راجع: المباركفوري ضياء الله، محقق السنن الواردة في تعليقه على الحديث، جـ٦، ص١٠٦٠.

بجرانه[٤٩] إلى الأرض فيعيشون بذلك سبع سنين أو قال تسع».

وفي رواية أخرى: «.. فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام فيبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب العراق فيبايعونه ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث...»[٥٠].

يتضح من الروايتين أنه بعد مبايعته يبعث إليه جيش من الشام للوقيعة به فيخسف الله بذلك الجيش بالبيداء، بعدها يبايع من قبل الابدال الصالحين من العراق والشام، وفي روايات أخرى تأتيه الرايات السود من قبل المشرق[٥١]، عن ابن مسعود ﷺ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال:يجيء قوم من ها هنا -وأشار بيده نحو المشرق- أصحاب رايات سود يسألون الحق فلا يعطونه -مرتين أو ثلاثا- فيقاتلون فينصرون، فيعطون ما سألوا، فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي، فيملأها عدلاً كما ملؤوها ظلماً فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم، ولو حبواً على الثلج»[٥٢].

بعد ذلك تنتقل الأحداث بالمهدي إلى أرض الشام ليكمل مسيرته الجهادية ضد اليهود والروم والتي تتداخل مع ظهور الدجال ونزول عيسى والملحمة الكبرى مما سنتناوله لاحقاً.

وقد دلت الأحاديث علىأن ظهور المهدي يتبعه الآيات العظام لقيام الساعة.

عن عبد الله بن حوالة قال: بعثنا رسول الله ﷺ لنغنم على أقدامنا، فرجعنا فلم نغنم شيئاً، وعرف الجهد في وجوهنا فقام فينا فقال: «.. يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه إلى رأسك»[٥٣].

وقد ذكر البرزنجي أن قصة المهدي اشتملت على عدة أشراط منها: حسر الفرات عن

---

(٤٩) الجران: باطن عنق الجمل، والمعنى أن الإسلام قد قرّ قراره واستقام وطبقت أحكامه.

(٥٠) أبو داود، *السنن*، كتاب المهدي، ح(٤٢٨٦)، وما بعده، والطبراني، في *الأوسط*، كما ذكر الهيثمي في *مجمع الزوائد*، جـ٧، ص٣١٨، وقال رجاله رجال الصحيح.

(٥١) فسرت المشرق بالروايات الأخرى «خراسان» وقيل هي أفغانستان.

(٥٢) ابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي، جـ٢، ص١٣٦٦، ح(٤٠٨٢)، والحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٤٦٤، وأبو عمرو الداني، *السنن*، باب في المهدي ح(٥٤٧)، جـ٥، ص١٠٣١-١٠٣٢.

(٥٣) أحمد، *مسنده*، جـ٥، ص٢٨٨، وأبو داود، سننه، كتاب الجهاد، باب في الرجل يغزو يلتمس الأجر = = والغنيمة، جـ٧، ص٢٠٩-٢١٠، مع عون المعبود، وصححه الحاكم، *المستدرك*، ٥/ ٤٤٥.

جبل من ذهب، وطلوع الرايات السود من قبل خراسان، وقذف الأرض أفلاذ كبدها والخسف، وخسف البيداء[٥٤].

ولكن الأحداث الهامة بين يدي المهدي هي ظهور زلازل تعم الأرض، وخسف ومسخ، وخروج السفياني..

أ - كثرة الزلزال والخسف والمسخ والقذف

قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تكثر الزلزال»[٥٥] وفي آخر:»... وبين يدي الساعة موتان شديد وبعده سنوات الزلزال»[٥٦].

وقد ذكرنا من قبل حديث ابن حوالة والذي يفيد كثرة الزلزال وحوادث الزلازل تقع ولكن المراد هو ما يكون قرب الساعة بكثرته وشموله بحيث يعم الأرض كلها.

ويقع معه خسف، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يكون آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف» قالت: قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث»[٥٧].

والأدلة على ذلك كثيرة لا مجال لذكرها وقد ورد منها ما يدل على أنها عقوبة عند انتشار المعاصي على الأرض منها: «في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف» فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: «إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور» وفي رواية «ويجعل منهم القردة والخنازير».

ويحتمل أن يكون المسخ حقيقياً ومعنوياً: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[٥٨] وللعلماء فيها آراء، والمسخ المعنوي موجود لأهل المعاصي فقد مسخت قلوبهم فصارت لا تفرق بين الحلال والحرام.

ونعود لقضية الزلازل والخسف فقد يرى البعض أنها تكون مجتمعة في آخر الزمان زلزال

---

(٥٤) البرزنجي، *الإشاعة*، ص١٧٥-١٧٨.

(٥٥) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب الفتن، باب (٢٥) مع *فتح الباري*، جـ١٣، ص٨١-٨٢.

(٥٦) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٤، ص١٠٤، وقال الهيثمي «رواه أحمد والطبراني والبزار وأبو يعلى ورجاله ثقات» *مجمع الزوائد*، جـ٧، ص٣٠٦.

(٥٧) الترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخسف، جـ٦، ص٤١٨، قال الألباني: صحيح، انظر *صحيح الجامع الصغير*، جـ٦، ص٣٥٨، ح(٨٠١٢).

(١٥٨) البقرة ٢: ٦٥.

شديد لجميع الأرض يعقبه خسف لأماكن في الأرض وهو.. الآية الأولى العظمى من آيات الساعة لثلاثة أماكن على الكرة الأرضية، واستدل صاحب الرأي بأوائل سورة الحج مما سنذكره لاحقاً.. وجزم أنه يكون ذلك قبل ظهور المهدي لأن هذه الزلزلة والخسف تعقبها تغيرات طبيعية على الأرض تضعف من قوة العدو اليهودي مما يشجع على ظهور السفياني، ومن ثم ظهور المهدي المنتظر[٥٩].

ب - خروج السفياني

ذكرت الروايات الصحيحة أن هناك جيشاً يلاحق المهدي ويخسف به بالبيداء منها ما ذكرته حفصة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سيعوذ بهذا البيت -يعني الكعبة- قوم ليس لهم منعة ولا عدد ولا عدة يبعث إليهم جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم»[٦٠].

ولم تبين هذه الرواية الصحيحة من هو هذا الجيش! وقد جاءت روايات كثيرة تذكر السفياني وبعثه للجيش إلى مكة ولكنها كلها فيها مقال أما لضعف الرواية أو لأنها من الاسرائيليات، وقد اشتهر أمر السفياني عند مؤلفي الفتن والملاحم لا سيما نعيم بن حماد فقد خصص له أكثر من عشرة أبواب في شأن هذا الرجل كما ذكره القرطبي والبرزنجي، وتذكر بعض هذه الروايات أن السفياني يتفق معه ويبايع المهدي، ثم ينكث فيؤتى به أسيراً إلى المهدي ويذبحه! وعلى كل حال أن كثرة هذه الروايات على علاتها تظهر أن لقصة السفياني أصلاً ولكن تحرّج أئمة الحديث من الروايات الاسرائيلية -عن كعب الأحبار- جعلتهم لا يذكرون الحديث[٦١].

ولقصة السفياني أصل في الكتب المقدسة لأهل الكتاب ويسمى السفياني في كتبهم **«بالبابلي»** و **«الصخري»** و**«الاشوري»** وهي مطابقة لما ورد عندنا من روايات وهناك دراسات حول التوفيق بينها أفادت أن السفياني ظالم يسلطه الله لينتقم به من اليهود وهو الذي يحرق نصف اسرائيل! ولكن لجبروته يبعث جيشاً ليقاتل المهدي والله أعلم[٦٢] وقد يحتج من يعتمد على مثل هذه

---

(٥٩) راجع: بشير محمد عبد الله، *زلزال الأرض العظيم*، ص١٢٨-١٢٩.

(٦٠) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الخسف بالجيش الذي يؤم البيت ح(٢٨٨٣)، جـ٤، ص٢٢٠٩-٢٢١٠، والنسائي، *السنن*، كتاب الحج، باب حرمة المحرم، جـ٥، ص٢٠٧.

(٦١) انظر: المباركفوري، محقق *السنن الواردة* في تعليقه، جـ٥، ص١٠٢٣-١٠٢٤، نعيم بن حماد، الفتن، ص١٥٨-٢٠٤.

(٦٢) ألف «سعيد أيوب كتاب «المسيح الدجال» قراءة سياسية في أصول الديانات الكبرى أراد به الرد =

الروايات بأن الرسول ﷺ لم يحرم الأخذ عن أهل الكتاب بل قال: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، أما قضية المقارنة مع كتبهم المقدسة علماً أن التحريف نالها فذلك -كما يقال- أن التحريف ربما لم ينل هذه الأشراط لأنه لا مصلحة لهم في تحريفها كما أنهم يفسرون النصوص لصالحهم والله أعلم، وقصد هؤلاء هو الاستفادة من الدراسات المستقبلية في هذا المجال ومعرفة ما يخطط العدو علماً أن كثيراً من زعماء أوروبا يتابعون هذه العلامات ويدرسونها ويعدون العدة للملحمة الكبرى والتي يسمونها «الهرمجدون».

٢- الملحمة الكبرى وفتح القسطنطينية

تطلق كلمة الملحمة على قتال المسلمين مع غيرهم، والملحمة الكبرى سلسلة من المعارك تدور ضد أهل الكفر.. والصراع يدور حول الأرض المقدسة فلسطين وبيت المقدس أو بلاد الشام بالمعنى العام..

وكتب الملاحم وأشراط الساعة لا تربط بين الأحاديث الواردة في الملحمة مع اليهود.. وإذا كانت المصادر القديمة ألفت في وقت كانت الديار المقدسة بيد المسلمين، فينبغي أن يكون ذلك الربط في الكتب الحديثة، في وقت وصل فيه اليهود للافسادة الثانية ليتحقق وعد الله فيهم ﴿وإن عدتم عدنا﴾.. فاليهود هم لب القضية وجوهر الصراع.. في وقت علا طغيانهم وتجبروا، وهم يسيرون بخطى حثيثة لاظهار دجالهم الكبير.

والذي يتدبر القرآن يجد أن وعد الله قريب بعد أن تحقق شرطه كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾[٦٣]، وقد ذكر القرآن أن اليهود يفسدون في الأرض مرتين ولما جاء الوعد الأول -كما سيأتي- بعث الله إليهم عباداً أولي بأس فدمروهم.. وتوعدهم الله بأنه إذا حصلت منهم الافسادة الثانية يجيء بهم لفيفاً كما هو حاصل الآن في الهجرات المتواصلة من أقطار الأرض إلى فلسطين وخصوصاً من روسيا، ومعنى الآية: أي إن إعادتهم إلى الأرض المقدسة وجمعهم من الشتات لا يكون إلا في وعد الآخرة، وبعد مجيء اليهود

= على دعاوى أعداء الإسلام بالصاق تهمة الدجال بنبينا الكريم حاشاه فتتبع الأحاديث التي تتفق مع كتب اليهود والمسيح مفسراً لها. والكتاب ط. دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٩، ومثل ذلك كتاب محمد بشير، زلزال الأرض العظيم.

(٦٣) الاسراء ١٧: ١٠٤.

وتحقيق الشرط يعقبه تحقق المشروط وهو الوعد.. وهو الدمار لهم والنصر للمؤمنين. لكن الأحاديث تشير إلى أنّ من يقاتلهم المسلمون هم «الروم» أو «بنو الأصفر»(٦٤) مع أن اليهود هم محور الصراع ومن ورائهم الدجال الكبير.

وذلك لأنهم سيأتون لنصرة اليهود، والأهم من ذلك أن الروم يحركهم اليهود ودجالهم، ولكن من عادات اليهود أن يستخفوا في الأحداث والوقائع التي لا يضمنون نتائجها وراء غيرهم.. وهم «الروم» عبيد الدجال. أما كيف تسير أمور وأحداث الملحمة فليست هناك روايات تفصيلية صحيحة ولكن من مجموع أحاديث المهدي والدجال وعيسى، يظهر أن بداية تلك الملاحم تكون بعد مبايعة المهدي وانتقاله إلى الأرض المقدسة عندها تتتابع الآيات كما جاء في حديث ابن حوالة وقول الرسول ﷺ له: «يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام.. »(٦٥) الحديث.

كما يشير حديث آخر إلى أن المهدي يعقد هدنة مع الروم تمتد سبع سنين وبعدها يغدرون كما قال ﷺ لعوف بن مالك: «ست بين يدي الساعة أولهن موت نبيكم، قل: إحدى، قال: قلت إحدى ووجمت لها وجمة شديدة(٦٦)، قال: والثانية فتح بيت المقدس، قل: اثنتين، قلت: اثنتين، قال: والثالثة يفيض فيكم المال حتى يعطى الرجل منكم مائة دينار فيظل متسخطاً، قال: قل ثلاثاً، قلت ثلاثا، قال والرابعة موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، قل: أربعاً، قلت أربعاً، قال والخامسة فتنة فلا يبقى فيكم بيت وبر ولا مدر إلا دخلته، قال: قل خمساً، قلت خمساً، قال السادسة هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيجمعون لكم حمل إمرأة ثم يغدرون بكم فيلقونكم في ثمانين راية -أو قال: ثمانين غاية- تحت كل راية اثنا عشر ألفاً»(٦٧).

وقد ذكر البرزنجي وغيره الحديث ضمن قصة المهدي، مما يشير إلى أن الهدنة تكون بين المهدي والروم بعدها يغدرون ويجمعون جيوشهم تحت ثمانين راية ويأتون بها إلى منطقة الصراع، أما سبب ذلك فيبينه حديث آخر ملخصه أن الروم والمسلمين يغزون عدواً لهم

---

(٦٤) ذكر القرطبي في *التذكرة* سببين لهذه التسمية «بني الأصفر»، جـ٢، ص٣١٥، ولعل الأوجه أن المعنى المقصود غلبة اللون الأصفر على شعر رؤوسهم والله أعلم.

(٦٥) سبق تخريجه.

(٦٦) هو من الوجوم الحزن الشديد، من الامساك عن الكلام، انظر ابن منظور، *لسان العرب*، ١٢/ ٦٣٠.

(٦٧) الطبراني، *المعجم الكبير*، جـ١٨، ص٥٤، رقم (٩٨)، الإمام أحمد، جـ٦، ص٢٤، وسبق تخريج الحديث من طريق آخر.

فينتصرون، ويشير البرزنجي إلى أنهم أهل فارس[٦٨]، فيقول رجل من النصارى غلب الصليب فيقوم رجل من المسلمين فيدق الصليب فتغدر الروم بعدها وتجمع قواها للملحمة، فعن أحد الصحابة -ذي مخمر- سمعت النبي ﷺ يقول: «ستصالحون الروم صلحاً آمناً ثم تغزون أنتم وهم عدواً فتنصرون وتغنمون وتقتسمون وتسلمون ثم تنصرفون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول[٦٩] فيرفع رجل من أهل الصليب صليبه فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيقوم إليه فيدفعه، فعند ذلك تغدر الروم ويجمعون الملحمة فيأتون تحت ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألفا» وزاد أبو داود: «ويثور المسلمون إلى أسلحتهم فيقتتلون فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة»[٧٠].

وتشير أحاديث أخرى إلى مكان الملحمة والمواقع العسكرية لها ففي حديث ابن عوف السابق جاء في أحد طرقه زيادة «.. تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً، فسطاط المسلمين يومئذ بأرض يقال لها: الغوطة في مدينة يقال لها: دمشق»[٧١] وفي رواية: «إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها «دمشق» من خير مدن الشام»[٧٢].

وفي حديث آخر أكثر تفصيلاً: «ثلاثة من معاقل المسلمين، فمعقلهم من الملاحم دمشق، ومعقلهم من الدجال بيت المقدس، ومعقلهم من يأجوج ومأجوج، وطور سينين»[٧٣].

معنى ذلك أن حصار أهل الشام المرتقب سيكون أيام الملحمة حيث تتجلى فيه المعجزة النبوية حين ذكر الحديث «يوشك أهل العراق أن لا يجبى إليه ويوشك أهل الشام أن لا يجبي

---

(٦٨) راجع: البرزنجي، *الاشاعة*، ص١٥٩. ولعل قتال فارس لأنهم لا يعترفون بهذا المهدي الذي جاء على خلاف ما يعتقدون.

(٦٩) مرج ذي تلول: هي لبنان وعند البرزنجي فينزلون -الأعداء- بالأعماق أو بدابق وهما موضعان بين حلب وأنطاكية. انظر: البرزنجي، ص١٦٠.

(٧٠) ابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب الملاحم، ح(٤٠٨٩)، جـ٢، ص١٣٦٩.

أبو داود، سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر من ملاحم الروم، ح(٤٢٩٣)، جـ٤، ص٤٨١. والإمام أحمد، جـ٤، ص٩١، جـ٥، ص٣٧٢، ٤٠٩.

(٧١) أصل الحديث في البخاري وابن ماجة، وقد سبق ذكره، أما هذه الزيادة فهي في أبو داود، سننه، جـ٤، ص٤٨٤ ح(٤٢٩٨) والإمام أحمد، جـ٥، ص١٩٧، والحاكم في *المستدرك*، جـ٢، ص٤٨٦، وصححه.

(٧٢) الفسطاط: المدينة، انظر ابن الأثير، جـ٣، ص٤٤٥، أما الغوطة: فهي الخافض من الأرض، والغوطة هي الكورة منها دمشق، انظر ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، جـ٤، ص٢١٩.

(٧٣) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٢٩، وقال هذا صحيح ثبت معناه في أحاديث أخرى..

إليه إردب ولا دينار، قلنا فمن؟ قال: الروم..»[٧٤].

وملخص الملحمة أن المسلمين سيواجهون جيوش الروم ويدور بينهم قتال شديد يتراجع في أولها المسلمون ثم يشترطون شرطة للموت، ويصمدون وبعد قتال يؤيدهم الله بملائكة فينتصرون ثم يستمر ثلاثة أيام ثم يسيرون لفتح القسطنطينية[٧٥]، فتفتح بالتكبير والتهليل فيظهر الدجال ويعودون لقتاله ويحاصرون بالشام، وبينما هم في الصلاة إذ ينزل عيسى عليه السلام ويصلي خلف المهدي ثم يقاتل الدجال ويقتله... ونترك تفاصيل ذلك عند الكلام عن الآيات في مكانها من البحث.

الملحمة الكبرى عند أهل الكتاب

تعرف الملحمة الكبرى في الإنجيل المتداول باسم «معصرة غضب الله، يوم الله القادر على كل شيء»[٧٦]. وتعرف عند اليهود في العهد القديم المتداول باسم «**الخربة الأبدية**»[٧٧].

ولاستكمال الدراسة لا بد من معرفة موقف الغرب «الروم» مما في كتبهم من نصوص تخص هذه الملحمة.. وللموضوع تاريخ طويل مر بمراحل.. ملخصها أن التفسير الكنسي للنصوص في القديم يحمل طابع الفلسفة والرموز وهو من اختصاص رجال الدين عندهم، إلى أن ظهر مارتن لوثر الألماني (١٤٨٣-١٥٢٦) وادعى حركة الإصلاح للمسيحية، وساعده اليهود وهيأوا المسرح لذلك.. فجاء بأفكار جديدة تدعو للعصمة الحرفية للكتاب المقدس ولكل النصوص عقائدية أو أخلاقية أو تاريخية.. أو بمعنى التفسير الحرفي للنصوص بعيداً عن الكنيسة، فظهرت الأصولية الانجليية، علماً أن هذه الحركة انبثقت من طائفة البروتستانت[٧٨] ومارتن لوثر أبرز مفكريها الذي أظهر تفضيله لمبادئ اليهودية البسيطة على تعقيدات الكاثوليك. وألف كتاب «عيسى ولد يهوديا»[٧٩] وبذلك رسخ مفهوم العصمة الحرفية للكتاب أو حركة المحافظة "Fundamentalism".

ويعرف الدكتور يوسف الحسن الأصولية الإنجيلية فيقول: «تطلق على الاتجاهات الدينية

---

(٧٤) سبق تخريجه.

(٧٥) الراجح أن القسطنطينية هي الكبرى أي «روم» وليست ما يسمى اليوم «استامبول» لأن هذه فتحها المسلمون وأهلها مسلمون، وهذا ما رجحه البرزنجي في الاشاعة، ص١٦٠.

(٧٦) سفر الرؤيا: ١٤/ ٩.

(٧٧) أرميا ٢٥/ ١٣ نقلاً عن سعيد أيوب، *المسيح الدجال*، ص١٧٣.

(٧٨) البروتستانت طائفة مسيحية تعني: *المحتجون على آراء الكنيسة الكاثوليكية*.

(٧٩) راجع: صالح بن عبد الله الهذلول، *الأصولية الانجيلية*، دار العلم، الرياض، ١٩٩٦، ص١٨.

المتشددة في مسائل العقيدة والأخلاق، والمؤمنة بالعصمة الحرفية للكتاب المقدس، سواء العهد القديم أو العهد الجديد، والمقتنعة بأنه يتضمن توجيهات لمجمل الحياة، بما في ذلك الشئون السياسية وبخاصة النبؤات التي تشير إلى أحداث مستقبلية تقود إلى استعادة اسرائيل والعودة الثانية للمسيح»[٨٠].

الحركة إذن تقود إلى اسرائيل! وبما أن أكثر دعاتها هاجروا إلى العالم الجديد منذ عام ١٦٢٩ فقد انتشرت في أمريكا وازدادت قوة، وعلى هذا نرى أن أمريكا تعبر عن علاقتها باسرائيل بـ «الالتزام الأخلاقي-الأدبي».

وإذا عرفنا أن أهم عقيدة لهم هو المجيء الثاني للمسيح أو عودة المسيح استدلالاً برؤيا يوحنا التي رآها في منامه، فهم يؤمنون بأن عودة المسيح لها ممهدات وأولها: قيام اسرائيل ثم احتلال القدس كعاصمة أبدية لهم، وإعادة الهيكل، ومعركة الهرمجدون[٨١] «الملحمة الكبرى» التي سيظهر فوقها مباشرة[٨٢] وأنها معركة نووية.. وحسب زعمهم تدمر قوات الكفار -ويعنون المسلمين- ويأجوج ومأجوج، لأن الجميع القوى شريرة ضد المسيحية، ثم السنة الألفية للمسيح.. إذن لا بد من «الهرمجدون».

وأهم الوسائل الموصلة لذلك.. المؤتمرات، التسلق إلى القمة، التهيئة لها عبر وسائل الاعلام، ولهذا نرى أن كل من تسلق إلى السلطة في الولايات المتحدة متمسك بالفكرة وآخرهم كلنتون[٨٣] حيث قال: (إني إذا انتخبت رئيساً لن أخيب أمل اسرائيل أبداً) وعلى

---

(٨٠) الدكتور يوسف الحسن، *البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي - الصهيوني*، ط. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠، ص١٠.

(٨١) الهرمجدون، جبل بفلسطين، واتخذ منه اسم لمعركة نووية في سهل القدس وعكا، والتنبؤ بها ورد في أسفار حزقيال: ٣٩،٣٨، ورؤيا يوحنا ١٦: ١-٢٠، وورد التصريح بها في الكتاب المقدس: «وسمعت صوتاً عظيماً في الهيكل قائلاً للسبعة الملائكة: امضوا واسكبوا جام غضب الله على الأرض» رؤيا: ١٦: ١. ثم عاد ماذا يعمل كل ملاك بما هو موكل به، حتى جاء على ذكر الملاك السادس الذي سكب، «جامه على النهر الكبير، الفرات، فنشف ماؤه لكي يعد طريق الملوك الذين من مشرق الشمس.. فجمعهم إلى الموضع الذي يدعى بالعبرانية «هرمجدون» رؤيا ١٦: ١٢-١٩».

(٨٢) راجع تفاصيل هذه الممهدات في: صالح بن عبد الله الهذلول، *الأصولية الانجيلية*، ص٦٠.

(٨٣) من الرؤساء الأمريكان الذين يمثلون الأصولية الانجيلية -وهو شرط في المرشح- ويؤمنون بحتمية وقوع الهرمجدون جورج واشنطن، وجون آدمز، وجيمس مآدسون، وأكثرهم حماساً ريغان.. انظر تفاصيل ذلك واقوال رؤساء أمريكا في: الهذلول، الأصولية الانجيلية، ص٥٧-٦١، والتي تظهر أن «هرمجدون» تشغل بالهم، ونتيجة لرسوخ هذه العقيدة لا يبالون بمصير الأرض فليذهب العالم للجحيم.

هذا يسعى الغرب للاستئثار بالأسلحة النووية.. هكذا يفكر ذوو النفوذ من أهل الروم أما مفكرونا فيخجلون من ذكر المهدي ويعدونه خرافة!.

فعلى المسلمين أن يعلموا أن أعداءنا يفكرون -وحتى وفق تعاليم محرفة- ويفكرون بدقة ويحولون الفكرة إلى تخطيط ثم تنفيذ بدون انفعال ولا تشنج.. أليسوا كما قال الرسول ﷺ «أحلم الناس عند مصيبة... » فلا نغفل هذه التذكرة النبوية وماذا يفعل المسلمون تجاه أفكار الغرب المحمومة الموصلة للملحمة وهم يدعون بذلك أنهم ينفذون مشيئة الرب؟ ألم يتحول كثير مما خططوا إلى واقع؟!.

٣- قبض العلم وذهاب الصالحين

من العلامات المتأخرة والتي تقع خلال الآيات الكبرى وبعد موت عيسى عليه السلام، قبض العلم وذهاب الصالحين وبذلك ينتشر الجهل وقد وردت أحاديث تشير لذلك ضمن أشراط أخرى كقوله ﷺ: «يتقارب الزمان، ويقبض العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشح، ويكثر الهرج»[٨٤] فقد فُسر ذلك بتناقص العلم الذي يكون من الأشراط التي بدأت واستمرت والمقصود بالعلم هنا: العلم الشرعي من الكتاب والسنة وأما علم الدنيا فهو في تقدم، والأهم هو العلم الشرعي الذي يوجه الأمة.

لكن المقصود بها في أحاديث أخرى استحكام الصفة مثل قول الرسول ﷺ: «من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل»[٨٥]. وفي آخر: «إن بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل ويرفع العلم»[٨٦]، فقوله: «يرفع العلم» يعني عموم الصفة واستحكامها حتى يكون الجهل وحده مع وجود قلة من أهل العلم لا يمثلون شيئا... وقد ذكر الرسول ﷺ أن ذلك يتحقق بقبض العلماء، فقال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[٨٧].

---

(٨٤) سبق تخريجه.

(٨٥) البخاري، *الصحيح*، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل مع *فتح الباري*، جـ١، ص١٧٨، ومسلم، *الصحيح*، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهو والجهل والفتن في آخر الزمان ح(٢١٧١)، جـ٤، ص٢٠٥٦.

(٨٦) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، جـ٨، ص٨٩. ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه.. ح(٢٦٧٢)، جـ٤، ص٢٠٥٦.

(٨٧) البخاري، *الصحيح*، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم جـ١، ص٣٤. ومسلم، كتاب العلم، =

قال ابن حجر: «والمراد من الحديث استحكام ذلك... فلا يبقى إلا الجهل الصرف، ولا يمنع من ذلك وجود طائفة من أهل العلم لأنهم يكونون حينئذ مغمورين في أولئك»[88].

وقال النووي: «المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفاظه ولكن معناه: أن يموت حملته، ويتخذ الناس جهالاً يحكمون بجهالاتهم فيضلون ويضلون»[89].

ويدل الحديث كذلك على ذهاب الصالحين، وتستمر الحال في ازدياد وهذا من الأمارات القريبة من الساعة التي تتخلل الآيات العظمى المتسارعة..

٤- تضافر رؤى المؤمنين الصادقة

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة»[90] ولفظ البخاري: «رؤيا المؤمن».

والرؤيا الصالحة هي بشرى للمؤمن.. وهي علامة على قرب الساعة..

قال ابن أبي جمرة: «أنها تقع غالبا على الوجه الذي لا يحتاج إلى تعبير، فلا يدخلها الكذب، بخلاف ما قبل، فإنها قد يخفى تأويلها فيعبرها العابر، فلا تقع كما قال، فيصدق دخول الكذب فيها بهذا الاعتبار».

ثم قال: «والحكمة في اختصاص ذلك بآخر الزمان أن المؤمن في ذلك الوقت يكون غريباً.. فيقل المؤمن ومعينه في ذلك الوقت فيكرم بالرؤيا الصالحة»[91].

وقد اختلف العلماء في تحديد الوقت الذي تقع به هذه الأمارة فذكر ابن حجر ثلاثة أقوال:[92].

الأول:- يقع قرب اقتراب الساعة عند قبض العلم ودروس الشريعة فيحتاج المؤمنون إلى

=باب رفع العلم وقبضه.. ح(٢٦٧٣)، جـ٤، ص٢٠٥٨.

(٨٨) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص١٦.

(٨٩) النووي، *شرح صحيح مسلم*، جـ١٦، ص٢٢٣-٢٢٤.

(٩٠) البخاري، *الصحيح*، كتاب التعبير، باب القيد في المنام، جـ٨، ص٧٧. ومسلم، *الصحيح*، كتاب الرؤيا، باب في تأويل الرؤيا، ح(٢٢٦٩)، جـ٤، ص١٧٧٧، والدارمي، *السنن*، كتاب الرؤيا، باب أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، جـ١، ص٥٢١، ح(٧).

(٩١) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٢، ص٤٠٦.

(٩٢) راجع: ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٢، ص٤٠٦-٤٠٧.

مجدد ومذكر لما درس من الدين فيعوضون بالرؤى الصادقة التي هي جزء من النبوة.. ورجح هذا القول ابن حجر.

الثاني: إن ذلك يقع عند قلة المؤمنين وغلبة الكفر والجهل والفسق على الموجودين فيؤنس المؤمن بذلك إكراماً وتسلية.. وهذا قريب من قول أبي جمرة السابق، وعلى هذا لا تختص بزمن معين بل كلما اضمحل الدين تكون رؤيا المؤمن صادقة..

الثالث: إنه خاص بزمان عيسى بن مريم لأن أهل زمنه أحسن حالاً بعد الصدر الأول وأصدقهم أقوالاً فكانت رؤياهم لا تكذّب والله أعلم..

٥- خراب المدينة ونفيها للأشرار

ذكر رسول الله ﷺ نفي المدينة لشرارها فقال: «يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه هلمّ إلى الرخاء، هلمّ إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده، لا يخرج منهم أحد رغبة عنها، إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألا إن المدينة كالكير يخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»[٩٣].

وفسرّ القاضي عياض ذلك على زمن النبي ﷺ لمن لم يصبر على الهجرة والمقام في المدينة، وجهلة الأعراب الذين لا يصبرون على شدة المدينة ولا يحتسبون ذلك من الأجر.. بدليل قصة الأعرابي، فعن جابر رضي الله عنه: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فبايعه على الإسلام، فجاء من الغد محموماً، فقال: أقلني، فأبى، ثلاث مرات، فقال: «المدينة كالكير تنفي خبثها، وينصع طيبها»[٩٤]، وهو رأي القرطبي كذلك وأشار إلى وقعة الحرة وما صار إليه أمر المدينة بعدها[٩٥].

وحمله النووي على زمن الدجال مع احتمال حدوثه في أزمنة متفرقة فعن النبي ﷺ أنه ذكر الدجال، ثم قال: «.. ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله إليه كل كافر ومنافق»[٩٦].

---

(٩٣) مسلم، *الصحيح*، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها وتسمى طابة وطيبة، ح(١٣٨١)، جـ٢، ص١٠٠٥.

(٩٤) البخاري، *الصحيح*، كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث، جـ٢، ص٢٢٣.

(٩٥) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٣٥. وقصد مضي العلامة وخراب المدينة.

(٩٦) البخاري، *الصحيح*، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة، ح(١٨٨١)، جـ٤، ص٩٥. ومسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب قصة الجساسة، ح(٢٩٤٣)، جـ٤، ص٢٢٦٥، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص١٩١، وأبو عمرو الداني، *السنن الواردة*، باب ما جاء في الدجال، ح(٦٣٨)، جـ٦، ص١١٦٣.

أما الحافظ ابن حجر فذكر أن المراد كلا الزمنيين للأدلة الموجودة، وأما ما بين ذلك من الأزمان فلا، لخروج كثير من فضلاء الصحابة من المدينة بعد النبي ﷺ كمعاذ بن جبل، وأبي عبيدة وابن مسعود وغيرهم، ثم خرج علي وطلحة والزبير وعمار..[٩٧].

أما خروج الناس من المدينة بالكلية فهذا ما يكون آخر الزمان وقرب قيام الساعة لقول رسول الله ﷺ: «لتتركن المدينة على أحسن ما كانت، حتى يدخل الكلب أو الذئب فيغذي[٩٨] على بعض سواري المسجد أو على المنبر» فقالوا: يا رسول الله فلمن تكون الثمار ذلك الزمان؟ قال: «للعوافي والسباع»[٩٩].

قال ابن كثير: «والمقصود أن المدينة تكون باقية عامرة أيام الدجال، ثم تكون كذلك في زمان عيسى بن مريم عليه السلام حتى تكون وفاته بها ودفنه بها ثم تخرب بعد ذلك»[١٠٠].

قال رسول الله ﷺ: «ليسيرن الراكب بجنبات المدينة ثم ليقولن: لقد كان في هذا حاضر من المسلمين كثير»[١٠١].

أما الخروج بالكلية فيكون ذلك عند خروج النار التي تحشر الناس ويؤيد ذلك كون آخر من يحشر يكون منها لقول رسول الله ﷺ: «تتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلا العوافي - يريد عوافي السباع والطير - وآخر من يحشر راعيان من مزينة، يريدان المدينة، ينعقان بغنمهما، فيجدانها وحشاً، حتى إذا بلغا ثنية الوداع، خرا على وجوههما»[١٠٢].

وهو المراد بخراب المدينة في أحاديث أخرى، أي أن خرابها يكون لأجل خروج الناس منها إلى مدن أخرى[١٠٣]، كما جاء في قول الرسول ﷺ: «عمارة بيت المقدس خراب يثرب.. »[١٠٤]

---

(٩٧) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٤، ص٨٨.

(٩٨) فيغذي: أي يبول عليها، انظر، ابن الأثير، *النهاية في غريب الحديث*، جـ٣، ص٣٤٧.

(٩٩) ابن مالك، *الموطأ*، كتاب الجامع، باب ما جاء في سكن المدينة والخروج منها، جـ٢، ص٨٨٨، ح(٨).

(١٠٠) ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص١٥٨.

(١٠١) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص٣٤١، ٣٤٧.

(١٠٢) البخاري، *الصحيح*، كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة، ح(١٨٧٤)، جـ٤، ص٨٩. ومسلم، *الصحيح*، كتاب الحج، باب في المدينة حين يتركها أهلها، ح(١٣٨٩)، جـ٢، ص١٠٠٩.

(١٠٣) قال ابن الأثير: «خراب: أن يترك الموضع خرباً، والتخريب: الهدم والمراد ما تخربه الملوك من العمران وتعمره من الخراب شهوة لا إصلاحاً.. » انظر: *النهاية*، جـ٢، ص١٧.

(١٠٤) أبو داود، *السنن*، كتاب الملاحم، باب في إمارة الملاحم، ح(٤٢٩٤)، جـ٤، ص٤٨٢، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٥، ص٢٤٥،٢٣٢ وقال ابن كثير في النهاية، جـ١، ص٩٤ «وهذا إسناد جيد وحديث حسن. »

وفي رواية «عمران».

وفيه دليل على أن الخراب يكون بانتقال الناس إلى مكان آخر، وأن عمارة بيت المقدس علامة لخراب المدينة.. واستدل به ابن كثير على عدم خرابها قبل الدجال بل آخر الزمان.

وفي حديث آخر: «آخر قرية من قرى الإسلام خراباً المدينة»[(١٠٥)].

وذكر البرزنجي في سبب خرابها ما ظهر وانقضى بعد الحرة، والأخير الذي تعقبه الساعة وفي الثاني قال: «وسبب خرابها والله أعلم أنهم يخرجون مع المهدي إلى الجهاد، ثم ترجف بمنافقيها، وترميهم إلى الدجال، ثم يبقى فيها المؤمنون الخلص فيهاجرون إلى بيت المقدس... ومن بقي منهم تقبض الريح الطيبة أرواحهم فتبقى المدينة خاوية»[(١٠٦)].

٦- هدم الكعبة وخراب مكة

من العلامات التي تقع خلال الآيات الكبرى هدم الكعبة فيكون بذلك خراب مكة، لأن عمارة مكة بسبب عمارة الكعبة، فيكون هدمها وخرابها سبباً في خراب مكة.

قال رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»[(١٠٧)].

وقال في آخر: «كأني أنظر إليه أسود، أفحج ينقضها حجراً حجراً، (يعني الكعبة)»[(١٠٨)].

وفي رواية: «كأني أنظر إلى حبشي أصمع، أصلع، حمش الساقين، جالساً على الكعبة بمسحاته وهو يهد».

فالأحاديث تدل على أوصاف من يهدمون الكعبة بأنهم من الحبشة، كما يدل حديث آخر على أن الذي يهدمها يستخرج كنزه ثم لا يعمر أبداً مما يدل على أن ذلك يحدث في آخر الزمان..

فعن رسول الله ﷺ قال: «يبايع الرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلا أهله، فإذا استحلوه، فلا يسأل عن هلكة العرب، ثم تأتي الحبشة، فيخربونه خراباً لا يعمر بعده

---

(١٠٥) الترمذي، *السنن*، كتاب المناقب، باب فضل في المدينة، ح(٣٩١٩)، جـ٥، ص٧٢٠، وقال: حسن غريب.

(١٠٦) البرزنجي، *الإشاعة*، ص٢٣٧-٢٣٨.

(١٠٧) البخاري، *الصحيح*، كتاب الحج، باب قوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة الحرام..﴾ ح(٢٩٠٩)، جـ٢، ص٥٩. ومسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت، ح(٢٩٠٩)، جـ٤، ص٢٢٣٢، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٢٩١-٣١٢.

(١٠٨) البخاري، كتاب الحج، باب هدم الكعبة، جـ٢، ص٥٩، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٢٢٠. والهيثمي، *مجمع الزوائد*، جـ٣، ص٣٠١.

أبداً وهم الذين يستخرجون كنزه»(١٠٩).

ومحاولة غزو الكعبة وقع أكثر من مرة وفي كل مرة يهلكهم الله قبل الوصول إليه وقد مرّ خسف الجيش المتوجه إليها، ولكن البيت استحل مرات من قبل أهله، ومنها ما وقع زمن القرامطة في القرن الرابع الهجري وقلعوا الحجر الأسود وحملوه إلى بلادهم، وعاد.. وسيقع آخر الزمان حين لا يبقى على ظهر الأرض مسلم.. ولذلك لا تتعارض الأحاديث مع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾(١١٠) لأن الأحاديث تحمل على أن ذلك يقع آخر الزمان وقرب الساعة حيث لا يبقى من يقول: الله الله كما أن ذلك يحدث بعد أن استحله أهله مرات...

أما تحديد الزمن الذي يقع فيه خراب الكعبة ففيه أقوال: أنه يقع في زمن عيسى عليه السلام، ذكره ابن كثير عن كعب وذكر أن عيسى عليه السلام يحج البيت بعد نزوله الأرض(١١١)، وقيل يقع في زمنه بعد هلاك يأجوج ومأجوج.. وقيل قبل خروج الدجال ونزول عيسى ذكره القرطبي عن أبي حامد الغزالي(١١٢)، وقيل بعد الدابة، وقيل بعد الآيات كلها قرب قيام الساعة وهو ما أيده البرزنجي لأن زمن عيسى كله بركة وأمان وأن البيت لم يزل قبلة الإسلام، والحج إلى البيت أحد الأركان فالحكمة تقتضي بقاءه حتى تقبض أرواح المؤمنين، والله أعلم، وتحديد الوقت مطلق لم يتبين بالحديث، والمهم أن يعرف أن ذلك من العلامات الكبرى التي تعقبها الساعة..

٧- الريح الطيبة (فناء الأخيار)

من العلامات الكبرى أن يبعث الله بريح طيبة لتقبض أرواح المؤمنين الذين عاصروا الآيات الكبرى وثبتوا على الإيمان اشفاقاً عليهم من هول القيامة فلا يبقى إلا الأشرار لتقوم عليهم القيامة..

وقد ذكر عبد الله بن عمر رضي الله عنه حديث النبي ﷺ عن الدجال ثم عيسى وبعدها قال: «... ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير

---

(١٠٩) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٢٩١، ٣١٢، ٣٢٨، ٣٥١، وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، م٢، ص١٠٠، ح(٥٧٩)، وقال: «وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين».

(١١٠) العنكبوت ٢٩: ٦٧.

(١١١) ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص٢٠٢.

(١١٢) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٢٣٢، والبرزنجي، الإشاعة، ص٢٤٥.

أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه»[113].

فالحديث دليل على أن الريح الطيبة هذه تكون بعد الدجال وعيسى وهلاك يأجوج ومأجوج..

كما وصف الحديث الريح بأنها ريح طيبة باردة وفي حديث آخر وصفت بأنها كالمسك «....ثم يبعث الله ريحاً كالمسك، مسّها مس الحرير فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته»[114].

ووصفت في لطفها بأنها ألين من الحرير في قوله ﷺ: «إن الله عز وجل يبعث ريحاً ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته»[115].

وهذه الأوصاف للريح التي تقبض أرواح المؤمنين فيها إشارة إلى رفق الله ولطفه بهم إكراماً لعباده المؤمنين في زمن مليء بالفتن والشرور..

ويستدل في الحديث الأول أنه لا يمنع من هذه الريح شيء ولا يحول بينها وبين أرواح المؤمنين حائل كما قال: «حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه» الحديث.

فأشار الحديث الأول كذلك إلى المكان الذي تبعث منه الريح بأنها من قبل الشام، وجاء في حديث آخر عن أبي هريرة ﷺ أنها من قبل اليمن، لقول رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته»[116].

ويجاب على ما ظاهره التعارض باحتمالين:

أولهما: أنهما ريحان شامية ويمانية.

وثانيهما: أن مبدأها من أحد الإقليمين ثم تصل الآخر وتنتشر عنده والله أعلم[117].

---

(١١٣) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب خروج الدجال ومكثه في الأرض، ح(٢٩٤٠)، جـ٤، ص٢٢٥٨-٢٢٥٩.

(١١٤) مسلم، *الصحيح*، كتاب الأمارة باب «لا تزال طائفة في أمتي على الحق ظاهرين لا يضرّهم من خالفهم»، ح(١٩٢٤)، جـ٣، ص١٥٢٤.

(١١٥) أبو عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، باب ما جاء في الريح ؛(٥٣٩)، جـ٥، ص١٠١٢. والحاكم في *المستدرك*، جـ٤، ص٤٥٥، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، جـ٤، ص٢١٥-٢١٦، رقم(١٦٥٩)، وفي مسلم زاد «من اليمن» كما في الحديث الآتي..

(١١٦) مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب في الريح التي تكون قرب القيامة، جـ١، ص١٠٩ ح(١١٧).

(١١٧) راجع: النووي، *شرح صحيح مسلم*، جـ٢، ص١٣٢-١٣٣، والسخاوي، *القناعة*، ص٥٠-٥٢، ومحمد سلامة جبر، *أشراط الساعة وأسرارها*، ص٨٨-٨٩.

ودلّ حديث آخر على كيفية قبض هذه الريح لأرواحهم، ففي حديث النواس بن سمعان في قصة الدجّال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج فقال: «إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها بتهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»[118].

وعلى هذا يكون هبوب الريح بعد الآيات العظام التي يعقبها قيام الساعة، ولا يتخلف عنها، ولا يبقى بعدها مؤمن فتقوم الساعة عليهم «وعلى هذا فآخر الآيات المؤذنة بقيام الساعة هبوب تلك الريح»[119].

٨- رفع القرآن ودروس العلم (عودة البشرية إلى الجاهلية)

ومن أعظم الأمور التي يبتلى بها الناس قبل الساعة رفع القرآن الكريم ولا يبقى منه شيء في المصاحف والصدور فيبقى الناس بلا علم فيندرس الإسلام بالكلية.

فقد سمع ابن مسعود يقول: «إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة، وإن هذا القرآن الذي ينزل بين أظهركم يوشك أن يرفع، قال قلت لعبد الله: كيف يرفع وقد أثبته الله في صدورنا وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: يسري عليه ليلاً، فلا يترك منه شيء في صدر رجل ولا مصحف ثم قرأ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[120]»[121].

قال ابن تيمية: «يسرى به في آخر الزمان من المصاحف والصدور فلا يبقى في الصدور منه كلمة ولا في المصاحف منه حرف»[122].

ومعنى ذلك ذهاب تعاليم الإسلام كذلك وكل أثر يدل عليه، فقد روى حذيفة عن رسول الله ﷺ «يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام، ولا نسك ولا صدقة؟ ويسري على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من

---

(١١٨) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، ح(٢٩٣٧)، جـ٤، ص٢٢٥٠-٢٢٥٥.

(١١٩) السخاوي، *القناعة*، ص٥٢.

(١٢٠) الإسراء ١٧: ٨٦.

(١٢١) الطبراني، *المعجم الكبير*، جـ٩، ص١٥٣، رقم(٨٧٠٠)، وأبو عمرو الداني، *السنن*، باب ما جاء في رفع القرآن، ح(٢٦٩)، جـ٣، ص٥٩٥، والحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٥٠٤. والهيثمي، *مجمع الزوائد*، جـ٧، ص٥٢، ٣٣٠، وقال: موقوف له حكم الرفع لأن مثله لا يقول الاجتهاد.

(١٢٢) ابن تيمية، *مجموع فتاوى ابن تيمية*، جـ٣، ص١٩٨-١٩٩.

الناس: الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة يقولون: (لا إله إلا الله) فنحن نقولها فقال صلة[١٢٣]: ما تغني عنهم (لا إله إلا الله) وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام، ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم رددها عليه ثلاثاً كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة، تنجيهم من النار ثلاثاً»[١٢٤].

ومعنى ذلك أن الطوائف التي تقول (لا إله إلا الله) من الكبار يقولونها تقليداً لآبائهم ولعلها تنجيهم من النار وربما من هول يوم الساعة، لأنها تقوم حين لا يبقى في الأرض من يقولها.. ففيه إشارة -والله أعلم- إلى أن ذلك، أي رفع القرآن يكون بعد الريح الطيبة التي تقبض روح كل مؤمن ومسلم.. يقول رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»[١٢٥] ومعنى ذلك عودة البشرية إلى الجاهلية وأعمالها فلا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، والأكثر من ذلك لا يعرف اسم الله... فيصبح الناس عبيداً للشهوات يتلاعب بهم الشيطان، فيعودون لعبادة الأوثان والأصنام مما أشار إليه الرسول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان»[١٢٦].

وقد أشار النبي إلى أصنام كانت تعبد في الجاهلية فيعودون إلى عبادتها في الجاهلية الأخيرة فقال:«لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات[١٢٧] نساء دوس حول ذي الخلصة»[١٢٨] وذو الخلصة: طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية[١٢٩].

---

(١٢٣) صلة، هو أبو بكر صلة بن زفر العبس الكوفي، تابعي كبير، ثقة جليل، انظر ترجمته في: *تهذيب التهذيب*، جـ٤، ص٤٣٧.

(١٢٤) ابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، ح(٤٠٩٨)، جـ٢، ص١٣٤٤، والحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٤٧٣. وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(١٢٥) مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان، ح(١٤٨)، جـ١، ص١٣١، والترمذي، كتاب الفتن، ح(٢٢٠٨)، باب رقم٣٥. والإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص١٠٧.

(١٢٦) سبق تخريجه، وبدايته: إذا وضع السيف في أمتي...

(١٢٧) أليات: جمع الألية، والمراد بها هنا أعجازهن، انظر *النهاية في غريب الحديث*، جـ١، ص٦٤.

(١٢٨) ذو الخلصة: اسم للبيت الذي كان فيه الصنم، وقيل: اسم البيت: الخلصة واسم الصنم: ذو الخلصة، وهو اسم لصنمين أحدهما لدوس والثاني لخثعم وغيرهم من العرب، والمذكور صنم دوس، ولا يزال مكانه معروفاً إلى الآن في بلاده زهران (جنوب الطائف).. وكان يقع على تل صخري مرتفع.. انظر: ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٨، ص٧١، وعبد الله بن يوسف الوابل، *أشراط الساعة*، ص١٦١.

(١٢٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان، مع *فتح الباري*. ومسلم، =

ويعبر حديث آخر عن تفاهة هذه الحثالة من البشر في انصياعه للشيطان فيقول ﷺ: «.. فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان..»[١٣٠] وقد مر الحديث الذي يصف من فساد أخلاقهم «حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير..»

فهؤلاء الأشرار هم من تقوم عليهم الساعة...

=الصحيح، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة، ح(٢٩٠٦)، جـ٤، ص٢٢٣٠، وعلق عليه وكانت صنماً تعبده دوس في الجاهلية بتبالة.

(١٣٠) سبق ذكره في الريح الطيبة، وهو ضمن حديث طويل عند مسلم، رقم (٢٩٤٠).

المبحث الثاني:
الآيات الأرضية والسماوية الكبرى

تمهيد

مر بنا الحديث عن الفرق بين الآيات والعلامات في المدخل لعلامات الساعة بأن الآيات تختص بالأحداث غير المعتادة والعامة الشاملة.. وبذلك تكون الآيات الكبرى للساعة: هي الأحداث والوقائع الكبرى العامة وغير المعتادة المؤذنة بتغير أحوال العالمين السماوي والأرضي مع وقوعها متلاحقة متتابعة، يتبعها قيام الساعة..

والنصوص التي تتضمن هذه الآيات، لا يوجد نص منها يدل على ترتيب وقوعها، لأن الترتيب في الذكر بعطف الواو لا يدل على ترتيب الوقوع، وخصوصاً أن النصوص تختلف في ترتيب الآيات فيما بينها، وأحياناً يرد الحديث عن صحابي واحد بلفظين مختلفين في ترتيب الآيات.. ومن ذلك: عن حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: « اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون»؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات» فذكر: الدخان والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[١٣١].

وروى الحديث عن حذيفة بلفظ آخر وهو: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، والدخان والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس».

وفي رواية: «والعاشرة: نزول عيسى بن مريم»[١٣٢].

ومثل ذلك الاختلاف ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قول الرسول ﷺ: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم

---

(١٣١) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، ح(٢٩٠١)، جـ٤، ص٢٢٢٥-٢٢٢٦، والترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخسف، ح(٢١٨٣)، جـ٤، ص٤٧٧، وابن ماجة، *السنن*، كتاب الفتن، باب أشراط الساعة، ح(٤٠٤١)، جـ٢، ص١٣٤١، والإمام أحمد، جـ٤، ص٦-٧.

(١٣٢) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب في الآيات التي تكون...، جـ٤، ص٢٢٢٦.

أو أمر العامة»[١٣٣].

وعنه بلفظ آخر: «بادروا بالأعمال ستاً: الدجال والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم»[١٣٤].

كما تنص بعض الأحاديث على الأولية مع الاختلاف في تحديدها فبعضها ينص على أولية الدجال، وأخرى على طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى أحدهما إثر الأخرى..[١٣٥].

وحاول ابن حجر الجمع بين الروايات فقال: «والذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ﷺ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب».

وقال: «وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس»[١٣٦] ويرى ابن كثير أن خروج الدابة هو أول الآيات الأرضية التي ليست بمألوفة، فإن الدابة التي تكلم الناس، وتعين المؤمن من الكافر أمر مخالف للعادة المستقرة... وأما طلوع الشمس من مغربها، فهو أمر باهر جداً وذلك أول الآيات السماوية.. أما الدجال، ونزول عيسى ﷺ وخروج يأجوج ومأجوج فإنهم وإن كان ظهورهم قبل طلوع الشمس من مغربها وقبل ظهور الدابة إلاّ أنهم بشر ومشاهدتهم من الأمور المألوفة بخلاف الدابة[١٣٧].

والحقيقة أن ما يرافق الدجال من الخوارق هو أمر غير مألوف كذلك..

وقد حاول آخرون قديماً وحديثاً ترتيب هذه الأشراط حسب وقوعها ومن هؤلاء الطيبي فقال:

---

(١٣٣) مسلم، كتاب الفتن.. باب في بقية من أحاديث الدجال ح(٢٩٤٧)، جـ٤، ص٢٢٦٧. والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٣٢٤، ٤٠٧، وأبو عمروا الداني، *السنن*، باب ما جاء في الآيات والطوام ومقدار أمدها، ح(٥٢٦)، جـ٥، ص٩٨٤.

(١٣٤) مسلم، كتاب الفتن.. باب في بقية من أحاديث الدجال، ح(٢٩٤٧)، جـ٤، ص٢٢٦٧.

(١٣٥) من الأحاديث التي تنص على أولية الدجال حديث النواس بن سمعان الطويل، انظر *صحيح مسلم*، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، ح(٢١٣٧)، جـ٤، ص٢٢٥١. ومن الأحاديث التي تنص على أولية طلوع الشمس..، حديث ابن عمر «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها». انظر: *صحيح مسلم*، كتاب الفتن، باب خروج الدجال، ح(٢٩٤١)، جـ٤، ص٢٢٦٠.

(١٣٦) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٣٥٣.

(١٣٧) راجع ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص١٦٤-١٦٨.

«الآيات أمارت الساعة، إما على قربها، وإما على حصولها، فمن الأول: الدجال ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والخسف، ومن الثاني: الدخان وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة والنار التي تحشر الناس»[١٣٨].

وهذا الترتيب للطيبي ترتيب حسن، حيث أن الأولى فيها إيقاظاً للناس للتوبة دون تميز بين المؤمن والكافر... فإذا ظهر القسم الثاني الدال على حصول الساعة فالناس يتميزون بين مؤمن وكافر كما سيأتي شرحه.

أما القرطبي فقد ذكر رواية مسلم عن حذيفة بترتيب آخر إن الساعة لا تكون حتى تروا عشر آيات: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب والدخان... وبما أنه اعتبر ورودها بدون ترتيب زمني جعل ظهور الدجال أولها[١٣٩].

كما يلاحظ أن البرزنجي[١٤٠] والسفاريني وابن كثير أهملوا أصلاً ذكر الخسوفات الثلاث في الآيات الكبرى وأدخلوا معها من العلامات الكبرى علىأنها منها كما أدخل البرزنجي في الاشاعة المهدي منها، وأدخل السفاريني هدم الكعبة ورفع القرآن..

ومع ذلك نرى أن المصادر تتفق بترتيب جزئي للآيات مثل: الدجال، ونزول عيسى، وظهور يأجوج ومأجوج، وكذلك (طلوع الشمس من مغربها والدابة والدخان) وتبقى الخسوفات كمجموعة ثالثة أخرى.. متتابعة أيضاً.

ويرى بعض المعاصرين[١٤١] أن الخسوفات الثلاثة هي أول الآيات من أجل تغيير الأحداث على الأرض وباعتبارها آيات ليست كأي خسف فلها تأثير على سير أحداث التاريخ البشري فيتغير بعدها موازين القوى العالمية رحمة بأمة المصطفى ﷺ من الأكلة الذين تكالبوا عليها.. عندها يظهر المهدي كعلامة - وليس آية - كبرى... وكأن هذه الخسوفات آية إلهية عظمى تمهد للمهدي في وقت يستحيل فيها للمسلمين استعادة الخلافة في ظل تجبر قوى بالأسلحة النووية.. قوى تزول منها الجبال، وبعد أن ملئت الأرض جوراً وظلاماً وشراً، فلابد من آية كبرى تغير سير التاريخ بغير سننها وقوانينها المعتادة، فضلاً عن أن الخسف في القرآن الكريم هو من عذاب الخزي في الدنيا للظالمين..

---

(١٣٨) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٣٥٢-٣٥٣.

(١٣٩) انظر: القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٨٧-٣٨٨.

(١٤٠) البرزنجي، *الإشاعة*، ص٧٨-٧٩، واعتبر البرزنجي الخسوفات آيات مضت! وفي المؤلفات الحديثة في الأشراط وأهملت الخسوفات، عمر سليمان الأشقر في *القيامة الصغرى*.

(١٤١) وهو بشير محمد عبد الله في كتابه «*زلزال الأرض العظيم*»، ص٤٣.

وهذا الترتيب هو الذي اتبعته في ترتيب الآيات فتكون:

الخسوفات الثلاثة المتتابعة، الدجال، نزول عيسى، خروج يأجوج ومأجوج، طلوع الشمس من المغرب، الدابة، الدخان، النار التي تحشر الناس إلى محشرهم.

وهذه الآيات منها أرضية: الخسوفات الثلاث، الدجال، نزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والدابة، والنار التي تسوق الناس إلى محشرهم.

وسماوية: نزول عيسى ﷺ، وظهور الشمس من المغرب، والدخان.

تتابع الآيات الكبرى للساعة: ومن مميزات الآيات الكبرى هو وقوعها متتابعة بعضها في إثر بعض وخصوصاً في مجاميعها الثلاثة: الخسوفات الثلاثة، والدجال ونزول عيسى وظهور يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها وما بعدها.

فقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «الآيات خرزات منظومات في سلك، إذا انقطع السلك تبع بعضها بعضاً»[١٤٢].

وفي حديث آخر: «خروج الآيات بعضها إثر بعض، يتتابعن كما تتابع الخرز في النظام[١٤٣]»[١٤٤].

وهذه الأحاديث تؤيد ما ذكرنا بالفرق بين الآيات والعلامات واختصاص الآيات بالأشراط الكبرى..

وقال ابن حجر: «وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة»[١٤٥].

١-٣ الخسوفات الثلاثة

الخسف: هو سؤوخ الأرض بما عليها وذهابها به.

يقال: خسف الله الأرض، وخسف المكان خسوفاً: ذهب في الأرض وغاب فيها.[١٤٦]

---

(١٤٢) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٢١٩، الحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٥٤٦، ٤٧٣-٤٧٤. والهيثمي، مجمع الزوائد. وقال: «رواه أحمد وفيه علي بن زيد وهو حسن الحديث»جـ٧، ص٣٢١، والألباني، *سلسلة الأحاديث الصحيحة*، جـ٤، ص٣٦١، ح(١٧٦٢).

(١٤٣) النظام: «العقد من الجوهر والخرز ونحوهما وسلكه»: خيطه، انظر: ابن الأثير، *النهاية في غريب الحديث*، جـ٥، ص٧٩.

(١٤٤) الهيثمي، *مجمع الزوائد*، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال *الصحيح*، غير عبد الله بن أحمد بن حنبل وداود الزهراني وكلاهما ثقة»، جـ٧، ص٣٣١، وصححه الألباني في صحيح *الجامع الصغير*، جـ٣ن ص١١٠، ح(٣٢٢٢).

(١٤٥) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٧٧.

(١٤٦) ابن منظور، *لسان العرب*، جـ٩، ص٦٧، وانظر: *ترتيب المحيط*، جـ٢، ص٥٥.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[147].

والخسف من جملة العقوبات والشدائد التي يعذب الله بها الأمم والشعوب على ارتكابهم الجرائم والمعاصي البشعة كما في الآية السابقة وقد جاء في الحديث النبوي وقوع الخسف والقذف والمسخ والرجف، كأمور يعاقب الله بها الناس على خروجهم عن طاعة الله وارتكاب الآثام الكبار... وقد مرّ بنا عقاب الله للجيش الذي يذهب لقتال المهدي بالخسف بالبيداء.. ومنها ما روته عائشة عن رسول الله ﷺ: «ليكونن في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف» قيل يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[148].

وذكرت أحاديث أخرى أنواع هذا «الخبث» الذي يستوجب هذا العقاب الأليم كقول رسول الله ﷺ: «يكون في هذه الأمة خسف وقذف ومسخ قالوا: ومتى ذلك يا رسول الله: قال: إذا ظهرت المعازف وكثرت القيان وشربت الخمور»[149].

ويأتي أحياناً مع ذكر الخسف الرجف لقوله ﷺ: «سيكون في أمتي خسف وقذف ورجف ومسخ»[150].

ويبدو أن الرجف يصاحب الخسف ويسبقه وهو بمعنى الزلزال.. فالرجف والرجفة: الزلزلة، يقال: رجفت الأرض إذا تزلزت، وأصل الرجف: الحركة والاضطراب، وذكر ابن منظور: «أن الرجفة في القرآن كل عذاب أخذ قوماً، فهي رجفة وصيحة وصاعقة»[151].

وقد ذكر القرطبي في التذكرة حديثاً يشتمل على أمارات كثيرة إذا تحققت وقع الخسف والرجف فقال: «أخرج أبو نعيم من حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة: إذا رأيتم الناس أماتو الصلاة وأضاعوا الأمانة وأكلوا الربا.... وآخرها ذكر: ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً

---

(١٤٧) القصص ٢٨: ٨١.

(١٤٨) الترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخسف، ح(٢١٨٥٩)، جـ٤، ص٤٧٩. وأبو عمرو الداني، *السنن الواردة في الفتن*، باب ما جاء في الخسف والقذف والمسخ والرجف، ح(٣٤١)، جـ٣، ص٧١٠، وقال الترمذي، غريب لأجل عبد الله بن عمر العمري فإنه سيء الحفظ، ولكن للحديث شواهد عديدة..

(١٤٩) الترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف، ح(٢٢١٢)، جـ٤، ص٤٩٥، وقال: غريب لأن فيه عبد الله بن عبد القدوس كان يخطئ وللحديث شواهد صحيحة، انظر: الألباني، *سلسلة الأحاديث الصحيحة*، جـ٤، ص٣٩٢-٣٩٥، رقم(١٧٧٨) وفيه شواهد.

(١٥٠) أبو عمرو الداني، *السنن*، ح(٣٣٨)، جـ٣، ص٧٠٧، والهيثمي، *مجمع الزوائد*، جـ٨، ص١٠.

(١٥١) انظر: ابن منظور، *لسان العرب*، جـ٩، ص١١٣.

ومسخاً وقذفاً وآيات» ثم عقب أبو نعيم على هذا الحديث بقوله: «غريب من حديث عبد الله بن عمر عن حذيفة لم يروه عنه فيما أعلم إلا فرج بن فضالة» وعقب القرطبي على كلام أبي نعيم رحمه الله فقال: «وهذه الخصال قد تقدم ذكرها في أحاديث متفرقة وكلها بينة المعنى إلا قوله: وجلود السباع صفاقاً» قال الجوهري: الصفاقي: الجلد الرقيق تحت الجلد الذي عليه الشعر»[152].

والقصد من إيرادي لذلك أن هذه الخصال التي ذكرت في الحديث ذكرناها كلها متفرقة في الامارات التي ذهبت والتي لا زالت مستمرة وهذا يعني أن اكتمال هذه الامارات يقتضي أن يقع الوعيد بعدها في الخسف والرجف فيكون بذلك أن الخسف سيكون أول الاشراط الكبرى..

والخسف الذي نحن بصدده هو نتيجة للزلزلة[153]، والصلة وثيقة بين الخسف والزلزلة وهي من قبيل صلة المعلول بالعلة فلذا قد يكون ذكر الزلزلة العظيمة في أول سورة الحج علامة أو شرطاً من أشراطها العظمى يقع على أثرها الآيات الثلاث الكبرى من الخسف علماً بأن المفسرين لم يربطوا بين الزلزلة والخسوفات ولكن أورد بعضهم من كلام السلف والتابعين ما يفيد أن الزلزلة العظيمة هي علامة من علامات الساعة ومن هؤلاء السيوطي في الدر المنثور في تفسير لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[154] وقد أورد ابن كثير أقوال السلف وما نقله الطبري كذلك، وبعد أن ذكر لهم قولين أحدهما أن الزلزلة في الدنيا من أشراط الساعة والآخر أنها بعد البعث من القبور.. وبعد ذكر الأقوال قال: «وهذا الحديث دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، أضيفت إلى الساعة لقربها منها»[155].

وقد استدل بذلك على أن المخاطب بهذه الآية عامة الناس مؤمنهم وكافرهم بأن تصيبهم الزلزلة من حين أن نفخة الفزع ليوم القيامة تكون على الكافرين فقط.

وقد تكون هذه الزلزلة على رأي البعض[156] - هي التي تسبق زمن المهدي لقول رسول

---

(١٥٢) راجع: القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٨٠ـ٣٨١.

(١٥٣) راجع: محمد بشير عبد الله، *زلزال الأرض العظيم*، ص٤٩.

(١٥٤) الحج ٢٢: ١-٢.

(١٥٥) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٢، ص٥٢٨.

(١٥٦) راجع: محمد بشير عبد الله، ص٥٧، ٦٩.

الله ﷺ: «أبشرو بالمهدي رجل من قريش من عترتي يخرج في اختـلاف مـن النـاس وزلـزال فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً»(١٥٧) أي أنه زلزال يمهد للمهـدي ليتمكـن مـن الخلافة والله أعلم.

ومن الأحاديث التي ربما توضح ذلك ما جاء عن أنـس بـن مـالك قـال: «دخلـت علـى عائشة رضي الله عنهـا ورجـل معـي، فقـال الرجـل: يـا أم المؤمنيـن حدثينـا عـن الزلزلـة؟ فأعرضت عنه بوجهها، فقال أنس: فقلت لها: حدثينا يا أم المؤمنين عن الزلزلة. فقـالت: يـا أنس إن حدثتك عنها عشت حزينا ومت حزيناً وبعثت حين تبعث، وذلك الحـزن في قلبـك. فقال: يا أمه! حدثينا، فقالت: إن المرأة إذا خلعت ثيابها في غير بيت زوجها هتكت مـا بينهـا وبين الله من حجاب، فإذا تطيبت لغير زوجها كان عليها نار وشنار، فإذا استفحلوا في الزنـا - أو استحلوا - وشربوا الخمور مع هذا وضربوا المعازف غار الله في سمائه فقـال: تزلزلـي بهم، فإن تابوا ونزعوا وإلا هدمها الله عليهم، فقـال أنـس: عقوبـة لهـم؟ قـالت: بـل رحمـة وبركة وموعظة للمؤمنين ونكالاً وسخطة وعذاباً علـى الكـافرين، فقـال أنـس: مـا سـمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد به فرحاً مني بهذا الحديث، بل أعيش فرحاً، وأموت فرحاً، وأبعث حين أبعث وذلك الفرح في قلبي أو قال: في نفسي»(١٥٨).

ويفهم من الحديث أن الصحابيين سألاها عن الزلزلة المذكورة في الآية ويفهم من جوابهـا أنها تقع في الدنيا وسوف تكون عقاباً للكفار ورحمة للمؤمنين بإذن الله...

والخسوفات تعقب الرجفة (الزلزلة) بعد أن تتصدع الأرض فيذهـب فيهـا قسـمٌ مـن الأرض وقد ذكرنا الأحاديث التي تدل على أن هذه الخسوفات من العلامات الكبرى فقـال الرسـولﷺ: «إن الساعة لن تقوم حتى تروا عشر آيات، خسف بالمشـرق وخسـف بـالمغرب وخسـف بجزيـرة العرب.. »(١٥٩).

وهذه الخسوفات لم تقع بعـد كغيرهـا مـن الآيـات الكـبرى خلافـاً لمـا ذهـب إلى ذلـك البرزنجي(١٦٠) لأن ما ذكره من الخسوفات في أزمان متفرقة هي من أشراط الساعة الصغـرى، أما الآيات فتتكون عامة في تأثيرها لكونها في المشـرق والمغـرب وفي الوسـط بجزيـرة العـرب

---

(١٥٧) الإمام أحمد، جـ٣، ص٣٦.

(١٥٨) الحاكم، *المستدرك*، كتاب الفتن والملاحم، جـ٤،ص٥١٦. ونُعيم بن حماد، الفتن، ص ٣٧٠-١٧١.

(١٥٩) سبق تخريجه.

(١٦٠) راجع البرزنجي، *الاشاعة*، ص٧٨-٧٩، ومن الغريب أنه حتـى بقيـة العلمـاء الذيـن ذكروهـا مـن أشراط الكبرى لم يذكروا عنها شيئاً في مقابل الافاضة والتفصيل للآيات الأخرى..

فتكون فتنة عظيمة تعم مشارق الأرض ومغاربها.

قال ابن حجر: «وقد وجد الخسف في مواضع، ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوفات الثلاثة قدراً زائداً على ما وجد كأن يكون أعظم منه مكاناً وقدراً»[١٦١] كما أن حصولها ربما في وقت واحد إثر زلزلة عظيمة مما يجعلها من الآيات الكبرى حيث يخسف بثلاث مدن كبيرة تحت الأرض بمن عليها من الخلق.

ولا يتعارض ذلك مع ما ورد من الأحاديث من أن الله رفع عن هذه الأمة الرجم والخسف، حيث ذكر ابن حجر في دفعه عدة احتمالات منها: إن الاعاذة مقيدة بزمان مخصوص في القرون المفصّلة ويجوز بعدها لكثرة الخبث، ومنها أن ذلك لا يقع لجميعهم.. وقد أعاذ الله تعالى أن يستأصل بهما هذه الأمة، ومع ذلك قد يقع تسليط العدو الكافر على بعض المؤمنين أو تصيبهم السنة ولكن لا يقع عموماً، فكذلك الخسف والرجم[١٦٢].

أما تحديد أماكن الخسف فلم تبينه الأحاديث بل أشارت إلى جهاتها فقط بأن أحدها في المشرق وآخر في المغرب وثالث بجزيرة العرب.. وقد وردت أحاديث أخرى تتحدث عن خسف في بعض البلاد كالبصرة أو الزوراء (بغداد) أو الاسكندرية ولكن لم يثبت منها شيء.

والأفضل ترك تحديدها للغيب لعدم وجود ما يستدل به على مدينة بعينها[١٦٣].

٤- ظهور الدجال

المراد به هنا الدجال الأكبر الذي يخرج قبيل الساعة في زمن المهدي وعيسى عليه السلام، وتحصل على يديه فتن ومحن كثيرة، يدعي الألوهية ويقدره الله تعالى على كثير من الخوارق.

والدجال من الدجل، وهو الخلط والتلبيس، والتغطية، والدجال: الكذاب وسمي كذلك لأنه يغطي الحق بباطله، ويقال: دجل البعير بالقطران إذا غطاه، والإناء بالذهب إذا طلاه..[١٦٤] والدجّال: المموه الكذاب من صيغ المبالغة على وزن «فعّال» أي: يكثر من الكذب والتلبيس[١٦٥].

---

(١٦١) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٣، ص٨٤.

(١٦٢) راجع: ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٨، ص٢٩٢-٢٩٣.

(١٦٣) هناك بعض المحدثين من أشار إلى خسف في دول الغرب.. وأنها سوف تكون عاد الثانية لأن القرآن ذكر عاد الأولى وانزال العذاب بها فهذا يعني أن من شابه أهل عاد ومعاصيهم سوف يتحقق بهم الخسف.

(١٦٤) ابن حجر، *فتح الباري*، ج١٣، ص٩١.

(١٦٥) انظر: ابن منظور، *لسان العرب*، جـ١١، ص٢٣٦، وابن الأثير، *النهاية في غريب الحديث*، جـ٢، ص١٠٢.

وذكر القرطبي أن الدجال في اللغة يطلق على عشرة وجوه[١٦٦].

ويلقب «بالمسيح الدجال»، وقد ذكر القرطبي أقوال العلمــاء المختلفـة في معنـى تسـميته. تصل إلى ثلاثة وعشــرين قـولاً[١٦٧]، وسـبب هـذا الاختـلاف أن هـذه اللفظـة تطلـق علـى الضدّين: على الصدّيق وعلى الضليل الكذاب، والمسيح لقب عيسى عليه السلام أيضـاً، وإذا أريـد به الدجال قيّد به، وقد فرق النبي ﷺ بينهما بقوله في الدجال «مسيح الضلالة» مما يدل علـى أن عيسى عليه السلام مسيح الهدى[١٦٨].

وأبرز هذه الأقوال في سبب تسمية الدجال «بالمسيح» لأن إحدى عينيه ممسوحة، أو لأنه يمسح الأرض في أربعين يوماً.. ودليل الأول قول الرسول ﷺ «إن الدجال ممسوح العين.. »[١٦٩].

أما صفته: فقد وصفه الرسول ﷺ حتى إذا خرج عرفه المؤمنون بتلك الصفات... فقد جاء في مجموع الأحاديث أنه: رجل، شاب، أحمر، قصير، أفحج، جعـد الـرأس، أجلـى الجبهـة، عريـض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العـين ليسـت بناتئـة ولا جحـراء، كأنهـا عنبـة طافئـة، وعينـه اليسرى عليها ظفرة غليظة، مكتوب بين عينيه (ك،ف،ر) وهو عقيم لا يولد له.

ومن الأحاديث التي ذكرت صفاته ما ذكره ابن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قـال: «بينمـا أنا نائم أطوف بالبيت.. فذكر أنه رأى عيسـى بـن مريـم عليه السلام، ثـم رأى الدجـال، فوصفـه، فقال: فإذا رجل جسيم، أحمر جعد الرأس، أعور العين، كأن عينـه عنبـة طافئـة، قـالوا: هـذا الدجال أقرب الناس به شبهاً ابن قطن« رجل من خزاعة»[١٧٠].

وعنه ﷺ: «إن مسيح الدجال، رجل قصير، أفحج، جعد، أعـور، مطمـوس العـين، ليـس بناتئة ولا جحراء، فإن لبس عليكم، فاعلموا أن ربكم ليس بأعور»[١٧١]

---

(١٦٦) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٩٢-٣٩٣.

(١٦٧) المصدر السابق، جـ٢، ص٤١٥-٤١٨.

(١٦٨) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٩١.

(١٦٩) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الدجال وصفته، جـ٤، ص٢٢٤٩.

(١٧٠) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، جـ٨، ص١٠٢، كما أخرجه في مواضع أخرى مثل كتاب اللباس، وكتاب التعبير، والامام مالك، *الموطأ*، كتاب صفـة النبي ﷺ، بـاب مـا جـاء في صفة عيسى عليه السلام، والدجال، جـ٢، ص٩٢٠، رقم(٢). ومسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب ذكـر المسيح بن مريم عليه السلام والمسيح الدجال، جـ١، ص١٥٤.

(١٧١) أبو داود، سـنن *أبـي داود*، كتـاب الملاحـم، بـاب خـروج الدجـال ح(٤٣٢٠)، جــ٤، ص٤٩٦، وصححه الألباني، *صحيح الجامع الصغير*، جـ٢، ص٣١٧-٣١٨ (ح٢٤٥٥).

وفي آخر: «الدجال أعور العين اليسرى، جفال الشعر»[١٧٢]

وفي آخر: «وإن بين عينيه مكتوب كافر»[١٧٣] وفي رواية: «ثم تهجاها (ك،ف،ر) يقرؤه كل مسلم»[١٧٤] وفي رواية: كل مؤمن كاتب وغير كاتب.

ونرى بعض الأحاديث ذكرت العور بالعين اليسرى، وأغلبها اليمنى، وقد جمع ابن حجر بين ذلك، وخلص إلى أن عيني الدجال معيبتان.. وأيده النووي في هذا الجمع، ورجحه القرطبي[١٧٥].

وقد جعل الله صورته على وصف لا يدع مجالاً للشك في كذبه، بإدعائه الألوهية، فلو كان إلهاً ما حصل النقص في خلقته...

وذكر البغوي في تفسيره أن الدجال مذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[١٧٦]، وأن المراد بالناس هنا «الدجال» من باب إطلاق الكل على البعض[١٧٧].

أما الأحاديث التي ذكرت الدجال فهي كثيرة جداً وصريحة وصحيحة ثابتة، ولهذا ذهب جميع أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمفسرين إلى الإيمان بخروجه، ونقل النووي عن القاضي عياض بأنها حجة لأهل الحق في صحة وجوده، وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده.. إلى أن قال: «هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظّار»[١٧٨] ومثل ذلك قول القرطبي.

والأحاديث في الدجال جاءت بذكر أوصافه - كما مرّ - لتعريف الناس به وخصوصاً المؤمنين فلا يفتنون به ويكونوا على علم بصفاته.

---

(١٧٢) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال ح(٢٩٣٤)، جـ٤، ص٢٢٤٨.

(١٧٣) البخاري، *الصحيح*، كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾ جـ٨، ص١٧٢، ومسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، ح(٢٩٣٣)، جـ٤، ص٢٢٤٨.

(١٧٤) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، جـ٤، ص٢٢٤٨، والرواية التي بعدها فيه «كل مؤمن.. »، وأبو داود، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، جـ٤، ص٤٩٥، وأحمد، *المسند*، جـ٣، ص٢١١-٢٤٨.

(١٧٥) راجع، ابن حجر، *الفتح*، جـ١٣، ص٩٧، النووي، *شرح صحيح مسلم*، جـ٢، ص٢٣٥، والقرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٩٨-٣٩٩.

(١٧٦) غافر ٤٠: ٥٧.

(١٧٧) البغوي، *معالم التنزيل*، جـ٦، ص٩٨.

(١٧٨) راجع: النووي، شرح صحيح مسلم، جـ٨، ص٥٨، والقرطبي، التذكرة، جـ٢، ص٣٩٩-٤٠٠.

وجاءت أحاديث فيه للتحذير من فتنته مثل قول الرسول ﷺ: «ما بين خلق آدم إلى أن تقوم الساعة أمر أكبر من الدجال»[179] وفي رواية «خلق أكبر..» وفي آخر «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أكبر من الدجال قد أكل الطعام ومشى في الأسواق»[180]، كما ذكر النبي ﷺ أن كل الأنبياء حذروا أممهم منه فقال: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب.. »[181].

كما جاءت أحاديث أخرى للتعوذ منه في الدعاء فقال رسول الله ﷺ: «عوذوا بالله من عذاب النار، عوذوا بالله من فتنة الأعور الدجال»[182].

وجاءت طائفة أخرى من الأحاديث تذكر مكان خروجه، فعن عبد الله بن عمرو قال: «أول مصر من أمصار العرب يدخله الدجال البصرة»[183].

وفي آخر: «الدجال خارج من قبل المشرق من أرض يقال لها خراسان معه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة»[184] وجاء ما يدل على أنّه من يهود أصبهان.

وأما ما يدل على أن أتباعه من يهود أصبهان فقول الرسول ﷺ: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة»[185].

وقال ابن كثير: «فيكون بدء ظهوره من أصبهان من حارة يقال لها «اليهودية» وبهذا يكون الجزم أنه من قبل المشرق»[186].

---

(١٧٩) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٤، ص٢٠، وأبو عمرو الداني، *السنن الواردة* ح(٢٥) جـ١، ص٢٢٥.

(١٨٠) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب في بقية من أحاديث الدجال، جـ٤، ص٢٢٦١، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٤، ص١٩-٢١، والحاكم، المستدرك، جـ٤، ص٥٢٨.

(١٨١) البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال مع الفتح، جـ٣، ص٩٠.

(١٨٢) مسلم، *الصحيح*، كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، جـ١، ص٤١٣، والنسائي، *السنن*، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من فتنة الممات، جـ٨، ص٢٧٧.

(١٨٣) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٤، ص٢١٦، ويعبر عنها «ملتقى البحرين»، وأبو عمرو الداني، *السنن*، ح(٢٦٤)، جـ٦، ص١١٤٤-١١٤٥ والحديث موقوف وليس له حكم المرفوع لأن عبد الله بن عمرو كان ينظر في كتب الأوائل.

(١٨٤) الترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في أين يخرج الدجال، جـ٤، ص٥٠٩ ح(٢٢٣٧)، وابن ماجة، *السنن*، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، جـ٢، ص١٣٥٣، وأحمد، *المسند*، جـ١، ص٤،٧، وصححه الألباني في سلسلة الحاديث الصحيحة، جـ٤، ص١٢٢، رقم (١٥٩١).

(١٨٥) مسلم، كتاب الفتن، باب في بقية من أحاديث الدجال، جـ٤، ص٢٢٦٦، وأحمد، *المسند*، جـ٣، ص٢٢٤.

(١٨٦) ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص١٢٨.

أما سبب خروجه فقد ذكرت الأحاديث أنه بسبب غضبة يغضبها فقال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال من غضبة يغضبها.. »[187] وهذه الغضبة سببها انتصار المسلمين وفتحهم للقسطنطينية إذ ذكر الرسول ﷺ افتتاح المسلمين لها بالتهليل والتكبير فقال: «... فبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج فيتركون كل شيء ويرجعون»[188].

كما بينت الأحاديث الخوارق التي تقع على يده - بإذن الله - ابتلاءً من الله لعباده إذ يجري له الخوارق فلذلك فتنته كبيرة ومن ذلك قول الرسول ﷺ: «ألا أخبركم عن الدجال حديثا ما حدثه نبي قومه؟ وإنه أعور، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول إنها الجنة هي النار، وإني أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه»[189] وفي آخر: «إن معه ماءً ونـاراً، فناره ماءٌ بارد، وماؤه نار، فلا تهلكوا»[190].

كما أرشدنا النبي ﷺ إلى السبل الشرعية للنجاة من فتنة الدجال بقراءة آيات من سورة الكهف والتعوذ منه في الدعاء كما سيأتي.

فتنة الدجال: إن خروج الدجال آية عظمى متميزة بين الآيات الكبرى نفسها فكل آية غيرها تدعو الإنسان للتأمل والتوبة والإيمان لخرقها النواميس الكونية، إلا أن فتنة الدجال أمر آخر.

وتكمن الفتنة في الظروف التي يخرج بها.. الناس في بلاء ومحنة وجوع وقحط وهم بحاجة إلى منقذ فيأتي الدجال بفتنته فتعمى القلوب التي في الصدور مما يجري على يديه وخصوصاً أنه يخرج في ضعف من الدين وإدبار من العلم وذهول الناس عن ذكره، وأن أكثر ما يتبعه الأعراب والنساء، وفي قوله ﷺ: «إن أمام الدجال سنوات خداعة... »[191] ما يبين ذلك،

---

(١٨٧) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، جـ٤، ص٢٢٤٦ من حديث طويل والطبراني، *المعجم الكبير*، جـ٣، ص١٩٥، ٢١١، وأبو عمرو الداني، *السنن الواردة*، باب ما جاء في الدجال، ح٦٢٢، جـ٦، ص١١٤٣.

(١٨٨) مسلم، *الصحيح*، باب إقبال الروم في كثرة القتل عند خروج الدجال ح(٢٨٩٩)، جـ٤، ص٢٢٢٣-٢٢٢٤.

(١٨٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب الانبياء، باب قول الله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾، جـ٤، ص١٠٥، ومسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفه ما معه، جـ٤، ص٢٢٥٠.

(١٩٠) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، جـ٨، ص١٠٣، ومسلم كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفته، جـ٤، ص٤٩-٥٠.

(١٩١) البرزنجي *الإشاعة*، ص١٩٥.

فقد ورد في الصحيح أنه ستكون بين يدي الدجال ثلاث سنوات عجاف فيها شدة وكرب، فلا مطر ولا نبات، فبينما هم كذلك يظهر الدجال ومعه الطعام والشراب وحينها لا عصمة إلا لمن عصمه الله، وتتمثل فتنته فيما يأتي:

أ - سرعة انتقاله في الأرض كلها - في مدة أربعين يوماً - إلا مكة والمدينة وبيت المقدس وجبل الطور حيث تطرده الملائكة منها، لقول الرسول ﷺ: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة»[(١٩٢)] وفي رواية: «... هذه طيبة - يعني المدينة - مرتين، لا يدخلها الدجال ليس منها نقب إلا عليه ملك شاهر السيف»[(١٩٣)].

وروى الإمام أحمد: «وأنه يمكث في الأرض أربعين صباحاً يبلغ فيها كل منهل، ولا يقرب أربعة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد الطور، والمسجد الأقصى»[(١٩٤)].

ب - جنته وناره، ومعه ما يشبه الجنة والنار لقوله ﷺ: «إن معه ماءً وناراً، فناره ماء بارد، وماؤه نار» وزاد مسلم «فلا تهلكوا»[(١٩٥)].

جـ - أمره ونهيه للأشياء، حيث يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، والبهائم تتبعه ويأمر الأرض لتخرج كنوزها فتستجيب له.

د - القتل والإحياء حيث يقتل الشاب الذي يعرف كذبه ثم يحييه..

وتتضمن هذه الخوارق أحاديث طويلة في قصة الدجال في الصحيحين والسنن ففي حديث النواس بن سمعان قال: «ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة.... قلنا يا رسول الله! وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا اقدروا له قدره، قلنا يا رسول الله وما اسراعه؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على

---

(١٩٢) البخاري، *الصحيح*، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة، جـ٢، ص٢٢٣، ومسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب قصة الجساسة، جـ٤، ص٢٢٦٥، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص١٩١.

(١٩٣) ابن ماجة، *السنن*، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، جـ٢، ص١٣٥٤-١٣٥٥، ح(٤٠٧٤)، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٦، ص٢٧٣، والطبراني، *المعجم الكبير*، جـ٢٤، ص٣٨٥، رقم٩٥٦، والداني، *السنن*، جـ٦، ص١١٦٤.

(١٩٤) الإمام أحمد، *المسند*، جـ...ص...، والهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٧، ص٣٤٣، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال *الصحيح*، وقال ابن حجر: رجاله ثقات، *فتح الباري*، ج١٣، ص١٠٥.

(١٩٥) البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، جـ٨، ص١٠٣، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال.

القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت دراً، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك..»[١٩٦].

ويذكر في حديث آخر من يعصمه الله من فتنة الدجال، يقول رسول الله ﷺ: «يأتي الدجال - وهو محرّم عليه أن يدخل نقاب المدينة - فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خيار الناس فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته؟ أتشكون في الأمر، فيقولون: لا فيقتله ثم يحييه، فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه»[١٩٧].

وخلاصة ما تقدم أن الدجال يخرج من بلاد المشرق من خراسان ابتداءً، ولكن معرفة أمره للمسلمين عند ما يصل بين العراق والشام لقول رسول الله ﷺ: «... إنه خارج من خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً يا عباد الله، فاثبتوا»[١٩٨]، ومدة مكثه أربعين يوماً يوما كسنة ويوماً كشهر، ويوماً كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم.. وهناك من له تأويلات لها.. أما أتباعه فأغلبهم اليهود والعجم والترك وأخلاط الناس من الأعراب واليهود بشكل خاص ينتظرون خروجه.. واسمه عندهم «المسيح بن داود» يزعمون أنه يخرج آخر الزمان ويرد إليهم الملك[١٩٩].. وأما اتباعه من قبل المسلمين فلأنه يخرج في زمن ابتعاد الناس عن الدين ففي الحديث: «يخرج الدجال في خفة من الدين وإدبار من العلم»[٢٠٠].

---

(١٩٦) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، ح(٢١٣٧)، جـ٤، ص٢٢٥٠-٢٢٥٣.

(١٩٧) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب صفة الدجال وتحريم المدينة عليه، ح(٢٩٣٨)، جـ٤، ص٢٢٥٦.

(١٩٨) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفة ما معه، ح(٢٢٣٧)، جـ٤، ص٢٢٥٠-٢٢٥٥.

(١٩٩) عمر سليمان الأشقر، *القيامة الصغرى*، ص٢٤٤.

(٢٠٠) الهيثمي، *مجمع الزوائد*، جـ٧، ص٣٣٤.

ومع كل ما ذكرنا من النصوص فهناك من ينكر خروج الدجال فمن القدماء الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة، فقد أنكروه بالكلية، وردوا الأحاديث الواردة فيه[201] ومن المتأخرين أيضاً من ينكرها جملة أو يشكك فيها أو يؤوّل..

فمن هؤلاء محمد عبده وأبو عبية حين ذكرا أن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح واستشراء الفتن واستعلاء الضلال، وأولا في مقابله نزول عيسى عليه السلام وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وما غلب في تعاليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم، ومن هؤلاء كذلك محمد فريد وجدي الذي طعن في أحاديث الدجال علماً أن الكثير منها في الصحيحين.. ومن الناس من يشكك باعتبارها أحاديث آحاد.. وقد رد ابن كثير على هؤلاء لردهم ما تواترت أخباره[202] أما تأويلات المحدثين فهي من باب التلاعب بالنصوص وقد رد العلماء على أقوالهم[203].

والحقيقة أن جميع هذا الشبهات واهية، كما أن الأحاديث واضحة وليست فيها رموز تحتاج إلى تأويل..

ومثل ذلك رأي الشيخ سعيد النورسي رحمه الله وهذا موقفه من جميع الأشراط أنها من المتشابه الذي يحتاج إلى تأويل! وأنها مبهمة كبعض المتشابهات القرآنية عدا علامة طلوع الشمس من مغربها فهي واضحة.. والباقي إشارات فقط.

وفي قضية الدجال يفهم من كلامه أن الدجال نظام وليس شخصاً، والذي سيدمر نظامه الرهيب ينبغي أن يكون ديناً سماوياً رفيعاً في العيسويين، وهذا الدين هو الذي يمحو بنزول عيسى ذلك المنهج الإلحادي، وقد نسبت أعمال الجماعة باسم الدجال لأن الشخص المعنوي للجماعة غير موجود قديماً فأسندت الإجراءات الضخمة باسم من يترأسها.. وهكذا أوّل كل ما في الأحاديث مما لا مجال لذكره[204].

وهناك طائفة تؤمن بالدجال إلاّ أنها تزعم أنه مموه ولا حقيقة لما يفعله، وما يبديه للناس خيالات وحيل، وذكر ابن كثير ذلك ونسبه لابن حزم والطحاوي والبيهقي واستدلوا بحديث المغيرة بن شعبة قال: « ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال ما سألته، وإنه قال لي: ما يضرك منه؟

---

(٢٠١) راجع: النووي، *شرح صحيح مسلم*، جـ١٨، ص٥٨، والقرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٤٠٠.

(٢٠٢) راجع: ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص١٦٤.

(٢٠٣) من هؤلاء الشيخ عبد المحسن العباد في كتابه: الرد على من كذب بالأحاديث الواردة في المهدي.

(٢٠٤) راجع: سعيد النورسي، بديع الزمان، *الشعاعات*، ترجمة: احسان قاسم الصالحي، ط شركة النسل، دار سوزلر، استانبول، ١٩٩٢، ص١٠٤-١٠٨ (الشعاع الخامس).

قلت: لأنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء، قال: بل هو أهون علـى الله مـن ذلـك»[٢٠٥]، قالوا معنى ذلك لا يكون معه شيء على الحقيقة وهو قول البرزنجي كذلك وآخرين[٢٠٦].

ورد القاضي عياض على استدلالهم بالحديث بأن المراد أنه أهون من أن يجعل شـيئا مـن ذلك آية على صدقه، لا سيما وقد جعل فيه آية ظاهرة في كذبه يقرؤها من قرأ ومن لم يقـرأ زائدة على شواهد كذبه من حديثه ونقصه..[٢٠٧].

وكذلك الأمر بالنسبة لمدة مكثه أربعين يوماً، يوما كسنة ويومـاً كشـهر.. فـالبعض يبقيهـا على ظاهرها دون تأويل، وهناك من جمع أيام سنة وشهر وأسبوع وباقي الأيـام فيكـون مـدة مكثه ٤٢٨-٤٢٩ يوماً[٢٠٨]، وهناك من قال بأن ظهوره سيكون في دائرة القطب الشمالي من العالم، لأن السنة هناك عبارة عن يوم وليلة وإذا اقتربنا يكون الشهر يوماً وليلة، ثم أسـبوعاً كاملاً وهكذا..[٢٠٩].

الدجال وابن صياد: هو رجل من يهود المدينة، واسمه صاف بـن صـائد، وعندمـا سـمع المسلمون من رسول الله ﷺ أوصاف الدجال رأوها تنطبق على ابن صياد، فشاع بين النـاس أنه الدجال، فأراد النبي ﷺ أن يتحقق منه وخصوصاً أنه كان يتكهـن ويكـذب، فذهـب إليـه النبي ﷺ مع عمر بن الخطاب، فعن ابن عمر ﷺ قال: "إن عمر انطلق مع النبـي ﷺ في رهـط قبل ابن صياد حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أطم ابـن مغالـة وقـد قـارب ابـن صيـاد الحلم، فلم يشعر حتى ضرب النبي ﷺ بيده ثم قال لابن صياد: أتشهد أني رسول الله، فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين، فقال ابن صياد للنبي ﷺ: أتشهد أني رسـول الله؟ فرفضه وقال: آمنت بالله وبرسله. فقال له: ما ترى؟ قال ابـن صيـاد: يـأتيني صـادق وكاذب فقال النبي ﷺ: «خلط عليك الأمر» ثم قال له النبي ﷺ: «إني خبـأت لـك خبئـاً؟ » فقال ابن صياد: هو الدخ[٢١٠]، فقال: «اخسأ فلن تعدو قدرك»، فقال عمـر ﷺ : دعنـي يـا رسول الله أضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: «إن يكنه، فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فـلا خير

---

(٢٠٥) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال مع فتح الباري، جـ١٣، ص٨٩.
(٢٠٦) البرزنجي، *الاشاعة*، ص١٩٤-١٩٥.
(٢٠٧) راجع: التفاصيل عند ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٣، ص٩٣.
(٢٠٨) راجع، بشير محمد عبد الله، *زلزال الأرض العظيم*، ص١٦٧.
(٢٠٩) راجع سعيد النورسي، *الشعاعات*، ص١١٤-١١٥.
(٢١٠) دخ: المقصود آية الدخان، ولفظها هكذا على عادة الكهان إذا ألقى الشيطان إليهم، انظر: النـووي، جـ١٨، ص٤٩.

في قتله»[٢١١].

وللحديث روايات أخرى بنفس المعنى وامتحان النبي له بـ «الدخان» ليتعرف عليه والمراد ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[٢١٢]

قال ابن كثير: «إن ابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان وهم يقرطون – يقطعون – العبارة، لهذا قال: الدخ، يعني الدخان فعندها عرف رسول الله مادته وأنها شيطانية فقال له: اخسأ فلن تعدو قدرك»[٢١٣].

وفي الحديث عن ابن المنكدر قال: «رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن الصياد الدجال،قلت: تحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي ﷺ»[٢١٤] كما ورد كذلك عن ابن عمر وأبي ذر رضي الله عنهما بأن ابن صياد هو الدجال..

تدل الأحاديث على توقف النبي ﷺ في أمر ابن صياد لأنه لم يوح إليه أنه الدجال الأكبر ولذلك لم ينكر على عمر ﷺ حلفه بأنه ابن صياد ولا الصحابة كذلك..

وعن نافع قال: لقي ابن عمر ابن صائد في بعض طرق المدينة فقال له قولاً أغضبه فانتفخ حتى ملأ السكة فدخل ابن عمر على أخته حفصة وقد بلغها فقالت له: رحمك الله ما أردت من ابن صائد أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «إنما يخرج من غضبة يغضبها»[٢١٥].

ومن ناحية أخرى جاء حديث تميم الداري المشهور الذي يفيد أنه رأى وجماعة الدجال موثقاً في جزيرة بعد أن لعب الموج بسفينتهم شهراً حتى رست قرب جزيرة لا يعرفونها فرأوا دابة أهلب دلتهم على مكانه واسمها «الجساسة» فلما دخلوا الدير وجدوه فسألهم عن أمور منها: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ فأخبروه أنه خرج من مكة، فأخبرهم أنه على

---

(٢١١) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، ح(٢٩٢٢)، جـ٤، ص٢٢٤٠-٢٢٤١.

(٢١٢) الدخان ٤٤: ١٠.

(٢١٣) الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، جـ٣، ص٣٠٠.

(٢١٤) البخاري، *الصحيح*، كتاب الاعتصام، باب من رأى ترك النكير من النبي ﷺ حجة، مع *فتح الباري*، جـ١٣، ص٣٢٣، رقم(٧٣٥٥)، ومسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد، جـ٤، ص٢٢٤٣، ح(٢٩٢٩)، وأبو داود، *السنن*، كتاب الملاحم، باب في خبر ابن صائد، جـ٤، ص٥٠٦، ح(٤٣٣١).

(٢١٥) سبق تخريجه.

وشك الخروج ولا يدع مكاناً إلا نزل فيه خلال أربعين يوماً إلا مكة وطيبة.. عندها جاء تميم إلى النبي ﷺ وأسلم وأخبره قصة الدجال التي وافقت ما كان يذكره النبي ﷺ للصحابة فطلب منه أن يقصها عليهم وقال النبي: هذه طيبة (ثلاثاً) يعني المدينة(٢١٦).

وبناءً على ذلك اختلفت أقوال العلماء في ابن صياد فالذين قالوا هو الدجال احتجوا بحلف عمر دون أن يكذبه ﷺ، والذين قالوا بأنه ليس هو احتجوا بحديث تميم الداري وخبر الجساسة. وقد أورد مسلم حديث أبي سعيد مع ابن صياد يحاول أن ينفي أنه الدجال وفي آخره قال أبو سعيد: «حتى كدت أن أعذره ثم قال أي ابن صياد: أما والله إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن، قال: قلت له: أيسرك أنك ذاك الرجل أي الدجال قال فقال: لو عرض علي ما كرهت! »(٢١٧).

قال القرطبي: «الصحيح أن ابن صياد هو الدجال بدلالة ما تقدم، وما يبعد أن يكون بالجزيرة في ذلك الوقت، ويكون بين أظهر الصحابة في وقت آخر»(٢١٨).

وقال النووي: «أمره مشتبه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره، ولا شك في أنه دجال من الدجاجلة فإن النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره»(٢١٩).

ويفيد كلام الشوكاني أنه الدجال(٢٢٠).

وأما البيهقي فإنه يرى أنه ليس الدجال الأكبر فقال: «وكأن الذين يجزمون أن ابن صياد هو الدجال لم يسمعوا بقصة تميم الداري ﷺ وإلا فالجمع بينهما بعيدٌ جداً»(٢٢١).

ويرى ابن كثير أنه ليس الدجال الذي يخرج آخر الزمان لحديث تميم الداري(٢٢٢).

وقد جمع ابن حجر بين الأقوال فقال: «أقرب ما يجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال أن الدجال بعينه هو الذي شاهده تميم موثقاً وأن ابن صياد

---

(٢١٦) انظر نص الحديث عند مسلم، كتاب الفتن، باب قصة الجساسة، ح(٢٩٤٢)، جـ٤، ص٢٢٦١-٢٢٦٤.

(٢١٧) مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد، جـ٤، ص٢٢٤١، والترمذي، *السنن*، كتاب الفتن باب ما جاء في ذكر ابن الصائد، جـ٤، ص٥١٦، رقم(٢٢٤٦).

(٢١٨) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٤٤١.

(٢١٩) النووي، *شرح صحيح مسلم*، جـ١٨، ص٤٦.

(٢٢٠) الشوكاني، *نيل الأوطار*، جـ٧، ص٢٣٠.

(٢٢١) عزالدين حسين، *أشراط الساعة*، ص ٧٧.

(٢٢٢) ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص١٠٨.

شيطان تبدى في صورة الدجال في تلك المدة إلى أن توجه إلى أصفهان فاستتر مع قرينه»[223].

وهذا الجمع من خلال الأدلة هو الراجح والله أعلم، وذلك لأن ابن جابر وابن عمر اللذين يحلفان على أنه هو، أحدهما وهو ابن جابر من رواة حديث تميم وله علم به.

أما إنكار ابن صياد أحياناً وقوله أن الأوصاف التي ذكرها النبي ﷺ لا تنطبق عليه لأنه أسلم وتزوج وله ولد وقد دخل مكة والمدينة، في حين أن النبي ﷺ وصفه بأنّه يهودي ولا يولد له ولا يدخل مكة والمدينة، فهذه ليست أدلة له لأن إخبار النبي ﷺ عن أوصافه حين خروجه.. وصح عن جابر ﷺ أنه قال: «فقدنا ابن صياد يوم الحرة»[224].

وقد ذكر ابن حجر ما يدل على صحة جمعه فقال: أخرج أبو نعيم الأصبهاني في «**تاريخ أصبهان**» ما يؤيد كون ابن صياد هو الدجال... فساق الرواية عن عبد الرحمن عن أبيه قال: «لما افتتحنا أصبهان كان بين عسكرنا وبين اليهود فرسخ، فكنا نأتيها فنختار منها، فأتيتها يوماً، فإذا اليهود يزفنون ويضربون فسألت صديقاً لي منهم، فقال: ملكنا الذي نستفتح به على العرب يدخل، فبت به على سطح، فصليت الغداة، فلما طلعت الشمس، إذ الرهج من قبل العسكر فنظرت فإذا رجل عليه قبة من ريحان، واليهود يزفنون ويضربون فنظرت فإذا هو ابن صياد فدخل المدينة فلم يعد حتى الساعة»[225].

وهناك من المحدثين من يرى أن الدجال هو من رآه تميم الداري وهو ظهر في المدينة بصورة ابن صياد وذهب إلى يهود أصبهان بعد الحرة وبقي عندهم يخطط لتدمير العالم وإفساده وبقي كل تلك القرون لأن فيه سراً شيطانياً! وفسر كلام العلماء الذين أنكروا أنه ابن صياد أنه نتيجة للفهم الخاطئ لمعنى الخروج إذ يفهمون خروجه في الجزيرة على أنه الخروج الذي يحكم به العالم على أثره[226].

وبين هذه الأقوال يبقى الدجال ومعرفته الدقيقة ضرب من الغيب مع وجوب الاعتقاد بخروجه بالقرائن التي ذكرها النبي ﷺ.

نهاية الدجال: عندما تنتهي الملحمة في فلسطين وتنتقل قيادة المهدي بعدها إلى القدس، في نهاية المعركة لا يفرح المسلمون بغنيمة لكثرة القتلى والشهداء والخسائر، وفي نفس الوقت لا

---

(٢٢٣) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٣٢٨.

(٢٢٤) أبو داود، سننه، كتاب الملاحم، باب في خبر ابن الصائد، جـ٤، ص٥٠٦، ح(٤٣٣٢).

(٢٢٥) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٣٢٧ـ٣٨٨.

(٢٢٦) محمد بشير عبد الله، *زلزال الأرض العظيم*، ص١٢٠-١٢٢.

يجدون ما يحول بينهم وبين القسطنطينية فيتوجهون لفتحها، فتفتح بالتهليل والتكبير وقد بشر النبي ﷺ بذلك فقال: «سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني اسحق، فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها الذي في البحر، ثم يقولون الثانية لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة، لا إله إلا الله والله أكبر فيفرج لهم. فيغنموا، فبينما هم يقتسمون المغنم إذ جاءهم الصريخ أن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون»[٢٢٧].

ويستدل الكثير بهذا الحديث أن الفتح هنا يتعدى القسطنطينية والمقصود به رومية (روما) معقل المسيحية الكاثوليكية، أما القسطنطينية الأولى فقد فتحها محمد الفاتح وتغير اسمها إلى اسلامبول، وتسمى روما القسطنطينية الرومية والله أعلم.

عند ذلك يغضب الدجال لسقوط آخر حصن له مدافع عن اليهود وقد حدثنا النبي ﷺ أنه يخرج لغضبة يغضبها لذلك لا يجعل المسلمين يفرحون بالنصر والغنائم فتحين الفرصة لظهوره كما في الحديث حيث يعلن عنه أن الدجال قد خرج«والمسلمون يعرفون فتنة الدجال كما أخبرهم النبي فيتركون ما بأيديهم خوفاً على فتنة أهليهم وذراريهم فيعودون، فيكون الدجال وأتباعه من اليهود والمنافقون والأخلاط قد انقسموا من اصبهان وكرمان إلى فرق ويتوجه هو بفرقة إلى المدينة ومكة فيمنع من دخولها من قبل الملائكة كما ذكرت الأحاديث فيعود خائباً ليحاصر المهدي وجنده بالشام وهم قلة ولكنهم صمدوا وقرروا المقاومة فهم الطائفة التي لم تزل على الحق ظاهرة إلى يوم القيامة وبينما هم يسوون صفوفهم للصلاة خلف المهدي ينزل عيسى عليه السلام من السماء فيقدمه المهدي للصلاة ولكنه يقول: "تقدم أنت فإنها أقيمت لك. وفي رواية بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»[٢٢٨] ويكون في وقتها الدجال متوجهاً إلى بيت المقدس فيلحق به عيسى عليه السلام عند باب «لد» فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح فيقول له عيسى «إن لي فيك ضربة لن تفوتني» فيقتله بحربته وينهزم أتباعه...

وجاءت أحاديث كثيرة تؤكد قتل عيسى للدجال منها: «يخرج الدجال في أمتي... وفيه:

---

(٢٢٧) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، ح(٢٩٢٠)، جـ٤، ص٢٢٣٨.

(٢٢٨) سبق تخريجه.

فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه»[٢٢٩].

وفي آخر: «يقتل ابن مريم الدجال بباب لد»[٢٣٠].

العصمة من الدجال: لقد نصح النبي أمته وأرشدهم إلى ما يعصمهم من فتنة الدجال، وهو الرؤوف بأمته فقد دلها على الخير وحذرها من الحشر ومن جملة ذلك شر وفتنة الدجال.. وأول ذلك التمسك بالإسلام والعودة إلى الحق ومعرفة الله وأسماؤه الحسنى فيعلم أن الدجال غير الله لنقص فيه وأنه لا أحد يرى ربه حتى يموت.

لقد نصح الرسول ﷺ بالتعوذ منه في الدعوات وعقب كل صلاة.

من ذلك قول الرسول ﷺ: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع فيقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، وشر فتنة المسيح الدجال»[٢٣١].

وقد ذكر ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن.. وساق الحديث: قال السفاريني: «مما ينبغي لكل عالم أن يبث أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال.. وقد ورد من علامات خروجه نسيان ذكره على المنابر»[٢٣٢]

ومن العصمة من الدجال حفظ آيات من سورة الكهف فقد أمر النبي ﷺ بقراءة فواتح الكهف وفي رواية خواتيمها منها: «....من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»[٢٣٣] وفي آخر: «من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من الدجال».

قال مسلم: «قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف»[٢٣٤].

قال النووي: «سبب ذلك ما في اولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتن بالدجال» وكذلك آخرها قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا..﴾[٢٣٥].

---

(٢٢٩) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب في خروج الدجال، ح(٢٩٤٠)، جـ٤، ص٢٢٥٨-٢٢٥٩.

(٢٣٠) الترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء في قتل عيسى الدجال، جـ٤، ص٥١٥، ح(٢٢٤٤)، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص٤٢٠.

(٢٣١) مسلم، كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، جـ١، ص٤١٣، والإمام مالك، *الموطأ*، كتاب القرآن، باب ما جاء في الدعاء، جـ١، ص٢١٥، وأبو داود، *السنن*، كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، جـ٢، ص١٩٠، ح(١٥٤٢).

(٢٣٢) والحديث في مجمع *الزوائد* للهيثمي، جـ٧، ص٣٣٥.

(٢٣٣) مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، ح(٢١٣٧)، جـ٤، ص٢٢٥٢.

(٢٣٤) مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، جـ١، ص٥٥٥.

(٢٣٥) النووي، *شرح صحيح مسلم*، جـ٦، ص٩٣، والآية من الكهف ١٠٢:٢٢.

وهذا من خصائص سورة الكهف لما فيها من الآيات الباهرات لأخذ العبرة من قصصها لبيانها الأخسرين أعمالاً وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «إن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»[٢٣٦].

٥- نزول عيسى بن مريم.

من الآيات الكبرى التي تضمنتها الأحاديث التي أوردناها نزول عيسى عليه السلام من السماء آخر الزمان... وقد أخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز أن اليهود لم يقتلوا عيسى - تلك الدعوة التي صدقها النصارى - ولكن الله ألقى شبهه على غيره حيث قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًابَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٢٣٧].

أدلة نزوله: ولنزول عيسى آخر الزمان أدلة من الكتاب والسنة واجماع الأمة...

أ - من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾.. إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾[٢٣٨] هذه الآيات تتحدث عن عيسى بأنه علم للساعة قال البغوي: وإنه: يعني عيسى عليه السلام (علم للساعة) يعني نزوله من أشراط الساعة يُعلم به قربها.. وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ﴿وإنه لَعَلم﴾ بفتح اللام والعين: «أي إمارة وعلامة»[٢٣٩].

وقال ابن كثير: «الصحيح أنه أي: الضمير عائد على عيسى عليه السلام فإن السياق في ذكره، ويدل على ذلك القراءة الثانية المروية عن ابن عباس ومجاهد... »[٢٤٠].

كما استبعد ما روى عن بعض العلماء من أن الضمير في «إنه» يعود على القرآن. وقال تعالى في سياق الرد على اليهود وتكذيبهم في قتل عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[٢٤١].

هذه الآيات تبين أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء وينزل في آخر الزمان ويؤمن به أهل الكتاب وأكثر التفاسير على أن الضمير في (موته) عائد إلى عيسى، أي: « لا يبقى

---

(٢٣٦) الحاكم، *المستدرك*، جـ٢، ص٣٦٨، وصححه، وكذلك الألباني في صحيح *الجامع الصغير*، جـ٥، ص٣٤٠، ح(٦٣٤٦).

(٢٣٧) النساء ٤: ١٥٧-١٥٨.

(٢٣٨) الزخرف ٤٣: ٦١.

(٢٣٩) البغوي، *معالم التنزيل*، جـ٦، ص١٣٩.

(٢٤٠) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٣، ص٢٩٢.

(٢٤١) النساء ٤: ١٥٩.

أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى إلا آمن به قبل موت عيسى»[٢٤٢].

وهو تفسير الطبري وابن كثير وقال البغوي: «وذهب قوم إن الهاء في موته كناية عن عيسى عليه السلام معناه: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن بعيسى قبل موت عيسى عليه السلام وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد إلاّ آمن به حتى تكون الملة واحدة ملة الإسلام»[٢٤٣].

ب - أما من السنة النبوية فالأدلة كثيرة تبلغ حد التواتر المعنوي، وقد صرح بذلك الكثير من العلماء..[٢٤٤] قال سيد قطب رحمه الله: «.. وهو غيب من الغيب الذي حدثنا عنه الصدوق الأمين، وأشار إليه القرآن الكريم، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين»[٢٤٥].

جـ - كما أجمع العلماء على ما تضمنت الأحاديث المتواترة من أن عيسى في السماء وأنه ينزل آخر الزمان.. وقد خالف بعض الجهمية والمعتزلة كما قال القاضي عياض.. واستند المنكرون إلى قوله تعالى «خاتم النبيين» وقول الرسول «لا نبي بعدي»».. وقال: هذا استدلال فاسد لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبياً بشرع ينسخ شرعنا.. أنه ينزل حكماً مقسطاً يحكم شرعنا ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس[٢٤٦].

ومن المحدثين من أنكر ذلك وهم نفس الأشخاص الذين أنكروا المهدي والدجال.. بحجة عدم اعتقادهم برفع عيسى حياً إلى السماء، ووصف الأحاديث الواردة في نزوله بأنها أخبار آحاد وهي غير حجة في أمور العقيدة والمغيبات. وهم بذلك خالفوا جمهور المفسرين برفع عيسى الحسي وليس المعنوي.. وقد صرح بذلك ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿.. **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ..**﴾[٢٤٧] بأنه لو أراد به الموت لا يبقى لعيسى عليه السلام ميزة عن غيره[٢٤٨].

أما حكمهم بتفرد الأحاديث فغير صحيح وقولهم أن أحاديث الآحاد غير حجة خلاف

---

(٢٤٢) الطبري، *تفسيره*، جـ٦، ص٢١.

(٢٤٣) البغوي، *معالم التنزيل*، جـ١، ص٦١٩.

(٢٤٤) راجع: ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٦، ص٤٩٣.

(٢٤٥) سيد قطب، *في ظلال القرآن*، م٥، جـ٢٥، ص٣١٩٩.

(٢٤٦) نقل النووي كلام ابن عياض، انظر: *شرح صحيح مسلم*، جـ١٨، ص٧٥-٧٦، وراجع السفاريني، *المسيخ الدجال وأسرار الساعة*، ص٤٧.

(٢٤٧) آل عمران ٣: ٥٥.

(٢٤٨) انظر: ابن تيمية، *مجموعة الفتاوى*، جـ٤، ص٣٢٢.

ما عليه أئمة السلف[249].

وأما الأحاديث الدالة على نزول عيسى عليه السلام فقد روينا بعضها في النقاط السابقة ومنها قوله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟»[250] وقال في آخر: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها.. »[251].

وجاءت بعض الأحاديث تصف عيسى ابن مريم كقوله ﷺ: «ليس بيني وبينه نبي - يعني عيسى - وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين كأن راسه يقطر، وإن لم يصبه بلل...»[252].

وقال ﷺ في حديث آخر «ليلة أسري بي لقيت موسى... ولقيت عيسى فنعته وقال: ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس «يعني الحمام»[253]» وفي آخر: «... ورأيت عيسى فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود.. »[254].

حكمة نزوله: أما الحكمة من نزوله دون غيره، فأهمها: الرد على اليهود الذين زعموا قتله، وتكذيباً للنصارى في أباطيلهم حيث يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، وليؤمنوا بأنه عبد الله ورسوله.

مكان ووقت نزوله: ينزل عيسى عليه السلام على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وقت إقامة الصلاة فيصلي خلف أمير الطائفة المجتمعة لقتال الدجال، ففي حديث النواس بن سمعان الطويل قول رسول الله ﷺ: «... إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عل المنارة البيضاء

---

(249) راجع: التويجري، *اتحاف الجماعة في الرد على أقوالهم*، جـ2، ص254.

(250) سبق تخريجه.

(251) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى عليه السلام، جـ4، ص143. ومسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى عليه السلام، حاكماً، جـ1، ص135، وأبو داود، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، جـ4، ص118.

(252) الإمام أحمد، *المسند*، جـ2، ص406، وأبو داود، سننه، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، جـ4، ص118، وراجع ابن حجر، *الفتح*، جـ6، ص493.

(253) البخاري، *الصحيح*، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾، جـ4، ص124. ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، ح(168)، جـ1، ص145. وأحمد، *المسند*، جـ2، ص282.

(254) مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، ح(167)، جـ1، ص145.

شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ.. فيطلبه – أي الدجال – حتى يدركه بباب لد فيقتله... »[٢٥٥] وبينت أحاديث أخرى أن الصلاة كانت صلاة الصبح.

مدته: فقد روي عن أبي هريرة وعائشة أنه يمكث أربعين سنة ففي الحديث عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «.. ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»[٢٥٦].

وعن عائشة: «... ثم يمكث عيسى في الأرض أربعين سنة أو قريباً من أربعين سنة إماماً عدلاً وحكماً مقسطاً»[٢٥٧].

وهناك ما روى عن ابن عمر أنها سبع سنين: «.. فيبعث الله عيسى بن مريم..ثم يمكث في الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة»[٢٥٨]، وكلتا الروايتين صحيحة قال ابن كثير: «فهذا مع هذا مشكل اللهم إذا حملت هذه السبع على مدة إقامته بعد نزوله وتكون مضافة إلى مدة مكثه فيها قبل رفعه إلى السماء وكان عمر إذاك ثلاثا وثلاثين سنة على المشهور والله أعلم»[٢٥٩].

وأكثر العلماء أخذوا برواية 'الأربعين' أخذاً برواية الأكثر وتقدم على رواية الأقل، وأن هذه الأربعين تمر كأنها سبع سنين.

مهمته وحكمه: إن أول مهمات عيسى عليه السلام في نزوله هو القضاء على الدجال حيث ينزل وهم في حال التهيؤ للصلاة في وقت كان يحاصرهم الدجال فيصلي عيسى خلف إمام المسلمين وعندما يعلم الدجال بنزوله يحاول الهرب فيلحقه نبي الله فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقضي عليه وعلى من معه من اليهود فقد حان موعد نطق الشجر والحجر بقتلهم فعن رسول الله ﷺ قال: «.. فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرى ليتقدم عيسى فيضع عيسى يده

---

(٢٥٥) سبق ذكره.

(٢٥٦) هو تكملة لحديث ليس بينه وبين نبي وأنه نازل.. السابق ذكره.

(٢٥٧) الإمام أحمد، *مسنده*، جـ٥، ص٧٥ وقال الهيثمي، رجاله رجال الصحيح.. *مجمع الزوائد*، جـ٧، ص٣٣٨.

(٢٥٨) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب في خروج الدجال ومكثه، ح(٢٩٤٠)، جـ٤، ص٢٢٥٨-٢٢٥٩.

(٢٥٩) ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص١٩٣.

بين كتفيه، ثم يقول له: تقدم فصل فإنها لك اقيمت فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى: افتحوا الباب فيفتحون ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هارباً، فيقول عيسى عليه السلام إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيدركه عند باب اللد[٢٦٠] الشرقي فيقتله فيهزم فلا يبقى شيء مما خلق الله عز وجل ليتوارى به يهودي إلا أنطق ذلك الشيء، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا الغرقد، فإنها من شجرهم لا تنطق، إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال اقتله..»[٢٦١].

- هلاك يأجوج ومأجوج بضراعة عيسى عليه السلام حيث يخرجون في زمنه كما سيأتي.

- الحكم بالإسلام وإبطال بقية الشرائع، وفي صلاته خلف إمام المسلمين دليل على ذلك بأنه يتبع شريعة محمد ﷺ حاكماً بالقرآن الناسخ لما قبله وتكرمة لهذه الأمة.. والحكم بشريعة الإسلام ستكون مهمته الكبرى ولذلك يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، وليس ذلك نسخاً للقرآن لاخبار النبي ﷺ إن الجزية تقبل إلى أن ينزل عيسى عليه السلام وبعدها الإسلام أو القتل..

كما روي أنه يحج البيت في مكة المكرمة لقول رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليثنيهما أي يقرنهما[٢٦٢].

- شيوع الأمن والرخاء بين الخلق في عهده ورفع الشحناء والتباغض بين الناس. حيث تجتمع كلمة الجميع على الإسلام وتعم البركة والخير والخصب لدرجة أن الناس يزهدون في المال لكثرته ولعلمهم بقرب القيامة، والأهم في ذلك الأمن وهناءة العيش وهو ما يفتقده أكثر المسلمين اليوم، فلا تباغض ولا تحاسد، وتضع الحرب أوزارها حتى ليأمن الانسان من الوحوش، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، وتأمن الحيوانات كذلك بعضها فترعى الشاة مع الذئب، وترتع الأسود مع الابل..

وجاءت أحاديث بوصف الحياة في ظل نزول المسيح منها قوله ﷺ: «... ويقتل الخنزير، ويقاتل الناس على الإسلام فيهلك الله عز وجل في زمانه الملل كلها غير الإسلام، وحتى

---

(٢٦٠) اللد: بلدة مشهورة في فلسطين.

(٢٦١) ابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم، ح(٤١٢٨). والحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٤٣٦-٤٣٧، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢٦٢) مسلم، *الصحيح*، كتاب الحج، باب إهلال النبي ﷺ، جـ٢، ص٩١٥. الإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٢٤٠، ٢٧٢، ٥٤٠، والروحاء: موضع بين مكة والمدينة. انظر: معجم *البلدان*، جـ٤، ص٢٣٦.

تقع الأمنة في الأرض، وحتى يرتع الأسد مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم ويلعب الغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً»(٢٦٣).

وفي آخر: «طوبى لعيش بعد المسيح، يؤذن للسماء في القطر ويؤذن للأرض في النبات، فلو بذرت حبك على الصفا لنبت، ولا تشاح ولا تحاسد ولا تباغض حتى يمر الرجل على الأسد ولا يضره، ويطأ على الحية فلا تضره»(٢٦٤).

٦- خروج يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج: قيل اسمان أعجميان منعا من الصرف للعلمية والعجمة وقيل: عربيان، من أجت النار أجيجاً إذا التهبت، أو من الأجاج: وهو الماء الشديد الملوحة، وقيل: الأج: سرعة العدو، وقيل: مأجوج من ماج إذا اضطرب، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وذلك عند خروجهم من السد(٢٦٥).

وقرأ الجمهور «ياجوج وماجوج» بدون همز، وقرأ عاصم بالهمز الساكنة فيهما..

واختلف في نسبهم، وذكر ابن حجر أنهما قبيلتان من ولد يافث بن نوح أبي الترك، وذكر ابن كثير أن الترك سموا تركا لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة.. وكان فيهم بغي وفساد وجرأة، وكانوا يعيثون في الأرض فساداً ويؤذون، فحصرهم ذو القرنين في مكانهم داخل السد، حتى يأذن الله بخروجهم على الناس آخر الزمان(٢٦٦).

أدلة خروجهم: وخروجهم ثابت في الكتاب والسنة:

أ - **من القرآن الكريم**: ذكر الله تعالى في سورة الكهف أن ذا القرنين في تطوافه في الأرض بلغ بين السدين، فوجد قوماً لا يفقهون قولاً فاشتكوا إليه من يأجوج ومأجوج، وطلبوا منه أن يمنعهم عنها، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ..﴾

---

(٢٦٣) أبو داود، سننه، كتاب الملاحم، جـ٤، ص٤٩٨، رقم(٤٣٢٤)، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٤٠٦،٤٣٧، وأبو عمرو الداني، *السنن الواردة*، ح(٦٨٤)، جـ٦، ص١٢٣٤. والحاكم، *المستدرك*، جـ٢، ص٥٩٥، وقال: صحيح الإسناد.

(٢٦٤) الألباني، *سلسلة الأحاديث الصحيحة*، وقال صحيح، جـ٤، ص٥٥٩، ح(١٩٢٦).

(٢٦٥) انظر: ابن منظور، *لسان العرب*، جـ٢، ص٢٠٦، وطاهر أحمد الزاوي، *ترتيب القاموس المحيط*، جـ١، ص١١٥-١١٦، وابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص١٠٦-١٠٧، والنووي على شرح مسلم، جـ١٨، ص٣.

(٢٦٦) راجع: ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص٢٠١.

إلى قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾[٢٦٧] وتشير الآية إلى أن الله سخر ذا القرنين الملك الصالح لبناء السد العظيم للحجز بين يأجوج ومأجوج والناس إلى أن تقترب الساعة وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [٢٦٨].

ب - السنة النبوية: وضحت السنة ما جاء في الآيات الكريمة، وزادت عليها حتى بلغت الأحاديث في ذلك حد التواتر المعنوي بأنه من الآيات العظام المؤذنة بقيام الساعة كما أشار إلى ذلك كثير من العلماء.

وقد مر بنا قول رسول الله ﷺ: «فإنها لا تقوم حتى تكون قبلها عشر آيات.. وذكر منها: يأجوج ومأجوج..»[٢٦٩].

وعن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه (وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»[٢٧٠].

قصة السد: ذكرت الآيات السابقة أن ذا القرنين بنى السد بناءً على استغاثة الناس به، وأخبر تعالى أن هذا السد مانعهم أي قوم يأجوج ومأجوج من الخروج ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، وإن هذا الحال مستمر إلى أن يأذن الله بخروجهم.. كما تشير الآيات أن السد بين جبلين ﴿حتى إذا بلغ بين السدين﴾ والسدان: الجبلان، فجمعوا له الحديد ووضعه على بعضه من الأساس ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً، قال: ﴿انفخوا﴾ أي أججوا عليه النار حتى صار كله ناراً ﴿قال أتوني أفرغ عليه قطرا﴾ وهو النحاس المذاب.[٢٧١]

---

(٢٦٧) الكهف ٢٢: ٩٣-٩٤، ٩٩.

(٢٦٨) الأنبياء ٢١: ٩٦-٩٧.

(٢٦٩) سبق تخريجه.

(٢٧٠) البخاري، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، مع *فتح الباري*، جـ١٣، ص٦، وكتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، جـ٦، ص٣٨٦، ومسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن، وفتح ردم يأجوج ومأجوج ح(٢٨٨٠)، جـ٤، ص٢٢٠٧-٢٢٠٨.

(٢٧١) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٢، ص٤٣٦.

ثم أخبر تعالى أن يأجوج ومأجوج ما قدروا أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله ﴿فما اسطاعوا..﴾ ثم قال: ﴿هذا رحمة من ربي﴾ أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد..

فنحن أمام هذه النصوص - قرآناً وسنة - نرى أن السد موجود إلى أن يأتي الوقت المحدد لدكه وخروج المفسدين قبيل الساعة ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكا..﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق جعله دكاً: أي ساواه بالأرض ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ كائناً لا محالة، ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض..﴾ أي الناس يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون ويفسدون عليهم أموالهم وأشياءهم.. وكل هذا قبل يوم القيامة وبعد الدجال.

ويفسر النص السابق ويكمله قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ..﴾[٢٧٢] تصف الآية حالتهم حين خروجهم..

والحدب: أي نشز وتل، والحدب: المكان المرتفع، «ينسلون» يسرعون في النزول من الآكام والتلاع كنسلان الذئب وهو سرعة مشيه..

وقوله: ﴿واقترب الوعد الحق﴾ يعني القيامة[٢٧٣].

وقال الزمخشري في قوله «وحتى إذا فتحت يأجوج: وهو سدهما كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها.. »[٢٧٤].

ويفسر النصوص القرآنية الأحاديث النبوية والتي تشير ضمناً إلى وقت خروجهم وصفاتهم: ففي حديث النواس بن سمعان الطويل، قال رسول الله ﷺ: «... إذ أوحى الله إلى عيسى، إني قد أخرجت عباداً لي، لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه الأرض.. »[٢٧٥].

---

(٢٧٢) الأنبياء ٢١: ٩٦.

(٢٧٣) البغوي، *معالم التنزيل*، م٣، جـ٤، ص٣٢٢.

(٢٧٤) الزمخشري، *الكشاف*، جـ٣، ص١٣٥.

(٢٧٥) سبق تخريجه عند مسلم..

يفسر النص شدة بأس قوم يأجوج ومأجوج «لا يدان لهم، وفي رواية لا يدين لأحد..» أي لا يستطيع أحد الوقوف في وجههم لكثرتهم، كما يبين الحديث أن معقل المسلمين سوف يكون جبل الطور بأن يكون حرزاً وحفظاً لهم..

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر: «وفي هذه الأحاديث وأحاديث مشابهة كثيرة تدل على أن الحضارة الهائلة التي اخترعت هذه القوة الهائلة من القنابل والصواريخ ستتلاشى وتزول وأغلب الظن أنها ستدمر نفسها بنفسها، وأن البشرية سوف تعود مرة أخرى إلى القتال على الخيول واستعمال الرماح ونحو ذلك، والله أعلم»[٢٧٦].

أما مكان السد: ففي قوله تعالى: ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس﴾ يدل على أنه في جهة الشرق ولكن لا يعرف مكانه بالتحديد وهناك روايات في التفاسير لا سند لها وأكثرها روايات اسرائيلية.. وقال سيد قطب رحمه الله: «كشف سد بمقربة مدينة (ترمذ) عرف (باب الحديد) قد مرّ به في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي العالم الألماني «سيلدبرجر» وسجله في كتابه، وذكره المؤرخ الألماني «كلافيجو» في رحلته سنة (١٤٠٣م) وقال: سد مدينة باب الحديد على الطريق بين سمرقند والهند... وقد يكون هو السد الذي بناه ذو القرنين»[٢٧٧].

أما زمان خروجهم فيكون عندما يندك السد.. ويرى الأستاذ سيد قطب من باب الترجيح وليس اليقين بعد أن ذكر الآية: ﴿فإذا جاء وعد..﴾ قال: وهذا النص لا يحدد زماناً، ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار وانساحوا في الأرض ودمروا الممالك تدميرا.. وبعد أن ذكر النص الآخر ﴿حتى إذا فتحت يأجوج﴾ وحديث رسول الله عن أم حبيبة في رؤياه قال: «وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن، وقد وقعت غارات التتار بعدها ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو.. وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول ﷺ، وعلم ذلك عند الله وكل ما نقوله ترجيح لا يقين»[٢٧٨].

ونرى كما يرى آخرون أن هذا الخروج هو ليس الخروج المقصود بالآيات والأحاديث والتي تشير إلى وقوعه في آخر الزمان وفي زمان نزول عيسى عليه السلام كآية من الآيات الكبرى

---

(٢٧٦) عمر سليمان الأشقر، *القيامة الصغرى*، ص٢٧٥.

(٢٧٧) سيد قطب، *في ظلال القرآن*، م٤، ص٢٢٩٣، وراجع: محمد سلامة جبر، *أشراط الساعة وأسرارها*، ص٨١. وقال: «لعله سور الصين العظيم، والغالب الأرجح أنهم سكان الصين..» استدلالاً بكثرتهم وكفرهم.

(٢٧٨) سيد قطب، م٤، ص٢٢٩٤.

لأشراط الساعة[٢٧٩].

وخلاصة القول أن ظهور يأجوج ومأجوج سيكون بعد نزول عيسى وهلاك الدجال فينحاز عيسى بالمؤمنين إلى جبل الطور فراراً منهم، فينتشرون في الأرض بسرعة ويسعون فيها بالفساد، ولكنهم لن يدخلوا المدينة وبيت المقدس، ولا يصلون إلى من عصمهم الله منهم. وتشير الأحاديث إلى فسادهم وإفسادهم للأرض وحب القتل وكفرهم في قول الرسول ﷺ ضمن الأحاديث الطويلة الواردة: «... ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر – وهو جبل بيت المقدس – فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض إلا من دان لنا فهلموا فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً»[٢٨٠].

أما هلاكهم: فيكون ببركة دعاء عيسى عليه السلام عليهم فيموتون جميعاً وتستقيم الحال كما في الحديث السابق وتكملته: «ويحصرون نبي الله عيسى وأصحابه.. فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة ثم يقال للأرض: انبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك الله في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس.. »[٢٨١].

يدل الحديث على أن موتهم بدعاء عيسى عليه السلام وأصحابه ثم يدعو الله فتأتي الطير فتنقل جثثهم فينزل بعدها المطر الغزير يغسل الأرض من آثارهم.. ويكثر الخير من نبات وحيوان..

وجوب الإيمان بظهورهم: بعد كل ما ذكرنا من الأدلة – كتاباً وسنةً – يلزم الإيمان كل مسلم بما أخبر الله ورسوله بأن ذلك آية عظمى من أشراط الساعة، كما ذكر ذلك كثير من العلماء، وأن ذلك سيكون زمان عيسى، وقد نقل إجماعهم على ذلك[٢٨٢].

---

(٢٧٩) راجع: محمد سلامة جبر، *أشراط الساعة وأسرارها*، ص٨٥-٨٧.

(٢٨٠) حديث النواس بن سمعان السابق ذكره. وسمي جبل الخمر لكثرة كرومه. انظر: معجم البلدان، ١٠٢/٢. والزهم: الدسم، والزلقة: تشبيها بالمرآة لنظافتها.

(٢٨١) تكملة الحديث السابق.

(٢٨٢) راجع: ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص١٩٤، والبرزنجي، الاشاعة، ص٢٢٩. القنوجي، الاذاعة، ص١٦٥، والمباركفوري محقق *السنن الواردة* للداني، جـ٦، ص٢٢٧.

ومع ذلك فقد وجد من المعاصرين من ينكر ظهورهم بالكلية، وينكر وجود السد. مستدلين إلى أن الكشوف للدول الغربية والسائحين قد غطت الأرض ولم يعثروا على شيء من ذلك..! وهذا تكذيب صريح للنصوص عن هوى ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾[٢٨٣] والدعوى قاصرة لأن الإحاطة بكل شيء هو من اختصاص الله سبحانه وتعالى، ثم لا يلزم عدم رؤيتهم عدم وجوده فقد يصرف الله ذلك عنهم، كما حصل لبني اسرائيل حين التيه فلم يطلع عليهم الناس ولو حصل لبينوا لهم الطريق[٢٨٤].

أما الدعوة أنهم «التتار»، فمردودة بالأحاديث التي تشير أن ذلك وقت عيسى وبعد الدجال.. ولم يظهر الدجال ولم ينزل عيسى بعد..

ما بعد المسيح: بعد الانتشار العظيم للإسلام في مشارق الأرض ومغاربها على يد عيسى عليه السلام يضعف الإسلام مرة أخرى ويزداد الشر شيئاً فشيئاً حتى يعودوا إلى الجاهلية ويذهب العلم ويرفع القرآن وتأتي الريح الطيبة لقبض أرواح المؤمنين - كما ذكرناه سابقا في مبحث سابق - وتهدم الكعبة، ويبقى شرار الناس... وتتابع الأشراط الكبرى..

٧- ظهور الشمس من المغرب

ومن الآيات العظمى الدالة على قيام الساعة هو طلوع الشمس من المغرب وهو أول العلامات على تغير العالم العلوي، وكما مر في قول الطيبي أنها من الآيات الدالة على حصول الساعة والتي ذكر منها: الدخان وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة والنار التي تحشر الناس..

أما أدلته: فأدلته من الكتاب والسنة

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾[٢٨٥].

قال البغوي: «أو يأتي بعض آيات ربك، يعني: طلوع الشمس من مغربها، وعليه أكثر المفسرين.. أي لا ينفع الإيمان عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان،﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ يريد لا يقبل إيمان كافر ولا توبة فاسق»[٢٨٦].

---

(٢٨٣) العنكبوت ٢٩: ٤٩.

(٢٨٤) راجع: التويجري، *اتحاف الجماعة*، جـ٢، ص٢٩٧.

(٢٨٥) الأنعام ٦: ١٥٨.

(٢٨٦) البغوي، *معالم التنزيل*، جـ٢، ص٢٠٢-٢٠٣.

وقال الزمخشري: «وبعض الآيات، أشراط الساعة، كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك.. »[287].

وجاءت السنة النبوية مفسرة ذلك بأن المراد ببعض الآيات هو طلوع الشمس من مغربها.

وذكرنا الحديث «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات.. وذكر منها وطلوع الشمس من مغربها.. » وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة.. وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»[288].

ويستفاد من الآيات والأحاديث أنه بعد هذه الآية الكبرى لا تقبل الأعمال المستحدثة وأولها الإيمان لمن كان مشركاً أو كافراً، ولا تقبل توبة للمؤمنين من أهل المعاصي.

إغلاق باب التوبة: ويرجع ذلك أن من يرى هذه الآية تتكشف له الحقائق ويجبر على الإذعان والتصديق، في حين لم يكن ليؤمن من قبل بإرادته وطواعيته يقول الزمخشري: «إن أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة ذهب أوان التكليف عندها فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الايات، أو مقدمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً، فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيراً»[289].

ويعامل التائب بعد هذه الآية الكبرى لدنوها من القيامة معاملة من عاين بأس الله يوم القيامة بنفس الحكم كما قال تعالى: **﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾**[290].

يقول القرطبي: «قال العلماء: وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوعها من مغربها لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم – لإيقانهم بدنو القيامة – في حال من حضره الموت في

(٢٨٧) الزمخشري، *الكشاف*، جـ٢، ص٨٢.

(٢٨٨) البخاري، *الصحيح مع فتح الباري*، كتاب الرقاق، جـ١١، ص٣٥٢، وكتاب الفتن، ١٣/ ٨١-٨٢ ح(٧١٢١)، ومسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، جـ١، ص١٣٧-١٣٨. والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٣٥٠، ٣٩٨، ٥٣٠.

(٢٨٩) الزمخشري، *الكشاف*، جـ٣، ص٨٢.

(٢٩٠) غافر ٤٠: ٨٤-٨٥.

انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت»[٢٩١].

وعلى هذا تكون التوبة بعد هذه الآية في غير وقتها وقد فات أوانها وقد انقطع التكليف وصار الحال في حكم قيام الساعة..

والأدلة على غلق باب التوبة وعدم قبولها هي ذات الأدلة على وجود هذه الآية من نصوص القرآن والسنة، ومن أقوال الرسول ﷺ في ذلك: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[٢٩٢] وبهذا يختم على عمل كل أحد بالحالة التي هو عليها لحصول الإيمان بالمعاينة وارتفاع الإيمان بالغيب.. فهو كالإيمان عند الغرغرة فلا ينفع.

٨- خروج الدابة:

إن خروج الدابة إحدى الآيات العظام المؤذنة لقيام الساعة وهو ثابت في القرآن والسنة:

أما من القرآن: فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[٢٩٣].

وقد وقع الخلاف في معنى «تكلمهم»، فذهب بعضهم إلى أن معناه تكلم الناس وتخاطبهم وهو اختيار الطبري[٢٩٤] والقرطبي، وقيل: إنه من التكليم بمعنى التجريح، ومعناه أن تكتب على جبين الكافر: كافر، وعلى جبين المؤمن مؤمن، وقد روى القولان عن ابن عباس كما روي عنه قول ثالث بأنها تفعل هذا وهذا، أي تخاطبهم وتجرحهم، وقد اختاره ابن كثير وقال: «هذا قول حسن ولا منافاة»[٢٩٥] كما قال وقال القرطبي: «أي دابة تعقل وتنطق وذاك والله أعلم ليقع لهم العلم بأنه آية من قبل الله تعالى ضرورة، فإن الدواب في العادة لا كلام لها ولا عقل»[٢٩٦].

---

(٢٩١) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٤٤٤.

(٢٩٢) مسلم، *الصحيح*، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ح(٢٧٥٩)، جـ٤، ص٢١١٣.

(٢٩٣) النمل ٢٧: ٨٢.

(٢٩٤) الطبري، *تفسيره*، جـ٢٠، ص١٦.

(٢٩٥) راجع: ابن كثير، *النهاية في الفتن والملاحم*، جـ١، ص٢٠٨. والصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٢، ص٦٨٢-٦٨٣.

(٢٩٦) القرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٤٣٥.

وأما من السنة النبوية: فهناك أحاديث كثيرة صحيحة منها ماذكرناه سابقاً في تعداد الأحاديث للآيات كحديث حذيفة بن أسيد «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات.. والدابة ويادروا بالأعمال ستاً... والدابة»

ومنها قول الرسول ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال ودابة الأرض»(٢٩٧).

وبناء على ثبوت خروج الدابة بالنصوص الثابتة فإن الإيمان بها من عقيدة السلف ونقل عنهم الإجماع في ذلك..(٢٩٨) أما الروايات عن وصف الدابة وحقيقتها وطولها.. فهي روايات موقوفة ولا حاجة لها والأفضل عدم الخوض فيها.. ويكفي الإيمان بأنها دابة من دواب الأرض تسم المؤمن والكافر وتكلم الناس بأنها آية.. وهو ما عليه أئمة الحديث والفقه كما قال القاضي عياض(٢٩٩).

أما وقت خروجها: فقد جاء عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعته يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً»(٣٠٠) وورد في بعض الروايات قول عبد الله «وأظن أولهما خروجاً طلوع الشمس من مغربها».

وقال الحاكم: «والذي يظهر أن طلوع الشمس من مغربها يسبق خروج الدابة ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي من ذكره ابن حجر وقال: والحكمة في ذلك أنه عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة، فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلاً للمقصود من إغلاق التوبة»(٣٠١).

---

(٢٩٧) مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، جـ١، ص١٣٨، والترمذي، *السنن*، كتاب التفسير، باب ومن سورة الأنعام، جـ٥، ص٢٦٤ ح(٣٠٧٢)، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٤٤٥.

(٢٩٨) *شرح العقيدة الطحاوية*، ص٥٦٤ نقلاً عن المباركفوري، جـ٦، ص١٢٦٠.

(٢٩٩) النووي، *شرح صحيح مسلم*، جـ٢، ص١٩٥.

(٣٠٠) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض، ح(٢٩٤١)، جـ٤، ص٢٢٦٠. وأبو داود، سننه، كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة، ح(٤٣١٠)، جـ٤، ص٤٩٠، وابن ماجة، كتاب الفتن، باب طلوع الشمس من مغربها، ح(٤٠٦٩)، جـ٢، ص١٣٥٣، والإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٢٠١، وأبو عمرو الداني، *السنن*، باب طلوع الشمس من مغربها، جـ٦، ص١٢٧٤، ح(٧١٥).

(٣٠١) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١١، ص٣٥٣.

وبهذا يكون خروج الدابة أول الآيات الأرضية غير المعتادة لأن تكلمها للناس ووسمها لهم بالإيمان والكفر أمر خارج عن المألوف فيقع العلم لهم بالضرورة بأنها آية من قبل الله.

وقد اختلفت الأقوال كذلك عن موضع خروجها لاختلاف الروايات في ذلك، والأشهر أنها تخرج من مكة ومن شعب أجياد(٣٠٢) والأفضل تركها للغيب لعدم وجود ما يقطع به.

الدابة والتأويل: الأحاديث التي ذكرناها لا تحتاج إلى تأويل ومع ذلك ذهب بعض المتأخرين لذلك.. فقالوا أن الدابة نوع من الحشرات الموجودة الآن وتكثر في المستقبل فيكون هجومها على الناس - على ضعفها وصغرها - بأذى كبير مع عجزهم عن مقاومتها بالرغم مما أوتوه من العلم والحيلة كآية من آيات الله.. وقال أبو عبية« بأن تأويلها بالجراثيم الخطيرة التي تفتك بالإنسان وجسمه، وبأمواله زروعاً وثماراً ومواشي جزاءً له على بعض ما تجنى يداه من إثم وكفر» (٣٠٣).

وقال النورسي رحمه الله: «إن الدابة - والله أعلم - هي نوع وليست فرداً، لأنه لو كانت فرداً وحيواناً واحداً ضخماً جداً، لما بلغ كل شخص في كل مكان، فهو إذن طائفة حيوانية مخيفة، وربما هي حيوان كالأرضة التي تقضم الخشب وتأكله.. »(٣٠٤).

وكل تلك التأويلات أرى لا داعي لها لأنها تتصادم مع النصوص الواضحة، ثم إن الجراثيم التي تفتك بالإنسان والحشرات كانت ولا زالت في جميع أنحاء الأرض ولا تستحق أن تكون آية، فتبقى الدابة هي آية عظمى تخرج آخر الزمان وقبيل الساعة.

٩- الدخان

من الآيات الكبرى لقيام الساعة ظهور الدخان وهو من الآيات الكونية السماوية.

أدلة ظهوره: من القرآن والسنة

أ - من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣٠٥) وهو وعيد للكفار بدخان مبين واضح يعم الناس وعند ذلك يقال

---

(٣٠٢) راجع: القنوجي، *الاذاعة*، ص١٧٣.

(٣٠٣) راجع، التويجري، *اتحاف الجماعة*، ص١٩٠. والمباركفوري، *تحقيق السنن الواردة*، جـ٦، ص١٢٦١.

(٣٠٤) بديع الزمان سعيد النورسي، *الشعاعات*، من الشعاع الخامس، ص١٢١.

(٣٠٥) الدخان ٤٤: ١٠-١١.

لهم: هذا عذاب أليم، تقريعاً وتوبيخاً، أو يقول بعضهم لبعض ذلك[٣٠٦].

وقد اختلف السلف منذ عهد الصحابة في وقت وقوعه، فذهب عبد الله بن مسعود ﷺ إلى أن الدخان قد ظهر وانقضى، وهو ما أصاب قريشاً بمكة في القحط والجهد حتى جعل الرجل يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان ووافقه من التابعين مجاهد وأبو العالية والنخعي وغيرهم والطيبي[٣٠٧].

وذهب جمهور السلف إلى أن الدخان لم يقع بعد وهو من الأمارات القريبة قال ابن عباس وابن عمر والحسن وغيرهم: «هو دخان قبل قيام الساعة يدخل في اسماع الكفار والمنافقين ويعتري المؤمن كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ولم يأت بعد، وهو آت»[٣٠٨].

وقول ابن مسعود لا يدل على أنه آية كبرى، بل إنه ليس هناك دخان على الحقيقة، بل يخيل لهم بسبب الجوع..

ب - ومن السنة هناك أحاديث عدة جعلته في عداد الآيات الكبرى كما هو في قوله ﷺ: «بادروا بالأعمال ستاً.. وذكر منها الدخان» وجاءت أحاديث أخرى في ذكره وصفته وظهوره ومع أن بعضها ضعيفة ولكن كما قال فيها ابن حجر: «تضافر هذه الأحاديث يدل على أن لذلك أصلاً»[٣٠٩] كما ذهب ابن كثير إلى أن فيها مقنعاً ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة..

كما روى عن ابن مسعود ومجاهد «هما دخانان قد مضى أحدهما، والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض ولا يجد المؤمن منه إلا كالزكمة وأما الكافر فتثقب مسامعه»[٣١٠].

والراجح ما ذهب إليه جمهور علماء السلف مع عدم انكار ما حدث لقريش من الجهد والقحط بأنها وقعت، وكانت كهيئة الدخان، أما الدخان الحقيقي فهو ما سيكون من الآيات..

وقول ابن مسعود هو تفسير للآية موقوف وهو غير الأحاديث الصحيحة المرفوعة عن ابن عباس ﷺ وحذيفة وأبي هريرة والمرفوع مقدم على الموقوف وهذا قول ابن كثير واستدل

---

(٣٠٦) راجع: *مختصر تفسير ابن كثير*. جـ٣، ص ٣٠٠- ٣٠١

(٣٠٧) المصدر نفسه.

(٣٠٨) راجع: البغوي، *معالم التنزيل*، جـ٦، ص١٤٤، والزمخشري، *الكشاف*، جـ٤، ص٢٧٢، والقرطبي، *التذكرة*، جـ٢، ص٣٨٨-٣٨٩.

(٣٠٩) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٨، ص٥٧٣.

(٣١٠) ذكر ذلك القرطبي، جـ٢، ص٣٨٩.

كذلك بقوله: «يغشى الناس» أي يتغشاهم ويعمهم، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه يغشى الناس[٣١١] وهو يريد بذلك أن الآية لا تشهد لابن مسعود لأن مدلولاها عام لكل الناس وليست خاصة بأهل مكة.

أما تحديد زمن وقوعه فلم يتعرض له أحد سوى البرزنجي فقال: «... لابد أن يكون قبل الريح، لأن بعد الريح لا يبقى مؤمن، وعند الدخان يوجد المؤمنون كما هو صريح العبارة»[٣١٢].

ويعد الدخان تأتي الريح الطيبة تأخذ المؤمنين والتي ذكرناها سابقاً ومنها قول الرسول ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ويبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من خير ويبقى من لا خير فيه ويرجعون إلى دين آبائهم»[٣١٣].

١٠- النار التي تحشر الناس إلى محشرهم

وهي آخر الآيات العظمى لقيام الساعة، وقد ذكرها الرسول ﷺ ضمن الآيات العشر الكبرى، كما جاء في حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تكون قبلها عشر آيات، قال: وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[٣١٤].

وقد مر بنا النار التي هي من العلامات الصغرى التي ظهرت وانقضت في سنة ٦٥٤هـ بنواحي المدينة كما صرح بذلك العديد من العلماء وسبق أن ذكرناها في موضعها ولكن هذه نار ثانية من الآيات الكبرى التي تكون على إثرها الساعة..

وتشير الأحاديث إلى مصدر النار وهي اليمن أو حضرموت وهي منها، وبذلك قال رسول الله ﷺ: «ستخرج نار من حضرموت أو من بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس»[٣١٥].

وفي آخر: «تحشرهم النار، وتغدو معهم، وتروح، يقولون: قد راحت فروحوا، ولها ما سقط»، وفي رواية «من أدركته أكلته»[٣١٦].

---

(٣١١) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، جـ٣، ص٣٠١.

(٣١٢) البرزنجي، *الاشاعة*، ص٢٦٦.

(٣١٣) الحاكم، *المستدرك*، جـ٤، ص٤٤٨.

(٣١٤) مسلم، *الصحيح*، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، جـ٤، ص٢٢٢٥، وقد سبق ذكر الحديث وتخريجه المفصل.

(٣١٥) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٢، ص٨، ٥٣، ٦٩، ٩٩، ١١٩، والترمذي، *السنن*، كتاب الفتن، باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من قبل الحجاز ح(٢٢١٨)، ٦/ ٤٦٣-٤٦٤. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني، *صحيح الجامع الصغير*، جـ٣، ص٢٠٣، ح(٣٦٠٣).

(٣١٦) الإمام أحمد، *المسند*، جـ٣، ص٤٤٣.

تفيد هذه الأحاديث أن النار آخر الآيات، ولكن جاء في رواية أخرى ما يفيد أنه أول الآيات. عن أنس ﷺ أن عبد الله بن سلام لما أسلم سأل النبي ﷺ عن مسائل منها: ما أول أشراط الساعة؟ فقال النبي ﷺ: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»(٣١٧) وحاول الحافظ ابن حجر التوفيق بين هذا التعارض فقال: «ويجمع بينهما بأن آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات، وأوليتها باعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلاً، بل يقع بانتهائها النفخ في الصور، بخلاف ما معها فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا»(٣١٨).

وقال البعض أن النار ناران بدليل الحديثين أحدهما أول الآيات والثانية آخر الآيات..

وذهب ابن حجر إلى قول آخر في موضع آخر بلفظ الاحتمال وهو أن النار في حديث أنس كناية عن الفتن المنتشرة التي أثارت الشر العظيم، والتهبت كما تلتهب النار وكان ابتداؤها من قبل المشرق.. وانحشر الناس من جهة المشرق إلى الشام ومصر وهما من جهة المغرب، وأما النار التي في الحديث الآخر فهي على حقيقتها(٣١٩).

وهو توفيق حسن، وأوجه من حمل الحديثين على نارين والذي يؤدي إلى تعدد الحصول للنار..

وقال ابن حجر عن حديث أنس «تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»: «إن كونها تخرج من قعر عدن لاينافي حشرها الناس من المشرق إلى المغرب وذلك أن ابتداء خروجها من قعر عدن، فإذا خرجت انتشرت في الأرض كلها، والمراد بقوله: تحشر الناس من المشرق إلى المغرب إرادة تعميم الحشر لا خصوص المشرق والمغرب، أو أنها بعد الانتشار أول ما تحشر أهل المشرق ويؤيد ذلك ابتداء الفتن دائماً في المشرق، وأما جعل الغاية إلى المغرب فلأن الشام بالنسبة إلى المشرق مغرب»(٣٢٠).

وهناك من المعاصرين من يفسر النار نارين إحداهما ما في حديث أنس «من المشرق... بأنها أول العلامات الكبرى، والثانية التي في قعر عدن هي آخر الآيات الكبرى، وتحمل الأولى على الحقيقة والمجاز أي إرادة الكناية بالفتن.. وقد فسر أول العلامات على ما حدث في المشرق في السنوات الأخيرة من فتنة، فكانت ناراً مجازية لأنها فتنة ثم تحولت إلى نار حقيقية باحتراق آبار البترول.. وهذه النار بنوعيها حشرت الناس من المشرق باتجاه الغرب فراراً منها ويؤيد ذلك أن معنى الحشر هو الجمع والجلاء.. »(٣٢١).

---

(٣١٧) البخاري، *الصحيح*، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، جـ٤، ص١٠١.

(٣١٨) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١٣، ص٨٢.

(٣١٩) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١١، ص٣٧٩.

(٣٢٠) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ١١، ص٣٧٨.

(٣٢١) راجع: محمد بشير عبد الله، *زلزال الأرض العظيم*، ص٢٦٢.

ويؤيد ذلك ما ذكره القرطبي بعد أن ذكر أن الحشر على أربعة أوجه: حشران في الدنيا وحشران في الآخرة.. قال: «خرج النسائي عن أبي ذر قال: إن الصادق المصدوق حدثني أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج راكبين طاعمين كاسين، وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم، ويحشر الناس فوجاً يمشون ويسعون يلقي الله الآفة على الظهر فلا تبقى، حتى أن الرجل لتكون له الحديقة يعطيها بذات القتب لا يقدر عليها»(٣٢٢).

وفي الحديث شرح لحال من يخرج من فتنة لأن حشر الناس يستحيل أن يكون فيه بيع وشراء، لأن مشتري الحديقة بالظهر لن يستفيد منها وخير له أن يبقى الظهر حتى يركبه..

أما كيفية الحشر: فعند ظهور النار من اليمن تنتشر في الأرض وتسوق الناس إلى أرض المحشر، وأشارت الأحاديث إلى أن الشام هي مكان المحشر، وذلك لقول رسول الله ﷺ: «ستخرج نار من حضرموت قبل القيامة تحشر الناس قالوا: يا رسول الله فماذا تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام»(٣٢٣).

وهذا الحشر في الدنيا وآخر ما فيها وهو غير الحشر للناس بعد البعث من القبور. وآخر من تحشرهم النار راعيان من مزينة - كما مر - من قول رسول الله ﷺ: «تتركون المدينة على خير ما كانت.. وآخر من يحشر راعيان من مزينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحشاً، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرا على وجههما»(٣٢٤).

قيام الساعة: بعد أن تكتمل الآيات الكبرى تقوم الساعة كما ذكر النبي ﷺ أنها تقوم على شرار الناس وهم كخفة الطير وأحلام السباع وهذا لا يتعارض مع قول الرسول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين حتى قيام الساعة» لأن المقصود بظهورهم إلى زمان عيسى عليه السلام ثم تنتهي ساعتهم بهبوب الريح الطيبة التي تقبض المؤمنين كما أن هبوب الريح الطيبة مقاربة لقيام الساعة فأخذت حكمها.. وذكر هذا الجمع كثير من العلماء..

وهكذا تنتهي مسيرة الحياة الدنيا بعد انتهاء الآيات بالنفخ في الصور النفخة الأولى ولذلك قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الأذن متى يؤمر بالنفخ؟ » فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»(٣٢٥).

---

(٣٢٢) راجع: القرطبي، *التذكرة*، جـ١، ص٢٣٣.

(٣٢٣) سبق تخريجه في الصفحة السابقة ه ٣١٥.

(٣٢٤) البخاري، *الصحيح*، كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة، جـ٢، ص٢٢١. ومسلم، كتاب الحج، باب المدينة يتركها أهلها، ح(١٣٨٩). ومر تخريجه بالتفصيل.

(٣٢٥) الترمذي، *السنن*، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصور، جـ٤، ص٦٢٠، رقم(٢٤٣١)، وابن ماجة، سننه، جـ٢، ص١٤٢٨، ح(٤٢٧٣). وأحمد، *المسند*، جـ٤، ص٢٣٧٤.

الباب الثالث

الفتن والمحن في واقع المسلمين وواجبهم نحوها

الفصل الأول

جذور الفتنة المعاصرة وأسبابها

المبحث الأول:

خطط أعداء الإسلام وآثارها

إن الفتن التي تحدثنا عنها في تاريخ المسلمين -بأنواعها الأربعة- اتصلت بواقع المسلمين وحاضرهم، مع اختلاف المسميات، وتطورت وظهرت فتن ومحن جديدة لم تكن من قبل تبعاً لتغير الأزمان وتبدل الأحوال، أو ربما كانت جذورها موجودة من قبل فنمت وتطورت في الأسلوب والمنهج.

فالفتن السياسية مثلاً لا زالت في مشكلة الحكم والسلطان وهي الأساس في جميع ما يقع بعدها من ويلات، فالاستبداد قائم في أكثر البلاد الإسلامية مع التفاوت في الدرجة والاختلاف في الأسلوب، تبعه تعطيل تام لمبدأ الشورى رغم رفع شعارات الديمقراطية دون تطبيق.. أو النكوص عنها حين تكون الغلبة للمسلمين.. أما المظالم وكبت الحريات فحدث ولا حرج.. وغدت الفرق أحزاباً تتطاحن في سبيل الوصول إلى السلطة بأي طريق، وإثارة الحروب بين المسلمين غدت سمة العصر.. فلا نجد دولتين متجاورتين إلا وبينهما نزاع على الحدود والمياه أو غير ذلك مما يحاك من قبل الأعداء ويجري على الساحة الإسلامية..

أما الفتن الاجتماعية فقد تكاثرت هي الأخرى نتيجة الإغراق في الحضارة المادية وازدياد الحاجات الإنسانية، فقد تملك حب الدنيا أكثر الناس إلا من رحم ربك، فالتجارة الحرام والاحتيال على الشرع، والغنى والترف، وازدياد الأمراض النفسية والقلبية والأخلاقية، وعموم القطيعة وظهور الجفوة والخصومة بين الأشقاء والأصدقاء مع انتشار الفساد ووسائله، وانتحال عادات غريبة عن الإسلام وأهله.

ومن حيث الفتن الاقتصادية فهي الأشد والأعتى حيث تبرز فيها فتنة السرّاء والضراء..

فالمجتمعات الإسلامية بين ترف وبطر إلى فقر وجوع وهلاك وحصار وكد في الحصول على ما يسد الرمق.. مع التجارة بأنواع المحرمات وظهور البنوك الربوية وانتشارها في جميع البلاد الإسلامية، وابتكار أنواع التأمين، التي كثر الخلاف والجدال حولها بين العلماء بين محللٍ ومحرم.

والفتن الفكرية أشد اضطراباً وتخبطاً ولعلها أمضى أثراً في حياة المسلمين من غيرها.. ففضلاً عن البدع والتشويهات في الدين وتعطيل الاجتهاد.. عطلت فريضة الجهاد، وانقلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى ضده، وفشت الحركات الهدامة ونشطت حركتا الاستشراق والتنصير، مع ظهور الأحزاب العلمانية والإلحادية والقومية لتكون البديل عن الإسلام..

ومع كل ذلك فقد ظهرت منذ عقدين الصحوة الإسلامية العارمة لتجدد الإسلام وتحييه في نفوس أبنائه، وهي في حركة وصراع ضد آثار الانحرافات المتأصلة ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ومن خطط أعداء الإسلام التي أصبحت واقعاً وتركت آثاراً جسيمة وويلات عظيمة متعاقبة من الفتن والمحن ما يأتي:

أولاً- سقوط الخلافة الإسلامية:

نعرض للخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية، ثم تآمر القوى اليهودية والصليبية عليها على النحو الآتي:

أ- العالم الإسلامي وظهور الخلافة العثمانية:

مر بنا كيف تصدى المسلمون للهجمة التترية ثم الصليبية الأولى لأخذ القدس حين توحدوا عند الإحساس بالخطر تحت قيادات حكيمة، وانتهت الحملة التي استمرت من ٤٩٢ إلى ٦٩٠هـ / ١٠٩٩-١٢٩١م، في حين وقع الصراع في الطرف الآخر من الأندلس.

عندها فكر الصليبيون بالبديل للسيطرة على العالم الإسلامي ألا وهو «الغزو الفكري»[2] والذي ذكرنا طرفاً منه عند الحديث عن الاستشراق والتنصير.

وفي ذات الوقت اتجهت أوربا إلى الاختراع والاكتشاف وخصوصاً الكشوفات الجغرافية، وانتقلت إلى عصر النهضة، مع بقاء الروح الصليبية في علاقاتهم بالمسلمين وإضمار الحقد

---

(١) يوسف ١٢: ٢١.

(٢) الغزو الفكري: هو الوسائل غير العسكرية التي اتخذها العدو لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام... راجع: محمد قطب: *واقعنا المعاصر*، ص ١٩٥.

والتربص بهم[٣]... بينما عاد الانتصار في العالم الإسلامي بعد ذلك إلى الانقسام السياسي إلى دويلات وإمارات ضعيفة.

في فترة ضعف المسلمين ظهرت الدولة العثمانية قوةً إسلامية لإنقاذ الأمة. أسس «عثمان بن طغرل» الدولة في شمال غرب الأناضول في القرن الثالث عشر الميلادي، وهدفها الدفاع عن الإسلام ورفع رايته، والقضاء على الدولة البيزنطينية التي تهدد المسلمين، وعلى هذا لقبه جده عثمان بلقب «الغازي» أي المجاهد في سبيل الله[٤].

من هذا المنطلق خلص العثمانيون الثغور الإسلامية من سيطرة الأعداء وأوصلوا الإسلام إلى قلب أوربا، وما كان ذلك إلا بتأسيس جيش قوي ذي تربية إسلامية خالصة، فتواصل السلاطين بالتوسع في عهد سليمان بن أورخان ومراد الأول الذي جعل أدرنة (Adrna) العاصمة، وفتح صوفيا (Sofiya).. ثم بايزيد بن مراد الذي أسر ملك الصرب.

ثم كان الفتح الأخير للقسطنطينية (Constantinople) على يد السلطان محمد الثاني والذي لقب بـ«**الفاتح**» وهي عاصمة الدولة البيزنطية وتسمى «**روما الثانية**» ولكن الفاتح سماها «**إسلامبول**» (Istanbul) أي مدينة الإسلام[٥].

وكان ذلك من قبل هدفاً يسعى إليه المسلمون، فقد بشرهم الرسول ﷺ بذلك، وقد أرسل معاوية حملة لفتحها ضمت كبار الصحابة، واستشهد منهم «**أبو أيوب الأنصاري**» ودفن بجوار سورها حسب وصيته سنة (٥٢هـ)، ولذلك كانت الحملات المتتابعة لفتحها تردد «**لبيك أبا أيوب**» وكان قبره دعوة مفتوحة لمعاودة الجهاد[٦].. وكان الفاتح وجيشه يرددون سورة الفتح مستبشرين بحديث رسول الله ﷺ: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[٧]، ومع هتاف الله أكبر لبيك أبا أيوب سقطت الأسوار المنيعة سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، فدخلها الفاتح يوم الجمعة وأقيمت صلاة الجمعة في السابع عشر من رمضان.. وحوّل كنيسة القديسة صوفيا إلى مسجد «**أياصوفيا**» (Ayasofya)[٨].

---

(٣) كانت العلاقة تجارية، وكان المسلمون يسيطرون على جميع طرق الملاحة والمضايق العالمية.

(٤) انظر: الشاذلي محمود ثابت، *المسألة الشرقية* دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ١٢٩٩-١٩٢٣م، مكتبة وهبة-القاهرة، سنة ١٩٨٩، ص ٣٨-٣٩.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٠-٤٢.

(٦) المصدر نفسه، ٢٣-٢٤.

(٧) الإمام أحمد، *مسند الإمام أحمد*، ج٤، ص ٣٣٥.

(٨) راجع، الشاذلي، محمود ثابت، *المسألة الشرقية*، ص ٤٣.

وقد هز الحدث أوربا هزاً عنيفاً، وواصل الفاتح جهاده وانتصر على الصرب وألبانيا وألحقت جزر كثيرة بالدولة العثمانية.

في الوقت نفسه، عادت الصليبية ترفع رأسها ولكن في جانب آخر، حيث لم تجرؤ على اقتحام الجانب العثماني في الشرق فاتجهت للالتفاف من جهة الغرب، وساعدها في ذلك حركة الكشوفات الجغرافية، والتي كان يعرفها المسلمون من قبل ودونوها ضمن خرائطهم، وكان الهدف من تلك الكشوفات[٩]:

١- تطويق العالم الإسلامي.

٢- البحث عن طريق تجاري مع الهند لا يمر بديار المسلمين.

وقد سعى البرتغاليون للحصول على المعلومات الجغرافية من المسلمين عن طريق جواسيسهم اليهود في الأندلس، كما ساعد الرحالة العربي أحمد بن ماجد فاسكودي غاما (Vascodagama) للوصول إلى الهند، وكانت تلك الرحلات تمثل الروح الصليبية حيث قال عند وصوله إلى كاليكوت (Calicut): «**الآن طوقنا رقبة الإسلام ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق ويموت**»[١٠].

وقد قام الصليبوين بدعم من البابوات بحملات عديدة من جهة الغرب فسقطت مدن في شمال المغرب العربي والبحر الأحمر والمتوسط، والمهم في ذلك تغير طرق التجارة بعد ذلك عن بلاد الإسلام، فأدى ذلك إلى ضعف التجارة.. وبعد أن أحاطوا بالعالم الإسلامي طمعوا في وصول ماجلان Magellan إلى الفلبين Philippines شرقاً، وتحقق النفوذ البرتغالي الأسباني في أقصى المشرق، وحاول هؤلاء مع فرنسا الاتصال بالحبشة للوصول إلى الحجاز وهدم قبر الرسول ﷺ، ووصلت الحملة إلى ينبع وتحطمت إثر عاصمة هوجاء. فتوجه السلطان العثماني سليم إلى الشام سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م فضمها إلى الدولة العثمانية، ثم ضم مصر وطرد الأسبان من الجزائر ومنعوا الصليبيين من مهاجمة ديار الإسلام في شمال إفريقيا وجعلت أوربا في موقف الدفاع.

ثم بلغت الدولة أقصى اتساعها في عهد سليمان القانوني وأبدى حنكة في تنظيم الدولة وتطويرها إدارياً وصناعياً وعسكرياً..[١١] فسيطر على البحر المتوسط والأحمر وطرد

---

(٩) راجع المصري، *حاضر العالم الإسلامي*، ج١، ص ٧٩.

(١٠) راجع: محمد قطب، *واقعنا المعاصر*، ص ١٨٩.

(١١) راجع: علي عبد الحليم محمود، د.، *التراجع الحضاري*، ص٢٧٣، والندوي أبو الحسن، *ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين*، ص ١٦٢، ط١٠، دار الأنصار، مصر، سنة ١٩٧٧.

البرتغاليين ونشطت التجارة وتبع الخلافة سنة ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م كل ما يعرف بالعالم العربي والإسلامي ووصلت إلى فينا في أوربا الشرقية، وقد عاصرتها دولتان الأولى: المغولية في الهند الإسلامية إلى أن دخلها الاستعمار البريطاني، والثانية: الدولة الصفوية في إيران Iran وأفغانستان Afghanistan والمعروفة بنزعتها الشيعية[١٢].. يقول الندوي: «وانحصرت هاتان الدولتان في قطرهما وكانتا بمعزل عما يقع في الشرق الأدنى فضلاً عن الغرب. »[١٣].

أما العرب فقد رحبوا بالدولة العثمانية، حيث أعادت ذكرى الأبطال الأوائل في سبيل عزة الإسلام.. في حين زاد حقد الصليبيين في تقطيع أوصال الأندلس حيث صادف مجيء العثمانيين سقوط أكثر الولايات الأندلسية إلا غرناطة التي سقطت ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م في النزع الأخير محاطة بكل القوى الصليبية، ولذلك كان إنقاذها مستحيلاً حيث كان العثمانيون في حروب متواصلة مع أوربا غرباً فمن غير الممكن ترك الأناضول مكشوفة لإنقاذ غرناطة[١٤].

بعد كل ذلك بدأ الأتراك بالتراجع لأسباب كثيرة.. وأصبحوا في موقف الدفاع بدل الهجوم، في الوقت الذي نهضت دعوة صليبية جديدة مدعومة بكل وسائل التقدم.. فكان الغزو العسكري هذه المرة مدعوماً بالغزو الفكري والاستعماري الصليبي وهدفه حرمان المسلمين من مصادر قوتهم[١٥].

وبدأت الهجمات وتوالت الهزائم وسقوط بعض المدن، فقد هاجمها الروس واحتلوا مدناً وأبادوا سكانها المسلمين، واحتل نابليون مصر سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٨م، ثم احتلت فرنسا الجزائر ١٨٣٠م، واحتل الإنكليز الهند India ١٨٥٧م، ثم مصر ١٨٨٢ وكانت هولندا Holand قد بسطت نفوذها على إندونيسيا Indonesia بعد البرتغال Potugal[١٦].

---

(١٢) راجع: منير محمد غضبان، *المسيرة الإسلامية للتاريخ*، دار الفرقان، ط٢، عمان، سنة ١٩٨٢، ص١٨١-١٨٣.

(١٣) الندوي، أبو الحسن، *ماذا خسر العالم*، ص١٦٩.

(١٤) راجع: الشاذلي محمود ثابت، *المسألة الشرقية*، وأقام الأدلة على استحالة إنقاذ غرناطة من قبل العثمانيين وليس تقاعساً منهم، ص٥١-٥٣.

(١٥) راجع في أسباب ضعف الدولة العثمانية: الندوي أبو الحسن، *ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين*، ص١٦٤-١٦٥، والشاذلي محمود ثابت، *المسألة الشرقية*، ص١٣٥-١٣٧.

(١٦) انظر: علي عبد الحليم، *التراجع الحضاري*، ص٢٧٤، والمطعني، عبد العظيم، *أوربا في مواجهة الإسلام* ص٥١.

ومع ذلك فإن الدولة العثمانية كانت -على علاتها- إسلامية خالصة، تاريخها متمم لتاريخ الإسلام وسلاطينها بمثابة الخلفاء.. وكانت حصناً منيعاً للإسلام ومقدساته، وما تهاوى المسلمون إلا بعد أن ضاعت الخلافة(١٧).

ب- تآمر القوى اليهودية والصليبية على دولة الخلافة العثمانية:

كان إسقاط الخلافة الإسلامية من أقوى المحن التي نزلت بساحة الإسلام، خطط لها اليهود والصليبيون منذ انتهت الحروب الصليبية(١٨).

تحالفت قوى ثلاث، ولكل هدفها وغايتها في إسقاط الخلافة: الصليبية في صورة مبشرين ومستشرقين، في مدارس ومستشفيات ومؤسسات ثقافية ومؤتمرات وبحوث، والاستعمارية في صورة جيش وأساطيل وحروب ومعاهدات وجواسيس وعملاء.. واليهودية في صورة الدونمة والماسون، والكتاب والصحيفة، والمحفل.. والنساء وبيوت المال وغيرها.. فكانوا يرون أن طريقهم إلى القدس لا بد أن يبدأ بالاستانة Estana، والخلافة عقبة دونه.. وتحركت الدوائر الثلاث خارج الدولة العثمانية ومن داخلها من الأجانب رجالاً ونساءً وقد غيروا أسماءهم بأسماء إسلامية تغلغلت وارتقت المناصب العالية وحاولوا -عن قصد- دون كل تقدم ونمو(١٩).

فقد قدم هؤلاء عشرات المشاريع والخطط لإسقاط الخلافة وتقسيمها مؤكدين بذلك مقدار حقدهم، ولا أدل على ذلك من كتابه «مائة مشروع لتقسيم تركيا»(٢٠) وقد أفصح صاحب الكتاب عن ذلك فقال: «إن الخطة للقضاء على الدولة العثمانية الإسلامية بدأت عشية انتهاء الحروب الصليبية عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ، واستمرت حتى حققت أهدافها عام ١٩١٨م.. إن أصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الأوربيون للأتراك ويميلون أبداً من أجلها إلى حصرهم في آسيا هي راجعة إلى العداء الشديد الواقع بين النصرانية والإسلام»(٢١).

---

(١٧) راجع: الشاذلي محمود ثابت، *المسألة الشرقية*، ص ٦١.

(١٨) راجع: فتحي يكن، *العالم الإسلامي والمكائد الدولية*، ص ٤٩.

(١٩) راجع: الشاذلي محمود ثابت، *المسألة الشرقية*، ص ١٢١-١٢٢.

(٢٠) الكتاب للمسيو «دجوفارا» من وزراء رومانيا Romania ١٢٨١-١٩١٣، وكتب الأمير شكيب أرسلان ملخصاً لتلك المشاريع ضمن كتاب *حاضر العالم الإسلامي*، لوثروب ستودوارد، ج١، ص٨٧، وج٣، ص٢٠٨-٣٤٢.

(٢١) المصدر السابق، ج٣، ص ١٢٧

وتركز العداء بعد سقوط القسطنطينية، فكانت اجتماعات كبار أوربا لبحث المسألة الشرقية تعني محاولة وقف الزحف الإسلامي، وفي فترة تضعضع الدولة كان البحث يتجه إلى تقطيع أوصال الخلافة وإضعاف كيانها.

ومن هنا نرى أن السبب الحقيقي لسقوط الخلافة ليس كما يدعون من سعة الدولة وتعدد أجناسها وتخلفها، بل في ضخامة التآمر من قبل القوى المذكورة، إضافة إلى تسامح العثمانيين مع غير المسلمين عملاً بروح الإسلام، وكان ينبغي أخذ الحيطة والحذر في التعامل مع تلك القوى التي لا يجدي معها التسامح، بل الضرب بشدة على أيدي العابثين..

ومن وسائل المتآمرين لإسقاط الخلافة[٢٢]:

١- احتلال أراض تابعة للدولة فضمت النمسا إقليمي البوسنة والهرسك سنة ١٩٠٨م.

٢- تشجيع حركات الانفصال عن الدولة، وحركات المقاومة فأعلنت بلغاريا استقلالها.

٣- إثارة العصبيات القومية داخل دولة الخلافة كالطورانية للأتراك، وتولى كبرها حزب «**الاتحاد والترقي**» The Committee of Union and Progress، وحرضوا القوميات الأخرى خارج تركيا كالقومية العربية والفارسية من قبل أشخاص لا ينتمون إلى الإسلام فألفوا أحزاباً قومية.

٤- إشاعة الانحلال وما يتبعه من غزو فكري وعقدي بوسائل التغريب..

٥- تشويه سمعة دولة الخلافة وصورة الخلفاء بتجسيم الأخطاء والافتراء كوصفهم بالظلم والاستبداد، والفساد، والتعصب للأتراك، كما أشاعوا لغير المسلمين أن العثمانيين يسيئون معاملة النصارى، فرسخ في أذهان المسلمين أن عهد الخلافة كان عهد انحطاط وجهل! فضلاً عن الاستعمار.

٦- إثارة الأقليات الدينية وتحريضها للفتنة كالأرمن والأرثوذكس.. أما يهود الدونمة[٢٣] (Apostates) فكان لهم دور خطير.. ويظهر مدى خطرهم في أنهم تظاهروا

---

(٢٢) راجع المطعني، عبد العظيم، *أوربا في مواجهة الاسلام*، ص ٥٤-٥٧ وعلي جريشة، *الاتجاهات الفكرية المعاصرة* ص٣٥-٣٦.

(٢٣) الدونمة: كلمة تركية تعني: المرتد، أي الذين غيروا دينهم من اليهودية إلى الإسلام تميزاً لهم عن مسلمي الأتراك الأصلاء. راجع الشاذلي، *المسألة الشرقية*، ص ١٤٦. وقيل إن معناها: العائدون المنيبون، أصلهم من مهاجري أسبانيا الذين خرجوا مع عرب الأندلس فأسلموا ولكن إسلامهم مشوب ببعض عقائدهم الأصلية، كان لهم الأثر في انقلاب الأوضاع في تركيا. انظر: لوثرد ستودوارد، *حاضر العالم الإسلامي*، ج١، ص ٣١٧.

بالإسلام واتخذوا من سلانيك مقراً لهم وقد شارك هؤلاء في الدسائس وتكوين الجمعيات والحركات للقضاء على الخلافة، مثل: «**تركيا الفتاة**» التي قتلت السلطان عبد العزيز، وحزب «**الاتحاد والترقي**» وهدفها القضاء على عبد الحميد الثاني، وجمعية «**الأحرار**».. وكل هذه الجميعات والأحزاب خرجت من «**سلانيك**»! والتي كان للأجانب فيها نفوذ كبير.

اشتد التآمر على الخلافة في زمن السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله، نظراً لمواقفه الصلبة مع اليهود ومخططاتهم التآمرية على فلسطين.

ففي عام ١٨٩٨ قابل هرتزل[٢٤] Hertzl وحاخام يهودي السلطان يستعطفه بالموافقة على هجرة اليهود إلى فلسطين مقابل هدية (**رشوة**) يقدمها للسلطان خمسة ملايين ليرة ذهبية، فما كان من السلطان الذي عنده علم مسبق بقرار مؤتمر للصهيونية في سويسرا، وقد فهم ما يقصده الوفد من هديته، إلا أن أمر مرافقه بطردهم من القصر، وأصدر قرار منع هجرة اليهود إلى فلسطين[٢٥].

ثم جاء هرتزل ثانية، وقابل السلطان لنفس الأمر، فقال في حسم: «لا أملك هذا، فلسطين ليس ملك الأتراك بل ملك العرب، وبيت المقدس ليس ملك العرب بل ملك المسلمين»[٢٦].

أدرك هرتزل أن تحقيق آمال اليهود في فلسطين لا يتم طالما السلطان عبد الحميد في الحكم، وأن صلابته تحول دون وصول الأفعى اليهودية إلى صهيون.. وكان لا بد أن يذهب عبد الحميد.

أدى رفض السلطان إلى التخطيط للثورة ضده، فبدأوا بالدعاية ضد حكم الدولة العثمانية متخذين من الافتراءات والأكاذيب سلاحاً لهم، ولم يميز الكثيرون ما فيها من كذب ورافق ذلك إحياء النعرة القومية التركية (الطورانية) Turanism وإحياء شعار الذئب الأغبر.. وكتابة منشورات ضد العرب وتمجيد أبطال أمثال جنكيز خان! وكل ذلك التخطيط تمّ في أوكار الماسونية وبيوت اليهود.

---

(٢٤) هرتزل: صحفي نمساوي ترأس المؤتمر الصهيوني الأول في (بال) بسويسرا ووضع «بروتوكولات حكماء صهيون» أصدر كتاب «*الدولة اليهودية*» قبل المؤتمر بعام عام ١٨٩٦. انظر: الشاذلي، *المسألة الشرقية*، ص ١٥٣-١٥٤.

(٢٥) فتحي يكن، *العالم الإسلامي والمكائد الدولية*، ص ٥٠-٥١.

(٢٦) الشاذلي، *المسألة الشرقية*، ص ١٥٨، و*مذكرات السلطان عبد الحميد*، ترجمة محمد حرب، دار الأنصار، ط٣، دمشق، ١٩٩١، ص ١٤١ وفيها: «وطلبوا مني أرضاً لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائلة وبالطبع رفضت».

وفي سنة ١٩٠٨م أُعلنت الثورة وجاء الثوار من مقدونيا Macedonia وسالونيك Salonica موطن اليهود ومعقل الفتن بتدبير أوربي مع أعضاء «الاتحاد والترقي» وأحاطوا بقصر «يلدز» مقر الخلافة ورفض السلطان حماية جنوده له وسحق الثورة لأنه لا يحب إراقة الدماء.. وتكونت لجنة من الثوار كلفت بتبليغ السلطان قرار العزل، وكان «إيمانويل قره صو» رئيس الجالية اليهودية -والذي طرده السلطان سابقاً- أحد أعضاء اللجنة الذين بلغوا السلطان القرار(٢٧).

ولنا أن نستكشف من قراءة تلك الأحداث التاريخية بتفاصيلها مقدار المحنة التي واجهها السلطان عبد الحميد رحمه الله والمخلصين القلة معه، فقد رفض من قبل كل مغريات اليهود.. كما رفض بشدة توسلات المخلصين من حوله ومن جنوده بإيقاف جيش الانقلاب في الطريق وقبل وصول العاصمة، حتى أن قائده «خليل بك» جثى على ركبتيه وهو يبكي أمام السلطان متوسلاً: «تفضلوا بإصدار إذن جلالتك»(٢٨) وقد قاده إخلاصه إلى حبل المشنقة عندما رحل عبد الحميد، يقول السلطان في مذكراته: «... لو لم أكن قد أحسنت استعمال مقام الخلافة نفوذ السلطنة لكان الدم يسيل مدراراً سواء في استانبول أو في الولايات»(٢٩)، كما تدل مذكراته بأنه على علم بكل ما يدبر في الداخل والخارج فيقول معتذراً: «... سيقولون لي تعلم كل هذا ولم تمنعه؟ لماذا أغمضت عينيك عن خراب الدولة وانهيارها؟ حاشا! ليست المسألة إغماض عين، لقد كنت يقظاً في كل لحظة، ولكن لم أكن أستطيع منع هذا، كنت بمفردي، وكان معهم كل عالم العدو، لم تكن طبيعتي وظروفي تساعد إلا بهذا القدر.. » وقال: «وأنا إنسان رحيم منذ ميلادي ولكنني أعلم أن الدولة لا يمكن أن تدار بالرحمة»(٣٠).

والرحمة هنا ليس محلها.. وكان الأرحم بأمة الإسلام الوقوف بحزم وعدم تمكين رأس الأفعى من الوصول إلى صهيون.. ولنا من السيرة النبوية دليلٌ، فقد ذكر ابن كثير عن ابن هشام بسنده قال: «بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي -وكان بيته عند جاسوم- يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم

---

(٢٧) راجع: فتحي يكن، *العالم الإسلامي والمكائد الدولية*، ص ٥١، وراجع بقية أعضاء اللجنة المشبوهين في: الشاذلي، *المسألة الشرقية*، ص ١٩١.

(٢٨) انظر التفاصيل في المصدر السابق، ص ١٩٥، *ومذكرات السلطان عبد الحميد*، ص ١٩٨.

(٢٩) المذكرات، ص ١٩٩.

(٣٠) المصدر السابق، ص ١٣٥.

طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم»[٣١]، فالتآمر على أول دولة للمسلمين في بيت اليهود! وبعد ثلاثة عشر قرناً لضرب آخر دولة للمسلمين في بيوت اليهود في مناستر وسالونيك، وليت السلطان فعل ما فعله الرسول ﷺ وحرق المنافقين الجدد.

سجن السلطان في قصر «آلايتني» لأحد اليهود في سالونيك، وسط الأرمن واليهود!، فسمروا النوافذ ومنعوا عنه الصحف، وسرقوا أمواله، وحددوا له معاشاً يسد الرمق[٣٢].

تولى بعده السلطنة «محمد رشاد» وكان مريضاً لا حول له ولا قوة، وسارت الأمور كما يريد الأعداء، وقامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ واستدرجت تركيا لدخولها مع الألمان، وحرك الإنكليز الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن علي في مكة سنة ١٩١٢، وتمزق الجيش التركي، وانتهت الحرب سنة ١٩١٨ بهزيمة تركيا وألمانيا، وقسم الحلفاء دولة الخلافة (تركة الرجل المريض كما يسمونها).. وأعدت مسرحية جديدة على الساحة وأعدوا لها البطل «مصطفى كمال»[٣٣]، وذلك بمهاجمة اليونان لتركيا مع وجود الإنكليز! وأصبح الجيش تحت رئاسة مصطفى كمال دون أن يعرف الأتراك نيته، وكانت الحرب مع اليونان مدبرة أراد بها اللاعبون تصعيد نجم الزعيم «مصطفى» وانتهت اللعبة بانتصاره، عندها قرر الحلفاء الجلاء عن تركيا وسلموها للزعيم ليكمل الهدف[٣٤].. ولا ننسى صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ خلال ذلك الذي يمنح فلسطين وطناً قومياً لليهود.

وأول خطوة عملها «مصطفى كمال» فصل السلطنة عن الخلافة! وفتح باب الهجرة اليهودية إلى تركيا ليقتربوا من فلسطين! ثم تنازلت تركيا في معاهدة «لوزان Lausanne» عن قبرص والدول العربية سنة ١٩٢٣م، بعدها قام مصطفى كمال بخطوات انتهت إلى إعلان تأسيس جمهورية ودبر أمر انتخابه لها، وتمّ بخطة مدبرة من الإنكليز قرار إلغاء الخلافة في ٣ مارس ١٩٢٤م، وتحويل تركيا إلى دولة علمانية، وطرد الخليفة والعائلة العثمانية خارج البلاد، وأعلن عن تغيرات خطيرة -بعد أن لقب نفسه «أتاتورك» أي أبو الترك- نوجزها بما يلي:

---

(٣١) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج٥، ص ٣٠.

(٣٢) انظر: الشاذلي، *المسألة الشرقية*، ص ٢٠٦. وقد أعيد السلطان إلى اسطانبول سنة ١٩١٧ عندما سقطت سالونيك بيد اليونان ومات في قصر «بيلربي» سنة ١٩١٨.

(٣٣) وهو من أب -إن صح نسبه إليه- ألباني وأم مقدونية ومن عرق يهودي، ولد في سالونيك وتعلم وفق المناهج الغربية وأصبح ضابطاً، معروفاً بسلوكه المنحرف. راجع التفاصيل في *المسألة الشرقية*، ص ٢١٦-٢١٩.

(٣٤) انظر التفاصيل مع الوثائق في كيفية تحايل مصطفى كمال لبلوغه الهدف، المصدر السابق، ٢٠٧-٢٣٨.

إلغاء اللغة العربية واستبدال الحروف العربية باللاتينية، وأمر بترجمة القرآن إلى التركية، واستبعد الكلمات العربية والفارسية، وتم إلغاء التشريعات الإسلامية، ورفع الأذان باللغة التركية، وألغى المحاكم الشرعية، وألغى التقويم الهجري، وجعل عطلة الأسبوع الأحد، واعتمد الزي الأوربي، ومنع حجاب المرأة المسلمة، ونظراً لأهمية اسطانبول في نظر الترك والعالم الإسلامي جعل أنقرة عاصمة الدولة، وألغى كل شعار إسلامي لتحل محله صورة الذئب الأغبر زاعماً أن ذلك رمز للأتراك القدماء! ثم قام بإغلاق المسجدين «**محمد الفاتح**» و«**أياصوفيا**» وحظر الصلاة فيه «احتراماً لمشاعر الغرب» على حد قوله، وأعدم مئات العلماء في مدينة «منامن» وغيرها[٣٥].

فيا لها من فتنة ومحنة حلت بالمسلمين، فقد ذهبت الخلافة وذهبت معها هيبة المسلمين وانقض اللئام عليهم كاجتماع الأكلة على قصعتها.. فالتحديث في نظر أتاتورك لا يتم إلا بتغريب وعلمنة، وتحرير من كل مظهر إسلامي وشرقي، ومن مظاهر الثقافة العربية بالذات.. انشكفت اللعبة وانفضح دوره وكفره، وخصوصاً لأنه استعمل أسلوب القتل والاغتيال لمن يعترضه وفي مقدمتهم العلماء.. كما انفضح دور يهود الدونمة حين تقدموا عام ١٩١٨م بعد احتلال الاستانة إلى قادة الخلفاء معلنين أنهم ليسوا أتراكاً ولا مسلمين[٣٦]. لقد تركت الخلافة العثمانية فراغاً.. وكما يقول الندوي: «لا شك أنها كانت –على علاتها الأخيرة– حصناً منيعاً للإسلام... يمنع تدخل القوى الأجنبية الغربية في هذه البلاد واعتدائها على مقدساتها»[٣٧] وأحوال العالم الإسلامي بعدها شاهد على ذلك..

وترتب على سقوط الخلافة ما يأتي:

أ- دخول الاستعمار:

دخل الاستعمار الجديد لدول الإسلام بعد الحرب العالمية الأولى.. وانهالت عليها المصائب والمحن بعد انهيار الخلافة، وظهرت النيات المبيتة للدول الكبرى للانقضاض على تركة الرجل المريض –كما يزعمون– وكما خططوا في مؤتمراتهم السرية عن المسألة الشرقية.. فقد ظهر أن هناك اتفاقية سرية جرى التوقيع عليها وتسمى «**سايكس بيكو**»[٣٨] **Sykes-Pycot** بين إنكلترا وفرنسا وروسيا بتقسيم العالم العربي ولم يسمع بها العرب إلا في سنة ١٩١٧م.

---

(٣٥) راجع المصدر السابق، ص ٢٣٨-٢٤٦، وفتحي يكن، *العالم الإسلامي والمكائد الدولية*،ص ٥١.

(٣٦) نفس المصدر، ص ٢٤٤.

(٣٧) الندوي، أبو الحسن، *ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين*، ص ١٧٢.

(٣٨) انظر: فتحي يكن، *العالم الإسلامي والمكائد الدولية*،ص ٥٢.

وقد نفذت المعاهدة بعد الحرب، وبعد انسحاب أحد أطرافها (روسيا Russia) منها، وتقاسمتها إنكلترا وفرنسا مع مراعاة ضمان المصالح وخصوصاً مناطق البترول.. وكان نصيب فرنسا دول المغرب العربي من مراكش إلى الجزائر، وغيرها من دول إفريقيا مع سوريا ولبنان. أما نصيب إنكلترا فهي مصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين، وما يعرف بدول الخليج العربي فهي محميات إنكليزية عدا السعودية لأنها ليست بمطمع لهم حيث لم يكتشف فيها النفط بعد.. وهي حماية ربانية للحرمين الشريفين.

وكان قبل ذلك الشرق الإسلامي وشبه القارة الهندية وماليزيا Malaysia وإيران وبعض المدن الإفريقية من نصيب إنكلترا England. وبقي الروس محتفظين بالولايات أو الإمارات الإسلامية الست المتاخمة لإيران وأفغانستان[٣٩].

ومع الاحتلال العسكري سعى العدو إلى الاستعمار الفكري والاقتصادي بالوسائل التالية:

١- تجميد اللغة العربية وإحياء اللغات القومية مع لغة المستعمر مع كتابة اللغة القومية بالأحرف اللاتينية كما في تركيا ودول شرق آسيا.

٢- فرض المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات، وما يتبعها من المناهج واللغة والتاريخ الغربي والتمجيد به.

٣- التبشير بديانة المحتل وتجميد الشريعة الإسلامية وأحكامها واستبدالها بالقوانين الأوربية.

٤- فرض مظاهر الحضارة الأوربية الحديثة في الفن والمجتمع والأدب بهدف القضاء على أخلاقيات الإسلام وشيوع الانحلال.

٥- تشجيع الدعوات التخريبية الهدامة، وضرب الإسلام بالأفكار الإلحادية وإثارة الشبهات حوله.

٦- ضرب الإسلام بالعروبة بتشجيع القوميات[٤٠].

والحقيقة أن الشعوب المسلمة لم تستلم للاحتلال بل واجهته ببسالة وجهاد فكبدت الأعداء الكثير من المال والأرواح مما اضطرها إلى إيجاد البديل.. وهم العملاء الوطنيون من الداخل وتوليتهم المناصب تحت إشراف المعتمدين الساميين.

فقد تخلت كل من الدولتين عن مستعمراتها لسوء اقتصادها بعد أن طلبوا من أمريكا أن تقوم

---

(٣٩) انظر التفاصيل في: المصري، جميل د.، *حاضر العالم الإسلامي*، ج١، ص ٩١، وعلي عبد الحميد محمود د.، *التراجع الحضاري*، ص ٢٧٧، وعلي جريشة د.، *الاتجاهات الفكرية المعاصرة*، ص ٣٤.

(٤٠) راجع: منير محمد غضبان، *المسيرة الإسلامية للتاريخ*، ط٢، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٢، ص ٢٠٤-٢٠٥.

بهذا الدور، فحققت نفس الأهداف بأسلوب جديد! ومارست بمهارة «العبة الأمـم» وفي مقدمتها الانقلابات العسكرية التي تصنع عن طريق البطل الذي تتعلق به آمـال الأمـة، ثـم ينحـرف بعـد ذلك لمصالح الغرب[٤١]، فكان أول عسكري ابتليت به الأمة في تركيا سنة ١٩٠٨ ثم سـوريا ثـم مصر، ثم تتابعت في بقية الأقطار، مع استفادة كل انقلاب مـن تجارب مـن سبقه.. أمـا روسـيا فاتبعت طريق المعاهدات، تبث مباديءها عن طريق الحزب. وقد أدت هذه الانقلابات من أهـداف الأعداء، أضعاف ما أدته جيوش الاحتلال حيث أعطت القدوة السيئة، ومكنت للغـزو الفكـري، ومكنت اليهود من التوسع، كما حاربت تلك الحكومات الحركات الإسلامية بحجـة التـآمر، كمـا كان هؤلاء أقدر على التغيير الاجتماعي المطلوب[٤٢].

كل ذلك سببه الابتعاد عن منهج الإسلام الـذي أنسـاهم تحذيـرات القـرآن مـن تصديـق الأعداء حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[٤٣] وقال: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[٤٤]. وقال رسول الله ﷺ: «المؤمن كيس فطن»[٤٥]، ولكن لـم يفطـن هـؤلاء أن الهدف القضاء على هويتهم.

ب- قيام دولة إسرائيل Israel:

إنها الفتنة الكبرى والمحنة العظمى التي ابتلـي بهـا المسـلمون عمومـاً والعـرب خصوصـاً ولا زالت قائمة، وكان قيامها بعد تخطيط وتآمر استند على الكذب والتحريف لأصول كتبهم وأولهـا التوراة فنشأت عنها فكرة الصهيونية (Zionism).

وليس بالإمكان -بهذا الموجز- شرح تاريخ الفكرة ومنشئها، بل نؤكد أنها أفكار قديمة قـدم اليهود، فقد كانوا أعداء للأنبياء حتى موسى عليه السلام الذي قص القرآن مواقفهم معه، وليس اعتباطاً أن نجد القرآن الكريم قد فصل القول في طباعهم ومكرهـم، بـل كـل ذلـك لتنبيـه المسـلمين مـن شرهم المرتقب.. فقد نبه القرآن على حب اليهود لإشعال الفتن والفسـاد فقـال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤٦]

---

(٤١) راجع: علي جريشة د.، ومحمد شريف الزيبق، *أساليب الغزو الفكري*، ص ٤٨.
(٤٢) المصدر السابق، ٥٠-٥١.
(٤٣) النساء ٤: ٧١.
(٤٤) الحجرات ٤٩: ٦.
(٤٥) العسقلاني ابن حجر، *فتح الباري*، ج١٠، ص٣٠، العجلوني، كشف الخفـا، ج٢، ص٤٠٥، وذكـره الألباني، *سلسلة الأحاديث الضعيفة*، ص ٧٦٠.
(٤٦) المائدة ٥: ٦٤.

كما وصفهم بالغدر والقتل والتحريف فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[٤٧] وفي أخرى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[٤٨].

ومن أبرز صفات الوقاحة، حتى مع ذات الله سبحانه وتعالى، حيث ذكر عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٤٩].

كما نعتهم القرآن بالجبن، وقسوة القلوب، والغرور فقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[٥٠] وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[٥١] و﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[٥٢].

ولكثرة جحودهم كتب الله عليهم الذلة والمسكنة ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾[٥٣].

وقص علينا القرآن الكريم تآمر اليهود على الأنبياء، والسيرة النبوية تذكرنا بتآمرهم على نبينا محمد ﷺ، ثم كانوا وراء الفتن التي حلت بالمسلمين وفي مقدمتها قتل عثمان ﷺ ولهم يد في كل فكرة خبيثة. ويعتمد اليهود في تعاليمهم على التلمود (وهي أقوال الحاخامات وشروح كتبهم) الذي يتداولونه بسرية لأن ما فيه إما خرافات وخصوصاً أوصاف الله وملائكته المكرمين، أو حقد واحتقار لغير اليهود، فالتلمود يقسم الناس صنفين: الأول: وهو الإنسان مقصود على اليهود وحدهم، والثاني: بقية شعوب العالم وهم ملك اليهود، يفعلون بهم ما يفعل المالك بملكه! ويطلقون عليهم «الأمين» أو «الجوييم» Goyim.

وحسب قواعد التلمود فإن الأموال التي بأيدي غير اليهود ملك لهم.. وعليهم استردادها ولو بالغش والسلب والربا.. كما أن أرواح غيرهم وأعراضهم غير محرمة، بل إن

---

(٤٧) النساء ٤: ١٥٥.
(٤٨) المائدة ٥: ١٣.
(٤٩) المائدة ٥: ٦٤.
(٥٠) المائدة ٥: ٢٢.
(٥١) البقرة ٢: ٧٤.
(٥٢) البقرة ٢: ٨٠.
(٥٣) آل عمران ٣: ١١٢.

لإنقاذ غير اليهودي معصية[٥٤]، ولكي يبيحوا لأنفسهم ذلك فقد رموا الأنبياء بتلك النقائص.. حتى ذات الله لم تسلم منهم حيث اتهموه بظلم اليهود، وقالوا: أنه يبكي (حاشاه) كل يوم على شعبه وخراب الهيكل، وأنه لا يستحق الحمد لتقصيره في حق أولاده اليهود! كما يستند اليهود في ادعائهم حق السيطرة على العالم على ما جاء في التوراة من أنهم شعب الله المختار[٥٥].

ولهم كتاب «الكبالا أو القبالا» Kabala يتوارثه اليهود منذ القدم وهو كتاب خطير[٥٦]. ومن كتبهم الدينية جاءت فكرة الصهيونية والماسونية وبروتوكلات حكماء صهيون، حيث تبشرهم أقوال الحاخامات بحكومة الكون والسيادة على العالم.

والصهيونية: «حركة سياسية عنصرية متطرفة ترمي إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين تحكم من خلالها العالم كله، واشتقت الصهيونية من اسم (جبل صهيون) في القدس، حيث تطمع الصهيونية أن تشيد فيه هيكل سليمان وتقيم مملكة لها تكون القدس عاصمتها، ارتبطت الحركة بشخصية اليهودي النمساوي «هرتزل» الذي يعد الداعية الأول للفكر الصهيوني الذي تقوم على آرائه الحركة الصهيونية في العالم»[٥٧].

والبروتوكولات[٥٨]: هي مجموعة التقارير والتوصيات السرية التي صدرت عن مؤتمر حكماء صهيون الأول، وهو بمثابة دستور الحركة الصهيونية، التي تعتمد على تقويض أركان المجتمع العالمي استناداً إلى كتبهم المحرفة من أنهم شعب الله المختار وله حق السيطرة على الشعوب.

والتطبيق العملي والواقعي لأفكار الصهيونية المتمثلة في البروتوكولات يكون عن طريق الجمعيات والمحافل والتنظيمات العلنية والسرية (غالباً) والتي يكتشف أمرها بعد حين، ومن أبرز التنظيمات السرية والتي حققت أهدافهم هي: الماسونية (Free Masonry) والتي كان

---

(٥٤) انظر تلك النصوص ومعتقدات اليهود في: المطعني عبد العظيم، *المسيحيون والمسلمون في تلمود اليهود.. غرائب وعجائب*، مكتبة وهبة-القاهرة، سنة ١٩٩٦، المقدمة ص ٣-٥ إلى آخره.

(٥٥) المرجع السابق.

(٥٦) *الكبالا*: كتاب التصوف اليهودي عن طريق السحر الذي يمثل شطراً من طقوسهم السرية. انظر التفاصيل في: علي جريشة د.، ومحمد شريف الزيبق، *أساليب الغزو الفكري*، ص١٥٨-١٥٩.

(٥٧) *الموسوعة الميسرة*، ص ٣٣١، وفيه تفاصيل عنهم من ص ٣٣٠-٣٣٨.

(٥٨) راجع قصة اكتشاف البروتوكولات وانتشارها وترجمتها في: محمد خليفة التونسي، *الخطر اليهودي (بروتوكولات حكماء صهيون)*، دار الكتاب العربي-بيروت، ط٦، ١٩٨٢، ص ٢٩-٨٩ وانظر فيه أسرار وخطورة اليهود.

لها دور خطير في سقوط الخلافة العثمانية وهزيمة العرب عام ١٩٤٨م[٥٩].

والماسونية تعني: البناؤون الأحرار. وهي إشارة إلى بناء هيكل سليمان في مملكة يهوذا.. ترفع شعارات مضللة «حرية، إخاء، مساواة»[٦٠].

والماسونية وراء نكبة المسلمين في إلغاء الخلافة، ووراء جل الثورات العالمية كالثورة الفرنسية، والشيوعية.. وقد حققت انتصاراً باستمالة النصارى إذ صدر قرار بتبرئة اليهود من دم المسيح، ثم أعلنت الكنيسة السماح للنصارى للانتساب للماسونية وقد كانت تمنعه[٦١]. وبعد أن انكشف أمرها كان البديل «الروتاري» (Rotary Club) و«الليونز» (Lions Club)، وقد انتشرت نواديها في كثير من أقطار العالم الإسلامي عن طريق البرامج الثقافية والرياضية والترفيهية المختلفة لغسل أدمغة الشباب وتعليمهم الأفكار الهدامة[٦٢].

وتسعى الصهيونية لتحقيق أهدافها بكل طريق جرياً على قاعدتهم «الغاية تبرر الوسيلة» من السيطرة الاقتصادية، والتفوق العسكري، والهيمنة الإعلامية، والغزو الثقافي، ولكل ذلك أدلة من البروتوكولات[٦٣].

أما وسائلها لذلك فتكون في: إشاعة الفوضى، وإثارة الفتن والوقيعة بين الناس، والإرهاب الفكري، وافتعال الأزمات الاقتصادية، والقضاء على الأديان[٦٤].

نستنتج من هذا الموجز كيف حقق اليهود أحلامهم في قيام دولتهم، فبعد أن وضعوا الخطط استطاعوا استمالة الغرب المسيحي وإقناعهم بضرورة إنشاء دولة لهم في فلسطين بعد أن سيطروا عليهم سياسياً واقتصادياً، وحين وقف معهم الغرب كانوا يهدفون إلى الخلاص من اليهود المشتتين في أقطار أوربا بنسب متفاوتة، ولزرع كيان خبيث بين المسلمين للإضرار بهم وتحقيق مصالحهم، ولذلك تحالف الغرب للقضاء على الدولة العثمانية لأنها الطريق إلى القدس، وخلالها أعطتهم بريطانيا «وعد بلفور» Balfour بمنح فلسطين وطناً قومياً لليهود فتحملت

---

(٥٩) انظر المنظمات الأخرى في: عبد الصبور مرزوق، *الغزو الفكري*، ص ٩١، وعلي جريشة د.، ومحمد شريف الزيبق، *أساليب الغزو الفكري*، ص ٧٧-١٨٤.

(٦٠) راجع تعريفها في *الموسوعة الميسرة* وتفاصيل أخرى، ص ٤٤٩-٤٥٤.

(٦١) علي جريشة، *الاتجاهات الفكرية* المعاصرة، ص ٢١٨-٢٣٨.

(٦٢) فتحي يكن، العالم الإسلام والمكائد الدولية، ص ٧٣-٧٤.

(٦٣) المصدر السابق، ص ٧٨-٨٠.

(٦٤) علي جريشة د.، ومحمد شريف الزيبق، أساليب الغزو الفكري، ص ١٧٠-١٧٥.

إنكلترا الوزر الأكبر في ذلك[٦٥].

وعندما أصبحت فلسطين من نصيب الإنكليز بعد الحرب العالمية الأولى انضمت فصائل من اليهود إلى جيوش اللورد «اللنبي» التي غزت فلسطين، وقال قولته المشهورة حين دخل القدس عام ١٩١٧ في خطبته: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»، وفعل مثله القائد الفرنسي «غورو» الذي احتل سوريا ووقف على قبر صلاح الدين الأيوبي وهو يقول بلهجة المنتصر... «ها قد عدنا يا صلاح الدين»!![٦٦].

وكان المندوب السامي البريطاني ونائبه يهوديين.. وفتحت أبواب الهجرة إلى فلسطين ثم أتيح لهم تكوين عناصر مدربة تدريباً حديثاً، فتمكنوا من خلال الاحتلال الإنكليزي تحويل مستعمراتهم إلى ثكنات عسكرية، وحين انسحبت بريطانيا من فلسطين عام ١٩٤٨ بعد انتهاء الانتداب أعلن اليهود عن قيام دولة إسرائيل! ولهم جيش مدرب ومستعمرات محصنة وعصابة من الدول الاستعمارية تؤيدهم، فتسابقت هذه الدول إلى إعلان الاعتراف بها.

وقامت هيئة الأمم المتحدة بالدور الرئيس لقيام هذا الكيان وذلك بإفشال كل المشاريع التي قدمها العرب والتصويت على تقسيم فلسطين[٦٧].

وما زالت إسرائيل موضع رعاية هذه الدول الكبرى فروسيا تمدها بالثروة البشرية وأوربا وأمريكا بالمال والسلاح.. فقامت بالتوسع عام ١٩٦٧م بالهجوم على مصر وسوريا والأردن وأصبحت تمتلك من السلاح ما تهدد به العالم الإسلامي وخاصة الأسلحة النووية، وها هي الآن تعلن أن القدس عاصمتها الأبدية وهم في طريقهم إلى هدم المسجد الأقصى أولى القبلتين ومعراج الرسول ﷺ لتبني بعدها هيكل سليمان مكانه!!!

ثانياً- تجزئة المسلمين وإثارة المشكلات بينهم:

وهي أحد وسائل الأعداء لتفرقة المسلمين وتفكيك أواصر الدين والإخاء..

وكانت أول تجزئة في العصر الحديث هي عزل العرب عن دولة الخلافة في تركيا ثم تقسيم العالم العربي إلى أكثر من عشرين دولة، مع أن بعضها لا يملك مقومات الدولة لأن عدد سكانها أقل من نصف مليون! وكذلك في بقية العالم الإسلامي..

---

(٦٥) الإنكليز كان لهم دور في إقامة المؤتمرات في دولتهم وجمع التبرعات لليهود لشراء العقارات في فلسطين، راجع: علي عبد الحليم محمود، التراجع الحضاري، ٢٩٧-٢٩٨.

(٦٦) انظر: محسن محمد صالح د.، الطريق إلى القدس، ص ١٦٩.

(٦٧) راجع: محمد قطب، *واقعنا المعاصر*، ص ٣٨٦.

فقد قسمت الهند إلى الهند وباكستان، ثم باكستان إلى باكستان Pakistan وبنغلاديش Bangladish، ومصر إلى مصر والسودان، والشام إلى: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، والجزيرة إلى عدة إمارات.. واليمن إلى شمالي وجنوبي، والصومال Somalia إلى فرنسي وآخر إنكليزي وثالث إيطالي، والسودان يحاك له أن يقسم إلى شمال وجنوب! والمغرب يراد له أن يكون المغرب والصحراء (البوليساريو) Proletarrete، وتجري المؤامرات على قدم وساق لتقسيم العراق إلى ثلاث أو أربع دويلات! ولا نعرف ما يرتب في الخفاء.. والعالم الإسلامي اليوم يزيد على الخمسين دولة، والأصل أن تكون واحدة أو متحدة[٦٨].

إن الدول الإسلامية كلها أو بعضها قادرة أن تحقق التكامل الاقتصادي فيما بينها بما يغنيها من تبعية الغرب.. والكيانات الصغيرة لا تستطيع أن تواجه الحياة وحدها.. فقد تجرها الحاجة إلى الاستدانة ثم الفوائد الربوية، ثم التبعية الاقتصادية والسياسية. وعلى عكس ذلك يتوحد الأعداء، فأوربا تسعى إلى السوق المشتركة وتوحيد العملة، مع اختلافهم في المذاهب والعقائد.. فما بال المسلمين إذا ما طرحت فكرة كهذه باءت بالفشل وهم مشتركون في الدين ومنهجه.. وقد وضع الإسلام في مقدمة أهدافه أن تستعلي الأمة بدينها وعقيدتها على العصبيات فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٦٩]، وقال: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٧٠] وقال رسول الله ﷺ لمن أراد أن يوقظ الفتنة والعصبية: «دعوها فإنها منتنة»[٧١].

ولم يكتف الأعداء بالتقسيم بل عمدوا إلى تجزئة أخرى بين هذه الدول أو داخل الدولة الواحدة من ذلك:

١- إثارة الخلافات العقدية والطائفية[٧٢]:

عمد الأعداء إلى تغذية روح العداء بين أهل الأديان المتعايشين في سلام منذ أمد بعيد، فأيقظوا

---

(٦٨) انظر: علي عبد الحليم محمود د.، *التراجع الحضاري*، ص ٢٧٨.

(٦٩) الحجرات ٤٩: ١٠.

(٧٠) الأنبياء ٢١: ٩٢.

(٧١) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب تفسير القرآن، سورة المنافقين، ج٦، ص ٦٦، ح(٤٤٢٥)، والإمام مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب (١٦) نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، ج٦، ص ١٩٩٩، والترمذي، *سنن الترمذي*، كتاب تفسير القرآن (٤٤، ح(٣٣١٥)، باب ٦٣، ج٦، ص ٤١٨.

(٧٢) الطائفية بالمعنى الضيق: «التشيع للمذهب والتعصب له.. »، راجع: عاصم أحمد عجيلة د.، *الخلافات المذهبية*، مجلة صنعاء، ص ٨٠. ومنهم من ينظر للطائفية بالمعنى الواسع فهي ليست فقط الالتفاف حول المذهب بل الأديان في البلد الواحد، وأعم من ذلك النظم الحزبية والمذاهب الفكرية. المطعني، *أوربا في مواجهة الإسلام*، ص ١٤٧.

النزعات المتعصبة بين المسلمين والنصارى واليهود، فقد حرضوا الأرمن في الدولة العثمانية، واحتل الإنجليز مصر بحجة حماية الأقليات النصرانية[٧٣] وقد عمقوا العداء بين الشيعة وأهل السنة في كل من العراق وإيران، وكانوا وما زالوا سبب الحوادث الدامية في الهند بين المسلمين وغيرهم من الديانات، ودامت الحروب سنوات بين المسلمين وطوائف المسحيين في لبنان استفادت منها إسرائيل باحتلال جنوبها. وقد جعل الاستعمار الأقلية غير المسلمة غير راضية بما لديها من حقوق بل تطالب بالهيمنة على الدول التي تنتمي إليها.. حتى إن بعض الدول الإسلامية تحذف من دستورها «الإسلام دين الدولة» إرضاءً للأقلية.

ولم تقتصر الطائفية على الأديان بل جرت إلى المذاهب الوضعية.

٢- إثارة القوميات والإقليميات:

كان من أبرز عوامل انتصار أوربا في تفتيت الوحدة الإسلامية هي إثارة القوميات، فالفارسية عزلت مسلمي إيران، وجندت أوربا العرب بدعوى القومية لضرب الجامعة الإسلامية.. وكذلك التركية الطورانية[٧٤]. وكذلك الحال مع القوميات الأخرى.. كما لم يكتف الأعداء بتقسيم الأرض.. فالإنجليز كانوا وما يزالون وراء الخلافات بين العرب والأكراد وبين الأكراد والأتراك.. والإيرانيين والأكراد، وزادت أمريكا من مأساة الأكراد في شمال العراق حيث أغرتهم بالانفصال عن الدولة والعيش في فوضى ودخول عشرات المنظمات التنصيرية بحجة الإغاثة.

وكذلك فعل الفرنسيون في الشام بين العرب والدروز وغيرهم.. وقد تؤجج العصبيات في الدول ذات القومية الواحدة باسم الوطنيات والإقليميات وذلك بإحياء الحضارات القديمة كالفرعونية في مصر، والبابلية والآشورية في العراق، ومن هنا كان الاهتمام بالآثار والمتاحف.. واللهجات المحلية.

وقد شجعت الدول الأوربية قيام الجامعة العربية لضرب مشروع الجامعة الإسلامية سنة ١٩٤٥م[٧٥]. ثم فجرت سلاح الوطنية لتفتيت القوميات ثم تفتيت الوطنيات بسلاح الطائفية، وفي كل الأحوال الهدف هو الإسلام بخلق ولاءات لغيره.

---

(٧٣) المصدر السابق، ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٧٤) المصدر السابق.

(٧٥) عقد المؤتمر العربي الأول في باريس سنة ١٩١٣ وفتحت لهم القاعة الكبرى للمؤتمرات، راجع: فتحي يكن، *العالم الإسلامي والمكائد الدولية*، ص ٥٦.

ومن هذا المنطلق انشطرت الجامعة إلى عدة مجالس[٧٦]، علاوة على فشلها في حل المشاكل العربية. وبذلك تحقق ما خطط له اليهود، يقول البروتوكول الخامس: «لقد بذرنا الخلاف بين كل واحد وغيره في جميع أغراض الأميين الشخصية والقومية، بنشر العصبيات الدينية والقبلية خلال عشرين قرناً»[٧٧].

والإسلام لا يريد من المسلم الانسلاخ من قوميته، فالاعتزاز بالقومية لا يعني الانسلاخ من الدين ولا تضاد بينهما بل المطلوب أن يكون الولاء الأول للإسلام ولا تتخذ الطابع العقيدي الاستعلائي كما جاء على لسان أحد رواد القومية قوله: «القومية بالنسبة إلينا نحن القوميون العرب دين له جنته وناره ولكن في الدنيا! »[٧٨].

ومما يؤكد أن الإسلام الهدف أن الفكرة نشأت بين النصارى العرب وتابعهم المغفلون دون أن يدركوا أبعاد المؤامرة لأنها تؤدي إلى موالاة الكفار العرب والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[٧٩] وقال كذلك: ﴿لاَّ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[٨٠]، وقد نهى عنها الرسول ﷺ لأنها من دعوى الجاهلية فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهوركم؟»[٨١] وقد أحسن الشاذلي وصفها فقال: «القومية العربية: فهي أوربية الصياغة، علمانية الهدف، ملحدة المنهج، نصرانية المنبت، فقد كان ميلادها الوبيء في فتنة الموارنة في جبل لبنان عام ١٨٦٠م، صليبية الرواد والأساتذة، ماسونية الغرس، يهودية التوجيه»[٨٢] وعلى أيدي هؤلاء ضاعت فلسطين، فهل تفلح دعوة كهذه في استرداد حق المسلمين؟ كلا وألف كلا.. حتى يعود ولاؤهم لدينهم القويم..

---

(٧٦) وهي: مجلس التعاون العربي، والمغاربي، والخليجي.

(٧٧) *بروتوكولات حكماء صهيون*، ص ١٢٢.

(٧٨) وهو علي ناصر، انظر: فتحي يكن، *العالم الإسلامي*، ص ٥٦.

(٧٩) المتحنة ٦٠: ٤.

(٨٠) المجادلة ٥٨: ٢٢.

(٨١) السيوطي، الدر المنثور، ج٤،ص٢٧٨-٢٧٩ وذكر القصة سببا لنزول قوله تعالى «قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بيات الله..»

(٨٢) الشاذلي، محمود ثابت، *المسألة الشرقية*، ص ١٢٥.

ثالثاً- الغزو الفكري الحديث:

مر بنا عند الحديث عن الفتن الفكرية في التاريخ مذاهب فكرية أدت أدوارها وانقرضت، ولكن بعضها استمر كالفرق الباطنية والبابية، وتطور بعضها، وظهرت أخرى لم تكن من قبل، وغزتنا شر غزو لأنها صادفت قلوباً خاوية وعقولاً غير واعية فجذبتها هذه التيارات رغم فسادها، فمن تلك التيارات التي تشكل غزواً فكرياً خطيراً ما يأتي:

١- استمرار حركة الاستشراق والتنصير:

نشطت حركة الاستشراق Orientalism والتنصير Christionization Process بعد سقوط الخلافة الإسلامية، وهي إحدى الوسائل التي اعتمدها الغرب للدس على الإسلام، وبث التشويهات والأباطيل في أفكاره ومصادره ورجاله تحت اسم البحث العلمي[(٨٣)].

كما مر بنا نوعية الكتب والمواضيع التي يتناولها أو يحققها هؤلاء المستشرقون لكي تخدم أهدافهم.. فضلاً عن الاهتمام بالآثار والحفريات التي تنمي روح الإقليمية..

ومع تنامي هذه الحركة أخذت ظواهر الانحراف الفكري تظهر على تلاميذهم من المسلمين، فصار الهدف الاستشراقي الداخلي أكثر وقعاً من الخارجي.. ففي الوقت الذي يحتاج فيه المسلمون إلى التوحد تحت لواء الجامعة الإسلامية لإنقاذ الخلافة يظهر من يهدم نظام الحكم في الإسلام بكتاب «**الإسلام وأصول الحكم**»[(٨٤)] حيث ينفي أن نصوص القرآن والسنة قد تطرقت لهذا الموضوع، وهو يريد بذلك فكرة «**فصل الدين عن السياسة**»، وأمثال هذا الكاتب كثير وفي موضوعات شتى.

وتبدو خطورة هذا الهدم في المحاور التي يدرسها هؤلاء، فالقرآن أثاروا حوله الأباطيل وأنه من خيال محمد طعناً بصدقه ﷺ، ولهم في قضية الوحي شبهات رد عليها العلماء وكشفوا زيغها، كما حملوا على السنة النبوية ووصفوها بمخالفة العقل والعلم، كما أثاروا حول العقائد والأصول مطاعن، وشبهات حول الشخصيات الإسلامية بتشويه سيرتهم، وتحريف تاريخ المسلمين، والانتقاص من بعض تشريعاته، كتعدد الزوجات وبعض العبادات كالطواف والتيمم،

---

(٨٣) راجع: فتحي يكن، *العالم الإسلامي والمكائد الدولية*، ص ٥٧.

(٨٤) وهو الشيخ علي عبد الرازق، وقد أحدث صدور الكتاب ضجة وقدم للمحاكمة من قبل لجنة من الأزهر، وصدر قرار بطرده من زمرة العلماء، وكشف البعض أن المؤلف الحقيقي مستشرق ووضع عليه اسم الشيخ ليكسب الكتاب قيمة بين المسلمين وكان الشيخ قد عاش في إنكلترا بين ١٩١١-١٩١٤، وذكر الأدلة على ذلك. راجع: محمد عمارة د.، *معركة الإسلام وأصول الحكم*، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩، والمطعني عبد العظيم د.، *أوربا في مواجهة الإسلام*، ص ٣٩٩-٤١٨.

كما حاربوا لغة القرآن بعدم ملاءمتها العصر، وأن الإسلام استنفد أغراضه ولم يعد صالحاً، وزينوا بذلك الخروج عليه باسم التحرر والمعاصرة، ورمي المتمسك به بالرجعية والتخلف والأصولية والإرهاب.

وتطور دور الاستشراق عن طريق الجامعات الأمريكية المنتشرة في كثير من بلدان العالم الإسلامي، وخطر هذه الجامعات في تجنيد بعض المسلمين ليقوموا بأدوارهم بعد مساعدتهم على ارتقاء المناصب الحساسة.. منفذين مخلصين لمناهج الغرب في ديار الإسلام.

وقد حذر الأستاذ الندوي من الاعتماد على مؤلفات المستشرقين في المواضيع الإسلامية الخالصة.. وذلك لأنهم يدسون السم في العسل فيجب التحفظ في ذلك[٨٥]. فقد يصدرون كتاباً بقليل من المدح للإسلام ليكسبوا ثقة القارئ ثم يبدأون ببث الحقد الدفين بالتشكيك ويوردون شبهات تافهة، كما قال تعالى عنهم: ﴿**وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[٨٦]. أما التنصير فلا يقل عن الاستشراق بل هو متمم له، وتطورت هذه الحركة حديثاً مستفيدة من التقدم العلمي الحديث، فبالإضافة إلى إنشاء المدارس والمعاهد لتخريج المبشرين وإصدار المجلات العلمية، أنشأوا محطات إذاعية وتلفزيونية وأشرطة الكاسيت، ووسائلهم منتشرة في كافة البلاد ويعملون بحرية تامة، وخاصة شبكة المعلومات (الإنترنيت).

وقد اشتد نشاطهم في القرن العشرين، وصاروا يعلنون عن أهدافهم بعقد مؤتمرات تدرس أحوال الشعوب الإسلامية التي يراد غزوها دينياً[٨٧]، وإذا لم يثمر عملهم في تنصير المسلمين فيكتفون بذبذبته وانسلاخه من دينه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق**﴾[٨٨]. ويتركز خطر التبشير في جنوب شرق آسيا وجنوب أفريقيا.

ولمعرفة حجم تلك الفتنة في العصر الراهن لا بد للمسلم من أن يطلع على التقارير[٨٩]

---

(٨٥) المصدر السابق، ١٢٢-١٢٦ وقد فطن لذلك غيره أمثال العقاد.

(٨٦) آل عمران ٣: ٧٣.

(٨٧) عقد أول مؤتمر تبشيري في القاهرة سنة ١٩٠٦ في بيت الزعيم أحمد عرابي قائد الثورة ضد الإنكليز!! راجع محمد قطب، *واقعنا المعاصر*،ص٢٧٩

(٨٨) البقرة ٢: ١٠٩.

(٨٩) نشرت *مجلة المجتمع الكويتية* إحصائيات في تقرير مخطط التنصير حتى عام ٢٠٢٥م، أحدث تقرير إحصائي لعمليات التنصير العالمية يعرض. العدد ١٢٨٠، ديسمبر ١٩٩٧، ص ٢٠-٢٢.

التي يكشف عنها علناً للتنصير في المستقبل.. فمؤتمر «لجنة تنصير لوزان» الذي عقد في أمريكا سنة ١٩٧٨ كان نقطة الانطلاق حيث اجتمع مائة وخمسون متخصصاً من شتى أرجاء العالم وخرجوا بخطط هجومية لهدم عقيدة المسلمين، وأنشأوا معهد «صمويل زويمر» لتنسيق الجهود ووضع الخطط.. ومن ذلك التاريخ وجيوش المنصرين تنطلق مدعومة من كل القوى الدولية، ولم تعد خططهم سرية بل مجال فخر حيث تنشر تقاريرهم السنوية..

وبدأ إصدار «النشرة الدولية لأبحاث التنصير» سنة ١٩٨٥ ويبرز التقرير الثالث عشر الحجم الهائل للتأثير النصراني في العالم.. من ذلك: أن عدد الكتب التي تتحدث عن المسيح كمحور رئيس في مكتبات العالم ٦٥،٥٧١ كتاباً، منها ٥٣،٩٤ يظهر اسم المسيح على غلافها، ويشمل التقرير المناطق الجغرافية التي يشملها التنصير والأموال المخصصة لها..

وذكر التقرير إحصائية عام ١٩٧٧: ٢٠٠ مليار دولار، ٢ مليار إنجيل، ٤ ملايين منصِّر، ٣٤٠٠ محطة إذاعة وتلفزيون قامت بعمليات التنصير.

وفي التقرير الخطة إلى عام ٢٠٠٠م وكذلك مخطط التنصير حتى عام ٢٠٢٥م ويكشف التقرير خطر الخطة التنصيرية مع الإنفاق الهائل من قبل الدول التي تدعي فصل الدين عن السياسة![٩٠] وماذا أعد المسلمون تجاه تلك الفتنة وكل أجهزتنا تنصب فيما يريده الأعداء.. إن هذه الخطط إضافة إلى جهود المستشرقين تشكل حملة فاقت كل الحملات وتفعل ما لا تفعله الجيوش..

وأحياناً يكون التنصير إجبارياً في الأقليات المقطوعة عن العالم الإسلامي، ويجبر أولياء الأمور على تنصير أولادهم، خصوصاً أن المسيحية شرط في المنح الدراسية[٩١].

٢- العلمانية (Secularism):

مفهوم العلمانية عند الغرب يعني: فصل الدين عن الدولة، وحصره في أماكن العبادة، وقصر معنى الدين على الجانب التعبدي دون امتداده لسائر شؤون الحياة. وعلى هذا فإن مفهومها لا يعني الإلحاد وإنكار الدين كما في المذهب الشيوعي، فالدول الأوربية علمانية ولا تعارض قيام الشعائر الدينية[٩٢].

---

(٩٠) الخطة التنصيرية إلى عام ٢٠٠٠م: ٢٢٠ مليار دولار، ٤ آلاف محطة بث، ٦ ملايين منصر، ومخطط التنصير حتى عام ٢٠٢٥م: ٨٧٠ مليار دولار، ١٠ آلاف إذاعة وتلفزيون، ٧ ملايين منصر، ٢٥٠ دورية وكتاباً.

(٩١) راجع مجلة المجتمع «*وقائع تنصير أطفال المسلمين في بلغاريا*»، عدد ١٢٤٠، مارس ٩٧، ص ٢٠-٢٣.

(٩٢) راجع: علي جريشة د.، *الاتجاهات الفكرية المعاصرة*، ص ٧٤ وراجع فيه تعاريف دائرة المعارف البريطانية والأمريكية.

وإذا كان في دول الغرب مبررات وأسباب لظهور العلمانية، فليس في دول الإسلام تلك المبررات، لأن الإسلام لا يحارب العلم وليس فيه محاكم تفتيش ولا صكوك غفران..

ويرى الأمير شكيب أرسلان أن قضية «فصل الدين عن السياسة» في أوربا أغلوطة مشت على كثير من المسلمين وآمنوا بها وصدقوها... وهي أكذوبة لكي ينسلخ المسلمون عن دينهم تبعاً لهم كما روج لها مصطفى أتاتورك.. ويرى أن حكومات الغرب لا زالت محافظة على المراسيم الدينية في المناسبات، وفي طرق التعليم، وأن الفصل هو فصل أمور دينية عن دنيوية أو فصل إداري.. وكل رؤساؤهم وملوكهم يعضدون الإرساليات التبشيرية[٩٣]. وقد سعى الغرب لتطبيق العلمانية في ديار الإسلام بشكل تدريجي بحجة تطوير الإسلام.. وغالباً ما يتعرضون للجانب التطبيقي في الشرع.. ونجحت الفكرة في تركيا، ثم في غيرها.. ومن هنا شجع هؤلاء نزعة التصوف لأنه يقوم بالدور المطلوب بحصر الدين على العبادة والزهد فقط قبل أن تدعو إوربا لذلك[٩٤].

ففي الوقت الذي يريدون فيه الإسلام معزولاً وتطبيقاً فردياً بشتى الوسائل نشر النصرانية وفرضها ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾[٩٥]. أما مجالات نشر العلمانية فهي[٩٦]:

أ- التعليم: وتحقق ذلك بحصار المدارس الدينية مادياً ومعنوياً بالإغداق على المدارس الأخرى وتطوير وسائلها والحرب المعنوية لطالب العلم الديني وأستاذه مع التفرقة بين الخريجين من هذه المدارس وتلك بارتقاء المناصب والمرتبات. كما تحقق عن طريق البعثات إلى الخارج فيزداد جهل الطالب بدينه، وتعلقه بالغرب وأفكاره، فيعودون وهم يحملون أفكاراً خطيرة يبثونها في المحاضرات والكتب..

والسبيل الآخر هو انتشار المدارس الأجنبية في البلاد الإسلامية، ومن أضرارها الازدراء باللغات الأصلية والدين وتمجيد اللغة الأجنبية. وبحجة التطوير وامتداده إلى مناهج الدين لإبعاد المنهج الإسلامي الأصيل.

---

(٩٣) لوتروب ستودارد، *حاضر العالم الإسلامي*، وتعليق الأمير شكيب أرسلان، ج٢، ص ٣٥١-٣٦٤.

(٩٤) انظر: المطعني عبد العظيم، *أوربا في مواجهة الإسلام*، ص٣١٩-٣٣٣، ويقاس على التصوف حركة «جماعة التبليغ» التي تركز على الدعوة إلى الإسلام بمفهوم محدود إذ لا يتعرضون لإزالة المنكر لعدم تنفير الناس منهم ولا يتكلمون في السياسة ولا يواجهون التيارات الفكرية المعادية، ومؤسسها الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي (١٣٠٣-١٣٦٤)، راجع التفاصيل في: *الموسوعة الميسرة* في الأديان والمذاهب المعاصرة ص١١٥-١٢١.

(٩٥) التوبة ٩: ٣٢.

(٩٦) راجع: علي جريشة د.، ومحمد شريف الزيبق، *أساليب الغزو الفكري*، ٦٢-٧٤.

ثم نشر الاختلاط بين الجنسين فبدأوا بالجامعات ثم بقية المراحل مدعين لذلك مزاعم بعيدة عن الصحة والعلم.. وقد أدرك المصلحون الآن في أوربا خطر الاختلاط وخصوصاً في مرحلة الثانوية حيث أجريت أبحاث كثيرة تبين منها أن التركيز يكون أكبر في المدارس المنفصلة، وطبقت عملياً في بريطانيا وأمريكا وتسعى مدارس كثيرة في أمريكا لتطبيقه لما رأوا من النتائج المشجعة[٩٧].

ب- **الإعلام**: إذا كانت العلمانية في التعليم أقدم وأخطر ففي الإعلام أعم وأشمل.. لأنه يخاطب الملايين ببرامجه مقروءة ومسموعة ومنظورة. فإذا كانت هذه الوسائل طيبة كانت النتائج طيبة، وإذا كانت خبيثة كانت النتيجة مثلها، كما قال تعالى**﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾**[٩٨].

ولكن للأسف سخر العلمانيون أجهزة الإعلام بأنواعها لإشاعة الفاحشة والإغراء بالجريمة وتحطيم الأخلاق، ويتراوح ذلك بين قطر إسلامي وآخر. وعن طريق الإعلام يهاجم الدين بشكل مباشر وغير مباشر بدل أن يكون منبراً للدعوة.

ج- **القانون**: الطاعة لله كما تكون في العبادة والشعائر كذلك في تنفيذ الشرائع، ويتحقق التطبيق في بعضها عن طريق السلطة حين يكون الحكم للإسلام، ولذلك حرص الأعداء على إبعاده عن السلطة فنادوا بفصل الدين عن الدولة، وحين طبقت العلمانية في تركيا تدرجوا في علمنة القانون، وطبقت القوانين الوضعية المستوردة فأصدر القانون المدني مستمداً من القانون السويسري، والجنائي مستمداً من الإيطالي، والتجاري مستمداً من الألماني[٩٩].

وكذلك فعلت بعض الدول الإسلامية بفعل الاستعمار أو من خلفهم، وتمت علمنة القانون في أكثرها إلا في مجالات ضيقة في شئون الأسرة وعقود الزواج والطلاق بما يسمى **(الأحوال الشخصية)** وبذلك ألغيت المحاكم الشرعية، أما الدول التي لا زالت تطبق بعض القوانين الشرعية فتحيط بها المؤامرات لجرها لذلك.

---

(٩٧) مجلة المجتمع، العدد ١٢٣٥، في ١٣يناير ١٩٩٧،ص٦١.

(٩٨) إبراهيم ١٤: ٢٥-٢٧.

(٩٩) راجع: علي جريشة د.، *الاتجاهات الفكرية المعاصرة*، ص ١١٣.

والعالم بأسره يعاني الآثار السيئة للعلمانية وخصوصاً في أوربا وأمريكا سواء على المستوى الفردي والأسري والمجتمع حيث الخواء الروحي وانعدام العطف الأسري وانعدام الأواصر الاجتماعية وكثرة حالات الانتحار وشيوع الأمراض الخطيرة وفي مقدمته «الايدز» وانتشار المخدرات والجريمة(١٠٠).

وتشير الإحصائيات(١٠١) إلى تدهور خطير مما يدل على أنها مجتمعات ينتظرها الهلاك.

أما تأثيرها على المنطقة الإسلامية فلا تختلف إلا باختلاف درجة تمسكها بالعلمانية حيث أثرت بالأفراد أولاً فظهرت نماذج علمانية مخربة -خطط لها- وكان على رأسها مصطفى كمال في تركيا، ورفاعة الطهطاوي وعلي عبد الرزاق وطه حسين وغيرهم في مصر ومع أن الشعوب الإسلامية سكبت الدموع على الخلافة الضائعة، لكن هؤلاء النفر أثروا في المجتمعات عن طريق قنوات التعليم والإعلام ثم القانون فأثرت في الأخلاق والتقاليد.

والنتيجة، فراغ عقدي، واضطراب خلقي، وانحلال سبقه ضعف سياسي واقتصادي واجتماعي، هذا إضافة إلى تفشي أسباب الترف في بعض الدول الإسلامية قضى على صفات الفتوة والفروسية التي عرفوا بها وكانت من أسباب انتصارهم.

٣- الشيوعية والإلحاد:

لا نريد بهذه العجالة الكلام عن تاريخ الشيوعية (Communism) وظهورها، بل لتوضيح فتنة الفكر الشيوعي في ديار المسلمين.

وفتنة الشيوعية كبيرة لما فيها من الشعارات الخادعة التي تخاطب الجمهور الكادح من الناس وتمنيهم الأماني في حين تحمل في طياتها ما يحطم العقيدة ويقضي على الدين، خصوصاً وهي فكرة مضادة للإسلام، بل ومنحرفة ضد الفطرة من وجهة النظر الإسلامية، لذا كان من المحن التي نزلت بساحة الإسلامة انتشار هذا المبدأ بينهم وهو يناقض عقيدتهم كليةً.

---

(١٠٠) سجل الرئيس البوسني علي عزت بيجوفتش في كتابه«*الإسلام بين الشرق والغرب*» إحصائيات مذهلة تنذر بهلاك أمريكا وأوربا، تضمنت ازدياد معدلات السرقة والجنح والانتحار والمخدرات والأمراض وغير ذلك، راجع الكتاب، ص ١١٧-١٢٥، مؤسسة بافاريا-ألمانيا، ١٩٩٤، وإحصائيات *مجلة العربي*، عدد ٤٤٢، سبتمبر ١٩٩٥ تقول: ٤ ملايين جريمة في أمريكا في عام واحد، ص ٥٦-٦٠.

(١٠١) تشير إحصائية إلى أن ٨٠٪ من رجال الدين زناة، و٤٠٪شذاذ فما بالك ببقية المجتمع! مع الأرقام للإجهاض وزنا المحارم. راجع علي جريشة د.، *أوربا في مواجهة الإسلام*، ٨١-٨٣، نقلاً عن مصادر بريطانية.

يقول ماركس (Marx): «لا إله والحياة مادة»، وقال لينين (Lenin): «ليس صحيحاً أن الله هو الذي ينظم الكون، إنما الصحيح هو أن الله خرافة اختلقها الإنسان ليبرر عجزه»[١٠٢]، والدين في نظر ماركس «أفيون الشعوب». ومن المعروف أن اليهودية العالمية لها دور خطير في قيام الشيوعية سنة ١٩١٧، انتقاماً من الروس المتعصبين للمسيحية والذين كانوا يحتقرون اليهود ويضطهدونهم[١٠٣]. يقول البروتوكول الثاني: «ولاحظوا أن نجاح (داروين) و(نيتشة) و(ماركس) قد رتبناه من قبل»[١٠٤]، وليس أدل على ذلك من أن الذين توارثوا الدولة الشيوعية يهود كما تواصوا بالإبقاء على الدين اليهودي وحده رغم حملتها على الأديان.

وهكذا يتضح أن الشيوعية كانت لتحقيق حلم الأفعى اليهودية[١٠٥] Symbolic Serpent في تدمير الأديان لتصل إلى خرافة سيادة اليهود وحكومة العالم..

أما محنة المسلمين مع الشيوعية فتبدأ من الأراضي الإسلامية التي كانت قبل الاتحاد السوفياتي أضعاف أراضي روسيا.. فسيطر عليها الروس بالقتل والتشريد والتجويع، ففي القرم مثلاً كان سكانها عام ١٩١٧ خمسة ملايين فأصبحوا سنة ١٩٤٠ (٤٠٠) ألف فقط!! أي أقل من عشر السكان، وكانت المساجد (١٥٥٨) مسجداً ولم يبق منها إلا عشرات، فقد كانت القوات الشيوعية تهاجم البلاد وتأخذ ما بها من خيرات فيموت أكثرهم جوعاً، كما حرم المسلمون من أداء الشعائر الدينية ومنع تعليم أطفالهم العقائد الدينية، وحدث مثل ذلك في تركستان وبقية الأراضي..

كما لاقى مسلمو الصين مثل ذلك وأكثر، أحرقوا المصاحف وألغوا أي أثر للإسلام.. وكذلك الحال في يوغسلافيا وألبانيا وبلغاريا حيث طلب من المسلمين تغيير أسمائهم بالقوة، وفي الصومال قتل العلماء الذين قاوموا تغيير الشرائع بالحرق[١٠٦].

---

(١٠٢) فتحي يكن، *العالم الإسلامي والمكائد الدولية*، ص ٨٦-٨٨، علماً أن كلاً من ماركس ولينين يهوديين.

(١٠٣) راجع: عبد الصبور مرزوق د.، *الغزو الفكري*، ص ٧٨-٧٩.

(١٠٤) الخطر اليهودي، *بروتوكولات حكماء صهيون*، ترجمة محمد خليفة التونسي، ص ١١٣.

(١٠٥) يتخذ اليهود الأفعى الرمزية رمزاً لأمتهم، والنجمة السداسية شعاراً لهم، وقد اتخذت الثورة البلشفية شعاراً لها الأفعى الرمزية وبداخلها النجمة السداسية، كما أن الثورة من تخطيط وتمويل خمسة من اليهود، وكان المكتب السوفياتي الأعلى سنة ١٩٥١ كان يتألف من (١٧) عضواً، (١٤) منهم يهود أصلاء، والثلاثة الباقون من أصول يهودية أو زوجاتهم يهوديات ومنهم ستالين رئيس المجلس. راجع: علي عبد الحليم محمود د.، *التراجع الحضاري*، ص ٣٠٠-٣٠١.

(١٠٦) راجع: علي جريشة د.، ومحمد شريف الزيبق، *أساليب الغزو الفكري*، ص ١٢٨-١٣٨.

وقد قدر عدد الضحايا المسلمين بين عام ١٩١٧-١٩١٨ بمليون مسلم، كما عملت الشيوعية على مدار خمسين عاماً على إفناء عشرين مليون مسلم، كما تشير الإحصائيات أن ستالين قتل أحد عشر مليون مسلم(١٠٧)..

وأخيراً انهارت الشيوعية في مهدها لأنها تتصادم مع الفطرة وترفع شعارات خادعة وكان أول المتضررين هم طبقة العمال البائسة في حين يعيش قادة الحزب في رغد العيش.

ولا تزال ذاكرة المسلمين تعي ما حدث على يد الشيوعية في أفغانستان، وفي العالم العربي في فترة من التاريخ كالعراق وسوريا واليمن الجنوبي من مآسي، وتركت في كل بلد الفقر والديون والإذلال.

٤- النشاط الثقافي المنحرف:

ونقصد به النشاط الذي خضع للتيار العلماني والتغريبي فانقلب إلى غزو ثقافي تخلى عن الثقافة الإسلامية تخلياً كلياً أو نسبياً.

والتخلي المطلق ما فعله أتاتورك في تركيا فحارب كل ما هو إسلامي من العادات والتقاليد واللغة..

أما التخلي النسبي فهو حال كل البلاد الإسلامية في العادات والسلوك وأدب التحية والتعليم.. ويظهر الغزو الثقافي في مجالات عدة منها:

أ- **الأدب والفن**: أدى الفراغ في ميدان الثقافة الإسلامية، وشيوع الثقافة الأوربية العامة في الآداب والفنون -إلا العلم- إلى أن أصبح النتاج المحلي نموذجا للمستورد، البعيد عن الإسلام أو المهاجم له، فأصبح الفن والأدب منفذاً لأعداء الإسلام ومعاول هدم وتدمير للعقيدة والأخلاق والسلوك بعد أن تحررت من توجيهات الإسلام..

وإذا كان الشعر حفل بمضامين غير إسلامية إلا أن الفنون الدرامية أكثر خطورة حيث تعرضت الشخصية الإسلامية في الأدب الحديث إلى السخرية والزراية، وقد تفنن الأعداء في تصويرها تصويراً بشعاً وفصامياً يقوم على التناقض بين القول والعمل فيحكم عليه من خلال التصوير أن الشخصية الإسلامية لا تتفق وطبيعة الحياة، وبالتالي لا يصح أن يكون الإسلام منهجاً وسلوكاً.. فعلماء الدين حسب هذه الصور منافقون كذابون ومرتشون.. والبيت المسلم لا يخلو من منكرات، بل لا يعرفون أبسط أحكام الدين، أو يصور ربّ البيت مبالغاً بعيداً عن الواقع..

---

(١٠٧) عن إحصائية «المسلمون في الاتحاد السوفياتي» تعريف إحسان حقي، نقلاً عن: فتحي يكن، *العالم الإسلامي والمكائد الدولية*، ص٨٩.

أو صاحب وجهين.. وهكذا لا نجد عملاً أدبياً أو سينمائياً يتناول شخصيات إسلامية -إلا نادراً- إلا ويصورها بالقبح والمغالاة، كالقاضي والمأذون، ومعلم القرآن والداعية[١٠٨].. وحتى من كتب عن الشخصيات الإسلامية البطولية في العصور الأولى نجد الدس بصورة غير مباشرة بتصوير بطولاتهم لأجل امرأة وليس في سبيل الله أو أن انتصارهم كان بسبب مشورة أحد من غير المسلمين[١٠٩].

وهذا لا يعني أنه لا يوجد أدب إسلامي خالص يصور الشخصية الإسلامية تصويراً إيجابياً ولكنها قليلة بالنسبة للتصوير السلبي.

وبهذا غدا التأليف الفني منفذاً لذوي الاتجاهات المنحرفة إضافة إلى الفن المستورد الذي يشخص الأحاسيس الملتهبة أو العنف الذي يشجع على الجريمة أو الكوميديا التي تسعى إلى الإضحاك بالمعاني الهابطة والألفاظ الساقطة والحركات الخليعة.

أما المعنيون بأمور «الثقافة والإرشاد» في البلدان الإسلامية فكل ما يقومون به هو رعاية وسائل الفن من الشعر العامي وتعليم الغناء والرقص.. واختيار أحسن راقصة وملكة جمال.. وكل ذلك جرم يرتكب بحق جيل الأمة بانحدار الثقافة وتبديد الثروات بدل تثقيف العقول بالمعارف الرفيعة النافعة.. حتى «انحصر مفهوم الثقافة (بالفنون الجميلة) ومع ذلك فالإسلام لا ينكر ذلك بل ينبغي أن يكون أخلاقياً»[١١٠] ولا يكون ذريعة إلى إثارة الغرائز.. فالفن الراقي هو الذي يثير أكرم المشاعر وأنبلها.. وبالجملة فقد استبيح باسم الفن كل محرم.. وقطع الحاضر عن السلف الصالح كما قال تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾[١١١] كما نجم عنه -على الأقل- ازدواجية الشخصية للمسلم..

وإكمالاً للغزو الثقافي نرى أعداء الإسلام يمجدون كل منحرف ويهيلون عليه الألقاب الرنانة.. مجدد، عبقري.. فالذي يدعو لنبذ الحجاب سمي «محرر المرأة» وكأن المرأة المحتشمة من الإماء! وعلى قدر الانحراف تكون الحفاوة.

---

(١٠٨) راجع: حلمي محمد القاعود د.، «*الشخصية الإسلامية في أدبنا الحديث*»، مقال في *مجلة المجتمع*، العدد ١٢٨٠، سبتمبر ١٩٩٧، ص٥٤-٥٥.

(١٠٩) وهو الكاتب الأديب جرجي زيدان الذي ألف سبع عشرة رواية عن أبطال المسلمين.

(١١٠) التهامي نقرة د.، *الثقافة الإسلامية والفن في مجال الإعلام*، ضمن كتاب *الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية النظرية والتطبيق*، ط٢، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٩٧٦، ص ٣٤٩-٣٥٠.

(١١١) مريم : ٥٩.

فمن ذلك: منح نجيب محفوظ جائزة نوبل للأدب لقصة «أولاد حارتنا» فالإسلام فيها موضع طعن ولمز فتسابقت دور الغرب على ترجمتها ونشرها.

ومنح الجوائز «لسليمان رشدي» الهندي الأصل البريطاني الجنسية الذي كتب رواية «الآيات الشيطانية» سخر فيها من الرسول ﷺ وأمهات المؤمنين[١١٢].. ونرى كل ذلك التكريم لأنهم في الأصل مسلمين وأعلنوا انسلاخهم أو ردتهم من الإسلام تشجيعاً لغيرهم.. ونسمع في أجهزة الإعلام من هذه النماذج الكثير.. وصدق الله العظيم القائل: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[١١٣].

ب. **أنواع الرياضة والسياحة:** شجع الإسلام على تقوية الأجسام وحث على أنواع الرياضة كالفروسية والسباحة وغير ذلك.. ولكن ما يعد تخطيطاً أن تكون الرياضة وأخبارها الشغل الشاغل للناس عامة، خاصة والتنافس الشديد وابتداع أنواع من الرياضة تصل إلى حد السخافة.. وما يصاحبها من دعاية واختلاط في الأندية ومظاهر التعري في ملابس الرياضة وخصوصاً النسائية منها..

ومن المعروف أن كثيراً من الأندية تعد مرتعاً خصباً للعلمنة والتغريب إضافة إلى تخصيص موارد ضخمة لهذا الغرض.. وهو ما خطط له اليهود في البروتوكول الثالث عشر[١١٤].

ومن وسائل التغريب السياحة لأن السياح يحملون عاداتهم المخالفة للإسلام وهذا جانب لا يستهان به، فالإسلام انتشر في أوساط معينة عن طريق التجار الذين يمارسون شعائر الإسلام ولم يكونوا دعاة ولا خطباء ولكنها دعوة صامتة بالمثل والقدوة، فالسياح الأجانب لهم نفس الدور في التأثير في السلوك[١١٥].

وتتساهل بعض الدول في هذا الجانب بكون السياحة مورداً اقتصادياً فتتغافل عن السلبيات.. والمفروض أن يحترموا آداب البلد الإسلامي وعدم الاستهانة بقيمنا

---

(١١٢) أثار سلمان رشدي ضجة سنة ١٩٨٩ وأهدرت إيران دمه فتحركت كل أوربا لحمايته ورمي الطرف الآخر بالتطرف. راجع أمثلة أخرى في: *المطعني*، أوربا في مواجهة الإسلام، ١٥٩-١٦٨.

(١١٣) الأعراف ٥: ١٦٩.

(١١٤) راجع المطعني، عبد العظيم، *أوربا في مواجهة الإسلام*، ٣١٧-٣١٨.

(١١٥) من ذلك قوله: «ولكي نبعدها -غير اليهود- عن أن تكشف بنفسها أي خطة عمل جديدة سنلهيها أيضاً بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومزجيات للفراغ والمجامع العامة وهلم جرا»، ص ١٥١.

من أجل المال[116].

رابعاً- تشويه الإسلام والتشكيك به:

وقد حصل التشويه في المجالات الآتية:

١- التاريخ: عمد أعداء الإسلام إلى تشويه التاريخ الإسلامي وتقبيح صورته الوضيئة إمعاناً في الفتنة لتنفير المسلمين من تاريخهم، وحجز غيرهم عن الإسلام أو وضع العقبات أمامهم.

وقد ركزوا على وقائع الحروب والمعارك في عصر النبوة «ليستقر في نفس الدارس أنه ليس في تاريخ الإسلام غير المعارك، وليس هو إلا تاريخها»[117]، كما صورت هذه المعارك الحربية بغير صورتها الإسلامية البناءة[118]، والهدف من هذا إبراز التاريخ الإسلامي في صورة سيوف ودماء وحروب وقتال، وإلغاء جانب الدعوة والبناء والقدوة والهداية.

ومن وسائل الأعداء كذلك إهمال جوانب الإسلام المشرقة وتجاهلها، وحجب الأنظار عنها، فلا يقفون في العهد المكي والمدني إلا على بعض الأحداث التقليدية وبطريقة السرد التاريخي الجاف المجرد، ولا نجد عناية بالأسلوب النبوي في الدعوة وتكوينه لرجال الدعوة الأوائل في بناء عقيدتهم الصلبة تجاه صولة الباطل وضلاله.. وجهود الصحابة كذلك رضي الله عنهم أجمعين في مؤازرة الرسول ﷺ وتعضيدهم بعد بيعتهم له.. ومن ثم جهودهم وبلاؤهم في الدعوة إلى الله.

ويجهل المسلمون أعلام الصحابة والتابعين، ورجال المسلمين في العصور الأخرى، وأعلام النساء كسمية رضي الله عنها، أول شهيدة في الإسلام، ومن أعلام النساء في العصر الحاضر (لالا فاطمة) التي قادت الثورة الجزائرية، وفاطمة الفهري التي بنت جامع القرويين في (فاس) المغرب[119]، ومن جهل تاريخه لم يعظم إلا رجال الغرب الذين ينظرون إليهم بعين الجلال والتقدير.

---

(١١٦) سرني ما رأيت في فيلم وثائقي عن السياحة في إيران، التزم السائحات الأجنبيات بالحجاب ويبدو أن الدولة اشترطت ذلك وهو الصحيح.

(١١٧) الحجي، عبد الرحمن د.، *نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي*، دار القلم، بيروت، ط٣، ١٩٧٩، ص ٢٥.

(١١٨) المصدر السابق.

(١١٩) الحجي، عبد الرحمن د.، *نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي*، ص ٢٧.

ومن الهدم خلال التاريخ طعن المستشرقين وتلامذتهم في وصف الرسول ﷺ أو الصحابة، مع ما عرف عنه من صفات الشجاعة والأمانة والإخلاص، نجد أقلامهم تجرده من ذلك[١٢٠].

وقد عرض لنا الدكتور إبراهم شعوط صوراً ونماذج من كذب الكاذبين وافتراء المفترين ليُعرف مواطن الطعنات القاتلة في الإسلام، وقد جعل الهدم في التاريخ الإسلامي في ستة مصادر[١٢١]..

١- الدس الإسرائيلي.
٢- الدخلاء على الإسلام من الديانات القديمة.
٣- الصليبية العالمية عند عجزهم العسكري.
٤- الشعوبية والعصبية الجنسية، وقد ظهرت في الفرس كما سبق.
٥- الاستعمار الأوربي، وتولى الاستشراق تحريف الحقائق لتلاميذهم المبعوثين.
٦- صنائع الاستعمار المخدوعين بعد عودتهم يبثون سموم أفكارهم في التعليم والثقافة والأدب.

شكك هؤلاء في مصدر الإسلام.. والحط من مقام صاحب الرسالة واتهموه بجموح العاطفة (للمرأة) ثم تشويه سيرة أعلام الإسلام، ومن ثم فهو لا يلائم العصر ولذلك افتروا على الخلافة بصورة عامة وأنها لم تعرف نظام المؤسسات، وأن حكمها مبني على إرادة الخليفة.. ولم تفرق بين أموال الدولة وأمواله، في حين نرى في المصادر الإسلامية ما يدل على عكس ذلك.. كما جعلت هذه التشويهات من هارون الرشيد صاحب العقل الرشيد نديم الخمر والنساء ومن باقي الخلفاء صوراً للفراعنة.. وتناسوا هؤلاء ما كتبه المنصفون -حتى المستشرقون- عن هارون الرشيد وأنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، قانتاً مجاهداً في سبيل الله يحج عاماً ويغزو عاماً[١٢٢]. ودرسنا في كتب التاريخ المدرسية حملات التشويه على الخلافة العثمانية، وبعكسه المدح والثناء للجمعيات والأحزاب التي قضت على الخلافة الإسلامية، والتي من صنع اليهود وأعوانه.

---

(١٢٠) المصدر السابق، ص ٢٩-٣٠.

(١٢١) راجع: إبراهيم شعوط د.، *أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ*، ص ٥٠-٥٢.

(١٢٢) راجع: عصام الدين فقي، *الدولة العباسية*، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٨٧، ص ٩٨-١٠٢، وراجع مقال للمستشار سالم البهنساوي، *مفتريات على دولة الخلافة*، *المجتمع*، عدد ١٢٣٣، يناير ١٩٩٧، ص ١٢.

ومن حملات التشويه ما عرف بالتفسير المادي للتاريخ الذي يجعل الدوافع للحضارات مادية ويطبق ذلك على حروب الجهاد الإسلامي ويتخذ من الحركات الهدامة كالقرامطة والزنج مثلاً لذلك(١٢٣).

٢- التعليم: في فترة سيطرة الأجانب على البلاد الإسلامية تساهل المسلمون عن جهل أو خوف أو عجز فتركوا لهم شأن التعليم وتوجيهه.

وبذلك بذروا الشكوك والشبهات في مجال التعليم، وتحقق لهم ذلك بطرق(١٢٤):

أولها: السيطرة على التعليم في الداخل، فقد عين البريطاني «دنلوب» مستشاراً لوزارة المعارف في مصر فقام بالمهمة خير قيام، فوضع أسس التعليم ومناهجه وانعكس منهجه على بقية الأقطار، فقد حارب الأزهر وجعل مدرس العربي والدين بوضع مهين.. ورتبهم أصنافاً فجعل أدناهم مرتبة هو معلم اللغة العربية والدين الإسلامي من حيث المرتب والمنزلة الأدبية، وجدوله متأخر إلى نهاية اليوم، وقد تلغى مادة الدين آخر العام وبذلك بعث الكراهية في نفوس الطلبة للمدرس ومادته(١٢٥).

وكذلك فعلت فرنسا في الأقطار التي سيطرت عليها فقضت على اللغة والتقاليد ويقي الوضع حتى بعد الاستعمار.

كما تدرس الشبهات التي مرت في التاريخ في مادة التاريخ والتي تركز على الصراعات بين الحكام أو العادات الجاهلية التي محاها الإسلامي وانتهى.. أنه استنفد أغراضه وليست له مهمة في الوقت الحاضر.. وبهذا يجهل الطالب الصورة المشرقة للإسلام بما فيها الحركة العلمية والحضارية كما يجهل الطالب أبطال الإسلام، وعلى عكس ذلك يدرس تاريخ أوربا وحضارتها وأبطالها فيفهم بذلك الطالب أن أوربا هي العملاق الذي لا يهزم والإسلام هو الأمر الضئيل الخاضع له، وإخفاء الوحشية والاستعمار والبواعث الصليبية، ويخفى الفساد الخلقي والروح المادية(١٢٦).

كما تحرص هذه المناهج على بث الشكوك بطرح الأسئلة عن علاقة الدين بأمور الحياة... دون جواب أي لا مكان له في الواقع.

---

(١٢٣) راجع: عماد الدين خليل د.، *التفسير الإسلامي للتاريخ*، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، ١٩٩١، ص ٤١.

(١٢٤) راجع: القحطاني، محمد بن سعيد، *الولاء والبراء في الإسلام*، ص ٤٠٠-٤٠٧.

(١٢٥) راجع: محمد قطب، *واقعنا المعاصر*، ٢١٧-٢٢٤.

(١٢٦) المصدر السابق، ٢٢٨.

والطريق الثاني الذي تحقق فيه التشويه هو الابتعاث إلى الخارج وغالباً ما يكون هؤلاء من خريجي المدارس الأجنبية، فانبهروا بحضارة الغرب وعادوا وهم يحملون الإسلام جريمة تخلف بلادهم وفي الحقيقة هم لم يتعلموا إلا القشور وعادوا وقد انسلخوا من التقاليد والدين ومن هؤلاء من أصبح يوماً وزيراً للتعليم فقال: «نحن نكون أبناءنا في مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكويناً أوربياً لا تشوبه شائبة»(١٢٧).

وثالث الطرق هو المدارس والكليات الأجنبية المنتشرة في البلاد الإسلامية، وأحياناً تتجاوز هذه المدارس حدود مهمتها في التعليم، كتدريس القصص المنافية لآداب الإسلام.. والأدهى من ذلك أن بعض الأقطار الإسلامية تسمح للمبشرين بفتح المدارس في بلادها.

وعلى هذا كان «كرومر» المندوب البريطاني مطمئناً حين غادر مصر فقال: «سنحكم مصر بعد خروجنا منها برؤوس مصرية وعقول أوربية»(١٢٨). كما كان القس «زويمر» محقاً حين توقع تخريج جيل لا يعرف الصلة بالله.

والنتيجة أصبح الطلاب والخريجون ينظرون إلى الدين والتمسك به رجعة إلى الوراء ففقدوا الإحساس بالدين، واتهموه بعدم الصلاحية لهذا الزمان فكان من هؤلاء من يقول: «إن الإنجليز أولياء أمورنا ولا ينبغي أن نحاربهم.. »(١٢٩). فأين هذا من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(١٣٠). ومن مخاطر هذا التعليم هو الحرب على اللغة العربية كي تنقطع صلتهم بالقرآن وبالوحدة مع المسلمين، وذلك بأنها معقدة وصعبة ولا تصلح لحياة العصر.. ومن ثم التشجيع على العامية(١٣١).

٣- **الإعلام**: مدخل كبير وثغرة واسعة أُتي المسلمون منه وأخذوا، فأدى إلى آثار سلبية في واقعهم الأليم. ولقد سخرت أجهزة الإعلام ومؤسساته للدعاية العلمانية وللشيوعية حيناً من الزمن، وإقصاء الدين عن الحياة وتشويه كل ما هو إسلامي.

---

(١٢٧) طه حسين، *مستقبل الثقافة في مصر*، ص ٣٨.

(١٢٨) المطعني عبد العظيم د.، *أوربا في مواجهة الإسلام*، ص ٢٧٢.

(١٢٩) وهو لطفي السيد صاحب جريدة (الجريدة). راجع: محمد قطب، *واقعنا المعاصر*، ص ٣٠٧.

(١٣٠) النساء ٤: ٥٩.

(١٣١) نشرت مجلة *المرايا*، عدد ٤٦، ديسمبر ١٩٩٥: أن دولة عربية أرسلت مبعوثين من أبنائها إلى الخارج وعلى نفقتها لكي يتعلموا الأساليب العلمية في كيفية منهجة *اللغة العامية* لتكون بديلة عن اللغة العربية الفصحى، وبعض الباحثين في جامعة تابعة لتلك الدولة يقومون الآن بدراسة حول حل مشاكل كتابة اللغة العربية باللغة اللاتينية.

والإعلام في أغلب بلدان العالم الإسلامي يعيش واقعاً يعادي الإسلام، بالتشويه لكل ما هو إسلامي ومن وراء تلك التشويهات مؤلفون ومخرجون ومنتجون وأجهزة إعلام.

ونظرا لأهمية الإعلام في توجيه الرأي العام والتأثير على مشاعر المسلمين فقد دأب الأعداء على امتلاك تلك الأدوات وتسخيرها لأهدافهم في القضاء على الإسلام بإشاعة الفاحشة، والإغراء بالجريمة والسعي بالفساد في الأرض بما يترتب على ذلك من خلخلة للعقيدة، وتحطيم للأخلاق والقيم والمثل.

وتتفاوت درجات الفساد في وسائل الإعلام تبعاً لهذه الوسائل فهي في السينما والتلفزيون أشد من الإذاعة والصحافة، كذلك تتفاوت درجات الفساد بين أقطار الإسلام المختلفة(١٣٢) فالسينما انحدرت انحداراً شديداً نحو أفلام الجنس الرخيص ومشاهد الإثارة العنيفة حتى في أفلامها التي تحمل لافتات وطنية أو دينية وكل همها عرض قضايا الإفساد والانحلال وتضخيمها، والغريب أن الفنانة أصبحت تسمى بطلة والفنان بطلاً! واتبعوا طريقة الاستهزاء بالنكتة اللاذعة والكريكتير الساخر من رجال الدين(١٣٣).

وتاريخ الصحافة يبدأ بدخول المطبعة مصر مع الحملة الفرنسية واستقطبت بعد حين عدداً من النصارى في بلاد الشام ليصدروا مجموعة من الصحف، صارت بعد حين أم الصحافة الأولى ومدرستها الكبرى التي تتلمذ عليها أصحاب الصحف ومحرروها فيما بعد في شتى أقطار الكلمة العربية بكل ما تملك المدرسة من سلبيات بغيضة وعيوب فاضحة وأهداف مضللة وانحرافات مدمرة(١٣٤).

وهؤلاء الرواد في مجال الإعلام الصحفي إما خريجوا الجامعات الأمريكية، وإما خريجوا الجامعات المحلية وهم مشبعون بالمبادئ التبشيرية والاستشراقية(١٣٥).

وإذا نظرنا إلى الصحافة في العصر الحديث نجدها تبالغ بذكر التقدم الأوربي والحضارة الغربية والنهضة الفكرية لديهم.. وبالجملة تذكر الجوانب الإيجابية عند الغرب وتغفل الجوانب السلبية في مجتمعاتهم، والتخريبية لدى ساستهم، ولم تكتب الصحافة عن بشاعة

---

(١٣٢) راجع: علي جريشة د.، ومحمد شريف الزيبق، *أساليب الغزو الفكري*، ص ٧١، *والاتجاهات الفكرية*، ١١٢-١١٣.

(١٣٣) راجع: عاصم أحمد عجيلة د.، *الغزو الفكري*، ضمن كتاب *الثقافة الإسلامية*، صنعاء، ص ٢٠٢.

(١٣٤) يوسف العظم، *الإعلام العربي المعاصرة وأثره في ضياع الجيل وهزيمة الأمة*، ضمن كتاب *الإعلام الإسلامي*، ص ٤٧٢-٤٧٣.

(١٣٥) راجع: المطعني عبد العظيم، *أوربا في مواجهة الإسلام*، ص ١٤٢.

الاستعمار ودوافعه الصليبية وعن الغزو الفكري وأهدافه الحقيقية، ولم تكتب عن الفساد الخلقي في أوربا، كذلك لم تجعل للإسلام وأحكامه وتعاليمه وحضارته نصيبا في تلك الصحف إلا إذا ذكرته في مجال التشويه والتشكيك والدس. ويقدم الدكتور علي جريشة أمثلة من فساد الصحافة في بلاد المسلمين، الدال على الاقتداء بالغرب والتشجيع على التشبه بهم[١٣٦]. وفي مرحلة متقدمة قامت وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية -ولا تزال تقوم- بحرب شعواء على الدين الإسلامي وأهله، ففضلاً عن أنها تحسن وتدعو إلى موالاة الكفار، فهي أيضاً حريصة على نشر الفاحشة في الذين آمنوا.

والحقيقة المرة هي «أن تاريخ الإعلام عندنا مؤسف.. والثقة فيه مفقودة، وخدمته لأهداف أعداء الأمة أكثر مرات من خدمته لأهداف الأمة الحقيقية، وجناياته على مصالحها العليا هي أبرز ملامحه منذ وجد وإلى حد الآن»[١٣٧].

والحقيقة الأخرى هي انحسار مجالات الإعلام الإسلامي في حدود ضيقة، فحين يذكر الإعلام الإسلامي يتبادر إلى الأذهان الأحاديث الدينية وكأنما الإسلام انحصر في الأحاديث الدينية والمواعظ وليس الأمر كذلك.

٤- المرأة: إن من أبرز المجالات التي نفذ منها الأعداء لتشويه الإسلام "المرأة".

وقد تظافرت الأمور الثلاثة السابقة «التاريخ، التعليم، الإعلام» وخصوصاً الأخير بحملاته المسعورة على تضليل المرأة، وأغرتها بالخروج على الإسلام بمنحها لقب المتحررة، والعصرية، وبعكسه تكون متخلفة ورجعية، وتعيش في عصر الحريم.

تناولت الشبهات والشكوك جوانب متعددة من حياة المرأة ومنها:

تعليم المرأة، حقها في العمل، ميراثها وغمط حقها في إعطائها نصف ميراث الرجل، خروجها من البيت وسفرها، حجابها وعدم الاختلاط بالرجال، عملها وتوليها المناصب العليا، امتهان المرأة والحط من شأنها بجواز تعدد الزوجات وجعل الطلاق بيد الرجل... وبالجملة فإن إثارة هذه الشبهات تقنع المرأة التي لم تتربى على الدين بأن الإسلام لم يعد صالحاً للحياة المدنية الحاضرة، وأنه دين الصحراء! وقد أحدث إثارة هذه القضايا خللاً كبيراً في المجتمعات، وحققت نجاحاً للأعداء.

---

(١٣٦) راجع: علي جريشة د.، ومحمد شريف الزيبق، *أساليب الغزو الفكري*، ص ٧٢، وراجع: محمد قطب، *واقعنا المعاصر*، ص ٢٤٢.

(١٣٧) المطعني عبد العظيم، *أوربا في مواجهة الإسلام*، ص ١٤٣، وراجع: علي عبد الحليم محمود د.، *التراجع الحضاري*، ص ٤٠٥.

أدرك الأعداء دور المرأة المسلمة في إعداد النشئ، واستقرار المجتمع وتقدمه فتآمروا عليها للوصول إلى هدم البيت المسلم ومن ثم المجتمع المسلم. يقول أحد كبراء الماسونية: «يجب علينا أن نكسب المرأة، فأي يوم مدت إلينا يدها فزنا بالحرام، وتبدد جيش المتصرين بالدين»[138]، ويقول أحد أقطاب المستعمرين: «كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرقوها في حب المادة والشهوات»[139].

وكانت البداية في تركيا -كما مر- حيث منع الحجاب للمرأة وفرض عليها السفور كرهاً، ثم كانت مصر البلد الثاني حيث برزت قضية المرأة أكبر موضوع يتصدر الصحف، ولم يكن ذلك عفوياً، بل بتخطيط وتدبير صليبي يهودي، وكما يعلل الأستاذ محمد قطب لتركيزهم على المرأة وذلك «لأنه مهما حاولوا إفساد المجتمع عن طريق إفساد الرجل وحده فإنه في النهاية لا يفسد! أو لا يفسد بالدرجة التي يرغبونها ولا بالسرعة التي يرغبونها، وذلك أنه طالما كانت هناك أم متدينة -ولو كانت جاهلة- فإنها تبذر في أبنائها بذور العقيدة وهم بعد أطفال، فلا يحدث الفساد المطلوب، وأنه لا بد من إفساد الأم لضمان فساد المجتمع.. وذلك وهي فتاة قبل أن تصبح أماً»[140].

وانهالت الدعوات ابتداءً من «رفاعة الطهطاوي» التي مهدت الطريق لمن بعده، ثم «قاسم أمين» في كتابه «تحرير المرأة» ولم يهاجم فيه الإسلام، ولكنه كشف القناع في كتابه الثاني «المرأة الحديثة» عن حقيقته حيث أسقط الإسلام من حسابه فطالب المسلمة أن تصنع مثل الفرنسية! وفي الوقت نفسه كان الشيخ محمد عبده يتزعم حركة الإصلاح ومنها قضية المرأة، ولكنه كان يؤكد أهمية التعليم.. المهم صار للمرأة المسلمة قضية.. فريق من النسوة ورجال يدافعون عنها، والحق الأول هو السفور، وثار الجدل حول الحجاب، وصدرت جريدة باسم «السفور»! وتوالت الكتابات وألقي بالنقاب ثم بالحجاب في ثورة ١٩١٩م. ودخلت المرأة ميدان العمل وتسربت تلك الأفكار إلى كل الوطن العربي والإسلامي[141] حتى قال الشاعر:

---

(١٣٨) عبد الله ناصح علوان، حكم *الإسلام في وسائل الإعلام*، ص٥٥، والقول الثاني مشهور للقس «زويمر»، ط٦، دار السلام، مصر، ١٩٨٦.

(١٣٩) المصدر السابق، ص٥٦.

(١٤٠) محمد قطب، *واقعنا المعاصر*، ص ٢٤٩.

(١٤١) راجع: تطورات قضية المرأة المسلمة في كتاب: *السيد أحمد فرج* د.، *المؤامرة على المرأة المسلمة*، «تأريخ ووثائق»، دار الوفاء، مصر، ١٩٨٥.

اسفري فالحجاب يا ابنة فهر ... هو داء في الاجتماع وخيم[١٤٢]

وكتطبيق عملي وإمعاناً في الفتنة ظهرت صالونات أدبية لنساء يستقبلن فيها رجال الأدب والصحافة والفن وكبار المجتمع[١٤٣].

لقد استدرجت المرأة وخدعت ونجحت المؤامرة لأنها لاقت نفوساً ضعيفة جاهلة بتشريعات الإسلام، ففي ظل التعليم العلماني غفلت المرأة عما منحها الإسلام من حقوق ولم تعرف أن المساواة الحقيقية هي المساواة في الإنسانية التي أقرها الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا..﴾[١٤٤]، وهي كالرجل في التكليف والجزاء فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾[١٤٥]، وفوق ذلك جعل حقها في محيط الأسرة أعظم من الرجل، قال رسول الله ﷺ لمن يسأله:

من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك.. ثلاث مرات»[١٤٦] وقال: «الجنة تحت أقدام الأمهات»[١٤٧].

وللأسف كان لبعض الزعامات الدينية دور في نجاح المؤامرة[١٤٨]. سواء منهم بحسن نية أو خلافها.. ولم يدركوا أن التطور يجب أن يكون ذاتياً وما يلائم الغرب لا يلائمنا.. كما أن الظلم الواقع على المرأة ليس مرده الإسلام بل بقايا العادات الجاهلية، فالإسلام أمر بتعليمها واستقلالها اقتصادياً ولم يحرمها من العمل، ولكن جعل لها واجباً أسمى وهو رعاية الأسرة، فلم تتعلم المرأة محاسن الإسلام ولا ما منحها الله من حقوق، بل كانوا يرمون الإسلام بأوزار الجاهلية على أنه من الإسلام من باب الخداع وصولاً إلى هدم تعاليمه وتحطيم الأسرة.

---

(١٤٢) البيت ضمن قصيدة للشاعر: جميل صدقي الزهاوي من العراق.

(١٤٣) راجع تفاصيل ذلك في المصدر السابق، ومحمد قطب: *واقعنا المعاصر*، ص ٣٠٩-٣١١.

(١٤٤) الحجرات ٤٩: ١٣.

(١٤٥) النساء ٤: ١٢٤.

(١٤٦) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب *الأدب*، *باب من أحق الناس بحسن الصحابة*، ج٧، ص ٦٩، مسلم، *صحيح مسلم*، كتاب *البر والصلة*، باب بر الوالدين وأيهما أحق به، ج٣، ص ١٩٧٤، ح(٢٥٤٨)، ابن ماجة، السنن، كتاب *الوصايا*، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت، ج٢، ص ٧٠٣، ح(٢٧٠٦)، الإمام أحمد، المسند، ج٢، ص ٣٢٧، ٣٩١.

(١٤٧) المتقي الهندي، كنز العمال، ج٢، ص ٣٨، ح(٤٥٤٣٩)، الزبيدي، إتحاف السادة المتقين، ج٦، ص٣٢٢، الحاكم، المستدرك، ج٢، ص٧٠.

(١٤٨) أمثال رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا وسعد زغلول.

وهكذا جرى إفساد المرأة باسم التحرر حيث سحبت ولاية الرجل وقوامته على المرأة كما جرت المرأة وراء الغرب حتى أصبحت أسيرة الأزياء وصناع العطور والأصباغ، ومورس تحت ذلك كل أنواع الخلاعة من العري والتشبه بالرجل، وهذا لا يعني أن الرجل غير مسؤول بل هو ساهم في هذا الوضع حين أهمل القوامة وشجع المرأة على ما تفعل واستحسنه.

أما المدافعون فهم أحد فريقين: إما يعلم النتيجة فهو من ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١٤٩) أو مخدوع مستغفل(١٥٠).

والمهم أصبح التحرير هو التحرير من قيود الدين، والتعليم بكل مراحله وخصوصاً الجامعي إضافة إلى الإعلام يغذي قضية المرأة بالوقود.. فأصبحت الظروف لمهاجمة الإسلام بصورة مباشرة وغير مباشرة بما يسمى «التقاليد البالية» وتقدم الشبه باسم الدين بأنها حبيسة البيت وعبدة الرجل.. ومن الشبهات التي تعلمتها: أن غض البصر معناه عدم الثقة بالنفس علماً أنه شرعاً -كما أمرت به النصوص- مطلوب للجنسين(١٥١). ثم أصبحت تطالب المرأة بتعديل قوانين الطلاق وتعدد الزوجات والميراث، وقد وضعت بعض الحكومات قيوداً للتعدد والطلاق وتجري المحاولات لتعديل الميراث خلافاً للشرع.

وأخيراً صارت المسلمة تشارك الغربية في المؤتمرات النسائية العالمية لتطالب بحقوقها! وأي حقوق: حق الحرية المطلقة للمرأة وهو ما معناه هدم للقيم والأخلاق والدين لتحقيق الفساد وضياع الأسر.. وأخيراً لم تستفد المرأة من هذا إلا الفوضى والمرض والضياع.

آثار الفتن والمحن في واقع المسلمين:

تركت الفتن والمحن في عالمنا الإسلامي الكبير -فيما سنمثل له بفلسطين والبوسنة والشيشان- آثاراً جسيمة، وأخطاراً كبيرة واضحة وجلية على واقع المسلمين في حياة الفرد والجماعة والأمة والدولة، وسأحاول عرض أبرز الآثار بصورة موجزة:

١- **تعطيل أحكام الشرع**: أخذت دائرة العمل بأحكام الشرع تضيق وخصوصاً الحدود، وحتى الأحوال الشخصية تجرأت بعض الدول على إجراء تعديلات فيها، ولم يترتب على الإعلان في الدساتير أن الإسلام دين الدولة أي التزام، فانصرف الحكام

---

(١٤٩) النور ٢٤: ١٩.

(١٥٠) راجع: محمد قطب، *واقعنا المعاصر*، من ص ٢٥٠-٢٩٤، حيث ذكر الخطوات التي تدرجت فيها قضية المرأة والتي ركز فيها على دور الإعلام في ذلك.

(١٥١) نفس المرجع السابق.

والمحكومون عن روح الدين، وأهملوه، وفقد علماء الدين مكانتهم واحترامهم.. ومن الأحكام التي تعرضت للحرب والإقصاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد.

وليس بخاف أهمية الأمر بالمعروف وتأكيد النصوص الشرعية عليه، وتحذير الرسول ﷺ من عدم القيام به بما سيصيب الأمة من البلاء، وكذلك الجهاد لأنه من العمل المتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وقد شرعه الله لنشر الدعوة وتطبيق الشريعة، وهو فريضة ماضية إلى يوم القيامة، وهو كما قال ﷺ ذروة سنام الإسلام(١٥٢)، لذلك كان موت روح الجهاد أثراً من آثار التشويه الذي ألحقه أعداء الإسلام به واتهامه بالهمجية، وأنه انتشر بالسيف، فتقبل المسلمون تلك الأوهام فأصبحوا تابعين أذلاء، فضاعوا وغزاهم الأعداء، بعد أن كانوا أعزة بالجهاد ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(١٥٣)، وقد شارك -للأسف- كثير من المحسوبين على الإسلام وعلمائه في تلك الحملة، بحجة تغيير الأحكام، فنفذوا رغبات الأعداء التي ترهبهم كلمة الجهاد، وهم يبحثون عن وسيلة لمحوه من أفكار المسلمين، في ظل القنوط وضعف الإيمان وحب الدنيا، وزيادة الترف، فانطبق عليهم قول الحق: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١٥٤).

٢- **الهجوم على المصادر الشرعية الإسلامية**: والذي جاء ابتداءً على يد المستشرقين -كما مر- ثم تلامذتهم من المسلمين معللين لذلك بتغيير الأحكام الشرعية لتغير الزمان، وادعى بعضهم وجود أخطاء في القرآن، وظهرت تفسيرات منحرفة تلوي أعناق النصوص، وقامت بهذا الدور شخصيات تحمل اسم الإسلام، ودعا البعض إلى الاكتفاء بالقرآن وإقصاء السنة، واعتبار تطبيق الرسول اجتهاداً غير ملزم لنا لأنه مرتبط بمستوى أهل الجزيرة آنذاك(١٥٥)، علماً بأن التفسير بغير السنة يجعل القرآن قابلاً لكل التفسيرات،

---

(١٥٢) ابن ماجة، سننه، كتاب *الفتن*، باب كف اللسان في الفتنة، ج٢، ص ١٣١٤، ح(٣٩٧٣)، والإمام أحمد، المسند، ص ٢٧٠، والترمذي، السنن، كتاب *الإيمان*، باب ما جاء في حرمة الصلاة، ج٥، ص ١٢، ح(٢٦١٦).

(١٥٣) آل عمران ٣: ١٠٤.

(١٥٤) الحشر ٥٩: ١٩.

(١٥٥) ألف الدكتور محمد شحرور «الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة»، زعم حل مشكلة الجمود، والتجديد دون استخدام الأصول الصحيحة، انظر: غازي التوبة، شحرور يلوي أعناق النصوص، *مجلة المجتمع*، عدد ١٣٠١، مايو ١٩٩٨، ص ٥٦-٥٧.

كما يقول الشيخ الغزالي: «ولو تم لهذه الجماعات ما تريد لأضاعت القرآن والسنة جميعاً، فإن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله»[١٥٦]، ولذلك طلب الإمام علي ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما أن يحاجج الخوارج بالقرآن والسنة معاً فقال: «لا تحاججهم بالقرآن وحده، فإن القرآن حمّال أوجه، حاججهم بالسنة»[١٥٧].

وقد صدرت بمصر كتب كثيرة[١٥٨] في الآونة الأخيرة تهاجم الإسلام والرسول والصحابة أثارت ضجة كبيرة بين علماء الأزهر الذين طالبوا بسحب الكتب ومصادرتها، وبين العلمانين مدعي الحرية، علماً بأن الإسلام يفرق بين حرية الفكر وحرية الكفر.

ومن هذه الكتب «مجتمع يثرب، وشدو الربابة في أحوال الصحابة» يجرد فيهما المؤلفان المجتمع المدني من القيم الأخلاقية، ويحط من شأن الصحابة والصحابيات، وكتاب «الحسبة بين القرآن والتراث» ينكر فيه عقوبة المرتد، لأن الأحاديث من اختراعات الفقهاء! وغير ذلك من الضلالات[١٥٩]، وقد يردد المغفلون عصرنة الإسلام لإخضاعه لمتطلبات العصر، والصحيح هو أسلمة العصر بإخضاعه للإسلام.

٣- **ضرب حركات الإصلاح**[١٦٠] التي تطالب بالعودة إلى الالتزام بالشرع، وضرورة وحدة المسلمين، وقد ظهر في القرن الأخير الكثير من الدعاة المجددين، الذين جمعوا المسلمين وألفوا بينهم وحاربوا الفكر الوافد تحقيقاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن أعداء الإسلام قاموا بضرب تلك الحركات، وتشريد الدعاة أو قتلهم، وخصوصاً من نادى بالجامعة الإسلامية بعد انهيار الخلافة الإسلامية في تركيا، وروجوا استحالة عودة الخلافة.. وقد تعرض الدعاة -في الوقت الحاضر- لمثل هذا التشويه والاغتيال والمحاكمة، ومصادرة الحريات، واتهم كل غيور على دينه ووطنه بالأصولية والتطرف والإرهاب، ولا تزال تجربة الجزائر وتركيا ماثلة في الأذهان، وهي صور تتكرر على مر الأزمان، والقرآن يشهد على ذلك.

---

(١٥٦) الغزالي محمد، *دستور الوحدة الثقافية*، ص ٢٥.

(١٥٧) الشهرستاني، *الملل والنحل*، ج١، ص ١٥٩.

(١٥٨) راجع مقال: عبد الحي محمد، الأزهر والعلمانية معركة جديدة، *المجتمع*، عدد ١٢٦٧، ١٦/٩/١٩٩٧، ص ٢٠-٢٣، وفيه ذكر (١٦٩) كتاباً تهاجم الإسلام والرسول ﷺ، والصحابة منها ما ذكر لخليل عبد الكريم، وأحمد صبحي منصور.

(١٥٩) المصدر السابق.

(١٦٠) راجع أسماء تلك الحركات والدعاة في: علي عبد الحليم محمود، *التراجع الحضاري*، ٣١١-٣٢٣.

٤- **هجرة المسلمين إلى ديار الغرب**: وهي الدول التي تنادي بالحرية وحقوق الإنسان، ليستريحوا من الظلم الواقع عليهم، وأدى ذلك إلى خسارة كبيرة أصابت الأمة من وجوه عديدة وخصوصاً إن كثيار من المهاجرين من أصحاب العقول والخبراء والتقنيين والمهنيين، وهم ثروة بشرية تقع عليها مهمة التطور، وهكذا «فإن البلاد العربية خسرت لبريطانيا والولايات المتحدة (١٥٠) ألف أخصائي، كانت كلفة تدريبهم (١٢) ألف مليون دولار إلى أواخر عام ١٩٨٤م»[١٦١] وهو ما يؤخر تقدم هذه الدول، وإذا ما استمرت فستؤدي إلى نتائج خطيرة، وفي الوقت الذي تتحدث هذه الدول عن المساعدات للدول الفقيرة فإنها تستفيد من تلك الخبرات الجاهزة بالمليارات[١٦٢] فضلاً عن أن هؤلاء يواجهون مشكلة التميز والكراهية، بل والمطاردة والقتل أحياناً، كما أنهم لا ينالون حريتهم في أداء شعائر الإسلام مثل صلاة الجمعة، كما تتعرض العائلات المسلمة إلى ضياع أجيالها، وأولادها في ظل تفسخ تلك المجتمعات، وهم لا يستطيعون توجيه الأبناء وتربيتهم لأن النظام الغربي يمكن الأبناء من الآباء، فيحبس الأب بأي تهمة مما يدخل عندنا في حقوق الوالدين.. وتشير إحصائية الأمم المتحدة أن ٧٠٪ من اللاجئين من المسلمين، وأكثرهم من العرب، وتعد دراسة للاستفادة من الزكاة في إغاثة هؤلاء اللاجئين[١٦٣].

٥- **التمادي في الانحراف**: وهو ما حصل في بداية هذا القرن من الانحراف السياسي بالترويج للنظم الخادعة والانحراف الديني، ومن نماذجه ما ظهر أخيراً في طائفة «عباد الشيطان» في مصر، واتضح أنها شبكة أساسها في أمريكا، ولها فروع، وتسربت إلى مصر عن طريق إسرائيل، وتتمثل في تقديس الشيطان لكونه القوة المسيطرة التي تحرك البشر، وعدم الإيمان بالله، ومن عقائدهم إباحة المخدرات والشذوذ الجنسي، والموسيقى الصاخبة، وارتداء السواد عليه شعارات وهياكل، والوشم على الجسم برسم صلبان معكوفة ودوائر في وسطها نجمة داود! ويقوم هؤلاء بقتل الأطفال الذين يسرقونهم أثناء أداء الطقوس الدينية على أنغام الميتال، وكل ذلك نتيجة للخواء الروحي والغزو الفكري[١٦٤].

---

(١٦١) الطويل، نبيل صبحي، *بؤس المسلمين المتنامي في عالم الجنوب*، ص ٧٥.

(١٦٢) انظر التفاصيل في المصدر السابق، ص ٧٥-٨٠.

(١٦٣) مجلة *الدعوة*، عدد ٦٩، يناير ١٩٩٨، لندن، ص ٢٤-٢٥.

(١٦٤) انظر لمزيد من التفصيل عن تلك الجماعة: مجلة *المجتمع*، الأعداد (١٢٣٧)، ص ٢٨-٢٩، و(١٢٤٣) ص ١٥، و(١٢٥٣) ص ٥٥، و(١٢٥٥)، ص ٢٤.

٦- **التحكم والسيطرة على الاقتصاد الإسلامي**: ومن أهم أوجهها الحديثة افتعال أزمات اقتصادية أو عسكرية تضطر الدول للاستدانة لتقع في فخ الفوائد المترتبة عليها أضعافاً مضاعفة، وللزيادة في إفقار المسلمين عملت الدول الكبرى على إغراق المسلمين بالديون التي لا يمكن سدادها! ثم تقدم الحل عن طريق صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي، وهو استعمار بطريقة غير مباشرة، حيث تملي عليهم شروط والتزامات عسكرية وسياسية واقتصادية للزيادة من خضوعهم وذلهم[١٦٥]، وقد نصبت أمريكا هذا الشرك للدول النامية، وحالة مصر من الأمثلة على ذلك، حيث دمّر اقتصادها وزراعتها، وضيعت ثرواتها، ومن ثمّ التحكم بها عسكرياً واقتصادياً، ففقدت الدولة حق التصرف أو إصدار أي قرار إلا بالرجوع إلى الدولة المدينة[١٦٦]، كما يمنع أي جهد بناء نحو الاكتفاء الذاتي.

٧- **الهيمنة العالمية**: أو النظام العالمي الجديد الذي يخدم الصهيونية، ويلغي من أهمية الحكومات المحلية، والتدخل في شئون الدول الداخلية، ولها أهداف ووسائل لا مجال لذكرها، والتي تدل على الانحراف في كل المجالات، وأولها الديني بعبادة الإله المسمى (جايا)، واتخاذ الإسلام عدواً، وتحديد النسل، والقضاء على الأسرة، وإحلال كل المفاسد، وشيوع الجنس والمخدرات، وكان الترويج لذلك قد بدأ بعد حرب الخليج، أو كما قال بوش: «آمل أن التاريخ يسجل أن حرب الخليج كانت ممهدة للنظام العالمي الجديد»[١٦٧].

---

(١٦٥) تصبح العلاقة بين المعطي والمستلم كعلاقة السيد الظالم بالعبد المسكين، ومن أهم الشروط التي تملى على الدولة الدائنة هو إيقاف الدعم لبعض الحاجيات الأساسية، وبذلك تسحق كرامات الشعوب الفقيرة، راجع التفاصيل بالأرقام والجداول لتلك الديون في: الطويل، نبيل صبحي، *بؤس المسلمين المتنامي في الجنوب*، ص ٥٢-٦٥.

(١٦٦) تشكل الفوائد لديون مصر ٦٥٪، وهي تراكمات لأخطاء سياسية، راجع *المجتمع*، عدد (١٢٢٥)، في ١٢/١١/١٩٩٦، وفيه خطة الغرب لتحطيم زراعة مصر في الحبوب والقطن وغيرها، ص٢٦-٢٧.

(١٦٧) لمزيد من التفاصيل عن النظام العالمي الجديد، راجع بحث النظام العالمي الجديد.. طبيعته.. وسائله.. غاياته، مجلة *الدعوة*، عدد (٥٢)، في ١٦/٨/١٩٩٦، ص ٢٠-٣٤.

المبحث الثاني:

مآسي العالم الإسلامي

تجتاح العالم الإسلامي بصورة عامة فتن ومحن بأساليب وأنواع مختلفة ولا يكاد يسلم منها بلد إسلامي قليلاً أو كثيراً، وتزداد ضراوة العالم الأخر وضغطهم وهجومهم على المسلمين يوماً بعد يوم، فلا نكاد نسمع حرباً دائرة إلا على المسلمين.

وفضلاً عن ذلك تعيش الأقليات المسلمة الظلم والاضطهاد في البلدان المختلفة، وقد لا تكون أقلية ولكن الإحصائيات الدولية -غير الأمينة- تظهرهم أقلية، علاوة على جهل عامة المسلمين واقع الأقليات المسلمة كما في آسيا كالصين وكمبوديا وفيتنام والفلبين...الخ(١٦٨).

وقد أصبح المسلمون اليوم لقمة سائغة يتكالب عليها العالم الغربي بأجمعه بالقتل والتشريد والحصار والتدمير الاقتصادي، والأكثر من ذلك فتنتهم في دينهم، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأُمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أو من قلة يا رسول الله، قال: لا، بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله، قال: حب الدنيا وكراهة الموت»(١٦٩).

ومع ذلك نقول أن المواجهة بين الإسلام وأعدائه ليست سريعة، بل طويلة شاقة تستغرق أجيالاً، ومعركة الحق والباطل قائمة مستمرة، وإن الذي يراد بالعالم الإسلامي في المستقبل أسوأ بكثير، ولهذا فعلى الأمة الإسلامية أن تكون عميقة الإيمان تعمل بكتاب الله وسنة رسوله، مع بذل النفس والمال، وحين يقع ذلك التغيير المطلوب يغير الله أحوالهم ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..**﴾(١٧٠)، فالمعنى إن الله «لا يغير نعمة أو بؤساً ولا يغير عزاً أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة، إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع

---

(١٦٨) راجع: الأستاذ محمد شاكر، *التاريخ الإسلامي، التاريخ المعاصر للأقليات الإسلامية*، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ج٢٢ ص١٠، أشار فيه إلى ان الأقليات يقرب عددها من(٢٦٨) مليون مسلم يشكلون ٢٤٪ من المسلمين معظمهم في آسيا فهناك (٢١٦) مليوناً منهم يتجمع أكثرهم في الصين والهند.

(١٦٩) سبق تخريجه

(١٧٠) الرعد ١٣: ١١.

حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم»[١٧١]. وعندما يتحقق قوله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً**﴾[١٧٢]. وإذا أردنا عرض مآسي العالم الإسلامي الراهنة فسيطول ذلك ونحتاج إلى مجلدات، ولكني سأتناول أمثلة -بإيجاز- على أشد الشعوب محنة في العصر الراهن، كفلسطين، ومسلمي البلقان (البوسنة والهرسك)، ومسلمي الإتحاد السوفيتي (الشيشان).

أولاً: محنة فلسطين

تاريخ فلسطين القديم ودخول بني اسرائيل

إن محنة فلسطين أرضاً وشعباً لم تكن حديثة، بل هي قديمة قدم التاريخ فقد تعرضت لموجات كثيرة من الغزو من مختلف الأجناس.

ولكن ثمة حقيقة يجب أن تذكر هي أن العرب (الجنس السامي) أول من سكن فلسطين منذ أقدم العصور، حيث كانت هجرة الكنعانيين -أحد فروع الأموريين- إليها أقدم الهجرات من شبه جزيرة العرب، ثم جاء بعدهم (الفلستينيون) من منطقة بحر إيجة (كريت) إليها[١٧٣]. ثم أطلق اسم الكنعانيين[١٧٤] -الساميين- على كل القبائل غير الاسرائيلية التي جاءت فيما بعد من قبائل العرب البدو...

ولا نريد بذلك شرح تاريخ فلسطين، ولكن لنبين بهذه النبذة كذب إدعاءات الصهاينة بأنهم الورثة الحقيقيون لفلسطين، وأنها كانت لهم خالصة.

وتدل كتب المؤرخين على كذب ادعائهم بأن عرب فلسطين هم أخلاف الكنعانيين الذين

---

(١٧١) سيد قطب: *في ظلال القرآن*، ج١٣ ص٢٠٤٩.

(١٧٢) النور ٢٤: ٥٥.

(١٧٣) راجع: ظفر الإسلام خان، *تاريخ فلسطين القديم منذ أول غزو يهودي إلى آخر غزو صليبي (١٢٢٠ق م-١٣٥٠م)*، ط٥، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٤، ويرى المؤلف أن أقدم الهجرات تعود إلى ٣٥٠٠ق م من شبه الجزيرة العربية، وعلى هذا فإن وجود العرب في فلسطين منذ خمسة آلاف سنة على الأقل..

(١٧٤) ذكر الطبري أن كنعان هو أحد أبناء نوح وفي رواية ابن حسام بن نوح، راجع *تاريخ الطبري* ج١ ص ١٩١،٢٠٢،٢٠٦.

بقوا على وثنيتهم حتى الفتح الإسلامي، وأن اليهود لم يكونوا إلا مجرد عابري سبيل في تاريخ فلسطين، وقد نبه إلى ذلك مؤرخون منصفون منهم جفريز البريطاني حيث قال: «حق أُحتفظ به بطريق بسيط صدوق دؤوب منذ خروج الإنسان من غياهب المجهول، وربما كان أبسط وأوضح حق من حقوق الملكية في العالم. »[(١٧٥)]، ويقول كذلك: «إن رأى الفقهاء الاكفاء من أهل الخبرة والمعرفة ان فلاحي فلسطين الناطقين بالعربية هم أخلاف للقبائل الوثنية التي كانت تعيش هناك قبل الغزو الاسرائيلي وتوالت عليهم موجات الفتح المتعاقبة التي طغت على البلاد دون أن تحطمهم»[(١٧٦)].

ويؤكد الحقيقة غوستاف لوبون فيقول: «ولم تكن فلسطين أرض الميعاد غير بيئة مختلفة لبني اسرائيل، فالبادية كانت الوطن الحقيقي لبني اسرائيل»[(١٧٧)].

وفلسطين -كما يؤكد القرآن- كانت ملجأً لمسيرة الأنبياء عليهم السلام ودعوة الحق وأولهم إبراهيم عليه السلام الذي رزق باسحق ويعقوب (اسرائيل) المفصلة قصته في سورة يوسف، حيث انتقل مع بنيه إلى مصر، ثم وقوع بني اسرائيل تحت اضطهاد الفراعنة إلى أن أرسل الله لهم موسى عليه السلام لإخراجهم إلى الأرض المقدسة، وبعد أن أنقذهم الله من فرعون نقضوا العهد وظهرت صفاتهم الذميمة من اتخاذهم العجل والجبن، والارتداد من دخول الأرض المقدسة **﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾**[(١٧٨)] فهم يريدونه نصراً رخيصاً لا ثمن له ولا جهد ...[(١٧٩)]

وبعد أن كتب الله عليهم التيه أربعين سنة في سيناء قادهم (يوشع بن نون) إلى الأرض المقدسة عام ١١٨٩ ق.م، ومن هنا بدأ الوجود اليهودي على أرض فلسطين أسباطاً متفرقين إلى أن وحدهم النبي داود عليه السلام عام (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م) ومن بعده سليمان عليه السلام (٩٦٠-٩٣٠ ق.م) الذي ذكر في سورة النمل، وبعد وفاته انقسمت البلاد وتمزقت إلى مملكة اسرائيل في الشمال، (يهوذا) في الجنوب[(١٨٠)].

---

(١٧٥) جفريز جمن، فلسطين: إليكم الحقيقة، ترجمة خليل خليل الحاج ص ٣٦-٣٧ نقلاً عن: ظفر الإسلام خان، *تاريخ فلسطين القديم* ص٢٣.

(١٧٦) نفس المرجع السابق.

(١٧٧) غوستاف لوبون، *اليهود في تاريخ الحضارات الاولى* ص ٣٠-٣١ نقلاً عن ظفر الإسلام خان، *تاريخ فلسطين القديم*، ص ٢٣.

(١٧٨) المائدة ٥: ٢٤.

(١٧٩) راجع نص تعليق سيد قطب، *في ظلال القرآن* م٢ ج٦ ص٨٧٠.

(١٨٠) راجع ظفر الإسلام، *تاريخ فلسطين القديم* ص ٢٤، والمصري جميل، *حاضر العالم الإسلامي* ج٢ص٣٠٢

ومدة حكم النبيين -التي يفتخر بها اليهود، ويزعمون بأنهم ملكوا الأرض من النيل إلى الفرات- تذكره المصادر التاريخية، وهي ثمانون عاماً كل نبي حكم أربعين عاماً فقط، وهو العصر الذهبي الذي عاشته فلسطين تحت راية التوحيد قبل الإسلام ولم تكن لجميع فلسطين المعروفة اليوم.

يقول جفريز: «إن امتلاك اليهود لفلسطين بكل معنى حقيقي من معاني كلمة الإمتلاك لم يكن في يوم من الأيام كاملاً، إنما ظل في رقعة داخل حدودها طوال مدة السبعين عاماً، ولقد عمروا بما لا يزيد على عمر الرجل»(١٨١)، ومن الغرابة أنها اشتملت على الجبال دون السهول(١٨٢).

وبعد أن كثرت المنكرات في المملكتين، قضى الآشوريون على مملكة اسرائيل سنة٧٢١ ق.م ونقلوا سكانها إلى الشرق، وكذلك مملكة يهوذا حين فسدوا وحرفوا -كما أشار القرآن الكريم- (١٨٣)واستفحل الظلم اليهودي ،استنجد أهل البلاد بملك بابل نبوخذ نصر (بختنصر) فسار إليهم سنة ٥٨٧-٥٨٦ ق.م ودخل القدس ودمرها وهدم الهيكل وأخذ جميع سكانها البالغ عددهم (٤٠) ألفاً إلى بابل في العراق، وهاجر من بقي إلى مصر(١٨٤). وفي أرض السبي وضعت أصول الديانة اليهودية المحرفة المتعصبة(١٨٥).

وحين استطاع «قورش» الثاني الفارسي احتلال البلاد سنة (٥٥٨-٥٢٨ ق.م). عاد بعض اليهود من بابل وسمح لهم بإعادة بناء الهيكل، ثم استولى الأسكندر المقدوني على البلاد سنة ٣٣٢ ق.م، وتلاه الاحتلال الروماني سنة ٦٣ ق.م، وعندما بعث عيسى ﵇ اصطدم مع اليهود بجدال عنيف فقرروا التخلص منه على عادتهم في قتل الأنبياء والصالحين، حيث وقفوا مع الوثنية الرومانية ضد المسيحية، وعندما ثاروا على الرومان دخل

---

(١٨١) جفريز: *فلسطين إليكم الحقيقة*، ص ٤٢، ٤٥، نقلاً عن ظفر الإسلام خان، *تاريخ فلسطين القديم*، ص ٤٨.

(١٨٢) المصدر السابق، ص ٤٨-٥٢، معضد بأقوال المؤرخين.

(١٨٣) أنظر سورة المائدة ٥: ٧٠، والإسراء ١٧ : ٤.

(١٨٤) ذكر الطبري ان بعضهم نزل أرض الحجاز بيثرب ووادي القرى، راجع *تاريخ الطبري*، ج١ ص ٥٣٩.

(١٨٥) راجع الأحداث التاريخية في كتب التفسير للآية ٤-٥ من سورة الإسراء، وفي *الموسوعة الفلسطينية*، ج١ ص٢٣٨،ج٣ ص ١٨٥-١٨٦، وظفر الإسلام، *تاريخ فلسطين القديم*،ص ٥٥-٥٩، ود. محسن محمد صالح، *الطريق إلى القدس*، ص٣٢-٣٤.

«تيطس» الروماني القدس عام (٧٠) م ودمرها وأحرق الهيكل، وفعل بهم ما فعل «بختنصر» وبيع اليهود عبيداً في أسواق الإمبراطورية الرومانية بأبخس الأثمان. ثم استمر الاضطهاد لهم ومنعوا من دخول القدس واستمر الحظر (٢٠٠) سنة، وخصوصاً عندما دخل الامبراطور «قسطنطين» المسيحية وبقي الحال حتى القرن التاسع عشر، وجاء الفتح الإسلامي سنة ٦٣٩ م (١٥ هـ) لينقذ اليهود من الدمار الكامل .. ويعبر أحد المؤرخين عن تشبث اليهود في فلسطين بقوله: «كانت حياة العبرانيين في فلسطين تشبه حياة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار.. ومن الأول إلى الآخر لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسوريا وفينيقية، ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم»[١٨٦].

ونظراً لأهمية فلسطين عموماً والقدس خصوصاً في نظر المسلمين فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين وأرض الإسراء والمعراج، مما جعل ثمن هذه البلاد غالياً عليهم حيث ضحى المسلمون في سبيلها بخمسة وعشرين ألفاً من جنودهم[١٨٧].

وعنها قال رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»[١٨٨].

إدعاءات اليهود الكاذبة:

وقد روج الصهاينة زوراً أن سكان فلسطين هم أخلاف المسلمين الذين جاءوا بعد الفتح الإسلامي، وأن عرب اليوم ليسوا إلا سكاناً جدداً حلوا محل اليهود والرومانيين،

---

(١٨٦) القول للمؤرخ (خ. هـ. ج ولز) في كتابه موجز التاريخ نقلاً عن ظفر الإسلام، *تاريخ فلسطين القديم*، ص٩٧.

(١٨٧) *راجع:* حسن ابراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي*، ج١ ص٢٩٧.

(١٨٨) البخاري، *الصحيح*، كتاب وباب فضل الصلاة في مسجد مكة، ج٢ ص ٥٦، والإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، ج١ ص ١٠١٤ن ح(١٣٩٧)، والترمذي، *السنن*، كتاب الصلاة، باب ماجاء في أي المساجد أفضل ج٢ ص ١٤٧، ح(٣٢٥)، والنسائي، *السنن*، كتاب المساجد، باب ما تشد إليه الرحال من المساجد، ج٢ ص ٣٧، ح(٦٩٠٨)، والدارمي، *السنن*، كتاب الصلاة، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، ج١ ص ٢٧١، ح(١٤٢٨)، وابن ماجة، *السنن*، كتاب إقامة الصلاة، باب ماجاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس، ج١ ص ٤٥٢، ح(١٤٠٩)، والإمام أحمد، *المسند*، ج٢ ص ٢٣٤، ٢٣٨، ج٣ ص ٧، ٣٤،ج٦ ص ٧، ٣٩٨.

وهو ما تكذبه المصادر التاريخية، يقول جفريز: «إن عرب اليـوم في فلسطين لا يمثلـون مجـرد جنس فاتح ولكنهم سلائل تلك الشعوب التي عاشت فيها قبـل الاسـرائيلين... وأن الجهـل بهذه الحقيقة لدينا هو في الواقع سند تعتمد عليه الدعاية الصهيونية السياسية»[١٨٩].

والحقيقة أن اليهود لم يكونوا موجودين شعباً أو قوميـة ولا بـأعداد كبيرة حـين الفتـح، وأنهم غادروها منذ سقوط القـدس عـام (٧٠م)، أمـا الوعـد بـالعودة فقـد تحقـق بعودتهـم من سبي بابل، ولكن إستغلال اليهود للدين لأغراض سياسية هو سمتهم قديماً وحديثاً.

ورداً على دعاوي الصهاينة في أحقيتهم بفلسطين نقول: إن اللـه أعطـاهم الأرض عندمـا كانوا مستقيمين على التوحيد في غابر الزمان، وهذه الشرعية ارتبطت بمـدى التـزامهم بمنهـج الله، فلما كفروا وعصوا وقتلوا الأنبياء ونقضوا العهود، ورفضـوا اتبـاع الرسـالة الإسـلامية والتـي بشـرّ بهـا الأنبيـاء **﴿الرسـول النبـي الأمـي الـذي يجدونـه مكتوبـاً عندهـم في التوراة والإنجيل﴾**[١٩٠]، فلما فعلوا كل ذلـك حلّـت عليهـم اللعنـة والغضـب، قـال تعـالى: **﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، مـن لعنـه اللـه وغضـب عليـه، وجعـل منهـم القـردة والخنـازير وعبـد الطـاغوت، أولئـك شـر مكانـاً وأضـل عـن سـواء السـبيل﴾**[١٩١] وبذلك تحولت شريعة الأرض المقدسة إلى الأمة الموحدة التي سارت على نهج الأنبياء وهـي أُمة الإسلام، غير المرتبطة بجنس أو قوم، فالمسلمون هـم أحـق النـاس بمـيراث الأنبيـاء[١٩٢].

أما ما تعتد به توراتهم المحرفة من الوعد لإبراهيم ونسله فإن بنـي اسـرائيل ليسـوا وحدهـم نسل إبراهيم، فمحمد ﷺ من نسل إبراهيم كذلك.

كما إن الأغلبية الساحقة لليهود في عصرنا ليست من نسل إبراهيم فالذين اغتصبوا أرض فلسطين ليسوا ساميين أصلاً ولا عبرانيين، وليست لهم صلـة بيعقـوب عليه السلام لأن فيهـم مـن تهوّد في وقت سيطرة اليهود بالقوة، كما أن معظم يهود اليوم أو ٩٠٪ هم مـن الخـزر الذيـن تهودوا خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، والأشـكنازيم يهـود أوربـا الشـرقية الغـلاة المتعصبون الذين بأيديهم الأمر اليوم[١٩٣].

---

(١٨٩) جفريز: فلسطين إليكم الحقيقة، ص٣٥، وللمؤرخ الأمريكي د. تشارلز مبشوس مثلـه، أنظـر ظفـر الإسلام خان ص ١٥٥-١٥٨.

(١٩٠) *الأعراف ٧: ١٥٧*.

(١٩١) المائدة ٥: ٦٠.

(١٩٢) محسن محمد صالح، د. *الطريق إلى القدس*، ص ١٤.

(١٩٣) راجع في تفاصيل أصول اليهود والذين يدّعون-زوراً- حقاً تاريخياً بفلسـطين: الكيـالي عبد الوهـاب.=

كما أن القرآن الكريم يوضح مسألة إمامة إبراهيم عليه السلام: **﴿وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال إني جاعلك للناس إماماً، قال ومن ذريتي قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾**[194]، وأي ظلم وفساد أكبر مما فعله بنو اسرائيل...

إذن فحجة اليهود لا يدعمها منطق أو تاريخ في حين تظاهر المستعمرون بتصديقهم كوسيلة لتحقيق أطماعهم في الشرق الأوسط، واستغلت الدعاية جهل الناس بالحقائق واستفادت منه، وفي ظروف معاداة أوربا للسامية نشأت الفكرة الصهيونية التي التقت مع اطماع الاستعمار في فلسطين نظراً لموقعها الجغرافي كملتقى للقارات الثلاث ومركزها الديني، فكانت حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨م ووصلت إلى حصون عكا وحاول استمالة اليهود، وحينما فشلت الحملة اتجهت الصهيونية إلى بريطانيا التي كانت اشد طمعاً في فلسطين من غيرها، فأقامت أول قنصلية بريطانية في القدس عام ١٨٣٩ م في ظل الدولة العثمانية والتي من أهم نشاطها حماية الجالية اليهودية البالغ عددهم (٩) آلاف، واستقدام آخرين.

وبدأت الدعاية للوطن القومي لليهود، مع عقد المؤتمرات، ومحاولة رشوة السلطان عبد الحميد -كما مر- وتآمرهم على الخلافة العثمانية التي استدرجت لدخول الحرب ثم تقسيم أراضيها فأصبحت فلسطين من حصة بريطانيا التي اعطت وعداً مسبقاً لليهود (وعد بلفور)[195] بها، وتحت الإنتداب البريطاني تمت المؤامرة، فما أن انتهى الإنتداب حتى أعلن عن قيام اسرائيل سنة ١٩٤٨م..

وكان قد بدأ الاحتكاك بين اليهود وسكان فلسطين قبل ذلك، عندما تحول دخولهم من مجرد سياح إلى الطابع الإستيطاني، وشراء الأراضي، فحصلت مصادمات مع الفلاحين مما جعل الدولة العثمانية تفرض قيوداً بعدم السماح لهم بالبقاء أكثر من ثلاثة أشهر[196].

=*تاريخ فلسطين الحديث*، ص ١٧-١٨، ط١٠، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠م، وظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم من المقدمة، ص ١٠-١١، والمصري جميل. حاضر العالم الإسلامي، ج٢ ص ٣٠٢-٣٠٣.

(١٩٤) البقرة ٢: ١٢٤.

(١٩٥) يعد وعد بلفور من أغرب الوثائق الدولية في التاريخ، إذ منحت بموجبه دولة استعمارية أرضاً لا تملكها (فلسطين) إلى جماعة لا تستحقها (الصهاينة) على حساب أهلها وتشريد شعب بكامله، وعلى نحو لاسابق له، في وقت لم تصل فيه جيوش بريطانيا فلسطين بعد، راجع الكيالي عبد الوهاب، د. *تاريخ فلسطين الحديث*، ص٨٤.

(١٩٦) المصدر السابق ص٤١.

ويبدو أنه كان لدى الفلسطينين وعـي مبكـر بطبيعـة الفكـرة الصهيونيـة وإدراك هدفهـا، ولذلك امتنـع معظمهـم عـن بيـع أراضيهـم، فاشـتروها مـن العـائلات اللبنانيـة الإقطاعيـة أو العاملة بالتجارة أو بالرشوة[197].

محنة فلسطين -بعد الانتداب- وردود الفعل

وبدأت المحنة الحقيقية مع الإنتداب، فعانت فلسطين من مؤامرة رهيبة تنفيذاً لوعد بلفور، وذلك بتحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود وحرمان أهلها من حقوقهم السياسية وتضيـق سبل العيش، في الوقت الذي شجعت الهجرة اليهودية وشراء الأراضي وبنـاء المستوطنات، وأكثر من ذلك تسليحهم حيث تشكلت في ظلهم ثكنات عسكرية يهودية كانت نـواة الدولـة اليهودية فيما بعد.. قاوم أهل فلسطين وبذلوا عشـرات الآلاف مـن الشـهداء لكـن المؤامـرة كانت أكبر منهم بكثير، إذ تضامن مع المحتل كل القوى الدولية في الوقت الذي كـان العـالم العربي والإسلامي عاجزاً لوقوعه تحت الاستعمار بكافة أشكاله، فزاد عدد اليهود من (٥٥) ألفاً عام ١٩١٨م إلى (٦٥٠) ألفاً عـام ١٩٤٨م، ولكنهـم لـم يسـيطروا إلا علـى ٦٥٪ مـن الأرض حتى عام ١٩٤٨م حيث انتصرت على الجيوش العربيـة وسـيطرت علـى ٧٨٪ مـن فلسطين وأنشأت عليها دولتهم ...[198].

أما أشكال المقاومة لدى الفلسطينين فتتمثل في:

-الحركات الوطنية، والجمعيات، والمؤتمرات، وإرسال الوفـود إلى بريطانيـا، ثـم الكفـاح الشعبي في حركات ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٥ وكانت الأخـيرة بمناسـبة زيـارة بلفـور لإفتتـاح الجامعة العبرية[199].

---

(١٩٧) راجع تفاصيل ردود الفعل عند الفلسـطينين مـن الإسـتيطان في المصـدر السـابق، ص٤٩-٦٧، د. محسن محمد صالح، الطريق إلى القدس ص١٦٧، و الواعي توفيق د. *اليهود* ص١٦١.

(١٩٨) راجع: محسن محمد صالح د.، *الطريق إلى القدس*، ص١٦٩-١٧٠، وراجع: ميخائيل بالومبو، *كيف طرد الفلسطينيون من ديارهم عام ١٩٤٨م* ، دار الحمراء، بيروت سنة ١٩٩٠م يروي الكـاتب ما قام به الصهاينة بتنفيذ خطة بن غوريون لطرد العرب والحلـول مكـانهم، وذلـك بـإخراجهم ومنـع دخولهم حتى وصل عدد النازحين سـنة ١٩٤٨م(٧٥٠) ألـف علـى الأقـل، ورجـع البـاحث إلى وثائق في كل من أمريكا وأوربا و إسرائيل مع ملفات في أرشيف الأمم المتحدة، عن طريق مراقبيهـا الذين شهدوا عملية الطرد بقوة السلاح ..

(١٩٩) راجع: حسني آدم جرار ، *شعب فلسطين أمام التآمر البريطاني و الكيد الصهيوني*، ص٢١.

واستمرت بريطانيا في مخططها بانتزاع الأراضي من الفلاحين وطردهم وتمليكها لليهود، كما احتكر اليهود مقومات الإقتصاد، وشجعت على قيام جيش يهودي (**الهاغاناة**)[٢٠٠]، وعلاوة على تسليح بريطانيا لهم كانت صفقات الأسلحة تنهال عليهم بالسفن المحملة ظاهرياً بأنواع البضائع..كما كانت طوابير اليهود في زيارة القدس تقوم بإستفزاز المسلمين كالنفخ بالبوق ايذاناً بإعادة الهيكل، فوقع اصطدام مع المسلمين وقفت بريطانيا إلى جانبهم في قتل المسلمين وذلك في ثورة (البراق) وتوالت احكام الاعدام عليهم دون اليهود[٢٠١].

وعندما يئس الفلسطينيون من إقناع بريطانيا بحقهم كانت انتفاضة عام (١٩٣٣م) ثم ثورة القسام (١٩٣٥م) التي اعتمدت التخطيط المنظم والإعداد المادي والمعنوي[٢٠٢] بعدها قامت القوة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩م) بقيادة أمين الحسيني والتي ضمنت جماعات من خارج فلسطين أعانت بالأسلحة كذلك، وخصوصاً الإخوان المسلمين في مصر، وانتهت الثورة لعدم تكافؤ القوى، ولم تكن الأوضاع العربية والدولية في صالحهم[٢٠٣].

ومع كل ذلك تتمادى بريطانيا في تطبيق الأنظمة الجائرة، كالتحكم في تحركات الفلسطينين مع الإعتقال والطرد الذي شمل قرى كاملة، ثم ازدادت هذه الاجراءات بعد عام ١٩٤٨م، باصدار قانون الطوارئ الذي يجيز مصادرة الأراضي لإقامة المشاريع العسكرية وبناء المستوطنات فاستولت حتى عام ١٩٥٨م على (٢٥٠) قرية بعد طرد سكانها، أما من بقي منهم فتثقل كاهلهم بالضرائب و تتحكم بأجور العمل، فضلاً عن المداهمات للجيش والعصابات التي تروع الأسر. حيث قامت منظمات أرهابية بأعمال ذبح للفلسطينين[٢٠٤]، والتي يتلذذ بها اليهود وتجعلهم يحسون بالأمن والثبات.

كما قاموا بهدم العديد من المساجد وتحويلها إلى كنائس يهودية، كما نبشوا قبور المجاهدين في القدس، وهم علماء وشهداء الغزو الصليبي.

المجازر والمذابح لأهل فلسطين، والمواجهات

أما المجازر الكبيرة تجاه أهل فلسطين، فيدعون أنهم ينفذون مشيئة الرب إله إسرائيل

---

(٢٠٠) المرجع السابق ص٣٢.

(٢٠١) المرجع السابق ص٥٣.

(٢٠٢) المرجع السابق ص ١٤٥.

(٢٠٣) المرجع السابق ص ١٦٣-١٨٧.

(٢٠٤) راجع: أسماء المنظمات اليهودية الارهابية، الواعي توفيق، د.، *اليهود تاريخ افساد* ص ١٨٢-١٨٥.

وأهمها ما يأتي:

- مذبحة بلدة الشيخ في ٣١/ ١٢/ ١٩٤٧م.
- مذبحة قرية سعسع في ١٤-١٥ / ٢/ ١٩٤٨م.
- مذبحة قرية أبو بكر في ٣١/ ٣/ ١٩٤٨م.
- مذبحة دير ياسين في ١٠/ ٤/ ١٩٤٨م، حيث داهمت العصابات القرية وأهلها العزل، ودارت مذبحة رهيبة لمدة (١٣) ساعة قتلوا خلالها ٣٦٠ شخصاً معظمهم من النساء والاطفال والشيوخ، فيبقروا بطون الحوامل وقطعوا الأجنة، وذبح الاطفال أمام ذويهم وجردوا بعض النساء من ملابسهن وطافوا بهن في سيارات مكشوفة داخل الأحياء اليهودية.
- مذبحة قرية أبو شوشة في ١٤/ ٥/ ١٩٤٨م.
- مذبحة الله في ١١/ ٧/ ١٩٤٨ بقيادة موشي ديان، اقتحمت المدينة وقتل ٤٢٦ شهيداً منهم ١٧٦ أثناء محاولتهم الاحتماء في أحد المساجد.
- مذبحة قرية عيليون ٣٠/ ١٠/ ١٩٤٨م بعد أن أمر الاهالي بالتجمع أطلق عليهم النار من جميع الجهات.
- مذبحة شرفات في ٧/ ٢/ ١٩٥١م
- مذبحة قرية بيت جالا في ٦/ ١/ ١٩٥٢م.
- مذبحة قبية ١٤/ ١٠/ ١٩٥٣م.
- مذابح غزة في ٢٨/ ٢، وشاطىء طبريا ١١/ ١٢ في عام١٩٥٦م.
- مذابح غزة الثانية ٥/ ٤، ومجزرة غرندل ١٣/ ٧ وحوسان ٢٥/ ٩ ومذبحة قلقيلية في ١٠/ ١٠ وكفر قاسم ٢٨/ ١٠ ومذابح العدوان الثلاثي على مصر وكلها في عام ١٩٥٦م.
- أما مذبحة خان يونس في ٣/ ١١/ ١٩٥٦م فبعد تطويق المدينة انتقوا رجالاً و أخذوهم إلى البرية معدين لهم مقابر جماعية، واستبيحت القرية خمسة أيام مع السلب والنهب كما هوجمت فيها المخيمات وتكررت بعد تسعة أيام..
- ومن المجازر الشهيرة مجزرة رفح في ليلة ١٢/ ١١ / ١٩٥٦م التي نادى الصهاينة في مكبرات الصوت بوجوب تجمع الذكور من بين (١٥-٧٠) في الخامسة صباحاً في مدرسة للبنين وخرجوا حتى وصل عددهم (٢٠)ألفاً، ثم أنطلق الصهاينة إلى الذين في القرية يقتلون من تخلف ثم رجعوا إلى من في المدرسة وأمروهم بالسير عشرة عشرة لمعرفة الجندي من مشيته فيأخذونه إلى القتل، وعلى صوت الرصاص خرجت النساء والصبيان وتجمعوا

حول سور المدرسة فهُدم فلجأوا إلى الحجارة ليواجهوا بها الرصاص فهرب العدو بعد هذا الطوفان، وتلاها مذبحة تل الزعتر وبيروت ومذابح أخرى تداهم فيها المخيمات وأشهرها والتي لازالت عالقة في الأذهان مذبحة صبرا وشاتيلا في ١٨/ ٩/ ١٩٨٢م. وما حصل فيها يفوق الوصف حيث قتل فيها نحو من ٣٥٠٠ مدني فلسطيني ولبناني.

وكذلك مذبحة المسجد الابراهيمي في الخليل في ٢٥/ ٢/ ١٩٩٤ م نفذها الإرهابي باروخ جولد شتاين مع المستوطنين حيث فتح نيران رشاشته على المصلين وهم سجود في حين قام الآخرون بمساعدته في تعبئة الذخيرة التي احتوت رصاص دمدم المتفجر والمحرم دولياً..

وأخيراً وليس آخراً مذبحة قانا في ١٨/ ٤/ ١٩٩٦م في جنوب لبنان ضد المدنيين حتى في ملجأ داخل قوات الأمم المتحدة راح ضحيتها ١٦٠ شهيداً[(٢٠٥)].

ونعود لتاريخ المواجهات حيث شهدت الفترة ما بين ١٩٤٨-١٩٦٧م نمو الفكر القومي، وتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤م، وكان العرب خلالها ولايزال البعض منهم يتنادون إلى تحرير فلسطين تحت شعار القومية والعلمانية فتتوالى عليهم الهزائم مما يذكرنا بقول عمر بن الخطاب ﷺ: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا تطلب بغير الله بديلاً.. »[(٢٠٦)].

ومع ذلك كان للجهاد والإسلام دور رائد في مواجهة الإحتلال ولكنه لا يملك دفة التوجيه السياسي للقضية، فانتهت المرحلة بهزيمة حزيران عام ١٩٦٧م وفقدان باقي فلسطين والجولان وسيناء مما أضعف الثقة بالشعارات السابقة، وبدأت مرحلة الثورة الفلسطينية والمنظمات الفدائية حتى عام ١٩٨٧م، ونشط الكفاح المسلح ولكنه تعرض لعمليات تصفية وخصوصاً بعد اتفاقية (كامب ويفيد) بين مصر واسرائيل عام ١٩٧٩م ثم احتلال إسرائيل لجنوب لبنان ١٩٨٢، وتنامى بعدها المد الإسلامي وفكرة الجهاد في العالمين العربي والإسلامي[(٢٠٧)].

الاتفاق مع الصهيونية: والانتفاضة المباركة

وكانت زيارة الرئيس المصري (السادات) لإسرائيل من أهم الأحداث التاريخية وأكثرها

---

(٢٠٥) أنظر تفاصيل تلك المجازر في: توفيق الواعي د. ، *اليهود تاريخ افساد وانحلال ودمار* ص١٨٦-١٩٤ *بجلة المجتمع* عدد١٢٩٩،١٢-١٨ مايو ١٩٩٨م ،ص٢٢-٢٣و انظر *الموسوعة الفلسطينية* في كل بلد من البلدان المذكورة مرتبة حسب حروف المعجم.

(٢٠٦) ابن كثير: *البداية والنهاية* ج٧،ص٢٢٢.

(٢٠٧) انظر :محسن محمد صالح د.، *الطريق إلى القدس* ص١٩٤.

إثارة وذلك في ٩/ ١١/ ١٩٧٧م الموافق ٩ ذي الحجـة ١٣٩٧، وهـي تعبير عـن الإحسـاس بالهزيمة في ظل الإنحراف العقدي وانقسام الدول الإسلامية تحقـق الإنجاز الكبير للصهاينـة بتلك الاتفاقية التي تفيد إنهاء الحرب وما تبعه من تطبيـق العلاقـات والتمثيـل الدبلوماسـي وفتح الحدود والمبادلات السياحية والتجارية والاعلامية[٢٠٨].

ومن نتائج (كامب ديفيد) أن أصبحت إسرائيل خطراًيهدد المنطقة، فقـد ضربـت المفـاعل النووي العراقي في ١٩٨٢م، ثـم احتلـت جنـوب لبنـان وضربـت مقـرات منظمـة التحريـر الفلسطينية مع زيادة المساعدات الامريكية بحجة السلام لبناء المزيد من المستوطنات، وكـانت ردود فعل قوية لهذا الحدث داخل مصر.. [٢٠٩].

وأخيراً جـاء دور الانتفاضـة المباركـة في ٩ديسـمبر ١٩٨٧م و التـي تعـد تحـولاً تاريخيـاً في الصراع ضد العدو وكان من دوافعها[٢١٠]:

١- زيادة الإستيطان ومصادرة الأراضي تحت ذرائع متعددة، فقد استولت على (٣٥٠)قريـة فضلاً عن الأستيلاء على أراضي الغائبين وأراضي الأوقاف الإسلامية البالغة ٦,٥٪ من أرض فلسطين ولازال الأمر مستمراً.

٢- الاعتقال والسجن للأفراد الجماعات والترحيل، فبلغ عدد المرحلـين في ١٩٦٧-١٩٨٧م حوالي ٢٠٦١ شخصاً.

٣- هدم البيوت وبلغ عددها بين ١٩٦٧-١٩٨٩م حوالي (١٤٢٥) منزلاً، أمـا غـير المعلـن فنحو (١٩) ألف منزل عدا القرى التي تزال بأكملها..

٤- الاعتداء على المقدسات الإسلامية بل محاولة حرق الأقصى عام ١٩٦٩م ومجـزرة الحـرم الابراهيمي على يد ضباط احتياط أدى إلى قتل ٦٠ شهيداً.

٥- التضييق الاقتصادي وسوء الأوضاع التعليمية، وتردي الأوضاع الصحية، والتشديد على الصحافة واغلاقها.

٦- وأخيراً تردي الموقف السياسي العربي تجاه قضيـة فلسـطين في مؤتمـرات القمـة العربيـة، اضافة لما ذكرنا من الظروف.. فـتراجعت العمليـات الفدائيـة داخـل فلسـطين وتحركـت

---

(٢٠٨) راجع: المصري جميل د. *حاضر العالم الإسلامي* ج٢ ،ص٣٤٧-٣٤٩ وفيه نص الإتفاقية وفوائدها لإسرائيل وآثارها السيئة على مصر..

(٢٠٩) منهـا:اغتيـال السـادات، والعمليـات ضـد الدبلوماسـيين و السـياح. راجـع المصـدر السـابق ج٢ ص٣٥٣-٣٥٤.

(٢١٠) راجع تلك الدوافع في المصدر السابق ص١٦-٢٣.

الانتفاضات وكان للتيار الاسلامي دورٌ بارزٌ وخصوصاً جناح(حماس) الذي تزامن مع الصحوة الاسلامية وكانت العمليات الجهادية قد اظهرت حقيقة الجنس الصهيوني، وكسرت حاجز الخوف من مواجهة الجندي الإسرائيلي وحلت الثقة بالنفس وبنصر الله للمؤمنين...

والخلاصة هو استشعارهم بالظلم الواقع عليهم من زيادة الوعي الديني واليأس من أي عون خارجي أو حل سياسي منصف، فصارت عندهم القناعة بالاعتماد على الذات.

أما الاجراءات الإسرائيلية الإرهابية ضد الانتفاضة والتي تعبر عن الفتنة والمحنة التي ابتلي بها المجاهدون فتتلخص بما يأتي:

١- سياسة القبضة الحديدية بتصعيد الاجراءات القمعية، وتنوع فنون القمع وذلك في: زيادة القوات العسكرية، واطلاق الرصاص، ووضع الحواجز للتفتيش، واستخدام الطائرات المروحية لضرب المخيمات، والقاء القنابل المسيلة للدموع في أماكن مغلقة يؤدي إلى الاختناق واجهاض الحوامل، ومنها دفن الاحياء كما حصل في قرية سالم وخان يونس والبيرة.

٢- مبدأ رابين في تكسير عظام المتظاهرين بالهراوات واعقاب البنادق، وقد عرضت على شاشات التلفزيون ورآها جميع العالم ..

٣- العقاب الجماعي مثل حصار المخيمات، ومنع التجول طويل الأمد، ومنع السفر، وقطع المواصلات والاتصالات الهاتفية، ومصادرة الهويات، والإبعاد .. وحادثة إبعاد (٤١٥)مواطناً في ١٨/ ١٢/ ١٩٩٢م إلى (مرج الزهور) معروفة..

٤- الحرب الاقتصادية وخصوصاً للأماكن المحاصرة ومنع شاحنات التبرع، وعرقلة وصول المواد الغذائية والاستيلاء عليها، مع قطع إمداد الماء والكهرباء والوقود، وإتلاف المحاصيل، ووقف صرف الرواتب، وكسر ابواب المحلات التجارية...

٥- الاعتداء على المؤسسات التعليمية التي كانت هدفاً للقمع لكون طلابها من شباب الانتفاضة، كما حولت بعض المدارس إلى ثكنات وسجون للاعتقالات العشوائية.

٦- منع مستشفيات الضفة والقطاع من استقبال حالات الإصابة من قبل الجنود عدا الإسعافات الأولية، ثم نقلهم إلى مستشفيات اسرائيلية بهدف إلقاء القبض عليهم، إضافة إلى الحصار الطبي ومداهمة المستشفيات.

٧- انتهاك حرمة المساجد بإغلاق بعضها، ووضع الحراسة العسكرية حولها، ووضع الحواجز في الطرق المؤدية إليها واقتحام المساجد وتمزيق المصاحف، والاعتداء على الأئمة والمصلين مع قطع التيار الكهربائي قبل صلاة الجمع واعتقال الخطباء بحجة التحريض، والقاء قنابل الغاز داخل المساجد وأثناء الصلاة وإغلاقها لمضاعفة تأثيرها وفي ١٥/ ١/ ١٩٨٨ وقع اعتداء على مفتي القدس، وجرت محاولات لإحراق المسجد الأقصى بالقاء قنابل حارقة تحت قبة الصخرة.

٨- هدم المنازل ونسفها بالديناميت والجرافات العسكرية، ومهاجمة المستوطنين للقرى والمخيمات واختلاط الأطفال، وإتلاف المحاصيل...

٩- استخدام الحرب النفسية بالإشاعات الكاذبة، والتعتيم الإعلامي على الأخبار الداخلية والتشديد على الصحافة الفلسطينية[(٢١١)].

إتفاق السلطة الفلسطينية مع إسرائيل، وحكمه الشرعي:

ومما زاد الوضع سوءً التنازلات الفلسطينية من بعض قياداتها من طرف واحد والاعتراف بإسرائيل وذلك بعد زيادة الضعف العربي وخصوصاً بعدحرب الخليج وما نتج عنها من التفكك والعداء وقطع الدعم عن المنظمات الفلسطينية، والأكثر من هذا القضاء على القوة الوحيدة التي ترهبها إسرائيل في العراق وتدمير أسلحتها..

وعلى الصعيد العالمي إنهيار روسيا وبروز الدور الأمريكي كقوة وحيدة في النظام العالمي الجديد مما أضعف الموقف السياسي الفلسطيني فأرادت أمريكا إغلاق الملف الفلسطيني وفق مصالح إسرائيل لذلك اندفعت قيادة (م.ت.ف) للتسوية السلمية ووافقت على قرار الأمم المتحدة ٢٤٢،٣٣٨،وكانت البداية مؤتمر مدريد ١٩٩١م والذي كان بوابة المحادثات السرية في أوسلو وجنيف وأسفر عن اتفاق أوسلو ثم التوقيع على اتفاقية إعلان المبادئ في واشنطن في ٣/ ٩/ ١٩٩٣ بعد لقائات مباشرة في القاهرة، وتحت رعاية أمريكية نقلت المفاوضات إلى أوسلو/ النرويج، ثم دخولها في تفصيلات الحكم الذاتي للضفة والقطاع على أن يتحدد الوضع النهائي خلال خمسة سنوات، ثم دخول الشرطة الفلسطينية مناطق غزة-أريحا وتوليها مهام الأمن فيها، وتشكلت بعدها السلطة الوطنية الفلسطينية في مايو ١٩٩٤م[(٢١٢)].

---

(٢١١) راجع التفاصيل في :غسان حمدان الإنتفاضة *المباركة*، ص ٣٢٧-٣٧٦ .

(٢١٢) أنظر: محسن محمد صالح، د.، *الطريق إلى القدس*، ص١٩٨.

وفي جميع اللقاءات لم يتغير الموقف الإسرائيلي في المضمون مع تغير في العبارات، وكان الإتفاق بارعاً بصياغة تضمن للطرف الصهيوني التفلت من أي التزام مع الفلسطينين.

وجنت من ذلك إسرائيل الكثير ..إنهاء الحرب والتخلي عن السلاح والأهداف..كما أن الإتفاق نقل الصراع إلى داخل الشعب الفلسطيني وأن فئة منهم أصبحت مدافعة عن العدو وأمنه واستقراره[٢١٣].

ثم جاءت إتفاقات طابا في مصر والذي تم توقيعه في البيت الأبيض في ٢٨/ ٥/ ١٩٩٥م استكمالاً لمدريد، واستمرار المفاوضات بشأن اللاجئين والإستيطان والمياه[٢١٤].

إن الصلح الذي أبرم مع إسرائيل من بعض الجهات غير شرعي، وإن عدم الاعتراف بإسرائيل أصل شرعي، وليس موقفاً سياسياً[٢١٥]، وليست هناك جهة ما تملك القضية الفلسطينية وحدها، لأن الأصل «أن سلّم المؤمنين واحدة وحربهم واحدة»، ويجب أن يسود الوعي تجاه القضية، فالوثيقة النبوية التي كتبها الرسول ﷺ في المدينة تقول: «وأن سلم المؤمنين واحدة لايسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم»[٢١٦].

ومنذ دخول الشرطة الفلسطينية وإدارة الحكم الذاتي بدأت معاناة إضافية لوجود معارضة قوية لإتفاقات السلام، وإتفاق السلطة مع إسرائيل بتصفية المعارضة ومن هنا برزت حركة المقاومة (حماس) للجهاد ورافق ذلك الحركات الإسلامية والصحوة في البلاد العربية والإسلامية[٢١٧]، فبدأت الاحتكاكات نتيجة قيام الحركات بأعمال ضد اسرائيل فتقوم السلطة باعتقالات واسعة لرجالها، ومن الأحداث المؤسفة (مجزرة يوم الجمعة الأسود) التي ارتكبتها الشرطة الفلسطينية ضد المصلين الذين كانوا ينوون الخروج بمسيرة سلمية بعدصلاة الجمعة في مسجد فلسطين بغزة مما أدى إلى استشهاد (١٣) مصلياً وجرح أكثر من (٢٠٠) وذلك في ١٨/ ١١/ ١٩٩٤م لإثبات جدارة السلطة في قمع المعارضة[٢١٨].

---

(٢١٣) أنظر : نص الاتفاقيات في *المجتمع* عدد (١٢٠٩)، ٢٩يوليو ١٩٩٦،ص ٤٤-٤٦.

(٢١٤) أنظر: وثيقة نتائج طابا في مجلة: *قضايا دولية*، عدد(٢٩٥)، ٢٨/٨-٣/ ٩/ ١٩٩٥، اسلام أباد، باكستان، ص٤-٥.

(٢١٥) راجع القرضاوي، *لقاء مع القرضاوي المجتمع* عدد(١٢٠٢)في ٤/ ٦/ ١٩٩٦م، ص٣٤-٣٥.

(٢١٦) العمري، أكرم، *السيرة النبوية الصحيحة*، ج١ص٢٨٣، أورد نص الصحيفة النبوية من كتاب «مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة» للدكتور محمد حميد الله،ص٤١-٤٧.

(٢١٧) من ذلك: نجاح الإنقلاب الإسلامي في السودان سنة ١٩٨٩، وفي انتخابات الجزائر ١٩٩١، وطرد المجاهدين الأفغان للروس وانتخابات الاردن في ١٩٨٩و١٩٩٣، وفي اليمن١٩٩٣.

(٢١٨) راجع: محسن محمد صالح، *الطريق إلى القدس*، ص٢٠٤-٢٠٥.

ومع دخول التسوية مرحلة التنفيذ واجه المجاهدون ألواناً أخرى من المحنة والإبتلاء حيث أصبح الفلسطينيون -علاوة على اسرائيل- تحت قمع السلطة واضطهادها فازدادت الأحوال سوءً، لأنها وجهت كل الموارد والطاقات لبناء الأجهزة الأمنية وتسليحها لملاحقة المعارضين والمقاومين فحققت ما عجزت عنه اسرائيل طوال الاحتلال، في الوقت الذي عجزت السلطة عن حماية شعبها(٢١٩).

ومرت أعوام على الاتفاق الذي وعِد فيه الفلسطينيون بالرخاء الاقتصادي فإذا بالضفة والقطاع قد أصبحت مناطق منكوبة مهددة بالمجاعة، لإرتفاع الأسعار وتزايد البطالة حيث وصلت في بعض المناطق إلى ٧٨٪ مع إنخفاض الدخل للفرد، واحجام المستثمرين عن استثمار أموالهم التي في الخارج داخل فلسطين(٢٢٠)، زد على ذلك إهدار المال من قبل المسؤلين في السلطة وحصول اسرائيل على ٨٥٪ من المساعدات الدولية لمرورها بالمصارف الإسرائيلية، فضلاً عن شراءالمواد الأساسية من أسواقها علماً بأن المساعدات مرتبطة بإقدام السلطة على ضرب المقاومة والاستمرار بعملية التسوية، هذا عدا الضرائب التي تصل إلى ٥٠٪ من دخل الفرد، لهذا كشف تقرير أمني عن ارتفاع حالات الإنتحاريين الفلسطينين حيث بلغت المحاولات في عام ١٩٩٧م (٩٢) شخصاً والذي قبله (٩٩) شخصاً(٢٢١).

خطر إسرائيل على العالم الإسلامي:

ومن أبرز المحن التي تهز مشاعر المسلمين إعلان الصهاينة أن القدس العاصمة الأبدية لإسرائيل، ومباركة أمريكا لهذا القرار، علماً بأنها عملت منذ احتلالها عام ١٩٦٧ على تهويد المدينة وإزالة كل أثر إسلامي، وكانت الحلقة الأخيرة من مسلسل تهويد القدس هو بناء مستوطنة (هارحوما) في جبل أبو غنيم جنوب شرقي القدس والتي تضم (٦٥٠٠) وحدة سكنية لاستيعاب (٢٧) ألف مستوطن، وقد سبق ذلك مشاريع كثيرة حول المدينة وفي داخلها، بل وبناء وحدات سكنية داخل الأحياء العربية خلافاً لقرارت الأمم المتحدة، وهذا يعني أن (١٥٥) ألف فلسطيني في القدس عليهم أن يحملوا الجنسية الإسرائيلية وإلا حرموا من حقوقهم، وفي نفس الوقت تمنع أصحابها الفلسطينيين من بناء منزل واحد أو ترميم

(٢١٩) راجع أعمال الشرطة الفلسطينية ضد المعارضين وتوفير الأمن لاسرائيل في: *المجتمع* عدد(١٢٠٥)، ١يوليو١٩٩٦، ص٢٤-٢٩.

(٢٢٠) راجع: *المجتمع* عدد(١٢٠٧)، ١٥يوليو١٩٩٦، ص٢٨-٢٩.

(٢٢١) المجتمع ، العدد(١٢٥٣) يونيو١٩٩٧، ص٢١-٢٢.

ما يحتاج إلى ترميم، علماً -كما تثبت الوثائق- أن غالبية الأراضي المصادرة ملك خاص للفلسطينين، وقد بلغ إجمالي الوحدات السكنية في القدس (٣٨٥٠٠) لحد الآن..

كما أصبح المسجد الأقصى على مدى الأعوام الماضية ساحة حرب ومواجهات العدو -جنوداً ومستوطنين- وبين المسلمين والمصلين، غير أن أخطر ما يهدف إليه اليهود هو المحاولات الجارية لإقامة الهيكل الثالث على أنقاض المسجد الأقصى، وهو حلم توراتي راسخ في أذهان اليهود يعملون على تنفيذه تدريجياً بهدوء تحت سمع العالم وبصره[٢٢٢]، كما تم حفر نفق زعموا أنه (سياحي) قريباً من أساس الأقصى لزعزعته، وفي يوم افتتاحه حصلت مواجهات دامت أربعة أيام، استشهد خلالها أكثر من سبعين فلسطيناً وجرح أكثر من (١٥٠٠)، كما تفيد التقارير أن أنفاقاً أخرى على وشك الإنتهاء تمر تحت الأقصى[٢٢٣].

كما أدعى اليهود ظهور (البقرة الحمراء) في ضواحي تل أبيب، وهي في زعمهم من علامات بناء الهيكل مع نشاطات وخطط لذلك منها إقامة قرية لتربية أطفال كهنة يهود في الجزء الشرقي من القدس لتحضيرهم ليكونوا مؤهلين مستقبلاً للإشراف على طقوس ذبح القرابين بعد إعادة بناء الهيكل مع تبرعات سخية وأموال محفوظة وودائع مخصصة لهذا الغرض[٢٢٤].

إن الخطر الاسرائيلي اليوم لايهدد فلسطين فقط بل جميع المنطقة، فقد وقعت على لبنان مجازر كثيرة آخرها (مجزرة قانا) كما مر، بدعوى ضرب حزب الله، واستمر القصف (١٥) يوماً دون استثناء لمكان راح ضحيته الكثير من المدنيين، وحتى بعد هروبهم إلى ملاجئ الأمم المتحدة لكنهم لم ينجوا من القصف[٢٢٥]. أما الخطر الإسرائيلي غير العسكري مع من عقدت معهم اتفاقيات السلام فهو أشد وأعظم، لتدمير اقتصادهم وتصدير المخدرات والفساد والأمراض إليهم، وشبكات التجسس، والأخطر من ذلك هو تهديد إسرائيل لذلك، في الوقت الذي تضغط على الدول الإسلامية للمصادقة على اتفاقية الحد من انتشار الأسلحة النووية، وتستثني إسرائيل من أي مراقبة وتفتيش[٢٢٦].

---

(٢٢٢) ومن دلائل تواطؤ العالم العربي معهم على ذلك هو تقديم رئيس وزرائهم (نتنياهو) لأحد الاساقفة الزائرين هدية عبارة عن مجسم للهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.. راجع محمود الخطيب، *مجلة المجتمع* العدد(١٢٤١) مارس١٩٩٧، ص٢٠-٢٣.

(٢٢٣) محمود الخطيب، المرجع السابق.

(٢٢٤) أنظر : *المجتمع العدد*(١٢٩١)، ١٠-١٦مارس١٩٩٨، ص ١٨.

(٢٢٥) أنظر: *المجتمع* العدد (١١٩٨)، ٦مايو١٩٩٦، ص٢٤-٢٦، والعدد (١١٩٩)،٢٠مايو١٩٩٦،ص٨.

(٢٢٦) قال مسؤل أمريكي:إننا لن نضغط على اسرائيل للتوقيع على معاهدة حظر انتشار السلاح النووي،=

ولازالت اسرائيل تماطل -رغم التنازلات- في إعطاء أدنى الحقوق لأهل فلسطين لأن النية مبيتة لإجلاء آخر فلسطيني منها، وما المحادثات إلا مجرد كسب الوقت وإلهاء الطرف الآخر لكي تحقق أهدافها، وعلى هذا فقد خابت مساعي السلام والذين يصدقونهم من المسلمين ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿**فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين**﴾(٢٢٧)، وذلك لأنه مهما بلغت قوة العدو فهو كيان هش مصطنع يستمد بقاءه من الخارج سواء بالقوة البشرية أو بالأسلحة المتطورة، فمستقبل الصهيونية مرتبط بالنظام العالمي الجديد، وليس له مستقبل مستقل،كما لم يكن له ماضي أوحاضر مستقل.. هذا بالإضافة إلى أن المجتمع الإسرائيلي غير متجانس، قابل للخلافات، مما يؤدي عند اطمئنانهم لزوال الخطر الخارجي إلى نزاعات تؤدي إلى تفككه..

ولهذا فعلى المسلمين أن لاييئسوا، للمبالغة والتهويل لقدرات العدو، بل لابد من الثقة بنصر الله مع العمل والجهاد، وإعداد القوة، وقد ذكر وعد الله على لسان رسوله الكريم، حيث قال: «لاتقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يامسلم، ياعبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»(٢٢٨).

كما أشار القرآن الكريم إلى استعلاء بني اسرائيل وفسادهم في الأرض مرتين، وقد جاء الوعد الأول بالسبي البابلي، والذي أشار إليه القرآن: ﴿**وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً**﴾(٢٢٩)،مما ذكره المفسرون ومنهم القرطبي(٢٣٠)، وهناك رأي آخر رجحه الدكتور وهاب محمد صالح(٢٣١)،

=وإن كنا نود أنفعل، ولكننا ندرك ونتفهم الوضع الخاص لها حيث أن جيرانها سيبذلون قصارى جهدهم لابادتها، راجع : *المجتمع* العدد(١١٩٥)، ١٥أبريل١٩٩٦، ص٢٨.

(٢٢٧) المائدة ٥: ٥٢.

(٢٢٨) سبق تخريجه في علامات الساعة، ومن الغريب-كما يروي الفلسطينيون- أن اليهود يؤمنون بهذا الحديث فيكثرون من زراعة شجر الغرقد وخصوصاً حول بيوتهم!!.

(٢٢٩) الاسراء ١٧: ٤-٥.

(٢٣٠) راجع : الأقوال في الجامع لأحكام القرآن ج١٠،ص١٩٤-١٩٥.

(٢٣١) راجع :وهاب محمد صالح، دكتور، موقف *أهل الكتاب من الرسول والقرآن الكريم في القرن الأول الهجري١٩٧٩*، (رسالة ماجستير) من جامعة الأزهر، كلية أصول الدين، قسم التفسير، ص١٣-١٥، والرأي في الأصل لعبد الرحيم فودة.

ويذهب إلى أن المسلطين على بني اسرائيل في المرتين هم المسلمون، والأولى في زمن عمر بن الخطاب حين فتح القدس المسلمون، ودليلهم قوله تعالى: ﴿عباداً لنا﴾، وهي تشعر بأن المراد هم المسلمون المشرفون بعبادته والانتساب إليه، ويعرفون بقوة البأس والشدة. وعسى أن يكون الوعد الثاني على يد المسلمين المشار إليهم في الحديث النبوي، وبعد أن تتحقق عبوديتهم لله بكل مقتضياتها وهو ما يفهم من الحديث: يا مسلم..يا عبد الله ...

ونحن نشهد في الأيام الأخيرة ذكرى مرور خمسين عاماً على اغتصاب فلسطين، واحتفال اليهود والعالم الغربي بذلك.. مع حرص الأفلام الوثائقية عبر التلفاز وغيره على إبراز اسرائيل بمظهر الدولة التي لاتقهر، وما ذاك إلا ليصاب العرب خاصة والمسلمون عامة بالاحباط واليأس والرضى بالواقع وكأنه قدر لامفرّ منه، بدليل تجاهل هذه الأفلام كفاح ونضال الفلسطينين للعدو ومقاومتهم.. وكل ذلك قاله الجبابرة قبلهم كما أشار القرآن : **﴿... من أشد منا قوة؟﴾** فجاءهم الجواب: **﴿أولم يرو أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾**[٢٣٢]، ولاينبغي أن يدخل اليأس في قلوب المسلمين لتعالي اليهود وإفسادهم في الوقت الحاضر، بل يقتدوا بالصحابة ﷺ في الشدائد كما حدث لهم وهم يحفرون الخندق، والعدو يحيط بهم من كل جانب، ففي تلك الحال بشرهم رسول الله بملك فارس والروم، ونحن كذلك يذكرنا القرآن بقوله : «وإن عدتم عدنا» أي كلما عاد بنوا اسرائيل إلى الإفساد عاد الله عليهم بمن يذلهم، وقد حكم الله عليهم بالذل، وما فيه العدو اليوم استثناء لقوله تعالى : **﴿ضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس..﴾**[٢٣٣] وإلا تعني الاستثناء، والاستثناء يعني عدم الدوام، ثم يعود الأصل وهو قوله تعالى: **﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾**[٢٣٤]، واليهود يعرفون ذلك جيداً[٢٣٥]، ولكن البشريات هذه لن تتحقق إلا بشروط أهمها : العلم والعمل وإعداد القوة والتقوى لأن كون القضية حق لايكفي، فلا بدّ للحق من قوة تنصره، والله غالب على أمره، ونصر الله آت لامحالة، وعسى أن يكون قريباً..

---

(٢٣٢) فصلت ٤١: ١٥.

(٢٣٣) آل عمران ٣: ١١٢.

(٢٣٤) الاعراف ٧: ١٦٧.

(٢٣٥) راجع القرضاوي، لقاء مع القرضاوي، *مجلة المجتمع* العدد(١٢٠٢)، في ١٩٩٦/٦/٤، ص٣٤-٣٥، وفيه ذكر أن بعض العرب قالوا لموشي ديان أنه هناك بشائر الانتصار عليكم، فقال ونحن عندنا أيضاً أشياء تدل علىأن هذا لن يدوم لنا ولكن ليس جيلكم الذي سينتصر علينا

ثانياً: محنة المسلمين في يوغسلافيا (البوسنة والهرسك) (Bosnia-Herzegovina)

تقع جمهوريات يوغسلافيا (Yugoslavia) في جنوب وسط أوربا، وفي الجزء الغربي من شبه جزيرة البلقان، على الساحل الشرقي لبحر الأدرياتيك، وتضم ست جمهوريات: صربيا (Serbia)، والبوسنة والهرسك (Bosnia-Herzegovina)، وكرواتيا (Croatia)، ومقدونيا (Macedonia)، وسلوفينيا (Slovenia)، والجبل الأسود، فضلاً عن إقليمين يتمتعان بالحكم الذاتي وهما: كوسوفو (Kosovo) (قوصوه)، وفويفودينا التابعان لصربيا[٢٣٦].

انتشرت فيها النصرانية عن طريق روما، وعندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٩٥م وصلتهم النصرانية عن طريق القسطنطينية.

وصول الإسلام إلى يوغسلافيا:

دخل الإسلام إليها في نهايةالقرن التاسع الميلادي وأواخر القرن الرابع الهجري على أيدي تجار دعاة، وأقبل عليه الكثير من تلك الديار، وتمت بينهم وبين العواصم الإسلامية زيارات علمية، وبدأت علاقات الإسلام بأوُربا الشرقية إثر فتح المسلمين لجزيرة صقلية، وقد وصل عدد من مسلمي المجر إلى أقليم البوسنة وكانوا نواة المسلمين هناك وذلك لأنهم وجدوا طائفة مسيحية (وهم البشناق) مختلفة مع الكنيسة ويطلق عليهم "البوجوميل" أي أحباء الله، والذين أسلموا فيما بعد[٢٣٧].

وقبيل الفتح العثماني وبتحريض من البابا كانت تحالفات صليبية اشتركت فيها البوسنة ضد الدولة العثمانية، اتجهت أولها إلى أدرنة لكن العثمانيين انتصروا عليهم، كما استطاع السلطان مراد الأول الانتصار على تحالف آخر في «قوصوة» (Kosovo) أي كوسوفو واستشهد فيها سنة ١٣٨٩م كما أفشل السلطان بايزيد (الصاعقة) تحالفاً آخر في معركة «ني بولي» سنة ١٣٩٦ ،وأكمل السلطان مرادالثاني فتوحات البلقان وتوغل في فرهبوسنة سنة ١٤٥١م وبنى بها جامع السلطان مراد والذي دمره الصرب في الحرب الأخيرة[٢٣٨].

---

(٢٣٦) راجع: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت سنة ١٩٨٨م ج ٢٢ ص ٤٥٤-٤٥٥، والمصري جميل، ج٢ ص٦٣١، وصابر طعيمة، محنة الأقليات الإسلامية والواجب نحوها، دار الجيل بيروت ١٩٨٨م ص ١٣٦.

(٢٣٧) راجع: صابر طعيمة، ص ١٣٨-١٣٩، والأرناؤوط محمد، *الإسلام في يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو*، دار البشير، عمان سنة ١٩٩٣م ص ١٦٢.

(٢٣٨) راجع: محمد حرب، *البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة*، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة سنة ١٩٩٣م ص ٢١-٣٢، ومحمود شاكر ص ٢١-٣٢.

الفتح العثماني للبوسنة والهرسك

كان لفتح القسطنطينية (Constaintiople) على يد محمد الفاتح دعوة لحرب صليبية تحمس لها ملك البوسنة وامتنع عن دفع الخراج وألقى برسل الفاتح في السجن، فاستعد الفاتح بجيش عدده ١٥٠ ألف جندي، وتوجه للبوسنة فخضعت له جميع بلاد البشناق وقدمت له المدن المهمة مفاتيحها، وأسلم أغلب أهلها وأشرافهم وطبق عليهم النظام الإداري العثماني وذلك سنة ١٤٦٣م/ ٨٦٨هـ[٢٣٩]، وارتاح بذلك البوغوميليون من اضطهاد الكنيستين الشرقية والغربية، حيث كانت لهم كنيستهم المستقلة (البوشناقية)، أو البوجوميلية، ومذهبهم قريب من الإسلام لأنهم «يرفضون مبدأ النزاع بين الروح والمادة، ويرفضون أكثر ما نقله المسيحيون عن العهد القديم، كما يرفضون تقديس البشر وعبادة الصليب وجل الطقوس المسيحية، بما في ذلك التعميد...ولا يعترفون بألوهية المسيح»[٢٤٠].

وقد دخلت الهرسك بعد أربع سنوات تحت الإدارة العثمانية[٢٤١] وفي غضون نصف قرن صار أصل البوسنة والهرسك مسلمين طواعية وتشكل شعب جديد، وخلال قرن أصبح شعباً جديداً متميزاً -وإن كان يضم أعراقاً مختلفة- عن غيره في تقاليده التي تنسجم مع الإسلام، كما دخلت المفردات العربية والتركية إليهم ونظروا إلى الدولة العثمانية على أنها دولتهم[٢٤٢].

كما تميزت مدنهم بطابعها الإسلامي الشرقي كمساجدها وأسواقها وحماماتها.. وخصوصاً سراييفو أو (سراي بوسنة) أي مقر الحكومة، ونشطت الحركة الدينية والثقافية، وكان من آثار التسامح إقبال كثير من المسيحيين على الإسلام، وتبوأ أشراف البوسنة مناصب عالية في الدولة العثمانية[٢٤٣].

واستطاع الفاتح خلال عشر سنوات من السيطرة على كل دول البلقان عدا بلغراد (Belgrade) التي تمكن السلطان سليمان القانوني من فتحها عام ١٥٢١م/ ٩٢٧هـ[٢٤٤].

---

(٢٣٩) راجع: محمد حرب ص٢١، والعسلي بسام ص٢٥.

(٢٤٠) الكتاني، علي، *المسلمون في أوربا وأمريكا* ج١ ص ١١٧-١١٩ نقلاً عن محمد حرب ص ٢٣، والأرناؤوط محمد، ص١٥٨-١٦٢.

(٢٤١)راجع محمود شاكر ٤٥٦، والمصري، جميل ج٢ ص ٦٣٢.

(٢٤٢) راجع الأرناؤوط، محمد ص ١٦٤-١٦٥.

(٢٤٣) راجع صابر طعيمة ص ١٣٩، وانظر في محمد حرب، عدداً من الذين تقلدوا مناصب عالية ص ٤٥-٥٩

(٢٤٤) راجع محمد حرب ص ٢٣-٢٤، والأرناؤوط، محمد ص٢٣-٢٤.

وبعد هزيمة الدولة العثمانية أمام فينا (Vienna) انتقلت إلى موقف الدفاع بدل الهجوم سنة١٦٨٣م وجرى اتفاق بين روسيا والنمسا (Austria & Russia) عام ١٧٨٧م بتقسيم الدولة العثمانية فتمرد الصرب سنة ١٨٠٦م، وقاموا بمذابح وحشية ضد المسلمين وقاموا بانتفاضة عام ١٨٣١م حوصر المسلمون فيها وخصوصاً النساء داخل الجوامع ومنع عنهم الطعام(٢٤٥).ثم توالت مؤتمرات أوربا في حالة ضعف الدولة العثمانية بما يعرف بالمسألة الشرقيةمع تحريض روسيا (Russia) للمتمردين وإمدادهم بالسلاح، ونشر الدعاية الكاذبة ضد العثمانيين، وحلت المأساة حين أعلنت روسيا الحرب ووصلت قرب ضواحي إستانبول وفرضت على الباب العالي صلحاً ذليلاً، ثم جاء مؤتمر برلين (Berlin) عام ١٨٧٨م فنالت كل من صربيا والجبل الأسود وبلغاريا ورومانيا استقلالها، وبقيت البوسنة والهرسك تحت الحاكمية العثمانية وانتداب النمسا والمجر (Majorea) (Austria٢٤٦، فحاول أهلها – إزاء عجز العثمانيين- المقاومة المستميتة ولكن تمكن الجيش المجري من السيطرة عليها، فهاجر الكثير من المسلمين وتعرض من بقي لأصناف الابتلاء.

وفي سنة ١٩٠٨م أعلن إمبراطور النمسا عن إلحاق البوسنة والهرسك ببلاده، وتم التصديق على ذلك في إستانبول سنة ١٩٠٩م في وقت كان زمام الحكم بيد جمعية الإتحاد والترقي (Community of Unity & Progress) بعد أن أسقط السلطان عبد الحميد (رحمه الله)، وقد رافق ذلك إحتجاجات في إستانبول تندد ببيع حكومة الإتحاد والترقي للبوسنة والهرسك للكفار، كما صُدم مسلمو البوسنة بذلك وقدموا مذكرة احتجاج عن بيعهم مقابل مليونين ونصف مليون جنيه فقط(٢٤٧).

توالت هجرة المسلمين حين وجدوا أنفسهم تحت رعاية دولة مسيحية حيث وصل عددهم من ١٦٠ إلى٣٠٠ ألف، وكانت صدمة كبار السن كبيرة حيث اعتصموا في بيوتهم إلى أن حلّ أجلهم كي لا يروا الكفار في المدينة(٢٤٨).

وقد مارس الحكم النمساوي ضدهم القتل والتشريد والتنصير، وشجعوا من جهة أخرى على استقدام النصارى الكاثوليك (Catholic) إلى البوسنة، كما تعرضت المساجد للهدم، فثاروا في سنة ١٨٩٩م بزعامة فهمي جانيش وانضم إليهم الصرب الأُرثودكس (Orthodox) فحصلوا على الحكم الذاتي في الأُمور الدينية سنة ١٩٠٩م(٢٤٩).

---

(٢٤٥) انظر التفاصيل في الأرناووط ص ٨٣-٨٦.

(٢٤٦) راجع محمد حرب ٦٣-٧٢، والأرناووط ١٨٢-١٨٣، والعسلي، بسام ٤٣،٤٧، ٥٠.

(٢٤٧) انظر *المذكرة* صابر طعمة ص ١٤٠.

(٢٤٨) راجع الأرناووط، محمد ص ١٨٥-١٨٦، ١٨٩.

(٢٤٩) المصري، جميل، ج٢ ص ٣٦٢ والمصدر السابق ص ١٨٧-١٨٨.

حالة المسلمين بين الحربين العالميتين:

خسرت النمسا والمجر في الحرب العالمية الأُولى وتأسست الدولة اليوغسلافية، وبعد أن فرح المسلمون لخلاصهم من النمسا غدر بهم الأرثوذكس وصادروا أراضيهم تحت شعار الإصلاح الزراعي، ودخل الصرب البوسنة ولاحقوا المسلمين بحملة دموية، ودمروا المدارس والمساجد ولم يبق في بلغراد إلا مسجدان ورفعوا شعار «هاجروا إلى آسيا، والأتراك إلى آسيا»(٢٥٠)، وهدفهم هو التشكيك في شرعية وجودهم، والضغط عليهم بالعودة للنصرانية، حتى قالت إحدى صحفهم: «إن اعتناق الإسلام في البوسنة هو لطخة عار على الجبين الصربي»(٢٥١).

كما أهملت المملكة الجديدة الوجود الإسلامي، واتبعت معهم التصفية الجذرية، وتم عام ١٩١٩م تأسيس «الحزب الإسلامي اليوغسلافي» بقيادة محمد سباهو، وتضامن المسلمون وقلت الهجرة وبعد أن توج الملك الكسندر الأول زاد اضطهاد المسلمين وتم عام ١٩١٩م مصادرة جميع أراضي المسلمين في البوسنة وجرت عام ١٩٢٤م مذابح لقرى كاملة وهاجر من بقي منهم(٢٥٢).

وفي سنة ١٩٣٤م عُقدت معاهدة بين يوغسلافيا وتركيا لتهجير مسلمي يوغسلافيا إليها لقاء تعويضات مالية، ولم ينفذ القرار لإصرار المسلمين على عدم ترك أراضيهم، وفي عام ١٩٣٩م وضعت يوغسلافيا خطة لتهجير ٤٠ ألف عائلة عام ١٩٤٣م، ومنع ذلك قيام الحرب العالمية الثانية والتي أُبتلي فيها المسلمون من الطرفين الكاثوليكي والأرثوذكسي، ففي الوقت الذي كان الرجال المسلمون يدافعون عن بلدهم، وقعت مجازر لعوائلهم بوحشية لم يحصل لها مثيل(٢٥٣).

مسلموا يوغسلافيا في ظل الحكم الشيوعي:

بعد الحرب العالمية الثانية سيطر الحزب الشيوعي (Communism Party) على البلاد، وتم تأسيس جمهورية البوسنة والهرسك سنة ١٩٤٣م على قدم المساواة مع بقية الجمهوريات(٢٥٤). وسادت موجة عنيفة ضد المسلمين باسم محاربة الأديان فقتل منهم

---

(٢٥٠) محمد حرب ص ٧٥-٧٦، والمصري، جميل ج٢ ص ٦٣٣.

(٢٥١) الأرناوؤط، محمد ص ١٩٥.

(٢٥٢) العسلي، بسام ص ٥٦.

(٢٥٣) محمد حرب، ص٧٨-٧٩ وراجع بعض الحوادث المفجعة في: العسلي، بسام ص ٥٧-٥٩.

(٢٥٤) راجع عبد الله إسماتيش، *الصراع في يوغسلافيا ومستقبل المسلمين*، معهد الدراسات السياسية، إسلام أباد سنة ١٩٩٢م ص ٥٩، ترجمة صائب علاوي.

بعد الحرب مباشرة ٢٤ ألفاً، كما قتل مفتي كرواتيا (Croatia) وحكم على الزعماء الألبان بالإعدام، كما قام نظام تيتو بهدم أغلب المساجد وتحويلها إلى متاحف فقد كان في البوسنة والهرسك ١٧٠ ألف مسجدمنها ٨٧٠ في سرايفو (Sarajevo)، وكان في بلغراد ٢٧٠ مسجداً هدمت جميعها عدا واحد، وأغلقت كلية التربية في سراييفو وجميع المدارس عدا واحدة للدعاية[٢٥٥] ثم أُلغي قانون المحاكم الشرعية وصودرت الأوقاف الإسلامية وكل الأنشطة، وأصبح التعليم حسب المبادئ الاشتراكية، ولكن المسلمين لم يستسلموا وإن كان طابع المواجهة لم يتخذ العنف، ومع صدور قانون عام ١٩٥٣م المنظم للطوائف الدينية لم يتح للمسلمين ممارسة حقوقهم الحقيقية[٢٥٦].

وأمام تلك المحن كانت الخيارات أمام المسلمين: إما الهجرة التي تشجع عليها الحكومة، أو الجهاد والوصول للتصفية، أوالإرتداد، وأخيراً الإحتفاظ بالإسلام ديناً وعقيدة وانتماءً في القلوب، لايجهر به إلا في الحد المسموح به وهو الخيار الذي أخذ به معظم المسلمين هناك[٢٥٧].

وبعد اضطهاد استمر حتى سنة ١٩٧٣ استقر حال المسلمين، واعترفت بهم الحكومة قوميةً ودولةمع الإعتراف بحرية الأديان سنة ١٩٧٤م[٢٥٨]. فنالوا حرية العبادة وبناء المساجد والمدارس وطبع الكتب الإسلامية، كما أُعيدت لهم بعض المدارس والمساجد وأُنشئ إتحاد إسلامي يرأسه كبير العلماء في عواصم يوغسلافيا[٢٥٩]، وكان تحسن أوضاع المسلمين، وتعزيز التعاون بين البلاد العربية والإسلامية خلال السبعينيات والتي أدت إلى انتعاش الإسلام من القضايا التي استغلتها المعارضة ضد «تيتو» (Tito)، كما ضخم الإعلام الخطر من الإسلام، وأدت تلك الحملة إلى محاكمة سراييفو للمثقفين المسلمين أو «الأُصوليين المسلمين» وهي قضية مفتعلة[٢٦٠].

---

(٢٥٥) انظر التفاصيل محمود شاكر ص ٢٢٥، ٤٥٧، ٤٥٨.

(٢٥٦) راجع: صابر طعيمة ص ١٤٣، ١٤٧-١٤٨.

(٢٥٧) العسلي بسام ص ٥٨.

(٢٥٨) راجع محمد حرب ص ٨٢.

(٢٥٩) المصري، جميل ج ٢ ص٦٣٤-٦٣٥.

(٢٦٠) شملت المحاكمة (١٢) مثقفاً منهم الرئيس علي عزت بيجوفيتش بتهمة التحريض على السلطة وحكم عليه في ١٤/ ٣/ ١٩٨٤م بالسجن ٩سنوات، وأوضح تقرير لجنة تقصي الحقائق تلفيق الشهادات، راجع الأرناوؤط ص ٢٣٧-٢٣٩.

وكان فتح كلية الشريعة في سراييفو عام ١٩٧٧م -في نظر الأعداء- مصدر الخطر الإسلامي فضلاً عن خوفهم من تزايد عدد المسلمين من ٢٥ الى ٧٥٪ خلال نصف قرن، فاستمر الصرب منذ عام ١٩٨٦م في حملتهم، وعدوا أنفسهم من منقذي أوربا من الإسلام ووجد تحريضهم تجاوباً عند أوربا الغربية، كما استمرت الصحف الرسمية الصربية بالإساءة إلى المسلمين حتى عام ١٩٩٠م(٢٦١).

المأساة العصرية للبوسنة والهرسك

بعد انهيار الشيوعية تفكك الإتحاد اليوغسلافي، وأجرت الجمهوريات انتخابات في سنة ١٩٩٠م وفازت الأحزاب القومية في كل جمهورية، وفي البوسنة والهرسك توجد ثلاث قوميات حصل الحزب الإسلامي على ٣٧٪ والصربي على ٣١٪ و الكرواتي على ١٧٪ وتشكلت الحكومة من الأحزاب الثلاثة كان علي عزت بيجوفيتش رئيسها ثم تلا ذلك استقلال الجمهوريات في ٢٥/ ٦/ ١٩٩١م وهو ما يخالف أحلام الصرب في وراثة الإتحاد المنهار فأعلنوا الحرب على كرواتيا وسليوفينيا، ولم يُترك أمام البوسنة خيار سوى الإنفصال فأعلنت استقلالها عقب إستفتاء شعبي مؤيد لذلك في ٢٩/ ٢/ ١٩٩٢م، وهو شرط أوربي للإعتراف بها وأعلنت الاستقلال في الرابع من مارس(٢٦٢).

قام الصرب أولاً بمهاجمة سلوفينياوانسحبت بقرار مفاجئ بعد ثلاثة أسابيع، ثم قامت المعارك مع كرواتيا وتدخلت أوربا ثم امتدت إلى حدود البوسنة والهرسك، واعترفت أوربا بالجمهوريات المستقلة في ٢/ ١١/ ١٩٩١م مع ارسال ٧٠٠مراقب،ومع ذلك لم تتراجع صربيا عن مخططها فعملت على عرقلة الاستفتاء في البوسنة فسيطروا مسبقا على وسائل الإعلام الداعية لإرهاب المسلمين مع التدمير الإقتصادي لكل من الصرب والكروات للبلاد، كما سرق الصرب الأسلحة من مخازن البوسنة مع وقوف الجيش الإتحادي معهم.

رفض الصرب نتيجة الاستفتاء وأعلنوا إنشاء جمهورية صربية في البوسنة، وأنهكت الحرب الصربية-الكرواتية البوسنة اقتصادياً وعسكرياً وتدفق اللاجئون من القوميات الثلاث،لاستخدام الجيش الفدرالي أرض البوسنة لمهاجمة الكروات ثم سحب القوة كلها بعد توقف الحرب بينهما إلى داخل البوسنة استعداداً للإبادة(٢٦٣).

---

(٢٦١) المصدر السابق ص ٢١٦ ومحمد حرب ص ١٠١.

(٢٦٢) راجع: محمد حرب ص ١٠٦والعسلي بسام ص ٥٥ والأرناؤوط،محمد ص ٢١٤ إلى ٥١٥، وعبدالله إسمايتش ص ٤٦-٥٦.

(٢٦٣) راجع عبد الله إسمايتش ص ١٣٥-١٦٣، محمد حرب ص ١١٠-١١١، ١١٤.

وأما الكروات فكانت مواقفهم مراوغة للمسلمين، وتبقى ملة الكفر واحدة تجاه المسلمين فهم ظاهرياً مع المسلمين ويتفقون سراً مع الصرب على إقتسام البوسنة حيث أعلن الكروات عشية الاستفتاء وقوفهم مع الصرب في قضية التقسيم. ومع ذلك تم الاستفتاء وصوت الأغلبية للاستقلال[٢٦٤].

وبدأت الحرب أثناء الاستفتاء عن تخطيط دقيق أُعد من قبل. وكانت البداية في مدينة موستار وخلال شهر دخلت كل المدن، خلالها أعترفت أوربا وأمريكا بدولة البوسنة والهرسك في ٦/ ٤/ ١٩٩٢م فأعلن الصرب في يوم استقلالها مع الإستمرار بالحرب الدموية، وتعرضت كل المدن للقصف المتواصل، ومع نهاية مايو ١٩٩٤م تحولت إلى أكثر الحروب دموية منذ الحرب العالمية الثانية كما وصفها المراقبون الأوربيون.[٢٦٥]وبعد أن نجح الأعداء في تغيير البنية السكانية بدأت خطة التقسيم بين الصرب والكروات، واجتماعهم بالنمسا وإعلان ذلك في أغسطس ١٩٩٢م جزءاً من الحرب النفسية.

أثبتت كل وسائل الإعلام العالمية والتقارير الدولية وحشية ما جرى على أرض البوسنة والذي يعبر عن مدى الفتنة والمحنة التي أُبتلي بها شعب ليس له ذنب سوى أنه «مسلم» حاول أن يحافظ على هويته الإسلامية.. وتمثل ذلك في أمور كثيرة منها:

أولاً: الحصار المحكم بكل أشكاله، والذي شمل كل قرية ومدينة وخصوصاً حول العاصمة سراييفو، كما سبقه الحصار الإعلامي بالسيطرة على وسائل الإعلام ورفع الشعارات المنادية بالتطهير العرقي، مع التكتم عمّا يجري من مجازر، فضلا عن الحصار العسكري بمنع السلاح عن المسلمين، حيث سيطر الصرب في وقت مبكر على معامل الأسلحة وسرقوا ما تبقى من المخازن، وكان الأشد من ذلك الحصار الاقتصادي والذي حصل منذ الحرب الصربية-الكرواتية بشل الحركة التجارية ثم جاء حصار القوات للمدن والقرى ومنع دخول الغذاء من المنظمات الدولية وخصوصاً بعد غلق مطار سراييفو. حيث جُعل (٣٠٠) الف شخص في عزلة عن العالم مع نفاد الغذاء والدواء وقلة الماء، علماً بأن المصادر البوسنية كانت تنذر منذ يناير ١٩٩٢م بأن مخزونها من الغذاء لن يدوم أكثر من شهر أو شهرين[٢٦٦]، وكانت طوابير البوسنين تتعرض للقصف وهي تأخذ قليلاً

---

(٢٦٤) راجع عبد الله اسمايتش ص ١٦٧-١٨٨

(٢٦٥) المصدر السابق ص ١٨٠-٢١٣.

(٢٦٦) راجع عبد الله إسمايتش ص ٢١٣.

من الماء، وكان الكروات أحياناً يكملون دور الصرب باقتطاع جزء من مساعدات الإغاثة الإسلامية للمهاجرين عندهم ومصادرة شحنات الأسلحة وهكذا شأن الأعداء «بعضهم أولياء بعض.. »[٢٦٧].

ثانياً: التهجير والتطهير العرقي فقد هاجر الكثير من البوسنة خلال الحرب الصربية-الكرواتية حيث وصل عددهم في منتصف أيار ١٩٩٢م حسب إحصائية الأمم المتحدة إلى (٧٥٠) ألفاً عدا المهاجرين خارج الأراضي اليوغسلافية وكذلك الذين لم يتم تسجيلهم[٢٦٨]ووصل في نهاية عام ١٩٩٢م إلى (١١٩٧٠٠٠)[٢٦٩] كما وصلت عام ١٩٩٣م حسب المصادر البوسنية إلى مليونين، وقد اتبع الصرب أساليب شتى لإجبار هؤلاء على الهجرة وهو ما يسمى «**التطهير العرقي**» ولاشك أن التهجير والإكراه على ترك الديار من البلاء العظيم الذي قرنه القرآن بقتل الأنفس في ثقل التنفيذ فقال: «ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ منهم»[٢٧٠] وقرن أيضاً بين الإخراج من الديار والإخراج من الأبناء،وكلاهما يستوجب الجهاد فقال: «وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا»[٢٧١]،والأشد من التهجير تشريدالأطفال حيث ذكر تقرير «أن ٣٠٠ ألف طفل في سراييفو وحلها مشردون... »[٢٧٢]وآخر يقول: «إن ٥٠ ألف طفل ينقلون من البوسنة والهرسك إلى مقدونيا... »[٢٧٣] وأن« ٢٠ ألف طفل مسلم بوسنوي يعيشون في ظلمات أوربا الآن»[٢٧٤]حيث ينقل الغرب هؤلاء الأطفال إلى دولهم ليتم تنصيرهم.

ثالثاً: القتل الجماعي والمذابح البشرية فإن ما حصل على أرض البوسنة هو مجزرة صليبية، وقد وجه وزير خارجية البوسنة حارث نداءً إلى المجتمع الدولي وصف ما حدث

---

(٢٦٧) المائدة ٥:٥١

(٢٦٨) راجع المصدر السابق ٢١١.

(٢٦٩) مجلة الحكمة، العدد الثالث ص ٣٠٦-٣٠٧. بحث: سيد عبد المجيد بكر، *الأقلية المسلمة في يوغسلافيا سابقا.*

(٢٧٠) النساء ٤/٦٦.

(٢٧١) البقرة ٢/٢٤٦.

(٢٧٢) سيد عبد المجيد بكر، *مجلة الحكمة* عدد٣ ص ٣٠٦ نقلاً عن عدة صحف ومجلات.

(٢٧٣) محمد حرب، ص ١٣٨ وانظر الأرقام المذهلة التي ذكرتها 'الحياة الدولية' ص ١٤٢-١٤٣.

(٢٧٤) المصدر السابق ١٩٢.

«بأنه أشبه ما يكون بسلخانه لذبح البشر بدلاً من الماشية»[٢٧٥] فقد ساق الصرب الألآف إلى معسكرات الإعتقال ثم حولت المعسكرات إلى مذابح جماعية، وقد بلغ عدد المعسكرات(١٧٣) معسكراً فيها (١٥٩) من البوسنة، و (١٤) من صربيا والجبل الأسود، ضمت ٢٦٠٠٠٠ شخص نسبة المسلمين ٦٥٪ والباقي من الكروات[٢٧٦].

وقد تفنن الصرب في طريقة القتل فقد دخلوا قصبة براتوتاج المسلحة وأخذوا أفراد العائلات العريقة وتم حرقهم ومات في هذه المجزرة٢٥٠٠ شخص، وقد يترك الصرب من يأسرون جائعين فترة طويلة ثم يذبحوهم بالسكاكين[٢٧٧]وشهد تقرير للهلال الأحمر أن ٣٥٠ مسلماً قتلهم الصرب ودُفنوا في مقبرة جماعية في مدينة موستار[٢٧٨] وتقرير آخر يشهد أن معسكر «أومريكا» قتل فيه ما يقارب ألفين.. كما لم ينج اللاجئون من المطاردة[٢٧٩]مع إقتحام المستشفيات حيث هوجمت مستشفى الأمراض الصدرية في دوبوج وقُبض على نائب كبير الأطباء المسلم وشنق في حديقة المستشفى[٢٨٠].

وفي تقرير مقدم للأُمم المتحدة (United Nations) ذكر فيها المقابر الجماعية للآلاف[٢٨١]، كما شمل القتل الجماعي الأطفال فقد أعلن الرئيس البوسنوي «أن القوات الصربية أخذت ألف طفل مسلم، وأغلقت عليهم أحد الجوامع في العاصمة البوسنوية وأحرقتهم بالغاز»[٢٨٢] كما رفعوا شعار «أُقتلوا الأئمة والعلماء المسلمين» فقتل الشيخ مصطفى مولفانوفيتش الذي قطع رأسه أمام زوجته وأولاده..[٢٨٣].

قصص كثيرة تحكي مأساة القتل الوحشي، مع التمثيل بالجثث ورسم الصليب عليها، كما أن مذابحهم مقرونة بشرب الخمر،... والكنائس أوحت لهؤلاء القتلة أن عملية ذبح المسلم عندما تكون مقرونة بشرب النبيذ -أمر يجلب مرضاة الرب- ... فيقومون بذبح المسلمين وقطع

---

(٢٧٥) المصدر السابق ١٣٧-١٣٨.
(٢٧٦) راجع مجلة الحكمة عدد ٣ ص ٣١٣-٣١٥ وفيه أسماء بعض المعتقلات وعدد المعتقلين.
(٢٧٧) محمد حرب ١٢٦، ١٢٧.
(٢٧٨) المصدر السابق
(٢٧٩) راجع تلك القصص المحزنة في: العسلي، بسام، ص ١٠٨-١٠٩.
(٢٨٠) محمد حرب ص ١١٦، ١٢٤.
(٢٨١) من ذلك قتل ٣٠٠٠مسلم في معسكر واخفاء جثثهم في أحد حظائر الماشية وأُخرى في بوسانسكي برود، راجع *مجلة الحكمة* عدد٣ ص ٣٠٢-٣٠٥.
(٢٨٢) محمد حرب ص ١٣٦.
(٢٨٣) مجلة الحكمة عدد ٣ ص ٣٠٢-٣٠٥، ومحمد حرب ص ١٣٢.

رؤوسهم ويلعبون بها كرة القدم في الشوارع، ويبقرون بطون الحوامل ويضعون القطط الحية مكان الأجنة[٢٨٤] وغير ذلك كثير مما لايتفق مع المبادئ الإنسانية العامة.

رابعاً: إنتهاك الأعراض فإن ما قام به الصرب من عملية إنتهاك الأعراض المنظم هو جزء من التطهير العرقي وسلاح من أسلحة الحرب لتهجير المسلمين من ديارهم، فقد لجأوا إلى إغتصاب المسلمات من عمر ٨-٦٠ سنة، وقد تفاخر الصرب بذلك بالإعلان عن أعدادهن وأعمارهن في بيان كله صلف وغرور دون خجل، وقد بلغ عدد ضحايا الإغتصاب من ٣٥-٤٠ ألف امرأة حتى أواخر عام ١٩٩٣م.. وتتوالى تلك القصص المخزية في الإعلام الأوربي، من ذلك إغتصاب البنات أمام الآباء والأُمهات، والزوجات أمام أزواجهن. وهو بذلك «أداة حرب وليس نتاجاً جانبياً لها»[٢٨٥] وقد أقدم الكثير منهن على الانتحار»[٢٨٦].

وقُدمت بذلك تقارير للأُمم المتحدة من المحققين وكان الصليب الأحمر والذي قال عنه الناطق الرسمي: «إن قراءة التقرير تثير الغثيان»[٢٨٧] وفي تقرير للدكتورة مالكة ماير «إن اغتصاب المسلمات غير ناتج عن الرغبة الجنسية الحيوانية للجنود الصرب، وإنما ناتج عن إستراتيجية حربية وبأوامر مباشرة من القيادة الصربية العليا، كما أن الغرض هو إلحاق العار بالنساء المسلمات»[٢٨٨] وكل هذه التقارير قدمت للأُمم المتحدة، مع استنكار المنظمات لها كمنظمة الصحة العالمية ولكن دون جدوى.. فأين المدافعون عن حقوق الإنسان؟ أم أنها لاتشمل المسلمين!.

خامساً: تدمير المدن والقضاء على التراث الإسلامي حيث لم تسلم مدينة ولاقرية من التدمير فكلها تعرضت للقصف بمختلف الأسلحة فدمرت ٢٣ مدينة، ونالت مدينة سراييفو مالم تنله مدينة أخرى، كما دمر في مدينة موستار كل شئ حتى ملاعب الرياضة والفنادق والمستشفيات[٢٨٩].

---

(٢٨٤) راجع: مجلة الحكمة عدد ٣ ص ٣٠٢.

(٢٨٥) المصدر السابق ص ٣٠٨-٣١١ راجع فيه مزيداً من التقارير.

(٢٨٦) محمد حرب ص ١٤١ عن مقال لفهمي هويدي في الأهرام ٢٩/٩/١٩٩٢م.

(٢٨٧) العسلي، بسام ص ١٦٦.

(٢٨٨) المصدر السابق ص ١٩٢ وهي موفود الأُمم المتحدة ورئيسة مجموعة أطباء الأمراض النسائية، وانظر ١٦٢ إدانة لجنة حقوق الإنسان، ومزيداً من التقارير في الحكمة عدد ٣ ص ٣٠٨-٣١١.

(٢٨٩) انظر تفاصيل المدن والمساجد المدمرة في: *مجلة الحكمة* عدد ٣ ص ٣١٨-٣٢٨، وعن مدينة موستار. راجع محمد حرب ١١٧-١١٨.

وركز القصف على المساجد والآثار الإسلامية حتى مقابر المسلمين، وأهم ممتلكات الأوقاف وأضرحة الشخصيات الإسلامية مثل ضريح الفاتح الذي تم تفجيره بالكامل(٢٩٠).

وقد شمل الدمار حتى منتصف عام ١٩٩٣ أكثر من مائة مسجد أثري تحمل تراث شعب البلقان لعدة قرون.. مثل مسجد السلطان بايزيد الذي بني سنة ١٥٠٠م وآخر أقدم منه يعود الى سنة ١٤٤٨م.. كما دمر المعهد الإسلامي، ومدرسة الفقه الإسلامي العريقة التي أصبحت متحفاً للمدينة، والكلية الإسلامية في سرايفو وتكايا تعود للقرن السابع عشر الميلادي.. والجريمة الكبرى هو تدمير معهد الدراسات الشرقية في ٢/ ٦/ ١٩٩٢ والذي يضم وثائق ومخطوطات بالعربية والتركية والفارسية والبوسنوية(٢٩١).

سادساً: غياب الدعم العالمي وهو من العوامل الخارجية المؤثرة في المحنة بالنسبة لشعب يحيط به الأعداء من كل جانب، ولم تلق أزمتهم صدى من الدول إلا في وقت متأخر، ويظهر ذلك من خلال موقفين:

أ- **الموقف الإسلامي**: حيث كانت مشاعر المسلمين جميعاً في العالم الإسلامي مع إخوانهم في البوسنة، ولكن المشاعر وحدها لاتكفي، فقد «تحركت قافلة من٣٥ حافلة كبيرة من ألمانيا يقلها المسلمون يريدون نصرة إخوانهم.. ولكن السلطات السلوفانية منعت مرورهم»(٢٩٢).

أما المواقف الرسمية فقد جاءت متأخرة، إذ أصدرت منظمة المؤتمر الإسلامي القرار الأول بعد منتصف حزيران عام ١٩٩٢م بعد مقتل عشرات الآلاف، ووصول الغرب إلى حافة التدخل العسكري، ونداء البابا بوقف المذابح البشرية.. وفي وقت أصبح الحفاظ على وحدة البوسنة أمراً مستبعداً «وبات التقسيم واقعاً...»(٢٩٣). وقد كان المسؤولون البوسنويون يستنجدون بالعالم الإسلامي طلباً للدعم المادي والأسلحة، فأهلها مستعدون للدفاع ولكن ينقصهم السلاح..

وبعد ذلك عُقدت مؤتمرات وندوات في العالم الإسلامي من أجل نصرة البوسنة وجمعت لهم التبرعات، علماً أن تلك الجهود أُحيطت بتعتيم إعلامي للإنتقاص من قيمتها، وقدمت المعونات الإسلامية تحت واجهة إنسانية ودولية لتحرمها من رابطتها الإسلامية، فنظمت «هيئة الإغاثة

---

(٢٩٠) انظر أهم ممتلكات الأوقاف التي تعرضت للدمار حتى تاريخ١٠/ ٩/ ١٩٩٢م في: عبد الله أسمايتش، الملحق ٣ ص٢٧٩-٢٩٠.

(٢٩١) *مجلة الحكمة* عدد ٣ ص٣١٧-٣١٨، محمد حرب ١٣٣.

(٢٩٢) *مجلة الحكمة*: عدد ٣ ص٣١٧-٣١٨، محمد حرب ص ١٣٣.

(٢٩٣) عبد الله إسمايتش ص٢٤٥-٢٤٦.

الإسلامية» لذلك..[٢٩٤] وكان لوجود قلة من المجاهدين من دول عربية إسلامية أثر في حملة دعائية اوربية على الأصولية في البوسنة ! وكانت ردود أفعال قوية من مسؤولين أوربيين تجاه مطالبة منظمة المؤتمر الإسلامي برفع حظر الأسلحة عن البوسنة، كما رفض مجلس الأمن ذلك[٢٩٥].

ب- الموقف الدولي: إن الحملات الدبلوماسية الموجهة لاستنكار جريمة الصرب الواضحة لاتتناسب مع حجم الإعتداء والكارثة، فقد قامت أوربا بمهمة الوسيط دون تأثير، مع عدم توحد المواقف !. وكل ماقامت به هو رعايتها لعقد مؤتمرات، وعقوبات اقتصادية محدودة مع علمهم أنها غيرمؤثرة، بل أتاحت تلك المواقف للصرب الاستمرار في عدوانهم.

ومع اعتراف الولايات المتحدة (United States) بالبوسنة والهرسك وتعاطفها ظاهرياً مع الأزمة، ولكن لم تتبع ذلك بخطوات عملية لتوقف المعارك سوى إرسال ألف جندي للسيطرة على مطار سراييفو في حزيران ١٩٩٢م، بل سعت ليصدر مجلس الأمن قرار الحظر الدولي على توريد الأسلحة للمنطقة وهي تدرك أن ذلك لن يتضرر منه سوى المسلمين، وهي بذلك سعت لتحقيق مصالحها وأهدافها التي تتفق مع أهداف أوربا بمنع قيام دولة إسلامية فيها[٢٩٦].

أما روسيا والصين (Russia & China) فتشكلان معارضة قوية لأي عقوبات على صربيا، بل كانت روسيا تزودهم بالبترول، وقد أثرت على الموقف الدولي برفع العقوبات عنهم[٢٩٧].

وجاءت قرارات المجتمعات الدولية هشّة لاتأثير لها على صربيا لعلمهم بأنها حققت الإكتفاء الذاتي من الأسلحة والمال والغذاء، وانجلت حقيقة الموقف -بعد أن سعت هذه الدول لتقسيم البوسنة- في تشجيع الصرب على المضي قدماً في مخططهم، ومنها حصار سراييفو، بل عملت كل الهيئات على تجميد الأوضاع والتسويف لكي يحقق الصرب والكروات ما حققوه، علماً بأن الصرب لم ينفذّوا أياً من القرارات الدولية بل تزداد المذابح إثر كل قرار منها، ويمضي الصرب في انتهاك المناطق الآمنة المنزوعةالسلاح، ومحاصرة قواتهم لقوات الأُمم المتحدة[٢٩٨].

---

(٢٩٤)راجع العسلي، بسام ص ١٧٨-١٧٩

(٢٩٥) راجع جهود المسلمين من أجل البوسنة في المصدر السابق ص ١٧٠-١٩٥، وسيد عبد المجيد بكر، *الأقلية المسلمة في يوغسلافيا*، الحكمة، العدد (٤) ص ٢٦٣-٢٧٦ وفيه تفصيل للمسار الإسلامي.

(٢٩٦) راجع: عبد الله إسمايتش ص ٢١٨-٢١٩، ومحمد البقري، *الدور الأمريكي في الأزمة البوسنوية*، المجتمع عدد (١٢٠٩)، ٢٣ يوليو ١٩٩٦.

(٢٩٧) راجع عبد الله اسمايتش ٢٢١، والعسلي، بسام ١٤١-١٤٢.

(٢٩٨) راجع العسلي، بسام، ص ١٤٢.

في الوقت الذي ترفض المشاريع التي تقدم لرفع خطر الأسلحة عن البوسنة يصدر قرار برفع العقوبات عن صربيا والجبل الأسود بحجة تشجيعها لقبول خطة السلام.. وهكذا تتشابه مواقف أعداء الإسلام فكل ما ذكرناه في القضية الفلسطينية يتكرر على أيدي الصرب كالتهجير والإبادة والمراوغة لكسب الوقت كما تتشابه المواقف الدولية تجاهها.. وهكذا حرم مسلمو البوسنة من الدفاع عن أنفسم كما قال رئيس البوسنة في رسالته لمبعوث الأمم المتحدة: «وأعتقد أنك تساعد المعتدي في القضاء علينا، لقد تركتنا نسقط.. إن المنظمة الدولية سمحت بسقوط البوسنة »[٢٩٩]وذلك عند رفضهم استخدام القوة ولو عرف الصرب جدية أي عقوبات لتراجعوا عن غيّهم، ولم يكن موقفهم إلا «مكافأة للمشاركين في جرائم الحرب وحرمان الضحية من المساعدة»[٣٠٠].

الحل الدولي والانتصار الصربي

كان الحل لقضية البوسنة كما أُريد لها أن تكون «التقسيم». وقد طرحت أول خطة تقسيم للبوسنة في مؤتمر لندن في ٢/ ٨/ ١٩٩٢م بين المسلمين الصرب والكروات، والذي أعاد لذاكرة المسلمين مؤتمر لندن عام ١٩١٣م بين تركيا والحلفاء.. فالإنكليز عرفوا نتائج التقسيم الذي لا يؤدي إلى سلام واسقرار، هو ما تفعله بريطانيا في كل قضايا المسلمين [٣٠١].

ثمّ جاءت خطة الوسيطين الدوليين (فانس وأوين) بالتقسيم إلى عشرة أقسام (كنتونات) منها ثلاثة ذات أغلبية صربية تمثل ٥٠٪ من الجمهورية، ومع ذلك رفضها الصرب[٣٠٢]..وأخيراً الخطة الأمريكية باستشارة أوروبا وروسيا، وسميت **«اتفاق دايتون»** وملخصها منح الصرب ٤٩٪ من الارض، والمسلمين والكروات ٥١٪، مع المحافظة على وحدة الجمهورية بالقوميات الثلاث ! «كونفدرالية» (Confederal) وراعت الخطة التقسيم العرقي ! وما على المسلمين إلا القبول لوقف الابادة رغم ما فيها من اجحاف لمن يمثلون الأغلبية، وبذلك تأكدت النوايا بربط المسلمين بالكروات في داخل البوسنة باتحاد فيدرالي (Federal)، ويكرواتيا باتحاد كونفدرالي، وربط الصرب بصربيا باتحاد مشابه، وضياع المسلمين بين الطرفين في اتفاق دايتون الذي تم التوقيع عليه في ٢٣/ ٢/ ١٩٩٥،

---

(٢٩٩) راجع المصدر السابق،ص١٧٧.

(٣٠٠) مجلة الحكمة العدد (٤) ص ٢٧٩-٢٨٢ القسم الثاني لبحث سيد عبد المجيد بكر.

(٣٠١) راجع: محمد حرب ص ١٣٦، والعلى، بسام ص ١٥٨.

(٣٠٢) انظر تلك الخطة، في الحكمة عدد ٤ ص ٢٨٨-٢٩٢.

وعلى هذا فإن خطة التقسيم الجديدة تكاد تكون صورة طبق الأصل عن جل مطالب الصرب..وتصورات صربيا وكرواتيا، ودون أن تتضمن عنصراً واحداً من مطالب المسلمين كما تكشف الرؤية الأوربية الأمريكية في اعتبار المسلمين خطراً يهدد العالم ولو كانوا في مكان صغير وسط أعدائهم، فتحقق ذلك للصرب برعاية المجتمع الدولي بعد مقتل (٢٠٠) ألف مسلم وهجرة مليونين من أهلها جبراً [٣٠٣].

ولازات البوسنة تعيش حالة اللاحرب واللاسلام ويتمثل ذلك في عرقلة عودة اللاجئين والتباطؤ في القبض على مجرمي الحرب [٣٠٤] وعرقلة حركة المدنيين، وكثرة العاطلين عن العمل، ورفض وعرقلة أي أقتراح من قبل المسلمين مما يخصّ أمور الدولة.. مع تعامل القوات الدولية مع السلطة كقوة احتلال.. [٣٠٥] وكان ضمن الاتفاق تسليح أمريكا للبوسنة ويعد تأخير سنتين يسلم الأمريكيون أول شحنة بمبلغ (٧٠٠) مليون دولار من خمس دول عربية واسلامية، واتضح أن غالبية الاسلحة من طراز (١٩٦٠) وغير ملائمة لطبيعة البوسنة كما أن الذخيرة وقطع الغيار تحت رقابة الكروات فهي ليست بذلك إلا أكواماً من حديد، كما تحقق رضوخ المسلمين لمساومات الكروات [٣٠٦].

وهكذا تتأكد صليبية الحرب، كما لا نستبعد الاصابع اليهودية وعلى ذلك دلائل لامجال لذكرها، ولازالت محطة تلفزيونية هناك يملكها رجل أعمال يهودي تثير ضجّة ضدّ من تسميهم بـ «الإرهابيين» وهم عرب استقرّوا بعد الحرب في البوسنة [٣٠٧]، وكيف نفسر ارغام المنسق الدولي للأطراف في البوسنة على اتخاذ علم وشعار الفدرالية بوضع نجمة داود عليه رغم أن عدد اليهود هناك لم يتجاوز ألفي شخص [٣٠٨].

وماذا يسمى كل ذلك، أليست حرب صليبية وينطبق على الصرب وأمثالهم قوله تعالى:

---

(٣٠٣) راجع مضمون خطة السلام «دايتون» في مجلة: قضايا دولية عدد (٢٩٥) بتاريخ ٢٨/٨/١٩٩٥ في ثلاث مقالات من ص١٨-٢٣.

(٣٠٤) راجع مجلة المجتمع العدد (١٢٧٣)، ٢٨ أكتوبر ١٩٩٧، ص١٦ والعدد (١٢٨٣) ١٢ يناير ١٩٩٨،ص ١٢.

(٣٠٥) راجع اخفاقات دايتون في العدد السابق من المجتمع والعدد (١٢٠٣) في ١١يونيو ١٩٩٦، ص ٤٦-٤٧.

(٣٠٦) راجع مجلة الأسرة العدد (٤٢) شباط ١٩٩٧، الرياض، ص ٢٢-٢٣.

(٣٠٧) راجع مجلة الدعوة عدد (٦٩) يناير ١٩٩٨،ص ٦.

(٣٠٨) المجتمع العدد (١٢٨٣)، ص٢٦

﴿وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد﴾[٣٠٩].

والآن تعلن على مسامع العالم قضية البوسنة في كوسوفو[٣١٠] من قبل الصرب التي يشكل المسلمون فيها ٨٥ ٪والصرب ٥٪ فقط..

ثالثاً: محنة المسلمين في الإتحاد السوفيتي«سابقاً» (الشيشان) (Chechnia)

يحتل الإتحاد السوفيتي (Soviet Union) مساحة كبيرة تقدر بسدس اليابسة في قارتي آسيا وأوروبا، تضم خمس عشرة جمهورية، ست منها ذات أغلبية مسلمة، عدا الأقاليم الملحقة بها في أوروبا ،ومنها الشيشان(Chechnia) [٣١١] وفيها شعوب مختلفة قامت بضمها عنوة عن طريق الاجتياح العسكري.

أما روسيا الأصلية فهي تلك المنطقة التي تقع في الركن الشمالي الشرقي من أوروبا يسكنها الروس من الشعب السلافي حول مدن موسكو (Moscow) وكييف (Kiev) ومنسك (Minsk)، أما بقية روسيا الأوربية فيسكنها قبائل قليلة العدد.. والكل يدينون بالوثنية الى أن تنصر الملك فلاديمير سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٨م على المذهب الأورثودكسي[٣١٢].

دخول الإسلام الى الإتحاد السوفيتي

دخل الإسلام أولاً إلى بلاد القوقاس (القوقاز) (Caucasus)، -وهي بين بحر الخزر والبحر الأسود- وكانت قبل الفتح خاضعة للدولة البيزنطية عدا المناطق الجنوبية الشرقية التابعة للدولة الفارسية، ووصلها الإسلام مبكراً عن طريق الفتح والدعاة، فقد فتح المسلمون أذربيجان في عهد عمر بن الخطاب ﷺ سنة١٨هـ/ ٦٣٨م على يد الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، ثم على يد قائده الخليفة عتبة بن فرقد السلمي الذي صالح أهلها بكتاب يعد مثالاً لعدل الإسلام وسماحته مع الأمم المغلوبة[٣١٣].. ثم أرسل الخليفة قائده

---

(٣٠٩) البقرة ٢: ٢٠٥.

(٣١٠) راجع حول موضوع كوسوفو والانذار بتكرر الماساة اللقاء مع رئيس المشيخة الاسلامية د. رجب بويا، المجتمع العدد (١٢٩٥)، ٧أبريل ١٩٩٨، ص ٣٠-٣٣.

(٣١١) راجع أسماء تلك الجمهوريات في: سيد عبد المجيد بكر، وأوضاع المسلمين فيما كان يسمى الإتحاد السوفيتي، مجلة الحكمة، العدد الأول سنة ١٩٩٣م/لندن ص ٢٥٠-٢٥٢، والمصري جميل، حاضر العالم الإسلامي ج ٢، ص٤٩٥.

(٣١٢) المصري جميل ج٢، ص٤٩٥.

(٣١٣) انظر نص الكتاب في: البارمحمد علي، المسلمون في الإتحاد السوفيتي عبر التاريخ، دار الشروق سنة ١٩٨٣م جده / السعودية ج١ص٣٦، ١٧٦.

عياض بن غنم سنة ١٩هـ/ ٦٣٩م ففتح أرمينية وجورجيا، ثم أرسل عياض بدوره أربع فرق لفتح هذه المناطق، ولم يأت عام ٢٤هـ/ ٦٤٤م إلا وخضعت مناطق واسعة من القوقاز للحكم الإسلامي ورضيت بدفع الجزية.

وفي عهد عمر كذلك دخل الإسلام إلى خراسان على يد الأحنف بن قيس ووصل أراضي الديلم وطبرستان، وتوسعت في عهد عثمان بن عفان ﷺ لتشمل شمال أفغانستان (Afghanistan)، ثم تواصلت الفتوحات في عهده، واختلط أهل الداغستان بالقبائل العربية اختلاطاً شديداً، ودفن فيها كثير من الصحابة، وبقيت فيها قبائل كثيرة، وتكلم أهلها باللغة العربية. وتركز الإسلام في هذه المناطق في عهد معاوية بن أبي سفيان على يد حبيب بن مسلمة الفهري والأمير محمد بن مروان ثم مسلمة بن عبد الملك بن مروان، وتحولت الداغستان جميعاً إلى الإسلام، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان عبر الصحابي الحكم بن عمر الغفاري نهر جيحون سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م وفتح ما يسمى (أوزبكستان) (Uzbekistan)حالياً، ثم فتح عبيد الله بن زياد بخارى وبيكند سنة ٥٥هـ ثم سمرقند في عهد معاوية، وفتح موسى بن عبد الله ترمذ سنة ٧٠هـ، ثم واصل قتيبة بن مسلم الباهلي الذي يعد فاتح بلاد ما وراء النهر ووطد الإسلام هناك حتى وصلت جيوشه حدود الصين (China's Boarders)، كما وطد الإسلام في دولة تركستان الغربية[٣١٤] وانتشر الإسلام في تركستان الشرقية التي تتبع اليوم دولة الصين على يد الدعاة[٣١٥].

وقدثبتت راية الإسلام في تلك المناطق وخاصةً بخارى وطشقند (Tashkent) وسمرقند وبنى أول مسجد في بخارى عام ٩٤هـ، وظهر فيهم أئمة علماء الحديث كالبخاري والنسائي والترمذي والبيهقي ومن المفسرين الطبري والزمخشري، ومن علماء البلاغة وإعجاز القرآن الجرجاني والسكاكي.. وهكذا في جميع العلوم.

أما دخول الإسلام في روسيا الأوربية وحول الفولجا (Volgograd) فقد تم بطريقتين هما:

أولها: على يد البلغار (Bulgarians) في القرن الثالث والرابع الهجري من التجار المسلمين الدعاة الذين يتاجرون في الفراء، وفي زمن الخليفة العباسي المقتدر جاء وفد من سكان بلغار الفولجا وأخبروه باسلامهم وطلبوا منه أن يرسل معهم علماء لتعليمهم الدين وغيره، وأرسل معهم قائده أحمد بن عباس المعروف بابن فضلان سنة٣٠٩هـ/ ٩٢١م

---

(٣١٤) وهي: ازوكستان، تركستان،طاجسكتان، وغيرها، راجع تفاصيل هذه الجمهورية في المصري ج٢ص٥١٧-٥٢٦.

(٣١٥) المصري جميل ج٢ ص٥١٧-٥١٨.

فوصف هذا الرحالة الجغرافي الروس في وثيقة تاريخية مهمة فقال: «أمة همجية... أهل غدر، وأقذر الأمم، وإنهم شر خلق الله، ضخام الأجسام، مستهترون بالخمر يشربونها ليلاً ونهاراً...»[٣١٦] ولهذه الأوصاف وعلاوة على وثنيتهم لم يستطع البلغار جذبهم للاسلام فاختاروا النصرانية وصاروا سندها وحماتها بعد سقوط القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ.

ثانيها: على يد التتار من القبيلة الذهبية التي أسسها جوجي بن جنكيز خان، وأسلم أميرها بركة خان سنة ٦٥٤-٦٦٦هـ / ١٢٥٦-١٢٦٧م. فأصبح حوض الفولجا إسلامياً وانقلبت التتار الى أمة مدافعة عن الإسلام وامتدت دولتهم شمالاً وغرباً وبقيت إمارة موسكو وكييف تدفعان الجزية للتتار المسلمين لمدة ٢٤٠ عاماً[٣١٧]. أما سيبريا (Siberia) الواقعة بين أوربا والمحيط الهادي شمال روسيا وهي إقليم متجمد، ومنفى للمعارضين فقد كان جزءاً من الدولة المغولية وصلها الإسلام عن طريق الدعاة، وكونوا إمارة عاصمها سبير(**تحريف صابري**) تولاها أحد أمراء القبيلة الذهبية ٩٧س٨هـ/ ١٥٧٠م[٣١٨].

المسلمون في ظل الإمبراطورية الروسية القيصرية (Czar)

ضعفت الدولة التترية نتيجة للخلافات وتجزأت إلى ثلاث دويلات (القرم، والقازان، والاستراخان) سنة ٨١٣هـ، فاستقلت إمارة موسكو وظهرت الدولة المسكوبية في عهد ايفان الثالث (Ivan III)، ورفضوا دفع الجزية، كما أثار البيزنطيون الروح الصليبية في الروس للانتقام من المسلمين إخوان العثمانيين، وجاءت الأوامر من البابا الأمير موسكوالفاسيلي الثالث بإشعال حرب ضد المسلمين لكنه ترك المهمة لابنه «**ايفان الرهيب**» الذي تميز بشدة الحقد على المسلمين واستطاع أن يكتسح قازان سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م والتي كانت مركز حضارة اسلامية عريقة ثم غزا الجوفاس وملري ومرودوف وبشكيريا عام ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م ثم استراخان ٩٦٥هـ، وأخيراً بلاد الأدموث عام ٩٦٨هـ[٣١٩].

---

(٣١٦) المصدر السابق ٤٩٦وذكر ابن رشد والمسعودي وابن بطوطة نفس الاوصاف. راجع البار ط٣٨-٣٩.

(٣١٧) راجع البار محمدعلي: ط ص٣٤٠، والمصري جميل ط٢ ص٤٩٦-٤٩٨.

(٣١٨) المصري جميل ج٢ص ٥٠٦-٥٠٧.

(٣١٩) راجع البار محمد علي ج١ص٤٣والمصري جميل ج٢ص٤٩٨.

أما شبه جزيرة القرم التي وصلها الإسلام عن طريق التتار ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩، فبعد انحلال دولتهم كونت القرم دولة سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٢٧، وقويت باسم الدولة العثمانية، وهجمت على الروس انتقاماً للمسلمين من أعمال ايفان الرهيب ودفعت لهم موسكوالجزية في عهد «محمد كيرامي» ولما فرقت الخلافات تتار القرم انتزع الروس شمالها فنزل العثمانيون في الجنوب، ولما ضعف العثمانيون استولى عليها الروس نهائياً بيد قوات كاترين (Cathrine) سنة ٧٨٣هـ/ ١١٩٨م وضمتها لإمبراطوريتها، وتعهدت للمسلمين بضمان حقوقهم ومع ذلك صادرت خيرة أراضيهم ووزعتها على النبلاء، ثم عاد تتار القرم للنشاط عندصدور قانون حرية العقيدة سنة ١٩٠٥م وأعلنوا استقلالهم..(٣٢٠).

كما احتل الروس سيبريا ورفض أميرها «كوتشم خان» الاستسلام بأن يكون تابعاً لهم، وقال قولته المشهورة: « لا أقبل عيش الأسير، ولا موت الذليل... ثم قاتل حتى استشهد» وقام المسلمون بثورات كثيرة آخرها عام ١٧٧٣م، فأرسل القياصرة جيوشاً ضخمة لإخمادها (٣٢١).

ثم اتجهت قوات القياصرة نحو القوقاز حيث تحركت أطماعهم في جو الحروب بين الدولة العثمانية والصفوية واستطاعت أن تحتلهابعد حروب دامت من ١١٩١هـ / ١٧٧٥-١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م فاعترف حاكم ايران بسلطة روسيا وتنازلت عن الداغستان فقام أهلها بالدفاع عنها ولكنهم اضطروا للخضوع لروسيا، وكانت أطماع (نيقولا الأول) تمتد إلى الخلافة العثمانية واستانبول ولكنهم اصطدموا بأطماع فرنسا وبريطانيا في تركة الرجل المريض كما سماها نيقولا. ثم أُعيد تقسيم الغنائم وظل المسلمون الخاسر الوحيد.. وبعد أن تم القضاء على حركة الشيخ شامل في القوقاز اتجهوا إلى آسيا الوسطى بحثاً عن مستعمرات فوجدوا في التركستان ضالتهم كحقول لزراعة القطن الأمريكي، واحتلت طشقند سنة ١٨٦٥م ثم سمرقند سنة ١٩٦٨م ثم بخارى وخوقند وسقطت مرووعشق آباد ومناطق التركمان واكتمل الاحتلال بالوصول الى هضبة بامير سنة ١٩٠٠م، واحتفظت بعض المدن مثل بخارى بحكم ذاتي تحت الحماية الروسية.

أما محنة المسلمين في ظل القياصرة فكانت فوق ما يتصوره العقل من أُمة كما وصفها ابن فضلان (همجية، وأقذر الأمم)حتى فتن المسلمون في دينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم

---

(٣٢٠) راجع البار محمد علي ١١٨-١٢٢، والمصري جميل ٥٠٣-٥٠٤.

(٣٢١) رغم طبيعة سبيريا القاسية المتجمدة ولكن فيها ثروات ضخمة من الغاز الطبيعي والبترول ومناجم فحم وذهب تتكتم عليها روسيا واتجهت من قبل قواتها للاستفادة مها، ولم تعد منفى للمعارضين كما كانت من قبل. راجع البار محمد علي ط ١٢٦-١٣٠.

وذرياتهم. ومهما اختلفت وكانت سياسة القياصرة تجاه الأُمراء والأشراف في الخيار بين قبول التعيين مع الارتداد عن الإسلام أو الخراب الإقتصادي، أو التصفية الجذرية لمن يبدي أقل مقاومة للسلطة الروسية وهذا هو الغالب لعلمهم إن هذه الطبقة تفضل الموت على بقية الخيارات.

أما بالنسبة للجماهير الإسلامية فكان يفرض عليهم إما الهجرة وإحلال الروس محلهم أو التحول للنصرانية، وكل تلك السياسات بدأها ايفان الرهيب والتي تمثل محنة المسلمين في:

١- التنصير بالاكراه، حيث اعتمد القياصرة سياسة التنصير الإجباري وسمي المتنصرون (ستار كرياستن) (Chrischtian Star) فاتجهت إليهم الإرساليات البشرية وفتحت المدارس التنصيرية لأطفالهم، كما عمد أهل جوفاش المسلمين بالعنف والإكراه، خاصة في عهد الإمبراطورة حنه، كما تحول ١٠٠ ألف تتري بهذه الطريقة في عهد ايفان الرهيب، ثم بنفس الطريقة تحول ٣٠٠ألف في عهد خلافته فقسموا (النوفوكرياشين) أي المتنصرين الجدد، وفي عهد بطرس الملقب بالعظيم والإمبراطورة حنه أثقلت المسلمين بالضرائب وأعفت المرتدين إغراءً لهم بالردة وأقفلت جميع المدارس[٣٢٢].

٢- أما التهجير بعد مصادرة أراضي المسلمين وتشتيتهم فقد حصل في تاريا وأُجلي أهلها عن قازان وحل الروس محلهم، وحتى في عهد كاثرين التي اتسم عهدها بالتسامح صادرت الحكومة خيرة أراضي القرم ووزعتها على النبلاء وتم طرد ٥٠٠ألف مسلم، وقد تفنن القياصرة بأساليب التهجير كهدم المدن ومصادرة الأوقاف وقفل المدارس القرآنية وفرض الضرائب الباهضة ومنع الدعوة كما أسهمت عوامل أُخرى في الهجرة كسياسة الترويس التي أضطرت الكثيرين للهجرة إلى تركيا، وأعمال السخرة والإبادة خصوصاً للطبقات الواعية التي تأبى الذل والخضوع.

٣- الإستيطان الروسي في بلاد المسلمين: فما يكاد الروس يستولون على بلاد حتى يتدفق سيل الفلاحين الروس المتعطشين للأراضي فينقلب السكان الأصليون إلى أقلية مطوقة بمساحات يسكنها روس خلّص، وسياسة التوطين الريفي كانت بقصد دمج المسلمين بالمسيحيين وتصفية النخبة التقليديةومحاربة الإسلام وعمل منهج ثقافي واحد[٣٢٣]

---

(٣٢٢) راجع البار محمد علي، ص ٨٧-٨٩ وراجع توماس أرنولد الدعوة إلى الاسلام، ص ٢٧٨-٢٧٩ المصري، ج٢ ص ٥٢٦.

(٣٢٣) راجع صابر طعيمة، محنة الأقليات الإسلامية والواجب نحوها ص٩٠ والمصري ص ٥٢٧-٥٢٨.

ومما زاد ذلك خصوبة الأراضي الإسلامية وغناؤها بعكس الأراضي الروسية[٣٢٤] وهذا ما حصل في قازان واستراخان والقرم والقفقاس.. «ويمكن تسمية السياسة العامة التي طبقت في تركستان استعمارية صرفه» حيث عزلت عن العالم الإسلامي، كما جعلوا شعوبها فقيرة متخلفة لاتستطيع المفاوضة وحولت أراضيهم إلى ملك الروس المستوطنين لتمتد مصانع الروس كما فعلت بريطانيا مع مصر والسودان[٣٢٥].

كما قام الروس بتدمير المدن وهدم الجوامع وطرد علماء الدين من المدن ومصادرة الأوقاف وحوربت اللغة العربية والحرف العربي فضلاً عن اثارة القوميات و الأقليات وسياسة «فرّق تسد».

ومع تلك الأساليب لم يستسلم المسلمون للاحتلال وقاوموه بحركات جهادية يقودها العلماء حيث قام قاضي القضاة الملا محمد الكمراوي في الداغستان بمقاومة الاحتلال واستطاع أن يلحق بالروس الهزائم واستمر بعده الشيخ شامل لمدة ٣٥عاماً، كما ان المقاومة الشعبية لأهل بخارى وخوقند جعلت الأعداء يدكّون المدينة ويبيدون أهلها عن بكرة أبيهم عام ١٨٧٦م[٣٢٦].

كما صمد المسلمون أمام حملات التنصير وقاموا بثورات متلاحقة، وكان غالب رجال الصوفية (النقشبندية والقادرية) يحملون لواء الجهاد فاستمر انتشار الإسلام بين الشراكسة مع إرسال الدعاة من قبل العثمانيين فاستطاعوا أن يوقفوا جهود القياصرة في تنصير المسلمين ويكسبوا أنصاراً جدداً، كما بقيت الشعوب الإسلامية متميزة بثقافتها وتقاليدها رغم المحن بل أصبح يمثل هويتها وانتماءها لديار الإسلام، كما تعمق مفهوم الدين وأصبح الإسلام مرادفاً للقومية والدفاع عنه دفاعاً عن الهوية، وكان تتار الفولجا أول من ربط الهوية القومية بالإسلام..[٣٢٧]

---

(٣٢٤) فضلا عن خصوبة التربة تضم الأراضي الإسلامية معظم المواد الخام في الإتحاد السوفيتي مثل ٥٠٪من النفط، ٩٥٪ فوسفات، ٩٦٪ قطن، ٩٠٪ يروانيوم، إضافة إلى الثروة الحيوانية والنباتية. راجع جدول بالاراضي ومواردها في: سيد عبد المجيد بكر أوضاع المسلمين في الإتحاد السوفيتي، الحكمة العدد الأول ١٩٩٣ م ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٣٢٥) المسلمون المنسيون في الإتحاد السوفيتي/ للكاتبين الفرنسيين بنجيسين ولومرسيبيه نقلاً عن البار محمد علي ص٤٩.

(٣٢٦) البار محمد علي، ص ٤٧-٥٤،ص١٥٣-١٥٧.

(٣٢٧) البار محمد علي، ص ٩١-٩٢.

وقد تنفس المسلمون في عهد كاترين في القرن الثامن عشر الميلادي إذ أوقفت التنصير بالقوة وسمحت لهم بفتح المدارس والمساجد ومنعت اختطاف أطفال المسلمين كما عاد بعض المهاجرين إلى ديارهم وبنوا المساجد ونشطت حركة الدعاة والمقاومة.

وعندما أعلن البرلمان الروسي عام١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م الحرية الدينية الكاملة عاد التتار الذين فرضت عليهم النصرانية في عهد ايفان وما بعده إلى الأسلام بصورة أذهلت روسيا القيصرية حيث حافظوا على إسلامهم في السر أربعة قرون فقام 'نيقولا الثاني' بحل البرلمان، معتبراً نجاح الدعوة الإسلامية خطورة كبرى، وفي عام ١٩٠٦م حذر وزير الداخلية في تقرير له من إعطاء الحرية للمسلمين ومنعهم من تكوين جمعيات سياسية ودينية معتبراً الدعاة خارجين عن القانون وجواسيس العثمانيين مما جعل السلطات تقوم بتصفية الأحزاب الإسلامية[٣٢٨].

المسلمون في ظل الشيوعية (Communism)

وكان من أعظم المحن التي نزلت بالمسلمين، البلاء الذي حاق بهم في ظل الثورة الشيوعية وذلك بسبب قوة المسلمين العقدية التي كانوا عليها داخل بلاد روسيا وتمسكهم بالإسلام، فلم يكونوا أهل ضلال يسهل استسلامهم بل كانوا فخورين بإسلامهم «وكان شعور الأُخوة موجوداً حتى بين السنة والشيعة»[٣٢٩].

وأول تلك المحن كان خداع لينين للمسلمين في بياناته الأُولى بعد استلام السلطة في ٢٢نوفمبر ١٩١٧م / ١٣٣٦هـ بأن الثورة في صالحهم وضد الاستعمار وأنه يدافع عن القرآن والإسلام.. [٣٣٠] ومن جملة ذلك تسليم مصحف عثمان الذي كان عند القياصرة إلى ممثلي المسلمين في مؤتمر «بتروجراد» مع وثائق تاريخية، وآثار اسلامية هامة، وقد أراد بذلك كسب المسلمين لأنهم يشكلون من ٢٥-٣٥مليوناً، وكرر نداءاته للمسلمين عام ١٩١٩م حتى ظن المسلمون أن نظامه قائم على الإسلام وأنه منحة السماء لإنقاذ المسلمين من الاستعمار الأوربي، فأسرعت هذه الشعوب بإعلان استقلالها وتكوين جمهوريات إسلامية وأظهر لينين تأييده لها وهو تكتيك رهيب

---

(٣٢٨) راجع المصدر السابق ص ٥٢ وراجع مواقف المسلمين من روسيا القيصرية، المصري جميل ص ٥٣٠-٥٣١.

(٣٢٩) صابر طعيمة، ص ٩٠.

(٣٣٠) راجع تلك الخطب التي تبدأ بـ:يا مسلمي روسيا، يامسلمي الشرق ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم. راجع نماذج البار، ص ٥٧-٥٩ وصابر طعيمة، ص١١٨-١١٩.

يتسم بالخسّة والغدر.. فأعلنت الداغستان استقلالها سنة ١٩١٨م ثم جورجيا، وفي الوقت الذي كان مشغولاً بتوطيد حكمه في روسيا أرسل أرهابيين إلى القوقاس متفقين مع الحزب الشيوعي المحلي وقاموا بمذبحة في باكو راح ضحيتها ١٨ ألف مسلم فثار المجاهدون بقيادة نوري باشا، وأعلنوا قيام جمهورية أذربيجان التي اعترف بها لينين والحلفاء كي يتمكن منهم فيما بعد، وبعد أن انتصر في روسيا البيضاء هجم بجحافله الحمراء عليها سنة ١٩٢٠ وأخمد ثوراتهم بكل وحشية مع الإتفاق الضمني مع الغرب بالتكتم وتجاهل مايجري للمسلمين. وشملت الثورات كل مناطق المسلمين ولكن الروس استطاعوا بالتعاون مع المستوطنين أن يقضوا عليها ثم الانتقام من الأهالي بقتل وسجن مئات الألوف ولذلك فركثير منهم إلى الدول المجاورة، وبعد أن توطد الأمر للشيوعية في روسيا اتجهت جحافلهم إلى القوقاز وخوقند، فدخلت طشقند وقضت على جنود المسلمين ونهبوا المدينة ودامت المذابح ثلاثة أيام متوالية وقيل أن نفوس خوقند كانت ١٢٠ ألفاً عام ١٩١٨ فأصبحوا ٦٩ ألفاً فقط عام ١٩٣٦م ثم زحفت القوات إلى باكو التي استمرت فيها المذابح ثلاثة أيام ثم اتجهوا إلى سيفربول وقازان عام ١٩٢٠.[٣٣١]

أما حرب القرم فقد فاقت محنتها كل محنة، حيث استمرت المقاومة فيها عامين فلجأوا إلى حصارها حصاراً تاماً، منعت عنهم الأغذية بعد نهب مخازنهم، فهلك ما يقارب ٦٠ ألفاً من الجوع، وقتل ١٠٠ألف وهجّر ٥٠ ألفاً[٣٣٢]، ورغم استسلامهم نصبوا (**بالاكون**) اليهودي المجري رئيساً لهم، فهدم المساجد والمعاهد وبدأ السكان بالتناقص فحل الروس وغيرهم محلهم، وفي عام ١٩٢٨ جعلت شبه الجزيرة القرم موطناً ليهود روسيا ولما احتجت الحكومة أعدم الرئيس وحكومته ونفي ٤٠ ألفاً إلى سيبريا، وانخفض عدد سكانها من ٥ملايين إلى أقل من مليون عام ١٩٤٠م.

وقد كان فيها قبل ذلك (١٥٥٨)مسجداً هدّمت أو حولت الى نواد واصطبلات ومتاحف وأبقى القليل للعبرة[٣٣٣] ولما غزا الالمان المنطقة - في الحرب العالمية الثانية- استسلم الفيلق القرمي وعددهم (١٨) ألفاً، وما أن علم الالمان أنهم مسلمون إلا وساقوهم بعد أن نزعوا عنهم سلاحهم سيراً على الاقدام (١٥٠)كم دون طعام فسقط بعضهم من شدّة الاعياء

---

(٣٣١) البار محمد علي، ص٦٥-٦٧ والمصري جميل ج٢ ص ٥٣٢.

(٣٣٢) جاء في التقرير الذي قدمه (كالينين) مسؤول القرم «ان أكل لحوم الأطفال بل و الموتى لم يكن من الحوادث المستغربة»، انظر نص التقرير في البار محمد علي، ص ٦٧-٦٨.

(٣٣٣) راجع: الميداني، عبد الرحمن حبنكة، الكيد الأحمر نقلاً عن البار محمد علي ص ١٢٤.

وسجنوا في قلعة من قلاع العصور الوسطى لايصل إليها النور ومنع عنهم الطعام فهلكوا من الجوع، وأخرج الالمان من بقي وقتلوهم بالرصاص، وشاء الله أن ينجو منهم ثلاثة فقط كي يقصّوا أخبار تلك الكارثة (٣٣٤).

وعاقب ستالين من بقي رغم أن مناطق أخرى استسلمت للالمان فأمر سنة ١٩٤٥ بقتل وطرد جميع سكانها المسلمين البالغ عددهم نصف مليون ونفاهم الى سيبريا فهلك منهم الكثير أثناء الرحلة، وبقيت القوانين تحظر عليهم العودة الى وطنهم، رغم أن مجلس السوفيت الاعلى برّأ القرميين من تهمة التعاون مع النازيين في قرار صدر عام ١٩٦٧، ومن عاد سراً يعاقب ويرحل على الفور، وقد صدر قرار عام ١٩٧٨ بمعاقبة من يأوي أو يؤجر أو يبيع مسكناًلأي تتري قرمي، كما حوربت لغتهم في سيبريا واختفى ذكرهم من الاحصائيات الرسمية(٣٣٥).

كما شهدت التركستان - بشقّيها الشرقي تحت سيطرة الصين، والغربي تحت سيطرة الروس- مذابح مروعة بين عام ١٩٢٢-١٩٥٣، وزاد هياج أهل تركستان ما حصل لمسلمي خوقند من ابادة وهدم واغتصاب، فاشترك كل الشعب في ثورة عام ١٩٣٤ ووجهت بحرب ابادة حيث أعدم ستالين (١٠٠) ألف مع أعضاء الحكومة والمعارضين، وفي عام ١٩٣٦ قبض على نصف مليون فأعدم بعضهم ونفي الباقي الى سيبريا، وفي عام ١٩٥٠ أعدم سبعة آلاف ولهذا بلغ عدد الفارين من تركستان ثلاثة ملايين.

أما المجاعة المروعة في تركستان فقد استمرت عامين من سنة ١٩٣٢الى ١٩٣٤ وراح ضحيتها ثلاثة ملايين أيضاً (٣٣٦) نتيجة لتأميم المزارع ومصادرتها وقتل أ صحابها وارسال المحاصيل إلى روسيا، حتى اضطر أهلها لأكل القطط والكلاب، والميتة من الحيوانات والأطفال، و فعلت السلطات الشيوعية بأهل شاشان اينغوش ما فعلته بأهل القرم حيث نفوا جميعاً إلى سيبريا فهلك منهم الكثير، وهكذا تناقص المسلمون في كل الجمهوريات ففي داغستان كان عددهم عام ١٩١٧ ثمانية ملايين تناقصوا فكانوا عام ١٩٧٧ (١٦٢٧٠٠٠) فقط.

---

(٣٣٤) قصة حادثة القرم وافتعال المجاعة فيها تناولتها -إضافة لما ذكرنا- مصادر بالتفصيل تتحدث عن المسلمين في الاتحاد السوفيتي منها أرنولد توماس: الدعوة الى الاسلام ص ٢٧٦.

(٣٣٥) راجع: البار محمد علي ص ١٢٥-١٢٦.

(٣٣٦) المصدر السابق ٦٩، ٣٣٧.

وهكذا انتهت سياسة الابادة والتهجير إلى تحويل المسلمين أقلية في عقر دارهم، ففي خلال خمسين عاماً قتل الشيوعيون (٢٠ مليون) مسلم منهم(١١ مليوناً) على يد ستالين فقط[٣٣٧].

كما قامت السلطات بمذابح للعلماء المسلمين في تركستان وغيرها، وإمعاناً في اذلال المسلمين، استعملوا معهم أسلوب السخرة بتجنيد الآلاف منهم بالكدح في كل شيء دون مقابل، أو مقابل كسرة خبز وكسوة تواري البدن يعملون في الاعمال الشاقة والحقيرة[٣٣٨].

كما اتبع الشيوعيون تجزأة البلاد الاسلامية الى وحدات صغيرة وتوزيعهم على قوميات وثقافات مختلفة مع قطع صلتهم بالتراث الاسلامي وأول ذلك اللغة العربية للتفريق بين المسلمين[٣٣٩].

وكان الأشد من ذلك كله هو فتنة الدين بنشر الالحاد وتحطيم الأسرة المسلمة المتمسكة بدينها..وقد اتبعوا في ذلك أسلوب التدرج للابتعاد عن الدين، فبعد خداع لينين للمسلمين في بداية الثورة واستدراجهم لتأييده أعلن عن سياسته العدائية للدين عام ١٩٢٠ بمحاربته له بجميع الوسائل، كما أجبر الحزب الاسلامي البلشفي بالاندماج مع الحزب الشيوعي الروسي فضاعت أحلام المسلمين، وقد أقرّت السلطة أربعة مراكز أسلامية ولكن « ليست مهمة هذه المراكز نشر الاسلام بل مراقبة الدين وتنظيمه على هوى حكومة الاتحاد المركزية»[٣٤٠].

وقد مرّ التصدي للدين بمراحل: [٣٤١].

١) إعداد الهجوم من عام ١٩٢١-١٩٢٧ وقبل ذلك وفي عام ١٩١٨ تقرر فصل الدين عن الدولة والهجوم بطرق غير مباشرة والقضاء على الأوقاف والمحاكم الشرعية والتعليم الديني ومصادرة أراضي الوقف بين عامي ١٩٢٢-١٩٣٠، وأغلاق المحاكم الشرعية والمدارس الاسلامية ومحاربة العربية مع فتح دورات للالحاد وتنظيم مظاهرات صاخبة لفتيات تهتف بسقوط الله والدين (حاشاه).

٢) حملة المجابهة على الاسلام من سنة ١٩٢٨-١٩٤١ باقفال معظم المساجد، وكان عددها في الاتحاد (٢٦٢٧٩) يقوم عليها (٤٥٣٣٩) من العلماء، بقي منها عام ١٩٤٢(١٣١٢) مسجداً، وقد بلغ عدد المساجد التي هدّمت في تركستان فقط أو حوّلت الى نواد وملاه واسطبلات

---

(٣٣٧) المصري جميل، ج٢ ص ٥٣٦.

(٣٣٨) المصدر السابق ٥٣٧.

(٣٣٩) راجع: البار محمد علي: ص ٧.

(٣٤٠) راجع: صابر طعيمة: ص ١٠٥-١٠٧.

(٣٤١) راجع تفاصيل تلك المراحل في: المصري، جميل ج ٢ ص ٥٣٨-٥٤٥.

(٦٦٨٢) مسجداً واقفلت (٧٠٥٢) مدرسة[٣٤٢]، واستهدف علماء الدين بالهجوم واتهموهم بكل نقيصة، كما منعت فريضة الحج والزكاة وهوجم الصيام.

٣) مرحلة المهادنة سنة ١٩٤٢-١٩٤٥ إبان الهجوم الهتلري فاضطروا لمهادنة العناصر الدينية وتهدئة الشعور الديني للمقاومة، ومع ذلك اتهموا بمعاونة النازية.

٤) الهجوم الفكري من ١٩٤٥-١٩٧٩ باستخدام نوعين من الحجج أولها: ما يصلح لمكافحة الاديان عامة بأنه أفيون الشعوب ومناقض للعلم والثورة، وثانيها: خاص بالإسلام على أنه دين بدائي وخليط من عقائد سبقته، وقامت منظمات إلحادية بالمهمة منها « **اتحاد من لا إله لهم** » بالدعاية ضد الاسلام، وجنّدت كل وسائل الاعلام لها (**بفروعها**) فنظمت خلال عام ١٩٤٦-١٩٤٨ (٣٠٥٤٨) محاضرة (٣٠٠٠) منها ضد الاسلام في قازان، وتبعاً لذلك قامت السلطات بسياسة الترويس بجعل اللغة الروسية اللغة الأهم لتقريب الشعوب الاسلامية من الروس، ولهم في ذلك أساليب شتى..

كما فرض على المسلمين سياسة العزلة عن بعضهم وعن المسلمين في العالم وهو ما يسمى (**الستار الحديدي**).. كما حاربت المسلمين بمسلمين من صنائعها، وأشاعت أغاني ومسرحيات تهزأ بالاسلام والعلماء، مع نشر الصحف أخبار العقوبات التي تطبق على المسلمين لممارستهم الطقوس الاسلامية في الزواج والجنازة وغير ذلك. وإنذار من يفعل ذلك بإرساله الى معسكر الاصلاح الفكري، وطرده من عمله وفصله عن إبنائه. والاعدام عقوبة من يعلن إسلامه[٣٤٣]. كما تحظر السلطات جلب القرآن الكريم وتصادره من الطلاب الوافدين ومع ذلك أمكن ادخال عدد لابأس به مع الاشرطة، كما يدرس الابناء المذاهب الالحادية والتاريخ الاسلامي بصورة مشوهة مع التفسير المادي للتاريخ.

ومع كل تلك الاجراءات فشلت الشيوعية، وبقي مسلمو الاتحاد السوفيتي يشعرون بانتمائهم إلى ديار الاسلام والمحافظة على دينهم وأحياء تراثهم كلما سنحت لهم الفرصة، كما خابت آمال الروس باستمالة الطلاب القادمين إليها على نفقتها بل حصلت الصحوة وسط القادمين من العرب والمسلمين وكانوا مصدر ازعاج للسلطات حيث أقدمت على إعدام مؤذن جامع موسكو لمصادقته الطلاب المتدينين في المراحل النهائية من الدراسة[٣٤٤].

---

(٣٤٢) راجع البار، محمد علي ص ٣٣٧.

(٣٤٣) راجع: المصري، جميل ج٢ ص ٥٤٦-٥٤٧.

(٣٤٤) راجع: صابر طعيمة، ص ٨٤-٨٧.

٥) مرحلة الانفراج من سنة ١٩٨٠-١٩٨٩ وسببها التغطية على جرائمهم في افغانستان، ومسايرة الصحوة في العالم الاسلامي والتي زامنت الجهاد الاسلامي وثورة ايران، كي تتمكن من وضع الخطط لمكافحتهم والقضاء عليهم [٣٤٥]. وبذلك اختفت المنشورات التي تهاجم الدين وحلّت محلّها منشورات تعترف بقدرة الاديان على الاستمرار، ففتحت مدرسة (مير عرب) في بخارى، ومعهد بخارى في طشقند عاصمة (أوزبكستان) وعقد مؤتمر (**الامام البخاري والعصر الحديث**) في سمرقند حضره مندوبون عن العالم الاسلامي، مع قرارات لحرية العبادة فاستغل ذلك النصارى وطلبوا فتح كنائسهم، ومع ذلك بقيت المضايقات للمسلمين مثل محاكمة الدعاة ومقاومة الدعوة باصدار كتب تسيء للاسلام.. [٣٤٦].

وبعد أن ثبت فشل الشيوعية أحدث قاداتها انقلاباً عليها باحداث ثورة حقيقة في جميع المجالات بإلغاء أثر الانظمة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ وتكونت رابطة الدولة المستقلّة من أحدى عشرة جمهورية ست منها إسلامية ولكن يتحكم بها ١٠٪ من الروس ولايزالون أسياد الموقف ونأمل أن يكون المستقبل للإسلام إن شاء الله وخصوصاً أن معدل الزيادة بينهم في ارتفاع يقابله انخفاض في معدل نمو الروس، وعددهم على الراجح ما يقارب ٧٠ مليونا من جملة ٢٦٢ مليوناً وقد يصلون في نهاية القرن إلى ثلث السكان[٣٤٧].

ومع إحساس المسلمين بزوال الكابوس، بقيت أمامهم تحديات وعقبات خلّفتها الصراعات الفكرية مع النظام العالمي الجديد ونشاط اليهود، كما يواجه النشاط الاسلامي - بناء المساجد والمدارس والمكتبات الاسلامية- والانفتاح على العالم الإسلامي نشاطاً مضادًا تنصيريًا ينبغي الحذر منه وخصوصاً أنه يمتلك الإمكانيات المادية الضخمة... [٣٤٨]

---

(٣٤٥) راجع: صابر طعيمة، ص ٨٤-٨٧.

(٣٤٦) المصري جميل ص ٥٥٢-٥٥٣.

(٣٤٧) راجع معدلات الانخفاض والزيادة وتحسنها مع الجداول في سيد عبد المجيد بكر، ص ٢٥٣-٢٥٥.

(٣٤٨) ورد في مجلة المجتمع عدد(١٢٩٦) ٢١ أبريل ١٩٩٨ ص ٢٨-٣٩ مقالٌ لفاروق أصلان ذكر أن في أذربيجان وحدها ٢٠ منظمة تنصيرية، واعترف رئيس الابحاث الدينية الاذري أن خمسة آلاف مواطن أذري اعتنقوا النصرانية خلال فترة قصيرة نتيجة لنشاط تلك المنظمات التي ذكر أسماء أكثرها ومراكزها، كما أن هناك منظمات ترصد المهاجرين الاذرين في الولايات المتحدة..

محنة مسلمي الشيشان

تقع بلاد الشيشان أو الشاشان -اينغوش- (Chechnya) في السفوح الشمالية لجبال القوقاس، تتدفق إليها المياه من الجبال فتشكل أنهاراً، ولذلك تشتهر بخصوبتها، عدا الثروة النفطية بالقرب من جروزني[٣٤٩] وأصل الشاشان «من شعوب قفقاسيا القديمة جداً، وهم ينتمون أصلاً وعرقاً الى الشراكسة...وهم شديدوا المراس حديدوا المزاج، سريعوا الانفعال،وأشجع أهل القوقاز قاطبة...»[٣٥٠] كما عرف عنهم أنهم أهل تجارة وفن، غير أن الحروب شغلتهم وجعلت منهم شعباً خشناً وأمة ذات بأس شديد...

وصل الاسلام إلى هذه البلاد على يد الدعاة إلى الله من الصوفية في تركيا وفي الداغستان وأذربيجان في القرن الثامن عشر الميلادي، الثاني عشر الهجري[٣٥١].

سقطت المنطقة بيد القياصرة في القرن التاسع عشر (١٨٥٠م / ١٢٦٧هـ) وسيطروا على الشاشان عام (١٨٥٩م) وتم التهجير العرقي لمجموعة كبيرة الى تركيا وسوريا والأردن، وثار أهلها مرات، وقام فيهم الامام منصور رافعين شعار «أمة محمد لا تعيش في ظل الكفرة» فظلت تقاوم القياصرة متأثرة بحركة الجهاد في القوقاس وخاصة الداغستان تحت لواء الشيخ محمد شامل الذي جاهدهم مدة خمسة وثلاثين عاماً، وما أن انتهت حرب القرم حتى كون الروس جيشاً من (٣٠٠) ألف جندي وهجموا على بلاد الشراكسة وتمكنوا من أسر الشيخ شامل، فأخذت أفواج الشراكسة والداغستان والشاشان بالهجرة الى البلاد الاسلامية كالشام والعراق.

وقد فشل القياصرة في تنصير مسلمي الشيشان رغم الاضطهاد الشديد، واستقلوا من عام ١٩١٧-١٩٢١م، ولكن الحكم الشيوعي ألغى الاستقلال عام ١٩٢٢م واستولى على القوقاز بما فيها الشاشان، ومنحها لينين عام ١٩٢٢م حكماً ذاتياً للانغوش كذلك عام ١٩٢٤م ثم دمج المقاطعتين عام ١٩٣٦م وأعطيت اسم جمهورية الشاشان -اينغوش[٣٥٢].

---

(٣٤٩) في الشاشان أقدم شركات النفط في الاتحاد السوفيتي تأسست زمن القياصرة عام (١٨٩٣ م) وبعض نفطها خفيف خاص بالطيران، راجع تفاصيل النفط والمزارع في بحث « بلاد الشاشان» جمع وتقديم: أياد القيسي، وعماد محمد البغدادي بمجلة الحكمة عدد(٦) ص ٣١٠، ٣٥٥.

(٣٥٠) المصدر السابق، ص ٣١١-٣١٢.

(٣٥١) المصدر السابق ٣٣٩، والبار، محمد علي، ص ١٦١.

(٣٥٢) انظر: «بلاد الشاشان»، ص ٣١٤-٣٣٩، والبار، محمد علي ١٦١-١٦٢.

وكانت محنتهم كبيرة في ظل الحكم الشيوعي فعندما اتهم ستالين سكان هذه المناطق بالخيانة للألمان (الشاشان، والقرم وقابر ديار) أصدر أمره في ٢٣ فبراير ١٩٤٤م بنفي سكان الشاشان إلى سيبريا، وإلغاء جمهوريتهم، وتوزيع أراضيها على جورجيا (Gorgia)، فلاقى مسلموها الأهوال أثناء الهجرة حيث مات عشرات الآلاف، ثم معاناتهم في ثلوج سيبريا، وهكذا كانت بشاعة الحكم الشيوعي بنفي شعوب كاملة عن مواطنها[٣٥٣]. وعندما ألغي قرار ستالين و برأت هذه الشعوب من التهمة سمح لشعب الشيشان -اينغوش بالعودة إلى وطنهم عام ١٩٥٧ « وعند عودتهم إلى وطنهم وجدوا جميع مساجدهم وجوامعهم مهدمة.. » ورغم بقاء المنفيين خارج البلاد خمسة عشر عاماً إلا أنهم حافظوا على هويتهم وعند عودتهم أظهروا تمسكهم بالتقاليد الاسلامية ونظامهم العشائري الذي يبث فيهم روح المقاومة تجاه الروس.

وللمجاهدين الشيشان قصص بطولية تجاه الروس، فقد تركت التربية الجهادية الصوفية أثراً عميقاً بطابعهم المتميز بالصرامة وكراهة المستعمر «ويقر أكثر المراقبين السوفيت أن جمهورية الشيشان -اينغوش هي الحصن الحصين الأكثر صلابة للأسلام التقليدي، وإن سكانها هم الأكثر تديناً بين مسلمي الاتحاد السوفيتي ولخوف السلطات من ذلك سمحت لهم بفتح مسجدين قرب العاصمة (جروزني) عام ١٩٧٨ وخمسة أخرى في القرى حولها عام ١٩٨٠. ومعنى ذلك أن النفي لهذه الشعوب أعطى نتيجة لم تكن في الحسبان وهي الوثبة الجديدة للحركات الصوفية لأنها كانت الزاد الوحيد للأمة في معسكرات سيبريا... ودافعاً أساسياً لحب البقاء عند جميع المنفيين...»

وقد أثر النفي على الحالة العلمية فانخفض عدد المختصين مقارنة بغيرها من الجمهوريات حيث فقد نصف السكان أو ثلثاهم، وفيهم الخريجون والعلماء، كما لم تتح الفرصة لمن بقي في الالتحاق بالمعاهد والجامعات فحرم جيل كامل من التعليم وهذا ينطبق على بقية الشعوب المنفية[٣٥٤].

---

(٣٥٣) قام اليهودي مخائيل سوسلوف بتنفيذ حملة النفي لمسلمي القوقاز وعددهم مليونان وستمائة ألف راجع بلاد الشاشان ص ١٤٠، والبار، محمد علي ص ١٦٢.

(٣٥٤) راجع بحث «بلاد الشاشان» ص ٣٣٩-٣٥٥، والبار، محمد علي ١٦٢-١٦٥. وتشير احصائية عام ١٩٧٩ إلى ان عدد السكان ١٥٥٥٠٠٠ نسمة يشكل المسلمون ٦٦،٥٪ والباقي روس أخذ عددهم بالتناقص ففي احصاء عام ١٩٨٩ أصبحت ٦٩٪ وفي ١٩٩٤ ٧٦٪والمتوقع الآن ٨٥٪ راجع المجتمع عدد (١٢٣٣)، ٧ يناير ١٩٩٧، حمدي عبد الحافظ، *مستقبل الشاشان بعد الاستقلال* ص ٢٢-٢٥.

لن تنظم الشيشان إلى الاتحاد الروسي طوعاً لافي الماضي ولافي الحاضر بل ناضلت من أجل الاستقلال مدة ١٣٢ عاماً، وعند تفكك الاتحاد عام ١٩٩١م، كونت الجمهوريات الواقعة داخل خارطة روسيا أو القريبة منها اتحاداً، وربطت مباشرة بموسكو منها جمهوريات ذات أغلبية مسلمة مثل تتارستان والداغستان والتي تسيطر عليها روسيا سيطرة تامة[٣٥٥].

فقامت قيادة الشيشان بإعلان الاستقلال عن موسكو، وإخراج الكثيرمن الروس منها، ولكن روسيا أرادت بقاء الشيشان تحت سيطرتها للاستيلاء على ثروتها النفطية فرفضت موسكو استقلالها، وثار أهلها بقيادة جوهردوداييف في مطلع عام ١٩٩١ الذي تحدى الروس باسم الاسلام فساءت الاوضاع إلى أن وصلت بعد ثلاث سنوات إلى الحصار الشامل والمواجهة العسكرية.

وقد أثر الحصار وعدم تجاوب الدول أو تعاونهم معهم تأثيراً كبيرا على البلاد، حيث توقفت المرتبات وأغلب المصانع والمستشفيات والمدارس خصوصاً منذ عام ١٩٩٢ لانصراف المدرسين عن العمل عند فقدان رواتبهم فبدأت الهيئات الإسلامية في العمل، وحصل بعض طلاب الشاشان على منح دراسية كما ساعدت هيئة الاغاثة الاسلامية في التعليم وبناء المساجد[٣٥٦].

فلم يكتف الروس بما عملوه في السابق حتى أن ستالين ألغى البلاد من خرائط الموسوعة الروسية وأبادوا وشرّدوا السكان الذين كان عددهم خمسة ملايين بقي منهم مليون ونصف فقط، ففي العصر الراهن عصر الديمقراطية وحقوق الانسان -كما يدّعون- أصدرت الحكومة الروسية قرارا في ١/ ١٢/ ١٩٩٤ بنفي شعب الشاشان بكامله - بعد أن أقنعت الاينغوش بالانفصال عنهم - ودعمت ذلك بقرار في ٩/ ١٢/ ١٩٩٤ ينصّ على توزيع أراضي الشاشان على الجنود الروس العائدين من أوربا الشرقية وهم نصف مليون لتكون موطناً لهم[٣٥٧]، وبعد يومين غزت روسيا الشاشان ففوجؤا بصمود شعبها، وكانت مغامرة عسكرية لم تكن في الحسبان من قبل إخوانهم الاينغوش والداغستان لمنع وصول الجيش

---

(٣٥٥) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣٥٦) راجع: محمد مصطفى فريدفي تقرير لمنظمة المؤتمر الاسلامي عام ١٩٩٤ قبل الحرب من أجل دعم قضية مسلمي الشاشان، ص٤-٥.

(٣٥٧) راجع مجلة المجتمع عدد (١٢٥٠) ٢٠ مايو ١٩٩٧، ص ٢٨-٢٩ في حوار مع القائم بأعمال وزير الخارجية عمروف.

الروسي إليها وسقط الشهداء الأوائل من الأينغوش دفاعاً عن إخوانهم وإلحاق الضرر بالعدو الذي توعد بالوصول إلى مشارفها ولم يتمكن إلا بعد أسبوعين من دخول الشاشان على الرغم من بشاعة القصف الصاروخي والمدفعي[٣٥٨]، فعمد الروس الى قتل رئيسهم «دوداييف» يوم ٢١/ ٤/ ١٩٩٦م [٣٥٩]وسرعان ما ندمت القيادة الروسية على ذلك حيث زادت العمليات الجهادية ولم يحدث تنافس على القيادة كما كان متوقعاً[٣٦٠]وقام الشيشانيون بأعمال بطولية بقيادة «شامل باسييف» كبطل أسطوري يشبه الشيخ شامل، فهاجموا المواقع الروسية وأخذوا الآلاف من الأسرى والرهائن في عام ١٩٩٥-١٩٩٦م، وأخيراً قام المجاهدون في يوم ٩/ ٨/ ١٩٩٦م بتحرير العاصمة «جروزني» والسيطرة التامة عليها، وأكدت العملية الدعم الرباني لقلة من المؤمنين في مواجهة الكثرة الكافرة التي أعترف قائدها «الكسندر لبيد» بعد ذلك ووافق على وقف إطلاق النار فقال: «لا تنسوا أننا لم ننجح في القضاء على الشيشان في مائة سنة ولا يمكن هزيمتهم بالقوة، وأن فيهم جنوداً ممتازين، ولا يمكن كسب الحرب مع أمثال هؤلاء...»[٣٦١] فوقّع معهم «اتفاق إعلان المبادئ» في ١/ ٩/ ١٩٩٦ م والذي نصّ على إنهاء الحرب وسحب القوات الروسية وإرجاء الوضع النهائي للجمهورية وعلاقتها مع الاتحاد لخمس سنوات قادمة، وحظر اللجوء للقوّة[٣٦٢].. وهكذا جاء الاتفاق بعد صمود شعب صغير لمدة واحد وعشرين شهراً وانتصاره..

وكانت محنة الحرب وآثارها عميقة، فقد دمرت كل شيء، فهناك (٣٦٠) مدرسة دمرت تدميراً كاملاً عدا (٣٦) مدرسة أهلية و(٦١) دار حضانة، مع توقف ٥٠٪ من المدارس لعدم إمكانية إستمرارها لعدم توفر الرواتب لـ(١٣) ألف مدرس كما دمرت الكليات والمعاهد..

ودمرت (٣٧٥) مدينة وقرية تدميراً شاملاً وكذلك المصانع بما فيها مصنع النفط والغلال كما تعرضت كل المستشفيات للدمار وسويت بالأرض فحولت مبان أخرى لمستشفيات

---

(٣٥٨) راجع مجلة المجتمع عدد (١٢٨٣) ٦يناير ١٩٩٨، ثلاث محطات في تاريخ المسلمين السياسية.

(٣٥٩) راجع مجلة المجتمع عدد (١٢٠٢) ٤يونيو ١٩٩٦، ص ٥، وشارك في عملية الاغتيال الاستخبارات الأمريكية والاسرائيلية بالتنسيق مع روسيا فكشف ذلك زيف دعاوى مبادرة السلام الروسية والتي استهدفت تحديد مكان الرئيس عبر الوسطاء لقصف المكان، وزعم المسؤولون الروس إن قتله كان تنفيذاً لقرارات مؤتمر شرم الشيخ في القضاء على الارهاب!.

(٣٦٠) راجع مجلة المجتمع عدد (١١٩٩) ١٤ مايو ١٩٩٦، ص ٣٤-٣٥ « مستقبل الشيشان بعد دودايف ».

(٣٦١) راجع مجلة المجتمع عدد (١٢٨٣)، والعدد (١٢١٣)، ٢٠ اغسطس ١٩٩٦، ص ٢٠.

(٣٦٢) راجع مجلة المجتمع عدد (١٢٣٣)، ٧ يناير ١٩٩٧، ص ٢٤-٢٥.

ومن آثار الحرب كذلك، نصف مليون عاطل عن العمل عـدا المهـاجرين والمشـرّدين بسـبب الحرب البالغ عددهم نصف مليون[٣٦٣].

وقد شهدت أيام الحرب فضائع للروس من ذلـك تقطيـع آلآف الجثـث وأخـذ أعضائهـا والمتاجرة بها ودفن ما تبقى ليلاً في مقـابر جماعيـة[٣٦٤] ووصـل عـدد القتلـى إلى (٢٠) ألـف شهيد.. كما لازالت روسـيا تثير القلاقـل لإعاقـة خطـط التنميـة وإعـادة الإعمـار لمنعهـم من الاستقلال[٣٦٥].

والتقارير الرسـمية الروسية لاتذكـر الرقـم الحقيقي لقتلاهـم حيث ذكـر التقريـر الرسـمي أن عددهم ٢٨٠٥ جنـود مـن وزارة الدفـاع، و٦٧٨ مـن قـوات وزارة الداخليـة في حـين تقـول المصـادر الشيشـانية أن خسـائرهم تقـارب (١٨٠) ألـف قتيـل وكـانوا يدفنـون في كـلّ قـبر (٨٠٠-١٠٠٠) قتيل كما ذكر المسؤول الشيشاني أن الله نزع الخوف حتى من قلوب الأطفال.

وهكذا تتشابه الروائع والقصص بين المسلمين والسلاف الشماليين في روسيا، والجنوبيـين في يوغسلافيا، وبينما كانت المجازر الصربية ضدّ مسـلمي البوسـنة شـنّت حربـا مماثلـة ضـدّ الشيشان، مع سكوت العالم عن الجريمة. والمحنة العظمى في اعتبار دفاع المسلم عن عقيدتـه وأرضه إرهاباً! فلله الأمر من قبل ومن بعد.

تفسير القرآن وتحليله للواقع

«وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة، وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه.. وفي هـذا إن المتأمل لنصوص الآيات القرآنية الخاصة بعلاقة المسـلمين مع أهـل الكتـاب لايستغرب مـن الواقع المؤلم للمسلمين على يد الغرب، فقد نبهنا القرآن الكريـم علـى كيـد الأعـداء وعداوتهـم المستمرة، أما سبب ذلك فيجيبنا عنه القرآن الكريم، وهو كراهية أهـل الكتـاب الخير للمسـلمين فيقول: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٣٦٦] في هذه الآية يكشف تعالى

---

(٣٦٣) راجع مجلة المجتمع عدد (١٢٥٠)، ٢٠ مايو ١٩٩٧،ص ٢٨-٢٩، وجاء تقرير الخسائر على لسـان القائم بأعمال وزارة الخارجية.

(٣٦٤) راجع مجلة المجتمع عدد (١٢١٤)، ٢٧ أغسطس ١٩٩٦، مقال « الروس يقومون بأكبر عملية أبادة عرقية ويتاجرون بأعضاء القتلى» الشيشان، التفاصيل ص ٣٦.

(٣٦٥) راجع مجلة المجتمع عدد (١٢٣٦)، ص ٤٣.

(٣٦٦) البقرة ٢: ١٠٥.

عما تكنه صدور أهل الكتاب والمشركين عامة من الشر والحسد بسبب اختصاصهم بالرسالة، يقول ابن كثير: يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين -من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم- للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيه محمد ﷺ حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٣٦٧].

ويلاحظ أن القرآن الكريم جمع بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر، لأن كلاهما كافر برسالة محمد ﷺ، فهما سواء من هذه الناحية، كما أن كلاً منهما يضمر الحقد للمسلمين ولا يود لهم الخير، ولأن الله اختارهم لهذا الخير وحباهم بنعمة القرآن، فأعلنوا عداوتهم لهذا الدين، وحتى جبريل الذي نزل بالوحي، يقول سيد قطب في ختام الآية ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾: التلميح ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا الشعور بالحذر والحرص الشديد. للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها ويقودها اليهود لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين»[٣٦٨].

ويؤكد القرآن المعنى في آية أخرى فيقول: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣٦٩].

توضح الآية مدى رغبة أهل الكتاب في رد المسلمين عن دينهم، فتفسر لنا كل جهود المشككين، كالمستشرقين والمنصرين، وان سبب ذلك الحسد ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾، نقل ابن كثيرعن أبي العالية: «من بعد ما تبين أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً»[٣٧٠].

وقد ذكر المفسرون أسباباً في نزول الآية عن اليهود الذين كانوا يعملون في رد الناس عن الإسلام، وأياً كان السبب فهو يتكرر إلى يومنا هذا، وهو أن المؤمن بهذا الدين محسود.. كما نبه القرآن إلى ما يفعله الحسد في النفوس، حيث يجعلها ترغب في سلب الخير

---

(٣٦٧) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، ج١ ص١٠٣.
(٣٦٨) سيد قطب، *في ظلال القرآن الكريم*، م١ ج١ ص١٠١.
(٣٦٩) البقرة ٢: ١٠٩.
(٣٧٠) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، ج١ ص١٠٦.

الذي يهتدي اليه الآخرون،لأنها تعلم أنه حق وكله خير «وهكذا يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر، ومكمن الدسيسة، ويعبئ مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد والحسد الذميم»[٣٧١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾[٣٧٢]، أي: «يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تمادياً في الجحود وكفراً بآيات الله»[٣٧٣].

وقد عبر اليهود عن ذلك الحسد بالتشكيك وبث الشبهات، وسرت العداوة منهم إلى كل حاقد على الإسلام.. ومنهج أهل الكتاب في تضليل المسلمين وتشكيكهم كان من بداية الإسلام، قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٣٧٤]، قال الزمخشري: «هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية... وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم..»[٣٧٥]، وقال القرطبي: «أي يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له.. وما يشعرون: أي أنهم لا يصلون إلا إضلال المؤمنين»[٣٧٦].

ثم يذكر القرآن صوراً من تشكيك أهل الكتاب، أرادوا به أن يلبسوا على الضعفاء أمر دينهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣٧٧] أي أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ولهذا قالوا: ﴿لعلهم يرجعون﴾[٣٧٨]، «ووجه النهار: يعني أوله، وسمي وجهاً لأنه أحسنه»[٣٧٩] وهي طريقة ماكرة لبلبلة الأفكار وخاصة أن العرب كانوا يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بطبيعة الديانات والكتب.

---

(٣٧١) سيد قطب، *في ظلال القرآن الكريم*، ج١ص٦٥٧.
(٣٧٢) المائدة ٥: ٦٤.
(٣٧٣) الزمخشري، *الكشاف*، ج١ ص٦٥٧.
(٣٧٤) آل عمران ٣: ٦٩.
(٣٧٥) الزمخشري، ج١ ص٣٧٢.
(٣٧٦) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، ج٤ ص١٠٤.
(٣٧٧) آل عمران ٣: ٧٢.
(٣٧٨) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، ج١ ص٢٩١
(٣٧٩) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، ج٤ ص١٠٥.

وهذا الذي فعله اليهود تابعهم فيه النصارى الصليبيون إلى يومنا هذا من كتمان الحق والتشكيك فيه، وقد مر بنا كيف دسوا في تراث المسلمين، وما يزال المستشرقون وتلاميذهم الذين ارتقوا المناصب يؤدون دورهم.

وما تزال هذه الخدعة في صور شتى تتناسب مع كل جيل، ولهم جيش جرار من العملاء في صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين، وكتاب وشعراء وفنانين يحملون أسماء المسلمين، وبعضهم من علماء المسلمين !في صورة بحث وشعر وقصة وصحافة.. وكلها للتهوين من شأن العقيدة... وهم بهذه المحاولة -بأسمائهم الإسلامية- يعلنون الإسلام وجه النهار ويكفرون آخره.. ويؤدون دور أهل الكتاب القديم[٣٨٠].

ويحدد القرآن في خطابه للرسول ﷺ طبيعة المعركة بينه وبين أهل الكتاب وهو توجيه للأمة في شخص الرسول لأهميته فقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[٣٨١]، وهكذا عماهم حقدهم عن قبول الحق الذي لاينقصه دليل «كأنهم قالوا: لن نرضى عنك وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا وإقناطاً منهم لرسول الله ﷺ عن دخول الإسلام»[٣٨٢]، وقال القرطبي: «وليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا، بل لو أتيتهم بكل ما يسألون لن يرضوا عنك، وإنما يرضيهم ترك ماأنت عليه من الإسلام»[٣٨٣]، أي أن تمام الرضا ﴿حتى تتبع ملتهم﴾ وكل ما سوى ذلك مرفوض.

وهكذا استمرت العداوة لأمة محمد ﷺ، وياتي هذا الصراع متخذاً أشكالاً وألواناً مختلفة، ولازلنا نرى صدقها لليوم في جيوش المنصرين، والمستشرقين.. ولكن بعد أن جربوا حماسة المسلمين لعقيدتهم غيروا النغمة باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة والقواعد العسكرية..

وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله ﴿ملتهم﴾ بإفراد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾[٣٨٤].

ويأتي التوجيه للأمة بشخص الرسول ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ ثم يأتي التهديد والوعيد لمن اتبع ملتهم ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ

---

(٣٨٠) راجع: سيد قطب، *في ظلال القرآن*، م١ ج٣ ص ٤١٥

(٣٨١) البقرة ٢: ١٢٠.

(٣٨٢) الزمخشري، *الكشاف*، ج١ ص ١٨٢.

(٣٨٣) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، ج٢ ص٩٠.

(٣٨٤) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*،ج١ ص١١٤، والآية من سورة الكافرون ١٠٩: ٦.

مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[٣٨٥]، «فيه تهديد ووعيد شديد للأمة.. فإن الخطاب للرسول والأمر لأمته»[٣٨٦].

وينبه القرآن المسلمين بأن المعركة ليست قاصرة على زمن الرسالة، بل سوف تستمر، حتى وإن لم تتبع ملتهم فيكفي أن يرتدوا عن دينهم، قال تعالى: ﴿... وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[٣٨٧]، ونحن لا نحتاج إلى دليل أقوى من القرآن لكي نفهم سلوك الأعداء، فوجود الإسلام على بقعة من الأرض كاف لتحريك ضغائنهم ليردونهم، وقد مرت علينا أمثلة من ذلك في مأساة مسلمي البلقان وروسيا كما مر علينا عند الحديث عن المستشرقين عن تحول الخطة -بعد فشل التنصير- إلى ذبذة المسلم لترك عقيدته.

وفي الآيتين الأخيرتين حقيقتان يغفل عنهما الكثيرون.. فأرادوا كسب ود أهل الكتاب وصداقتهم، ولكن واقع الأمة شاهد على أنهم يتربصون بها.. وتسعى الملة الكافرة بكل ما لديها لإذل الأمة، وألا تترك لها فرصة للنهوض، وقد ظن البعض أنه بالإمكان أن تتغير نظرة الأعداء تجاهنا، وأن يتبدل عداؤهم إلى ود وصداقة، وتزلف لهم المسلمون، والواقع يبرهن فشل ذلك، وأنه لن يؤدي إلا إلى مزيد من الذل والهوان، وهؤلاء يخدعون أنفسهم وشعوبهم، ولو أنهم يؤمنون حق الإيمان بما أخبر الله به لما وقعوا في تلك الأخطاء..فالذين يسعون لرضا الأعداء سيدفعون الثمن غالياً، وهو التنازل عن الدين «فتصور بقاء المسلم على إسلامه مع رضا اليهود والنصارى عنه تصور باطل يرده القرآن بوضوح، ووقوع أمر خلاف ما أخبر به القرآن أمر مستحيل، فالذين يسعون لكسب رضا هؤلاء مع ظنهم بأن هذا يحفظ عليهم دينهم، إما أنهم غافلون عن هذه الحقيقة القرآنية فيسعون وراء المستحيل وإما إنهم يعرفون ذلك ولكنهم يتجاهلون ويخدعون أنفسهم وأمتهم وفي كلتا الحالتين هم الخاسرون»[٣٨٨].

والحقيقة الأخرى هي أن الأعداء لن يكفوا عن قتالنا إلا بعد أن يردونا عن ديننا -لا سمح الله- وهذا يتطلب حذر المسلمين واستعدادهم الدائم للمعارك «فتصور بقاء الكافرين معنا في دائرة السلم مع كوننا مسلمين تصور باطل يرده القرآن... وحدوث أمر خلاف ما أمر به القرآن مستحيل »[٣٨٩].

---

(٣٨٥) البقرة ٢: ١٢٠.

(٣٨٦) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، ج١ ص ١١٤.

(٣٨٧) البقرة ٢: ٢١٧.

(٣٨٨) عبد رب الرسول سياف، في مقال في *مجلة المجتمع* ، عدد ١٢٠٤،في ١٨/ ١١/ ١٩٩٦م، ص٢٧.

(٣٨٩) المصدر السابق.

لقد اتضح من الآيات السابقة تفسير واقع المسلمين وسبب تحامل الأعـداء.. إنها الحقد والحمية الدينية، ولا نصدق مايقال من أن الحمية لم تعد تحرك أوربا اليـوم.. لأن الديـن لـم يعد له تأثير في حياتهم إنما هو مجرد استعمار اقتصادي.. ويرى الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» أن الغرب عـدم الحاسـة الدينيـة وأن نظرتهـم إلى الأمور مادية بحتة[٣٩٠]، والكلام ليس على إطلاقه لأن هذا لايمثـل كـل الغـرب، وإذا أقررنـا بحقيقة هجرة أكثر أوربا للدين وعدم تحكيمه في واقع حياتها.. فإن هذا شيء والحقد الصليبي شيء آخر، يقول الأستاذ محمـد قطـب: «إن الحقـد الصليبـي ليـس مبعثـه بـالضرورة تديـن النصارى.. إنما سببه الأساس هو وجود المسلمين! وسـواء كـانوا متدينـين أو منسـلخين مـن دينهم فلن يرضوا عن المسـلمين طالما هـم مسـلمون»[٣٩١]. إن الحـروب الصليبيـة حـددت موقف أوربا من الإسلام والتي حصلت قبل نهضة أوربا فظلـت آثارهـا في أعمـاقهم، ولـن تتمكن النهضة إزالتها، وخصوصاً أنهـا توحـدت لأول مـرة معـاً ضـد العـالم الإسـلامي.. وأصبح لها هدف مشترك في ظـل تلـك الظـروف تسـمم العقـل الأوربـي وتشـوه الإسـلام وتعاليمه من قبل قادتهم وكنائسـهم، والتـي اسـتثمرها نصـارى الأندلـس لصـالحهم في دقّ طبول الحرب ضد المسلمين.. ثم زاده سقوط القسطنطينية التي فتحت أوربا للمسلمين، هـذا فضلاً عن حقدهم الأساسي على الإسلام من قبل، ويتضح لنا أن التحـرك الإقتصـادي مـن بعد إلى الشرق كان بدافع حرمان المسلمين من ثرواتهم ومصدر قوتهم.. وحين طغى العـامل الإقتصادي -ظاهرياً- يلاحظ الفرق بين الإستعمار الإقتصادي لبلاد الإسلام عن غيرهـا، حيث يرادف الهدف الإقتصادي لديار الإسلام محاولة مستميتة لتنحيـة الإسـلام وإزالـة كـل مظاهره، وبتدبير وبتخطيط مسبق، ولايرضى عنهم إلا بذلك[٣٩٢].

وبقي أن نعرف أنه ما دام القرآن قد نبه إلى ذلـك فلمـاذا وهـن المسـلمون وأقبلـوا علـى الحضارة الغربية غثها وسمينها!، يذكر المفكرون أسباباً من أهمها الإنبهار بالحضـارة والتقـدم العلمي أو بسبب الهزيمة العسكرية وتقليد المغلوب للغالب! ولكن الذي يدرس التاريخ يرى أن الأمة صاحبة العقيدة لاتؤثر فيها الهزيمة العسكرية.. فقد هزم المسلمون مرات ولـم تحدث تلك الإنتكاسة، فقد هزموا في أحد ،وصـور القـرآن ذلـك وكيـف عـزّ عليهـم مـا أصابهم

---

(٣٩٠) راجع: أبو الحسن الندوي، ط دار القلم، الكويت، ١٩٧٧ ص ١٩٩-٢٠٣.

(٣٩١) راجع: محمد قطب، *واقعنا المعاصر*، ص١٩١.

(٣٩٢) راجع: محمد قطب، ص١٩٥.

وهم المجاهدون.. وجاءهم التوجيه الرباني البلسم الشافي بقوله: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٣٩٣]، وقد وعت الأمة هذا ولم تعد الهزيمة توهنها بل تستدرك أخطاءها وتستعلي بالإيمان، كما هزم المسلمون أمام التتار وكانوا ينظرون إليهم على أنهم وثنيون كما لم ينظروا للصليبين على أنهم خير منهم بل على أنهم مشركون عباد الصليب، ويحتقرونهم لفساد أخلاقهم.. وكذلك قضية الانبهار لاتكفي لتفسير الظاهرة فقد واجه المسلمون الفاتحون حضارتي الروم وفارس ولم يشعروا أنهم أعلى منهم، بل طوعوا ما احتاجوا إليه من علم لمنهج حياتهم وتركوا معتقادتهم الجاهلية وأفكارهم وسلوكهم..

أما ما حصل في العصر الحديث من الإنبهار إلى درجة التسليم والتبعية الكاملة فذلك مرده إلى الهزيمة النفسية الداخلية الناتجة عن ضعف الإيمان وحب الدنيا والإقبال عليها.. فالآية اشترطت الإيمان ﴿..إن كنتم مؤمنين﴾ للإستعلاء الذي يحول دون الحزن والوهن الذي يؤدي للاستسلام والكف عن المقاومة، وذلك قرين الإيمان، وهو يعصم الأمة من الهزيمة الروحية، وكفيل بأن يجعل الأمة تستعيد وتستدرك فتقوم من كبوتها، وتتأهب لمواجهة أعدائها..[٣٩٤].

كما ينبه القرآن إلى موقف آخر نلمسه في همجية الأعداء ووحشيتهم.. فهم لا يلتزمون بالعهود مع المسلمين، ولا يلجأون إليها إلا في حالة ضعفهم، قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٣٩٥]، قال ابن عباس: «الإل: القرابة، والذمة والعهد، وقال مجاهد: الإل الله، أي لا يرقبون الله ولا غيره..»[٣٩٦]، أثبت القرآن هذه الحقيقة وهي مستمرة على مر الدهور لشدة ما يكنون من الحقد، فلا يمنعهم من نكث العهود والمواثيق إلا قوة المسلمين عندها يتوددون بالقول وقلوبهم منكرة، وقد أكدتها الآية اللاحقة ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلاَ ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾[٣٩٧]، فالحقد والنقمة لصفة الإيمان كما قال رسول الله ﷺ في سياق القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا﴾[٣٩٨] وعن أهل الأخدود:

---

(٣٩٣) آل عمران ٣: ١٣٩.

(٣٩٤) راجع محمد قطب، ص٢١١-٢١٥.

(٣٩٥) التوبة ٩: ٨.

(٣٩٦) الصابوني: *مختصر تفسير ابن كثير* ج٢، ص١٢٨.

(٣٩٧) التوبة ٩: ١٠.

(٣٩٨) المائدة ٥: ٥٩.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٣٩٩]

واليوم يتحمل المسلمون ما حاق بهم من كيد الأعداء، وليست لهم حجة بأن أعداءهم كادوا لهم، لأن القرآن نبه على ذلك، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[٤٠٠]، فالصبر هنا هو الصبر على هذا الدين وتكاليفه والأستقامة على أمره والتقوى هي اتقاء سخط الله وغضبه ولا يكون إلا بتنفيذ أوامره والإنتهاء عن نواهيه..

نخرج من هذا أن المسلمين أصابهم النذير بتداعي الأمم عليهم والذي تحقق بسبب تهاونهم في حمل الأمانة، والتقاعس عن الجهاد ومتطلباته والتقصير في عمارة الأرض والمعاصي والجهالات، والفرقة وموالات الكفار التي نهى الله عنها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ..﴾[٤٠١]، فأصابتهم السنة التي لا تتبدل كما أكدتها النصوص سنة المداولة والتمحيص﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[٤٠٢] لكي تمنح الأمة فرصة لتكفر عن سيئاتها وظلمها، فكل النماذج العاصية التي ذكرها القرآن والتي نالت عقابها واقعة بشكل أو بآخر في المجتمعات الإسلامية فكان لزاماً أن تنطبق عليهم السنن الإلهية.. لأن العقاب الشامل لا يتأتى إلا بعد أن تستنفد الامة كافة مبررات البقاء.. والقرآن يعطي الأمل بالنشوء مرة أخرى عند استكمال الشروط اللازمة وأولها عملية التغيير الداخلي ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٤٠٣]، فلا داعي لليأس إذاً فقد يحقق الله للأمة التمكين إذا تحقق شرط الإستقامة كما قال تعالى﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[٤٠٤].فالعقاب للأمة الإسلامية لم يكن إبادة نهائية ولا تصفية جسدية، إنما هو التمزق والتشتت الذي جعلهم يتنازلون عن دورهم القيادي، تحقيقاً لسنة الاستبدال والتداول

---

(٣٩٩) البروج٨٥: ٨.

(٤٠٠) آل عمران٣: ١٢٠.

(٤٠١) المائدة ٥: ٥١.

(٤٠٢) آل عمران٣: ١٤٠.

(٤٠٣) الرعد١٣: ١١.

(٤٠٤) النور٢٤: ٥٥.

التي تضع قوماً وترفع آخرين..[٤٠٥]، فكان العقاب بتراجع الحضارة الإسلامية والذي أخذ مراتباً أشدها وأقساها السقوط والتحطيم كما حصل في الأندلس، والتعطيل كما في تركيا، والتشويه كما هو حاصل في بقية الشعوب الإسلامية.

ولكن الله منّ على هذه الأمة بأن بصرها بطريق العودة كلما ابتعددت عن المنهج حتى إذا بلغ التراجع ذروته تنبه المسلمون الى ما فقدوه وضيعوه.. فحصلت الصحوة الإسلامية المباركة التي فاجأت وأذهلت الأعداء.. فأعداء الداخل الذين ركزوا على الحضارة الغربية وأداروا ظهرهم للإسلام.. وأعداء الخارج الذين بذلوا الجهود المضنية لقرون لإبعاد الأمة عن دينها، حتى ظنوا أن مرادهم قد تحقق.. ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾[٤٠٦] وهؤلاء وأولئك أغفلوا حقيقة أن المدبر هو الله وهو الذي وعد بإظهار الدين فقال ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٤٠٧].وقد كانت المفاجأة لهؤلاء أن الصحوة جاءت من الطبقة المثقفة والذين ظن الأعداء أنهم ابتعدوا عن الإسلام فإذا بهذه الطبقة تقود موجة الصحوة المباركة حيث أظهروا للناس أن ما أصاب المسلمين من التخلف ليس سببه الإسلام إنما هو البعد عن الإسلام ومنهجه ومصادره من كتاب وسنة..[٤٠٨]

وقد سارع شياطين الإنس في الوقوف في وجه الصحوة وجندوا كل الوسائل للإساءة للإسلام وتشويه صورته، للحد من نشاط الصحوة في العالم الإسلامي، ومنع انتشارها في مجتمعاتهم.. ولذلك فأمام الصحوة تحديات كبيرة متمثلة بأكبر تجمع وهو النظام العالمي الجديد.

---

(٤٠٥) راجع: عماد الدين خليل، *التفسير الإسلامي للتاريخ* ص٣٢٢-٣٢٣.

(٤٠٦) النساء٤: ٨٩ .

(٤٠٧) الصف ٦١: ٨-٩

(٤٠٨) راجع: محمد قطب، *واقعنا المعاصر* ص٣٦٤-٣٧٩.

الفصل الثاني
فوائد الفتن والمحن وضوابط مواجهتها

المبحث الأول:
فوائد الفتن والمحن وحِكَمُها

ما دامت الفتن والمحن من السنن الإلهية، فلا بد أن يكون وراءها فوائد وحكم تتحقق سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، أو على مستوى الأمة حسب طبيعة تلك الفتنة والمحنة، ويمكن تقسيم تلك الفوائد بناء على ذلك إلى فوائد فردية وأخرى جماعية، ومنها ما هو مشترك بين الصنفين سأنبه إليه عند الكلام عنه.

أ- الفوائد والحكم الخاصة (الفردية):

أولاً: إدراك عظمة الله وقدره وصفاته وذلك بمعرفة الشخص الذي ألمت به محنة وفتنة قدر الله وعظمته وأسماءه الحسنى، في أنه الجبار القهار، والمعز، المذل، والرافع الخافض، يقول العز بن عبد السلام في فوائد البلوى: «معرفة عز الربوبية وقهرها، وذل العبودية وكسرها»[1]، فيوقن الإنسان ألا مفر من أمر الله وقضائه، وحكمه النافذ وابتلائه، فالكل ملكه وعبيده، يتصرف كيف يشاء، إليه يرجع الأمر كله ثم إليه المصير، فعند ذلك يسترجع الإنسان في الضراء فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون[2]، ويشكر على فتنة السراء بما يرضي الله.

وتتحقق العبودية بذلك في فتنة السراء والضراء، قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في حكمة الابتلاء:

«استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وفيما يكرهون، وفي حال ظفرهم، وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وفيما يكرهون، فهم عبيده حقا وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية»[3].

---

(١) العز بن عبد السلام، *الفتن والبلايا والمحن والرزايا، أو فوائد البلوى*، تحقيق أياد خالد الطباع، ط٢ دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٢، ص٩، وراجع ابن ناصر الدين الدمشقي، محمد بن عبد الله، *برد الأكباد عند فقد الأولاد*، دار النصر للطباعة الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٨، ص٦٦.

(٢) البقرة ٢: ١٥٦.

(٣) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، *زاد المعاد في هدي خير العباد*، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤، ج٣، ص٢٢٠.

كما يتحقق ذل العبودية والشعور بها، والحاجة إلى الله وتأييده في مواطن الضعف والحرمان والانكسار، ويحتاج إلى نصر الله، فيذل ويخضع وينقاد لله بتنفيذ أوامره والكف عن معاصيه، وبذلك يقول ابن القيم رحمه الله:

«ومنها إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلقة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[٤]. وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[٥]، فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره، كسره أولا، ويكون جبره له، ونصره على مقدار ذله وانكساره»[٦].

وأشد المواقف فتنة ومحنة التي يظهر فيها مثل ذلك من عز الربوبية وقهر العبودية وذلها، -وتجعل الإنسان يقر لها- الكوارث الطبيعية كالريح العاصف والزلزال والطوفان، ولو أخذنا حال البحر لكفانا، يقول الغرناطي:

«وإذا كان الابتلاء بمثل ارتجاج البحر، واشتداد عاصف الريح وذلك مظهر لعظمة الله عظيم، ومشهد لحصول الشهادة كبير، وفيه قيل: «البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف، دود على عود»، ...وقيل لبعض التجار: ما أعجب ما رأيت في البحر؟ قال: سلامتي منه،...ويبدو فيه ضعف ابن آدم وافتقاره وفاقته إلى رحمة الله، واضطراره، ما يقع به الإجماع من أرباب الملل والنحل على اختلاف أديانهم وتناقض ما بين كفرهم وإيمانهم، أنهم لا ملجأ لهم من الله إلا إليه، ولا معول لهم في نجاتهم إلا عليه»[٧].

وقد نص على ذلك الكتاب العزيز في غير ما موضع، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[٨]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ

---

(٤) آل عمران ٣: ١٢٣.

(٥) التوبة ٩: ٢٥.

(٦) ابن قيم الجوزية، *زاد المعاد*، ج٣، ص٢٢١.

(٧) الغرناطي، *جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى*، ج٢، ص١٨٠-١٨١، وراجع فيه قصصاً من أحوال البحر تدل على ذل العبد حين البلاء واعترافه بعظمة الله إلى ص ١٨٨.

(٨) الإسراء ١٧: ٦٧-٦٩.

مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾،[9] فالناس في هذه الحالة من الشدة أنهم في أعلى حالة من الركون إلى الله تعالى واللجوء إلى رحمته، على حالة تناقض غفلتهم عن ذلك في السلامة، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا أن يقولوا «بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم» وما قدروا الله حق قدره...»[10].

وفي قصة يونس عليه السلام عبرة لكل معتبر، وكان اللجوء إلى الله بالدعاء الخالص قد أنجاه حيث دعا كما قال تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[11].

وفي أخرى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[12].

ومن آثار عبودية صاحب الفتنة ومعرفته لقدر الله وعظمته في السراء والضراء أمران:

أ- حصول الإخلاص لله والإنابة إليه،[13] لأنه لا مرجع للإنسان في دفع الشدائد إلا الله، ولا معتمد في كشفها إلا هو، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾[14] وقال تعالى كذلك: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[15].

وكذلك الاعتماد على الله في استمرار النعم في فتنة السراء، بأن يتم النعمة ويحفظها، كنعمة الصحة والعافية والأولاد والمال وغيره..

ففي الحالتين تعلم الفتنة صاحبها الإخلاص لله وتصفية النفوس من كل شائبة تكدر صفو الإيمان حيث:

«إن الإيمان من شأنه أن ينقي النفوس من الشوائب، والقلوب من الرياء، والعمل من الشرك ويوجهها نحو الإخلاص بل يصهرها في بوتقة الإخلاص بحيث تبتغي في قولها وعملها رضا الله تبارك وتعالى وثوابه»[16].

---

(٩) يونس ١٠: ٢٢.

(١٠) النووي، يحيى بن شرف، *الأذكار*، ط الهلال، بيروت، ١٩٨٦، ص١٩٩، والآيتان من هود ١٠: ١٤، والحج ٢٢: ٧٤.

(١١) الأنبياء ٢١: ٨٧.

(١٢) الصافات ٣٧: ١٤٣-١٤٤.

(١٣) العز بن عبد السلام، *فوائد البلوى*، ص٩-١٠.

(١٤) الأنعام ٦: ١٧.

(١٥) العنكبوت ٢٩: ٦٥.

(١٦) أبو فارس، محمد عبد القادر، *الابتلاء والمحن في الدعوات*، ص٣٨.

كما تعلمه المحنة الإنابة إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾،[17] «أي: راجعا إليه مستغيثا به في دفع ما نزل به، تاركا لما كان يدعوه ويستغيث به من ميت أو حي أو صنم أو غير ذلك»[18].

وبذلك تكون فائدة الفتن والمحن في النقاء الروحي، ففي حالة الابتلاء يزداد المؤمن تعلقا بالعبادات ويكثر من النوافل، ويتوجه إلى الله تعالى بالرجاء فيتصل القلب بالله وتتعلق الروح بحبل الله المتين، وتنقطع عن الأمور الدنيوية التي تشغله عن ذلك.

ب- التضرع والدعاء إلى الله: يتجه الإنسان عند المحنة والبلاء خاصة إلى الله بالدعاء، ولولا المحنة لما فعل ذلك، وقد مر ذكر ذلك في آيات كثيرة منها: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾،[19] وقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾،[20] وقوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[21].

عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال: «علمتني أمي أسماء بنت عميس شيئا أمرها رسول الله ﷺ أن تقوله عند الكرب: «الله الله ربي لا أشرك به شيئا»[22].

ففي الظروف الحرجة حين يفقد الإنسان السبل المادية للنجاة والتخفيف عما هو فيه من المحنة لا يبقى أمامه إلا الله تبارك وتعالى، فهو وحده الذي يثبته ويعينه ويخفف عنه فيتجه بكليته إلى ربه يدعوه.. فيحصل الإخلاص في الدعاء وصدق الإنابة والالتجاء وشدة التضرع لمن لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.. قال بعض السلف: «سنة الله استدعاء عباده لعبادته، بسعة الأرزاق ودوام المعافاة... فإذا لم يفعلوا ابتلاهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون»[23].

---

(١٧) الزمر ٣٩: ٨.

(١٨) الأشقر، محمد سليمان، *زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني*، ط٢، شركة ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٨، ص٦٠٧.

(١٩) الروم ٣٠: ٣٣.

(٢٠) الأنعام ٦: ٤١.

(٢١) الأنعام ٦٣:٦.

(٢٢) أبو داود، *سنن أبي داود*، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، ج٢، ص١٨٢، ح(١٥٢٥)، وابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، كتاب الدعاء، باب الدعاء عند الكرب، ج٢، ص١٢٧٧، ح(٣٨٨٢)، والنسائي، أحمد بن شعيب، *عمل اليوم والليلة*، تحقيق فاروق حمادة، ط الرسالة، بيروت، ١٩٨٧، ص٤١٢، رقم (٦٤٨)، والإمام أحمد، *المسند*، ج٦، ص٣٦٩.

(٢٣) ابن ناصر الدمشقي، *برد الأكباد عند فقد الأولاد*، ص٦٧.

ثانيا: التمحيص والتمييز

في الفتن والمحن يظهر الناس على حقيقتهم، ففي التجربة تتبين حقيقة الفرد.. فليس كل من يدعي الصبر هو صابر، أو يدعي الزهد هو زاهد، فالمصائب كالمرض والفقر والجوع والآلام، وفقدان الأولاد وذهاب الأعزاء وخسارة الأموال وغير ذلك من الابتلاءات، لا تطيقها كل النفوس فهناك من النفوس الضعيفة ما تجزع وتتبرم إذا أصابها شيء من ذلك.. وهناك من النفوس المؤمنة القوية في إيمانها من يتحمل كل هذه الآلام لأنها من الله تبارك وتعالى، وترضى بقضائه وقدره ولذلك كانت تلك الفتنة والمحنة لتمييز أصحاب الهمم العالية والعزائم القوية بإيمانها والقلوب المخلصة، من أصحاب الهمم الضعيفة والنفوس الهابطة، والعزائم الخائرة والقلوب المريضة[٢٤].

والطريق لكشف هذه الحقائق.. حقائق الناس هو الفتن والمحن والابتلاء.. ويظهر التمييز في أمور مهمة منها:

أ- تمييز الصادقين من الكاذبين، وذلك لأن الصدق أساس الإيمان، وأساس قبول يترتب الثواب عليه، كما قال تعالى: ﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾[٢٥].

وصفة الصدق تفرق بين المؤمنين من المنافقين يقول ابن تيمية:[٢٦]

«إن الصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها»، ويظهر ذلك من وجوه منها:

١- إن الصدق هو المميز بين المؤمن والمنافق، وقد وصف الله تعالى المنافقين بالكذب في عدة مواضع[٢٧].

٢- إن الصدق هو أصل البر، والكذب هو أصل الفجور، كما ثبت هذا في الأحاديث الصحيحة[٢٨].

---

(٢٤) أبو فارس، عبد القادر، *الابتلاء والمحن في الدعوات*، ص٣٨-٣٩.

(٢٥) المائدة ٥: ١١٩.

(٢٦) ابن تيمية، أحمد ، *مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية*، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي النجدي، ج٢٠، ص٧٤-٧٥.

(٢٧) مثل قوله تعالى: ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ (التوبة ٩: ١٠٧)، وقوله: ﴿... والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ (المنافقون ٦٣: ١).

(٢٨) مثل حديث: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر...» البخاري، *الصحيح*، كتاب الأدب، =

٣- إن الصادق تنزل عليه الملائكة والكاذب تنزل عليه الشياطين، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[٢٩].

والحكمة في الفتن والمحن لتمييز الصادق من الكاذب يدل عليه قوله تعالى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾،[٣٠] قال الزمخشري:

«والفتنة الامتحان بشدائد التكليف، من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات والملاذ، وبالفقر والقحط، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال، وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم، والمعنى: أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمتحنهم الله بضروب المحن حتى يبلو صبرهم، وثبات أقدامهم، وصحة عقائدهم، ونصوع نياتهم، ليميز المخلص من غير المخلص، والراسخ في الدين من المضطرب، والمتمكن من العابد على حرف...»[٣١].

ومن الفتن البارزة التي يتميز فيها الصادقون من الكاذبين فتنة الحرب والقتال بين الإسلام الحق، والكفر الباطل... ويتوعد الله الجبناء المنهزمين بقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٣٢]

ويتميز الصادقون من الكاذبين في الفتن التي تصيب الأمة في عقائدها، ويوم تقلب الحقائق، هنا يظهر الصادقون الذي يراقبون الله في كل حال ويقولون كلمة الحق ولو اجتمعت الدنيا ضدهم، وعلى النقيض يظهر الكذابون الدجالون الذين شغلتهم الدنيا عن الدين، وتزداد الفتنة بهم، وتشتد بهم محنة الصادقين:

=باب قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، ج١، ص٥٠٧، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم، *صحيح مسلم*، كتاب البر، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، ج٣، ص٢٠١٢، رقم (٢٦٠٧)، الترمذي، *الجامع الصحيح* (١٩٧٢)، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الصدق والكذب، ج٤، ص٣٤٧.

(٢٩) الشعراء ٢٦: ٢٢١-٢٢٢.

(٣٠) العنكبوت ٢٩: ١-٣.

(٣١) الزمخشري، *الكشاف*، جـ٣، ص٤٣٩.

(٣٢) الأنفال ٨: ١٦.

«إننا نجد في هذا العصر الذي نعيشه من يدعي التدين والاستقامة، ثم عندما تحل المحن، وتنزل الفتن ويهاجم العلماء الربانيون لا لشيء إلا لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ففي هذا الظرف القاسي والوقت المحرج تجد من هؤلاء الحسدة المفتونين من يكذب ثم يكذب... يهاجمون عددا من رجال الإسلام من حملوا في قلوبهم هموم هذا الدين... ويصفهم كذبا ودجلا بأنهم من المفسدين»[٣٣].

ويتميز الصادقون من الكاذبين في فتنة الابتلاء بالغنى والسعة في الرزق، كما أخبرنا بذلك تعالى فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٣٤].

فالآيات تتحدث عن طائفة من الناس الذين تظهر الفتنة بالغنى نفاقهم، فقد ادعوا إن أغناهم الله أن يتصدقوا، فلما رزقوا نكصوا وكذبوا فحرمهم الله ما هو أعز من المال، وذلك بأن ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣٥]

٢- تمييز الصابرين من القانطين: فالفتنة إذا حلت ميزت الناس على هذين المستويين[٣٦] كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[٣٧] قال البغوي في تفسير الآية:

«﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾أي: بلية، فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير: ما لي لم أكن مثله، والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع، وقال ابن عباس: أي جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى، وقيل نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقال: أسلم بعده فيكون له علي السابقة والفضل فيقيم على كفره، ويمتنع من الإسلام، فذلك افتتان بعضهم ببعض، وهذا قول الكلبي، وقال مقاتل:

(٣٣) السحيباني عبد الحميد، *الفتنة وموقف المسلم منها*، ص٣٧٢-٣٧٣.
(٣٤) التوبة ٩: ٧٥-٧٧.
(٣٥) البقرة ٢: ٧
(٣٦) السحيباني، ص٣٧٣.
(٣٧) الفرقان ٢٥: ٢٠.

نزلت في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث وذلك أنهم لما رأوا أبا ذر وابن مسعود وعماراً وبلالاً وصهيباً وعامر بن فهيرة وذويهم قالوا: أنسلم فنكون مثل هؤلاء؟، وقال مقاتل نزلت في ابتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمدا من موالينا وأراذلنا فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين ﴿**أتصبرون**﴾ يعني على هذه الحالة من الفقر والأذى ﴿**وكان ربك بصيرا**﴾ بمن صبر وبمن جزع»[٣٨].

إن فتنة المؤمنين بالكافرين وعتوهم وأذاهم تميز الصابر الذي لا يفت في عضده سخرية جاهل أو بطش كافر أو كيد منافق... يتميز هؤلاء من صنف آخر إيمانه ضعيف وعقيدته مهزوزة يفقد زمام الصبر عند تسلط الكفار، ويقنط وييأس، وقد يصل إلى الردة... وقد ذم الله تلك الطائفة فقال: ﴿**وَمِنَ النَّاسُ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**﴾[٣٩].

«وهم أناس كانوا يؤمنون بألستنهم، فإذا مسهم أذى من الكفار، وهو المراد بفتنة الناس، كان ذلك صارفا لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفا...»[٤٠].

ومعنى ذلك أن الشدائد تكشف حقيقة إيمانهم لأن الإيمان له تكاليف، وليس كلمة تقال باللسان إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف وإلا فهو نفاق:

«ذلك النموذج من الناس، يعلن كلمة الإيمان في الرخاء يحسبها خفيفة الحمل هينة المؤونة، لا تكلف إلا نطقها، باللسان، ﴿**فإذا أوذي في الله**﴾... استقبلها في جزع واختلت في نفسه القيم، واهتزت في ضميره العقيدة، وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذي يلقاه حتى عذاب الله...»[٤١].

وقال ابن عباس في الآية: «فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله، وكذا قال غيره من علماء السلف».[٤٢] وهي كقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ...**﴾[٤٣].

---

(٣٨) البغوي، *معالم التنزيل*، م٣، ج٥، ص٩٧.
(٣٩) العنكبوت ٢٩: ١٠.
(٤٠) الزمخشري، *الكشاف*، ج٣، ص٤٤٤.
(٤١) سيد قطب، *الظلال*، ج٥، ص٢٧٢٣.
(٤٢) الصابوني، مختصر *ابن كثير*، ج٣، ص٣٠.
(٤٣) الحج ٢٢: ١١.

إذن لا بد من الفتنة ليتحقق الإيمان، ويدل عليها قوله تعالى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[٤٤]، وذلك لأن الإيمان أمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر واحتمال، فلا يكفي ادعاؤه، إلا بالتعرض للفتنة فيثبتوا عليها، ويصفي قلوبهم، كما تفتن النار الذهب لتمييزه وفصله عن العناصر العالقة به...

والفتن كثيرة أمام المؤمن ومتنوعة، منها فتنة التعرض للأذى، وفتنة الأهل والأحبة، وفتنة إقبال الدنيا على المبطلين... وفتنة الغربة بالعقيدة.. وهناك فتنة الدول القوية المشاقة لله، وفتنة النفس ورغبتها في المتاع والسلطان، وصعوبة الاستقامة مع المعوقات والمثبطات وملابسات الحياة... وفتنة إبطاء النصر، وكان الابتلاء بها أشد وأعنف ولم يثبت إلا من عصمه الله[٤٥].

وكان الرسول ﷺ يحث أصحابه على الصبر ويحذرهم القنوط، وفي حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: «لقد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دين، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه...»[٤٦].

وما هذا التحذير من رسول الله ﷺ إلا لأن القنوط واليأس يؤدي للاستسلام للعدو، والحذر من ذلك هو ما تحتاجه الأمة وخصوصا في هذا العصر الذي اجتمعت فيه كل القوى ضد المسلمين وتكالبوا عليها واستسلم الكثير بعدما غفلوا عن ضرورة الصبر في مواجهة الكفار.

وقد ذكرت لنا كتب التاريخ والسير وكتب الدعوة نماذج مشرقة لأعلام مسلمين صبروا أمام المحن في وجوه الحكام وصمدوا أمام المغريات فكانوا قدوة على مر الأجيال من أمثال الإمام مالك مع الخلفاء، وكذلك الإمام أحمد بن حنبل في فتنة خلق القرآن، والغزالي وابن تيمية وغيرهم كثير، حتى قيل: «لولا حوادث الأيام لم يعرف صبر الكرام ولا جزع اللئام»[٤٧].

٣- تمييز الشاكرين من الجاحدين، والشكر اعتراف بنعمة الله وكرمه وإحسانه... فالشاكر لسانه رطب بحمد الله..[٤٨].

---

(٤٤) العنكبوت ٢٩: ١-٢.

(٤٥) راجع: سيد قطب، *الظلال*، ج٥، ص٢٧٢٠.

(٤٦) البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ج٦، ص٦١٩، ح(٣٦١٢)، والإمام أحمد، *المسند*، ج٥، ص١٠٩.

(٤٧) الغرناطي، *جنة الرضا*، ج٢، ص١٣٩.

(٤٨) راجع: السحيباني عبد الحميد، ص٣٩٣.

وشكر الله من قبل الإنسان في حال الفتنة بالسراء والنعمة هو كذلك فضل من الله يحتاج إلى شكر آخر... ومن الشكر استعمال نعمة الله فيما يحب، والكفر والجحود نقيض ذلك باستعمال نعمة الله فيما يكرهه سبحانه، وذلك باتباع الشرع واستعمال كل شيء في موضعه الذي وضعه الله تعالى له، وبعكسه يكون قد جحد النعمة..

ومن الفتنة في هذا المجال أن الإنسان لا يحدث بالنعمة بينما يعدد المصائب، وهو الجحود بعينه وقال عنهم تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[49] ،ومن شكر المنعم ذكر آلائه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[50].

كما أن الاستهزاء بدل الشكر جحود وأعظم كفرا، فقد قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[51].

وقد كان استهزاء هؤلاء بأن بدلوا قول الله عز وجل: ﴿ادخلوا الباب سجدا﴾ بدلوه بأن دخلوا يزحفون على عجائزهم، وبدلوا قوله تعالى: ﴿وقولوا حطة﴾ بقولهم: حنطة، ولم يهتموا بذنوبهم، وإنما كان همهم أمرا ماديا، وهو إشباع بطونهم وترك العنان لشهواتهم وملذاتهم[52].

وهناك من يلجأ إلى الله ساعة الخطر، فإذا زال تنكر كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[53].

فيتبين حال الجاحد والكافر عند انكشاف الفتنة وزوال البلاء، فهو يجحد ويطعن وينسب الفضل في كشف ذلك لنفسه كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[54] يقول ابن القيم:

---

(٤٩) العاديات ١٠٠: ٦.
(٥٠) الضحى ٩٣: ١١.
(٥١) البقرة ٢: ٥٨-٥٩.
(٥٢) الطبري، *تفسيره*، ج١، ص٣٤٣.
(٥٣) لقمان ٣١: ٣٢.
(٥٤) هود ١١: ٩.

«فقد استبدل هذا الكافر بحمد الله وشكره والثناء عليه عند الابتلاء بالنعماء إذ كشف عنه البلاء، استبدل بالحمد والشكر قوله: ذهب السيئات عني، ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته ومنّه لما ذم على ذلك، بل كان محمودا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر... فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة»(٥٥).
كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾(٥٦).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٥٧) توضح الآية التناقض العجيب في أحوالهم.. ففي الحالة الأولى يستغيث بربه، وفي الثانية ينسب النعمة لنفسه ويقطع صلتها عن المنعم بها.. وهو فتنة واختبار أيشكر أم يجحد، وأكثرهم لا يعلمون أن ذلك استدراج من الله وامتحان... وبمثل هذا الجحود استقبلت الأمم الخالية دعوات الأنبياء والتي هي نعمة من الله فاستحقت العذاب والسقوط..

وكل ما ذكرناه من أنواع التمييز للصدق والصبر والشكر وضدها يتبع الإيمان وكشفه كشف لحقيقة الإيمان.. فالإيمان أمانة في الأرض لا يحملها إلا من هم أهل لها.. وإنها لأمانة الخلافة في الأرض ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يجتاز الابتلاء..

ثالثاً: التربية النفسية والأخلاقية

إن الفتن والمحن مدرسة تصوغ صاحبها صياغة جديدة وتغيره إلى الأفضل -إن أراد الله به خيراً- وفي مقدمة ذلك تقويم الأخلاق والسلوك ويندرج تحتها جملة فوائد:

أ- إن الفتن والمحن تمنع صاحبها عن مساوئ الأخلاق «إن المصائب والشدائد تمنع من الشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والجبروت»(٥٨).

وذلك لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بما يصلح العبد، فهو يعلم إن من الناس من تبطره

---

(٥٥) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، *الفوائد*، ط٤، دار النفائس، عمان، ١٤٠٣هـ، ص٢٦٦.
(٥٦) الأنفال ٨: ٢٢-٢٣.
(٥٧) الزمر ٣٩: ٤٩.
(٥٨) العز بن عبد السلام، *فوائد البلوى*، ص١٧، وراجع ابن ناصر الدمشقي، *برد الأكباد*، ص٦٩.

النعمة ولا يصلحه إلا الفقر، ويعلم من يتجبر بالصحة ويصلحه المرض، ويطغى بالملك والسلطان ويتواضع بدونه..

وقد ضرب الله لنا أمثلة من هؤلاء فيمن أطغاه الملك والصحة والمال... فلو كان نمرود فقيراً سقيماً فاقد السمع والبصر لما حاج إبراهيم في ربه، لكن حمله بطر الملك على ذلك، وقد علل سبحانه ذلك بإتيانه المال فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾[٥٩]، وقال ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾[٦٠]، وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾[٦١].

والطغيان بالجاه والملك معروف في كل زمان ومكان، وكذلك التجبر بكثرة المال والأولاد، والغرور بالصحة والعافية. أما الغنى والترف فقد يؤدي إلى البطر والأشر المهلك للأمم والجماعات كما مر في مبحث الفتن الاقتصادية، فالمحن بهذه الأمور تجعل العبد يراجع أمره ويقبل على الله سبحانه وتعالى لأن النعيم بجميع أصنافه قد يصرف العبد عما أوجبه الله من ذكره وشكره والرأفة بعباده.. أما الشدة والبلوى فهي تجعله يقبل على ربه.. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾[٦٢].

ولهذا كان الأنبياء والصالحون أشد بلاءً ليكونوا دائماً في حالة توجه إلى الله تعالى وإقبال عليه.. فتمحصهم الشدائد وتصقلهم، ويبتلى العبد على قدر دينه فإن كان صلباً شدد في بلائه، وقد عبر الرسول ﷺ عن تلك الفتن والمحن للمؤمن فقال: «مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء»[٦٣]، وقال في آخر: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيؤها الريح تصرعها مرة وتعدلها مرة أخرى حتى تهيج»[٦٤].

---

(٥٩) البقرة ٢: ٢٥٨، ومثل ذلك قول فرعون: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾. النازعات ٧٩: ٢٤.

(٦٠) التوبة ٩: ٧٤.

(٦١) الشورى ٤٢: ٢٧.

(٦٢) يونس ١٠: ١٢.

(٦٣) البخاري، *الصحيح*، كتاب في المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ج٧، ص٢، ح(٥٦٤٤)، والإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب صفات المنافقين، باب مثل المؤمن كالزرع، ج٣، ص٢١٦٣، ح(٢٨٠٩).

(٦٤) البخاري، *الصحيح*، كتاب في المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ج٧، ص١، ح(٥٦٤٣)،=

وما يلاقيه المؤمن من فتن وشدائد دليل على حب الله للعبد -كما مر- ليمنع عنه مساوئ الأخلاق لأن النعم لا يؤدي حقها إلا القليل كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(٦٥) كما أن الله تعالى لا يريد لعباده الركون إلى الدنيا ونعيمها فيقعدهم عن عمل الآخرة وبهذا يقول ابن القيم:

«إن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن حدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه»(٦٦).

ب- إدراك ومعرفة قدر العافية ورحمة أهل البلاء لمن غفل عن تقديرها لأن الشيء لا يعرف إلا بضده، فيحصل بذلك الشكر الموجب لمزيد من النعم.. ومعايشة صاحب النعمة لفاقدها تجعله يحس بقيمتها وقدرها فيشكر المنعم بذلك.. فالصحيح المعافى قد يغفل عن المنعم فإذا ما مسه السقم وآلمه قدر نعمة الصحة والعافية، وإذا ما عوفي رحم من ابتلي.. ومثل ذلك فاقد المال يحسب أنه جمعه بجهده هو فقط فإذا ما أصابته آفة في ماله وشدة أدرك ما كان به من نعيم وما قصر في جنب الله فآب، وكذلك صاحب الملك والجاه والأولاد.. فقد يغفل الناس عن كل هذه النعم ولكن المحنة والفتنة بها تجعلهم يدركون قدرها «فإن النعم لا يعرف مقدارها إلا بعد فقدها»(٦٧).

وقد يدرك ذوو البصائر أهمية تلك النعمة ويعتبرون بمحن غيرهم بها وفقدهم إياها فيشفقون على أهل البلايا ويرحمونهم وكان عيسى بن مريم عليه السلام يقول: «الناس معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واشكروا الله على العافية»(٦٨).

= والإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب صفات المنافقين، باب مثل المؤمن كالزرع، ج٣، ص٢١٦٣، ح(٢٨١٠)، ينظر *شرح النووي*، ج٥، ص٦٧٥، الخامة: الطاقة والقصبة اللينة من الزرع، تفيؤها: تميلها، تصرعها: تخفضها، تعدلها: ترفعها، تهيج: تيبس.

(٦٥) سبأ ٣٤: ١٣.

(٦٦) ابن القيم، *زاد المعاد*، ج٣، ص٢٢١.

(٦٧) العز بن عبد السلام، *فوائد البلوى*، ص١٥.

(٦٨) الإمام مالك، *الموطأ*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار سحنون، تونس ١٩٩٢، كتاب الكلام، باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله، ج٢، ص٩٨٦.

وبذلك تكون من حكم الفتن والمحن حصول رحمة أهل البلاء الموجبة لرحمة الله عز وجل وجزيل العطاء «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[٦٩].

وعلى الإنسان أن يتذكر دائما أن ما وسع الله بالنعم ومنها العافية، أكثر وأعظم ما ابتلى وأسقم..

والقصص الواقعية لمن فقد النعمة فأحس بعظمتها كثيرة لا تحصى أكثر منها الوعاظ في هذا الباب، منها ما ذكره ابن ناصر الدمشقي قال:

«روي أنه كان في زمن حاتم الأصم[٧٠] رجل يقال له: معاذ الكبير، أصابته مصيبة فجزع منها، وأمر بإحضار النائحات، وكسر الأواني، فسمعه حاتم فذهب إلى تعزيته مع تلامذته، وأمر تلميذاً له فقال: إذا جلست فاسألني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[٧١] فسأله فقال حاتم: ليس هذا موضع السؤال، فسأله ثانية، وثالثا، فقال: معناه أن الإنسان لكفور عداد للمصائب، نساء للنعم مثل هذا، إن الله تبارك وتعالى متعه بالنعم خمسين سنة، فلم يجمع الناس عليها شاكرا لله عز وجل، فلما أصابته مصيبة جمع الناس يشكو من الله تعالى، فقال معاذ: بلى إن معاذا لكنود عداد للمصائب نساء للنعم، فأمر بإخراج النائحات وتاب عن ذلك»[٧٢].

ولنا في قصة أصحاب الجنتين مثلا من قصص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا..﴾[٧٣] وتشير القصة إلى أنه طغى بكثرة ماله وولده فأنكر الساعة، وعند فقده لنعمة الجنتين قدر حق المنعم ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[٧٤]، والمتدبر للقصة يدرك لطف الله به ليرجع إلى الحق وشكر

---

(٦٩) الترمذي، *الجامع الصحيح*، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، ج٤، ص٣٢٤.

(٧٠) حاتم الأصم (ت ٢٣٧هـ)، أبو عبد الرحمن، حاتم، المعروف بالأصم، زاهد اشتهر بالورع والتقشف، له كلام مدون في الزهد والحكم، من أهل بلخ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل وشهد بعض معارك الفتوح، وكان يقال: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة. (راجع: تاريخ بغداد، ج٨، ص٢٤١، اللباب، ج١، ص٥٧).

(٧١) العاديات ١٠٠: ٦.

(٧٢) ابن ناصر الدمشقي، *برد الأكباد*، ص٦٧-٦٨.

(٧٣) الكهف ١٨: ٣٢.

(٧٤) الكهف ١٨: ٤٢.

الله تعالى ورؤية المنة منه فيما منع منه، ومن الأمثال للصالحين «لا يشاهد العطاء في المنع إلا صدّيق»[٧٥] وفي هذا المعنى يقول البحتري: [٧٦].

والشيء تُمنَعُه تكون بفوته أجدى من الشيء الذي تُعطاهُ

جـ- الحلم عن مرتكب المصيبة والعفو عن جانيها والصبر عليها[٧٧].

ومن فوائد المحن في تغير السلوك والأخلاق أنها تربية تعلم صاحبها الحلم والعفو والصبر، وهي صفات يحبها الله تعالى حيث وصف إبراهيم وإسماعيل فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[٧٨]،وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[٧٩]، ويقول الرسول ﷺ لأشج بن عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناه»[٨٠].

وكذلك العفو عن المسيء امتدحه الله بقوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[٨١]و﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[٨٢].

أما الصبر فأجره مفتوح والكلام فيه يطول وسأتناوله في ضوابط مواجهة المحن.

د- الرضا الموجب لرضوان الله تعالى: فالمصائب تنزل بكل الناس فالساخط يخسر الدنيا والآخرة، أما من رضيها فله الرضا من الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٨٣]، أي من جنة عدن ومساكنها الطيبة.

يقول ابن كثير في تفسير الآية:

أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في

---

(٧٥) الغرناطي، *جنة الرضا*، ج٢، ص٧.

(٧٦) البحتري، *ديوان البحتري*، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط دار المعارف، مصر، ١٩٧٧، ج٤، ص٢٤٠٣.

(٧٧) راجع: العز بن عبد السلام، ص١٠-١١.

(٧٨) التوبة : ١١٤.

(٧٩) الصافات: ١٠١.

(٨٠) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، ١٧، برقم ١٨.

(٨١) آل عمران ٣: ١٣٤.

(٨٢) الشورى ٤٢: ٤٥.

(٨٣) التوبة ٩: ٧٢.

يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[٨٤].

هذا الرضا من الله في الآخرة جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، فكان لذلك رضاهم من أفضل الأعمال.

ورضا العبد في الدنيا معناه التسليم الكامل بقدر الله ومن شأنه أنه يكسب الأمن والأمان في قلب المؤمن فيعيش في غاية السعادة، أما إذا سخط وتضجر فيعيش حياة البؤس والشقاء.

يقول ابن ناصر الدمشقي:[٨٥].

وإذا اشتدت البلوى تخفف بالرضا	عن الله قد فاز الرضي المراقب
وكم نعمة مقرونة ببلية	على الناس تخفى والبلايا مواهب

والرضا عادة مترتب عن الصبر متوقف عليه ولا يثبت بدونه:

«فإذا قيل إن مقام الرضا بعد مقام الصبر لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا وإنما يعني أنه لا يحصل مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر»[٨٦].

والأحاديث عن الرضا بأحكام الله والتي تدل على صدق الإيمان كثيرة منها قوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا»[٨٧].

وليس من شروط الرضا ألا يحس الإنسان في وقت الشدائد بالألم والمكاره، بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه كما مر في الحديث «..إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم من رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»[٨٨]... وفي الدعاء «أسألك الرضاء بعد القضاء»[٨٩]، لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا.

---

(٨٤) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، ج٢، ص١٥٥-١٥٦، والحديث رواه البخاري، *الصحيح*، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ج٧، ص٢٠٠، ومسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤيا، ج١، ص١٧٦.

(٨٥) ابن ناصر الدمشقي، ص٦٦.

(٨٦) العلي، عبد المنعم صالح، *تهذيب مدارج السالكين*، ص٣٦٣.

(٨٧) مسلم، *الصحيح*، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله...فهو مؤمن، ج١، ص٦٢، أحمد، *المسند*، ج١، ص٢٠٨.

(٨٨) الترمذي، كتاب الزهد، باب ماجاء في الصبر على البلاء، ج٤، ص ٦٠١، ح (٢٨٩٦)، وقال حديث حسن غريب.

(٨٩) النسائي، *السنن*، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، ج٣، ص٥٥، ح١٣٠٣، أحمد، *المسند*، ج٥، ص١٩١.

وثمرات الرضا كثيرة، فهو يوجب الطمأنينة وبرود القلب وسكونه، والسخط يوجب اضطراب القلب وانزعاجه، ولذلك مدح الله الراضي فقال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[90]، وقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[91].

وإذا رضي قلب العبد قل همه وغمه فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف بعيد عن الهموم، وهذا من خلق الأتقياء الصالحين فقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ كثيرا ما يدعو: «اللهم رضني بقضائك وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته ولا تأخير شيء عجلته»[92].

وهناك أقوال جامعة تتضمن الحكم والفوائد من المحن والفتن منها قول ابن المعتز: «الحوادث المضة مكسبة لحظوظ جزيلة، فيها ثواب مدخر، وتطهير من ذنب، وتنبيه من غفلة، وتعريف بقدر النعمة، وعون على مقارعة الدهر»[93].

أما من لا يدرك الحكم من ذلك فيصاب بالهم والغم ويخسر الدنيا والآخرة.

رابعاً: تكفير السيئات

وذلك يعني التمحيص للذنوب والخطايا، فقد دلت نصوص كثيرة على أن ما يتعرض له الإنسان في حياته من فتن ومحن وابتلاءات تكون بمثابة كفارات للذنوب، إذا هو صبر عليها واحتسب، ومن ثم ييسر له الله الخير...ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[94] قال الشوكاني: «والتمحيص: التطهير، أي ليخلص المؤمنين من ذنوبهم فتبقى صحائفهم نقية، ليس فيها إلا الحسنات»[95].

وتدل الآيات كذلك على أن كل ما يعانيه المسلم من أذى في سبيل الله والذي يؤدي به أحيانا إلى الهجرة قد جعل الله لهم فيه فائدة وهي تكفير السيئات ودخول الجنة، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ

---

(٩٠) الفجر ٨٩: ٢٧-٢٨.

(٩١) البينة ٩٨: ٨.

(٩٢) العلي، عبد المنعم صالح، *تهذيب مدارج السالكين*، ص٣٨٠.

(٩٣) ابن المعتز، *رسائل ابن المعتز*، جمع وتحقيق د. عبد المنعم خفاجي، ط مصطفى الحلبي، مصر، ١٩٤٦، ص٦٤.

(٩٤) آل عمران ٣: ١٤١.

(٩٥) الأشقر، *زبدة التفسير من فتح القدير*، ص٨٥.

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[٩٦].

والأكثر من ذلك أن الله تعالى أعلن توبته عن كل المهاجرين والأنصار الذين وقفوا مع المسلمين في الشدة، لأن الشدائد كانت اختباراً لهم على صدق الإيمان فقال: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٩٧]، فقد تجاوز الله تعالى برحمته عما بدا من تردد بعض المؤمنين وتخلفهم أو تثاقلهم في الخروج ثم لحقوا بالركب، فتاب الله عليهم بعد أن عرفوا أخطاءهم وطلبوا المغفرة، ومنهم الثلاثة الذين خلفوا عن معركة تبوك، وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة الذي أخبر قريشاً بقدوم المسلمين لفتح مكة ما يدل على ذلك، وقد عفا عنه ﷺ قائلا: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة»[٩٨].

وهناك أحاديث كثيرة كلها تفيد تكفير السيئات للعبد المبتلى بالفتن والمحن صغيرها وكبيرها، كما قال الرسول ﷺ: «ولا يصيب المؤمن من وصب ولا نصب حتى الهم يهمه، والشوكة يشاكها إلا كفر به عن سيئاته»[٩٩].

وتدل الروايات والطرق على أن كل ما يصاب به المؤمن من صغيرة وكبيرة هو تكفير للخطايا ففي رواية «ولا هم ولا حزن ولا أذى» وفي أخرى «إلا كفر الله بها من سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها».

---

(٩٦) آل عمران ٣: ١٩٥.

(٩٧) التوبة ٩: ١١٧.

(٩٨) البخاري، *الصحيح*، كتاب الاستئذان، باب من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين، ج٧، ص١٣٤، ومسلم، *الصحيح*، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر، ج٢، ص١٩٤١، ح(٢٤٩٤).

(٩٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب المرضى والطب، باب ما جاء في كفارة المرض، ج٧، ص٢، ابن حجر، *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، ح(٥٦٤)، ج١٠، ص١٠٣، وفيه الوصب: المرض والنصب: التعب، والإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب البر، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، ج٤ ص١٩٩٢-١٩٩٣، ح(٢٥٧٢، ٢٥٧٣)، والإمام أحمد، *المسند*، ج٣، ص١٨-١٩، ٤٨، والترمذي، *الجامع الصحيح*، كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب المريض، ح(٩٦٦)، ج٣، ص٢٩٨.

والأكثر من ذلك أن الله قد يزيد الابتلاء للمؤمن على قدر إيمانه ليكون نقياً خالصاً ليزيد درجته في الجنة، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يستبشرون بتلك الأحاديث الدافعة لهم على تحمل المشاق والصبر، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «قلنا يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً، قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»(١٠٠).

وهذه من رحمة الله بالعبد أن يمتحنه على قدر دينه وصلابته، لعلمه بما يطيق العبد فلا يزيد فوق احتماله كي لا يجزع...

ومثله قوله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه من خطيئة»(١٠١).

كما جعل الله سبحانه وتعالى الفتن والمحن تكفيراً للعبد من سيئاته التي يقترفها وهو أمر طبيعي «فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»(١٠٢).

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾(١٠٣).

قال الحسن: «لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»...وقال علي بن أبي طالب ﷺ: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل حدثنا بها رسول الله ﷺ: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾... ما أصابكم من مرض أوعقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله عز وجل أكرم من أن يثني عليهم العقوبة في الآخرة.. وما عفا الله عنكم في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه»(١٠٤).

---

(١٠٠) سبق تخريجه، راجع ص١٣.

(١٠١) الترمذي، *الجامع الصحيح*، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ج٤، ص٦٠٢ وصححه، ابن ماجة، سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ج٢، ص١٣٣٤، الإمام أحمد، *المسند*، ج٢، ص٢٨٧، ٤٥٠، الحاكم، *المستدرك*، ج١، ص٣٤٧، ج٤، ص٣١٤.

(١٠٢) الترمذي، *الجامع الصحيح*، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، ج٤، ص٦٥٩ ابن ماجة، سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ج٢، ص١٤٢٠، أحمد، *المسند*، ج٣، ص١٩٨.

(١٠٣) الشورى ٤٢: ٣٠.

(١٠٤) البغوي، *معالم التنزيل*، م٤، ج٦، ص١٢٦.

كما يوضح الرسول ﷺ أن هناك ابتلاءات مخصوصة توجبها ذنوب مخصوصة كما قال ﷺ: «ما نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلو بالسنين»[١٠٥].

والمهم في تكفير الذنوب أن يتنبه المبتلى إلى أخطائه، وإذا عرفنا أن الشيطان والهوى يحجبان العقل عن إدراك ذلك فيعاقب الإنسان على ذنبه عرفنا حاجة الإنسان لمعرفة عيوبه ليكف عنها، ولهذا رغب الفضلاء في إهدائهم عيوب أنفسهم فقال عمر بن الخطاب: «رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي»[١٠٦].

وإذا ابتلي الإنسان في الدنيا فعليه أن يحمد الله أنه عجل له بذلك الابتلاء الذي يكفر سيئاته في الدنيا الفانية ولم يؤخرها إلى الدار الباقية.

وبالجملة فتكفير الخطايا بالمحن نعمة من الله، وخصوصاً إذا استشعر أن:

«تلك البلية أهون وأسهل من غيرها، فما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمر، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة، وأنها في الحقيقة نعمة... والعاقل يعد هذا ذخرا ليوم الفقر والفاقة، ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئاً»[١٠٧].

وبذلك أن ما يصيب المؤمن من فتنة ومحنة فهي في الحقيقة دواء يستخرج به داء الخطايا والذنوب، فعلى المبتلى أن يصبر ويحاسب نفسه لعله قارف ذنباً فعاجله الله تعالى بالعقوبة، فقد كان السلف يرون عقوبة الذنب في أهلهم وأموالهم وحتى دوابهم فيلجأون إلى الاستغفار والندم وتجديد التوبة..

خامساً: الثواب في الدنيا والآخرة

من كرم الله سبحانه وتعالى أن يكافئ من يبتليه في الحياة الدنيا ويعوضه ما فقده، كما حصل للنبي أيوب عليه السلام فقد أعاد له أهله ومثلهم، وكما عوض الله أم سليم زوج الصحابي أبي طلحة حين صبرت على فقدها ولدها...

---

(١٠٥) الإمام مالك، *الموطأ*، ص٣٠٦، وابن ماجة، *السنن*، ج٢، ص١٣٣٣ ح(٤٠١٩).، الهيثمي، مجمع *الزوائد*، ج٣، ص٣١٧.

(١٠٦) الغرناطي، *جنة الرضا*، ج١، ص١٢٤.

(١٠٧) العلي، عبد المنعم صالح، *تهذيب مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية*، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (د. ت)، ص٤٢٤-٤٢٥.

والأجر في الدنيا ثابت في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿... مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(١٠٨).

وفضلا عن مكافأة الدنيا فللابتلاء ثواب في الآخرة، ويكون الأجر حسب درجة الابتلاء، وليس المقصود هو الأجر على المصيبة بل على الصبر والرضا، لأن الأجر يترتب على الفعل المكتسب «وإن رضي بها -أي المصيبة- كان له أجر الراضين، ولا يؤجر على نفس المصيبة لأنها ليست مني عمله فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»(١٠٩).

كما يكون الابتلاء بالفتن والمحن وسيلة لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(١١٠). قال الطبري:

«أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، وتصيبوا من ثوابي الكرامة ولم أختبركم بالشدة وأبتليكم بالمكاره حتى أعلم صدق ذلك منكم، الإيمان بي والصبر على ما أصابكم»(١١١).

ومن الثواب «الدخول في زمرة المحبوبين المشرفين بمحبة رب العالمين فهو سبحانه إذا أحب قوماً ابتلاهم»(١١٢).

وقد فهم أولو الألباب ذلك فرضيت نفوسهم وسكنت مع فتنهم ومحنتهم حتى قال الغزالي:

«إذا رأيت الله عز وجل يحبس عنك الدنيا ويكثر عليك الشدائد والبلوى فاعلم أنك عزيز عنده، وأنك عنده بمكان، وأنه يسلك بك طريق أوليائه وأصفيائه، فإنه يراك ولا يحتاج إلى ذلك، أما تسمع قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(١١٣)، بل اعرف منته عليك فيما يحفظ عليك من صلاتك وصلاحك، ويكثر من أجورك وثوابك، وينزلك منازل الأبرار والأخيار والأعزة عنده»(١١٤).

---

(١٠٨) النحل ١٦: ٩٧.

(١٠٩)العز بن عبد السلام، فوائد البلوى، ص١٥، (الهامش)، والآية من الطور ٥٢: ١٦.

(١١٠) آل عمران ٣: ١٤٢.

(١١١) الطبري، *تفسيره*، ج٤، ص١٠٨.

(١١٢) ابن ناصر الدين الدمشقي، *برد الأكباد عند فقد الأولاد*، ص٦٨، وهو إشارة إلى حديث الرسول ﷺ: «إن عظم الجزاء مع البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»، سبق تخريج الحديث ص ٤٨٩، هـ ٨٨.

(١١٣) الطور ٥٢: ٤٨.

(١١٤) الغزالي، يراجع *فيض القدير*، ج١، ص٢٤٥.

وعلى هذا يكون من فوائد البلوى ابتغاء الأجر بها بالصبر والاحتساب، وقد ذكر ابن أبي الدنيا أن رجلا من قريش قال في ابن له:

بنـي إن عدمتك في حياتي ... فلن أعدمك ذخرا في المعاد

وكنت حشاشتي وجلاء همي ... وإلفي والمفرج عن فؤادي[115]

وقال أبو يعقوب الخريمي يرثي ابناً له في قصيدة:

فلولا رجاء الأجر فيك وأنه ... ثواب وإن عزّ المصاب عظيمُ

وإنك قربان لدى الله نافع ... وحظ لنا يوم الحساب جسيمُ

لأ ضعف حزني يا بني وأوشكت ... عليّ البواكي بالرنين تقومُ[116]

ومن الثواب أيضا المغفرة والرحمة لمن فتن فهاجر ثم جاهد وصبر[117]، وذلك لأن في الهجرة مجموعة فتن ومحن يتعرض لها المؤمن فراراً بدينه وعقيدته، ونظراً لأهمية الهجرة في دعوة الحق وانتشارها.. فقد تضطر الفتنة بالدين صاحبها إلى الهجرة وترك الديار والأوطان والمال وربما الأهل والولد... كل ذلك في سبيل الله، فبشر الله هؤلاء المؤمنين بالجزاء الأوفى إلا وهي المغفرة والرحمة.. إنها مغفرة الذنوب صغيرها وكبيرها واستقامة أمور دينهم ودنياهم..

وفي الآيات القرآنية رتب الله عز وجل المغفرة والرحمة لكل من فتن في دينه وابتلي بالشدائد ثم هاجر وجاهد وصبر.. من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[118]، أي: «من بعدما فتنوا بالعذاب والإكراه على الكفر.. ﴿من بعدها﴾ من بعد هذه الأفعال وهي الهجرة والجهاد والصبر»[119].

وبعد أن نزلت آيات الأذن بالجهاد طمع الصحابة في الأجر فقالوا: «يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ

---

(١١٥) ابن ناصر الدمشقي، *برد الأكباد*، ص٦٥.

(١١٦) المصدر السابق، ص٦٥.

(١١٧) راجع السحيباني عبد الحميد، ص٣٨٣.

(١١٨) النحل ١٦: ١١٠.

(١١٩) الزمخشري، *الكشاف*، ج٢، ص٦٣٨.

هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء»[120].

تقرر الآية أن هؤلاء المؤمنين بذلوا جهدهم في إعلاء كلمة الله راجين رحمته فالله لا يخيبهم أبدا فكانت تلك الآيات محفزة لهم على الصبر.. وتوالت الآيات في ذلك تترى..خلال الغزوات وبعدها.. ولذلك عاتبهم الله على تخلف البعض منهم يوم تبوك ورغبتهم عن الأجر والثواب والمغفرة، واعداً إياهم بالجزاء العظيم فقال: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[121].

وقد جاء هذا الترتيب في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[122].

فالآية تقرر أن كل من فتن وأوذي في دينه وعقيدته ثم قاتل وقتل تكفر سيئاته ويدخل جنة الخلد ثواباً على عمله، ولا غرابة في جزيل الثواب من الله، وذلك لأن للأوطان إلفاً في القلوب ومشقةً في فراقها فضلاً عن مشقة الاغتراب، والله يعلم ثقل هذا التكليف حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[123]، وذلك ما يوجب عليهم القتال: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا...﴾[124]. ولكن صدق العقيدة وحب الله ورسوله يغلب على ذلك كله.

وتبين النصوص أن الذي يخلص النية في هجرته لله يعوضه الله تعالى في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[125] وذلك لتجردهم وهجرهم لأعراض الحياة إيثارا للعقيدة وابتغاء رضوان الله فتكفل الله لهم بالعوض.

---

(١٢٠) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، ج١، ص١٩٢.
(١٢١) التوبة ٥: ١٢٠.
(١٢٢) آل عمران ٣: ١٩٥.
(١٢٣) النساء ٤: ٦٦.
(١٢٤) البقرة ٢: ٢٤٦.
(١٢٥) النحل ١٦: ٤١.

ولنا في هجرة الصحابة رضي الله عنهم إلى الحبشة مثلا، فقد حثهم الرسول ﷺ لينجوا بعقيدتهم.. ثم الهجرة إلى المدينة مع الرسول ﷺ.. وفي التاريخ نماذج كثيرة للمهاجرين فراراً بدينهم، ولا زال الدعاة محاربين في أوطانهم مفتونين في دينهم، وعندما تشتد المحن عليهم في دينهم يتركون أوطانهم وراء ظهورهم فيعوضهم الله خيرا لتبليغ الدعوة في مكان آخر فينفع الله على أيديهم بانتشار دينه ودعوته.

وبناء على تلك الحكم من هجرة من يفتن في دينه فإن النقيض بالعذاب والخسران لمن فتن واستطاع الهجرة والجهاد ولم يفعل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[١٢٦]،وعلى هذا فوجوب الهجرة مستمر لكل من امتحن في عقيدته ومنع من إقامة شعائره[١٢٧].

أما حديث «لاهجرة بعد الفتح»[١٢٨] فالمقصود به نفي الهجرة من مكة بعد فتحها وإعلاء كلمة الله فيها، وقد ثبت في الصحيح قول الرسول ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[١٢٩].

سادساً: الإيقاظ من الغفلة:

إن الفتن والمحن التي تصيب العبد قد تصاحبها هزة وجدانية تجعله يتيقظ ويستدرك أخطاءه وخصوصا لمن شغلته الدنياعن الآخرة، فيفيق بالمحن وبذلك يقول ابن ناصر الدمشقي: «ومن فوائد الابتلاء مقت الدنيا لأنكادها وبعث النفس على العمل ليوم معادها، فإنه إذا تفكر في ذهاب أحبابه علم أنهم شربوا بكأس لا بد له من شرابه»، ويقول:

---

(١٢٦) النساء ٤: ٩٧.

(١٢٧) راجع أسباب التشدد في وجوب الهجرة: السحيباني عبد الحميد، ص٣٨٩.

(١٢٨) البخاري، *الصحيح*، كتاب الجهاد، باب وجوب النفير، ج٦، ص٣٧، رقم (٢٨٢٥)، والإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلالها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، ج٢، ص٩٨٦، رقم(١٣٥٣).

(١٢٩) أبو داود، سنن *أبي داود*، كتاب الجهاد، باب الهجرة هل انقطعت؟، ج٣، ص٣، رقم (٢٤٧٩)، والدارمي، سنن *الدارمي*، كتاب السير، باب إن الهجرة لا تنقطع ح(٢٥١٦)، ج٢، ص٢٣٩-٢٤٠، والإمام أحمد، مسند *أحمد*، ج٤، ص٩٩ وإسناده صحيح. انظر الالباني ، *إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل* ، ج٥، ص٣٣.

«تيقظ المبتلي من غفلته، وطيب نفسه ببره وإخراج صدقته»[١٣٠].

فعند المحن يستيقظ الإنسان ويدرك أن الدنيا في زوال وخصوصا في حوادث الموت وفراق الأحبة، فيستعد هو لذلك اليوم ويكثر من العمل الصالح...

ويجعلها ابن قيم الجوزية أول منازل العبودية فاليقظة:

«وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة أو ما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها على السلوك... وكأنها هي القومة لله المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا...﴾[١٣١]، فالقومة لله هي اليقظة من سنة الغفلة.. وأول أنوارها: لحظ القلب إلى النعمة على اليأس من عدها والوقوف على حدها والتفرغ إلى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير في حقها..»[١٣٢].

وهو يريد بذلك أن أول آثار اليقظة استنارة القلب والانتباه وملاحظة نعم الله الظاهرة والباطنة، فيوجب محبة المنعم وحمده والخضوع له وصار لسان حاله «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[١٣٣] ..هذا الشعور يسعف العبد لتدارك أخطائه والسعي في تمحيصها وتدارك ما فاته من تقصير..

وقد ذم الله من غفل ونسي ما قدمت يداه فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[١٣٤].

وتتبع اليقظة خطوات أولها إعمال الفكر إلى الوجهة المطلوبة، فإذا استحكمت يقظته أوجب له الفكرة، وإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة مع إدراك الوعد والوعيد، والبصيرة تنبت في القلب الفراسة الصادقة التي تفرق بين الحق والباطل، فعن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل» ثم قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[١٣٥]

---

(١٣٠) ابن ناصر الدمشقي، *برد الأكباد*، ص٦٨.

(١٣١) سبأ ٣٤: ٤٦.

(١٣٢) العلي، عبد المنعم صالح، *تهذيب مدارج السالكين*، ص١٠١.

(١٣٣) البخاري، *الصحيح*، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أصبح، ج٧، ص١٥٠، الترمذي، *الجامع الصحيح*، كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء، ج٥، ص٤٦٧، النسائي، سننه، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر ما صنع، ج٨، ص٢٧٩.

(١٣٤) الكهف ١٨: ٥٧.

(١٣٥) الحجر ١٥: ٧٥، والحديث أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة الحجر، ج٥، ص ٢٩٨، ح (٣١٢٧). وراجع البغوي، شرح السنة، ج ١٤، ص ٣١

ثم بعد ذلك يأخذ في القصد والعزم(١٣٦).

إن أكثر ما تتحقق به اليقظة للغافل هي مواجهته للشدائد أو الاعتبار بالآخرين ومحنهم ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾(١٣٧).

فإعراض الإنسان تقصير في الشكر وعجبٌ وكبرٌ، وتعام عن رؤية النعمة من قبل المنعم بها، وذلك ضرب من ضروب الكفر ولذلك عقب بأن قال: إذا مسه الشر الذي هو منبه له من غفلته، وموقظ له من رقدته، فإنه إذ ذاك ذو دعاء عريض.. ومثلها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾(١٣٨).

ويكون من ثمرات اليقظة من الغفلة أن يحصل أمران:

١- الحذر من الشيطان وكيده: فالقرآن بين حرص الشيطان على فتنة بني آدم فقال: ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾(١٣٩). كما بين القرآن أن المعركة بين الشيطان وحزبه وبين المؤمنين أولياء الله دائمة.. ويكمن خطره في أنه عدو خفي فيجب أن تكون المواجهة له على مستوى أساليبه، والنصوص في ذلك لا تحصى... ومع ذلك يتغافل الإنسان عن هذا العدو ويفتح له منافذ الخطر.

وشاءت حكمة الله أن يبتلي بني الإنسان بهذا العدو ليمحص الذين آمنوا من غيرهم فجعل لكل إنسان شيطاناً ملازماً له ومقترناً به، ليجاهده التزاما بتحذير القرآن، ومن ثم يترتب على ذلك درجته وثوابه وعقابه..

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ خرج من عند عائشة رضي الله عنها ليلا قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «ما لك يا عائشة، أغرت؟» فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك، فقال ﷺ: «أقد جاءك شيطانك؟ قلت: يا رسول الله أو معي شيطان؟ قال: نعم، قلت ومع كل إنسان؟

---

(١٣٦) راجع: العلي، عبد المنعم صالح، *تهذيب مدارج السالكين*، ص١٠١-١١١.
(١٣٧) فصلت ٤١: ٥١.
(١٣٨) يونس ١٠: ١٢.
(١٣٩) الأعراف ٧: ٢٧.

قال: نعم، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: نعم، ولكن ربي أعانني عليه فأسلم»[١٤٠]

والحديث مصداق لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[١٤١].

ولعل الإنسان الذي تصيبه محنة يتيقظ من غفلته ويتنبه لكيد الشيطان ويدافع وسوسته وإغراءه ويستعيذ منه بالله متبعا بذلك الوسائل الشرعية.

وأغراء الشيطان يكون للفرد وللجماعة الغافلة فكثير من الفتن التي حولنا لا نجد لها تفسيرا إلا تحريض الشيطان، ولعل الواقع المرير ومصائبه أيقظت الكثير من الغافلين ولا يعصمهم منه إلا اللجوء إلى الله والاعتصام بشرعه..

٢- حصول التوبة: ومن ثمرات اليقظة من الغفلة أن يتعرف الإنسان على ذنبه فيتوب منه، والفتن والمحن طريق لذلك:

«فكم من مبتل بفقد العافية حصلت له توبة خالصة شافية! وكم من مبتل بنفاد ماله انقطع إلى الله تعالى بحسن حاله! وكم من مصاب بفقد الأولاد صبر على الحكم النافذ على العباد فحصلت له من الله الصلوات والرحمة والهداية والرشاد، وبتحقيق ذلك يحصل الفرح الشرعي بالمصيبة وما يدانيها لا الفرح الطبعي، فإن الكراهية بالطبع لا شك فيها»[١٤٢].

وقد يعاقب الإنسان بالذنب فيبتلى فيتنبه ويتوب ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[١٤٣]. يقول ابن قيم الجوزية: «فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يتصور وجودها بدونهما»[١٤٤].

---

(١٤٠) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان..ج٤، ص٢١٦٨، ح(٢٨١٥)، والإمام أحمد، *المسند*، ج٦، ص١١٥، والحاكم، *المستدرك*، ج١، ص٣٥٢. وقال النووي في شرحه ج١٧، ص١٥٧: «فأسلم برفع الميم وفتحها وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم من الإسلام وصار مؤمنا لا يأمرني إلا بخير»، وراجع رأي القاضي عياض في الفتح وهو المختار لقوله ﷺ: «فلا يأمرني إلا بخير».

(١٤١) الزخرف ٤٣: ٣٦.

(١٤٢) ابن ناصر الدمشقي، *برد الأكباد*، ص٦٩.

(١٤٣) الشورى ٤٢: ٣٠.

(١٤٤) العلي، *تهذيب مدارج السالكين*، ص١١٥.

والتوبة لا بد أن تكون بتقوية الرجاء وعدم اليأس، فإن المذنب المستعظم لذنبه قد ييأس من رحمة الله... والاعتراف بالذنب صادقاً من القلب سبب لحصول التوبة من الله، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[145] وعسى من الله واجبة.. وقد يبعث على الأمل في ذلك قول الرسول ﷺ: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»[146].

ومن الأمور المعلومة فرح الله سبحانه وتعالى لتوبة عبده،[147] فرحة إحسان ولطف لا فرحة محتاج إلى توبة عبده.. وبذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[148].

والتوبة من ركائز دين الإسلام، فاستحق التائب أن يكون حبيب الله، فالتوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً أو باطناً إلى ما يحبه كذلك.

وتعود التوبة أولاً وأخيراً إلى اليقظة من الغفلة ومن همزات الشيطان..

سابعاً: الفوائد والحكم الخفية

وهي الفوائد التي لا يتحقق منه الإنسان المبتلى إلا بعد مدة ولكن المؤمن ابتداء يوقن أن الخير فيما يختاره الله له، وإن خفيت عليه الفائدة والحكمة في حينها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[149]، وقال كذلك: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ

---

(١٤٥) التوبة ٩: ١٠٢.

(١٤٦) الإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، ج٣، ص٢١٠٥، ٢١٠٦، الترمذي، *الجامع الصحيح*، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، ج٥، ص٥٤٨، أحمد، *المسند*، ج١، ص٢٨٩.

(١٤٧) قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح». رواه البخاري، *فتح الباري*، ج١١، ص٩١، ومسلم، *الصحيح*، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة، ج٣، ص٢١٠٣، حديث رقم ٢٧٤٤.

(١٤٨) البقرة ٢: ٢٢٢.

(١٤٩) النساء ٤: ١٩.

﴿لاَ تَعْلَمُونَ﴾[(١٥٠)] وقد جاءت هذه الآية في سياق فرض الجهاد والذي فيه مشقة كبيرة كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾... ولكن فيه من الفوائد والحكم الخافية ما أظهرته الأيام فيما بعد...فلولا الجهاد ما قامت لهم قائمة، وقضي عليهم ابتداء.

يقول القرطبي في تفسير الآية:

«عسى بمعنى قد.. وقيل: هي واجبة، «عسى» من الله واجبة في جميع القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ...﴾[(١٥١)]، وقال أبو عبيدة: «عسى» من الله إيجاب، والمعنى: عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة، وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيدا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم».

ويضرب القرطبي لذلك مثلا في بلاد الأندلس حين «تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال فأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد.. وأسر وقتل وسبى واسترق»[(١٥٢)].

وللشوكاني تفسير مشابه فيقول:

«﴿وهو شر لكم﴾: فربما يتقوى عليكم العدو فيغلبكم ويقصدكم إلى عقر دياركم، فيحل بكم أشد مما تخافونه من الجهاد الذي كرهتم، مع ما يفوتكم في ذلك من الفوائد العاجلة والآجلة ﴿والله يعلم﴾ ما فيه صلاحكم وفلاحكم»[(١٥٣)].

وليس معنى الآية مقصورا على مسألة الجهاد، بل في كل الأمور، فالحكمة خافية على البشر، وهي جزء من الإيمان بالغيب وحسن الظن بالله، قال رسول الله ﷺ: «حسن الظن من حسن العبادة»[(١٥٤)] من ذلك أن الله أمر بحسن المعاشرة للزوجة وإن كره منها الزوج أمورا فقال: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾ الآية

---

(١٥٠) البقرة ٢: ٢١٦.

(١٥١) التحريم ٦٦: ٥.

(١٥٢) القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، ج٣، ص٣٩.

(١٥٣) الأشقر، محمد سليمان عبد الله، *زبدة التفسير من فتح القدير*، ط٢، شركة ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٨، ص٤٢.

(١٥٤) أبو داود، سننه، رقم (٤٩٩٣) كتاب الأدب باب في حسن الظن، ج٥، ص٢٦٦، المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن، *تحفة الأحوذي*، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ط٢، المعرفة، القاهرة، ١٩٦٣، ج١٠، ص٧٠، رقم (٣٦٧٩)، وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه، أحمد، *المسند*، ج٢، ص٢٩٧، ٣٥٩، ج٢، ص٤٠٧، ج٢، ص٤٩١.

من مثل «استدامة الصحبة وحصول الأولاد»[١٥٥].

وقال الحسن في معنى الآية الأولى: «لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه غضبك، وأنشد أبو سعيد الضرير:

رب أمر تتقيه جر أمراً ترتضيه

خفي المحبوب منه وبدا المكروب فيه

وقد قيل:

كم نعمة مطوية لك بين أثناء المصائب[١٥٦]

وقال سيدنا عمر ﷺ: «ما أبالي على أي حال أصبحت، أعلى ما أحب أم على ما أكره؟ ذلك لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره»[١٥٧].

وقد ضرب الله مثلا على ذلك في حادثة الإفك، ففي ظاهرها أنها فتنة ومحنة وكلها شر... لأن فتنة العرض من أقوى الابتلاءات وخصوصا في بيت النبوة، وقد عمت الفتنة النبي وأهل بيته والمسلمين جميعا إلى أن نزل قرآن فيها، وقد علل الحكمة منها بأنها درس تربوي للمجتمع المسلم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١٥٨].

والخير أنه كشف الحادث عن العصبة التي تكيد للإسلام والمسلمين في شخص الرسول ﷺ كما كشف للجماعة المسلمة عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم من حسن الظن بالمؤمنين وعدم إشاعة الفاحشة، إضافة إلى الأجر العظيم لمن صبر، وعقاب من خاض في القول.

يقول سيد قطب: «أما الآلام التي عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته والجماعة المسلمة كلها، فهي ثمن التجربة وضريبة الابتلاء الواجبة الأداء... »[١٥٩].

---

(١٥٥) المصدر السابق، ص١٠٢.

(١٥٦) العز بن عبد السلام، *فوائد البلوى*، ص١٦-١٧، وورد البيت الأخير مع ثلاثة أخرى في جنة *الرضا* دون نسبة، ج٣، ص٢٨.

(١٥٧) الإمام أحمد، *كتاب العلل*، ج١، ص١٤٩.

(١٥٨) النور ٢٤: ١١ وما بعدها.

(١٥٩) سيد قطب، ج٤، ص٢٥٠٠-٢٥٠١.

وقد ذكر العز بن عبد السلام نماذج من تلك الفوائد الخفية من قصص الأنبياء فقال:

«ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم، كان في طي البلية والمصيبة أن أخدمها هاجر فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهم السلام، فكان في ذرية إسماعيل سيد المرسلين وخاتم النبيين فأعظم بذلك من خير كان في طي تلك البلية»[١٦٠].

وفي قصة موسى مع الرجل الصالح وما عمله من خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار فوائد خفية لم يدركها موسى ﷺ ولم يستطع عليها صبرا حتى بينها له.. وعن سفيان الثوري أنه قال: «ليس بعاقل من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة»[١٦١].

ب- الفوائد والحكم للفتن والمحن الجماعية (العامة)

إن إفراد الحكم والفوائد للجماعة لا يعني الفصل التام بينهما وبين ما سبقها، بل ربما تتحقق تلك التي للأفراد، في الابتلاء الجماعي، ويعني إفرادها إن هناك فتناً ومحناً تتجاوز الأفراد فتعم الجماعة أو البلاد، أو قطراً أو أُمة كالحروب و الكوارث الطبيعية والحوادث.. فتتحقق منها فوائد وحكم على المستوى الفردي والجماعي، فضلاً عما ذكرناه في الفوائد الخاصة..ومن هذه الحكم والفوائد ما يأتي:

أولاً: الإعداد والتمكين

الفتن والمحن العامة وسيلة تربوية للإعداد وترسيخ الإيمان، والتحلي بالصبر وكظم الغيظ، وذلك لأخذ الأهبة والاستعداد لأداء الأمانة رحمة من الله بالجماعة وتعهده لها بالرعاية، واعداد الخلف من بعدهم، وعلى هذا نرى الرعيل الأول الذي تخرّج من مدرسة الأنبياء يقومون بأعباء الدعوة بعد أن ورثوا تركتها الثقيلة حيث أدخلهم الله مدرسة الابتلاء مع أنبيائهم مسخراً أعداءه ليربي بهم أولياءه ليعدّهم لحمل الأمانة..، يقول المرحوم سيد قطب:

«وما بالله -حاشا لله- أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة

---

(١٦٠) العز بن عبد السلام، *فوائد البلوى*، ص١٦-١٧.

(١٦١) أبو بكر الدينوري، مروان بن مالك، *كتاب المجالسة وجواهر العلم*، تحقيق عدنان عبد الرحمن القيسي، ط مؤسسة الريان، بيروت، ١٩٩٧، ج١، ص١٧٢.

الحقيقية في نصر الله أو ثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء»[162].

وعلى هذا فالابتلاء يسبق التمكين حيث تمتحن الجماعة المؤمنة حتى يكون من يستخلفهم الله أقوياء أُمناء لا يخونون ولا يفرطون، فيوسف عليه السلام يخرج من السجن ليتبوأ على عرش مصر وخزائنها، ومع ذلك يظل مراقباً لربه يجوع يوماً ويشبع يوماً، وهنا يتجلى الفارق بين من يخرج من السجن ليتولى الحكم..، ومن يخرج من الحكم إلى السجن وهم كثير.

ويندرج تحت هذه حكمة الله في ابتلاء هذه الأمة حيث لم يبتل أُمة كما ابتليت أُمة الإسلام بأعدائها لوعده تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فالشهادة على الناس تكون من التمكين، والاجتباء للأمة لتبليغ رسالة الإسلام كما إن الرسول ﷺ قد اجتباه الله لتبليغ الناس ولا يصلح لمثل ذلك إلا بعد التمحيص بأنواعه، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[163].

«والظاهر أن الأمر بالجهاد في هذه الآية يبرز فيه بوضوح جهاد الدعوة لا جهاد القتال»[164]

ثانياً: نفي الخبث عن الدعوة وتنقية الصف المؤمن:

في الفتن الجماعية تظهر معادن الناس وصفاتهم من الصبر والشجاعة والزهد والتواضع والثبات والكرم، مما يناقضها كالشح والجبن والجشع والكبرياء وغيره.

وتنكشف حقيقة النفوس المدعية، فمدعي الإيمان والثبات قد يولي هارباً ويتراجع عن كل شيء.. فتقام عليه الحجة، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾[165].

وفي الفتنة يثبت من عصمهم الله بالإيمان، فيتحملون الأمانة الكبرى، وبذلك يتم نفي الخبث عن الدعوة[166]، بأن يسقط المنافقون والمداهنون ويتنحون عن المؤمنين، وهؤلاء لا يجدون عند الناس إلا الاستخفاف، بينما يكبر في أعين الناس وقلوبهم أولئك المجاهدون المضحون في سبيل الدعوة، بل حتى في نظر خصومهم..

---

(١٦٢) سيد قطب، *الظلال*، ج٥، ص٢٧٢١

(١٦٣) الحج ٢٢ : ٧٨

(١٦٤) الميداني، عبد الرحمن حبنكة، *بصائر المسلم المعاصر*، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٨٨م، ص ٣٩١، وراجع: البغوي، *معالم التنزيل*، ج٥، ص٢٩.

(١٦٥) محمد ٤٧: ٣١.

(١٦٦) راجع: منير محمد غضبان، *فقه السيرة النبوية*، ط٢، مطابع جامعة أُم القرى، مكة ٩٩٢، ص١٩١.

ومن حكمة الله تعالى عدم دخول المتكبرين -المتطلعين إلى الزعامة- في الإسلام ابتداءً، ولو دخلوا خلال الصف المؤمن لخذلوهم، وفرقوا بينهم.

وهكذا فالجماعات تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث وتجمع قواها فيشتد عودها ويصلب، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً وأقواها طبيعة وأشدها اتصالاً بالله .. وهؤلاء هم الذين يسلّمون الراية في النهاية(١٦٧).

وإن المحن تساعد على تنقية الصف المؤمن من أعدائه الباطنيين المتغلغلين بين صفوفه(١٦٨)، فقد يدخل الصف المؤمن وقت الرخاء من يتظاهر بالإسلام فيكون الابتلاء وسيلة لمعرفتهم ثم تنقية الجماعة المؤمنة منهم، وهذا ما حدث أثناء حروب الرسول ﷺ في المدينة حيث حاول المنافقون تثبيط المسلمين عن الخروج للقتال، فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(١٦٩)، قال ابن كثير:

«أي لابد أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أُحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ »(١٧٠).

وقيل: «أي ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم»(١٧١).

ونجد كثيراً من الآيات تربط بين الفتنة الجماعيةوالنفاق،وذلك لأنهم حريصون على بث الفتن والمحن والشر بين المؤمنين كما أن هناك تلازماً بين كلمتي الفتنة والنفاق(١٧٢)، وقد كشف القرآن عن صفات المنافقين كي لا ينخدع بهم المؤمنون، وذلك في سورة التوبة التي تظهر كيدهم حيث يقول تعالى ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ، وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا

---

(١٦٧) راجع: سيد قطب، *الظلال*، ج٥، ص ٢٧٢١.
(١٦٨) أبو فارس محمد عبد القادر، ص١٣٧.
(١٦٩) آل عمران ٣: ١٧٩.
(١٧٠) الصابوني، *مختصر تفسير ابن كثير*، ج١، ص٣٤٠.
(١٧١) الأشقر، زبدة التفسير من فتح القدير، ص ٩٢.
(١٧٢) راجع: السحيباني عبد الحميد، ص٣٧٥.

حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[173]. كما يقول تعالى في نفس السورة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ، أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[174]. يوضح تعالى حال المنافقين حين التعرض للفتنة والابتلاء واستعدادهم للكفر مع أنهم مع المسلمين يرون دلائل صدق النبوة ! وتمر الأعوام وهم يرون صدقه وخذلان أعدائه فلا يتعظون، مما يدل على فساد فطرتهم فلا يعظهم الابتلاء ولا يردهم الامتحان..

يقول الشوكاني:

«﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾: وهم المنافقون فزادتهم السورة المنزلة رجساً إلى رجسهم أي: خبثاً إلى خبثهم، الذي هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد فتشددوا فيه ورسخوه في أنفسهم واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفاراً منافقين. و﴿يفتنون﴾ يختبرون ويبتليهم الله سبحانه بالقحط والشدة وبالأمراض والأوجاع أو بأمرهم بالغزو والجهاد مع النبي ﴿ثم لا يتوبون﴾ بسبب ذلك ﴿ولا هم يذكرون﴾ وهذا تعجيب من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق»[175].

ومن الأمور التي كشفها الله من أعمال المنافقين مسجد ضرار الذي بناه المنافقون قرب مسجد قباء، والذي أرادوا به فرقة المسلمين.

وبعد أن ذكرت الآيات العشر الأوائل من سورة العنكبوت أنواعاً للفتن التي يواجهها المؤمنون، قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[176]، أي ليكشف المؤمنين الذين صدقوا بالجهاد والصبر من ضعفاء الإيمان والمنافقين، فالبلايا كواشف ..، فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون.

ثالثاً: تقوية الصف المسلم

وذلك عند الخروج من الابتلاء وتعميق المحبة بينهم بعد تنقية صفهم من الأعداء فيخرج قوياً متماسكاً يصعب اختراقه وهدمه. فالابتلاء يؤلف بين القلوب ويتأسى بعضهم ببعض

---

(١٧٣) التوبة ٩:٤٧-٤٩.

(١٧٤) التوبة ٩: ١٢٥-١٢٦.

(١٧٥) الأشقر، *زبدة التفسير*، ص٢٦٤.

(١٧٦) العنكبوت ٢٩: ١١.

فتزداد المودة، لأن جو المحن يسوده التراحم والتعاطف حين يرى بعضهم عنت البعض الآخر. والشدائد تزيد الجماعات تماسكا واقترابا،وقد شبه بعض الدعاة الجماعات حين تعرضها للابتلاء بقطعة الاسفنج التي كلما زاد الضغط عليها قل حجمها وتقاربت أجزاؤها وطردت الهواء من فجواتها، فالصف المسلم يقل عدده لكنه يشتد صلابة لأنه فرغ من أصحاب الأفئدة الهواء..[١٧٧]،ويترتب على ذلك فوائد منها:

أ- **إغاظة الأعداء**: ولا شك في أن خروج المسلمين من محنهم ثابتين أقوياء في عقيدتهم وأصلب تماسكاً رغم ما أصابهم، فيه إغاظة للمشركين وكل أعداء الصف المؤمن.

ب- **ظهور القدوة الحسنة**: فحين تظهر الفتنة أناسا صابرين، وينالون من المكافأة والرفعة عند الله فسيكونون قدوة لغيرهم، ومثل ذلك في بقية الشيم التي تظهر في المحن.. فلا زال شهداء الأُمم من الرعيل الأول قدوة للمسلمين يذكرون صبرهم عند الشدائد وفي مقارعة الأعداء سواء في معارك الأعداء أو المعارك الفكرية، فمن ذلك من صمد في محنة العقيدة كالامام مالك وابن تيمية والغزالي، وحسن البنا وسيد قطب.. وغيرهم كثير هم قدوة ومنارة يُهتدى بها على الطريق الصحيح، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ..﴾[١٧٨].

ج- الدعاية للدعوة الإسلامية:

«فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامتة تساعد على دخول الناس فيه أفواجاً، ولو وهنو أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النبي فيسلم، ثم يأتيه أمر النبيﷺ أن يمضي إلى قومه يدعوهم ويصبر على تكذيبهم وأذاهم، ويتابع طريقه حتى يعود بقومه إلى رسول الله ﷺ »[١٧٩].

وبهذا يحقق الابتلاء الحكمة في توريث الدعوة بطريقة التلقي والمشاهدة والمعايشة فتلتقي أجيال متعددة في صعيد واحد.

---

(١٧٧) راجع: حجازي ابراهيم،١/ ١٠/ ١٩٩٦، *الجوانب المشرقة للابتلاء* ، المجتمع، العدد ،١٢١٩،الكويت ص٥٨.

(١٧٨) التوبة ٩: ١١١.

(١٧٩) راجع: منير محمد غضبان، *فقه السيرة النبوية*، ص ١٩٢-١٩٣، وراجع فيه أمثلة على ذلك كقصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي مع قومه حتى أسلمت دوس معه، وقصة إسلام أبي ذر الغفاري وإسلام قوم غفار معه إلى ص ١٩٥.

د- جذب العناصر القوية للدعوة: يؤدي ثبات المؤمنين وتضحياتهم إلى أن تتوق النفوس القوية لهذه العقيدة، فيسارعون للإسلام دون تردد(١٨٠)، وكثير من الشخصيات البارزة دخلت الإسلام بهذه الطريقة، وفي إسلام حمزة عم النبي ﷺ مثال على ذلك والذي سمي «أسد الله» فقد سرى نور الإيمان إلى فؤاده حين علم أن أبا جهل مرّ بالرسول ﷺ عند الصفا ونال منه. وكذلك في قصة إسلام عمر بن الخطاب حين رأى ثبات أُخته وزوجها بعد أن ضربهما ورأى تعلقهما بالإسلام مع بقية المسلمين فكان ذلك دافعاً له ليتعرف ويقرأ ما عندهما من القرآن فيسلم(١٨١).

كما أن ذلك ينطبق على الغافلين من المسلمين حين يرون إخوانهم في محنة قد تكالب الأعداء عليهم، ولنا من الأمثلة على ذلك في العصر الحديث كثير(١٨٢).

وهكذا لا يقبل على هذه الدعوةفي لحظات شدائدها وأيام كربها إلا الرجال الأقوياء والمتجردون من الأهواء والذين وطنوا أنفسهم على تحمل المصاعب في طريق الحق. وفي ذلك حكمة الإجتباء والإصطفاء لحملة الدعوة من الأقوياء الذين لا يخافون في الله لومة لائم.

رابعاً: بروز روح التحدي

وهذا ما تميزت به المجتمعات الإسلامية عند المحن والفتن ومواجهات الأعداء سواء على المستوى العسكري أو الفكري، حيث تتحد القوى والأهداف بينهما، كما حصل في مرات مختلفة من التاريخ، وأظهرها مقاومة الهجمات الصليبية إبان الحروب الصليبية حين اتسم الفكر الإسلامي بطابع المقاومة والتحدي، ورد الفعل بالدعوة إلى الجهاد ومشاركة الدعاة به، وبروز القدوة الحسنة كابن تيمية وسلطان العلماء العز بن عبد السلام، وتكرر ذلك التحدي بعد دخول الاستعمار والأمثلة من الواقع كثيرة، وزاد في العصر الحديث وتمثل في الصحوة الإسلامية التي أوقدت جذوتها محنة المسلمين إبان وبعد حرب الخليج، ثم حروب البوسنة، ورأينا كيف أن شعب الشيشان وما تعرض المسلمون فيه للإبادة والنفي إلى سيبيريا والتي شكلت

---

(١٨٠) راجع: المصدر السابق ص ١٩٥.

(١٨١) راجع: قصة إسلام حمزة وعمر بن الخطاب ﷺ في المصدر السابق، ص١٩٦-٢٠١.

(١٨٢) من أمثلة هؤلاء الشهيد سيد قطب حيث كان في أمريكا حين قتل الشهيد حسن البنا ورأى الفرحة العارمة التي غمرت شوارع أمريكا ،حينئذ أدرك نبل رسالته وإنها هي التي تغيظ الأعداء فآمن بدعوته وعاد ليلتحق بالصف المؤمن ويقدم دمه فداءً لدعوته..، راجع حجازي ابراهيم، *الجوانب المشرقة للابتلاء*، ص٥٨.

-فيمن تبقى منهم على قيد الحياة- طاقة إيمانية، فالتحدي جعلهم اليوم ينتصرون على أعدائهم ويحافظون على هويتهم .. -وهذا ما هو حاصل الآن في كوسوفو- حيث أن جيش تحرير كوسوفو تشكل من مجموعات الشباب الذين عاشوا حياة الاضطهاد، ففضلوا الموت على الحياة..[١٨٣] ولولا الفتن والمحن لما برزذلك وتوهج إيمانهم.

وتبع ذلك التمسك بالهوية الإسلامية عند وقوع الفتن مما يدعوهم إلىالنظر والتدبرفي عقيدتهم وشرعهم والرجوع إلى الله.

ولهذا فإن المحن والفتن التي تعرضت لها الشعوب الإسلامية أدت إلى التمسك بدين الإسلام حين تعرض لها الأعداء -وهي ظاهرة في تاريخ المسلمين- ويحدث عكس ما يخطط له الأعداء، وقد حدث هذا مثلاً في جنوب شرق آسيا، يقول الدكتور عبد الرحمن تشيك:

«ثم جاءت الأساطيل الصليبية بأحقادها مستهدفة ضرب مراكز نفوذ المسلمين ومحوا الإسلام من خريطة جنوب شرق آسيا، فصار أرخبيل الملايو هدفهم فنهشوا جسده ومزقوه إرباً وقسموه إلى دويلات بحدود سياسية جديدة اصطنعوها. .. احتل البرتغال دولة ملاقا الإسلامية عام (١٥١١م) فظنوا باحتلالها أنه لن تقوم للإسلام قائمة، ولكن العكس هو الذي حدث، إذ ازداد نشاط العلم والدعوة بعدما انتقلت مراكز القيادة والعلم إلى اتشيه وجوهورريا..» وقال: «ومن أعظم التأثير أن صار مصطلح الملايو اليوم مرادفاً للإسلام، وأصبح الإسلام عنصراً أساسياً في تعريف الشخصية الملاوية..»[١٨٤].

ومثل ذلك حدث في البوسنة يقول الرئيس علي عزت بيجوفتش:

«إن الشعب البوسني زاد تمسكه بدينه وعقيدته بعد أن كشفت الحرب أن عداء الصرب هو في الحقيقة عداء للإسلام، إن الأمم القوية هي التي تتمسك بهويتها وعقيدتها في المحن والابتلاءات، بل وفي أشد الظروف صعوبة»[١٨٥].

وما ضربناه من الأمثلة ينطبق على بقية المجتمعات الإسلامية في مواجهة الأعداء فتكون

---

(١٨٣) راجع: شعبان عبد الرحمن، ٢١/٣/١٩٩٨م، *الوجه المشرق للحرب*، المجتمع، العدد ١٢٩٤، ذي الحجة ١٤١٨هـ، ص ١٩.

(١٨٤) عبد الرحمن تشيك، دكتور، ٢٧/١/١٩٩٨م، *المسلمون في جنوب شرق آسيا، التاريخ والجهاد ضد الإستعمار*، المجتمع، العدد ١٢٨٦، الكويت، ص ٤٦-٤٧.

(١٨٥) لطفي عبد اللطيف، ٢٣/١٢/١٩٩٧م، بيجوفيتش في محاضرة «*تطور الثقافة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة*» على هامش أعمال مؤتمر في جامعة الرياض، المجتمع، العدد ١٢٨١، ديسمبر، الكويت، ص ٤٨.

المحنة والفتنة لهم قد حققت فائدة عودتهم للدين والتي تعد من الحكم الخفية في علم الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[(١٨٦)] إذ لولا فتنة الأعداء لكان من الممكن أن تفقد هذه الشعوب شخصيتها ودينها وتذوب في المجتمع الغربي..

خامساً: التنبه لمكائد الأعداء

تحفز الشدائد المسلمين للتنبه لمحاولات الأعداء في فتنتهم سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم، لأن ملة الكفر واحدة، وهو أمر قديم قدم الإسلام حيث تسلل أهل الكتاب إلى صفوف المسلمين وأحدثوا الفتن والتي بدأت من مقتل عثمان ﷺ إلى يومنا هذا .. وقد نبه القرآن -كما بينا من قبل- إلى ذلك في آيات بينات منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[(١٨٧)].

ونظراً للفتن والمحن التي واجهها المسلمون فقد كانت الحكمة أن تنبه المسلمون إلى من يثير تلك الفتن وإلى كشفهم وكشف أساليبهم وخططهم ووضع حدٍ لها.

ويترتب على ذلك معرفة الخلل والضعف الذي يمكن تجنبه في ظروف المحنة كما تساعد الفتن وخصوصاً الحروب على كشف الجماعة المسلمة لأساليب الصف الآخر وخططهم ووسائلهم ودسائسهم ومكرهم، والتعرف على نقاط ضعفهم لكي يمكن التغلب عليها، وفي الحروب قد يرخص مالا يرخص في غيرها من الأوقات في كشف الأعداء والوقيعة بينهم كما حدث في معركة الخندق.

سادساً: إتخاذ الشهداء

ومن حكم الابتلاء الجماعي كذلك، أن الله سبحانه وتعالى هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة فقيض الله لهم الأسباب التي توصلهم إليها، من ابتلائه وامتحانه كما وفقهم للأعما ل الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها ..

ومن تلك المنازل «الشهادة» وقد رتب الله ذلك بعدما أوضح أن ذلك من حكم الابتلاء: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾[(١٨٨)]أي وليكرم فئة منكم بالشهادة ليمنحها

---

(١٨٦) البقرة ٢: ٢١٦.

(١٨٧) آل عمران ٣: ١٠٠، وراجع آية ٧٢ من نفس السورة.

(١٨٨) آل عمران٣: ١٤٠.

عنده كرامة الشهداء ما دامت أعمارهم قد انتهت، وآجالهم قد حلت فلئن يموتوا شهداء خير لهم[١٨٩]. وفي هذه الآية بيان الحكمة من ابتلاء المؤمنين بظهور الكفار يوم أُحد فمنها تمييز أهل الإيمان والصبر، ومنها إدراك بعض المؤمنين الشهادة..

كما وضحت آية أخرى الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالجهاد ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[١٩٠]،فقوله﴿ليبلو بعضكم ببعض﴾ «أي» فيصير من قتل من المؤمنين إلى الثواب، ومن قتل من الكفار الى العذاب[١٩١]، ثم بين بعد ذلك الثواب وهو الجنة التي عرفها لهم.

سابعاً: تحقيق سنة المداولة

وهي من السنن الإلهية، فلو أعطي التمكين لأُمة ما دائماً لبغوا وطغوا فلا يصلح لعباده إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، فهو المدبر لعباده بحكمته فهو الخبير البصير، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[١٩٢]. ﴿قرح﴾: جراح، و﴿نداولها بين الناس﴾ «أي»: نجعلها إقبالاً وإدباراً، ونعمة ومصيبة، ونصراً وهزيمة، فحكمة امتحان الناس تقتضي ذلك، ولولاه لما كان للإرادات الحرة خيار في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية..[١٩٣].

وهكذا نجد أن للفتن حكماً وفوائد للفرد وللمجتمع خاصة وعامة اقتضتها حكمة الله سبحانه وتعالى وهو العارف بعباده وما يصلح لهم في الدارين ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[١٩٤].

---

(١٨٩) الميداني، عبد الرحمن حبنكة، *بصائر المسلم المعاصر*، ص ٣٨٦.
(١٩٠) محمد٤٧:٤.
(١٩١) البغوي، *معالم التنزيل*، ج٦، ص١٧٥.
(١٩٢) آل عمران ٣: ١٣٩-١٤٠.
(١٩٣) الميداني، عبد الرحمن حبنكة، *بصائر المسلم المعاصر*، ص٣٨٥.
(١٩٤) الملك ٦٧: ١٤.

المبحث الثاني:

الضوابط المنهجية في مواجهة الفتن والمحن

هناك آداب شرعية ينبغي أن يستحضرها المسلم ليتخلق بها قبل مواجهة الفتنة والإبتلاء منها:

١- عدم تمني الفتنة والتعوذ منها، من باب عدم استعجال الكرب عند التشاؤم، فالمسلم يدعو الله ليصرف عنه السوء والبلاء فيقول: ﴿**رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا**﴾[١٩٥]، ودعا الرسول ﷺ إلى التعوذ من الفتن فقال: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»[١٩٦]، والله تعالى قادر على صرف البلاء كما قال: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾[١٩٧]، ويقول الشاعر: كفاية الله خير من توقينا[١٩٨].

وقد نهى الرسول ﷺ عن تمني تعجيل العقوبة في الدنيا، فقد روي أنه دعا رجلاً قد نحف فقال له: «لعلك كنت تدعو الله؟ قال: نعم، كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: لا تطيقه ولا تستطيعه، هلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، قال فدعى الله فشفاه»[١٩٩].

ولهذا ينبغي أن يتحفظ الإنسان من زلات اللسان و سقطاته و التي تجر إلى البلاء كأن يدعو على نفسه تأكيداً للحلف وما شابه ذلك ....، والإستعاذة من البلاء مشروعة بقراءة المعوذتين، وكان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول«أُعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة، ويقول: إن أباكما كان يعوذ بها اسماعيل واسحاق»[٢٠٠].

---

(١٩٥) الممتحنة ٦٠: ٥.

(١٩٦) الإمام مسلم، صحيح *مسلم بشرح النووي*، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت عليه واثبات عذاب القبر والتعوذ منه، ج١٧، ص٢٠٣.

(١٩٧) الزمر ٣٩: ٣٦.

(١٩٨) الغرناطي: جنة *الرضا*، ج٢، ص٣٦-٣٧، ونسب البيت لعبد الله بن سليمان بن وهب.

(١٩٩) الإمام أحمد، *المسند*، ج٣، ص١٠٧، ٢٢٨.

(٢٠٠) الترمذي، *السنن*، كتاب الطب، باب ماجاء في الرقية من العين، ح (٢٠٦٠)، ج٤، ص٣٩٦، والإمام أحمد، *المسند*، ج١، ص٢٣٦،٢٧٠، الهيثمي، *مجمع الزوائد*، ج١٠، ص١٣٥.

٢- الدعاء والذكر عند توقع البلاء بالأدعية المأثورة وغيرها، مثل قول الرسولﷺ: «اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك»[٢٠١]، وكان إذا سمع الرعد يقول: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك»[٢٠٢].

٣- التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب المشروعة مثل الوقاية من الأمراض، إذا كانت الأسباب الصارفة تحت قدرتنا، من ذلك الفرار من الوباء لقول الرسول ﷺ: «فر من المجذوم، فرارك من الأسد»[٢٠٣]، ومن ذلك الحمية، واتخاذ أسباب حفظ المال، وهذا ليس بمناف للتفويض والتسليم مع مراعاة التوكل.

٤- التوبة من الذنب والإستقامة، فإذا كان من طبيعة تكوين الإنسان الوقوع في الخطأ وارتكاب الذنب، فلا ينبغي الإصرار عليه والإستغراق في الضلالة، بل الإسراع في التوبة، والإعتراف بالذنب والرجوع إلى الله لائماً نفسه ونادماً على فعله، قال تعالى: **﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾**[٢٠٤]، يقول الرسول ﷺ: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»[٢٠٥]، ومن آداب التوبة الخضوع والالحاح في الطلب فيقول ﷺ: «لا يقولن أحدكم اللهم اغفرلي إن شئت وليعزم المسألة وليعظم الرغبة فإن الله تعالى لا يعاظمه شيء أعطاه»[٢٠٦].

---

(٢٠١) الإمام أحمد، *المسند*، ج٢، ص٢٢٠.

(٢٠٢) الترمذي، *السنن*، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا سمع الرعد، ح(٣٤٥٠)، ج٥،ص٥٠٣، والإمام أحمد، *المسند*، ج٢، ص١٠٠.

(٢٠٣) البخاري، الصحيح، كتاب الطب، باب الجذام،ج٧، ص١٧،والإمام أحمد، المسند، ج٢، ص ٤٤٣.

(٢٠٤) التوبة ٩: ١٠٢.

(٢٠٥) الترمذي، السنن، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها ح(٢٥٢٦)، ج٤، ص٦٧٢، والإمام أحمد، المسند، ج٢، ص٣٠٩،ج٣، ص٢٣٨، ج٥،ص٤١٤

(٢٠٦) البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا يكره له، ج٧، ص١٥٣، وكتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، ج٨، ص١٩٣، والإمام مسلم، الصحيح، كتاب الذكر، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، ح(٢٦٧٨، ٢٦٧٩)، ج٣، ص٢٠٦٣، وأبو داود، سننه، كتاب الوتر، باب الدعاء، ح(١٤٨٣)، ج٢، ص١٦٣،والترمذي، السنن، كتاب الدعوات، باب ٧٧، ح(٣٤٩٧)، ج٥، ص٥٢٦،وابن ماجة، سننه، كتاب الدعاء، باب لا يقول الرجل اللهم اغفرلي إن شئت، ؛(٣٨٥٤)، ج٢، ص١٢٦٧، والإمام أحمد، المسند، ج٢، ص٢٤٣،٣١٨،٤٦٤،٥٠٠،٥٣٠.

٥- الشكر على النعم لأن شكر المنعم سبب في استدامة النعم، والشكر له منزلة عظيمة وقد عده ابن القيم أعلى المنازل «وهو فوق منزلة الرضا وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدونه»[٢٠٧]،وقد أمر الله به واثنى على أهله وجعله سببا للمزيد وحارسا لنعمته كما قال تعالى:﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[٢٠٨]و قال ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[٢٠٩]، ودعا رسول الله ﷺ معاذاً لذلك فقال: «والله يا معاذ إني لأحبك فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم إعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[٢١٠].

لهذا كان مقابلة النعمة بالإعراض نقصاً في الشكر وتعامياً عن رؤية النعمة من قبل المنعم بها، قال تعالى:﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[٢١١]، فالتعقيب في الآية بأنه إذا مسه الشر الذي هو منبه له من غفلته فهو حينئذ ذو دعاء عريض، ولهذا كان تغير النعمة حسب السنن الإلهية بسبب تغير ما بالأنفس﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢١٢]و من شكر النعمة ترك الذنوب كي تدوم، إذ هناك ابتلاءات مخصصة توجبها ذنوب مخصوصة من ذلك ما ذكره رسول اللهﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلافشا فيهم الطاعون والاوجاع التي لم تكن في أسلافهم»[٢١٣]، وفي حديث آخر: «ما ظهر الغلول في قوم قط إلا ألقى في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم قط إلا كثر فيهم الموت...»[٢١٤].

٦- الصدقة، فقد ورد في فضلها أنها تدفع الآفات وأصناف الابتلاءات، قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة لتطفىء غضب الرب وتدفع ميتة السوء»[٢١٥]، وقال: « الصدقة تطفيءالخطيئة

---

(٢٠٧) العلي، عبد المنعم صالح، *تهذيب مدارج السالكين*،ص ٣٨٣

(٢٠٨) ابراهيم١٤: ٧

(٢٠٩) الزمر٣٩: ٧

(٢١٠) النسائي ،*سنن النسائي*،كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (١٣٠١)ج٣ ص٥٣،وأبو داود، سننه، كتاب الوتر، باب في الإستغفار ح(١٥٢٢)، ج٢ص١٨١، و الإمام أحمد المسند ج٢ص٢٩٩، ج٤ ص١٢٣،١٢٥،ج٥ ص٢٤٥،٢٤٧

(٢١١) فصلت٤١: ٥١.

(٢١٢) الانفال٨: ٥٣.

(٢١٣) ابن ماجة،سنن *ابن ماجة*،كتاب الفتن ، باب العقوبات، ص١٣٣٣.

(٢١٤) الإمام مالك،*الموطأ*،كتاب الجهاد، باب ما جاء في الغلول ح(٢٦)ج١ص٤٦٠

(٢١٥) الترمذي، السنن، كتاب الزكاة، باب ما جاء في الصدقة، ح(٦٦٤)، ج٣، ص ٥٢، والإمام أحمد،ج٣، ص٥٠٢

كما يطفيء الماء النار»[216] والصدقة أنواع في المال وغيره كالتسبيح والتكبير وإماطة الأذى عن الطريق والغرس والزرع، وقد نهى الرسول ﷺ عن الشح فقال: «واتقوا الشح فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم..»[217].

٧- حسن الظن بالله والتسليم له، وهو تعبير عن قوة الرجاء بالله بصرف المتوقع، ففي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً»[218]، وهو يورث السكينة التي تزيد المؤمن ثباتاًويقيناً في الشدائد والمصائب، قال تعالى:﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[219]، كما تتحقق الطمأنينة، وهي سكون القلب وعدم اضطرابه وقلقه ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[220].

ولما كانت الفتن خاصة وعامة، فردية وجماعية، فهناك ضوابط للفتن الخاصة تندرج تحت الضوابط العامة لتكون مقدمة لها، لأن وسائل تجنب الفتن إذا أخذ بها الأفراد، ودرجوا عليها صارت ميزة لهم وانعكست على مقدرتهم في مواجهة الفتن والمحن الجماعية..

أ- ضوابط مواجهة الفتن الخاصة

أولاً- الإيمان بالقدر والتسليم لقضاء الله، وذلك بأن يعد الابتلاء مسألة طبيعية، وأنه من سنن الله في خلقه، ومن أمثال العرب «من حدّث نفسه بطول البقاء فليوطن نفسه على المصائب» وقولهم «إن في الشر خياراً»[221]، أي بعضه أهون من بعض، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[222]، فعلى المبتلى أن يعتقد أن ما أصابه قدر من

---

(٢١٦) سبق تخريجه في الفتن الاقتصادية

(٢١٧) سبق تخريجه في الفتن الاقتصادية

(٢١٨) البخاري، الصحيح ، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ويحذركم الله نفسه وقوله تعلم ما في نفسي، ج٨،ص١٧١،وباب قوله تعالىيريدون أن يبدلوا كلام الله ج٨،ص١٩٩،مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها ح(٢٦٧٥)،ج ٣ ص٢١٠٢، والترمذي ، كتاب الزهد، باب ما جاء في حسن الظن بالله ح(٢٣٨٨)، ج٤ص ٥٩٦، وابن ماجة ، كتاب الأدب باب فضل العمل ح(٣٨٤٢) ج٢،ص١٢٥، و الدارمي، كتاب الرقاق، باب حسن الظن بالله ، ح(٢٧٣٤) ج٢،ص٦١٣، و الإمام أحمد ج٢ص ٢٥١، ٣١٥،ج٣ ص٢١٠، ٢٧٧،ج٤ص١٠٦.

(٢١٩) الفتح ٤٨: ٤.

(٢٢٠) الرعد١٣: ٢٨.

(٢٢١) الغرناطي، جنة *الرضا* ، ج٣ص٢٩.

(٢٢٢) التغابن٦٤: ١١.

الله لم يكن ليخطئه، وما أخطئه لم يكن ليصيبه، أما ما يصيب العبد من بلاء أو ضرر فمثاب عليه حتى الشوكة يشاكها مما ورد ذكره في مبحث الفوائد والحكم. وقد قال أحد السلف: «ليخفف عنك البلاء علمك بأنه سبحانه هو المبتلي لك فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الإختبار»[٢٢٣].

والتسليم لقضاء الله ثمرة الإيمان بالقدر خيره وشره ولذلك وصفهم تعالى بذلك فقال: ﴿.. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٢٢٤]، ويقول الرسول ﷺ: «لا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»[٢٢٥]، والمؤمن يقدر أن ما نزل به أخفّ بكثير من قضاء آخر كان يمكن أن ينزل به، فعليه أن يوطن نفسه على الرضا بقدر الله.

ثانياً- ذكر الله والتماس العون منه مع الأخذ بالأسباب والتوكل على الله في حصول نفعها، فقد قال تعالى حاكياً عن ابراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٢٢٦]، ويلاحظ فيها أدبه مع الله بنسبة المرض لمن وقع عليه ونسبة الشفاء لله، والرقى من القرآن والأدعية المأثورة من أنفع الأسباب في التطبب، وقد صحّ ذلك عن النبي ﷺ، وفي ابتلاء أيوب عليه السلام بمرضه أعظم أسوة، وقد حكى عنه القرآن قوله:﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٢٢٧]،ويلاحظ التلطف في دعائه حيث اكتفى بتقرير حاله واظهارعجزه وحاجته بأوجز وأوضح معنى، فكانت الإستجابة ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[٢٢٨].

وكان الرسول ﷺ ينفث على نفسه في مرض موته بالمعوذات، قالت عائشة: «كنت أنفث

---

(٢٢٣)الغرناطي، *جنة الرضا*، ج٣ص٣٣.

(٢٢٤) البقرة ٢: ١٥٦.

(٢٢٥) مسلم، الصحيح،كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز،ح(٢٦٦٤)ج٣ص٢٠٥٢، والإمام أحمد، المسند، ج٢ص٣٦٦،٣٧٠

(٢٢٦) الشعراء ٢٦: ٨٠.

(٢٢٧) الأنبياء ٢١: ٨٣.

(٢٢٨) الأنبياء ٢١: ٨٤.

عليه بهن وأمسح بيده نفسه رجاء بركتها»[٢٢٩]، وكان يعوذ أهله بقوله: «اللهم رب الناس أذهب البأس واشف أنت الشافي، لاشفاء إلا شفاؤك شفاءً لايغادر سقماً»[٢٣٠]، ويشترط معها خلوص النية والصلاة على النبي أول الدعاء وخاتمته، وللدعاء أثر كبير في مواطن الاضطرار في صرف البلاء، قال تعالى:﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[٢٣١]، والتماس العون من الله دليل التوكل عليه قال تعالى:﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[٢٣٢]،قال أحد الحكماء «التوكل وثوقك بالمضمون واستبدال الحركة بالسكون»[٢٣٣]، فإذا علم الله من العبد صدق التوجه هيء له الأسباب للخير ما لم تكن في حسبانه.

ثالثاً- تجنب منطق السوء في التشكي من البلاء والمصائب إلا إلى الله سبحانه وتعالى والحذر من التسخط، فالتشكي من باب عدم الرضا «وقبيح بالعبد أن يكثر التشكي بربه ويدع سره لمن لايقدر على كشف كربه»[٢٣٤]، وقد تحرج من ذلك الأخيار وكتموا ما بهم، ولازال الإمام مالك ﷺ مثلاً يقتدى به فقد عرف عنه حضور المسجد والجماعات والجنائز وعيادة المرضى وإجابة الدعوى، وقضاء الحقوق، فترك ذلك كله وعندما كان يسأل يقول: «ما يتهيأ لكل أحد أن يذكر ما فيه» أويقول: « أعذار لاتذكر»، فلما حضرته الوفاة سأل عن تخلفه عن المسجد -ودام سنتين- فقال: «لولا أني في آخر يوم من الدنيا وأوله من الآخرة ما أخبرتكم، سلس بولي فكرهت أن آتي مسجد رسول الله ﷺ على غير طهارة استخفافاً برسول الله،

---

(٢٢٩) البخاري، *الصحيح*، كتاب الطب، باب في المرأة ترقي الرجل، ج٧ص٢٦، وباب الرقى بالقرآن والمعوذات، ج٧ص٢٢، والإمام أحمد، *المسند*، ج٦ص١٢٤،١٦٦.

(٢٣٠) البخاري، *الصحيح*، كتاب المرضى،باب دعاء العبد للمريض، ج٧ص١١، الإمام أحمد، *المسند*، ج١ص٧٦،ج٣ص١٥١،٢٦٧،ج٤ ص٢٥٩، ج٦ص٤٤،٤٥،١١٥، ابن ماجة، *سننه*، كتاب الطب،باب ماعوّذ به النبي ﷺ وما عوّذ به،ح(٣٥٢٠)، ج٢ص١١٦٣، وفي باب تعليق التمائم، ح(٣٥٣٠)،ج٢ص١١٦٦،وأبو داود، سننه، كتاب الطب، باب في تعليق التمائم،ح(٣٨٨٣)، ج٤ص٢١٢،وباب كيف الرقى؟،ح(٣٨٩٠)، ص٢١٧،والترمذي، *السنن*، كتاب الجنائز، باب ما جاء في التعوذ للمريض، ح(٩٧٣)، ج٣ص٣٠٣.

(٢٣١) النحل ١٦: ٦٢.

(٢٣٢) الطلاق ٦٥: ٣.

(٢٣٣) وهو الشيخ أبو مدين أحد متصوفة الأندلس في القرن السادس الهجري، راجع الغرناطي:جنة *الرضا*،ج١ص٢٣٦.

(٢٣٤) المصدر السابق : ج١ص٢٢٢.

وكرهت أن أذكر علّتي فاشكو ربي»[٢٣٥]، وقد يفضي التشكي إلى التسخط مثل ذم الدهر ونسبة الجور إليه كقول أبي المظفر الأبيوردي رحمه الله[٢٣٦].

تنكر لي دهري ولم يدرِ أنني أعز وأحداث الزمان تهون

فظلَّ يريني الخطبَ كيف اعتِراؤه وظِلت أريه الضرَّ كيف يكون

ونسبة الحوادث للدهر وسبّه منهى عنه بحديث قدسي قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر،وأنا الدهر بيدي الأمرأقلب الليل والنهار»[٢٣٧]، لأن فيه كذب وسوء أدب، يقول الشاعر[٢٣٨]:

نذم زماناً ما له من جناية ونشكوه لو يغني عن المرء شكواه

ولا ذنبَ فيها للزمان وانما جنينا فعوقبنا بما قد جنيناه

هو القدر الجاري على الكره فصبراً وتسليماً لما قدّر الله

كما يتحفظ من منطق السوء عند الفتنة والابتلاء لأنها صادرة من الله فلا يعترض عليه فقد علمنا رسول الله ﷺ ما يقال عند المصيبة فقال: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمر الله به عزّ وجل، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها»[٢٣٩].

ومن منطق السوء السخرية من أهل البلاء، فإن ذلك يدل على الكبر نتيجة الجهل، وليضع الإنسان نفسه مقام المبتلى. ومنها ابداء الشماتة فهي من أعظم الإبتلاء، فقد حكى

---

(٢٣٥) راجع: القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى،*ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك*،ط دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٧، ج١ص١٨١.

(٢٣٦) ابن خلكان،*وفيات الأعيان*،تحقيق احسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٧٨، ج٤ص٤٤٦.

(٢٣٧) البخاري ،الصحيح، كتاب التفسير ، باب سورة الجاثية ح(٤٨٢٦) ج٦ ص٤١ ،ومسلم، الصحيح ،كتاب الالفاظ من الأدب ،باب النهي عن سب الدهر ح(٢٢٤٦)ج٢ص١٧٦٢،أبو داود،السنن،كتاب الأدب ،باب في الرجل يسب الدهر، ح(٥٢٧٤)ج٥ص٤٢٣،وأحمد ج٢ص٢٣٨،٢٧٢

(٢٣٨) هو ابو محمد عبد الله بن جزّي،أنظر الغرناطي،*جنة الرضا*، ج٢ص٢٦٠.

(٢٣٩) مسلم،*الصحيح*، كتاب الجنائز،باب ما يقال عند المصيبة،ح(٣)، ج٣ص٦٣١،ح(٤)ص٦٣٢،وابن ماجة، سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة، ح(١٥٩٨)، ج١ص٥٠٩، والإمام مالك،*الموطأ*، كتاب الجنائز، باب جامع الحسبة في المصيبة، ح(٤٢)، ج١ص٢٣٦، والإمام أحمد،*المسند*، ج٤ص٢٧،ج٦ص٣٠٩،٣٢١.

القرآن على لسان هارون قوله: ﴿فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾[٢٤٠]، وتعوذ منها الرسول ﷺ فقال في الدعاء: «... ومن شماتة الأعداء»[٢٤١]، ويقول كذلك: «لاتظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك»[٢٤٢].

رابعاً- الصبر، وهو «امساك النفس عن التسخط بالقضاء وحبس اللسان عن القول السيء والبذيء، وتقييد الجوارح عن المعصية»[٢٤٣]، ودلت الآيات الكثيرة -نحو تسعين موضعاً- في القرآن الكريم والأحاديث النبوية على وجوبه، وقال ابن القيم «وهو واجبٌ باجماع الأمة»[٢٤٤]، كما ذكر في القرآن في ستة عشر نوعاً،منها الأمر به، والنهي عن ضده، والثناء على أهله[٢٤٥]، وقرن ذكره في القرآن بمقامات الإسلام كالإيمان والصلاة والجهاد، وقد بشر الله الصابرين بالثواب الجزيل فقال ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢٤٦]، كما أوجب محبته لهم وأثبت معيته لهم في آيات أخرى. كما أخبر الرسول ﷺ أن الصبر خير كلّه فقال:«من يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[٢٤٧]، ومثله قوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه»[٢٤٨]،

---

(٢٤٠) الأعراف ٧: ١٥.

(٢٤١) البخاري،*الصحيح*، كتاب القدر، باب من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء، ج٧ص٢١٥،ومسلم، *الصحيح*، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، ح(٥٣)، ج٣ص٢٠٨٠،والنسائي، *السنن*، كتاب الاستعاذة، باب من غلبه الدين، ح(٥٤٣٢)، ج٨ص٢٦٥،وباب غلبة العدو، ح(٥٤٨٤)، ص٢٦٨، وباب الاستعاذة من شماتة الأعداء،ح(٥٤٨٥)، ص٢٦٨، وباب الاستعاذة من سوء القضاء، ح(٥٤٨٨)، ص٢٦٩،وباب الاستعاذة من درك القضاء، ح(٥٤٨٩)، ص٢٧٠،والامام أحمد،*المسند*، ج٢ص١٧٣،٢٤٦.

(٢٤٢) الترمذي، سننه، كتاب صفة القيامة باب٥٤ح(٢٥٠٦)ج٤ص٦٦٢، وقال حديث حسن غريب.

(٢٤٣) ابن ناصر الدمشقي، *برد الأكباد عند فقد الأولاد*، ص١٦.

(٢٤٤) عبد المنعم صالح العلي،*تهذيب مدارج السالكين*، ص١١٥، وانظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة صبر، ص٥٠٧-٥٠٩.

(٢٤٥) المصدر السابق، ص٣١٥-٣٥٢، وراجع: سليم الهلالي،*الصبر الجميل*، ص١٣-١٤.

(٢٤٦) الزمر ٣٩: ١٠.

(٢٤٧) البخاري،*الصحيح*، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ج٢ص١٢٩، وكتاب الرقاق، باب الصبر على محارم الله، ج٧ ص١٨٣،والإمام مسلم، *الصحيح*، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر،ح(١٢٤)، ج١ص٧٢٩، وأبو داود،*السنن*، كتاب الزكاة ،باب في الاستعفاف، ح(١٦٤٤)، ج٢ص٢٩٥، والترمذي، كتاب البر، باب ما جاء في الصبر، ح(٢٠٢٤)، ج٤ص٣٧٣، والدارمي،=

وذكر ابن كثير قول الأعمش عن علقمة في قوله تعالى:﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، قال «هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[٢٤٩]، ومن لوازم الصبر عدم الشكوى، والإخلاص فيه لله، وأن يكون في أوانه فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ أتى على امراة تبكي على صبي لها فقال لها: «اتقّ الله واصبري فقالت: وما تبالي بمصيبتي؟ فلما ذهب قيل لها إنه رسول الله ﷺ فأخذها مثل الموت فأتت على بابه فلم تجد على بابه بوابين فقالت: يا رسول الله لم أعرفك، فقال:إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[٢٥٠].

ولما كان فقد الأولاد من أعظم الابتلاء كان جزاء الصبر والاحتساب عليه الجنة قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لإحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم»[٢٥١]، وقال لنسوة من الأنصار: «لا يموت لاحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبهم إلا دخلت الجنة، فقالت امراة منهن أو اثنين يا رسول الله ﷺ فقال أو اثنين»[٢٥٢]. والصبر مطلوب في المواقف كلها وأعلاها الموت، والسنة الاسترجاع عندها، والتجلد عند النوائب من شيم الرجال لذلك يقول أبو ذؤيب الهذلي وكان قد فقد أربعاً من أولاده في الطاعون يرثيهم[٢٥٣]:

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع

=كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف عن المسألة، ح(١٦٥٣)، ج١ص٣٦٢، والإمام مالك، *الموطأ*، كتاب الصدقة، باب ما جاء في التعفف عن المسألة، ح(٧)، ج٢ص٩٩٧،والإمام أحمد، *المسند*،ج٣ص١٢،٩٣.

(٢٤٨) البخاري،*الصحيح*، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض،ج٧ص٣،والإمام مالك،*الموطأ*، كتاب العين، باب ما جاء في أجر المريض، ح(٧)، ج٢ص٩٤١،والإمام أحمد ،*المسند*، ج٢ص٢٣٧.

(٢٤٩) الصابوني، مختصر *تفسير ابن كثير*، ج٣ص٥١٠، والآية من سورة التغابن ٦٤: ١٢.

(٢٥٠) البخاري،كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، ح(١٢٨٣)، ج٢ص٧٩ ، والإمام مسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، ح(٢٢٦)، ج ١ص٦٣٧.

(٢٥١) البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب، ح(١٢٥١)، ج٢ ص٧٢ والنسائي، كتاب الجنائز، باب من احتسب ثلاثة من صلبه، ج٤ص٢٤،والترمذي، سننه، كتاب الجنائز،باب ماجاء في ثواب من قدم ولدا، ح(١٠٦٠)ج٣ص٣٧٤

(٢٥٢) البخاري، كتاب الجنائز،باب فضل من مات له ولد فاحتسب ج٢ ص٧٢

(٢٥٣) ياقوت الحموي،*معجم الأدباء*، ط٣ دار الفكر بيروت ١٩٨٠،ج١١ص٨٣،والأصفهاني، *الأغاني* ، ج٦ص٢٦٤.

ومن الأمور التي تعين على تحقيق الصبر في المصيبة:

١- استحضار الأجر واحتسابه عند الله فقد ورد عن عمر بن عبد العزيزأنه لما مات ولده عبد الملك كشف أبوه عن وجهه وقال: «رحمك الله يا بني لقد سررت بك يوم بشرت بك، ولقد غمرت سروراً بك، وما أتت عليّ ساعة أنا فيها أسرّ من ساعتي هذه، لما رأيت إن كنت تدعوا أباك إلى الجنة»[٢٥٤]. ولايدخل في الجزع دمع العين فإنها رحمة فقد بكى ﷺ عند موت ولده ابراهيم وجعلت عيناه تذرفان فقال عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال يابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى فقال: « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[٢٥٥].

واستحضار حكم الابتلاء وفوائده فقد يكون إيقاظ له من غفلة أو عقوبة عجّلت له في الدنيا رحمة له من عذاب الآخرة.

٢- التأسي بمحن الآخرين، واليقين بأنها حظ الجميع وأولهم الأنبياء فهم الأشد بلاءً، وكذلك بمحن المعاصرين له الذين قابلوها بالرضا طمعاً بما عند الله، ولذلك يحسن النظر في سير السابقين الذين واجهوا المحن والفتن بالصبر والجلد، والتأسي بالآيات القرآنية التي تفيد زوال الدنيا كقوله تعالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٢٥٦]

٣- لطف التعزية له ممن حوله، وهي سنّة، وتكون بآيات من القرآن وبنصوص الحديث والآثار والأشعار وذلك لصرف المبتلي عن الجزع، وقد زخرت كتب الوعظ والأدب بذلك،وفيها أجرٌ وثواب، فمن ذلك قول رسول الله ﷺ حين أخبر بوفاة ابن لإحدى بناته: «إن لله تعالى ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجلٍ مسمى»[٢٥٧].

ب- ضوابط مواجهة الفتن الجماعية

أولاً- العودة الى منهاج الكتاب و السنة

---

(٢٥٤) المبرد ،*التعازي والمراثي*، ط مجمع اللغة العربية ١٩٧٦، ص٥٨-٥٩.

(٢٥٥) البخاري، كتاب الجنائز ، باب قول النبي وإنا بك لمحزونون، ح(١٣٠٣)، ج٢ص٨٥ .

(٢٥٦) آل عمران ٣: ١٨٥.

(٢٥٧) البخاري، *الصحيح*، كتاب الجنائز،باب قول النبي يعذب الميت ببعض بكاء أهله، ج٢ص٨٠ ، والنسائي،السنن، كتاب الجنائز، باب الأمر بالاحتساب والصبر عند نزول المصيبة ح(١٨٦٦)ج٤ص٢٢ .

بين لنا الرسول ﷺ انه لا سلامة من الفتن كلهـا إلا بالتمسـك بهذيـن الأصليـن،والأدلـة على ذلك من القران الكريم كثيرة،فإذا أردنا النهوض بالأمة من جديد في عصر تلاطمت فيه الفتن فلا بد من دراسة ظروف ميلادهـا الأول،عنـد ذلـك نـدرك أهميـة الاهتـداء بالكتـاب والسنة وتطبيقات السيرة في عملية البعث الإسلامي أو إخراج الأمة ونهوضها من جديد.

والاعتصام بالكتاب والسنة جاء ضمنـاً في سـياق الأمـر بطاعـة اللـه ورسـوله بأسـلوب الترغيب حيث رتب الرحمة عليها والثـواب فقـال تعـالى: ﴿وَأَطِيعُـوا اللَّـهَ وَالرَّسُـولَ لَعَلَّكُـمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢٥٨] وقال كذلك ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[٢٥٩]. وحذر تعـالى مـن عـدم الطاعة فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٢٦٠].ومن متممات الطاعة رد الحكم لله والرسول قرانا وسنة في الأمر كلـه، ولا نجاة للأمة إلا بإتباعهما، فهما المصدران الأساسيان وفيهما المنهج الكامل للحياة فمتى ما عصفت بالأمة المحن علم أنها زاغت عن الطريق وحادت عن المنبع الأصلي، وبعـدت عـن هذين المصدرين و ما عليها إلا الرجوع إليهما ...

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: « تركت فيكم أمرين لا تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله و سنة نبيه »[٢٦١]و في حديث آخر قال: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيـغ عنها بعدي إلا هالك ...»[٢٦٢] و قد وعظ الرسول ﷺ الصحابة موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقيل: يا رسول الله كأنهـا موعظـة مـودع فأوصنـا فقـال: «أوصيكـم بتقوى الله والسمع و الطاعة و إن تأمر عليكم عبد، و إنه من يعش منكـم فسيرى اختلافـاً كثيراً، فعليكم بسـنتي وسـنة الخلفـاء الراشـدين المهديـين عضـوا عليهـا بـالنواجد، وإيـاكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[٢٦٣].

---

(٢٥٨) آل عمران ٢:١٣٢

(٢٥٩) النساء ٤:٦٩

(٢٦٠) المائدة ٥:٩٢

(٢٦١) الامام مـالك ، الموطـأ ، كتـاب القـدر ،بـاب النهـي عـن القـول بـالقدر ج٢ ص٨٩٩ و الحـاكم ،المستدرك،ج١ ص٩٣ و هو صحيح من حديث عبد الديـن عبـاس ابـن حـزم في الأحكـام، ج٦، ص٨٩.

(٢٦٢) ابن ماجة : السنن ، كتاب المقدمة ،باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، ج١، ص١٦، ح(٤٣) الإمـام أحمد ، المسند، ج٤،ص١٢٦، الالباني ، سلسلة الاحاديث الصحيحة ج٢ ،ص٦٤٧،ح(٩٣٧).

(٢٦٣) سبق تخريجه في مبحث الفتن الفكرية ، موضوع البدع.

فالرسول ﷺ يؤكد بمثل هذه الأحاديث أن جميع الفتن عائدة إلى اختلال في تطبيق هذين المصدرين، وإن الاكتفاء بواحد منها لا يكفي لأن السنة شارحة وموضحة ومقيدة للكتاب، فضلاً عن أحكام مضافة في السنة فالادعاء بالاكتفاء بالقرآن -كما ذهب إلى ذلك فرق مبتدعة قديماً وحديثاً- ضياع للقرآن وللإسلام وانحراف عنهما [٢٦٤] كما يدعوالرسول ﷺ كذلك إلى الاقتداء بالخلفاء الراشدين المهديين من بعده، لأن عصورهم شهدت تطبيقاً حياً للقران والسنة.

ويلاحظ كذلك من الأدلة أن الالتزام والاعتصام بالكتاب يعني التطبيق الكامل لهما، وليس الاقتصار على النسك والعبادة وبعض المظاهر، والعودة إلى الشريعة تقتضي ذلك وفي جميع نواحي الحياة، ولذلك فإن جميع ما سنذكره من الضوابط اللاحقة عائدة إلى هذا الأصل وهو الاعتصام بالكتاب والسنة. وبما أن القرآن حذرنا من فتنة عامة فقال: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»[٢٦٥] بعد أن أمر بالاستجابة للرسول ﷺ إذن فالعودة - استجابة للرسول- ترفع عنا الفتن و المحن.

ومن لوازم العودة الى الله ورسوله: اتباع العلم النافع مع لزوم عقيدة أهل السنة والجماعة وبهذا نستطيع التعامل مع مستجدات الحياة فيعتصم المسلم من الوقوع فيما لا يقره الشرع فعند فوات العلم يحصل له الشتات في تصرفه مع نفسه وأسرته ومجتمعه وأمته، فيمنع نفسه من الوقوع في الخطأ والزلل فيما يستجد من فتن بمراجعتها على منهاج أهل الحق لأن الخطأ قد يجر إلى آخر، فالالتزام بهذا الضابط يمنعه من الوقوع في الإثم.

ومن ثمرة الالتزام بهذا الضابط مواجهة الفتن والابتلاءات بخلق إسلامي نتعلمه من الكتاب والسنة، فمن ذلك التزام الرفق و التأني والحلم و الحكم بالعدل[٢٦٦].

---

(٢٦٤) من هؤلاء الدعاة قديماًالمعتزلة و الرافضة ، وحديثاً في القرآنيين و المستشرقين و تلاميذهم و قد تنبأ الرسول ﷺ بذلك، وحذر منهم فقال: «إلا اني أوتيت القرآن و مثله معه ،ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول :عليكم بهذا القران ،فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ،و ما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، و إن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » أخرجه : أبو داود ،سننه ،كتاب السنة باب لزوم السنة ج٥ ص١٠ ح(٤٦٠٤)و الترمذي ، السنن ،كتاب العلم ،باب ما نهى عن أن يقال عند حديث النبي ﷺ ج٥ ص٣٧ ح(٢٦٦٣)و قال:حديث حسن صحيح، ابن ماجة ، السنن، المقدمة باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ ج١ ص٦ح (١٢)و الأمام أحمد ، المسند ج٤ ص٣١

(٢٦٥) الأنفال ٨: ٢٥

(٢٦٦) راجع : آل الشيخ ،صالح بن عبد العزيز ، الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن (محاضرة) ط٢ سنة ١٤١٣ هـ ص ١٥.

ويسبب الابتعـاد عـن اتباع منهـج الكتـاب والسـنة حدثـت الفـتن في مـاضي المسـلمين وحاضرهم و ازدادت كلما ابتعدوا حتى غدت النكبات والمحن نصيب المسلمين، وإذا تدبرنا الأمر نجد مرد ذلك للتقصـير في كثـيرمن الفرائـض والسـنن التـي أدت إلى تخـاذل المسـلمين وطمع الاعداء فيهم، وسوف أذكر من ذلك فريضتيين مهمتين اقصيت من حياة المسـلمين و لا بد من الالتزام بها في مواجهة الفتن و المحن و هما:

١- إحياء رسالة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر

وهو واجب بنص الكتاب والسنة، فهو فرض كفاية، قد يتحول إلى فرض عـين في بعـض الظروف، وكذلك لبعض الناس كالعلماء ... ويمكـن التعـرف علـى تفصيلاتـه ودرجاتـه في مظانها من كتب الفقه وغيرها... ولا شك إن من أسباب فتنة المسلمين إهمـال هـذا الجـانب المهم، بل انعكس الحال -اليوم- إلى الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف! وقـد ذم اللـه أهـل الكتاب فقال ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾(٢٦٧).

وقد أكد كل من تولى الإصلاح في المجتمعات الإسلامية أهمية المبدأ، حتى عدها الغزالي القطب الأعظم من الدين، وهـو مهمـة الأنبيـاء جميعـاً والـذي إذا أهمـل تعطلـت الرسـالة، وفشت الضلالة واتسع الجهل ولذلك عندما أهمله المسلمون تحقق فيهم وعد الله واستشـرى الفساد والخراب كما قال رسول الله ﷺ:« لتأمرن بالمعروف ولتنهـون عـن المنكـر أو ليبعثـن الله عليكم عقاباً ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»(٢٦٨) يقول الغزالي:

«وكان الذي خفنا أن يكون فانا لله وإنا اليه راجعون، إذ قد انـدرس مـن القطـب عملـه وعلمه وانمحت بالكلية حقيقته ورسمه فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحـت عنهـا مراقبة الخلق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم وعز على بسـاط الأرض، مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هـذه النقمة إما متكفلاً بعملها أو متقلـداً لتنفيذهـا مجـدداً لهـذه السـنة الدائـرة، ناهضـاً بأعبائهـا، ومستثمراً في إحيائها كان مسـتأثراً مـن بـين الخلـق بإحيـاء سـنة أفضـى الزمـان إلى إماتتهـا، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها»(٢٦٩).

---

(٢٦٧) المائدة ٥: ٧٩

(٢٦٨) الـترمذي، سننه، كتـاب الفـتن بـاب مـا جـاء في الامـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، ،ح(٢١٦٩)،ج٤ص٤٦٨ وقال حديث حسن،أبو داود،السنن،كتـاب الملاحـم،بـاب الامـر والنهـي ح(٤٣٣٨)ج٤ص٥١٠،الامام أحمد،المسند ج٥ص٣٨٨.

(٢٦٩) الغزالي، إحياء علوم الدين ج٢ ص ٣٠٢

وهي كذلك عند الأمام الغزالي تبدأ بدوائر بعضها أوسع من بعض يبدأ بنفسه ثم بأهل بيته، ثم جيرانه، ثم أهل محلته ... إلى أن يصل إلى الإنسانية كلها.

وهذا التقسيم من الغزالي لا يعني عدم جواز تجاوز دائرة إلى أخرى، فلكل مقام مقال وحسب ما تقتضيه الظروف، وقد حض السلاطين والأمراء بالنقد في سياستهم المالية، وحض العلماء للأخذ بقاعدة « السياسة تدور مع العقيدة» وضرب لذلك الأمثلة من العلماء السلف مع ولاة الأمر.

وهذا الشيخ عبد القادر الجيلاني، يرى الأمربالمعروف ضرورة أساسية لنقاء المجتمع وسيادة الخير فيه، فإن ترك تطرق الفساد إليه، وهو واجب على كل مسلم، وكل حسب مستواه ومكانته، فالسلاطين إنكارهم باليد، والعلماء باللسان والعامة بالقلب، والعلماء يقررون ما هو مباح أو منكر أو حرام، وعلى السلاطين والعامة التنفيذ ثم حدد للعلماء مواصفات دقيقة(٢٧٠).

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خطوات تبدأ بالتعريف بالعلم ثم الوعظ ثم الزجر ثم المنع بالقهر(٢٧١)، ويدخل ضمن المبدأ النصيحة التي قال الرسول ﷺ فيها: « الدين النصيحة (ثلاثاً) قلنا لمن يا رسول الله؟، قال:«لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٢٧٢).

وإذا كان الأمر مطلوباً اتقاء للفتنة فهو عند وقوعها آكد لمواجهتها والنجاة منها، وثوابها أكثر، فقد قال رسول الله ﷺ في الفتن: « ائتمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك و دع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم» وزاد أبو داود: « قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا

---

(٢٧٠) راجع : الكيلاني عبد القادر ،الغنية ص ٤٤-٤٥ نقلاً عن الكيلاني ماجد ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين و هكذا عادت القدس، الدار العلمية للكتاب الإسلامي، الرياض ١٩٩٥م ص ٢٤٨ -٢٤٩

(٢٧١) راجع : الكيلاني، ماجد عرسان، دكتور، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٥٨

(٢٧٢) البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب قول النبي الدين النصيحة ج١ ص ٢٠، مسلم، الصحيح، كتاب الايمان، باب إن الدين نصيحة ج١ ص٧٤ ح(٩٥)، أبو داود، السنن، كتاب الأدب، باب في النصيحة ج ٥ ص ٢٣٣ ح (٤٩٤٤)، الترمذي، السنن، كتاب البر و الصلة، باب ما جاء في النصيحة ج٤ ص ٣٢٤ ح (١٩٢٦) و قال حسن صحيح، النسائي، كتاب البيعة، باب النصيحة للامام ج٧ ص ١٥٦ ح (٤١٩٥)، و الدارمي، السنن، كتاب الرقاق، باب الدين النصيحة ج ٢ ص ٦١٨ ح (٢٧٥٧)، الامام احمد، المسند، ج١ ص ٣٥١، ج٤ ص ١٠٢

أو منهم؟ قال: « بل أجر خمسين رجلاً منكم»[٢٧٣].

و للقيام بهذه المهمة وسائل كثيرة كالوعظ والإرشاد ووسائل الأعلام بأنواعها وخطب الجمعة وغير ذلك.

٢- إحياء فريضة الجهاد و إعداد القوة

الجهاد ذو صلة وثيقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الغرض منه إيصال الرسالة إلى الخلق، و لما كان الصراع مستمراً بين الحق و الباطل، والإيمان والكفر، لذا تدعو الضرورة إلى الجهاد وسيلة لإقامة الحضارةالإيمانية وتأمين الدعوة إلى دين الله وتبليغها للناس ولولا الجهاد لفسدت الأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢٧٤].

وللجهاد أهمية كبيرة في حياة الأمة لكف ومنع الأعداء عنها، ولذلك فإن كلمة 'الجهاد' ترهب الأعداء، وقد حاولوا جاهدين قتل روح الجهاد بين أهله، بل أرادوا محوه من الذاكرة، وقد تهاون المسلمون لأسباب كثيرة بهذه الفريضة التي هي -ذروة سنام الإسلام- منها حب الدنيا وتعدد الولاءات وضعف الوازع الديني، مما جعل الأعداء يطمعون أكثر ويجمعون صفوفهم ضد الإسلام، كما حرصوا على امتلاك وسائله، لهذا فمن لوازم العودة إلى الكتاب والسنة أن يرفع المسلمون لواء الجهاد دفاعاً عن أنفسهم أولاً ولتأمين الدعوة إلى الله ثانياً، ويظن البعض أن ترك الدعوة للجهاد يقرب بيننا وبين أعدائنا، و لكن الحقيقة أن أعداءنا لن يكفوا عنا بل الأسوء من ذلك أنهم يثيرون الحروب بين المسلمين لإضعافهم وتفريقهم وفتنتهم والله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ﴾[٢٧٥] «وهي أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة. أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها، وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة في الأرض ويكون الدين لله، بمعنى استعلاء دين الله في الأرض»[٢٧٦]. وجاء في آية أخرى ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾[٢٧٧]

---

(٢٧٣) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب و من سورة المائدة ج٥ ص٢٥٧ ح(٣٠٥٨)، و أبو داود كتاب الملاحم، السنن، باب الأمر و النهي ج٤ص٥١٢ ح(٤٣٤١)، ابن ماجة، السنن، كتاب الفتن، باب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ج٢ ص١٣٣٠

(٢٧٤) البقرة ٢:٢٥١

(٢٧٥) البقرة ٢:١٩٣

(٢٧٦) سيد قطب، في ظلال القرآن ج١ ص ١٨٧

(٢٧٧) الأنفال ٨:٣٩

أي تحطيم كل قوة في الأرض قائمة على أساس عبودية البشر للبشر.

وقال الشوكاني: «وهي أن تزول مقدرة الكفار على الصد عن سبيل الله ويأمن كل من كان مسلماً على دينه، ويكون الدين لله وهو الدخول في الإسلام»[(٢٧٨)].

والجهاد في الإسلام مرتبط بالعقيدة فلذلك لا يتم إلا في ظل العودة الى الله ويسبق بتربية هدفها إفهام الأجيال أهميته وبناء جيل له روح جهادية فيسبقه جهاد تربوي بتزكية المسلم من الخضوع للغرائز ولهذا قسم الإمام الغزالي الجهاد إلى مراحل: أولها الجهاد التربوي، ثم التنظيمي ثم العسكري[(٢٧٩)]، وهذه المراحل ضرورية لأُمة شاع فيها الخور والتثاقل والتنكر لقيم الإسلام، فيبدأ بالتربية ثم إخراج حكماء سياسين وعسكرين يقودون للجهاد التنظيمي والعسكري، وذلك لأن رفع الجهاد في أمة خائرة استنفار للأموات، فالحرب لا تبدأ بالخطابات والمواعظ بل يتخذ قراراتها حكماء السياسة العسكرية ثم تكون بقية الأدوات من أجهزة إعلام وفكر تسهل مهمتهم في الحشد والتعبئة، ومن الضروري مراعاةً لفقه الأولويات أن نقرر أن التربية قبل الجهاد والتكوين قبل التمكين، والأمة الإسلامية أحوج ما تكون للتمسك بفريضة الجهاد وبعد أن ظهرت حقائق ونوايا الأعداء تجاه المسلمين وإن الحلول السلمية والدبلوماسية لن تعيد للمسلمين حقاً، و كان الصحابة قد فهموا ذلك فقال أبو بكر رضي الله عنه يوم بيعته: «... لا يدع أحدمنكم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل... »[(٢٨٠)].

ولا بد أن نبين أن كلمة 'الجهاد' مصطلح إسلامي خاص، وليس هو الحرب والقتال المجرد لأسباب كثيرة، بل القتال في سبيل الله، ولذلك حاول الكفار تشويه هذه الكلمة ووصفها بالوحشية وحب القتال والسيف وسفك الدماء، ولكن الأجيال -اليوم- والحمد لله أدركت مدى تفريطها بهذا الجانب وهي تحتاج الى إعداد وتنظيم، وسيتحقق الجهاد بإذن الله.

والجهاد مرتبط بإعداد العدة وهو شرط له، وليس الإعداد بتكديس الأسلحة فقط بل إعداد الأمة المقاتلة المتدربة على فنون القتال ويدخل ضمن الإعداد غربلة الصفوف الداخلية وتمحيصها.

---

(٢٧٨) الأشقر ، زبدة التفسير ص٣٨

(٢٧٩) راجع : الكيلاني ، ماجد عرسان ،هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٦١

(٢٨٠) الطبري ، تاريخ الطبري ج٣ ص ٢٠٣

إعداد القوة

إن من أبرز أسباب فتن المسلمين الحالية عدم إعداد العدة والقوة، والغفلة عن قوة الأعداء، وينبغي وضع الخطط لإرهاب العدو، لأن أعداء الإسلام لا يعرفون إلا أُسلوب القوة، وقد دعانا القران إلى الاستعداد لهم. فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[٢٨١]، والإعداد: هو التحضير المسبق و الذي يشمل شتى مستلزمات الحرب من قوة ووسائل قتال، ورباط الخيل يشتمل أيضاً على الأسلحة والتموين وكل ما هو ضروري لجعل المقاتل في حالة تؤهله للقتال.

والرسول ﷺ يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ألا إن قوة الرمي»[٢٨٢]،كما نبه إلى التدريب كأساس في إعداد الرجال فقال: «كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رمية بقوس، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنه من الحق»[٢٨٣].

وهو يذكر ما كان في زمنه في مفهوم القوة، ويقاس عليه كل ما اكتشفه البشر من وسائل وتكنولوجيا في وقتنا الحاضر ...وإذا كان الأعداء قد سبقونا في هذا المجال فالعلم ليس حكراً على أحد، فلدى المسلمين من الثروة البشرية ومستلزمات التصنيع والثروة والعقول المفكرة والعلماء ما يستطيعون به مجاراة العصر، إذا أحكموا التخطيط، ووحدوا صفوفهم و لذلك نبهت الآية التي سبقت آية إعداد القوة إلى ذلك فقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾[٢٨٤] أي: «فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قدرتنا

---

(٢٨١) الانفال٨:٦٠

(٢٨٢) مسلم ، الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي و الحث عليه ، ج٢ص١٥٢٢ح(١٩١٧)، أبو داود، السنن كتاب الجهاد، باب في الرمي ج٣ ص ٢٩ ح(٢٥١٤) ، الترمذي، السنن، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ ، باب و من سورة الأنفال، ج٥ ص ٢٧٠ ح(٣٠٨٣) ، و ابن ماجة ، السنن ، كتاب الجهاد ، باب الرمي في سبيل الله ج ٢ ص ٩٤٠ ، ح(٢٨١١) و الدارمي ، السنن ، كتاب الجهاد ، باب في فضل الرمي و الأمر به ج٢ ص٥٢٢ ح (٢٤٠٩) و الإمام أحمد ،ج٤ ص ١٥٧

(٢٨٣) الترمذي ، السنن ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله ج٤ ص ١٧٤ح (١٦٣٧)، أبو داود ، السنن، كتاب الجهاد ، باب في الرمي ج٣ ص ٢٨ ،ح(٢٥١٣) ، النسائي ، السنن ، كتاب الخيل ، باب تأديب الرجل فرسه ج٦ ص ٢٢٢، ح(٣٥٧٦) ، ابن ماجة ، السنن ،كتاب الجهاد باب الرمي في سبيل الله ج٢ ص٩٤٠ ح (٢٨١١) ، الدارمي ، السنن ، كتاب الجهاد، باب في فضل الرمي و الأمر به ج ٢ص ٥٢٢ ح(٢٤١٠)

(٢٨٤) الانفال٨:٥٩

وقبضتنا فلا تعجزوننا»[285] ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[286].

وقد عللت الآية سبب إعداد القوة ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ لكي لا يفكروا في الاعتداء على ديار الإسلام التي تحميها تلك القوة، ولهذا نرى أعداء الإسلام يحاولون جاهدين منع المسلمين من التصنيع العسكري، وتحطيم ما تملكه هذه الدول من الأسلحة ويبيحون لأنفسهم ذلك. يقول المرحوم سيد قطب: «ولكن الإسلام يتخذ للنصر عدته الواقية التي تدخل في طوق العصبة ...فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد»[287].

ومثل إعداد القوة الحذر من الأعداء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾[288] والحذر هنا هو المعرفة المسبقة والتخطيط المحكم يقول القرطبي: وأمرهم إلا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا ما عندهم ويعلموا كيف يردون عليهم، فعلمهم مباشرة الحروب»[289] وذلك لأن الحذر يبطل مكائد الأعداء والإستفادة من الأسباب لا تحصل إلا في ظل خطة محكمة مدروسة.

ولما كان إعداد العدة يحتاج إلى المال، والنظام الاقتصادي الإسلامي يقوم على التكافل فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة للإنفاق في سبيل الله.

ولما كان إعداد العدة هو أداة الجهاد ولاجهاد بدونه، فما لا يتم الواجب به فهو واجب.

ثانياً: لزوم الجماعة و نبذ الفرقة وإحياء مفهوم الأمة.

حثت النصوص على لزوم الجماعة والحذر من الفرقة والاختلاف بشكل عام وفي وقت الفتن بشكل خاص. قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[290]، وقد جاءت تفاسير عديدة لمعنى الحبل لا تعارض بينها، منها لزوم الجماعة. قال البغوي[291] الحبل: السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وسمي الإيمان حبلاً لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف، واختلفوا في

---

(٢٨٥) الصابوني ، مختصر تفسير ابن كثير ج٢ ص١١٤ -١١٥

(٢٨٦) النور ٢٤:٥٧

(٢٨٧) سيد قطب، الظلال، ج٣ ص١٥٤٣

(٢٨٨) النساء٤:٧١

(٢٨٩) القرطبي، ج٥ ص ٢٧٣-٢٧٤

(٢٩٠) آل عمران٣:١٠٣

(٢٩١) البغوي، معالم التنزيل ج١ ص٣٩١

معناه ها هنا، قال ابن عباس: معناه تمسكوا بدين الله، وقال ابـن مسعود: هـو الجماعـة، وقـال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، و إن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة، وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي: هو القرآن، وروي عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه»(٢٩٢).

كما جاء ت أحاديث نبوية تؤكد لزوم الجماعة منهـا قولـه ﷺ: «إن اللـه لا يجمـع أمتـي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار»(٢٩٣).

و قوله تعالى في الآية ﴿ولا تفرقوا﴾ «أي ولا تتفرقوا عن الحق بوقـوع الاختـلاف بينكـم كما اختلف اليهود والنصارى ... أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معـه الاجتمـاع والألفة»(٢٩٤).

كما جاءت آيات تحث على لزوم الجماعة محذرة من الفرقة و الاختـلاف في قولـه تعـالى: **﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفـوا مـن بعـد مـا جـاءهم البينـات وأولئـك لهـم عـذاب عظيم﴾**(٢٩٥)، كما برأ الله ورسوله من مثل هؤلاء فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾**(٢٩٦).

ولأجل الحفاظ على الجماعة دون التفرق، نبه رسول الله ﷺ على عدم الخـروج علـى أولـي الأمر وأداء النصح لهم إن اقتضى الأمر ذلك في قوله ﷺ: « ثلاث لا يغل عليهن صـدر مسـلم: إخلاص العمل لله -عز و جل- و مناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين»(٢٩٧).

وقال كذلك: «إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثـاً، يرضـى لكـم أن تعبـدوه ولا تشـركوا بـه شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً وأن تناصحوا من ولى الله أمركم، ويسـخط لكـم ثلاثـاً، قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»(٢٩٨).

---

(٢٩٢) الدارمي، السنن، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، ح(٣٣١٨)، ج٢ ص٧٠٨

(٢٩٣) سبق تخريجه في مبحث الفتن السياسية

(٢٩٤) الزمخشري، الكشاف ص٣٩٤-٣٩٥

(٢٩٥) آل عمران٣:١٠٥

(٢٩٦) الانعام٦:١٥٩

(٢٩٧) الأمـام أحمـد،المسـند، ج٥ ص١٨٣، و اسـناده صحيـح و راجـع الالبـاني ، سلسـلة الاحـاديث الصحيحة ح (٤٠٤)

(٢٩٨) سبق تخريجه في الفتن السياسية

كما حذرت أحاديث من مفارقة الجماعة فقال ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»(٢٩٩) وفي آخر: «ومن فارق الجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية»(٣٠٠).

والمتأمل لهذه النصوص التي تشدد على عدم تفريق الأمة يدرك أن قصد الشارع بناء الأمة على أسس سليمة في التآلف والتراحم ليكونوا كالبنيان المرصوص وهذا لايحصل في ظل التنافر والاختلاف لأنه يورث التباغض والزيغ، فإذا ما أردنا مواجهة الواقع الذي نعيشه أدركنا أن أول خطوة بناء الأفرد والجماعات على هذا المفهوم ووفق تعاليم الشرع وتحت شعار الإسلام لاشعارات أخرى للقومية وغيرها والتي بان فشلها وأردت بالأمة، فإذا اجتمعوا على هذا الأساس وفق الله بينهم كما قال الله تعالى ﴿.. هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٣٠١) وقد عدّ الله التآلف نعمة فقال:﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ..﴾(٣٠٢) وبذلك يقول القرطبي: « أوجب الله تعالى علينا التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ والرجوع إليها عند الاختلاف، وأمر الله بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً، وذلك بسبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين»(٣٠٣).

فالمجتمع الذي يتوحد على نهج الكتاب والسنة يكون كما وصفه الرسول ﷺ:« المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»(٣٠٤).

---

(٢٩٩) البخاري ،الصحيح،كتاب الفتن ،باب سترون بعدي أمورا،ج٢ص٨٧،مسلم ،الصحيح،كتاب الامارة،باب فضيلة الامام العادل ،ح(١٨٤٨)ج٢ص١٤٧٦،النسائي،السنن،كتاب التحريم ،باب قتل من فارق الجماعة ح(٤٠١٨)ج٧ص٩٢،وباب التغليظ فيمن قتل ح(٤١١١)ج٧ص١٢٣، وأبو داود، السنن، كتاب السنة، باب في قتل الخوارج، ج٥ص١١٨،الامام أحمدج٢ ص١٣٢، ٢٩١، ٣٠٦، ٤٨٨ ج٣ ص٤٤٥، ٤٤٦، ج٥ ص١٨٠، ٣٨٧ ،الحاكم ،المستدرك، ج١ص١١٧

(٣٠٠) الإمام أحمد، المسند، ج٢ص١٣٣، واسناده حسن ،أنظر الألباني سلسلة الأحاديث الصحيحة ،ج٢ص٧٥١ح(٩٨٤).

(٣٠١) الأنفال ٨: ٦٣ .

(٣٠٢) آل عمران ٣: ١٠٣ .

(٣٠٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ،ج٤ص١٠٥.

(٣٠٤) البخاري، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، ج٣ ص٩٨، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم

وفي حديث آخر قال:«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[305].

ويهذا يقول الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾[306]: فسرت بأشياء، منها: المداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها التفرق والاختلاف، ومنها ترك الإنكار على البدع إذا ظهرت ومنها: أشياء غير ذلك[307]،أي و لكل معنى حسب ما يقتضيه الحال، ومراده إذا كان الوقت وقت فرقة واختلاف فيكون المعنى اتقوا تفرقاً واختلافاً لا يصيب الذين ظلموا خاصة بل يعم الجميع.

وهذا الأمر فهمه السلف الصالح، فحرصوا على الألفة مع اختلافهم في الأمور الفقهية الفرعية، فقد كانت بينهم مناظرات ومناقشات في بعض المسائل دون أن يتعصب أحد منهم لرأيه بل كان هدفهم مشتركاً وهو الوصول للحق، وهذا هو الاختلاف المحمود...

وقصة صلاة ابن مسعود خلف عثمان في منى لكل من الظهر والعصر أربعاً مع أنه يخالفه في الرأي معروفة،وكان لابن مسعود دليله ولعثمان تأويلها الشرعي، فقيل له في ذلك فقال: الخلاف شر[308].

وإذا ما رجعنا إلى أسباب الخلاف وجدناها تعود إلى الإبتداع، وإتباع الهوى، والتعصب للمذهب وغير ذلك...

وحرصاً على الجماعة فإنه ينبغي الموالاة والنصرة و الإيواء لكل المسلمين ويعكسه البراء من الأعداء والعصاة المشركين قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[309]، كما يجب التخلص من التبعية العمياء للغير ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[310]. فالإتباع أدى الى تدهور الأمة ولا بد لمواجهة هذه الفتنة من الإنسلاخ من التبعية.

---

(٣٠٥) سبق تخريجه في مبحث الفتن الاقتصادية.
(٣٠٦) الانفال٨: ٢٥
(٣٠٧) الالوسي،روح المعاني ج ٩ ص١٩٢
(٣٠٨)أبو داود،السنن،كتاب المناسك، باب الصلاة بمنى،ح(١٩٦٠)ج٢ص٤٩١-٤٩٢،أحمد،المسندج٥ص١٦٥،وأصل الحديث في البخاري ومسلم دون الزيادة.
(٣٠٩) الأنفال ٨: ٧٣
(٣١٠) الجاثية ٤٥:١٨

ومن لوازمها كذلك إصلاح ذات البين وتحكيم كتاب الله فيما شجر من التنازع وإحياء مفهوم الأمة.

وبما أن الأمة تعيش فترة حالكة من الفتن والشر والفساد وتتخبط منذ زمن طويل حتى أن المسلم بات في حيرة من أمره ماذا يصنع وسط هذه الأجواء ؟ وخصوصاً في ظروف اقتتال المسلمين فيما بينهم فضلاً عن الأعداء، وقد يتعذر أحياناً الحكم على تلك الجماعات، فليس لنا إلا الهدي النبوي لمواجهة هذه الفتن وذلك بلزوم جماعة المسلمين أو الإعتزال حتى الموت، فعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال:«كان أناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله: كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذاك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله: صفهم لنا، قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[٣١١].

و قد حسم رسول الله ﷺ الجدل الذي يمكن أن يدور حول المخرج من الفتنة -بإيجاز- بقوله: «تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم». ولما أراد حذيفة ﷺ أن يعرف هل هناك سبيل إن لم يهتد إلى تلك الجماعة، فقد يختلط في وقت الهرج والمرج الأمر على العامة فأجابه بإيجاز ووضوح «فاعتزل تلك الفرق كلها..».

ولذلك لا يجوز أن يعمم مبدأ الأعتزال إنما ذلك حسب نوع الفتنة، والمجاهدة أولى.

قال ابن حجر في الفتح نقلاً عن الطبري:«إنه متى لم يكن للناس إمام فافترق الناس أحزاباً فلا يتبع أحد هذه الفرق، ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك خشية من الوقوع في الشر، وعلى ذلك يتنزل ما جاء في سائر الأحاديث وبه يجمع بين ما ظاهره الإختلاف منها»[٣١٢].

---

(٣١١) البخاري، الصحيح مع الفتح،كتاب الفتن، باب كيف إذا لم تكن جماعة ج١٣ ص٣٥ .
(٣١٢) ابن حجر، فتح الباري،ج١٣ ص ٣٥

ولفظ الجماعة لم يرد في القرآن الكريم وإنما كثر ورودها في السنة ويظهر في النصوص أنها ترد إلى طائفتين:

الأولى: وردت الجماعة مقابل الفرق الضالة وأهل الأهواء فتكون من الإجتماع على الكتاب والسنة ولزوم الحق، والمفارق لها ضال مبتدع وهي بهذا المعنى لا يشترط لها كثرة ولا قلة بل موافقة الحق وإن خالفه أهل الأرض.

والثانية: وردت الكلمة مقابل البغي ونكث الصفقة فتكون بهذا المعنى من الاجتماع على السلطان والطاعة له في غير معصية، ويكون المفارق لها باغيا،فلزوم الجماعة إذن يعني الاستقامة على الحق والسنة والإلتزام بمنهج النبوة في العلم والعمل.

أما قضية العزلة والتي يميل إليها البعض فهي لمن التبس عليه الأمر في الفتن التي تدور بين المسلمين وتموج موج البحر ولا يظهر فيها وجه الحق، وربما مراد النبي بالعزلة في **(الهرج والمرج)** والتي هي من علامات الساعة. قال رسول الله: ﷺ «إن بين يدي الساعة الهرج، قالوا: وما الهرج؟ قال: القتل، إنه ليس بقتلكم المشركين ولكن قتل بعضكم بعضاً، حتى يقتل الرجل أباه و يقتل أخاه ويقتل عمه، ويقتل ابن عمه، قالوا وما عقلنا يومئذ؟ قال: إنه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان ويخلف له هباء من الناس، يحسب أنهم على شئ وأنهم ليسوا على شئ»[٣١٣]، وأخبار الرسول ﷺ بذلك لأمته لإقامة الحجة عليهم بدليل قوله بعد أن ذكر الفتن «ألا هل بلغت».

أما أيهما أفضل الاختلاط أم العزلة عند الفتن وفساد الأحوال ففضل جمهور الصوفية الثاني والجمهور الأول[٣١٤] لقول الرسول ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[٣١٥].

وبذلك يقول ابن حجر: «اختلف الناس في أصل العزلة، فقال الجمهور: الاختلاط أولى لما فيه من إكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائرالإسلام وتكثير سواد المسلمين وإيصال أنواع الخير إليهم من إعانة وإغاثة وعيادة وغير ذلك، وقال قوم: العزلة أولى لتحقيق السلامة

---

(٣١٣) الأمام أحمد المسند و صحيحه الألباني ج٤ ص ٢٤٨

(٣١٤) راجع : القرضاوي، يوسف ، في فقه الأولويات ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٩٥ ص٢٣٦ و هو يرى أن من أسباب تخبط المسلمين حتى على ستوى ذوى العلم هو عدم إدراك فقه الأولويات للواقع.

(٣١٥) الترمذي،السنن،كتاب صفة القيامة ،باب٥٤ج٤ص٦٦٢ و ابن ماجة السنن ،كتاب الفتن ،باب الصبر على البلاءح(٤٠٣٢)ج٢ص١٣٣٨،الامام أحمد،المسندج٢ص٤٣.

بشرط معرفة ما يتعين، وقال النووي، وقال غيره يختلف بـإختلاف الأشـخاص فمنهـم مـن يتحتم عليه أحد الأمرين ومنهم من يترجح ... فمن يتحتم عليه المخالطة من كانت له قـدرة على إزالة المنكر فيجب عليه إما عينـاً وإمـا كفايـة بحسـب الحـال والإمكـان»[٣١٦]. والـرأي الأخير هو ما نرجحه فالذي يتحتم على العلماء والمجتهديـن غـير مـا يوجـب علـى العامـة حيث بإمكانهم الحكم على الواقع وإزالة المنكر مراعاة لفقه الأولويات.

يؤيد ذلك حديث رسول الله ﷺ بأن للعامل في الفتنة أجـر خمسـين رجـل مـن الصحابـة وأكثر ما يدور الجدل في ذلك هو حالة فتنة القتال بـين المسـلمين فهنـاك تحسـن العزلـة ولـو دخلوا على بيته ولا يدافع عن نفسه ومنهم من أجاز الدفـاع عـن نفسـه، ومعظـم الصحابـة على نصر الحق وقتال الفئة الباغية لقوله تعالى:﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي...﴾[٣١٧].

وبالجملة فإذا أردنا إقامة الجماعة بمفهومها العام والشامل يجب تأكيد جملة أمور[٣١٨]:

١- أن يكون معتقد الولاء و البراء على أساس الكتاب والسنة لاغـير، وكـل آصـرة يجتمـع الناس عليها دون ذلك فهي عصبية وحمية، وإذا تعددت الفصائل والجماعــات فعليهـا أن تسعى لإقامة الجماعة بمفهومها الشامل والتعدد المقبول هو تعدد التخصص والتنوع الذي تتكـامل بـه الجهـود وليـس تعـدد التنـازع والتبـاغض، وحصـر الاختــلاف في الفــروع الاجتهادية والاتفاق على الثوابت، وذلك لكي تتم حركة الإحياء الشاملة فهنالك الإتجاه الدعوي التربوي، والجهادي، والسياسي، وليس المشكلة بالتعدد فكل فريق يـؤدي الـدور الذي عني به كالوزارات في الدولة الواحدة، وذلك بتنسيق العمل بينهم.

٢- الا يكون الاختلاف في المسائل الاجتهادية مبيحاً لهجر المخالف أو الانكار عليه فلو أدى الخلاف في كل مسألة بين المسلمين إلى التدابرلم تبق بين المسلمين عصمة ولا أُخوة.

٣- أن يتحقق التكامل بين السنة والجماعة في وظيفة البناء الإيماني والعقدي وإحياء ما أماتـه الناس من شرائع الإسلام، كما تقوم بوظيفة الدفاع عن الإسلام في مواجهة الكفر.

٤- ضرورة الاجتهاد في المستجدات فيما يخص موضوع الجهاد.

---

(٣١٦) ابن حجر، فتح الباري ج١٣ ص٤٢.

(٣١٧) راجع النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي في كتاب الفـتن ج١ص٩-١٠و الآيـة مـن الحجـرات ٤٩:٩

(٣١٨) راجع: الصاوي، صلاح، دكتور، المخرج من الفتنة ص ٦١-٧٦

أما ما يحتج به الناس في حديث «اختلاف أمتي رحمة»[٣١٩]. فيتعين التفرقة بين الاختلاف المذموم و المحمود وكذلك إن هذا الحديث غير صحيح عند العلماء -كما مر- وعلى فرض صحته، فيراد به الاختلاف المحمود في اجتهادات الفقهاء للمسائل الفرعية.

ثالثاً- الإلتزام بالصبر

إذا كان الصبر واجباً تجاه الابتلاءات الفردية، فهو آكد في مجال الفتن والمحن العامة لأن نفعه وعاقبته يعود على الأمة جمعاء، حيث يكون من أعظم الأسلحة النافعة للثبات وعدم التخبط، ومن ثم النهوض، وإخراج الأمة من جديد وإلا فعند عدمه يقع ما هو أكبر منه.

وعرفنا خلال الحكم والفوائد من المحن أهمية الصبر في تربية النفوس ليكون بها من قوة الإيمان ما تواجه به فتنة السراء والضراء كما قال تعالى: ﴿**لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ...**﴾[٣٢٠]بعد أن بين إن ما يصيب الإنسان من الله وقدره، قال الشوكاني: «أي أخبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، ولا تفرحوا بما أعطاكم منها فإن كل ذلك يزول عن قريب، وكل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله ولا يحزن على فواته»[٣٢١]، ويقول سيد قطب: «إن هذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدور من قبل في تصميمه محسوب حسابه في كيانه لا مكان للمصادفة. وقيمة هذه الحقيقة.. في النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعاً وتذهب معه حسرات عند الضراء، ولا تفرح الفرح الذي تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء»[٣٢٢].

وإذا كانت الفتنة تدعو إلى الحرص على الجماعة التي هي خير من العزلة فإن ذلك مجاهدة تحتاج إلى صبر ومصابرة للقيام بمهمة الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

والصبر مطلوب في كل فتنة وفي كل مجال فالصبر على الطاعة والصبر على المعصية في زمن انتشار المفاسد والمعاصي وخصوصاً في زماننا هذاحيث تفشي المنكرات والمجاهرة بالفسق والفجور حتى أصبح الماسك على دينه كالقابض على الجمر، فكلما زادت هذه

---

(٣١٩) راجع التفاصيل عن أقوال العلماء في الحديث، عبد الكريم زيدان، دكتور ، مجموعة بحوث فقهية ، ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦ م ١٤٠٧هـ ص ٢٩٠-٢٩٢

(٣٢٠) الحديد٥٧:٢٣

(٣٢١) الأشقر، محمد سليمان، زبدة التفسير من فتح القدير، ص٧٢٢

(٣٢٢) سيد قطب، في ظلال القرآن،ج٦ ص٣٤٩٣ .

الفتنة وواجهها الإنسان بالصبر زاد أجره وفي ذلك يقول ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»(٣٢٣).

ومن المحن والفتن العامة التي تحتاج إلى الصبر مايلاقيه الدعاة إلى الله قديماً وحديثاً، فطريق الدعوة شاق طويل كثير المتاعب فلذا يحتاج إلى همة عالية وصبر شديد، لأن الداعية يطلب من الآخرين تغييراً قد لا تطيقه نفوسهم كتجردهم من الأهواء والشهوات والوقوف عند حدود ما أمر الله به.

ولذلك فالدعوة تحتاج لمن يعرف الناس ويعرف نفوسهم، ومن أي باب يأتيهم، فأهل الأهواء وعبيد الدنيا والسلطات الباغيةكلها تقف حياله، فلا مفر للداعية لمواصلة الدرب إلا الاعتصام باليقين والصبر، فقد يتعرض للإغراء لصرفه عما يريد فلا بد من مقاومة ذلك الإغراء، وليس هنالك محن وفتن كما يحصل للدعاة، ومنها حملات التشويه الإعلامي بالاستهزاء والسخرية، والاتهام بالكذب والجنون والسفاهة والافساد والسحر، والكهانة والشعر، ثم التهديد بالأذى، بالضرب والرجم والسجن والبغي والتشريد والقتل والتهديد في الرزق ومصادرة الأموال ثم إلحاق الأذى الجسماني والتعذيب والضرب وغير ذلك وكل ذلك لاقاه الأنبياء والصالحون.

ولا شك أن الداعية يثقل عليه إعراض الناس، ولكن ربما التحديات تزيده صلابة وهذا شأن أولياء الله، والإعراض عن دعوة المرسلين سنة لا تتغير، قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾(٣٢٤).

ويدعو القرآن للصبر تجاه المعرضين، لأن محنة الداعية قد تتعدى وتتجاوز القول إلى الفعل وهو أمر قديم وحديث ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(٣٢٥).

والآية وصفت الأذى المسموع بالكثرة، وهو الحرب الكلامية على أهل الإيمان من التشويه والتشويش والإفتراء والتحريف.. فلا بد من احتمالها بالصبر والتقوى التي لا بد

---

(٣٢٣) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب٧٣، ج٤،ص٥٢٦ و فيه عمر بن شاكر و هو عند الجمهور ضعيف، انظر تهذيب التهذيب، ج٤،ص٢٨٨ ، و التقريب ص٤١٣.

(٣٢٤) فصلت ٤١: ٤-٥.

(٣٢٥) آل عمران ٣: ١٨٦.

منها، فالصبر للثبات في وجه الباطل والتقوى للتعفف من مقابلة الخصم بأسلحته الخبيثة، كما قرن تعالى بين أهل الكتاب والمشركين لإتفاقهم على عداوة الإسلام(٣٢٦).

ومن مجالات الصبر في فتنة الأمة والجماعة استبطاء النصر وهي فتنة عظيمة، فالله تعالى وعد المتقين بالنصر بعد الصبر وكتب لهم التمكين في الأرض ليكون الدين كله لله، وهذه المنزلة لا يبلغها المؤمنون سريعاً إلا بعد الشدائد والمحن حين تزيغ الإبصار وتبلغ القلوب الحناجر...﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٣٢٧).

فقولهم: متى نصر الله؟ استبطاءً له واستعجالاً. . وكلما اشتد الكرب كان الفرج قريباً فجاءهم الجواب بأن النصر قريب حين نجحوا في الابتلاء،ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾(٣٢٨).

ومع اشتداد الفتن يحتاج العبد إلى مزيد من الصبر والمجاهدة ضد الشيطان كي لا يقنطه ولا يسخطه ولهذا قال رسول الله ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي فيدع الدعاء»(٣٢٩).

والصبر مطلوب عند البأس وملاقاة العدو، لأن الفرار كبيرة، فالصبر هنا شرط أساسي للنصر، قال تعالى:﴿.. وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٣٣٠) «وإنما نصب (الصابرين) على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته»(٣٣١).

---

(٣٢٦) راجع: الهلالي سليم، الصبر الجميل، ص٤٠-٤١.

(٣٢٧) البقرة ٢: ١٧٦.

(٣٢٨) يوسف ١٢: ١١٠.

(٣٢٩) البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد مالم يعجل ج٧ ص١٥٣ ،مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، ح(٢٧٣٥)، ج ٣ص٢٠٩٥ ، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء ح(١٤٨٤) ج٢ ص١٦٣ .

(٣٣٠) البقرة ٢: ١٧٧.

(٣٣١) الصابوني : مختصر تفسير ابن كثير، ج١، ص١٥٥.

وذلك لأن المفاجآت في الحروب تحتاج إلى صبر وثبات فقد يختل الصف بسبب الإشاعات المثبطة للهمم وهو ما سمي حديثاً بـ(الحرب النفسية) فلذلك قال تعالى:﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٣٣٢]، وقال النبيﷺ: «النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب وإن مع العسر يسرا»[٣٣٣]. وفتن الحروب لا تخص المقاتلين وحدهم بل تعم الأمة بالبلاء وربما تجتمع الابتلاءات فيها من الخوف والجوع ونقص الأنفس والثمرات..

والصبر على الإخوة في الله للحفاظ على بنيان المجتمع وتقوية روابط المحبة أمر مهم، فلا تقابل الإساءة بالإساءة فيكون عوناً للشيطان بل تقابل بالصبر والحلم بأن يدرأ بالحسنة السيئة فيعود المخطأ إلى صوابه، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٣٣٤].

ونحن في زمن الفتنة وتكالب الأعداء ما أحوجنا لذلك بأن يصبر المسلم على زلة أخيه وأن يحتسب ذلك لله..

فالشعوب الإسلامية والأمة بأكملها تعيش من الفتن والأهوال ما يحير الألباب باجتماع أمة الكفر بشتى أنواع الإفتتان من الكيد والدس والتشويه والحرب الكلامية والنفسية، ومحاولة إفقار الأمة وتركيعها، فضلاً عن إثارة الحروب بين المسلمين، وتهديد الأمة بأنواع الأسلحة .. فتن كقطع الليل المظلم فالمخرج منها الصبر وليس الصبر المجرد، بل مع العمل بحلم وأناة دون اتخاذ قرارات طائشة تزيد من الفتنة فإذا خلصت النيات فالله تعالى يعينهم على عدوهم..

فقد أخبر الله أن الصبر يورث درجة الإمامة فقال ﴿وجعلنامنهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾[٣٣٥] «أي جعلناهم أئمة لصبرهم على مشاق التكليف والهداية للناس..»[٣٣٦].

---

(٣٣٢) آل عمران ٣: ١٣٩.

(٣٣٣) الإمام أحمد، ج١، ص٣٠٧، والحاكم، المستدرك، ج٣، ص٥٤٢، يقول سليم الهلالي: مفرداتها لا تخلو من مقال لكنها بمجموعها يصبح الحديث حسناً، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة والله أعلم.

(٣٣٤) فصلت ٤١: ٤٣-٣٥.

(٣٣٥) السجدة ٣٢:٢٤

(٣٣٦) الأشقر، زبدة التفسير، ص٥٤٧

وإذا كان الصبرمثاباً عليه في كل مجالاته فهو عند وقوع الفتن والاختلاف والأهـواء أكـثر ثواباً وذلك بإسداء النصح والأمر بالمعروف الذي يحتاج إلى معاناة كبيرة في مثل تلك الظروف يدل عليه قول الرسول ﷺ: «إئتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً .. فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجل يعملون مثل عملكم»[٣٣٧].

ومن الأمور التي تعين على الصبر ذكر اللـه تعالى، بالدعاء في مواطن الشدة، ولنا في أصحاب فرعون السحرة مثلاً – حين عرفوا الحق فآمنوا- لم يرهبوا وعيد فرعون، بل لجأوا إلى الله ليثبتهم ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٣٣٨].

وثواب العبادة في أيام الفتن كبير وعظيم يعدل ثواب الهجرة كما قال ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إلي» قال النووي: المراد بالهرج ها هنا الفتنة واختلاط أمور الناس، وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها ولا يتفرغ لها الأفراد[٣٣٩] علماً بأن الهرج جاء في حديث آخر بمعنى القتل.

والصبر كله خير وبه يستعان على كيد الأعداء والمتربصين بالأمة كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[٣٤٠].

ومن الأمور التي يستعان بها أيام الفتن على الصبر التأسي بقصص الصابرين، فقد نجى الله أصحاب الكهف في الفتنة التي تعرضوا لها في دينهم حين لجأوا إلى اللـه وحده ولم يسألوا أو يستعينوا بسواه فجعلهم آية وعبرة لغيرهم، ولذا جاء التعقيب على القصة بأمر النبي ﷺ بتلاوة القرآن ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾[٣٤١].

وفي سورة الكهف بيان لأسباب السلامة من الفتن ولهذا سنّ النبي ﷺ قراءتها كل يوم جمعة[٣٤٢] فضلاً عن تخصيصها في فتنة الدجال بقراءة أولها وآخرها لأن فيها حقائق عظيمة، ولايدخل على قارئها تمويه الدجال.

---

(٣٣٧) سبق تخريج الحديث، ص٥٢٦

(٣٣٨) الأعراف ٧:١٢٥-٢٢٦

(٣٣٩) الإمام مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفتن باب فضل العبادة في الهرج، ج٨ص٨٨.

(٣٤٠) آل عمران ٣ : ١٢٠.

(٣٤١) الكهف ١٨: ٢٧

(٣٤٢) راجع : عبد الحميد طهماز، العواصم من الفتن في سورة الكهف ص٣٦.

رابعاً:التقويم الإسلامي لمؤسسات الأمة

نقصد بالتقويم: إجراء الإصلاحات للمؤسسات التي تخص بناء الأمة للنجاة من الفتن التي تعانيها بسببها وسأذكر أهمها:

١- تقويم الاقتصاد

لا شك أن الاقتصاد للدول الإسلامية يمر بمرحلة خطيرة حيث تعيش غالبها اضطراباً اقتصادياً سبب لها فتناً من الخسارة والديون والمجاعة وغير ذلك..

فمذ قرنين أي بداية الإستعمار سيطر الغرب على الموارد وحرم أهلها منها، ووضع الخطط لعدم امتلاكهم الأرادة في بناء صناعات وطنية، مع فرض النهج الغربي الربوي وأصبحت كل دول الاسلام تتعامل به .. وحتى النفط أصبح بحوزتهم وهم يحددون أسعاره مع أغراء الحكومات بالقروض الربوية، وإرسال أموالهم إلى بنوك الغرب، بدل استثمارها في دولهم كما تشتري المواد الخام بأبخس الأثمان، وبنفس الأموال الإسلامية المودعة في البنوك الأمريكية، وتصنع بنفس الأموال ويعاد تصديرها إلى الدول الإسلامية لتباع بعشرات أضعاف سعرها ! كل ذلك رافق الانحرافات السياسة و الأخلاقية الإجتماعية.

وقد مر بنا -في مبحث الفتن الاقتصادية- مميزات الاقتصاد الإسلامي ومنهج الشريعة الوسطي ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾[٣٤٣] وتشدده في تحريم الربا ووضع الأسس القويمة للإنفاق والكسب ...كل ذلك لم تلتزم به دول الإسلام، بل انتشرت البنوك الربوية وساد التعامل على أُسس غير إسلامية.

والقرآن لفت أنظار المسلمين إلى أمور كثيرة في هذا المجال منها توجيه نظر الإنسان إلى أهمية الأرض للاستقرار والاتفاع مصدراً للعيش قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ..﴾[٣٤٤].

كما يستفاد من توجيهات القرآن بانتفاع الأمة جميعها من الثروة العامة وعدم إحتكارها من قبل طبقة لقوله تعالى: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[٣٤٥].

---

(٣٤٣) الأعراف ٧: ٧.
(٣٤٤) البقرة ٢: ٢٦٧.
(٣٤٥) الحشر ٥٩: ٧.

ومن الحكم القرآنية الاقتصادية قوله تعالى:﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[(٣٤٦)] وقد فسرها الطبري بأنها إشارة إلى أن المال للأمة مجتمعة فـ «الباطل» هو أن يحتكره البعض دون البعض الآخر[(٣٤٧)].

وقد قدم الرسول ﷺ نموذجا للمشاركة العامة بالأشعريين فقال: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم في المدينة جمعوا ما عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم»[(٣٤٨)].

وأمام الأزمات الاقتصادية ارتفعت صيحات الغيورين لتقويم الاقتصاد وبدأت الضرورة للعودة إلى الاقتصاد الإسلامي وتحرير البشرية من لعنة الربا الحرام، وهو أخطر ما رمى به النفوذ الأجنبي العالم الإسلامي فهو مفتاح هدم لأخلاقيات المجتمع والأفراد حتى أن المفكرين من غير المسلمين يعدونه (سوس الاقتصاد الحديث). ومن هنا ظهرت عشرات الأبحاث والمؤلفات تحدد مفهوم الاقتصاد الإسلامي وتدعو إليه، والتي تشكل الزكاة المورد الأساسي للموازنة فيه «إن علماء الغرب يعترفون بإنه لو طبقت الزكاة على مستوى العالم الإسلامي لما وجد فقير»[(٣٤٩)].وأغلب الأبحاث تضع خطة لإنتشار المصارف الإسلامية، وتقدم منهجاً إسلامياً متكاملاً يحقق التنمية ويربط المعاملات بالأخلاق، وحماية الثروة الإسلامية في البنوك الغربية بإستثمارها في دول إسلامية.

ولإجراء الإصلاحات الاقتصادية ينبغي تحقيق ما سبق ذكره[(٣٥٠)] من مميزات الاقتصاد الإسلامي وخصائصه، وذلك في الحرص على المال العام وحسن تدبيره، وتوفير فرص العمل المناسبة للقادرين، والتقريب بين طبقات المجتمع بتحريم الكنز والمكاسب المحرمة ومظاهر الترف مع احترام الملكية الخاصة وعدم استغلال السلطة للمصالح الخاصة، وتبني ودعم المصارف والمؤسسات المالية الإسلامية للنهوض بمهمتها في بناء اقتصاد الأمة.

---

(٣٤٦) البقرة ٢: ١٨٨.

(٣٤٧) راجع: الطبري، *تفسير البيان*، ج١، ص١١٧-١٢١ وأورد فيه أقوال الصحابة مثل علي وابي ذر الغفاري وعبد الله بن عمرفي معنى المال كنز.

(٣٤٨) البخاري، الصحيح، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض، ج٣، ص١١٠.

(٣٤٩) الجندي، أنور، *العودة إلى المنابع*، ص١٢٠،١٢٢.

(٣٥٠) راجع: خصائص الاقتصاد الإسلامي و مميزاته في المبحث الثاني من الفصل الأول من الباب الأول في الرسالة.

والأهم من ذلك وضع خطة للتعاون والتكامل الاقتصادي بين الدول الإسلامية لأن فيها من الثروات والنظم الإسلامية ما يعين على تحقيق ذلك، فالزكاة -لو أديت على الوجه الأمثل- كفيلة بحل الأزمات الاقتصادية مع الاستفادة من التوجيهات النبوية في هذا المجال، ومن الخطط المهمة كذلك استثمار الدول الغنية أموالها في أرض دول فقيرة لتشغيل الأيدي العاطلة ورفع مستوى المعيشة فيها كما يستفاد من الأرصدة في الدول الغربية لذلك، وتحقيق التكافل الإجتماعي بالاستفادة من الزكاة والموارد الأخرى المعروفة والمفصلة في كتب الفقه، وإنشاء سوق اقتصادية إسلامية كخطوة أساسية للوقوف أمام السوق الأوربية وغيرها، وربما تحول بعض السياسات دون ذلك نظراً لتدخل الغرب.

٢- تقويم مناهج التربية والتعليم

بعد أن تبين للمجتمعات الإسلامية أبعاد الخطر التربوي والتعليمي والغربي وغياب المنهج التربوي الإسلامي، أصبح القيام بإصلاح واقع التربية والتعليم أمرا لا بد منه وذلك بتطبيق منهج التربية الإسلامية والذي من أبرز أهدافه الصلة الوثيقة بين العقيدة والتربية، فهي تربية ربانية لصياغة الإنسان الموحد الذي يعرف خالقه معرفة يقينية قائمة على النظر والدليل، كي يعبده وحده فينعكس ذلك بدوره على الأخلاق والسلوك، وهناك أسس تربوية إسلامية يقوم عليها الأصلاح نلخصها بما يأتي[٣٥١]:

أ- تربية شاملة للروح والعقل والجسم «إن لبدنك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فاعطي كل ذي حق حقه»[٣٥٢].

ب- تربية متوازنة تجمع بين الدنيا و الآخرة قال تعالى:﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[٣٥٣].

---

(٣٥١) راجع: محسن عبد الحميد، *الإسلام و التنمية الإجتماعية*، ص١٣٣-١٣٥.

(٣٥٢) قاله سلمان لأبي الدرداء ﷺ فقال النبيﷺ :صدق سلمان، البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، باب حق الجنة في الصوم، ج٢، ص٢٤٥، وفي كتاب التهجد، والنكاح والأدب، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر، ح(١١٥٩)، ج١، ص٨٠٢، وأبو داود، كتاب التطوع، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة، ح(١٣٦٩)، ج٢، ص١٠١، والترمذي، كتاب الزهد، باب ٦٤، ج٤، ص٦٠٩، والنسائي، كتاب الصيام، باب صوم يوم وافطار يوم، ج٤، ص٢١١، وابن ماجه، كتاب النكاح، ح(٢٣٩٠)، والإمام أحمد، المسند، ج٦،ص٢٦٨.

(٣٥٣) القصص ٢٨: ٧٧.

جـ- تربية عملية سلوكية من خلال أداء العبادات، تقوم على الفضائل والتعاون كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٣٥٤].

د- تربية لضمير الفرد ليكون رقيباً على أفعاله يقول الرسول ﷺ: «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»[٣٥٥]، كما تكون تربية للفطرة على الإعتدال وحمايتها من الإنحراف والإلتزام بوسطية الإسلام.

هـ- تربية مستمرة لا تقف عند حد معين، منافذها متنوعة بين البيت والمدرسة والمسجد والمجتمع، كما أنها أصيلة تتقبل الحسن في التوجيه قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٣٥٦].

و- كما أنها تربية عالمية لا تعرف الحدود ولا الطائفية ولا العنصرية، فهي في خدمة الإنسانية جميعاً قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣٥٧].

ومن هذه الأسس يتضح هدف التربية الإسلامية التي تكون الانسان التقي، والتقوى تورث العلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[٣٥٨] للقيام بالإبداع وخلافة الأرض، والهدف الأعظم تكوين الأمة الواحدة المتآزرة القوية ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٣٥٩].

ويقوم إصلاح التعليم كذلك على نفس الأسس فتأتي المناهج «من واقع تصور إسلامي صحيح ينطلق من الإهتمام بتكوين عقلية إسلامية قائمة على الاستقلال الفكري وتستند إلى التفكر والتأمل»[٣٦٠]، فالتربية والتعليم لم تفصل بين ماهو ديني ودنيوي، بل توظف -من نظرة شمولية- العلوم الطبيعية باعتبارها جزءاً من السنن الإلهية التي تقود الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، ومن هنا جاءت نظرية أسلمة المناهج لتوظيف العلوم الطبيعية لخدمة

---

(٣٥٤) المائدة ٥: ٢.

(٣٥٥) الترمذي، سننه، كتاب البر،باب ماجاء في معاشرة الناس ح(١٩٨٧)ج٤ص٣٥٥وقال أبوعيسى الترمذي :هذاحديث حسن صحيح،والدارمي،كتاب الرقاق،باب في حسن الخلق ح(٢٧٩٤)ج٢ص٦٢٩،والامام أحمد،المسند ج٥ص١٥٣،١٥٨، ١٧٧، ٢٢٨، ٢٣٦ .

(٣٥٦) آل عمران ٣: ١٠٤.

(٣٥٧) الحجرات ٤٩: ١٣.

(٣٥٨) البقرة ٢: ٢٨٢.

(٣٥٩) الأنبياء ٢١: ٩٢

(٣٦٠) الجندي، أنور، العودة إلى المنابع، ص١٣٩.

الإسلام باعتبارها إمتدادا للحضارات الإسلامية والحضارات الأخرى، وارتكاز العلوم الإجتماعية على أسس وقيم الإسلام، وتوجيه العلوم الدينية للبحث في مستجدات الحياة التي تعود بالنفع على المسلمين وواقعهم، وبناء العلم على الأخلاق هو ما تفتقده المناهج الغربية، ففيها روح الإستعلاء واحتكار أسرار العلم واستخدامه لإذلال الشعوب، ولذا نجد أن جامعاتهم في العالم الإسلامي لم تتضمن العلم التجريبي بل فلسفات مضللة للدين والإيمان، كما أنها سياسية وليست علمية.

والخطوات الأساسية لتقويم التعليم تكون في:

أ- إعطاء مهمة التربية والتعليم أولوية حقيقية فقد قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت معلماً» [٣٦١]، مع إبراز نماذج القدوة الصالحة من تاريخ الأمة رجالاً ونساءً.

ب- إعداد المدرس الملتزم لأنه القدوة للتلميذ، وقد أكد ذلك كل المصلحين وأولهم الغزالي، بعد أن شخص أمراض المجتمع فقال: «الداء العضال فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء... » [٣٦٢]، فلا بد من إعداد المعلم الجيد الملتزم علماً وعملاً.

جـ- إعادة صياغة مناهج التعليم في إطار الأسس الإسلامية، صياغة يظهر فيها التوجيه الصحيح مع متابعة التطور العلمي، والتنبيه للحقائق العلمية في القرآن الكريم.

د- تنقية المناهج مما علق بها من شبهات لا تتفق مع قيمنا وتراثنا، وأخذ الصالح من العلوم المعزز للإيمان والخلق الإسلامي، وتقرير التفسير الإسلامي للتاريخ والعلوم الطبيعية ونبذ التفسير المادي وغيره.

هـ- تأكيد مفهوم الأمة وخصوصاً في مادة التاريخ وإشاعة المحبة لمختلف الجنسيات والقوميات، وعدم قبول تقسيمات الغرب لعصور التاريخ إلى قديمة، ووسطى مظلمة، وحديثة، لأن هذا التقسيم يصلح لهم، وعصورهم المظلمة عصور ذهبية زاهرة في تاريخنا.

٣- تقويم الإعلام

إن للإسلام نظريته الإعلامية المتميزة، فالإسلام رسالة والرسالة دعوة لا تتحقق إلا بالإعلام، وبالوسائل المتاحة في كل عصر.. والواقع يشهد غياب الإعلام الإسلامي، حتى أصبح خطراًيهدد الأجيال، وأول خطوة لإصلاحه هو تحريره من الضغوط ليقوم على النقد

---

(٣٦١) ابن ماجة، *سنن ابن ماجة*، مقدمة، باب فضل العلماء ج١ص٨٣، ح (٢٢٩).

(٣٦٢) الغزالي،*إحياء علوم الدين*، ج٤ص٥١.

الحر البناء، ولن يتحقق ذلك إلا في ظل احترام الرأي الآخر، والداعية المسلم في حاجة إلى الحرية ليكون له حق التوجيه والنقد للأفراد والجماعات قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٣٦٣]، وإذا أردنا أن نكوّن إعلاماً إسلامياً، فأول مرتكزاته قيامه على الصدق والوضوح والأخلاق والموضوعية، بعيداً عن الكذب والإسفاف والتضليل فضلاً عن الفساد والإفساد، كما ينبغي التركيز على المحتوى والمضمون، فالمحتوى هو الإسلام كله، وعلى الإعلامي أن يعرف موقف الإسلام من جملة أمور[٣٦٤].

-لا يلجأ المسلم للإثارة، إنما يجسد الحقائق، لأن الإثارة تعتمد على الخيال والحقائق على العقل.

-عدم الخوض في الإشاعات أو المشاركة في البلبلة الفكرية فالإسلام يعصم الإعلام من ذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٣٦٥].

-والترويح المتفق مع القواعد الإسلامية مباح فقد كان الصحابة يتناشدون الأشعار، وكان الزهري يقول: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة»[٣٦٦].

-والإسلام يحرم السب والقذف ومثلها نشر الصور الخليعة والماجنة، والغمز واللمز...، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٣٦٧].

-الإلتزام بآداب الجدال والحوار، فقد جعل الشرع حدوداً بالغةفي الأدب والتعفف ينبغي مراعاتها قال تعالى: ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣٦٨].

-دقة النقل والتثبت، وقد نبه القرآن لذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[٣٦٩].

---

(٣٦٣) النحل١٦: ١٢٥

(٣٦٤) راجع: محمد، سيدمحمد،*المسؤولية الإعلامية فب الإسلام*، ط الخانجي، القاهرة ١٩٨٣،ص٢٧٤-٢٧٧.

(٣٦٥) النساء ٤: ٨٣.

(٣٦٦) المتقي الهندي ، كنز العمال ج٣ص٣٧ ،والزبيدي،اتحاف السادة المتقين ج٥ص٣٠٨منسوبا لعلي ،ويشهد له مافي صحيح مسلم من حديث أبي حنضلة «ساعة وساعة»

(٣٦٧) الانعام ٦: ١٠٨.

(٣٦٨) سبأ ٣٤: ٢٥.

(٣٦٩) الحجرات ٤٩: ٦.

وقد بحث المفكرون الإعلاميون سبل الإصلاح في مؤتمرات ونـدوات وتوصلـوا إلى جملـة نتائج -وإن لم يطبق أكثرها- أذكر من أبرزها[٣٧٠]:

١- إنشاء كليات إعلامية مستقلة، وأقسام للإعـلام في الجامعـات الإسـلامية تؤسـس علـى قواعد الإسلام، وتنظيم دورات لخريجي العلوم الإنسـانية تزودهـم بالوسـائل في الدعـوة لقيادة الرأي العام، وترسيخ القناعة لدى الشباب بأن تلك الوسـائل هـي لسـان العصـر، ومن فقه الدعوة خطاب الناس بلسان عصرهم، وأن الوسائل الجديدة تيسـير للدعـوة إذا أحسنوا تطويعها، مع كفالة توظيف هؤلاء الشباب في أجهزة الإعلام الرسمية.

٢- تكوين التخصصات الإعلامية المتكاملة، مع توظيف مالي ضخم، ومـن مهماتهـا تنقيـة التراث وإعادة نشره وترجمته إلى اللغات الإقليمية والعالمية.

٣- عدم التقليل من شأن أي وسيلة إعلامية، وإذا تحول بعضها للهو والإفساد فـإن العيـب في العقلية التي توجهها وتهيمن عليها، مع ملاحظة التطور العالمي للأساليب بما يتفق مـع الإسلام، ولكل وسيلة ضوابطها.

٤- تكوين إتحاد إعلامي إسلامي عالمي يضم نقابات وجمعيات متعددة، واختيـار الكفـاءات الصالحة وتفريغ مفكرين إسلاميين لإجراء بحوث في القضايا المعاصرة.

٥- قيام الإعلام على أُسس الإسلام، وهذا يقتضي التعاون بـين العـاملين ووحـدة الهـدف لتكوين وعي إسلامي، ورأي له وزنه الدولي في قضايا المسلمين.

٦- تقوم البرامج على دعم العقيدة والأخلاق لمرورها بمحنة وغربة عن الإسلام، مع حسن اختيار الموضوعات الملائمة فتحـول إلى قصـة ناطقـة أو متحركـة أو حـوارات فيهـا قـوة الحجج والاقناع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِـلَ صَالِحًـا وَقَـالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣٧١]، كما لا تهمل المواد الترفيهيـة المهذبـة الهادفـة للـترويح، لئـلا يتحول الإسلام إلى خطب ومواعظ فقط، كما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم أنـه ﷺ كان يتخولنا بالموعظة، أي بين الحين والحين مخافة السآمة.

---

(٣٧٠) راجع : الركابي، زين العـابدين، ١٩٧٦م، النظريـة *الإسـلامية في الإعـلام والعلاقـات الإنسـانية*، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الإعلام الإسلامي والعلاقـات الإنسـانية أبحـاث ووقـائع اللقـاء الثالث، ص٣٣١-٣٣٥ وراجع بحوث أخرى فيه.

(٣٧١) فصلت ٤١: ٣٣.

٧- قيام مؤسسة إسلامية عالمية (شركات مساهمة) من أثريـاء المسـلمين ولهـا مقـر في بلـد إسلامي، وكذلك قيام وكالات إسلامية في بلد مسـلم فيـه كفـاءات فنيـة وعلميـة لجمـع الأنباء وتوزيعها بعيداً عن الضغط السياسي، لنشر الخـبر الصـادق ورد الكـاذب المشـوه، بدلاً من أن نعرف أنباء العالـم الإسلامي من الإعلام المعادي[٣٧٢].

خامساً: مواجهة حركات التدمير

إن حركات التدمير التي ينبغي التصدي لهـا قـد تكـون داخليـة أو خارجيـة أو بـالتواطؤ بينهما عن قصد وبغير قصد.

فمن الحركات الداخليـة، الجماعـات التـي تتخـذ مـن الديـن غطـاء وهـي تهـدم الديـن كالقاديانية والبهائية والفرق الشيعية الغاليـة، وقـد تـولى العلمـاء كشـف زيـغ هـؤلاء وبيـان انحرافاتهم الفكرية، التي تخدم الأعداء.

وقد تكـون علـى شـكل أحـزاب ومنظمـات مـن قبـل العلمـانين والمنـافقين كالشـيوعية والماسونية وغيرها.

ومنها الحركات التي ترفع شعارات القومية بديلاً عـن فكـرة الأمـة، وخصوصـاً القوميـة العربية ولكنها اصطدمت بفكرة الأمة الإسلامية كما أنها فشلت في تكوين أمة مستقلة لأنهـا شغلت بنقل النماذج الغربية من رأسمالية إلى شيوعية واشتراكية.وكل ما قامت به هو تفكيك كيان الأمة الإسلامية وترسيخ مفاهيم الإقليمية والقطرية فأدى ذلك إلى الإنهزام أمام الخطـر اليهودي... ويدخل ضمن ذلك الولاءات الطائفية والمذهبية وغير ذلك.

والتصدي ومواجهة ذلك هو تعريف جمهور المسلمين بعـدم جـدوى تلـك الإنتمـاءات لأنهـا لاتصمد أمام الأعداء، وإيقاف فكر العبـث القومـي وإحيـاء فكـرة الأمـة والحفـاظ علـى الهويـة الإسلامية ورد الأباطيل التي يروجها الحاقدون بإحياء مفاهيم الإسلام سلوكاً وعملاً.

أما حركات التدمير الخارجة التي يمثلها المشركون كافـة وفي مقدمتهـم اليهـود والنصـارى فقد بينا من قبل في مبحث سابق خطط هؤلاء تجاه المسلمين، وكيف نجحت خططهم بتناسـي المسلمين تحذيرات القرآن منهم ..

---

(٣٧٢) لقد جرت محاولات لتطبيـق ذلـك ولـم تنجـح لأسـباب...، راجـع: الركـابي: زيـن العـابدين، النظريـة الإسلامية في الإعلام، ص٣٣٠-٣٣١.

أما مواجهة هذه الحركات فتكون بـ:

١- القيام بدراسات علمية جادة وعميقة من قبل الخبراء والمفكرين لاستيعاب خطط الأعداء في التاريخ القديم والحديث بهدف إستكشاف ما يخطط للمستقبل، مع معرفة وكشف وسائلهم الماكرة للنفوذ إلى ديار المسلمين، مع ملاحظة تطورها، عندئذ توضع خطط وبرامج وسبل للتصدي لها وإضعافها بتخطيط دقيق غير متسرع مع الإهتداء بسيرة النبي ﷺ للتخطيط للمستقبل، ومثال ذلك أسلوبه في التعامل مع المنافقين وخصوصاً عبد الله بن أبي بن سلول حيث لم يتعرض لهم بالأذى ومنع عمر بن الخطاب من قتله إلى أن بان نفاقه للجميع ولامه الناس حتى إن ابنه استأذن رسول الله ﷺ بقتله، وحادثة فتح مكة كذلك تدل على دقة التخطيط حيث انقلب صلح الحديبية - الذي كان ظاهرة إذلالاً للمسلمين- إلى نصر مبين.

٢- التصدي للغزو الفكري بتأصيل الثقافة الإسلامية وهي عملية يشارك بها -فضلاً عن الأسرة- التربية والتعليم ووسائل الأعلام بتقديم البدائل التي تدل على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وتحصين الجيل ببرامج مدروسة وهادفة، وهذا يقتضي كذلك كشف مخططات قادة الغزو الفكري التي ينفذون منها للمسلمين كالسياحة والأندية التي تكون أوكاراً للمفاسد والمخدرات وغيرها.. وينبغي أن يسمح لهيئات الأمر بالمعروف أن تقوم بمهمتها، ولاننسى في ذلك كله دور المسجد في بعث القيم الروحية والأخلاقية، وقيامه بنشاطات منها تحفيظ القرآن، ودراساته، ومحاولة ربط الأمة بكل قيم الإسلام من خلال المسجد ..

ويدخل ضمن ذلك التصدي لحركة التنصير المنتشرة في البلاد الإسلامية الفقيرة، بمساعدة هؤلاء لمنعهم في الوقوع في حبائل المنصرين.

وعلى العلماء كذلك كشف ما تقوم به دوائر الإستشراق من مهمات التشويه والتحريف والدس والتضليل للإسلام، ومع وجود كثير من الدراسات حول ذلك لكنها لاتتناسب وحجم الهجمة الإستشراقية وخصوصاً أنها تحتاج للدعم المادي، ومهمة هؤلاء تنقية الكتب التي تزخر بسموم الأفكار والتنبيه عليها وخصوصاً دوائر المعارف الإسلامية..

٣- الترابط الإجتماعي والأخوي بين المسلمين، ونبذ الفرقة، ففي الاختلاف المذهبي ينبغي بيان أن المتفق عليه بين جميع المذاهب أكثر بكثير من المختلف فيه من القضايا الجزئية، ووضع أسس لتحقيق الوحدة أو أدنى حد منها بالتعاون بين المؤسسات والمنظمات والهيئات وترسيخ المفاهيم الشرعية من خلالها وتحرير الواقع من النظم المعارضة للإسلام

وذلك للتدرج إلى وحدة المسلمين الشاملة وخصوصاً في اتحاد المواقف للقرارت المصيرية..
كما ينبغي تأكيد مبدأ الموالاة للمؤمنين والتولي عن الكافرين[٣٧٣].

٤- العمل على مراعاة فقه الأولويات[٣٧٤]، وذلك بتقديم المسائل المهمة والكلية على الجزئيات لأن الأمة شغلت قروناً بسفاسف الأمور وترك العظائم، من ذلك نرى كثيراً من شبابنا يغرقون أنفسهم بجزئيات شكلية غير مبالين بما يجب العمل به تجاه أعداء الأمة ..

وكذلك العمل على تنشيط الاجتهاد الجماعي للأمة وتطبيق ما ينتهي إليه ومسايرة الواقع بالإجتهاد لمستجدات الحياة وتحرير الفقه من التبعية في الفروع، وكل ذلك يجري بمراعاة أدب الاختلاف..

٥- تطهير البلاد الإسلامية من العملاء والجواسيس بكشف شبكاتهم التي تدخل البلاد بأعذار مشروعة ومراقبة تحركاتهم المشبوهة، ولما كان الأعداء يملكون الوسائل الحديثة ولايمكننا السيطرة عليها فيتحتم الإستعانة بالخبرات العلمية والعسكرية للتمويه على الأعداء، علماً أن تلك الشبكات تقوم بجمع معلومات عن القوات المسلحة ومقومات الاقتصاد، وغيرذلك، وإغراق السوق بالعملات المزيفة..[٣٧٥]

٦- الحذر من اليأس والقنوط الذي ذمه الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[٣٧٦] فلا ينبغي الشعور بالخنوع والذل تجاه قوة الأعداء وامتلاكهم لأسلحة التخريب فقد قال الله عن الذين ظلموا أنفسهم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ ثم قال تعالى بعدها: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[٣٧٧].

---

(٣٧٣) هناك فرق بين الموالاة والتولي للكفار، فالتولي: هو نصرة الكافر على المسلم وقت الحرب، قاصداً ظهور الكفار على المسلمين لقوله تعالى :﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ..﴾ أما الموالاة بمعنى المودة ومحبته لدنياهم، وهو فسق وليس كفرا لقوله تعالى:﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة... ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾، ناداهم بنداء الإيمان. راجع الشيخ صالح بن عبد العزيز ، الضوابط الشرعية لموقف المسلم من الفتن، ص٥٠-٥١ . ولكننا نرى أن الله ناداهم كذلك على الأصل، والنهي عن الموالاة واضح، وقد تتحول الموالاة والمودة إلى التولي.

(٣٧٤) ألف العلماء حديثاً مؤلفات في فقه الأولويات منها كتاب: د.يوسف القرضاوي، في فقه الأولويات، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٩٥.

(٣٧٥) ذكرت صحف اسرائيلية أن عملية السلام سهلت لإسرائيل التجسس على الدول العربية، راجع: عاطف الجولاني، عصابات التجسس الإسرائيلية في العالم العربي، مجلة المجتمع عدد (١٢٣١)، ٢٤/ ١٢/ ١٩٩٦، ص ٢٢-٢٦.

(٣٧٦) يوسف١٢: ٨٧

(٣٧٧) ابراهيم١٤ :٤٥-٤٦

فالشعور باليأس احتجاجاً بقوة الأعداء، نـاتج عـن الجهـل بالسـنن الإلهيـة مـن أن قـوة الظالم التي تدفعه للبغي لاتعجز الله تعالى وقد قال في آية أخـرى ﴿وَيَمْكُـرُونَ وَيَمْكُـرُ اللَّـهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٣٧٨].

إن اليأس والقنوط مرض مدمر وكفيل بقتل العزائم والإرادات البناءة وكان ذلك مـن عـادات المنافقين تخويفاً للمؤمنين وقت الشدة من قوة الأعداء، فقد جاء في معركة الخندق أن الرسـولﷺ ضرب صخرة فقال: « باسم الله قصور الشام ورب الكعبـة، وضـرب أخـرى فقـال: اللـه أكـبر قصور فارس ورب الكعبة، فقال المنافقون: نحن نخندق على أنفسـنا وهـو يعدنـا قصـور فـارس والروم!»[٣٧٩] وهكذا سار على نهجهم منافقوا زماننا متذرعين بقوة العدو مسرعين للتحالف معه.

ولا يكفي عدم اليأس والتحلي بالصبر بل ينبغي إصلاح الحال وتغيره، فالله تعالى يقول: ﴿لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٣٨٠]،وإذا ما حصل التغيير المطلـوب فإنـه تعـالى: ﴿يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[٣٨١].

ومع كل الضوابط التي ذكرناها لا بد من الثقة بالله وحسن الظن بـه بأنـه ينصـر المؤمنـين فبـالصبر والسعي في الإصلاح يتحقق ذلك وإلا فلا نصـر في ظـل الأوضـاع الفاسـدة والثقـة بنصـر اللـه تـأتي من معرفة السنن الألهية من أن ظلـم الأعـداء لأنفسـهم بـالبغي سـبب في سـقوطهم و تهيئـة أسـباب النصر للمؤمنين، وقد شـهدنا سـقوط المعسـكر الشـيوعي مـع امتلاكـه لأدوات التمكـين، ثـم سـيأتي دور الغرب ولن تمنعـه قوتـه العسـكرية و السياسـية مـن قـدر اللـه في أن تجـري عليـه السـنن الإلهيـة فقد قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَـا أَتَاهَـا أَمْرُنَـا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الأيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣٨٢].

وقال نبينا محمد ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل و النهار ولا يترك الله بيت مـدر ولا وبر إلا أدخله إياه بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز به الإسلام، وذلا يذل به الكفر»[٣٨٣].

فالمبشرات بانتصار الإسلام كثيرة لا مجال لذكرها، والمستقبل للإسـلام فهـو البديـل كمـا توقع علماء الغرب أنفسهم.

---

(٣٧٨) الأنفال ٨: ٣٠.

(٣٧٩) راجع سيرة ابن هشام معركة الخندق

(٣٨٠) الرعد ١٣: ١١

(٣٨١) الحجر٢٢: ٣٨

(٣٨٢) يونس١٠: ٢٤س

(٣٨٣) الإمام أحمد، المسند ج٤ ص ١٠٢ وصحح إسناده الالباني، أنظر سلسلة الاحاديث الصحيحة ج١ ص٧.

الخاتمة

هذه الدراسة تناولت موضوعاً ذا صلة وثيقة بجميع جوانب الحياة وعالجته في ضوء الكتاب والسنة، كما يمس العقيدة الإسلامية باعتبار أن علامات الساعة وفتنتها جزء من الغيب الذي يدخل في عقيدة الأمة.

تضمن التمهيد جوهر قضية الفتن وحقيقته بما ورد من الآيات القرآنية ونصوص الحديث في هذا المجال، وبيان أن ذلك سنة في الخير والشر وهدفها التمحيص.

وحاول البحث أن يكون قريباً من قضايا الإنسان الواقعية، بدراسة أساس الفتن، ولذلك جعلت الباب الأول أسباب الفتن في تاريخ المسلمين، لأن تلك الأسباب كانت وما زالت مستمرة إلى يومنا هذا، وزادت عليها أمور تتناسب مع طبيعة العصر والتطور الزمني.

ولذا صنفت أسباب الفتن في الباب الأول في فصلين وأربعة مباحث لتشمل جوانب الحياة المختلفة، فكان الفصل الأول للفتن السياسية والاقتصادية، وتناولت في الأول الأسباب السياسية المؤدية للفتنة والتي بدأت بعد مقتل عثمان ﷺ، فكانت مشكلة الحكم والسلطة وتعطيل مبدأ الشورى، والظلم الذي يتضمن كبت الحريات، ثم أثر الفرق في أحداث الفتن وخصوصاً الفرق السياسية كالخوارج والشيعة والزبيريين، ثم أثر الفرق الخارجة عن الإسلام في الفتن الداخلية، وآثار الحروب الخارجية ضد المسلمين من الصليبيين والمغول والإسبان.

ثم بينت أهم أسباب الفتن الاقتصادية في المبحث الثاني والمتمثلة بفتنة الفقر والغنى وآثارهما، وسوء الكسب بالمعاملات المحرمة وخصوصاً الربا وسوء الإنفاق في الترف والتبذير أو كنزه وعدم تداوله.

وجاء الفصل الثاني بمبحثيه للفتن الاجتماعية والفكرية، تناولت في الأول، أهم الفتن الاجتماعية وفي مقدمتها حب الدنيا والذي تتجلى مظاهرها في فتنة المال والأولاد والنساء وآثارها.. وبعض العادات الاجتماعية المنافية للشرع كالسحر، وبعض الأعراف المنحرفة في الأفراح والمآتم والثأر والانتقام.

وفي المبحث الثاني تناولت الفتن الفكرية كظهور البدع والترجمة عن الثقافات الفلسفية الأجنبية، والوضع في رواية الحديث والتفسير المنحرف. ثم الحركات الفكرية الهدامة داخلية كالباطنية وخارجية كالاستشراق والتنصير، مبينة أثر ذلك كله في الفتن الفكرية ومن ثم ركود الفكر الإسلامي.

أما الباب الثاني فكان للفتن والمحن في آخر الزمان وعلامات الساعة، بدأته بمدخل يوضح معنى هذه العلامات وأقسامها ثم جعلته في فصلين:

درست في الفصل الأول العلامات الصغرى للساعة بأنواعها الثلاثة في ثلاثة مباحث: ما ظهر وانقضى، وما ظهر ولازال مستمراً، وما لم يظهر بعد، وهذه العلامات في غالبيتها فتن تدخل ضمن الأنواع الأربعة التي ذكرناها في الباب الأول، ومنها ما هو مجرد علامة تنبأ بها الرسول ﷺ.

أما في الفصل الثاني فكتبت في المبحث الأول العلامات والأشراط التي تظهر خلال الآيات الكبرى، ثم جعلت المبحث الثاني عن الآيات الكبرى العظام السماوية منها والأرضية والمؤذنة بتغيير أحوال العالمين ومن ثم قيام الساعة.

أما الباب الثالث فقد خصصته لفتن ومحن المسلمين المعاصرة، ابتداءً من المحاولات لإسقاط الخلافة الإسلامية إلى يومنا هذا. ثم الحكم من الفتن وضوابط مواجهتها.. فكان الفصل الأول عن جذور هذه الفتنة وأسبابها درست في مبحثه الأول خطط أعداء الإسلام التي كانت آثارها بالغة في الفتن والويلات، وأولها إسقاط الخلافة الإسلامية ودخول الاستعمار وقيام إسرائيل ثم تجزئة العالم الإسلامي إلى دويلات متنافسة متقاتلة، وإثارة الخلافات العقدية والطائفية فيها.. وكل ذلك رافقه الغزو الفكري بصوره الكثيرة، ثم التشويه المتعمد للإسلام والتشكيك به خلال مصادر التاريخ والتعليم وقضايا المرأة.

وقد ضربت –في المبحث الثاني– أمثلة لمآسي العالم الإسلامي ممثلة له بالقضية الأساسية للمسلمين وهي قضية فلسطين التي تمثل محور التآمر الغربي على الإسلام، ثم قضية مسلمي البوسنة، ومحاولة الغرب محو هويتهم الإسلامية، ومثل ذلك واقع مسلمي الاتحاد السوفيتي ممثلة بقضية الشيشان المعاصرة..

أما المبحث الأخير فقد تتبعت فيه الضوابط المنهجية الشرعية في كيفية الخروج من الفتن والمحن وسبل النجاة منها، فردية خاصة، أو جماعية عامة، وسواء كانت الفتنة في السراء أوالضراء، وإلى آخر فتنة وأعظمها وهي فتنة الدجال حيث استخلصت الضوابط من خلال النصوص الشرعية ـ كتاباً وسنة ـ في العصمة منها..

وبناء على ما تقدم كانت نتائج البحث كما يأتي:

– إن الفتن والمحن والابتلاء من السنن الإلهية الكونية في الأفراد والجماعات والأمم،

ولاينجو منها أحد، وقد تكون فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، لصبر الإنسان في الضراء وعدم أداء حق الشكر في السراء.

- إن الإسلام وضع لنا من الأنظمة الوقائية ما يحول دون الوقوع في الفتن. فالشورى مثلاً تحد من سلطة الحاكم ولا تجعلها مطلقة، فهي ضمان لحقوق الإفراد وحرياتهم، بل حث الشرع على أن تكون من المفاهيم التي يربى عليها الأفراد منذ صغرهم فتكون بعد ذلك طابع الجماعة ثم الحكم.

- إن الظلم والتظالم سبب من أسباب انهيار المجتمعات في السنن الإلهية، لذا يجب الحذر منه، وإلاّ عمّت الفتنة الجميع لسكوتهم على الظلم وعدم تقويمه، قال تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة..**﴾[1] .

- إن أسباب الانهيار الأساسية ـ على مدار التاريخ ـــ تأتي من داخل الأمة، بفرقتها وتمزقها فيطمع الأعداء فيها، ثم تأتي بعد ذلك العوامل الخارجية متممة لها، ومن ذلك التناحر داخل دولة الأندلس على الحكم، وإثارة النعرات القومية والطائفية داخل دولة الخلافة العثمانية..

- إن الإسلام جعل لنا من النظم الاقتصادية ما يقضي على فتنة الفقر وفتنة الغنى، وإن الغنى الذي يصل إلى حد الترف سبب من أسباب عقاب الله وانهيار الأمم كما كرر ذلك القرآن الكريم في وصفه للترف والمترفين كسنة إلهية لا تتخلّف، وقد حرص الشرع على أموال الأمة لأنها من أسباب قوتها، وحث على التكامل الاجتماعي لتحقيق التوازن بين الطبقات.

- إن الاستقامة في الحياة تحقق العيشة الرضية، وإن تراكم الخبائث يؤدي إلى انهيار المجتمع.

- إن أبرز الفتن الفكرية تتمثل في ظهور البدع في الدين وآثار الفلسفة والترجمة، وحركة الوضع في الحديث والتفسير، والحركات الفكرية الهدامة كالباطنية، والاستشراق والتنصير التي تهدف إلى إثارة الشبهات والشكوك حول مبادئ الإسلام.

- علم الساعة غيب لا يعلمه إلا الله والإيمان بأشراط الساعة جزء من الإيمان بالغيب الذي لا يتم الإيمان إلاّ به، وهو داخل ضمن الإيمان باليوم الآخر، وينبغي قبول ما ثبتت صحته من الأحاديث، سواء كانت روايته متواترة أو آحاداً، ولا يجوز ردها حتى في العقائد.

---

[1] الأنفال ٨: ٢٥

- يمكن التفريق بين العلامة والآية بأن الثانية تختص بالعشر الكبرى الدالة على قرب الساعة أو حصولها، ولا يفيد ذكر الرسول ﷺ لبعض العلامات أنها مذمومة أو محرمة، وقد وقعت معظم العلامات الصغرى، وذكر الرسول ﷺ لها بدقة قبل وقوعها معجزة من معجزاته، وتكون آخر الآيات خروج النار ثم تقوم الساعة على شرار الخلق..

- إن للفتن والمحن في واقع المسلمين جذوراً عميقة خطط لها أعداء الإسلام من اليهود والنصارى، فكان إسقاط الخلافة الإسلامية طريقاً لقيام إسرائيل وهيمنة اليهود على العالم ليفسدوا فيه كرة أخرى كما أشار القرآن، وليعودوا لفيفاً إلى الأرض المقدسة ليتحقق فيهم وعيد الله.

- من الفتن ما عمله أعداء الإسلام على إضعاف المسلمين بالوقيعة بينهم، وإثارة مشكلات الحدود بين الدول الإسلامية، وإشعال النعرات الطائفية والقومية، وتركيز حركة التنصير والاستشراق في مجال التاريخ والتعليم والإعلام والمرأة، فتم تعطيل أحكام الشرع، وهوجمت مصادر الشريعة.

- من آثار الفتن ضرب حركات الإصلاح ومحاربة الدعاة في بلدانهم، مما أدى إلى ترك كثير من المسلمين لأوطانهم وهجرتهم إلى ديار الغرب، فتمكنت دول الكفر من السيطرة على دول الإسلام، وخصوصاً بعد التغييرات في منطقة الشرق الأوسط بما يسمى النظام العالمي الجديد، فعاشت دول الإسلام فتناً مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وأشدها الهيمنة على الاقتصاد الإسلامي..

- إن للفتن والمحن جوانب إيجابية تتجلى بما ذكرناه في الحكمة من الابتلاء في صهر النفوس وتصفيتها وصقل الجماعات كي تتعود على خصال حميدة كالصبر والحلم فضلاً عن تكفير السيئات وكسب الثواب.. فالابتلاء لابد منه للجماعات، فهو يسبق التمكين، كما إنه محفز للإيقاظ من الغفلة وتحقيق روح التحدي وسنة التداول بين الحضارات.

- إن الإسلام لم يترك الناس يتخبطون أمام الفتن، بل وضع لهم من الضوابط ما يعصمهم من الفتنة، وإذا وقعت كان لهم من الشرع الوسائل الكفيلة للنجاة منها وأبرزها:

أ- الالتزام بالكتاب والسنة منهجاً للحياة، وما يتبعها من إحياء للفرائض والسنن وخصوصاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بالجهاد وإعداد العدة له، والتحلي بالصبر والثبات.

ب- التقويم والإصلاح لمقومات الأمة في الوقت الحاضر، وفي مقدمتها التعليم، لأن مهمة التعليم الأساسية هي تربية الناس على قيم ومبادئ الرسل ليحققوها على الأرض، وكذلك إصلاح الاقتصاد والإعلام..

ج- لزوم جماعة المسلمين، وإذا لم تكن هناك جماعة فاعتزال الفرق جميعها هو الأولى لتجنب الوقوع في الفتنة بشرط إصلاح النفس.

مع ملاحظة الالتزام بالآداب الشرعية في عدم تمني الفتنة، والتعوذ منها، وعدم السعي إليها.

وختاما أوصي بما يأتي:

أولاً:بذل العناية والاهتمام الكبيرين بموضوع الفتن والمحن ،لتعرف المسلمين بها على حقيقتها ،في طبيعتها وأبعادها وأنواعها،والاستعداد لها بما يتناسب مع خطورتها وأهميتها،ليكون المسلمون على مستوى المسؤولية العالية في التعامل مع واقع الحياة.

ثانياً:الإعداد لإنشاء المعاهد المتخصصة بالدراسات المستقبلية التي تعنى بربط الواقع بالماضي،والمستقبل بالحاضر ،والنظر في آثار الفتن الكثيرة والمحن الجسيمة على حياة البشرية، وربط العلامات الصغرى الثابتة بالسنة النبويةالصحيحة بالعلامات الكبرى التي اقترب موعد حلولها .

وبالله التوفيق والحمد لله أولا وآخرا

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- أبو بكر بن العربي،١٤٠٥هـ، العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، ط. دار الكتب السلفية، القاهرة.

٣- أبو حيان الأندلسي، (د.ت)، البحر المحيط، ط: المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

٤- أبو حيان التوحيدي،(د.ت) الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين ومحمد الزين، ط: دار مكتبة الحياة-بيروت.

٥- أبو داود سليمان بن الأشعث، ١٩٩٢، سنن أبي داود، ط٢، دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة، الكتب الستة وشروحها، تونس.

٦- أبو زهرة، محمد. (د.ت)، تاريخ المذاهب الإسلامية، ط: دار الفكر العربي، القاهرة، في جزأين.

٧- أبو زيد البلخي ،أحمد بن سهل ،١٩١٦م،البدء والتاريخ ،ط مكتبة المثنى ،بغداد .

٨- أبو عبيد، القاسم بن سلام. ١٩٨١م.الأموال.تحقيق:خليل هراس : مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٩- أبو فارس، محمد عبدالقادر، ١٩٩٠م، الابتلاء والمحن في الدعوات، ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.

١٠- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله (د. ت) الفروق اللغوية، ط: دار الكتب العلمية-القاهرة.

١١- أبو يحيى، محمد حسن،١٩٨٩م. اقتصادنا في ضوء القرآن والسنة:دار عمار، عمان.

١٢- أحمد بن حنبل الشيباني ١٩٩٢م .المسند، دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة، الكتب الستة وشروحها، تونس ،في ٦أجزاء.

١٣- أحمد بن فارس،١٩٩١، معجم مقاييس اللغة،تحقيق عبد السلام هارون ،ط دار الجيل، بيروت، في ٦أجزاء.
١٤- أحمد، رمضان أحمد، ١٩٨٣م، الخلافة في الحضارة الإسلامية، ط: دار البيان العربي، جدة، السعودية.
١٥- الأرناؤوط، محمد، ١٩٩٢، الإسلام في يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو، ط: دار البشير-عمان.
١٦- الأشقر، عمر سليمان، ١٩٩١، القيامة الصغرى، ط. دار النفائس، الكويت.
١٧- الأشقر، محمد سليمان، ١٩٨٨، زبدة التفاسير من فتح القدير،ط٢، شركة ذات السلاسل-الكويت.
١٨- الألباني، محمد ناصر الألباني. ١٩٨٢م.سلسلة الأحاديث الصحيحة.ط٣.. المكتب الإسلامي، بيروت، في ٦ أجزاء.
١٩- إيليا حاوي، ١٩٩٢م، شرح ديوان جرير، ط: دار الكتب اللبناني، بيروت.
٢٠- ابن الأثير. مجد الدين المبارك بن محمد الجزري(ت ٦٠٦ هـ)، ١٩٧٩م، النهاية في غريب الحديث و الأثر . تحقيق: طاهر أحمد الزاوي .محمود محمد الطناحي، ط٢،دار الفكر، بيروت، في ٥مجلدات.
٢١- ابن الجوزي. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن البغدادي . ١٩٨٣م. كتاب الموضوعات. تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان،ط٢، دار الفكر، بيروت.
٢٢- ابن الجوزي، جمال الدين أبوالفرج عبدالرحمن البغدادي، ١٣٦٨هـ، تلبيس إبليس، مكتبة المتنبي، القاهرة.
٢٣- ابن الصلاح. ١٩٧٤م.مقدمة: ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح .تحقيق: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ). دار الكتاب، القاهرة.
٢٤- ابن المبارك، عبدالله، ١٩٦٧م، كتاب الزهد، حققه وعلق عليه، حبيب الرحمن الأعظمي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥- ابن المبارك، عبدالله، ١٩٩٢م، ديوان المجاهد عبدالله بن المبارك، تحقيق مجاهد مصطفى بهجت، دار الوفاء، المنصورة.

٢٦- ابن المعتز، ١٩٤٦م، رسائل ابن المعتز، جمع وتحقيق عبدالمنعم خفاجي، ط: مصطفى البابي الحلبي، مصر.

٢٧- ابن النديم، ١٣٤٨هـ، الفهرست، ط: الرحمانية، مصر.

٢٨- ابن تيمية، أحمد بن عبدالسلام، ١٤٠٤هـ ، السياسة الشرعية طبعة: دار الأرقم، الكويت.

٢٩- ابن تيمية، أحمد بن عبدالسلام، ١٩٨٦ ،منهاج السنة النبوية في نقض كلام القدرية، تحقيق : محمد رشاد سالم، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، في ٩ أجزاء.

٣٠- ابن تيمية، أحمد بن عبدالسلام،(د.ت) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق صلاح الدين المنجد،(د.م).

٣١- ابن تيمية، أحمد بن عبدالسلام،١٣٩٨ مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد النجدي، ط: دار العربية للطباعة والنشر. ، بيروت في ٣٧ جزءا.

٣٢- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، ١٩٧٨م، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط: مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ١٤ مجلدا.

٣٣- ابن حزم، علي الظاهري ،١٩٦٤ ، الفصل في الملل والأهواء والنحل،ط محمد علي صبيح ،القاهرة .

٣٤- ابن خلدون.١٩٩٢م. المقدمة لتاريخه المعروف بـ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر. دار الكتب العلمية، بيروت. ٩ أجزاء.

٣٥- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد ،١٩٧٨م، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان.تحقيق: احسان عباس. دار صادر، بيرت. ٨ أجزاء.

٣٦- ابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٨هـ) ،١٩٤٠م. العقد الفريد. تحقيق: محمد سعيد العريان. دار الفكر، بيروت، في ٨ أجزاء.

٣٧- ابن قتيبة الدينوري.أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)،١٩٢٥م.عيون الأخبار. دار الكتاب العربي.مصورة من دار الكتب المصرية، بيروت.٤ أجزاء.

٣٨- ابن قدامة المقدسي، ١٩٨٦، مختصر منهاج القاصدين، ط: دار الفيحاء-الأردن..

٣٩- ابن قيم الجوزية. محمد بن أبي بكر.١٩٨٣م.الأمثال في القرآن الكريم.تحقيق: العيد محمد عز الخطيب.ط٣، دار المعرفة، بيروت.

٤٠- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، ١٤٠٢، الفوائد، ط، دار النفائس-عمان.

٤١- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، ١٩٨٤، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة-بيروت.

٤٢- ابن كثير، (د.ت)، قصص الأنبياء، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، ط: دار الحديث-القاهرة.

٤٣- ابن كثير، أبوالفداء إسماعيل الدمشقي، ١٣٨٨هـ، تفسير القرآن العظيم، ط: دار إحياء التراث، بيروت، ٤ أجزاء.

٤٤- ابن كثير، أبوالفداء إسماعيل الدمشقي، ١٩٨٦، النهاية في الفتن والملاحم ،تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، ط: المكتب الثقافي ، القاهرة، في جزأين.

٤٥- ابن كثير، أبوالفداء إسماعيل الدمشقي،١٩٨٥، البداية والنهاية، تحقيق أبوملحم، وعلي نجيب عطوي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، في١٤جزءا.

٤٦- ابن ماجة، أبوعبدالله محمد بن يزيد القزويني، ١٩٩٢م، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. ط: دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة، الكتب الستة وشروحها، استنبول-تركيا. في جزأين.

٤٧- ابن منظور، محمد بن مكرم، ١٩٥٦م، لسان العرب، ط: دارصادر، بيروت، ١٥ مجلد.

٤٨- ابن ناصر الدين الدمشقي، محمد ين عبد الله ، ١٩٨٨، برد الأكباد عند فقد الأولاد، ط: دار النصر للطباعة الإسلامية-القاهرة.

٤٩- ابن هانئ، محمد الأندلسي، ١٩٩٥، ديوان ابن هانئ، بتحقيق الهلاوي محمد، ط: دار المغرب الإسلامية.

٥٠- اسمايتش، عبدالله، ١٩٩٢م، الصراع في يوغسلافية ومستقبل المسلمين، معهد الدراسات السياسية، اسلام آباد، باكستان.

٥١- البار، محمد علي، ١٩٨٣م، المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ، ط: دار الشروق، جدة، السعودية، في جزئين.

٥٢- البحتري، ١٩٧٧، ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط: دار المعارف - مصر.

٥٣- البخاري. محمد بن إسماعيل . ١٩٨٥م .الأدب المفرد.ترتيب وتقديم كمال يوسف الحوت. ط٢، عالم الكتب، بيروت.

٥٤- البخاري. محمد بن إسماعيل، ١٩٩٢م، صحيح البخاري. ط: دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة، الكتب الستة وشروحها، استانبول-تركيا، تونس، في ٣ مجلدات ٨ أجزاء.

٥٥- البرزنجي، محمد بن عبد الرسول الحسيني،١٩٩٢، الإشاعة لأشراط الساعة، ط:دار الهجرة-بيروت.

٥٦- بشار، بن برد، ١٩٩٣م، ديوان بشار، شرح وترتيب مهدي محمد ناصر الدين، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٧- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر (ت٤٢٩هـ)(د.ت) الفرق بين الفرق: مؤسسة الحلبي، القاهرة.

٥٨- البغوي. الحسين بن مسعود.١٩٧١م.شرح السنة.تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط.ط١، المكتب الإسلامي، بيروت. ١٦ مجلداً.

٥٩- البغوي، الحسين بن مسعود، ١٩٥٥م، معالم التنزيل، ط: مصطفى البابي الحلبي،مصر، ٤ مجلدات في ٧ أجزاء.

٦٠- البهي. محمد ١٩٦٧م.الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

٦١- البهي. محمد ١٩٧٩م. منهج القرآن في تطوير المجتمع. مكتبة وهبة، القاهرة.

٦٢- البهي. محمد،١٩٨٢م. الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر.مشكلات الاسرة والتكافل ط٣: مكتبة وهبة. القاهرة.

٦٣- البياتي، منير حميد، ١٩٩٤م، النظام السياسي الإسلامي مقارناً بالدولة القانونية، ط٢، ط دار البشير، عمان.

٦٤- بيجو فيتش، علي عزت، ١٩٩٤م، الإسلام بين الشرق والغرب، المترجم: محمد يوسف عدس، ط: مؤسسة العلم الحديث، بافاريا.

٦٥- البيضاوي ،عبد الله بن عمر ،١٩٨٨ ،أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،ط دار الكتب العلمية، بيروت، في جزأين.

٦٦- البيهقي. أبو بكر أحمد بن الحسين، (د.ت)، السنن الكبرى: دار الفكر، بيروت في ١٠ مجلدات.

٦٧- البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين، ١٩٩٠م، شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ٩ مجلدات.

٦٨- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، ١٩٨٠م، الجامع الصحيح، ط: دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة، الكتب الستة وشروحها، استانبول-تركيا، ٥ أجزاء.

٦٩- التميمي، أبوالعرب محمد بن أحمد، ١٩٨٤م، كتاب المحن، تحقيق: عمر سليمان العقيلي، ط: دار العلوم، الرياض،٣ أجزاء في مجلد واحد.

٧٠- التهانوي. محمد علي بن شيخ علي بن قاضي. (د.ت)، كشاف اصطلاحات الفنون. دار صادر، بيروت، ٣ مجلدات..

٧١- التوحيدي، أبوحيان، الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين ومحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، ، بيروت،٣ أجزاء في مجلد واحد.

٧٢- توماس أرنولد،١٩٧٠م، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد العابدين، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٧٣- التونسي، محمد خليفة، ١٩٨٢م، الخطر اليهودي بروتوكلات حكماء صهيون، ط٦: دار الكتاب العربي، بيروت.

٧٤- الجاحظ، عمرو بن بحر، ١٩٦٥م، الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، ط: مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

٧٥- الجاحظ، عمرو بن بحر، ١٩٦٨م، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٣، مكتبةالخانجي، القاهرة.

٧٦- جاد المولى، محمد أحمد، ١٩٣٦م، الخلق الكامل، المطبعة العثمانية المصرية، القاهرة، ٤ أجزاء

٧٧- جبر، محمد سلامة، ١٩٨٩م، أشراط الساعة وأسرارها، ط٤، مطابع القبس التجارية، الكويت.

٧٨- الجبري، عبدالمتعال، ١٩٩٥م، الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، ط:مكتبة وهبة، القاهرة.

٧٩- جرار، حسني آدم، ١٩٩٢م، شعب فلسطين أمام التآمر البريطاني والكيد الصهيوني ١٩٢٠م-١٩٣٩م، ط: دار الفرقان، عمان.

٨٠- الجرجاني، علي بن محمد، ١٩٧٨م، كتاب التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط: دار الريان للتراث، مصر.

٨١- جريشة، علي والزيبق، محمد شريف، ١٩٧٨م، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ط: دار الاعتصام، القاهرة.

٨٢- جريشة، علي، ١٩٨٨م، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ط٢، دار الوفاء بالمنصورة.

٨٣- الجميلي، السيد الجميلي، ١٩٨٦، فتنة النساء، ط: دار البحار-بيروت.

٨٤- الجندي، أنور، ١٩٨٤م، العودة إلى المنابع، ط: دار الاعتصام، القاهرة.

٨٥- الجندي، أنور، ١٩٨٧م، الإسلام في مواجهة الفلسفات القديمة، ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٨٦- الحاكم، أبوعبدالله النيسابوري، ١٩٨٦، المستدرك على الصحيحين بذيله التلخيص للحافظ الذهبي، إشراف يوسف عبدالرحمن، ط: دار المعرفة، بيروت، في٤ مجلدات.

٨٧- الحجي، عبدالرحمن علي، ١٩٧٩م، نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، ط٣، دارالقلم، بيروت.

٨٨- حرب، محمد، ١٩٩٣م، البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة، ط: المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة.

٨٩- حرب، محمد، ١٩٩٥م، الإسلام في آسيا الوسطى، ط٢، دار البشائر، بيروت.

٩٠- حسن، حسن إبراهيم، ١٩٦٤م، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، في ٣ أجزاء.

٩١- حسن، خالد بن رمضان، ١٩٩١م، عظم الجزاء في الصبر على البلاء، ط: مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٩٢- الحسن، يوسف، ١٩٩٠، البعد الديني في السياسة الأمريكية، ط: مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت.

٩٣- حسنين، عبدالمنعم، ١٩٨٦م، الإنسان والمال في الإسلام، ط: دار الوفاء، المنصورة.

٩٤- حسون، علي حسون، ١٩٩٤م، تاريخ الدولة العثمانية، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت.

٩٥- حسين، محمد خضر، ١٩٧٢م، رسائل الإصلاح، ط: دار الإصلاح الدمام، السعودية، في جزأين.

٩٦- حماد، نزيه، ١٩٩٤م، نظرية الولاية في الشريعة الإسلامية، ط: دار القلم، دمشق.

٩٧- حمدان، غسان، ١٩٨٩م، الانتفاضة المباركة وقائع وأبعاد، ط: مكتبة الفلاح، الكويت.

٩٨- الحموي. ياقوت. شهاب الدين بن عبد الله ١٩٨٠م.معجم الأدباء. دار الفكر، بيروت، ٢٠ مجلدا.

٩٩- الحموي. ياقوت.شهاب الدين بن عبد الله ١٩٨١م.معجم البلدان. دار صادر، بيروت.

١٠٠- الحنبلي، ابن رجب، ١٩٩١م، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، ط٢: مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠١- حومد، سعد، ١٩٨٨م، محنة العرب في الأندلس، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

١٠٢- الخالدي، محمود عبد المجيد، ١٩٨٠، قواعد نظام الحكم، ط: دار البحوث العلمية-الكويت.

١٠٣- الخالدي، محمود عبدالمجيد، ١٩٨٤م، الشورى، ط: دار الجيل، بيروت.

١٠٤- خان، ظفر الإسلام ، ١٩٨٦، تاريخ فلسطين القديم منذ أول غزو يهودي إلى آخر غزو صليبي (١٢٢٠ ق.م-١٢٣٥٠ م). ط٥، دار النفائس-بيروت.

١٠٥- خطاب، محمود شيت، ١٩٩٠م، الشورى العسكرية النبوية، ط: مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد.

١٠٦- الخطيب، عبدالكريم، ١٩٧٦م، السياسية المالية في الإسلام وصلتها بالمعاملات المعاصرة، ط٢ن دار الفكر العربي، القاهرة.

١٠٧- الخطيب، عبدالمنعم إبراهيم، ١٩٨٥م، نظام الشورى في الإسلام والنظم الديمقراطية المعاصرة، ط: مطبعة السعادة، القاهرة.

١٠٨- خلاف، عبدالوهاب، ١٩٩٣م، السياسة الشرعية، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠٩- خليل، عماد الدين ، ١٩٩١م، التفسير الإسلامي للتاريخ، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت.
١١٠- الخنساء،١٩٦٠م. ديوان الخنساء. دار صادر، بيروت.
١١١- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن،١٩٩٢، سنن الدارمي، ط: دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة، الكتب الستة وشروحها، استنبول-تركيا. في جزأين
١١٢- الدامغاني، حسن، ١٩٨٥، قاموس القرآن (إصلاح الوجوه والنظائر)، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت.
١١٣- الداني، أبوعمرو عثمان بن سعيد المقرئ، ١٩٩٥م، السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها،تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري ،ط: دار العاصمة، الرياض، م٣ في ٦ أجزاء.
١١٤- الدهلوي ،أحمد بن عبد الرحيم ،١٩٦٤ ،حجة الله البالغة ،تحقيق :سيد سابق ، ط دار الكتب الحديثة ،القاهرة .
١١٥- الدهلوي، ولي الله،(د.ت) حجة الله البالغة، ط: دار التراث، القاهرة.
١١٦- الدوري، قحطان عبد الرحمن، ١٩٧٤، الشورى النظرية والتطبيق، ط: مطبعة الأمة، بغداد.
١١٧- الدينوري، أبوبكر مروان بن مالك، ١٩٩٧، كتاب المجالسة وجواهر العلم، تحقيق: عدنان عبدالرحمن القيسي، ط: مؤسسة الريان، بيروت.
١١٨- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨)، ١٩٨٤، سير أعلام النبلاء، ط٢، مؤسسة الرسالة،بيروت.
١١٩- الرازي، التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، ١٩٩٠، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، في ١٦جزءا.
١٢٠- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، ط: دار المعرفة، بيروت-لبنان.
١٢١- رجب، إبراهيم، ١٩٩٦، التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، ط: دار عالم الكتب، الرياض.
١٢٢- رضا، محمد رشيد، (د.ت)، تفسير المنار، ط٢، دار المعرفة، بيروت، في ١٢ جزءا.

١٢٣- الزاوي، طاهر، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح، ط١١، دار الفكر، بيروت، في ٤أجزاء.
١٢٤- الزبيدي، محمد بن محمد الحسيني، (د. ت)، إتحاف السادة المتقين ، ط: دار الفكر، بيروت،١٠أجزاء.
١٢٥- الزبيدي، محمد مرتضى، ١٣٠٦ه، تاج العروس،ط الخيرية، مصر،١٠أجزاء.
١٢٦- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، ١٩٨٥، أساس البلاغة، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، في جزأين.
١٢٧- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، ١٩٨٧، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، تحقيق : مصطفى حسين أحمد، ط٢، دار الريان، القاهرة، ٤أجزاء.
١٢٨- زيدان، عبد الكريم، ١٩٩٢، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٢٩- زيدان، عبد الكريم، ١٩٩٢، المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٣٠- ستودوارد، لوثروب، ١٩٧١، حاضرالعالم الإسلامي، ترجمة : عجاج نويهض تقديم : الأمير شكيب أرسلان، ط٣، دار الفكر، بيروت،٤ أجزاء.
١٣١- السجستاني، محمد بن عبد العزيز، ١٩٩١، نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، تحقيق : يوسف عبد الرحمن المرعشلي، ط: دار المعرفة-بيروت.
١٣٢- السحيباني، عبد الحميد عبد الرحمن، ١٩٩٦، الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن، ط : دار القاسم-الرياض.
١٣٣- السخاوي، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن ،(د.ت) القناعة فيما يستحسن الاحاطة به من أشراط الساعة، تحقيق : مجدي السيد إبراهيم ، ط: مكتبة القرآن-القاهرة.
١٣٤- سرور، طه عبد الباقي،١٩٧٧م دولة القرآن، ط: دار الفكر العربي-القاهرة.
١٣٥- سعيد أيوب، ١٩٨٩، المسيح الدجال، قراءة سياسية في أصول الديانات الكبرى، ط: دار الاعتصام-القاهرة.
١٣٦- سعيد، صبحي عبده ، ١٩٨٥، الحاكم وأصول الحكم في نظام الإسلام، ط:دار الفكر العربي-القاهرة.

١٣٧- السفاريني، من علامات الساعة الكبرى المسيخ الدجال وأسرار الساعة، ط: مكتبة التراث الإسلامي-القاهرة.
١٣٨- سميع، صالح حسن، ١٩٨٨، أزمة الحرية السياسية، ط: الزهراء للإعلام العربي -القاهرة.
١٣٩- سيد، سابق، (د.ت) إسلامنا، ط: دار الكتاب العربي-بيروت.
١٤٠- سيد، سابق، ١٩٩٢، فقه السنة، ط١٥، ا لفتح للإعلام العربي، القاهرة، ٣مجلدات.
١٤١- السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن ، ١٩٩٣م. الدر المنثور في التفسيربالمأثور. ط: دار الفكر، بيروت.
١٤٢- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، ١٩٦٦، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف، ط٢، دار الكتب الحديثة-القاهرة.
١٤٣- الشاذلي، محمود ثابت، ١٩٨٩، المسألة الشرقية : دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ١٢٩٩-١٩٢٣ م . مكتبة وهبة-القاهرة.
١٤٤- الشاطبي، أبو الحق إبراهيم بن موسى اللخمي، الاعتصام، تعريف : السيد رشيد رضا، ١٩٨٢، ط: دار المعرفة، بيروت، في جزأين.
١٤٥- الشافعي. محمد بن إدريس،١٩٩٣م، الأم،ط دار الكتب العلمية،٩أجزاء، بيروت.
١٤٦- شاكر، محمود، ١٩٨٨، التاريخ الإسلامي، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، ٢٢جزءا
١٤٧- الشاوي، توفيق، ١٩٩٢، فقه الشورى والاستشارة، ط٢، دار الوفاء،المنصورة.
١٤٨- الشريف، عبد السلام ين نصر، ١٩٩٤، سنة الله في عقاب الأمم، ط: دار المعراج الدولية-الرياض.
١٤٩- شعوط، إبراهيم، ١٩٨٣م، أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، المكتب الإسلامي، بيروت.
١٥٠- الشلبي، مصطفى أبو النصر، ١٩٩٤، صحيح أشراط الساعة، ط: مكتبة السوادي للتوزيع-جدة.
١٥١- شمتز، باول، ١٩٧٤، الإسلام قوة الغد العالمية، ترجمة : د. محمد شامة، ط: مكتبة وهبة-القاهرة.

١٥٢- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، ١٩٦٨، الملل والنحل، تحقيق : عبد العزيز الوكيل، ط: مؤسسة الحلبي-القاهرة.

١٥٣- الشيباني، محمد بن إبراهيم، ١٩٧٨، من أشراط الساعة الكبرى، مكتبة ابن تيمية -الكويت.

١٥٤- الصابوني، محمد علي، (د. ت)،النبوة والأنبياء، ط٤، دار القلم-دمشق.

١٥٥- الصابوني، محمد علي، ١٩٨٦، مختصر تفسير ابن كثير، ط٥، دار القلم، بيروت، ٣ مجلدات.

١٥٦- صالح ،محسن محمد ، ١٩٨٩، التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد، ط٣، مكتبة الفلاح-الكويت.

١٥٧- صالح، محسن محمد، ١٩٩٥، الطريق إلى القدس، ط: منشورات فلسطين المسلمة، لندن.

١٥٨- صالح، وهاب محمد، ١٩٧٩م، موقف أهل الكتاب من الرسول والقرآن الكريم في القرن الأول الهجري، رسالة ماجستير، ط: على الآلة الكاتبة، جامعة الأزهر كلية أصول الدين، القاهرة.

١٥٩- الصاوي، صلاح، (د.ت)، المخرج من الفتنة في مسيرة الجماعات الإسلامية، ط: صنعاء الحديثة-اليمن.

١٦٠- الطبراني، سليمان بن أحمد، (د.ت)، المعجم الكبير، تحقيق حمدي السلفي، ط: وزارة الأوقاف العراقية، بغداد، ٢٤ جزءا.

١٦١- الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق محمود الطحان، ط: مكتبة المعارف، الرياض.

١٦٢- الطبرسي ،الفضل بن حسن ،١٩٨٦ ،مجمع البيان في تفسير القرآن ،ط ،دار المعرفة، بيروت .

١٦٣- الطبري، محمد بن جرير، (د.ت)، تاريخ الطبري، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف-مصر.

١٦٤- الطبري، محمد بن جرير، (د.ت)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،

ط: دار الفكر-بيروت.

١٦٥- طعيمة، صابر، ١٩٦٨، إرادة التغيير في الإسلام، ط: الاستقلال الكبرى-القاهرة.

١٦٦- طعيمة، صابر، ١٩٨٨، محنة الأقليات الإسلامية والواجب نحوها، ط: دار الجيل -بيروت.

١٦٧- طهماز، عبد الحميد، ١٩٨٧، العواصم من الفتن في سورة الكهف، ط: دار المنارة -بيروت.

١٦٨- طهماز، عبد الحميد، ١٩٩٢، أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف، ط: دار القلم-دمشق.

١٦٩- الطويل، نبيل الطويل، ١٤٠٤هـ، الحرمان والتخلف في ديار المسلمين، ط٢، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر.

١٧٠- الطويل، نبيل الطويل، ١٩٩٤، بؤس المسلمين المتنامي في عالم الجنوب، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٧١- عاشور، سعيد عبد الفتاح، ١٩٨٦، الحركة الصليبية، ط: مكتبة الأنجلو المصرية -القاهرة.

١٧٢- عبد الحميد، السلطان، ١٩٩١، مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة محمد حرب، ط٣، دار القلم-دمشق.

١٧٣- عبد الحميد، محسن، ١٩٨٩، الإسلام والتنمية الاجتماعية، ط: دار المنارة-جدة.

١٧٤- عبد السلام، هارون، ١٩٦٤، تهذيب سيرة ابن هشام، ط٢، المدني-القاهرة.

١٧٥- عبد الله، بشير محمد،(د.ت) ١٩٩٤، زلزال الأرض العظيم في القرآن الكريم والسنة والإنجيل والعهد القديم، (د.م).

١٧٦- عرفان عبد الحميد، ١٩٨٤، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، ط: مؤسسة الرسالة-بيروت.

١٧٧- العز بن عبد السلام، (د.ت)، الفتن والبلايا والمحن والرزايا أو فوائد البلوى، تحقيق: إياد خالد الطباع، ط٢، دار الفكر المعاصر-بيروت.

١٧٨- عساف، أحمد محمد،١٩٨٨، الحلال والحرام في الإسلام، ط٧، دار إحياء العلوم

-بيروت.
١٧٩- العسلي، بسام، ١٩٩٣، المسلمون في البوسنة والهرسك، ط: دار البيارق-بيروت.
١٨٠- عطية، عزت علي، ١٩٨٠، البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها، ط٢، دار الكتاب العربي-بيروت.
١٨١- عفيفي، محمد صادق، ١٩٧٨، المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان، ط: رابطة العالم الإسلامي-مكة المكرمة.
١٨٢- العلواني، طه جابر، ١٩٩١، أدب الاختلاف في الإسلام ، ط٤، الدار العلمية للكتاب الإسلامي-الرياض.
١٨٣- العلي، عبد المنعم صالح، (د.ت)، تهذيب مدارج السالكين، ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية-القاهرة.
١٨٤- العمري، أكرم ضياء، ١٩٩٣، السيرة النبوية الصحيحة، ط٥، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، في جزأين.
١٨٥- العوايشة، حسين، ١٩٩٦، حصائد الألسن، ط: دار الهجرة للنشر والتوزيع -الرياض.
١٨٦- العودة، سلمان بن فهد، ١٩٨٩، الغرباء الأولون، ط: دار ابن الجوزي للنشر -الدمام، السعودية.
١٨٧- العودة، سلمان بن فهد، ١٩٩٢، من وسائل دفع الغربة، ط: دار ابن الجوزي للنشر -الدمام، السعودية.
١٨٨- عودة، عبدالملك وآخرون، ١٩٩٠م، الثقافة الإسلامية، ط٤: جامعة صنعاء، اليمن.
١٨٩- الغرناطي، أبو يحيى محمد بن عاصم، ١٩٨٩، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق : صلاح جرار، ط: دار البشير ، عمان في ٣ أجزاء.
١٩٠- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد ،١٩٨٠ ،تهافت الفلاسفة ،ط دار المعرفة ، مصر.
١٩١- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، ١٩٩٢، إحياء علوم الدين بتحقيق: سيد إبراهيم، ط: دار الحديث-القاهرة،٤أجزاء.
١٩٢- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، ١٩٩٣م، فضائح الباطنية، ط: دار البشير، عمان.

١٩٣- الغزالي، محمد، ١٩٨٧، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ط٧، دار الصحوة للنشر -القاهرة.

١٩٤- الغزالي، محمد، ١٩٩٠، أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية، ط: دار الشرق الأوسط للنشر-القاهرة.

١٩٥- الغزالي، محمد، ١٩٩٢، الحق المر، ط٣، دار الشروق-القاهرة.

١٩٦- الغزالي، محمد، ١٩٩٢، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ط٣، دار الوفاء -المنصورة.

١٩٧- غضبان، منير محمد، ١٩٨٢، المسيرة الإسلامية للتاريخ، ط٢، دار الفرقان-عمان.

١٩٨- غضبان، منير محمد، ١٩٩٢، فقه السيرة النبوية، ط: مطابع جامعة أم القرى -مكة المكرمة.

١٩٩- الغنوشي، راشد، ١٩٩٣، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ط: مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت.

٢٠٠- فاعور، علي، ١٩٨٧، ديوان الفرزدق، ط: دار الكتاب العلمية، بيروت.

٢٠١- فرج، السيد أحمد، ١٩٨٥، المؤامرة على المرأة المسلمة: تاريخ ووثائق، ط: دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة.

٢٠٢- فروخ، عمر، ١٩٧٢م، تاريخ الفكر العربي، ط: دار العلم للملايين، بيروت.

٢٠٣- فضل الله، مهدي، ١٩٨٤، الشورى وطبيعة الحاكمية في الإسلام، ط: دار الأندلس -بيروت.

٢٠٤- الفيومي ،أحمد بن محمد ،١٩٨٧،المصباح المنير ،ط،مكتبة لبنان ،بيروت .

٢٠٥- القادري، عبد الله أحمد، ١٩٨٦، الشورى، ط: دار المجتمع للنشر-جدة.

٢٠٦- القاسمي، محمد جمال الدين، ١٣٧٦هـ، محاسن التأويل، ط: عيسى البابي الحلبي.

٢٠٧- القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى، ١٩٦٧، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق : أحمد بكير محمود، ط: دار مكتبة الحياة-بيروت، ٤ أجزاء.

٢٠٨- القحطاني، محمد بن سعيد، ١٤٠٩هـ، الولاء والبراء في الإسلام، ط٣، دار الصفوة، السعودية.

٢٠٩- القرضاوي، يوسف، ١٩٨٥، الصبر في القرآن الكريم، ط٤، مؤسسة الرسالة-بيروت.

٢١٠- القرضاوي، يوسف، ١٩٨٥، الصحوة الإسلامية، ط٤، مؤسسة الرسالة-بيروت.

٢١١- القرضاوي، يوسف، ١٩٨٦، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ط٥، مكتبة وهبة-القاهرة.

٢١٢- القرضاوي، يوسف، ١٩٩٥، في فقه الأولويات، ط: مكتبة وهبة-القاهرة.

٢١٣- القرطبي. أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري ١٩٩٥م.الجامع لأحكام القرآن.مراجعة: صدقي محمد جميل و خرج حديثه وعلق عليه الشيخ عرفات العشا.لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ١٠ مجلدات ٢٠ جزءاً

٢١٤- القرطبي. أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري. ١٩٨٦م. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة.تحقيق: د. أحمد حجازي السقا. طبعة بيروت: دار الجيل.

٢١٥- قطب، سيد، ١٩٩٢، في ظلال القرآن، ط١٧، دار الشروق-القاهرة.

٢١٦- قطب، سيد،١٩٩٣ ، العدالة الاجتماعية في الإسلام،ط دار الشروق ،القاهرة

٢١٧- قطب، محمد علي،١٩٨٥، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، ط: مكتبة القرآن-القاهرة.

٢١٨- قطب، محمد، ١٩٨٦، واقعنا المعاصر، ط٣، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة -السعودية.

٢١٩- قطب، محمد، ١٩٩١م، رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ط: مكتبة السنة، القاهرة.

٢٢٠- القنوجي، السيد محمد صديق حسن.١٩٨٤م. الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة. دار الايمان: بيروت

٢٢١- الكبيسي، محمد عياش، ١٩٩٥م، العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم ومناهج المتكلمين، ط: الحسام، بغداد.

٢٢٢- الكيالي، عبد الوهاب، ١٩٩٠، تاريخ فلسطين الحديث، ط١٠، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت.

٢٢٣- الكيلاني، ماجد عرسان، ١٩٩٥، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ط: الدار العالمية للكتاب الإسلامي-الرياض.

٢٢٤- اللحام، سعد، ١٩٩٢، علامات الساعة، ط: دار الفكر اللبناني-بيروت.

٢٢٥- مالك بن أنس، ١٩٩٢،الموطأ،ط: دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة، الكتب الستة وشروحها، استانبول-تركيا، مجلد في جزأين.

٢٢٦- المباركفوري، محمد بن عبدالرحمن، ١٩٦٣م، تحفة الأحوذي شرح صحيح الترمذي، تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان، ط٢، المعرفة، القاهرة.

٢٢٧- المبرد. أبوالعباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ) ١٩٧٦م. التعازي والمراثي. تحقيق: محمد الديباجي:مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.

٢٢٨- مبروك، ليلى، ١٩٨٦، علامات الساعة الصغرى والكبرى، القاهرة.

٢٢٩- مجمع اللغة العربية (د.ت)، المعجم الوسيط، إشراف إبراهيم أنيس وآخرون، ط: المكتبة الإسلامية، استانبول-تركيا، في جزأين.

٢٣٠- محفوظ، علي، ١٩٧٨، الإبداع في مضار الابتداع، ط: دار الاعتصام-مصر.

٢٣١- محمد عبد الجبار، ١٩٨٧، المجتمع بحوث في المذهب الاجتماعي القرآني، ط٢، دار الأضواء-بيروت.

٢٣٢- محمد علي، محمود عطية، ١٩٩٧، فقد جاء أشراطها، ط٢، رمادي للنشر-السعودية.

٢٣٣- محمد، سيد محمد، ١٩٨٢، المسؤولية الإسلامية في الإسلام، ط: الخانجي-القاهرة.

٢٣٤- محمد، سيد محمد، ١٩٨٣م، المسئولية الإعلامية في الإسلام، ط: مكتبة الخنجي، القاهرة.

٢٣٥- محمود، علي عبد الحليم ، ١٩٩٤، التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطريقة التغلب عليه،ط: دار الوفاء-المنصورة.

٢٣٦- محمود، علي عبد الحليم، فقه المسؤولية في الإسلام، ١٩٩٥، ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية-القاهرة.

٢٣٧- مخيمر، فؤاد علي، (د.ت)، الفتنة المعاصرة، ط: المؤسسة العربية الحديثة،القاهرة.

٢٣٨- مدكور، إبراهيم، ١٩٨٣، في الفلسفة الإسلامية منهجه وتطبيقه، ط: المكتب المهدي للطباعة والنشر سميركو-القاهرة.

٢٣٩- مرزوق ،عبد الصبـور ،١٩٨٥،الغـزو الفكـري أهدافـه ووسـائله ،ط رابطـة العـالم الاسلامي ،مكة .

٢٤٠- مسلم بن الحجاج القشـيري النيسـابوري (ت ٢٦١ هـ)، ١٩٩١، صحيـح مسـلم، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي، دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة، الكتب الستة وشروحها، استانبول-تركيا،٤أجزاء.

٢٤١- المصـري، محمـد جميـل، ١٩٩٦، حـاضر العـالم الإسـلامي، ط٣، دار أم القـرى -عمان الأردن.

٢٤٢- المطعني، عبد العظيم، ١٩٩٢، أوربا في مواجهة الإسلامي ط: مكتبة وهبة-القاهرة.

٢٤٣- المطعنـي، عبـد العظيـم، ١٩٩٦، المسـيحيون والمسـلمون في تلمـود اليهـود غرائـب وعجائب، ط: مكتبة وهبة-القاهرة.

٢٤٤- المقريزي، تقي الدين أحمد بـن علـي، ١٩٨١، إمتـاع الأسـماع، تحقيـق : محمـد عبـد الحميد النميسي، ط: دار الثقافة العربية-القاهرة.

٢٤٥- المناوي، عبد الوؤوف، تاج العارفين، (د.ت)، فيض القدير شرح الجـامع الصغـير، ط٢، دار الفكر، (د.م) في ٦ أجزاء.

٢٤٦- الميداني، عبد الرحمن حبنكة، ١٩٨٨، بصائر المسلم المعاصر، ط٢، درا القلم-دمشق.

٢٤٧- ميرغني، عبد الله ، ١٩٨٢، الابتـلاء وأثـره في حيـاة المؤمنـين كمـا جـاء في القـرآن الكريم، رسالة ماجستير كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود-الرياض.

٢٤٨- النجار، عبدالمجيد ١٩٩٢م، مبـاحث في منهجيـة الفكـر الإسـلامي، ط: دار الغـرب الإسلامي، بيروت.

٢٤٩- النحوي، عدنان علي رضـا، ١٩٨٨، الشورى وممارستها الإيمانية، ط٣، دار النحـوي للنشر والتوزيع-الرياض.

٢٥٠- النحوي، عدنان علي رضـا، ١٩٩٢، الصحوة الإسلامية إلى أين؟ ط٢، دار النحـوي للنشر والتوزيع-الرياض.

٢٥١- الندوة العالمية للشباب الإسـلامي، ١٩٧٢، الموسـوعة الميسـرة في الأديـان والمذاهـب المعاصرة، ط: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض.

٢٥٢- الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٩٧٦م، الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية، النظرية والتطبيق، ط: الندوة العالمية، الرياض.
٢٥٣- الندوي، أبو الحسن، ١٩٧٧، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط٧، دار عمر بن الخطاب-الإسكندرية. وط دار القلم، الكويت، ١٩٧٧.
٢٥٤- الندوي، أبو الحسن، ١٩٨٤م، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم، ط: دار القلم، -دمشق.
٢٥٥- النسائي، أحمد بن شعيب بن علي، (د.ت) سنن النسائي ، ط: دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة، الكتب الستة وشروحها، استانبول-تركيا،مجلدان في ٨أجزاء.
٢٥٦- نعمان، فكري أحمد، ١٩٨٥، النظرية الاقتصادية في الإسلام، ط: المكتب الإسلامي -بيروت.
٢٥٧- نعيم بن حماد، ١٩٩٣، الفتن، تحقيق دكتور سهيل زكار، ط دار الفكر، بيروت.
٢٥٨- النمر، عبد المنعم، ١٩٠٩، تاريخ الإسلام في الهند،ط: دار العهد الجديد-القاهرة.
٢٥٩- النمر، عبدالمنعم، (د.ت)، الشيعة الدروز المهدية، تاريخ ووثائق، ط: دار الحرية، القاهرة.
٢٦٠- النورسي ، بديع الزمان سعيد،١٩٩٢،الشعاعات ،ترجمة :إحسان قاسم الصالحي ط: شركة النسل ،دار سوزلر،استانبول.
٢٦١- النووي، أبو زكرياء يحيى بن شرف، ١٩٨١، صحيح مسلم بشرح النووي، ط: دار الفكر-بيروت.
٢٦٢- النووي، أبو زكرياء يحيى بن شرف، ١٩٨٦، الأذكار، ط: الهلال-بيروت.
٢٦٣- الهذلول، صالح بن عبد الله، ١٩٩٦، الأصولية الإنجيلية نشأتها وغايتها وطرق مقاومتها، دار المسلم للنشر والتوزيع-الرياض.
٢٦٤- هوفمان، مراد، الإسلام كبديل، ١٩٩٣، ترجمة د. غريب محمد غريب، ط: مؤسسة العلم الحديث-بيروت.
٢٦٥- الهيئة الفلسطينية، ١٩٩٠م، الموسوعة الفلسطينية، ط: هيئة الموسوعة الفلسطينية، بيروت، ٦ مجلدات.

٢٦٦- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، ١٩٨٢، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، في ٥ مجلدات.

٢٦٧- الوابل، يوسف ين عبد الله بن يوسف، ١٩٩٥، أشراط الساعة، ط٦، دار ابن الجوزي-السعودية.

٢٦٨- الواعي، توفيق، ١٩٩٥م. اليهود تاريخ وإفساد وانحلال ودمار، ط: دار ابن حزم -بيروت.

٢٦٩- يكن، فتحي، ١٩٨١، العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري، ط٦، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الدوريات (المجلات):

-الأسرة: الرياض	العدد ٤٢	شباط	١٩٩٧م.
-إسلامية المعرفة: ماليزيا	العدد ٤	إبريل	١٩٩٦م.
	٨	إبريل	١٩٩٧م.
الحكمة: بريطانيا-ليدز	العدد ١	اكتوبر	١٩٩٣م.
	٢	فبراير	١٩٩٤م.
	٣	يونيو	١٩٩٤م.
	٤	اكتوبر	١٩٩٤م.
-الخيرية: الكويت	العدد ٦٤	ربيع الأول	١٤١٦هـ.
	٦٩	شعبان	١٤١٦هـ.
	٧١	شوال	١٤١٦هـ.
-الدعوة: مصر	العدد ٦٩	يناير	١٩٩٨م.
-قضايا دولية: باكستان	العدد ٢٩٥		٢٨/٨/١٩٩٥م.
-المجتمع: الكويت	العدد ١١٩٥		١٥/٤/١٩٩٦م.
	١١٩٨		٦ /٥/١٩٩٦م.
	١١٩٩		١٤/٥/١٩٩٦م.
	١٢٠١		٢٨/٥/١٩٩٦م.
	١٢٠٣		١١/٦/١٩٩٦م.
	١٢٠٥		١/٧/١٩٩٦م.
	١٢٠٧		١٥/٧/١٩٩٦م.

١٢٣٢ ٣١/ ١٢/ ١٩٩٦م.

١٢٣٣ ٧/ ١/ ١٩٩٧م.

١٢٤١ ١١/ ٣/ ١٩٩٧م.

١٢٥٣ ١٠/ ٦/ ١٩٩٧م.

١٢٧٣ ٢٨/ ١٠/ ١٩٩٧م.

١٢٨٠ ١٦/ ١٢/ ١٩٩٧م.

١٢٨١ ٢٣/ ١٢/ ١٩٩٧م.

١٢٨٣ ٦/ ١/ ١٩٩٧م.

١٢٩١ ١٦/ ٣/ م١٩٩٨م.

١٢٩٥ ١٧/ ٤/ ١٩٩٨م.

١٢٩ ٢١/ ٤/ ١٩٩٨م.

-المرايا: الإمارات العدد ٤٦ ديسمبر ١٩٩٥م.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة